

الناشــر

سينا للنشر

المدير المسئول

راوية عبد العظيم

١٨ شارع ضريح سعد ـ القصر العينى

ص . ب ٢٦٧٤ ـ القاهرة ـ ج . م . ع

تليفون : ٣٥٤٧١٧٨

حرب أكتوبر
العبور والثغرة

الطبعة الاولى
باللغة العربية
يناير ١٩٨٨

ترجمة كاملة لكتاب :

Edgar O'ballance

No victor, No Vanquis HEA

The Yom Kippur War

الغلاف للفنان : هبة عنايت

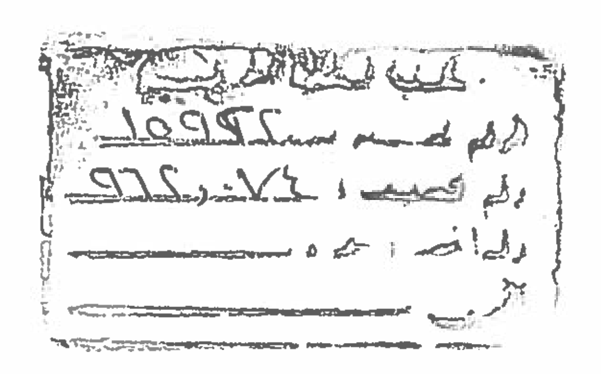
الإشراف الفنى : إيناس حسنى

المراجعة اللغوية : السيد عبد المعطى

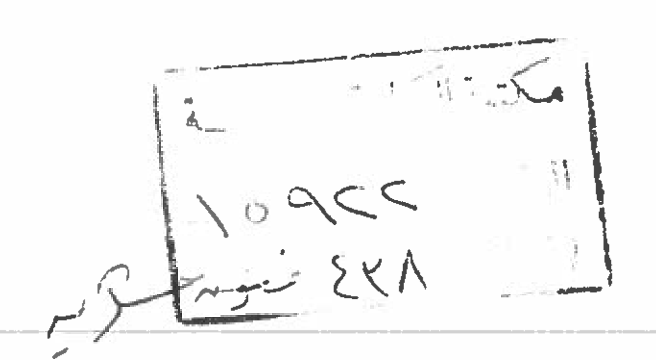
تم الصف التصويرى بمؤسسة روز اليوسف



سينا للنشر



حرب أكتوبر
العبور و الثغرة



تأليف : ادجار أوبلانس
تقديم : أمين هويدى
ترجمة : سامى الرزاز

مقدمــة

أمين هويدى

حينما دعتني « دار سينا للنشر » لكى أكتب مقدمة هذا الكتاب استهوتنى الفكرة لأسباب ثلاثة : فالدار الناشئة دار جادة تنتقى موضوعاتها بما يعود على القارىء بالفائدة الحقة وسط سيل من المطبوعات التى لاهم لها إلا الغزو الثقافى ، وتزييف التاريخ ، وتسطيح الفكر لإشغاله بتوافه الأمور .. والمترجم ترجم كتاباً عالج موضوعا تفتقر المكتبة العربية إلى أبحاث تتصدى له بطريقة علمية . فأن يقدم الرجل على سد هذه الفجوة الخطيرة عن طريق ترجمة كتاب أجنبى ، لهو جهد مشكور يستحق التشجيع ، بل وحث غيره من الشباب على اقتحام هذا المجال . وهو نفس ما فعله رفاعة الطهطاوى حينما عاد من بعثته إلى باريس ليغطى قصور البحث والتأليف بتشجيع ترجمة أمهات الكتب والمطبوعات لفتح بعض النوافذ أمام العقل المصرى ليقف على بعض الحقائق الغائبة .. والسبب الثالث والأخير هو اهتمامى الشخصى بموضوع حرب أكتوبر الذى ربما يكون أحد أعمالى التى أود الانتهاء منها فى فترة قريبة قادمة ، هذا الاهتمام دفعنى إلى زيارة مكتبة الكونجرس أثناء وجودى فى واشنطن مؤخرا لحضور أحد المؤتمرات بدعوة من « مركز وودرو ولسون » للوقوف على أحدث ما نشر عن هذه الحرب وقد عرفت عن طريق الكمبيوتر أنه صدر ١٧٣ كتابا تعالج الموضوع بأكثر من لغة ، ثم تمكنت من الحصول على تقارير ثمينة من مكتب الحسابات العام ـ G.A.O General Accounting Office فيها نص ما دار فى لجان الاستماع بالكونجرس عن هذه الحرب .

ولكن ماذا يمكن أن يكتبه شخص مثلى يصلح كمقدمة كتاب كتبه « إدجار أوبالانس ـ Edgar Oballance » وقام بترجمته الأستاذ « سامى الرزاز » تحت عنوان « No Victor, No Vanquished » أو « لا غالب ولا مغلوب » عن حرب « يوم كيبور ـ The Yom Kippur War » أوما أسماه المترجم « حرب أكتوبر ـ العبور والثغرة » ووجدتنى أمام مأزق حقيقى فقد راحت السكرة وجاءت الفكرة .. أو أصبحت المواجهة بين الرغبة والقدرة ، بين ما نريد وبين ما يمكن أن نعمله .. ولكن ما لبثت أن وضعت قدمى على أول الطريق حينما لاحظت أن المؤلف

عالج حرب أكتوبر منفصلة تماما عما حدث قبلها من أحداث جسام بعد وقوع هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ . وهذا نقص يقع فيه الكثيرون فلا يمكن التحدث عن حرب حددنا نحن مكانها وزمانها دون التحدث عن الاستعدادات الهائلة التى تمت على طول ست سنوات عصيبة قبلها فى مجالات مختلفة : استعداد الدولة للحرب ، تجهيز مسارح العمليات ، إعادة بناء القوات المسلحة ، التخطيط للحرب المقبلة ، العمل العربى ، ثم تطويع العلاقات بين القوتين الأعظم لصالح المعركة القادمة .. كل ذلك تم فى إطار شعار « ما أخذ بالقوة ، لا يسترد إلا بالقوة .. » وظننت أن فى مقدورى أن أضيف شيئا جديداً ، فقد شغلت بعد النكسة منصبين هامين فى وقت واحد فقد كنت وزيرا للحربية ورئيسا للمخابرات العامة لفترة شهور تفرغت بعدها لرئاسة المخابرات العامة ولوزارة الدولة لشئون مجلس الـوزراء حتى تركت الخـدمة بعـد وفاة عبد الناصر ولحين اعتقالى بواسطة أنور السادات فيما سمى بعد ذلك بقضية جماعة مايو ١٩٧١ والتى كانت نقطة تحول درامية فى تاريخ مصر .

وإذا كان الإسرائيليون يسمون هذه الحرب « بحرب يوم كيبور » أو « حرب عيد الغفران » فإن لهذه التسمية واختيارنا لهذا اليوم بالذات لبداية المعركة ، أصولا تاريخية . فحينما كنت رئيسا للمخابرات العامة بعد النكسة وحتى عام ١٩٧٠ كلفت جماعات عمل متعددة لوضع تقارير دقيقة عن كافة نواحى النشاط داخل إسرائيل : القوة البشرية ، الأغراض والأهداف الاستراتيجية ، طرق المواصلات وعقدها ، الصناعات ومصادر القوى الكهربائية ، المعسكرات ، القوات العسكرية والتوازن العسكرى ، النشاط النووى ، وأخيرا الأعياد اليهودية. **وبخصوص الدراسة الأخيرة كان التوجيه المعطى لجماعة العمل المنتقاة أن يكون الهدف من الدراسة عرض توقيتات مناسبة من خلال التعريف بالأعياد اليهودية يمكن استغلالها عسكريا سواء بالنسبة للعمل الفدائى أو للقوات المسلحة تساعد على اختيار انسب التوقيتات لتوجيه ضربات مؤثرة مستغلة حالة الركود المحتملة فى مثل هذه المناسبات للتأثـير المعنوى داخـل المجتمع الإسرائيلى ، والتأثير المادى بضرب التجمعـات والأهداف الإسرائيليـة ، ولتحقيق المفاجأة حينما تم الاستعداد لتحديد (يوم ى) أى يوم بداية الحرب لاسترداد كل شبر من أرضنا .**

ومثل هذه الدراسات تتسم بالتعقيد والتفصيل لأنها ليست دراسات أكاديمية بالمعنى المفهوم ولكنها دراسات أعدت لمساعدة « صاحب القرار » فى أعلى قمة القيادة لاتخاذ قراره .. وبذلك فهى دراسات مسئولة يتم تـدقيق تفاصيلهـا وحساباتها إلى أقصى حدود الدقة .. فالدراسة المقدمة عن « الأعياد اليهودية » فى أواخر عام ١٩٦٩ وضعت فى اعتبارها عدة عوامل فعلى سبيل المثال :

- يبدأ اليوم العبرى من غروب الشمس وبالتحديد الساعة السادسة مساء حسب توقيت القدس .
- يعتبر يوم السبت من كل أسبوع عطلة لا تمارس الأعمال فيه فهو اليوم الذى استراح فيه الرب بعد أن خلق العالم فى ستة أيام .
- والشهر اليهودى شهر قمرى عدد أيامه ٢٩ أو ٣٠ يوماً ومن ثم فإنه لا يتطابق مع التقويم الشمسى ولذلك قام علماء اليهود بوضع التقويم العبرى على أساس أن السنة العبرية إما بسيطة (١٢ شهرا) أوكبيسة (١٣ شهراً) حتى يغطى الفرق بين السنة الشمسية (٣٦٥ يوما) والسنة القمرية (٣٥٤ يوما)
- ولمعرفة السنة العبرية يضاف رقم ٣٧٦٠ إلى السنة الميلادية التى يجرى الحساب على أساسها .

ودون الدخول فى تفاصيل أخرى تم حصر الأعياد اليهودية فى ثمانية أعياد على مدار السنة هى : عيد الفصح ، الأسابيع ، المظلات ، رأس السنة العبرية ، يوم الغفران ، عيد الأضواء ، عيد اليوريم ، ثم أخيرا عيد لاج بعومار . ونظرا لاختلاف تاريخ الأعياد من عام لآخر وفقا للتقويم القائم تم إعطاء فكرة شاملة عن التقويم اليهودى وجدول يوضح توقيتات الأعياد اليهودية حتى عام ١٩٩٢ .

فمثلا حدد تقويم الأعياد اليهودية فى عام ١٩٧٣ ـ عام الحرب ـ كالآتى : عيد الفصح (١٧ أبريل) ، الأسابيع (٦ يونيو) ، رأس السنة العبرية (٢٧ أكتوبر) ، كيبور أو يوم الغفران أو يوم الكفارة (٦ أكتوبر) ، عيد المظال (١١ أكتوبر) ، يوريم (١٨ مارس) .

وكنا حريصين تماما على أن نعطى لصاحب القرار عادات الإسرائيليين فى كل من هذه الأعياد فمثلا إن من عاداتهم فى « عيد يوم كيبور » الذى يعتبرون أيامه بمثابة « أيام التوبة » وهو يوم عطلة أن يمتنع فيه كل فرد عن القيام بأى عمل ، وهو يوم حزن يمتنع فيه اليهود عن الاستحمام والغسيل والمسح بالزيت ولبس الأحذية الجلدية ، وبعد صلاة العصر يضع كل شخص بعض المال فى أحد صناديق الإحسان وفى نهاية الصلاة الصامتة يتمتم الشخص بالخطايا التى ارتكبها وتضاء الشموع إحياء لذكرى الموتى ثم يجتمع الرجال والنساء والأطفال لصلاة المغرب بعد أن يطلبوا الغفران من جيرانهم عن أخطاء ارتكبوها معهم . ويجب الصيام فى يوم « كيبور » ويشترك اليهود جماعة فى طعام الإفطار قبل الغروب بساعة وهو آخر وجبة من الطعام والشراب حتى ظهور النجم فى اليوم التالى والصيام حتمى إلا على المرضى ومن هم دون الثالثة عشرة من عمرهم . وكما فى رأس السنة تغمس كسرة خبز فى العسل ومن المعتاد عدم تقديم الأسماك أو الأطعمة الحريفة ثم تقدم « ضحية

الكفارة » وهى الديك للرجل ، والدجاجة للمرأة وتدار فوطة بيضاء على رأس الضحية ثلاث مرات مع ترديد « هذه الدجاجة فدية عنى » وعادة يفضل الدجاج الأبيض رمزاً للطهارة ثم تطبخ الدجاجة وتقدم فى وجبة الإفطار .

ومعذرة عن كل هذه التفاصيل ولكننا أردنا بسردها أن نظهر أن دراسات عديدة وجهودا جبارة كانت تبذل استعدادا ليوم « الأخذ بالثأر » و « استرداد الأرض » بدأت من بعد « الهزيمة » مباشرة فى إصرار وتصميم . كما أردنا أن نصحح الفكرة الخاطئة عن جهاز المخابرات العامة الذى لا يعرفه البعض إلا بما تناثر حوله من سلبيات مسقطين خدماته وتضحياته فى ميادين أخرى مع ملاحظة قيام أفراده بعملهم هذا فى صمت وسرية دون إعلان أو إعلام بل وفى نكران كامل للذات .

ولكننا لا نريد أن نقفز سريعا إلى أكتوبر ١٩٧٣ فالكتاب الذى نقدم لترجمته كفيل بذلك علاوة على أننا نكون قد تخطينا فترة طويلة عظيمة كانت تمهد ليوم العبور .. ولعل أول ما يستوقفنا فى هذه المرحلة هو الاستراتيجية التى أدار بها عبد الناصر الصراع بعد النكسة **فقد كان يعلم تمام العلم أن القدرة الذاتية ونموها سوف تكون مفتاح الموقف** فهناك استراتيجية كونية ترسمها القوتان الأعظم بنيت على أساس عدم التصادم المباشر بينهما تحت ما يسمى « بالتدمير المتبادل » نتيجة « للرعب النووى » مع السماح بالمواجهة غير المباشرة المحلية فى مناطق حساسة من العالم تتصادم فيها الإرادات الإقليمية تصادما مباشرا . ومن ثم تبرز إلى جانب الإرادات المحلية فى صدامها المباشر إرادتا القوتين الأعظم فى صدام غير مباشر .

والقوتان الأعظم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى لهما استراتيجيتهما الكونية والإقليمية خاصة فى منطقة الشرق الأوسط حيث يدور الصراع بين العرب وإسرائيل وهناك تناقض كامل فى المصالح بينهما يدعو إلى صراع لا يمكن أن يتخطى ما نسميه « بالخط الحرج » الذى لا يمكن تجاوزه وإلا حدث التصادم بينهما وهو الأمر المستحيل فى ظل الاستراتيجية النووية التى يعيش فى ظلها عالم اليوم ..كان عبد الناصر يعرف ذلك تماما ولكنه فى نفس الوقت كان يعرف أنه كلما تمكن من دفع القوتين أقرب ما يمكن إلى « الخط الحرج » هذا ، أى إثارة اهتمامهما وخوفهما من تأثر مصالحهما بطريقة حقيقية كلما ساعد ذلك على تحقيق أغراضه القومية . ولم يكن ذلك ممكنا إلا عن طريق ما يمكن أن نسميه « بخط الأمر الواقع » وهو الخط الذى كانت إسرائيل تريد فرضه على الضفة الشرقية للقناة ليصبح حدودها السياسية من ناحية الجنوب عن طريق الردع والاحتفاظ بتوازن القوى إلى جانبها الأمر الذى رفضه عبد الناصر فصمم على أن يجعل بقاءها جحيما

لا يمكنها البقاء فيه ، وباختصار فقد صمم عبد الناصر أن يجعل خط الأمر الواقع مقبرة للغزاة .

وإن كان الخط الحرج يتأثر بالمسافة التى تقترب منها القوتان الأعظم فإن خط الأمر الواقع يتأثر بدرجة حرارته فإن كان باردا مستقرا فإن جميع الأطراف سوف تتقبله . وإن ارتفعت درجة حرارته بالقتال المرير فالتهب الموقف فإن ذلك يدفع الأطراف المختلفة إلى التدخل وتبدأ قوانين القوة الذاتية المتنامية فى إحداث تأثيرها .

إذن يدور الحوار فى بحر هادر ملىء بالأمواج المتلاطمة . الخط الحرج هو أحد شاطئيه والأمر الواقع هو الشاطىء الآخر .. يتأثر الأول بمقدار مصلحة القوتين الأعظم ويتأثر الثانى بمقدار إصرار القوة المحلية وحرارة إيمانها سواء تلك التى تريد فرض الأمر الواقع ـ وهى إسرائيل ـ أو تلك التى ترفض الأمر الواقع وهى مصر . والربان الماهر هو الذى يقود سفينته وسط هذه العاصفة الهوجاء . وإلا اصطدمت سفينته بالخط الحرج أو انخلع قلبه خوفا من إشعال خط الأمر الواقع وهنا سيغرق مع سفينته فى قاع البحر ويصبح أكلا شهيا للحيتان .

إذن أصبح مفتاح الموقف كله فى الصمود وتنمية القوة الذاتية من جانب وفى توقيع أكبر خسارة ممكنة بالعدو وعدم استقراره من جانب آخر حتى تتصاعد قدرتنا بدرجة تسمح لنا بمطاردته حتى حدودنا السياسية .. وكان هذا يحتاج إلى جهد متواصل فى كل الميادين .

فإلى جانب الجهود التى كانت تبذل داخل القوات المسلحة كانت الأعمال الضخمة تجرى لإعداد الدولة للحرب فلم تتوقف خطط التنمية لحظة واحدة .. صحيح لم يعد فى استطاعتنا إعداد خطة خمسية كتلك التى تم تنفيذها قبل عام ١٩٦٧ ، وصحيح لم يعد فى استطاعتنا إعداد خطة ثلاثية قابلة للتنفيذ لعدم استقرار مواردنا من العملة الصعبة من جانب ، وللإنفاق المتزايد على المجهود الحربى من جانب آخر ، إلا أن الخط العام كان الاستمرار فى التنمية بحيث لم تكن الموارد التى تخصص لمشروعات التنمية لتقل بأى حال من الأحوال عن ٣٠٠ مليون جنيه بالعملة الصعبة سنويا بأسعار الستينيات وهو مبلغ معقول بالنسبة للظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

وشكلت لجنة وزارية لإعداد الدولة للحرب وكانت هذه اللجنة تجتمع بصفة دورية لتحديد الأعمال اللازمة ، ومتابعة تنفيذها ، وتوفير الاعتمادات اللازمة لها مع استمرار عرض نتائج أعمالها على مجلس الوزراء الذى كان يعطى لبحثها أسبقية على ما عداها من موضوعات .

ومن أهم الإجراءات التى تمت فى تلك الفترة فك المصانع الموجودة فى منطقة قناة السويس ونقلها إلى العمق للبدء فى تشغيلها . وقد ظلت تلك المصانع فى العمل والإنتاج تحت أصعب الظروف وتحت النيران المباشرة لمدفعية العدو وهاوناته وطيرانه إلى أن أصبح من المتعذر عليها مواصلة ذلك فنقلت معامل تكرير البترول ومصانع السماد والورق بمنطقة السويس والزيتية والأدبية ، والمصانع الموجودة بمنطقة الإسماعيلية ، ومعدات وورش هيئة قناة السويس فى بور سعيد إلى العمق وتم تشغيلها جميعا فى أماكنها الجديدة بنفس الطاقة الإنتاجية التى كانت عليها وهى فى أماكنها القديمة مما وفر ملايين الجنيهات على صورة معدات تم إنقاذها من التدمير المحقق وعلى صورة إنتاج للاستهلاك المحلى وللتصدير . ولا تقل هذه العملية بأية حال من الأحوال عن عملية نقل المصانع السوفييتية إلى جبال الأورال فى الحرب العالمية الثانية تحت ضغط الهجمات الألمانية الكثيفة .

وتم إنشاء خط المواصلات التليفونية المحورى بين القاهرة وأسوان بدلا من الخط الهوائى الذى كان مستخدما والذى كان معرضا للتلف مما كان يتسبب عنه انقطاع المواصلات بصفة مستمرة وامتد منه فرع إلى منطقة البحر الأحمر والمدن الرئيسية به ثم بدأ فى إنشاء طرق برية جديدة تربط وادى النيل ومنطقة العمليات فرصف طريق الصف ـ الزعفرانة على البحر الأحمر وطريق المنيا ـ رأس غارب وأعيد رصف طريق الأقصر ـ قفط ـ الغردقة مع إنشاء فرع إلى وادى قنا ثم مد الطريق نفسه إلى سفاجا ثم القصير كما تم إنشاء طرق كثيرة خلف وفى عمق جبهة قناة السويس سواء موازية أو عمودية عليها لتسهيل الإمدادات والتحركات .

كما مدت مئات الكيلومترات من مواسير المياه لتوفيرها فى الأماكن التى دعا الأمر إلى توفيرها فيها وأنشئت خزانات المياه والوقود فى مناطق متفرقة حسب الاحتياجات المدنية وحسب العمليات المستقبلة تحسبا للظروف وتطوراتها .

وشمل التخطيط الاستراتيجى لإعداد الدولة للحرب إنشاء موانى جديدة هى مرسى مطروح وأبو قير على البحر المتوسط ورأس بناس على البحر الأحمر كما أعد ميناء سفاجا ليكون الميناء التجارى الثانى على البحر الأحمر بعد ميناء السويس **ورست بعض القطع البحرية السوفييتية فى ميناءى الأسكندرية وبور سعيد مما أدى إلى بقائهما بمنأى عن الغارات الإسرائيلية عليهما وليس لاتخاذهما كقواعد بحرية للأساطيل السوفييتيه كما قيل . الأمر الذى جعل خطوط إمداداتنا مع الخارج مفتوحة ومستمرة .**

واستقر الرأي لمواجهة الظروف الطارئة تبعاً للتصعيد المتوقع فى العمليات الحربية على الاحتفاظ باحتياطى كبير من المخزون السلعى للمواد الاستراتيجية

كالوقود والدقيق والحبوب والخامات اللازمة لتشغيل المصانع عموماً ولصناعة الأدوية والصناعات الحربية على وجه الخصوص مع توزيعها فى أنحاء متفرقة من الجمهورية ، وبلغت قيمة هذا الاحتياطى الاستراتيجى عشرات الملايين من الجنيهات وبهذه المناسبة فقد استخدم هذا الاحتياطى الاستراتيجى فى السبعينيات دون الإعلان عنه لإظهار مدى زيادة الإنتاج بتقليل الاستيراد .

وجهزت المستشفيات لاستقبال الحالات المتنوعة ووفرت لها الأدوات الجراحية والأدوية كما تم توفير عربات نقل الدم وقطارات لنقل الجرحى وأنشئت غرف لإجراء العمليات الجراحية تحت الأرض فى منطقة القناة التى كان قد تم تهجير سكانها إلى داخل البلاد وتم استيعابهم فى مختلف القرى والمدن تبعا لخطة موضوعة رغما عن الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التى تحيط بعمليات التهجير عموما وقد قامت أجهزة الحكم المحلى بجهود خارقة لتنفيذ عمليات الإيواء فى الأماكن الجديدة وسط تعاون شعبى للترحيب بالمهجرين وبتقديم الأطعمة والملابس بسخاء .

أما داخل القوات المسلحة فقد كان هناك عمل دائب ومستمر لإعادة بنائها فبعد أن وضعتنا القيادة العسكرية - باستهتارها وجهلها وعدم التفرغ لأعمالها المقدسة - فى هذا الموقف الصعب بل المتناهى فى الصعوبة وجهت الوجهة السليمة فى مرحلة إعادة البناء . ولم يكن هذا بالسهل والممكن إذ أصر المشير عبد الحكيم عامر ومعه نفر من ضباط قيادته على رفع راية العصيان ضد الشرعية القائمة ، فرغما عن مسئوليته المباشرة فى العار الذى لحقنا فى سيناء هو وأفراد قيادته دون استثناء إلا أنه رفض أن يتنحى عن منصبه كقائد عام للقوات المسلحة خوفا من التحقيقات التى كانت ستتبع الهزيمة لتحديد المسئولية . ولم يكتف المشير - رحمه الله - بالرفض بل بدأ فى التآمر لفرض إرادته على القيادة السياسية بل قلب النظام إذا اقتضى الحال .

وإذا سئلت عن السبب الحقيقى لنكسة ١٩٦٧ لأجبت دون تردد أنه كان يرجع إلى عدم التوازن فى العلاقة بين القيادتين السياسية والعسكرية . هذه العلاقة معقدة وبالغة الأهمية خاصة فى البلاد النامية التى تحدث فيها عمليات نقل السلطة عادة باستخدام القوات المسلحة . إن خلل التوازن فى العلاقة بين القيادتين يتسبب عنه مخاطر كثيرة وتصبح القوات المسلحة عندئذ وَرَماً لابد من تحجيمه . وإيجاد التوازن أمر صعب فى ظل تعدد مؤسسات الدولة التى تتساوى فى أهميتها ومن الواجب أن تسير وتتحرك فى إطار واحد بخطوات متناسقة وإلا تعثرت الدولة وترنحت وهى تتصارع فى غابة السياسة الدولية المليئة بالذئاب والثعالب . فتحقيق التوازن بين مؤسسات الدولة وفرض السيطرة عليها يجعل منها أوركسترا .. واحداً متناسقا فى أنغامه وبالرغم من أن هذا مرغوب فيه إلا أنه أمر صعب التنفيذ ويزداد

الأمر صعوبة حينما تقوم القوات المسلحة بالتغيير ، وحينما يكون للقائد العام دور بارز فى إحداث هذا التغيير كحالة المشير عامر - رحمه الله .

وسط هذا الجو القلق لم يكن من الممكن إجراء أى تعديل أو إصلاح وخاصة أن المشير عامر كان قد حدد يوم ١٩٦٧/٨/٢٧ لبدء تحركاته ضد الشرعية القائمة للاستيلاء على القيادة العامة للقوات المسلحة باستخدام القوة وكانت خطته على مرحلتين :

المرحلة الأولى : وهى الجانب التمهيدى والدعائى داخل القوات المسلحة لإحداث البلبلة وبث الدعايات المسمومة ليستحوذ على تأييد القادة والضباط .

والمرحلة الثانية : وفيها يتحرك المشير إلى مكان تجمع قوات الصاعقة فى أنشاص ثم إلى القيادة الشرقية فى منطقة القناة للعمل منها كقاعدة وحينئذ يعلن عن تنصيب نفسه قائداً عاما للقوات المسلحة من جديد ويتقدم بمطالبه لرئيس الجمهورية فإذا لم يستجب له الرئيس تحركت قطاعات من القوات المسلحة لفرض هذه المطالب بالقوة .

كان لابد من فرض الشرعية وإزالة جيوب المقاومة هذه التى كان يفتعلها المشير ووضعت الخطة « جونسون » - بناء على تعليمات الرئيس جمال عبد الناصر بواسطة كل من شعراوى جمعة وزير الداخلية وسامى شرف سكرتير الرئيس للمعلومات وأمين هويدى وزير الحربية لفرض الشرعية وتم تنفيذ الخطة يوم ١٩٦٧/٨/٢٥ والتى استمرت إجراءاتها حتى فجر اليوم التالى والتى انتهت بتحديد إقامة المشير فى منزله بالجيزة بعد أن تم تصفيته من العناصر التى كانت تعتصم فيه مع المشير فى انتظار تنفيذهم خطة قلب نظام الحكم يوم ١٩٦٧/٨/٢٧ .

ولقد أوضحنا تفاصيل ذلك فى كتابنا « مع عبد الناصر » - الطبعة الثانية - دار المستقبل العربى تحت عنوان « الليلة العصيبة » .

ولن ندخل فى تفاصيل ما تم لبناء قواتنا المسلحة من جديد ليصبح الجيش « المفترى عليه » والذى راح ضحية قيادته على رمال سيناء ، قادراً على الصمود تمهيداً للأخذ بتلابيب العدو فى شرق القناة فى الوقت المناسب . إلا أنه لابد من الوقوف عند بعض الحقائق .

● فعبور القناة - ولا أقول انتصار أكتوبر إذ لنا رأى آخر فى تقييم هذه الحرب من الناحية العلمية البحتة - لم يتم من فراغ بل كان حلقة من سلسلة طويلة من التضحيات والعرق والدم .. كان العبور ثمرة جهد شامل لأمة وضعت تحت السلاح بكاملها .

● وبينما كانت القوات المسلحة تعمل فى صمت وإصرار على إعادة البناء كان القطاع العام يعمل فى تضحية فى المواقع الأمامية فى أغلب الأحيان جنبا إلى جنب مع القوات المسلحة وتحت حمايتها ينشىء المطارات ويبنى الدشم والملاجىء ويشق الطرق وينشىء المخازن وقد ضحى القطاع العام بآلاف من الضحايا من مهندسيه وعماله ورجاله وهو يعمل عمله الخالد تحت النيران المباشرة للعدو . ولا يمكن أن ينسى جهد القطاع العام فى بناء حائط الصواريخ والانتقال به على وثبات من القاعدة حول القاهرة إلى جبهة القناة بناء على خطة طموحة تقضى ببناء ٢٤ موقعا خلال ٤٨ ساعة حتى لا تطول الفرصة أمام تدخل العدو الجوى . وكانت الإنشاءات تشمل ـ علاوة على ذلك ـ تجهيز مراكز القيادات بالمواصلات وتمهيد الطرق والمدقات وتحريك بطاريات الصواريخ وقد احتاج ذلك إلى كميات هائلة من الأعمال الخرسانية لدرجة أن أحد رؤساء شركات القطاع العام للتشييد هالته الكميات الضخمة المطلوبة من مواد البناء وتشكك فى إمكانية توفير مجرد الرمل اللازم لتنفيذ هذه الإنشاءات الضخمة .

وكان هناك الجيش الشعبى يحرس المصانع بعد وضوح انكشاف منطقة خطوط مواصلاتنا بعد غارة العدو على نجع حمادى واعتبرت الجمهورية كلها منطقة قتال، فالحروب الحديثة مزجت بين الجبهات وخطوط مواصلاتها .

● وكان الشعب هناك فى كل بقعة من أرض الوطن يقدم الضحايا ويواجه الغارات ويستقبل المهاجرين ويقبل على مراكز التجنيد ويتحمل التضحية فى كل شىء حتى لقمة العيش . وقد لوحظ ونحن نقيم اتجاهات الرأى العام تماسك الجبهة بطريقة أقوى كلما اشتدت غارات العدو فى العمق .. كان الشعب يقبل كل شىء يطلب منه إلا شيئاً واحدا هو تأجيل يوم الأخذ بالثأر .. حتى المظاهرات التى قام بها الطلبة والعمال وحالات القلقلة المحدودة التى حدثت فى تلك الفترة لم يكن لها إلا مطلب واحد هو العبور لإزالة آثار العدوان وتطهير أراضينا من المحتلين والغزاة .

● وقد قام الاتحاد السوفييتى من جانبه ودول الكتلة الشرقية أيضا بتقديم المساعدات السخية فى كافة المجالات : العسكرية والاقتصادية والسياسية ولم يحاولوا الحصول على مزايا أو تنازلات من الرئيس عبد الناصر وقد بدأ الجسر السوفييتى الجوى والبحرى منذ يوم ١٩٦٧/٦/٩ مكونا ٥٥٠ رحلة جوية ، ١٥ سفينة نقل وبلغت الدفعة الأولى من الدعم العسكرى ٥٠,٠٠٠ طن من المعدات العسكرية . ومايقال عن وجود قاعدة جوية لهم فى مطار غرب القاهرة أو قواعد بحرية فى الأسكندرية وبور سعيد أوتمركزبرى عن طريق الخبراء والمستشارين هو قول غير حقيقى .. كان هذا التواجد ضمن استراتيجية عبد الناصر فى إدارة

الصراع والتى سبق أن شرحناها فى موضع آخر من هذه المقدمة بدفع القوتين الأعظم أقرب ما يمكن إلى الخط الحرج بل إن هذا التواجد سبب لهم توريطا كانوا يتحسبون من نتائجه والدليل على ذلك أنه لما طلب منهم السادات الرحيل عام ١٩٧٢ وافقوا فى الحال ونفذوا ما وافقوا عليه قبل المدة المحددة . وأنا أريد أن أسأل من يصف هذا التواجد بالاحتلال عن التصرف الذى كان سيجريه السادات لو أنهم طلبوا إعطاءهم مهلة سنتين أو ثلاثا حتى ينسحبوا ؟ ما الإجراء الذى كان سيقدم عليه ؟ فكما رحل الخبراء السوفييت بعد انتهائهم من بناء السد العالى رحلوا حينما طلب منهم أن يرحلوا ولم يتبق أحد منهم فى أية وحدة عسكرية أو قاعدة جوية أو بحرية .. والشىء الغريب أنهم رحلوا دون أن نحصل على مقابل من الجانب الآخر وفى وقت وبطريقة أخلت بالتوازن القائم كلية.الأمر الذى يثير الدهشة والاستغراب .

● تحقق التضامن العربى فى مؤتمر الخرطوم ووفت الدول العربية بالتزاماتها المادية وتمركزت بعض القوات العربية فى جبهتى مصر وسوريا جنباً إلى جنب مع القوات المصرية والسورية ولا أنسى موقف الرئيس هوارى بومدين حينما ذهبنا إليه ضمن وفد برئاسة السيد زكريا محيى الدين قبل الحرب مباشرة فأمر بفتح المخازن على مصراعيها دون قيد أو مناقشة وكانت الإمدادات الجزائرية هى أول ما وصل إلينا بعد الانهيار الكامل الذى تم دون قتال جدى وللأسف الشديد .

وإن كنا نجحنا فى معركة العبور فقد سبقتها معارك متعددة .. معركة رأس العش ، لسان بور توفيق ، كبريت ، جزيرة شدوان ، مهاجمة ميناء إيلات ، إغراق المدمرة إيلات بالقرب من بور سعيد ، ضرب الحفار كينتنج Kenting فى ميناء أبيدجان بساحل العاج . فالحرب مجموعة من المعارك الناجحة والخاسرة تحقق محصلتها الهدف السياسي الذى تسعى الدولة إلى تحقيقه وهى بذلك امتداد للسياسة ولكن بطريقة أخرى .

ولابد من وقفة أمام ثلاثة أعمال تقرب للقارىء كيف كانت تجرى الأمور ؛ إغراق المدمرة إيلات ، ضرب ميناء إيلات ، تعطيل الحفار كينتنج .

إغراق المدمرة إيلات :

كانت معركة راس العش فى ١٩٦٧/٧/١ بعد مرور عشرين يوما على قرار وقف إطلاق النيران فى جبهة قناة السويس علامة على نمو الإرادة المصرية فى رفضها للأمر الواقع الذى انتهت إليه حرب الأيام الستة .. فى هذه المعركة تصدت قواتنا لقوات العدو المتقدمة شمالا لاحتلال بعض المواقع شرق وجنوب بور فؤاد ومنعته من الحصول على أى نصر ، موقعة به خسائر فادحة . وتبع ذلك الضربة الجوية الكثيفة فى ١٩٦٧/٧/١٥ فى عمق سيناء محدثة خسائر

فادحة فى أفراد العدو ومعداته لتقضى على كل أمل كان يراود العدو فى إضعاف عزيمتنا وإرادتنا .

وفى يوم ١٩٦٧/١٠/٢١ اكتشفت أجهزة الاستطلاع لقواتنا البحرية اقتراب المدمرة « إيلات » من المياه الإقليمية المصرية وكانت « إيلات » هذه عبارة عن المدمرة المصرية « إبراهيم » التى أسرها العدو يوم ١٩٥٦/١٠/٣٠ أثناء العدوان الثلاثى على مصر بعد تأميم عبد الناصر لقناة السويس فى عملية سيئة الحظ إذ دفعتها القيادة العامة للقوات المسلحة لضرب حيفا دون غطاء جوى أو حماية بحرية فتصدى لها الأسطول الفرنسى الذى كان يرسو هناك وتم أسرها بعد معركة غير متكافئة .

وفى يوم ١٩٦٧/١٠/٢١ عادت المدمرة « إبراهيم » بعد تغيير اسمها إلى « إيلات » إلى مياهنا الإقليمية شرق بور سعيد وتقرر إغراقها . ولم يكن القرار سهلا فى ظروفنا فى تلك الأيام . فبالرغم من أن أسبابا ملحة تدعو إلى إغراق المدمرة لحاجتنا الشديدة إلى نصر يعيد الثقة إلى قيادتنا العسكرية وجبهتنا الداخلية وكذلك للأمة العربية الجريحة إلا أن رد الفعل الذى سيقوم به العدو لابد أن يوضع فى الحسبان .. كان تقديرنا أن العدو لابد أن يرد إما بضربة كثيفة على إحدى مناطقنا الصناعية أو على إحدى المناطق الآهلة بالسكان أو على منطقة الزيتية حيث معامل تكرير البترول .. واستقر الرأى على ضرورة المخاطرة مهما كانت النتائج وكان الترجيح أن الضربة المعادية سوف تركز على معامل تكرير البترول فهى فى متناول يده من جانب ، وذات قيمة استراتيجية كبيرة لسير المعركة كلها من جانب آخر . وكان لابد من اتخاذ بعض الإجراءات الاحتياطية فأنذرت وزارة الداخلية لتعزيز وحدات مطافئها ووحدات مطافىء القوات المسلحة فى منطقة السويس بوحدات إضافية تتحرك من القاهرة ليلا إذ كان المتوقع أن يكون رد فعل العدو فى اليوم التالى .

كان قائد القاعدة البحرية فى بور سعيد قد أعد لنشين من صواريخ « كومر » السوفييتية وأصدر لهما الأمر بالضرب وانطلقت زوارق الطوربيد إلى هدفها لا تلوى على شىء ، وفوجئت المدمرة بالأشباح الصغيرة تتجه إلى منتصفها لتشطرها شطرين وبعد دقائق أصبحت فى قاع البحر ولم يبق أى أثر يدل على وجودها إلا بقعا كبيرة من الزيت فوق سطح الماء وهى مشتعلة كأنها فوهات بركان . أما المائتا بحار الذين كانوا على ظهرها فقد غرقوا ومن تبقى منهم أحاطته بقع الزيت المشتعلة فبدأ العدو اتصالاته عن طريق قوات الطوارىء يرجو أن يبدأ عملية الإنقاذ دون تدخل من جانبنا وكان من رأيى - بصفتى

وزيرا للحربية ـ أن نستخدم مكان الحادث كطعم نصطاد به أى سفن تقترب منه إلا أن الرئيس لم يوافق حتى نتفادى المعاملة بالمثل فى المستقبل خاصة وثأر العدو لابد أن يكون قريبا . فاشتركت عشرات طائرات الهليكوبتر والزوارق فى محاولة لانتشال الأحياء دون تدخل من جانبنا .

وأشرق نور الصباح ، وبدأنا ننتظر الضربة المضادة . ولم ننتظر طويلا فوجه العدو ضرباته إلى معامل تكرير البترول كما توقعنا فاشتعلت النيران وارتفع اللهب إلى عنان السماء وبدأت قوات المطافىء فى عمل مستميت ومات منهم من مات وجرح من جرح وفى النهاية أمكن حصر النيران وإخمادها وكانت الخسائر اقل كثيرا مما كان متوقعا .

وفى نفس اليوم فكرنا فى ضربة مضادة .. وكان ميناء إيلات هو الهدف هذه المرة ولهذا قصة أخرى .

ولكن دروسا ثمينة تخلفت عن ضرب المدمرة إيلات .

فثبت أنه فى إمكان القطع الصغيرة وهى زوارق الطوربيد التغلب على القطع الحربية الكبيرة مما أحدث انقلابا فى النظريات القتالية للقوات البحرية .

وأثبتت المعركة القيود الجديدة التى تفرض عند اتخاذ القرار فعند الإقدام على الفعل لابد من تقدير رد الفعل وربما تصبح القدرة على رد الفعل مانعا للفعل نفسه إذا كانت حسابات الخسائر الناجمة أكبر من نتائج المكاسب المتوقعة .

وأثبتت المعركة أن الحرب هى عبارة عن تصارع إرادات وإن الإرادة لا يمكن إزالتها فهى تولد مع الإنسان .. قد تتقوقع وتختفى لظروف قاهرة ولكنها تعود للتحرك مرة أخرى بزوال هذه الظروف .. فعل ثم رد فعل .. ضربة من جانبه وضربة من جانبنا .

ضرب ميناء إيلات :

كانت إيلات ميناء يرسو به بعض السفن علاوة على تواجد بعض فناطيس البترول بها وهو الميناء الذى يصل إسرائيل بدول شرق أفريقيا عن طريق البحر الأحمر دون الحاجة إلى المرور فى قناة السويس التى كانت مغلقة أمام الملاحة الدولية من جراء إغراق بعض القطع البحرية فيها بواسطة قواتنا . وسبق أن ذكرنا أن قرار ضرب الميناء كان قد اتخذ عند ضرب العدو لمعامل التكرير فى الزيتية كرد فعل لإغراقنا المدمرة إيلات .. كان القتال فى تلك الفترة يدور على قاعدة « البنج بنج » .. وهذا كان فى صفنا إذ يدل على أننا أصبحنا قادرين على تلقى ضربة العدو ثم توجيه الضربة إليه .

وبادىء ذى بدء كان عبد الناصر قد أصدر أوامره بالتهدئة ، أى أن تتم العملية بعد فترة زمنية معقولة حتى لا يتصاعد الموقف بأكثر مما تحتمله إمكاناتنا المتاحة فبدلا من التسخين ، علينا التهدئة بإطالة الفواصل بين الضربات المتبادلة . كان اتجاه القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى هو استخدام القوات الجوية للقيام بالمهمة .

ولكن الفريق مدكور ابو العز قائد القوات الجوية كان يرى أن استخدام قواته فى هذه المهمة تكتنفه المخاطر الحقة فالعدو لديه السيطرة الجوية الكاملة ولكن الأهم من ذلك أن مدى طائراته لن يمكنه إلا بالكاد من الوصول إلى الغرض والعودة ولكن لن يعطيه الوقت الكافى لخوض معركة جوية قد تضطره الظروف إليها ، الأمر الذى لابد أن يدخل فى الحساب .

وعقد مؤتمر فى مكتب القائد العام حضره قائد القوات الجوية ورئيس هيئة العمليات ومدير المخابرات الحربية اللواء « فريق أول بعد ذلك » محمد صادق .. وإزاء إضرار القائد العام خضع قائد القوات الجوية للأوامر وأنذر قواته للقيام بالمهمة .

وانتقلت إلى حيث المؤتمر لأقف بنفسى على الحوار الدائر واقتنعت بوجهة نظر قائد القوات الجوية وأبديت رأيى فى أن وسائل القتال من طائرة ومدفع ورشاش حتى الفرد المقاتل ماهى إلا وسائل نقل لكمية من المفرقعات المدمرة إلى الغرض والاختلاف فقط هو فى السرعة وكمية المفجرات المنقولة وترتيبا على ذلك فإنه يمكن القيام بالعملية بواسطة المخابرات الحربية باستخدام مجموعة من الضفادع البشرية وفعلا ألغيت الأوامر الصادرة للقوات الجوية وانتقل الواجب إلى المخابرات الحربية التى نفذت العملية بنجاح كامل بعد نقل المجموعة إلى ميناء العقبة الأردنى ثم عبر الأفراد سابحين إلى إيلات وفجروا عدداً من المراكب وبعض الفناطيس وعادوا إلى قواعدهم سالمين .

ويبدو أن العملية تمت من وراء ظهر السلطات الأردنية التى قلقت خوفا من رد فعل إسرائيل لاستخدام العقبة كقاعدة للعملية الفدائية .

وكان آخر خبر أنقله للرئيس عبد الناصر وأنا أترك منصبى كوزير للحربية بصفة نهائية بعد انقطاعى عن القيام بمسئولياتى لمدة ثلاثة شهور كاملة - لأسباب ليس محل ذكرها هذه المقدمة - هو خبر نجاحنا فى ضرب ميناء إيلات .

وبهذه العملية انتقلت إرادتنا بعيدا نحو الشرق لتضرب العدو على بعد مئات الكيلو مترات من القناة وأوشك أن يصبح عمق العدو فى متناول أيدينا وانتقمنا لمعامل التكرير ولو بعد حين .

عملية الحفار كينتنج Kenting

إمعانا فى فرض الأمر الواقع أرادت إسرائيل البحث عن البترول فى مياه خليج السويس وكأن ما أصبح تحت يدها من بترول سيناء لا يكفى .. واحتاجت إلى حفار للقيام بعملية الحفر وكأن المياه مياهها والخليج خليجها بما فيه من بترول . وكان اسم الحفار الذى استأجرته هو « كينتنج » وهو ذو هوية عجيبة مشبوهة فالحفار كان فى الأصل انجليزيا اشترته شركة أمريكية كندية سجلت نفسها فى مدينة « دنفر » عاصمة ولاية « كولورادو » الأمريكية ويجر الحفار جرار هولندى ، وبذلك كان حفارا دوليا .. وفشلت كل محاولاتنا الدبلوماسية فى منع الحفار من القيام بعملياته غير الشرعية فلم يكن أمامنا إلا تدميره قبل أن يلوث مياهنا .

كان القرار فى بادىء الأمر هو ضرب الحفار وإغراقه بقواتنا الجوية إذا دخل البحر الأحمر وأخذ الحفار طريقه تحت ستار كامل من السرية ليقترب من هدفه مارا بالسواحل الغربية لأفريقيا . وهنا تقدمنا - أقصد جهاز المخابرات العامة الذى كنت أتشرف برئاسته - باقتراح لنتعامل معه بطرقنا الخاصة حتى نتجنب أية تعقيدات دولية جديدة إذا تعاملنا مع الحفار الدولى بالطرق المكشوفة ووافق الرئيس عبد الناصر على الاقتراح .

ودون الدخول فى تفاصيل معقدة قررنا التعامل مع الحفار فى الساحل الغربى لأفريقيا بين منطقتى داكار بالسنغال وبوانت نوار Point Noir فى الكونجو كينشاسا وبعد حسابات دقيقة قدرنا أن الحفار سوف يدخل أحد الموانىء الآتية : داكار بالسنغال ، تيما فى غانا ، أبيدجان فى ساحل العاج ، لاجوس أو هبركورت فى نيجيريا ، بوانت - نوار فى الكونجو كينشاسا ، ولكن كان الترجيح أن وقفته الأولى ستكون فى داكار . ووضعت كل هذه الموانىء تحت رقابتنا المستمرة للوقوف على أخبار الحفار .

وبدأت مئات المشاكل تواجهنا وكانت مشكلة المتفجرات اللازمة لتنفيذ العملية هى أهم مشكلة فرضت نفسها علينا : ما نوع المتفجرات المناسبة لقاع الحفار ؟ كميتها ؟ نقلها من القاهرة مع جماعات العمل إلى ميناء العمل المجهول ربما من خلال مطارات أوروبا أو أفريقيا وكانت موضوعة تحت الحراسات الشديدة إذ كانت أعمال خطف الطائرات بواسطة الفدائيين الفلسطينيين قد بلغت الذروة .. وفوق كل ذلك فالحفار مدينة عائمة .. هذه الصعوبات جعلتنا نستبدل الغرض من « إغراق الحفار » إلى « مجرد تعطيله ومنعه من الدخول فى البحر الأحمر » .

واحتاج الأمر إلى ثلاثة أنواع من جماعات العمل : جماعة التخطيط والتجهيز ومقرها القاهرة ، جماعات الحصول على معلومات وهى منتشرة فى أماكن متعددة فى سواحل البحر المتوسط وأفريقيا ، جماعات التنفيذ من الضفادع البشرية .

وتمت محاولتنا الأولى لضرب الحفار فى داكار بالسنغال إذ وصلت المعلومات مساء يوم ١٩٧٠/٢/١٦ - وكان أول يوم من أيام عيد الأضحى - بوجوده هناك ، وتحركنا بسرعة إلى هناك إلا أن الحفار ترك الميناء يوم ١٩ ظهرا قبل وصول كل جماعات التنفيذ « ونفد الحفار بجلده » كما يقولون .. وأصدرت أوامرى للجماعات للعودة بمفجراتها وأدواتها إلى القاهرة استعدادا لجولة قادمة إذ كان من المستحيل بقاؤها فى مكانها الجديد إلى وقت غير محدد .

فى مساء ١٩٧٠/٣/٣ وصلت المعلومات أن الحفار دخل أبيدجان فى ساحل العاج وبدأ التحرك المحموم وراء الفريسة حتى لا تفلت مرة أخرى وفى يوم ٣/٤ أصدرت تعليماتى لقائد العملية بالتحرك إلى أبيدجان وفى يوم ٣/٥ وصلت منه أخبار يستعجل فيها دفع جماعات العمل حيث أن الحفار يستعد لمغادرة الميناء فى وقت قصير وتحركت إحدى الجماعات يوم ٣/٦ عن طريق باريس - جنيف - أبيدجان فوصلت بعد ظهر ٣/٧ وأعطيت التعليمات بتنفيذ العملية بواسطة هذه الجماعة دون انتظار الجماعات الأخرى وقام قائد العملية بتنفيذها فجر يوم ٣/٨ وكانت أبيدجان كلها مشغولة باستقبال رواد الفضاء الأمريكيين الذين يزورونها فى ذلك اليوم .

وقاد قائد العملية أفراده إلى الميناء وأعدوا مفجراتهم وارتدوا ملابسهم الخاصة وغاصوا فى الماء يجرون وراءهم المفرقعات وبين الحين والآخر تظهر رءوسهم فوق الماء تماما كالحيتان .. ووصلوا أخيرا إلى الفريسة التى طاردوها طويلا على طول الساحل الغربى لأفريقيا والصقوا مفجراتهم فى القاع .. كانت أربعة ألغام كبيرة إذا انفجرت أحدثت أربع حفر تجعله غير صالح للاستخدام وضبطوا توقيت التفجير ليتم بعد ٤ ساعات وعادوا من حيث أتوا ولم يتركوا خلفهم أى آثار وكأنهم أشباح .

وفى الساعة الخامسة من صباح ١٩٧٠/٣/٨ سمعوا صوت أربعة انفجارات من بعيد وكأنها أصوات أنغام وبعد ساعات استقلوا طائرة إلى باريس فى طريق عودتهم إلى القاهرة . ورفض قائد العملية أن يغادر مكان العمليات إلا بعد أن يلتقط بعض الصور للحفار وقد أطفئت أنواره ، وتهشم الجزء الأكبر منه وكان يميل على أحد جانبيه وكأنه يتلوى من الألم .

وفى يوم ٢٣/٣/١٩٧٠ نشرت « الأهرام » الخبر الآتى « خرجت من أبيدجان أول أمس أنباء عن حادث نسف الحفار الذى استقدمته إسرائيل للبحث عن البترول فى خليج السويس قرب شاطىء سيناء .. وقد قالت هذه الأنباء ـ التى نقلتها الوكالة الفرنسية عن الدوائر وثيقة الاطلاع فى عاصمة ساحل العاج ـ أن محاولة تخريب الحفار حدثت يوم ١٨ مارس حيث وقعت على ظهره عدة انفجارات أحدثت به أعطابا ظاهرة وعلى الأخص فى القاعدة والبرج . وهذه أول مرة تذاع فيها أنباء عن تلك العملية التى وقعت منذ أربعة أيام وظلت طوال الوقت سرا إلى أن نشرتها الصحف البريطانية نقلا عن الأنباء التى تسربت من ساحل العاج ووصلت إلى باريس ثم نقلت إلى لندن . وأضافت برقية الوكالة الفرنسية أن سلطات البوليس فى ساحل العاج بدأت تحقيقها لمعرفة أسباب الانفجارات ولكن حتى أمس لم يلق القبض على أحد .. وقد قالت الصحف البريطانية إن الحفار قد أصيب بأعطاب شديدة خاصة فى برجه الرئيسى وعلم أيضا أن القاطرة الهولندية « جاكوب ـ فون ـ ايمز ـ ايرو » التى تجر الحفار منذ خروجه من أحد الموانى الكندية وفى الأغلب ميناء أوتاوا قد سحبته منذ أيام قليلة إلى أحد الموانى الأفريقية التى يوجد فيها حوض جاف كبير لبدء محاولات لإصلاح الحفار » ..

وعادت الأهرام يوم الجمعة ٥/٦/١٩٧٠ أى بعد ثلاث سنوات بالضبط على النكسة لنشر الآتى تحت عنوان الشركة الكندية تلغى عقدها مع إسرائيل للبحث عن البترول فى خليج السويس « أعلنت شركة كينتنج Kenting الكندية للبترول رسميا إلغاء مشروع استخدام حفار البترول البحرى التابع لها للتنقيب عن البترول فى خليج السويس لحساب إسرائيل . وهذا الحفار نسف فى ميناء أبيدجان بساحل العاج فى مارس الماضى وقالت الصحف البريطانية وقتها إن الكوماندوز المصريين هم الذين قاموا بهذه العملية ووصفت هذه العملية بأنها كانت قاصمة لمشروعات إسرائيل فى خليج السويس . وجاء فى هذا الإعلان الرسمى أن الحفار معروض للبيع وأن الشركة استغنت عن خدمات القاطرة البحرية الهولندية « جاكوب ـ فون ـ إيمز ـ إيرو » وقد كانت تقوم بسحبه وذلك بعد أن أصابت الحفار إصابات شديدة أعجزته عن القيام بعمليات التنقيب عن البترول وأصبح غير صالح للعمل » .

وانتهى كلام الأهرام .

وفى صمت ودون إعلان أنعم عبد الناصر على كل أفراد العملية بالنياشين وفى حفل صغير لم يحضره أحد سلمت النياشين للأبطال داخل غرفة صغيرة فى مبنى المخابرات العامة .. وجاء السادات ـ رحمه الله ـ ليعتقل رئيس الجهاز الذى خطط ووجه وقاد العملية ويقدمه للمحاكمة ضمن جماعة ١٥ مايو !! أما القائد الميدانى للعملية فقد نقلوه إلى وزارة السياحة ..

ألا ترون معى أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم تبدأ أبداً فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر كما يقول الكتاب الذى نحن بصدده .. إنها بدأت فى الأيام الأولى بعد نكسة ١٩٦٧ وربما هى مجرد حلقة لأزمة السويس التى استمرت من الخمسينيات وربما لم يوضع لها نهاية بعد .

●●●

وترجمة الكتاب الذى نحن بصدده تعرض لنا حرب أكتوبر فى ثلاث مراحل متميزة .

المرحلة الأولى : وهى الفترة من ٦ ـ ١٤ أكتوبر وفيها تم العبور ثم الوقفة التى لا تفسير لها فى رءوس كبارى مكشوفة وكأننا ننتظر العدو بعد أن ينتهى من القضاء على سوريا .

المرحلة الثانية : وهى الفترة من ١٤ ـ ٢٥ أكتوبر وفيها تمت الثغرة التى عبر فيها العدو إلى الضفة الغربية للقناة وأصبح الجيش الإسرائيلى فى « أفريقيا » كما قالت جولدا مائير يهدد قواتنا بقطع خطوط مواصلاتها ثم إيقاف إطلاق النيران بواسطة قرارات مجلس الأمن .

المرحلة الثالثة : وهى العمل الدبلوماسى أو ما أسميه فترة الحصاد وفيها يتم الاتفاق السياسي طبقا لقوى الموقعين عليه وليس طبقا لمصالحهم .

وفى المرحلة الأخيرة : كان الموقف فريدا فى نوعه : فقد تم إيقاف إطلاق النيران فى الجبهة الشمالية أى فى سوريا وقد تخطت القوات الإسرائيلية خطوط إيقاف إطلاق النيران التى فرضت بعد عام ١٩٦٧ شرقا ، ولكن كان هناك عشرات من الأسرى فى يد القوات السورية لم تعلن عن عددهم أو أسمائهم .. وكان الموقف فى الجبهة الجنوبية أى جبهة القناة أشد غرابة .. صحيح كانت القوات الإسرائيلية قد أنشأت رأس جسر عريضاً فى الضفة الغربية لقناة السويس وصحيح أن القوات الإسرائيلية أصبحت تحاصر الجيش الثالث وتهدد الجيش الثانى بالحصار إلا أننا كنا خلفهم كما كانوا خلفنا ولكن الأهم من ذلك كانت هناك عدة عوامل تزيد الأمر تعقيداً !

● فالاتحاد السوفييتى مازال موجودا بكل ثقله وهو عكس ما كانت تريده الولايات المتحدة .

● قناة السويس مغلقة أمام الملاحة الدولية منذ معركة ١٩٦٧ .

● باب المندب مقفول يحكم حصاره على البحر الأحمر وإيلات وما كان يمكن أن يتم ذلك إلا بمساعدتنا لثورة اليمن للانتهاء من حكم الإمامة وثورة عدن لإجبار البريطانيين على الانسحاب من هناك .

- حظر البترول العربى سارى المفعول يشكل ضغطاً هائلاً على أوروبا واليابان .
- ارتفاع أسعار البترول ليحدث هزات خطيرة فى الأسواق العالمية .
- الدول العربية متماسكة متضامنة .
- الرأى العام العالمى بدأ يتحول ضد إسرائيل .

وتدخل هنرى كيسنجر والموقف على ما وصفناه .. وصل القاهرة يوم ١١/٦ ثم قابل الرئيس محمد أنور السادات الساعة العاشرة من صباح ١١/٧ وكان معه جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لمدة ساعات ثلاث خرج بعدها « هنرى » ليعلن أنه يعتبر هذه الجلسة أحد إنجازاته الدبلوماسية الفذة « إذ حققت تحولا رئيسيا فى سياسة مصر الخارجية وبالتالى فى التوجه العام للمنطقة كلها » . وله الحق فى ذلك إذ فى جلسة واحدة مع السادات لم تستمر أكثر من ثلاث ساعات حقق الآتى رغما عن أن العدو لم ينسحب شبرا واحداً من الأماكن التى استولى عليها :

- الاتفاق على سياسة مشتركة بين الولايات المتحدة ومصر وأصبح هناك اتفاق استراتيجى بين البلدين .
- أعاد العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وواشنطن بعد أن كانت مقطوعة فى حين كانت أغلب البلاد العربية والأفريقية مازالت تقطع علاقاتها معها رسميا .
- موافقة مصر على النقاط الست فى الكيلو ١٠١ طريق السويس وبذلك شق الصف العربى .
- التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل .
- إنهاء الحصار على باب المندب .
- الاتفاق على إنهاء حظر البترول العربى .

كل ذلك حصل عليه فى مقابل مجرد وعد بمحاولة فك الاشتباك بين الأطراف المتصارعة !! ثم وفى زياراته التالية حقق إعادة فتح قناة السويس ، السماح للبضائع الإسرائيلية بالمرور فى القناة ، تعمير مدن القناة وإعادة المهجرين ، موافقة مصر على عدم اللجوء إلى القوة لإنهاء الخلافات ، التواجد العسكرى الأمريكى فى سيناء ... إلخ .

والشىء الغريب أن القوات بقيت على ما كانت عليه قبل الحرب : إسرائيل وقد تراجعت بضع عشرات من الكيلو مترات إلى شرق القناة والقوات المصرية وقد تراجعت بضع عشرات من الكيلو مترات غرب القناة .. ولكن كيف فعلها « صديقنا هنرى » ؟

لم يكن غريبا أن البعض شبهه بالحاوى المبدع الذى وصل إلى المنطقة وفى

حقيبته أرنب كبير . وكان الحاوى يحرص على أن يظهر الأرنب فى كل عاصمة من العواصم وسط التهليل والصياح ثم يترك الجميع يتلمسون الأرنب ثم يضعه فى حقيبته وهو فى طريقه إلى المطار ليستقل طائرته البوينج إلى عاصمة أخرى يستعرض فيها ألعابه .. ثم غادر المنطقة فى آخر المشوار بل ترك المنصب بما له أو عليه ومن يومها لم يعد الحاوى إلى المنطقة لا هو ولا الأرنب إلا لحضور جنازة الرئيس السادات بعد قتله فى حادث المنصة .

والبعض الآخر مثله « برجل الأعمال » الذى حضر إلى المنطقة وجيبه الأيمن محشو بالسلام المنشود وجيبه الأيسر محشو بالأرض السليبة .. وعرض بضائعه على الجميع وقبض الثمن من البعض ولم يقبض شيئا من البعض الآخر ولكنه حينما غادر المنطقة كان فى جيبه الداخلى ما قبضه من ثمن تحفظ عليه فى عناية ، ولكن كان السلام المنشود مازال فى جيبه الأيمن والأرض السليبة فى جيبه الأيسر . فلا هو أعطى السلام ولا هو أعاد الأرض .

ولست أدرى أى الأعمال أجاد ؟ هل أجاد دور الحاوى أم أبدع كرجل أعمال ؟ أم أنه كان الاثنين فى واحد ؟

وأغلب ظنى أن الرأى الأخير هو أقرب إلى الحقيقة .

أمين هويدى

مصر الجديدة فى ٢٥/١٠/١٩٨٧

تصدير

أحدثت حرب أكتوبر كثيراً من المفاجآت التي هزت الفكر العسكري السائد وأخرجته من روتين الحرب العالمية الثانية الذي كان يعيش فيه ، وأثارت عمليات إعادة تقييم واسعة النطاق . لقد كانت حرباً لم يردها الإسرائيليون ولا الروس ولا الأمريكيون . ولكنها بمجرد أن بدأت ، شعرت كل من أمريكا وروسيا أنهما مضطرتان لإبقاء أتباعهما على قيد الحياة ، لأسباب تتعلق بالمكانة وبالصراع بين القوتين العظميين . فأرسلتا شحنات تعويضية من الأسلحة والذخائر والمعدات بكميات راحت تتصاعد بشكل واسع النطاق ، حيث لم تكن أي من القوتين العظميين تريد أن ترى الطرف الذي تسانده مهزوماً بالكامل في ميدان القتال . وبصورة عامة ، ربما كان العرب الذين أرادوا الحرب هم الذين كسبوا أكثر من غيرهم . فرغم أن خيار الحرب كان ، من الناحية العسكرية البحتة ، محاولة مغرقة في الخيال ، فإنها نجحت في كسر الحالة المهينة التي كانت قد تبلورت تقريباً من « اللاسلم واللاحرب » ، والتي كان يبدو أنها تخدم مصالح الجميع ، عداهم .

وقد قمت بتجميع هذه الرواية الشاملة من نتائج لقاءاتي وأبحاثي وزياراتي للبلدان المعنية ولميادين القتال الفعلية على حد سواء ، حيث « خبرت ما جرى » مع ضباط شاركوا في القتال ، ومع وقف إطلاق النار الثاني ، الذي يبدو أنه كان يتيح للعرب من المزايا أكثر مما يتيحه للإسرائيليين ، جاء صناع الأساطير . ويحاول الآن كل من العرب والإسرائيليين إقناع أنفسهم ، والعالم بأسره ، بأنهم قد كسبوا الحرب ، وأنه لولا تدخل القوى العظمى لكان الانتصار أكثر حسماً . وهذا ليس صحيحاً على وجه الدقة ، ولا أستطيع أن أتوصل إلى

استنتاج يؤيد بالكامل طرفاً ضد الطرف الآخر ، وكان البعض يفضل لو حذفت بعض المعلومات أو التعليقات ، أو قللت من شأن بعض الجوانب وبالغت في تقدير جوانب أخرى . ولكنني ما كنت لأستطيع أن أفعل ذلك ، حيث كنت أريد أن أجمع تاريخاً معاصراً دقيقاً يضم كافة التفصيلات ، في هذا الوقت من الزمن ، وفي هذا المناخ من صنع الأساطير .

ومازالت هناك مناطق رمادية متنازع بشأنها ، وروايات متناقضة يتعذر التوفيق بينها ، وصمت رسمي إزاء تفصيلات معينة ، وتفسيرات مسهبة بأكثر من اللازم عن تفصيلات أخرى . فالشفاه تكون محكمة الإغلاق في بعض الأمور ، بينما تنطلق الألسنة في الحديث بلا انقطاع عن أمور أخرى ، حيث يحرص العديد من الشخصيات المعنية ، وقد أدركوا أنهم أصبحوا شخصيات تاريخية ، على إزالة السوءات قبل أن يبدأ قلم التاريخ تسجيله .

الفصل الأول

سراب الشرق الأوسط

« إن دمشق على مسافة ساعة واحدة فحسب أما القاهرة فربما كانت على مسافة ساعتين »

قول إسرائيلى

قبل اكتوبر ١٩٧٣

يعرف العرب الحرب التي اندلعت بينهم وبين الإسرائيليين في الشرق الأوسط في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ باسم « حرب رمضان » ويعرفها الإسرائيليون باسم « حرب عيد الغفران » ، أما بالنسبة للمحايدين في الغرب فيعرفونها بوجه عام باسم « حرب أكتوبر ١٩٧٣ » وعلى أية حال ، فإن هذا الانفجار كان الأخير فحسب في تاريخ من العلاقات المحتدمة . وحقاً فإن العرب والإسرائيليين قد خاضوا خمس حروب كل منهم ضد الآخر . ويسمى الإسرائيليون صدام ١٩٤٨/١٩٤٩ باسم « حرب الاستقلال » التي أقامت دولة إسرائيل بقوة السلاح ، بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها على فلسطين .

وكانت مسألة اللاجئين الفلسطينيين من بين المشكلات التي خلفتها هذه الحرب . وجاءت الحرب الثانية في أواخر عام ١٩٥٦ . وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد أمم ثم أغلق قناة السويس ، مما أدى إلى غزو إنجليزي - فرنسي لمصر . واستغلالا لانشغال المصريين ، تقدمت الطوابير العسكرية الإسرائيلية غرباً عبر صحراء سيناء في وجه مقاومة طفيفة ، بحيث وصلت بالكاد إلى قناة السويس خلال « مائة ساعة » وبعد بضعة أشهر ، اضطر الإسرائيليون إلى الانسحاب على مضض إلى حدودهم السابقة ، بسبب ضغوط الأمم المتحدة ، وأمريكا بوجه خاص .

وكان ثالث اندلاع للمعارك في « حرب الأيام الستة » التي دارت رحاها في يونيو ١٩٦٧ . فبعد قيام الإسرائيليين بضربة جوية وقائية ضد المطارات العربية ، نجحوا في تدمير سلاح الجو الأردني ، وفي تدمير سلاح الجو المصري تقريباً ، وفي إلحاق أضرار فادحة بسلاحي الجو السوري والعراقي . ومع حرمان العرب من الغطاء الجوي ، فقد لحقت بهم هزيمة أشبه بالكارثة . ففي الشمال ، خسرت سوريا هضبة الجولان ، وفي الشرق ، خسر الأردن ضفته الغربية ، وهي الجزء الأكثر ازدهاراً في المملكة الهاشمية ، أما في الجنوب فإن المصريين ، وقد قضى على جيشهم الذي كان يضم ٩٠,٠٠٠ جندي وفقدوا كل الأسلحة والمعدات السوفييتية الجديدة ، فقد خسروا قطاع غزة وكل صحراء شبه جزيرة سيناء . وفيما بعد ، قال الرئيس عبد الناصر لرئيس الوزراء السوداني محجوب : « في التاسع من

يونيو (١٩٦٧) عندما تنحيت لم يكن هناك سوى ٤٠٠ جندي بين الاسماعيلية ومنزلي وكان بمقدور القوات الإسرائيلية أن تدخل القاهرة ، لو شاءت »

وكان الصدام الرابع هو « حرب الاستنزاف » التي شنها الرئيس عبد الناصر ، والتي بدأت بصورة فعلية عام ١٩٦٧ ، بمجرد أن أعادت القوات المسلحة المصرية تجمعها وتلقت المزيد من العتاد السوفييتي ، ودارت المعارك اللاحقة عبر قناة السويس ، التي أصبحت تشكل الآن الحد الفاصل بين المصريين والإسرائيليين وكان القتال البرى يشمل المدفعية الثقيلة وقذائف الهاون والعديد من غارات الكوماندوز وفى بعد آخر من أبعاد الحرب ، استخدم الجانبان الطائرات ، ولا سيما الإسرائيليين ، في القصف الاستراتيجي والمعاونة البرية . ومع ذلك ، فسرعان ما تطورت « حرب الكترونية » في الجو . فقد زود الاتحاد السوفييتي مصر بصواريخ سطح /جو من طراز « سام » للدفاع ضد الطائرات الإسرائيلية . وأدى إدخال هذه الصواريخ الفعالة إلى استعادة التوازن في الوضع الذي كان قد نشأ عقب هزيمة يونيو مباشرة ، والذي كان الطيارون الإسرائيليون يتمتعون فيه بالحرية في سماء مصر . وكان الأمريكيون ، وقد واجهوا صواريخ « سام » في فيتنام ، قد طوروا جيوباً للوسائل الإلكترونية المضادة تثبت في أجنحة الطائرات لتعطي للطيار إنذاراً بالصواريخ التي تقترب منه بحيث يتمكن من الهروب منها . وسرعان ما تطورت « حرب علماء مجانين » حيث تحسنت على الأرض معدات التوجيه الراداري والبحث والتعقب ، أما في الجو ، فإن جيوب الوسائل الالكترونية المضادة الأحدث قد مكنت الطيار من التشويش والتشويش المضاد ، بل وحرف مسار الصواريخ الموجهة إليه .

وعندما انتهت حرب الاستنزاف في السابع من أغسطس ١٩٧٠ ، كانت النتيجة هي « التعادل » إلى حد بعيد ، فتم إبعاد الطائرات الإسرائيلية من المجال الجوي فوق مصر نفسها ، بحيث اقتصرت أنشطتها على منطقة قناة السويس . ولا يتفق كل المراقبين على اعتبار « حرب الاستنزاف » حرباً قائمة بذاتها . وهو ما يفسر أن البعض يشير إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ على أنها الحرب العربية ـ الاسرائيلية « الرابعة » ، بينما يشير إليها البعض الآخر على أنها « الخامسة » .

وعلى أية حال ، فقد حدث تحول كبير في الشرق الأوسط في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، عندما توفي الرئيس عبد الناصر ، وكان آخر عمل سياسي قام به هو التوصل إلى وقف لإطلاق النار في الأردن بين قوات الملك حسين والفدائيين الفلسطينيين . وكان أنور السادات هو خليفة عبد الناصر . وكان الزعيم المصري الجديد قد تخرج في الكلية الحربية المصرية « الملكية في ذلك الوقت » عام ١٩٣٨ . وانضم السادات بعد ذلك إلى سلاح الإشارة ، وفي مرحلة ما ، أودعه البريطانيون السجن خلال الحرب العالمية الثانية للاشتباه في تآمره مع الألمان . ثم اعتقل مرة أخرى عام ١٩٤٥ لمشاركته في محاولة اغتيال ضد الزعيم الوفدي مصطفى

النحاس ، ورغم تبرئة ساحته ، فقد طرد من الخدمة العسكرية . وأعيد إلى الخدمة العسكرية مرة أخرى عام ١٩٥٠ ، في الوقت المناسب له لكي يلعب دوراً نشطاً في الثورة كواحد من المجموعات الأصلية للضباط الأحرار ، وهى المجموعة العسكرية السرية التي قادت الانتفاضة . وكان السادات هو الذي أعلن عبر إذاعة القاهرة خلع الملك فاروق وتولى مجلس قيادة الثورة السلطة في البلاد . وبعد فترة كوزير ، تولى رئاسة تحرير جريدة « الجمهورية » حتى عام ١٩٥٧ ، عندما تم تعيينه رئيساً للاتحاد القومى المصري « عندئذ » ، ثم رئيساً لمجلس الأمة وبعد أن كان واحداً من أربعة نواب لرئيس الجمهورية في الفترة من ١٩٦٤ حتى ١٩٦٧ ، فإنه برز عام ١٩٦٩ باعتباره الشخص التالي لعبد الناصر في ترتيب التسلسل القيادي . وفي ١٦ أكتوبر ١٩٧٠ ، انتخب السادات رئيساً لمصر لمدة ست سنوات .

وفي البداية . بدا أن الرئيس السادات يحاول اتباع الطرق الدبلوماسية بإتاحة الفرصة أمام مشروع روجرز للسلام . وكانت هذه المبادرة للسلام ، التي طرحها وليام ب . روجرز وزير الخارجية الأمريكي في ديسمبر ١٩٦٩ ، تقضي بانسحاب الإسرائيليين من الأراضى المحتلة في مقابل تأكيدات عربية بالالتزام الملزم بالسلام - إلا أنها قوبلت بالرفض من جانب الاسرائيليين . وفي نفس الوقت واصل السادات سياسة عبد الناصر المتمثلة في الحصول على المزيد من الأسلحة من الاتحاد السوفييتي وتحسين قدرات القوات المسلحة المصرية . وطرح السادات مبادرة سلام خاصة به عندما أعلن في الخامس من فبراير ١٩٧١ أنه إذا أجرى الإسرائيليون انسحاباً جزئياً ، فإن المصريين سيطهرون ويعيدون فتح قناة السويس . ولسوء الحظ لم يسفر هذا الاقتراح عن شيء ، مما راح يسهم ببساطة في تغذية تيارات السخط المتزايد داخل البلاد إزاء استمرار الاسترخاء العسكري تجاه إسرائيل . ووصل هذا الاستياء إلى ذروته عندما وعد السادات بألا تنتهي تلك السنة « دون حسم قرار المعركة مع إسرائيل ، سواء بالحرب أو بالسلام » . وعندما انتهت السنة بنفس الحالة المقلقة من اللاحرب واللاسلم ، كانت خيبة الأمل محسوسة لدى العرب في كل مكان . واكتفى الاسرائيليون بالسخرية من عبارة « عام الحسم » الشهيرة التى أطلقها السادات .

وكان الرئيس السادات يواجه أيضا مشكلات داخلية . فلم يكن قد أمضى طويلاً في منصبه عندما واجه صراعاً على السلطة في مايو ١٩٧١ ، حيث تعرض لمؤامرة لم تكلل بالنجاح من جانب علي صبري نائب رئيس الجمهورية وآخرين ، كانوا فى معظمهم من أصحاب الآراء الموالية للسوفييت . واستقال ستة وزراء والعديد من كبار أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي . الذي كان الحزب السياسي الشرعي الوحيد في البلاد . ومن ناحية أخرى شكل السادات حكومة جديدة وأعلن إعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي ،

وخلال بقية ذلك العام ، كان مشغولاً بالأمور الدستورية الخاصة بالاتحاد الاشتراكي العربي . وفي الثامن من سبتمبر حل مجلس الأمة ، وبعد ثلاثة أيام ، حل دستور جديد تم إقراره فى استفتاء عام محل الدستور المؤقت . وانتخب مجلس شعب جديد بدأ أعماله رسمياً في ١١ نوفمبر .

ومن ناحية أخرى ، كان محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة « الأهرام » القاهرية ذات النفوذ يدعو فى ١٦ يونيو ١٩٧١ إلى إنهاء حالة اللاسلم واللاحرب ، وراح يحذر السادات من أن عجز نظامه عن الوفاء بوعوده من شأنه أن يخلق فجوة خطيرة فى المصداقية بين القيادة والشعب في مصر . وظلت حالة السخط تتنامى داخل القوات المسلحة المصرية خلال العام التالي (١٩٧٢) ، حيث لم يكن يبدو أن هناك أية نية لشن هجوم على الاسرائيليين لاستعادة « الأراضي المغتصبة » وجاءت الذروة في ٢٦ نوفمبر ، عندما تردد أنه تم اعتقال أكثر من مائة من ضباط المدرعات لتآمرهم على الإطاحة بالرئيس السادات في انقلاب قيل إنه كان مخططاً القيام به يوم ١٦ نوفمبر . وتنفى الحكومة المصرية الآن أنه كانت هناك أية محاولة من هذا النوع . وفي الثاني من نوفمبر ، دعا وزير الخارجية الأمريكي وليام روجرز مرة أخرى إلى تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ ، الذي يقضي بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة في مقابل اعتراف العرب بإسرائيل ، إلا أن دعوة روجرز لم تلق كثيراً من الاهتمام .

أما سوريا ، التي تقع إلى الشمال الشرقي من إسرائيل مباشرة . فكانت قد أضيرت بصورة فادحة خلال حرب ١٩٦٧ ، وبعد الحرب ، أدت سياسات الرئيس السوري الأتاسي إلى الانعزال عن الحكومات العربية الأخرى ، فلم يكتف الأتاسي بالتأييد والتشجيع النشط للفدائيين الفلسطينيين ، ولا سيما أصحاب الميول المتطرفة أو اليسارية . بل قام أيضا بتشكيل مجموعة قومية خاصة به ، وهى منظمة الصاعقة السورية ، كما تدخل أيضا في الحرب الأهلية الأردنية ، وعارض وقف إطلاق النار الذي رتبه الرئيس عبد الناصر ، ثم ، في إعادة ترتيب أخرى لأوضاع السلطة ، أصبح حافظ الأسد رئيساً لوزراء سوريا في ديسمبر ١٩٧٠ ، ثم انتخب رئيساً للجمهورية في استفتاء في ١٢ مارس ١٩٧١ . وكان الأسد ، وهو ضابط نظامي سابق في سلاح الجو أكثر قبولاً لدى الحكومات العربية ، وأيضا لدى الاتحاد السوفييتي الذي لم يكن راضياً عن معاملة الأتاسي للشيوعيين السوريين .

ومن بين المزايا الأخرى أن الأسد كان علوياً ، والعلويون هم طائفة من طوائف الشيعة الإسماعيلية كانت تتمتع بالقوة والنفوذ في المنطقة المحيطة باللاذقية ، وكان ممثلو الأقلية العلوية قد حكموا سوريا بصورة فعلية لعدة سنوات ، حيث كانوا في البداية قد اكتسبوا نفوذهم داخل الجيش قبل عام ١٩٤٥ . وكان الفرنسيون يميلون إلى تفضيل هذه الطائفة

الإسلامية من الناحية العسكرية ، إحساساً منهم بأن ضباطهم وجنودهم يمتلكون خصائص القتال الشائعة بين سكان الجبال . وبعد ذلك كان كثير من الضباط ذوى العقليات السياسية في سوريا ينتمون إلى الطائفة العلوية ، وبعد حرب ١٩٦٧ ، انتشرت اتهامات خفية بأن الضباط العلويين قد تخلوا عن جنودهم ، وغالبيتهم من الشيعة . ونشأت الاحتكاكات بين العلويين والشيعة ، حيث راح كل فريق يلقى بمسئولية الهزيمة على الطرف الآخر .

وبينما كان القادة الجدد يتولون مقاليد الحكم ، كانت الحدود السورية مع إسرائيل ترتج بأحداث عدائية ، كان بعضها واسع النطاق . فراحت الطائرات تشتبك في السماء . وأدت أنشطة الفدائيين المتمركزين في سوريا إلى أن يصبح ذلك البلد هدفاً للضربات الإسرائيلية الانتقامية من وقت لآخر . وفي ١٠ أكتوبر ١٩٧٢ على سبيل المثال ، أكد متحدث إسرائيلي أنه منذ نهاية حرب ١٩٦٧ شن الاسرائيليون عشر هجمات ضد سوريا ، وزعم أنه تم اسقاط ٣١ طائرة سورية .

وكان الرئيس الأسد قد ورث تركة سياسية غير مريحة ، كانت تتضمن تغيير الحكومة كل عام تقريباً منذ الاستقلال عام ١٩٤٥ . وكان كل تغيير من هذه التغييرات في الحكم ، بالقوة أو بالانقلاب في الغالب ، يزيد من تفاقم الاضطرابات السياسية الداخلية ، وفي أوائل عام ١٩٧٣ قام المسلمون المتشددون بموجة من الاحتجاجات ضد ما زعموا أنه سوء المعاملة العنيفة من جانب نظام البعث العلماني . وفي ١٠ يونيو ، ترددت أنباء بأن الأسد أصيب في ساقه خلال محاولة انقلاب ، وأنه تم اعتقال حوالي ٣٠٠ من الضباط وضباط الصف في « الوحدات المتمردة » وخلال شهر سبتمبر فشل انقلابان آخران تردد أنهما وقعا . وتنامى السخط في بعض الدوائر ضد شقيقه العقيد رفعت الأسد قائد التشكيل المعروف باسم الحرس الجمهوري أو « سرايا الدفاع » . وكانت هذه القوة الأمنية الخاصة ، أو المخصصة لإحباط محاولات الانقلاب ، التي ترابط في دمشق مخصصة لهدف إبقاء الرئيس الأسد في الحكم ، وأجرى العديد من الاعتقالات السياسية .

وقد أسهمت المشكلات الداخلية في الدول العربية المنفردة في تلك الحالة التاريخية من التفكك . فبعد يونيو ١٩٦٧ ارتدت الدول العربية إلى حالتها المعهودة والمتوقعة بشكل عام من التفكك والفوضى . وكثيراً ما ظهر ساسة عرب يطمحون إلى قيادة أمة عربية موحدة . إلا أن هذا الحلم لم يتجسد على الإطلاق . وحقاً فإن تفتت المعارضة كان واحداً من أهم المزايا التي تمتعت بها إسرائيل . وفي عام ١٩٥٨ ، نجح الرئيس عبد الناصر لفترة قصيرة في توحيد مصر وسوريا في الجمهورية العربية المتحدة ، إلا أن هذه الوحدة تفككت عراها بعد ثلاث سنوات . ومنذ ذلك الحين ، لم يحدث شيء في هذا الصدد حتى عام ١٩٧٠ ، عندما طرحت فكرة إقامة اتحاد بين ليبيا ومصر .

وليبيا بلد تبلغ مساحته ٨١٠,٠٠٠ ميل مربع معظمها من الصحراء ، ولا يتجاوز عدد سكانها المليونين . وفي عام ١٩٦٥ ، بدأ إنتاج البترول وتزايد بسرعة حتى وصل الإنتاج اليومي عام ١٩٧٣ إلى أكثر من ٢,٢ مليون برميل . ولكن حتى تزايد ثروة البلاد لم يحل المشكلات الداخلية الملحة . وفي أول سبتمبر ١٩٦٩ ، استولى مجلس ثورة بقيادة العقيد القذافي على السلطة من أيدي الملك إدريس . وكان القذافي يدرك مزايا توحيد بلاده ، التي تمتلك الآن الكثير من أموال البترول ولكن بقلة من السكان ودون أية خبرة فنية ، مع مصر التي لا تمتلك كثيراً من المال وإن كانت تتمتع بوفرة في القوى البشرية والمعرفة الفنية . وكان يمكن للبلدين أن يكمل كل منهما الآخر بصورة رائعة ، لو كان قد أمكن حل مسألة القيادة السياسية . إلا أن القذافي ، رغم أنه كان شخصياً يتمتع بالشعبية بين شعبه ، قد أظهر طبيعة فردية يصعب التنبؤ بحركتها ، مما دفع السادات لانتهاج موقف حذر من الاقتراح .

ولم يطرح موضوع الوحدة بعد ذلك بصورة جادة حتى ١٧ أبريل ١٩٧١ ، عندما أعلن أن اتحاداً للجمهوريات العربية المتحدة يضم مصر وسوريا وليبيا ، سيبدأ سريانه في أول يناير ١٩٧٢ . ولكن اتضح أن هذا الاعلان كان سابقاً لأوانه . فرغم أن الرئيس السوري الأسد كان يقيم مع الدول العربية الأخرى علاقات أفضل من أسلافه ، فإنه لم يكن قد انتزع السلطة إلا منذ وقت قصير ، وكانت لديه مشكلات داخلية يتعين التعامل معها أولاً .

وبالإضافة إلى ذلك . فإن الرئيس السادات ، الذي لم يكن يشعر بالارتياح إزاء دوافع جاره ذى الثراء البترولي الجديد ، كان لا يزال متردداً . وخلال عام ١٩٧٢ ، لم يتم إحراز سوى قليل من التقدم ، باستثناء بيان صدر في الثاني من أغسطس يعلن قيام وحدة بين مصر وليبيا في أول سبتمبر ١٩٧٣ ، وبحلول ذلك الوقت ، كان من الواضح أن سوريا قد انسحبت من المشروع ، ولكن السادات كان لا يزال يواجه ضغوطاً من جانب العقيد القذافي . وعلى أية حال ، ففي أول يناير ١٩٧٣ ، سحب القذافي وحدات جنوده الليبيين من منطقة قناة السويس بسبب خلافه مع سياسة السادات .

وفي الشهر التالي ، وقع حادث مأساوي في ٢١ فبراير ١٩٧٣ ، عندما ضلت طائرة ركاب مدنية ليبية طريقها فوق سيناء . وعلى مسافة نحو ١٢ ميلاً شرقي قناة السويس ، أسقط الاسرائيليون الطائرة ولقى ١٠٦ أشخاص مصرعهم . وزاد الحادث من التوتر ، حيث كان من المتوقع أن يصدر رد فعل انتقامي من جانب القذافي المتشدد في عدائه لإسرائيل . وفي النهاية ، هدأ الموقف تدريجياً بعد أن أقر الإسرائيليون بالخطأ ، وقدموا اعتذاراً .

وواصل القذافي جهوده للاتحاد مع مصر ، وزاره الرئيس السادات في يونيو ١٩٧٣ ، ولكنهما لم يتوصلا إلى أي اتفاق ، كما أن زيارة مقابلة قام بها العقيد القذافي للقاهرة في أوائل يوليو لم تثمر شيئاً هى الأخرى . وأدى هذا الجمود إلى قيام نحو ٤٠٠٠ ليبي بمسيرة

جماهيرية لمسافة ١,٥٠٠ ميل في ١١ يوليو ، حيث كانوا يعتزمون « الاعتصام » في قصر عابدين حتى يتحقق الاتحاد . وتم ايقاف المسيرة على مسافة حوالي ٢٠٠ ميل من القاهرة بإيقاف قطار في تقاطع للطرق لإغلاق طريقها . وأمكن عندئذ إقناعهم بالعودة إلى بلادهم .

وبحلول يناير ١٩٧٢ ، كانت فكرة الاتحاد قد عادت تراود الرئيس السوري الأسد . ففي ٣١ يناير ، دعا كل الدول العربية إلى توحيد صفوفها لمواجهة « أعظم تهديد لها منذ الحروب الصليبية » . إلا أن النتيجة الظاهرية الوحيدة لم تزد على أن الملك الحسن عاهل المغرب أرسل إلى سوريا بعد ذلك بخمسة شهور بقوة مغربية صغيرة . وبينما راحت مصر وسوريا تتقاربان ، أخذت مصر وليبيا تتباعدان . وفي ٢٣ أغسطس . أعلن أن الوحدة المصرية الليبية قد « عادت » مرة أخرى ، ولكن العالم الذي كان يرقب ذلك راح يبتسم في استمتاع ، كما راح الإسرائيليون ينظرون إلى هذه المناورات الدبلوماسية في احتقار متعال .

وكانت الدولة العربية الأخرى التي خسرت بصورة فادحة في عام ١٩٦٧ هى الأردن ، وهى دولة كانت تواجه أيضا المتاعب من الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في أراضيها ويعملون منطلقين منها . وحتى وقف إطلاق النار الذي رتبه الرئيس عبد الناصر في الحرب الأهلية بين القوات المسلحة الحكومية والفدائيين لم يستمر طويلاً . فاندلع القتال مرة أخرى في يناير ١٩٧١ واستمر حتى شهر يوليو ، عندما طرد الملك حسين في النهاية الفدائيين من بلاده ، وهو العمل الذي جعله منبوذاً من بقية العالم العربي . وأغلقت الحدود الأردنية مع سوريا ، واشتبك جيشا البلدين لفترة قصيرة في شهر أغسطس ، واستمرت أعمال العنف خلال خريف ذلك العام : ففي نوفمبر اغتال الفدائيون الفلسطينيون رئيس الوزراء الأردني وصفي التل في القاهرة .

وفي ١٥ مارس ١٩٧٢ ، ألقى الملك حسين خطاباً أمام حوالي ٥٠٠ من الزعماء السياسيين في الضفتين الشرقية والغربية لمملكته ، أعلن فيه اعتزام الأردن أن يصبح المملكة العربية المتحدة التى تتألف من إقليمين ، الشرقي وعاصمته عمان التي ستكون العاصمة الاتحادية أيضا ، والغربي وعاصمته القدس ، وقوبل هذا الاقتراح بالرفض الحاد من جانب العرب والإسرائيليين على حد سواء . وكانت مصر وسوريا بوجه خاص تشكان فيما إذا كان الملك حسين قد توصل الى إتفاق مستقل ما ، مع الإسرائيليين . وردت مصر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الأردن .

وفي نهاية المطاف ، تمكنت تيارات السخط العديدة التى كان يموج بها المجتمع الأردني من اختراق القوات المسلحة . ففى ١٨ نوفمبر ١٩٧٢ ، اعتقل أكثر من ٣٠٠ ضابط أردني بعد محاولة انقلاب ضد الملك حسين ، الذي أصابه طيار أردني يقود طائرة من طراز « ستارفايتر » بجروح طفيفة . وفي الخامس من فبراير ١٩٧٣ ، زار الملك حسين الرئيس

نيكسون في أمريكا ، والذي وافق على إمداد الأردن بكميات صغيرة من الأسلحة ، كان من بينها ٢٤ طائرة أمريكية من طراز « اف - ٥ - اى » وهى مقاتلة تكتيكية ذات مقعد واحد من إنتاج شركة نورثروب . وبينما كان الملك حسين في أمريكا ، اعترف في برنامج تليفزيوني بأنه مستعد للدخول في تسوية منفصلة مع إسرائيل ، إذا ما أمكن التوصل إلى اتفاق مسبق حول عدة مبادىء ، « ولا سيما ما يتعلق بالقدس » وجعل ذلك الملك حسين أكثر مدعاة للتشكك وعدم الشعبية لدى أشقائه العرب .

ويمكن النظر إلى السنوات فيما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ على أنها فترة الفدائيين العرب في تاريخ الشرق الأوسط . فخلال تلك الفترة ، شن الفدائيون الفلسطينيون حرب عصابات ضد الإسرائيليين ، ونفذوا عمليات مثيرة ومشهودة شملت دولاً أخرى . فبعد أن فشلوا في محاولتهم لتطبيق مبدأ ماوتسى تونج عن « الأسماك » الفدائية التي تسبح في « بحر » الشعب العربي في الأراضي التي يحتلها الإسرائيليون ، ومدفوعين بالعداء الناجم عن مزيج من مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وإحباط ومرارة هزيمة ١٩٦٧ ، أحدث الفلسطينيون تحولاً في تكتيكاتهم ، حيث راحوا يسعون إلى تحقيق الشعبية الحماسية بين الجماهير العربية في كل مكان ، وإن لم يكن دائماً لدى الحكومات العربية نفسها . وأصبحت أنشطتهم مستقلة عن القيود الحكومية في الدول التي تستضيفهم مما أدى إلى حالة من الحرب الأهلية في كل من الأردن ولبنان . ورغم أن الحكومة اللبنانية كانت قادرة على كبح جماح الفدائيين بصورة جزئية ، فإنها لم تتمكن على الإطلاق من إخراجهم بالكامل من الجزء الصغير من أراضيها في الجنوب . وأصبحت هذه المنطقة المجاورة لجبل الشيخ تعرف باسم « أرض فتح » .

وقرر الفدائيون استخدام الساحة الدولية لإثارة اهتمام العالم بقضيتهم ، فاختطفوا في السادس من سبتمبر ١٩٧٠ ثلاث طائرات ركاب مدنية ، واتجهوا بها إلى مطار صحراوي في الأردن . واحتفظوا بالأطقم والركاب كرهائن لمدة ستة أيام أمام كاميرات محطات التليفزيون العالمية . وفي مطار القاهرة الدولى تم نسف طائرة ركاب أخرى اختطفت في نفس الوقت تقريباً . وفي يوم ١٢ سبتمبر ، نسف الفدائيون الطائرات الثلاث في الأردن ، بعد أن أطلقوا سراح بعض الركاب واحتجزوا البعض الآخر . وتلت ذلك أنشطة أخرى . كان بعضها مثيراً للغاية ، وبعضها الآخر ليس مثيراً إلى هذا الحد ، ومن بينها عمليات اغتيال . ففي ٣١ مايو ١٩٧٢ على سبيل المثال، دخل ثلاثة من أعضاء منظمة الجيش الأحمر الياباني الإرهابية إلى مطار اللد في إسرائيل ، ثم أخرجوا بهدوء رشاشاتهم وقنابلهم اليدوية من حقائبهم وهاجموا الحشد المنتظر في المطار ، ولقى ٢٦ من الموجودين مصرعهم ، وأصيب ٧٢ آخرون . وزعم الفدائيون أن هذه العملية أثبتت تأييداً لقضيتهم في أنحاء العالم .

وفي الخامس من سبتمبر ١٩٧٢ ، قامت مجموعة فدائية فلسطينية تعرف باسم « جماعة أيلول الأسود » ـ نسبة إلى هزيمتهم في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ في الأردن ـ بقتل ١١ رياضيا إسرائيليا ورجل شرطة ألمانياً في دورة الألعاب الأوليمبية في ميونيخ بألمانيا الغربية ، ومن بين العرب الخمسة الذين اشتركوا في العملية لقى اثنان مصرعهما خلالها .

إلا أن الألمان أطلقوا سراح الثلاثة الباقين ، الذين توجهوا إلى ليبيا حيث استقبلوا استقبال الأبطال . وكان الرد الإسرائيلي المعهود على الأنشطة الفدائية الإرهابية الموجهة ضد إسرائيل يتمثل في توجيه ضربات جوية انتقامية أو هجمات كوماندوز ضد الدول العربية المجاورة على أمل ضرب الفلسطينيين الفدائيين أو معسكراتهم . وفي تلك الحالة ، رد الإسرائيليون بعد ثلاثة أيام بغارة شملت ١٠٠ طائرة ضد معسكرات الفدائيين في سوريا ولبنان ، مما أسفر عن مصرع أكثر من ١٠٠ شخص .

ولجأت عناصر من الفدائيين إلى « الحرب البريدية » بإرسال الطرود والرسائل الناسفة إلى الضحايا . وفي ١٩ سبتمبر ١٩٧٢ ، لقى دبلوماسي إسرائيلي في لندن مصرعه برسالة من هذا النوع . وتصاعد هذا الأسلوب : وخلال النصف الأول من شهر نوفمبر أرسل أكثر من ٥٢ رسالة ناسفة إلى يهود يعيشون في أوروبا . كما تطور أيضا نوع من أعمال الحرب السرية يشبه « أفلام چيمس بوند » وشارك فيه الإسرائيليون مشاركة كاملة ، ففى السابع من أبريل ١٩٧٣ ، اغتيل ثلاثة من زعماء الفدائيين الفلسطينيين في بيروت . وأدى الإحساس القوى بسلبية الجيش اللبناني الظاهرية إزاء هذا الحادث إلى حرب أهلية مصغرة استمرت تسعة أيام في لبنان . وظناً منهم أن السوريين قد يتدخلون ، فقد قام الإسرائيليون بمناورات عسكرية بصورة ملحوظة للغاية في هضبة الجولان . وقام العرب والإسرائيليون على حد سواء بعمليات اغتيال أخرى . وإلى جانب الوخز الدائم للعمليات والأنشطة الفدائية . كان يتعين على إسرائيل أيضا أن تواجه الاضطرابات وأعمال الإرهاب العربية الداخلية في الأراضي المحتلة ، ولا سيما في قطاع غزة ، وهى الأعمال التي نجحت في احتوائها إلى حد ما ، ولكن دون أن تستطيع علاجها .

وبالنسبة للعالم الذي كان يرقب ذلك في سبتمبر ١٩٧٣ ، كان يبدو كما لو أن العرب ـ الذين هزموا بالفعل في ميدان القتال ثلاث (أو ربما أربع) مرات على أيدي الإسرائيليين ، والذين تعصف بهم الاضطرابات السياسية الداخلية ، والذين يمتلكون قوات مسلحة لا يعتمد عليها ، والذين لا يكفون عن إطلاق الاتهامات ضد بعضهم البعض ـ كانوا لا يزالون عاجزين عن التوحد للقيام بعمل إيجابي ، وأن تهديداتهم غير المجدية هى للاستهلاك المحلى فقط . فالإسرائيليون كانوا لا يزالون يحتفظون بالأراضي المحتلة ، وإذا كان هناك أي جديد ، فهو أنهم راحوا يشدون قبضتهم عليها بإقامة المستوطنات فيها تحدياً لاحتجاجات العرب . وكان يبدو أنه وسط الرمال المتحركة من

العداء المتعنت ، كانت إسرائيل تقف كقلعة حصينة ـ ثابتة وقوية وصلبة ، وتمتلك قوات مسلحة جيدة التنظيم ، تنتصر دائماً في المعارك ، وبالنسبة لها ، فإن « دمشق على مسافة ساعة واحدة فحسب ، أما القاهرة فربما كانت على مسافة ساعتين » .

وكان يبدو كما لو أن الخطر الرئيسي ، ليس على إسرائيل وحدها وإنما على العالم بأسره ، يأتي من الجماعات الفدائية الفلسطينية المتطرفة ، التي تختطف الطائرات وتحتجز الرهائن وتقتلهم أحياناً بغض النظر عن جنسياتهم ، والتي تقوم بأعمال إرهابية عشوائية لا تمييز فيها ، وكانت إحدى مشكلات العالم الملحة هى كيفية الحيلولة دون اختطاف طائرة أو كيفية التعامل مع الخاطفين . واتبعت الحكومة الإسرائيلية أيضا نفس هذا الخط من التفكير ، فاعتقدت أن الخطر الرئيسي يأتي من الفدائيين أكثر مما يأتي من القوات المسلحة للدول العربية المختلفة . وفي ١٥ سبتمبر ، قال الجنرال العازر رئيس الأركان الإسرائيلي إن الإسرائيليين سيظلون يضربون « الفدائيين الفلسطينيين في كافة أنحاء العالم » . وإلى حد بعيد كانت هذه الصورة مجرد سراب للشرق الأوسط ـ حيث كانت هناك تيارات خفية من النشاط العسكري العربي الذي يتسم بالتصميم ، والذي لم يكن واضحاً بشكل مباشر من خلال النظارات الوردية التي وضعها الإسرائيليون على عيونهم .

الفصل الثانى

عملية « الشرارة »

« لقد قلت لبريچنيف إنه سيتعين علينا أن نحارب في يوم من الأيام »

الرئيس السادات

في مصر كانت أفكار عميقة تتوجه نحو استعادة المكانة العسكرية وإزالة الآثار النفسية لهزيمة ١٩٦٧ . وعندما تولى الرئيس السادات الحكم في سبتمبر ١٩٧٠ ، اختار عدم استئناف حرب الاستنزاف . إذ كان يشعر أنها قد حققت الغرض منها في ذلك الوقت ، وأن أية محاولة لتجديد تلك السياسة سيكون من شأنها ببساطة أن تستثير رد فعل اسرائيلياً عنيفاً يتطلب موارد عسكرية غير متكافئة للتصدي له . وكان السادات يعتقد أنه من الأفضل تسليح القوات المسلحة وتدريبها وتكييفها بحيث تستطيع أن تتحرك بنجاح ضد الإسرائيليين في سيناء . وقد قال فيما بعد ، « منذ اليوم الذي توليت فيه السلطة عند وفاة الرئيس عبد الناصر ، كنت أعرف أنني لابد سأخوض الحرب » .

إلا أن الرئيس السادات كان يأمل دائماً ألا يضطر لخوض الحرب . وكان يفضل أن يحصل على تنازلات على هيئة انسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلة بوسائل دبلوماسية . ولمدة ١٨ شهراً ، ظل يتوقع أن يتحقق ذلك بضغط أمريكي على إسرائيل ، مثلما حدث من قبل عام ١٩٥٧ . وأكد فيما بعد :

كانت لدي بعض الآمال الضئيلة في وزير الخارجية روجرز عام ١٩٧٠ و١٩٧١ . ولكن كان كل ما فعله هو انتزاع المزيد والمزيد من التنازلات مني ، دون أن تكون هناك على الإطلاق أية استجابة واحدة من الإسرائيليين . وكان روجرز يظن أننا لن نحارب على الإطلاق . وكان الإسرائيليون يظنون أننا لن نحارب على الإطلاق . وكانوا يظنون أنه لا يمكن مفاجأتهم على الإطلاق . وكان الغرب يظن اننا جنود ضعاف بلا جنرالات محنكين .

وكانت كلمات السادات تنطوي على الأرجح على مفتاح تصرفاته اللاحقة . فالكبرياء المصري الجريح لدى الرئيس جعله يعقد العزم على أن يحقق في يوم من الأيام انتصاراً يضع مصر على الخريطة العسكرية للعالم . ومع ذلك فخلال **عام الحسم** (١٩٧١) الذي امتلأ بالتصريحات والتهديدات ، أعطى تعليمات بتنفيذ بعض الإصلاحات العسكرية

وعمليات إعادة التنظيم . ولكن لم يكن بمقدوره فيما يبدو أن يتصور خطاً واضحاً محدداً للعمل .

ولكنه ، مع ذلك كان يتأهب للتدخل المسلح عندما أبرم في ديسمبر ١٩٧٠ اتفاقاً للمعونة العسكرية مع الاتحاد السوفييتي . ثم عندما وقع في ٢٧ مايو ١٩٧١ معاهدة الصداقة والتعاون مع السوفييت مدتها ١٥ عاماً . ووفرت هذه الاتفاقات لمصر المزيد من الأسلحة ، إلى جانب المزيد من الخبراء والمدربين والفنيين السوفييت . وخلال عام ١٩٧١ ، أشارت تقديرات « **المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية** » الذي لا ينازع أي من الطرفين في صحة أرقامه بشكل جاد ، إلى أن هذه الأسلحة شملت على الأقل ١٠٠ طائرة ميج ـ ٢١ ، و٢٥ طائرة سوخوي ـ ٧ ، و٥٥ طائرة ميج ـ ١٧ وميج ـ ١٥ ، و٧٠ طائرة هليكوبتر مي ـ ٨ ، وأعداداً غير محددة من صواريخ سام ـ ٢ ، وسام ـ ٣ المضادة للطائرات وبطاريات المدافع ٢٣ مم (الرباعية) المضادة للطائرات ، ومدفعية الميدان عيار ٢٠٣ مم . وبعد هذه الشحنة الكبيرة ، بدأت إمدادات السلاح تنضب ، مما أدى بالسادات إلى استنتاج غير مريح مفاده أن أمريكا والاتحاد السوفييتى قد توصلا إلى اتفاق سرى ما بشأن مستويات السلاح في الشرق الأوسط ، حيث كان يبدو أن كلتا القوتين العظميين راضية بحالة اللاسلم واللاحرب . وفي الخامس من نوفمبر تولى الرئيس السادات القيادة العليا للقوات المسلحة المصرية ، على أساس أن الوضع السياسي والعسكري القائم كان يتطلب اتخاذ مثل هذه الخطوة .

وكان ما يبدو من افتقار مصر للعمل والقيادة الإيجابية يسبب قلقاً داخل القوات المسلحة ، ولا سيما في تلك القطاعات التي شهدت أعمالاً عسكرية بطول جبهة قناة السويس خلال حرب الاستنزاف . وامتد الإحساس بالمرارة ليشمل الأمة ، ليسفر عن مظاهرات طلابية في ١٩ يناير ١٩٧٢ ، تطالب بالحرب ضد إسرائيل وبموقف حاسم ضد المصالح الاقتصادية الأمريكية في مصر . ولتهدئة الطلاب ، أبلغهم السادات بأنه قد تم اتخاذ قرار خوض الحرب ضد إسرائيل . ولم يكن ذلك التفاخر صحيحاً في ذلك الوقت ، واعترف السادات فيما بعد أن الخطة لم تبدأ في التشكل في ذهنه إلا في الشهر التالي ، وهي الفكرة التي تطورت في نهاية الأمر إلى **عملية الشرارة** . وكانت هذه العملية تنقسم إلى جزءين ، أولهما عملية عسكرية تسعى لتحقيق مكاسب محدودة . وكان من شأن هذا الاندلاع الأولى للمعارك أن « يشعل شرارة » أزمة دولية ينجر إليها كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . وكان السادات يأمل أن تجبر القوتان العظميان إسرائيل عندئذ على تقديم تنازلات مقبولة للعرب . وسارع هيكل ، رئيس تحرير **الأهرام** السابق ، يشرح أن « عام ١٩٧١ هو عام اتخاذ القرار ، وليس عام تنفيذه » . وكان السادات في الواقع يقتبس ورقة من الكتاب الإسرائيلي . فالاسرائيليون كانوا يتبعون هذه الاستراتيجية في الماضي .

ومع عدد من السكان يبلغ ٣٦ مليون نسمة ، كانت مصر تمتلك وفرة من القوى البشرية اللازمة للصراع الوشيك . وحقاً ، فإن وفرة الأفراد كانت تسهل التطبيق الانتقائي لفترة التجنيد التي تبلغ ثلاث سنوات ـ فلم يكن ينخرط في سلك الجندية إلا الأفضل والأكثر لياقة . ومن بين ٣١٨,٠٠٠ رجل في القوات المسلحة ، كان حوالي ٢٦٠,٠٠٠ منهم في الجيش ، الذى كانت له قوة احتياط مدربة تتجاوز نصف المليون جندى . فبعد الخدمة العسكرية الفعلية ، يبقى المجند في خدمة الاحتياط النشط حتى يكمل ١٢ عاماً ، بما فيها الخدمة الأصلية ، أما الضباط ، فكانوا يبقون في خدمة الاحتياط لمدة أطول كثيراً وفقاً لحد من العمر يتحدد تبعاً لرتبة الضابط . وإلى جانب عناصر الضباط النظاميين الكبيرة كانت هناك فئة أخرى من الضباط النظاميين الذين تتم ترقيتهم من صفوف الجنود ، وإن كان تقدم أعمارهم نسبياً عند دخولهم سلك الضباط يجعل من غير المرجح وصولهم إلى رتب كبيرة . ومع ذلك ، فقد كان مثل هؤلاء الضباط يشكلون إسهاماً قيماً كقادة مخضرمين .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان عدة آلاف من الجنود يخدمون لفترات منتظمة قصيرة وطويلة الأمد كفنيين أو أخصائيين . وكان كثير منهم يخدمون في قيادة الدفاع الجوي ، وكمعلمين في المنشآت التدريبية والمدارس العسكرية . ومنذ حرب ١٩٦٧ تم استبقاء أعداد كبيرة من الضباط والجنود في القوات المسلحة بعد إكمالهم فترة تجنيدهم .

وفي عام ١٩٦٧ والأعوام التي سبقته . كان جنود الجيش المصري من الفلاحين القادمين من القرى الواقعة في منطقة الدلتا المكتظة بالسكان . وكان هؤلاء الفلاحون بسطاء غير معقدين وغير معتادين التعامل مع الآلات الحديثة ، وكان الأمر يستغرق وقتاً لتعليمهم قيادة وصيانة المركبات ، والتعامل مع الأسلحة المعقدة ، ولكن بحلول عام ١٩٧٣ لم يعد الحال كذلك ، فرغم أن ما يقرب من ثلاثة أرباع الجنود كانوا لا يزالون من الفلاحين ، فإن الآخرين كانوا أساساً من أهل المدن . وكان عدد سكان القاهرة نفسها قد تجاوز الستة ملايين نسمة . وكانت هذه النسبة الكبيرة من سكان الحضر قد اعتادت طوال حياتها التعامل مع أجهزة وآلات النقل والراديو الحديثة ومع الآلات الميكانيكية الحديثة . بل وكان الأهم أنه قد انضمت إلى صفوف الجنود عناصر من خريجي المدارس الثانوية والطلاب . ممن كان الرئيس عبد الناصر قد حظر فيما مضى انضمامهم إلى القوات المسلحة اعتقاداً منه أن تجنيد المثقفين الشبان قد يشكل خطراً سياسياً . وكان كثير منهم يفضلون الخدمة كجنود . لأن تحولهم إلى ضباط كان يعني استمرارهم في خدمة الاحتياط مدة أطول ، بينما كان بقاؤهم كجنود مجندين يجعل الحد الأقصى لالتزامهم العسكري لا يتجاوز ١٢ عاماً .

ومن الناحية الأساسية ، كان العنصر القتالي للجيش المصري يتشكل من ثلاث فرق مدرعة ، وثلاث فرق مشاة ميكانيكية ، وخمس فرق مشاة ، كلها منظمة على التشكيل الثلاثي السوفييتي ـ أي ثلاث سرايا تشكل كتيبة ، وثلاث كتائب تشكل لواء ، وثلاثة ألوية

تشكل فرقة ، بالإضافة إلى وحدات متكاملة للمعاونة والامداد . وبالإضافة لذلك كان هناك لواءان من المظلات ، و١٦ لواء مدفعية ، فضلاً عن ٢٠ من وحدات القوات الخاصة . وكان الاتحاد السوفييتي قد عوض مصر عن الأسلحة التي فقدت في حرب يونيو ١٩٦٧ ، وخلال حرب الاستنزاف ، تم إرسال كميات أخرى من العتاد والذخيرة ، بما في ذلك صواريخ سام والمعدات المعاونة لها . وكانت مصر تمتلك حوالي ١,٧٠٠ دبابة و١,٢٠٠ عربة مدرعة خفيفة و١٥٠ مدفعاً ذاتي الحركة وأكثر من ٤,٥٠٠ مدفع وهاون من مختلف الأنواع والأعيرة ، بالإضافة إلى أعداد من قواذف الصواريخ المضادة للدبابات (آر . بي . جي) وما لا يقل عن ٢٤ صاروخاً أرض/أرض من طراز « فروج » - وكلها من النماذج السوفييتية الحديثة .

وكانت قيادة الدفاع الجوي فرعاً مختلفاً تماماً داخل القوات المسلحة . ففي أوائل عام ١٩٧٢ كانت تقوم بتشغيل نحو ٧٠ موقعاً من مواقع إطلاق صواريخ « سام - ٢ » و٢٠ موقعاً لصواريخ « سام - ٣ » وكان أفراد سوفييت هم الذين يسيطرون بالكامل على هذا النوع الأخير . وكانت أغلبية مواقع صواريخ سام ، بالإضافة إلى بطاريات المدفعية ٢٣ مم الرباعية المضادة للطائرات والتي تعمل بتوجيه راداري ، توجد في منطقة قناة السويس ، وحول السد العالي وفي المواقع الاستراتيجية الأخرى .

إلا انه كان واضحاً أن كمية الأسلحة السوفييتية التى حصلت عليها مصر لم تكن كافية لعملية الشرارة وفي الثاني من فبراير ١٩٧٢ ، توجه الرئيس السادات إلى موسكو حيث قضى يومين في محاولة إقناع الحكومة السوفييتية بإمداده بأسلحة « هجومية » بدرجة أكبر . وحسب التعبيرات الدبلوماسية السائدة ، فإن الأسلحة « الدفاعية » تشمل المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات ، على حين تشمل الأسلحة « الهجومية » الدبابات ، ولكن ليست القواذف الصاروخية - كان الخط الفاصل بين النوعين مبهماً بصورة يتعذر فهمها . وقيل إن الزعيم السوفييتي ليونيد بريجنيف قد قال للسادات : « لو أن كل دبابة من دباباتكم أطلقت طلقة واحدة فحسب ، لتغير مسار حرب ١٩٦٧ على نحو جذري ، ولكن مدافعكم لم تمسسها يد » . وعاد السادات خاوي الوفاض . واكتفى البيان الرسمي بالإشارة إلى ثقة السوفييت بقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ .

وبعد أن وجه الرئيس السادات انتقاداً علنياً للاتحاد السوفييتي لعدم تزويده بالسلاح ، عاد إلى موسكو في ٢٧ أبريل في محاولة أخرى للحصول على المزيد من الأسلحة .

وقال فيما بعد : « لقد قلت لبريجنيف إنه سيتعين علينا أن نحارب فى يوم من الأيام ، حيث لم يكن هناك أي بديل آخر ، ولكنه قال : إنه لا يريد حدوث مواجهة بين القوتين العظميين » . وفي هذه المرة نجح السادات بصورة جزئية . واكتفى البيان الرسمي بالقول بأن للعرب الحق في استخدام وسائل خلاف الوسائل السلمية لاستعادة « الأراضي

الضائعة » . إلا أن السادات أعلن في خطاب عيد العمال في أول مايو في الأسكندرية أنه « خلال فترة معقولة من الزمن سيمدنا الاتحاد السوفييتي بالقوة الهجومية لتحرير ارضنا » .

وفي ١٤ مايو ١٩٧٢ قام الماريشال جريتشكو وزير الدفاع السوفييتي الذي كان قد زار مصر من قبل في الفترة من ١٨ إلى ٢١ فبراير ، بزيارة أخرى للقاهرة . وبعد هذه الزيارة التي استمرت ثلاثة أيام ، اكتفى البيان الرسمي غير الملتزم بالقول ببساطة أن حالة التعاون العسكري تبعث على الرضا . وخلال ذلك العام ، تلقى السادات بعض الأسلحة من الاتحاد السوفييتي . ولكن من النوع الدفاعي فقط . وكان السوفييت يعتقدون أنه في حالة فشل الدبلوماسية والمفاوضات ، فإن الافتقار إلى الأسلحة الهجومية الكافية من شأنه أن يساعد في تقييد الخيارات المصرية في أي أعمال حربية ضد إسرائيل ، وأوردت صحيفة **الأهرام** القاهرية تفاصيل إمدادات الأسلحة السوفييتية ، مما أثار غضب الرئيس السادات والحكومة السوفييتية على حد سواء .

وعلى حين تفاقمت العلاقات بين الحكومتين المصرية والسوفييتية ، كان الافتقار إلى الأسلحة الحديثة الكافية يحدث شيئاً من الاستياء والسخط داخل القوات المسلحة . وقال السادات فيما بعد : « ظل الروس يراوغون طوال صيف وخريف عام ١٩٧٢ ، قالوا : إنهم ينتظرون الانتخابات الأمريكية في شهر نوفمبر ، ولا تنسوا أنه عندما كنت في موسكو في أبريل ١٩٧٢ ، ما كانوا يعرفون ما إذا كان نيكسون سيعود [إليهم في موسكو أم لا] ، وإن كان قد ذهب إلى موسكو فيما بعد ، عقب زيارته للصين » .

وفي ١٢ يوليو ، أوفد رئيس الوزراء عزيز صدقي إلى موسكو لتهدئة العلاقات المضطربة بين البلدين ، ولكن ظل الاتحاد السوفييتي لا يوافق على طلب مصر المزيد من الأسلحة واستقلال قرار استخدامها . وكانت موسكو تريد أيضا أن يبقى أفرادها في مصر ، إحساساً منها ولا شك أنهم كانوا في وضع يتيح لهم مراقبة كل التحركات العسكرية المصرية . وربما السيطرة أو حتى وقف أية مغامرة عسكرية متصورة .

وكان عام ١٩٧٢ بوجه عام عاماً للوفاق بين القوتين العظميين . فلم تكن أي منهما تريد حرباً تسبب لها حرجاً في الشرق الأوسط ، حيث سيتعين عليها الوقوف بجانب طرف ضد الطرف الآخر ، وكان الرئيس السادات يعتقد أنه في الوقت الذي وقع فيه الرئيس نيكسون والسكرتير الأول للحزب الشيوعي بريچنيف معاهدة « **سالت** » (للحد من الأسلحة الاستراتيجية) في ٢٦ مايو ، فقد تعهدا سراً أيضا بعدم تزويد مصر بأسلحة هجومية . وأدى هذا الاستنتاج إلى التصرف الدرامي التالي الذي قام به السادات ، بطرد الأفراد السوفييت من مصر . وكان عددهم الإجمالي يبلغ قرابة ٢٠,٠٠٠ فرد ، من بينهم ١٥,٠٠٠ جندي سوفييتي يقومون بتشغيل وحراسة ٥٠ موقعاً لصواريخ سام ـ ٣ ، وحوالي

٤,٠٠٠ آخرين موزعين بين مختلف مراكز القيادة والتشكيلات والوحدات ، كما كان هناك أكثر من ٢٠٠ طيار بأطقمهم الأرضية المعاونة . وكان الأفراد السوفييت يسيطرون بشكل فعلي على مطارات في الاسكندرية وچناكليس (بالقرب من الأسكندرية) وغرب القاهرة والمنصورة وأنشاص ومرسى مطروح وبور سعيد ، وكانت لهم وحدات بحرية قوية في بور سعيد والأسكندرية ومرسي مطروح والسلوم . وبدأت عملية خروج السوفييت في ١٧ يوليو ، وخلال بضعة أيام ، كان نحو ٤٠,٠٠٠ منهم ، بما فيهم عائلاتهم ، قد غادروا مصر . وببساطة تولى المصريون السيطرة وأعلن الرئيس السادات أن كل المنشآت والمعدات العسكرية السوفييتية في البلاد أصبحت الآن ملكاً للحكومة المصرية .

وفي معرض شرحه لهذا التصرف الحاد في خطاب ألقاه أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي ، قال الرئيس السادات : إن استخدام الأسلحة التي بحوزة مصر هو أمر يخص مصر وحدها ، وقال إنه طرد الروس لأنهم « كانوا يشعرون أن لهم وجوداً على أرضنا ، حتى وإن كانوا لا يظهرون بشكل كبير . لقد طردتهم لأعطي لنفسي حرية كاملة في المناورة . وقد عاد بعضهم بمهمة ، نفذوها جيداً فيما وراء القناة ، لتعليمنا كيف نستخدم الصواريخ الجديدة ، وخاصة صواريخ سام » . وأضاف قائلا : إن « مصر لم تسع مطلقاً إلى حدوث مواجهة بين روسيا وأمريكا ، ولم يتخيل أحد على الإطلاق أن يقوم أي جنود غير جنودنا بخوض معركة أرضنا وحقوقنا وكرامتنا » وعاد إلى مصر في هدوء ما يقدر بنحو ١,٠٠٠ من الأفراد السوفييت كمعلمين ، لإكمال الأفراد القلائل الذي بقوا طول الوقت .

وبعد أن رحل أغلبية الروس . أجرى المصريون تحسينات وتعديلات على بعض المعدات العسكرية . ولم يكن بمقدورهم إجراء هذه التغييرات في صواريخ سام ومحطات الرادار في وجود الفنيين السوفييت . فقد تم على سبيل المثال ، تعديل الدبابة ت ـ ٣٤ بحيث تستطيع أن تتحرك على جنزيرها لمسافة ٤,٠٠٠ كيلومتر بدلاً من ١,٠٠٠ كيلومتر فقط . وبوجه عام ، فإن المسافة النمطية التي كان السوفييت يتوقعون أن تقطعها الدبابات على جنازيرها كانت تنخفض إلى النصف في الشرق الأوسط ، فالمناخ والرمال والطقس كانت تخفض المسافة التي تقطعها الدبابات ت ـ ٥٤ وت ـ ٥٥ من حوالي ٦,٠٠٠ كيلومتر في أوروبا إلى ٢,٥٠٠ كيلو متر فحسب في مصر . فاستهلاك المحرك وجهاز نقل الحركة كان يتم في الشرق الأوسط بأسرع ، بمقدار الضعف مما في روسيا . أما التعديلات الأخرى ، مثل ربط القذائف الصاروخية بالدبابة ت ـ ٥٤ ، فكانت أبسط من ذلك .

وعندما أعيد انتخاب ريتشارد نيكسون رئيساً للولايات المتحدة لفترة ثانية في نوفمبر ١٩٧٢ ، أدرك السادات أن السياسة الخارجية الأمريكية ، ولا سيما فيما يتعلق بالشرق الأوسط ، لن تتغير . وبالتالي ، فلن يتعرض الإسرائيليون لأية ضغوط إضافية لتقديم

التنازلات الحيوية المتمثلة في التخلي عن الأراضي المحتلة ، وأدرك السادات الآن أنه ليس هناك أي بديل سوى تنفيذ الجزء الأول من **عملية الشرارة** .

وفي ١٤ نوفمبر ١٩٧٢ وفي خطاب أمام جلسة مغلقة للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي ، قال الرئيس السادات : « بعد انتخابات نوفمبر [عندما] عاد المستر نيكسون للحكم ، تلقيت خطاباً من المستر بريجنيف يقول فيه إنهم يريدون دعم سياسة الوفاق ، ونصحوني بقبول هذا الوضع . وقالوا إنهم لا يستطيعون زيادة إمداداتهم المعتادة من الأسلحة . وقد بدأنا التخطيط [للحرب] منذ هذه اللحظة » . وأكد السادات في الثالث من أبريل ١٩٧٤ أن « قرار خوض الحرب كان قراراً مصرياً مائة في المائة ، وضد إرادة القوتين العظميين .. ولكن استغرق الأمر من الكرملين بعض الوقت ليدرك أن القرار كان مصرياً ، ولم يكن خنجراً في ظهر الاتحاد السوفييتي بالتواطؤ مع الولايات المتحدة » .

وحقاً ، فإن السادات كان يقترب منذ فترة من قراره بتنفيذ **عملية الشرارة** فخلال الأسابيع السابقة ، كان يقوم في هدوء باختيار وتشكيل فريق عالي المستوى لتخطيط الجانب العسكري من العملية . وفكر المصريون في خطط من قبيل إسقاط لواء مظلات في سيناء ثم مطالبة الأمم المتحدة على الفور بوقف لإطلاق النار ، وكانت خطة ثانية تتضمن استخدام ٥٠ طائرة في قصف شرم الشيخ . إلا أن كل هذه الاقتراحات قوبلت بالاعتراض والرفض من جانب وزير الحربية محمد صادق ، الذي كان يفضل هدفاً استراتيجياً أوسع في عمل عسكري محدود . وكان الفريق أول صادق يتمتع بشعبية طاغية بين القوات المسلحة المصرية بسبب مقاومته للتدخل والضغط من جانب الروس . إلا أن السادات الذي كان يشك في أن صادق ـ أيضاً ـ له ميول سياسية ، أقصاه عن منصبه ، وأحل محله أحمد اسماعيل علي .

وفي ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ ، رقى اللواء أحمد اسماعيل علي ، الذي كان يعتبر خبيراً تكتيكياً لامعاً إلى رتبة الفريق أول ، وعين وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة المصرية ، واتفق الرئيس السادات والفريق اسماعيل في مشاوراتهما على شكل العملية العسكرية المحدودة المطلوبة « لإشعال شرارة » الأزمة الدولية .

وكان اسماعيل ، بعد أن أصبح ضابطاً في قوات المشاة المصرية عام ١٩٣٨ قد خدم كضابط مخابرات في الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم خدم في حرب ١٩٤٨ كقائد سرية ، وكان العميد الذي تولى قيادة منطقة أبو عجيلة في حرب ١٩٥٦ ، وكانت المعركة التي دارت في تلك المنطقة هي المعركة الوحيدة في الحرب « التي قاتل فيها المصريون بصورة جيدة ، بينما كان الإسرائيليون في حالة سيئة » على حد قول موشى ديان . وبعد حرب يونيو ١٩٦٧ مباشرة كلفه الرئيس عبد الناصر بتولي مسئولية جبهة قناة السويس ، وكان هو المهندس الرئيسي للدفاعات المصرية الأولية هناك .

وبعد استشهاد الفريق أول عبد المنعم رياض في العمليات العسكرية في جبهة قناة السويس ، تم تعيين إسماعيل رئيساً للأركان خلفاً له . إلا أن هذه الترقية لم تدم طويلاً ، حيث أحيل إسماعيل إلى الاستيداع وخرج من الجيش ، بعد أن قام الإسرائيليون في « حرب الساعات العشر » بغارة على الجانب المصري من خليج السويس في التاسع من سبتمبر ، واستولوا على دبابتين سوفييتيتين جديدتين من طرازت ـ ٦٢ . وفي مايو ١٩٧١ أعاد الرئيس السادات الضابط السابق إلى الخدمة وعينه مديراً للمخابرات ، وهو منصب أتاح له ممارسة مواهبه التحليلية . وكان إسماعيل واحداً من أوائل « التكنوقراط العسكريين » المصريين . ورغم تجربته الطويلة في الخدمة الفعلية ، فقد كان نجاحه كمفكر عسكري ومخطط استراتيجي أكثر من نجاحه كقائد ميداني . وقد حضر دورات أكاديمية في كل من الاتحاد السوفييتي وبريطانيا ، وتولى قيادة أكاديمية ناصر العسكرية ، كما عمل لفترة وجيزة عام ١٩٦١ مستشاراً عسكرياً للرئيس باتريس لومومبا في الكونغو .

وكان يكمل الفريق أول إسماعيل رئيس أركانه الفريق سعد الشاذلي ، وهو نموذج لشخصية « البطل » العسكري لأية أمة . وكان قد أصبح ضابطاً في قوات المشاه عام ١٩٣٩ ، وبعد أن قضى دورة تدريبية في أمريكا ، أصبح قائداً لكتيبة المظلات الأولى والوحيدة (في ذلك الوقت) عام ١٩٥٦ . وبعد تدريب على أعمال القوات الخاصة في أمريكا ، تم تعيينه قائداً للقوات الخاصة المصرية ، وقام بتوحيد المنافسين التقليديين ، قوات المظلات والقوات الخاصة ، في وحدة واحدة من قوات المهام الخاصة ، وأصبح يعرف باسم « الملك مينا » نسبة إلى الملك المصري القديم الذي وحد شمال مصر وجنوبها . ولكن عندما تركهم الشاذلي ليتولى قيادة منطقة البحر الأحمر ، انفصلت قوات المظلات عن القوات الخاصة مرة أخرى . وتولى الشاذلي أيضا قيادة كتيبة الصاعقة التي كانت ضمن قوة الأمم المتحدة في الكونغو عام ١٩٦٠ ، وكان ملحقاً عسكرياً مصرياً في لندن عام ١٩٦١ . واشترك في حرب اليمن كما زار الاتحاد السوفييتي في دورة تدريبية ، وفي عام ١٩٦٧ كان يتولى قيادة « قوة الشاذلي » الخاصة في سيناء ، وكان واحداً من تلك القلة القليلة من كبار الضباط المصريين الذين خرجوا من الحرب دون أن يصيب سمعتهم شيء ، ولما كان هذا القائد الطبيعي يتمتع بشخصية قوية وإن كانت لطيفة ، فإنه كان يحظى بشعبية واسعة بين صغار الضباط والجنود . إلا أن هذه المشاعر لم تمتد دائماً إلى رؤسائه ومعاصريه ، وقد نشأ الاحتكاك في جانب منه بسبب سرعة ترقيات الشاذلي ، فعندما رقى إلى رتبة الفريق ، كان ترتيبه الثلاثين في قائمة اللواءات .

أما مدير العمليات ، فكان الفريق محمد الجمسي ، الذي تم تثبيته في هذا المنصب في ديسمبر ١٩٧٢ ، بعد أن ظل يشغله بصورة مؤقتة منذ شهر فبراير ، وهو ضابط مدرعات سابق . وتم تعيينه مديراً للمخابرات في سبتمبر ١٩٦٩ ، ثم أصبح بعد ذلك مسئولاً عن

قطاع التخطيط . وفي نهاية الأمر ، أصبح مسئولاً عن إدارة التخطيط العسكري المشترك ، التي كانت تضم ، من الناحية النظرية على الأقل ، القوات المصرية والسورية والليبية . وقد ولد عام ١٩٢١ في البتانون بمحافظة المنوفية ، وتخرج فى الكلية الحربية الملكية عام ١٩٣٩ ، ويمتلك الجمسي قائمة مؤثرة من المناصب القيادية . بداية من قيادة الفوج الخامس استطلاع عام ١٩٥٥ ، لتشمل قيادة اللواء الثاني المدرع عام ١٩٥٩ ، وقيادة مدرسة المدرعات عام ١٩٦١ ، وقيادة فرع عمليات الجيش عام ١٩٦٦ ، وقيادة مجموعة عمليات الجبهة السورية عام ١٩٧٠ ، وقيادة هيئة تدريب القوات المسلحة عام ١٩٧١ .

وراح الفرقاء إسماعيل والشاذلي والجمسي يعملون معاً في علاقة متكاملة ، واحتفظوا بصلات وثيقة مع كبار الضباط الآخرين ، ومن بينهم الفريق أول طيار محمد حسنى مبارك قائد سلاح الطيران ، واللواء محمد على فهمي قائد الدفاع الجوي ، والفريق أول فؤاد ذكرى قائد سلاح البحرية ، واللواء عمر حسين جوهر مدير إدارة التسليح والتنظيم ، واللواء على محمد قائد سلاح المهندسين ، واللواء فؤاد نصار مدير المخابرات .

ومنذ عام ١٩٦٧ ، كانت هناك خطة مبهمة لعبور قناة السويس ، والاستيلاء على رأس جسر في الضفة الشرقية ، وكانت التعديلات العديدة للهجوم تحمل اسماً حركياً هو **تحرير - ١ أو - ٢ أو - ٣** . وبعد إقامة حائط الدفاع الجوي على الضفة الغربية للقناة عام ١٩٧٠ ، أمر الرئيس عبد الناصر بوضع خطة للتقدم حتى ممرات سيناء ، وأصبحت هذه العملية الأكثر طموحاً تعرف باسم « جرانيت - ١ » ، نسبة إلى « صخور أسوان الصلبة التي صنع منها الكثير من الآثار المصرية » . وعندما أصبح الفريق أول صادق وزيراً للحربية وكان يتمتع بعقلية استراتيجية أكثر منها تكتيكية ، قام بتوسيع الخطة لتصبح اندفاعاً عريضاً حتى حدود ما قبل يونيو ١٩٦٧ ، وأصبحت هذه خطة « **جرانيت - ٢** » ، أما الخطة « **جرانيت - ٣** » فكانت تتصور دخول قطاع غزة .

وكانت هذه الخطط المتعاقبة تعنى تغير واختلاف مطالب السلاح والمعدات من الاتحاد السوفييتي . ويقول هيكل : « لم يكن الروس ليناقشوا على الإطلاق خطط العمليات مع السلطات المصرية ، كما لم يقوموا بأي دور في الدراسات الأساسية التي كانت وراء هذه الخطط ، كانوا على استعداد للمساعدة بالمادة ، ولكنهم كانوا يعتبرون الطريقة التي يتم بها تحرير الأراضي المحتلة ، أمراً يرجع بالكامل إلى مصر » .

وكان قد تم استيعاب كثير من دروس هزيمة ١٩٦٧ ، وبذلت محاولات لتصحيح بعض الأشياء وتحسين أشياء أخرى . وفي عامي ١٩٦٧ و١٩٦٨ ، جرت عملية تطهير كبيرة شملت ضباطاً كبارا وعديمي الكفاءة ، ولكن حتى ذلك الوقت وفي ظل نظام حكم الرئيس عبد الناصر ، ظلت القوات المسلحة تحمل آثار التدخلات السياسية . وظل الأمر هكذا حتى أصبح السادات رئيساً ، لتختفي التأثيرات السياسية ومعها عدد من الضباط ذوى الميول

السياسية ، وليظهر كادر جديد ودءوب وملتزم من الضباط المصريـين . وكان هؤلاء الوافدون الجدد قد صمموا - في هدوء - على ألا تتكرر مطلقاً نكبة مثل التي حدثت عام ١٩٦٧ . وكان من بين التجديدات الهامة ، تشجيع الضباط على دراسة الإسرائيليين (وهى سياسة كان عبد الناصر يحظرها) لمعرفة كل شيء عنهم ، بـل وتعلم اللغة العبرية .

وكان قد تم إنجاز بعض الأعمال الأولية في خطط « **تحرير** » و « **جرانيت** » . فأقيم حوالى ٨٠ جسراً من طراز بايلي عبر ترعة المياه الحلوة ، وهى قناة صغيرة تحمل المياه العذبة من نهر النيل بالقرب من القاهرة إلى القرى الواقعة على الضفة الغربية لقناة السويس . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أقيم عدد من المخاضات عبر القناة لتمكين المركبات من العبور بسرعة بأعداد كبيرة . ومع ذلك ، فلم ينجز - غير ذلك - شيء كثير مما يتسم بالأهمية العسكرية .

ولم تكن هذه الاستعدادات الهزيلة تعكس مخططات الفريق أول اسماعيل ، الذي قال : « لتكن الضربة ضد العدو كبيرة حقاً » . ومع تمتعه بوفرة في القوى البشرية ، فقد قرر أن يكون الهجوم بطول قناة السويس بأكملها ، والضغط على الدفاعات الإسرائيلية في كل مكان ، بدلاً من مهاجمة نقاط مختارة فقط . ولن يعرف الإسرائيليون من أين سيأتي اتجاه الهجوم الرئيسي . وبالتالي لن يعرفوا - على وجه التحديد - إلى أين يوجهون الثقل الكامل لهجماتهم المضادة .

وكانت الخطة الأساسية تقضي بأن يعبر المصريون قناة السويس بقوات كبيرة . ويتغلبوا على خط بارليف (وهو سلسلة من النقاط الحصينة الإسرائيلية التي تدافع عن الضفة الشرقية) ، ويتقدموا شرقاً ، ثم يحفرون خنادقهم عندئذ انتظاراً للهجمـات المضادة الإسرائيلية لصدها قبل استئناف التقدم ، وإن كان مأمولاً بصورة غير مباشرة أن تكون القوى العظمى أو الأمم المتحدة قد تدخلت في ذلك الوقت لفرض وقف لإطلاق النار . وكانت هذه الخطة متأثرة بشدة بحقيقة أن سلاح الطيران المصري لم يعد بعد كفؤاً لسلاح الجو الإسرائيلي . وكان حائط الدفاع الجوي القوي ، المؤلف من بطاريات صواريخ سام والمدفعية المضادة للطائرات ، المقام على الضفة الغربية للقناة ، بإمكانه تغطية الجسور المقامة عقب عملية العبور الأولية لمسافة عشرة أميال على الضفة الشرقية ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يوفر كثيراً من الحماية بعد ذلك .

وكانت إحدى المشكلات الرئيسية ، التي تواجه المصريين ، تتمثل في ضمان إمدادات كافية من البترول في وقت الحرب . وفي أبريل ١٩٧٣ ، بحث الرئيس السادات مع وزير بتروله احتياجاته المتصورة . وعندئذ اتصل السادات بالمملكة العربية السعودية والجزائر لتأمين البترول اللازم للحملة العسكرية . وعند إبلاغ هاتين الحكومتين بالغرض ، أرسلتا كميات كبيرة غير محددة من البترول ، وطُلِبَ البترول من ليبيا أيضا ، إلا أن العقيد القذافي

رد بأنه سيرسله إلى مصر عندما تنشب الحرب ، وليس قبل ذلك . وقد أرسلت ليبيا بالفعل بترولاً إلى مصر خلال حرب أكتوبر ، بأسعار تجارية ، ثم أوقفت الإمدادات عندما توقف القتال .

وفي الفترة من ١٧ إلى ٢٠ فبراير ١٩٧٣ ، تباحث الرئيس السادات مع الفريق أول إسماعيل وكبار الضباط الذين يتولون مسئولية التخطيط ، وأقر الخطة العامة التي قدمها اسماعيل ، ثم توجه يوم ٢٧ إلى موسكو وظل هناك حتى الرابع من مارس ، لشرح الخطة وطلب المزيد من الأسلحة ، ولا سيما صواريخ سام ـ ٦ المتحركة ، فالهجوم كان يعتمد على الصواريخ لتدمير أو تحييد سلاح الجو الإسرائيلي ، وبالتالي كان يتعين أن يكون حائط الدفاع الجوي كثيفاً ومميتاً ، كما أن التفوق الإسرائيلي المتوقع في المدرعات كان يفرض استخدام الصواريخ أيضا في تحييد أو تدمير الدبابات . وطلب السادات أعداداً كبيرة من المدرعات الحاملة للصواريخ المضادة للدبابات السوفييتية من طراز « بي . آر . دي . ام » بالإضافة إلى كميات من الصواريخ المضادة للدبابات .

وأعد الرئيس السادات خطة للخداع الدبلوماسي ، وفي فبراير ١٩٧٣ ، أوفد مستشاره للأمن القومي حافظ اسماعيل للقيام بجولة في عواصم أجنبية من بينها موسكو وبون ولندن وواشنطون . وزار حافظ اسماعيل أيضا مقر الأمم المتحدة في نيويورك في « هجوم للسلام » . والتقى مع الرئيس نيكسون يوم ٢٣ فبراير ، ولكن لم يصدر أي بيان رسمي عن اللقاء . وخلال نفس الفترة قام وزير الخارجية المصري محمد حسن الزيات بزيارة كل من نيودلهي وبكين لحشد التأييد والمساندة لخطة الخداع . وبحلول منتصف شهر مارس ، كان قد أصبح واضحاً للعالم أن هجوم السلام الذي قام به السادات قد فشل ، ولكنه كان قد خلق انطباعاً بأنه يجري البحث عن حل سلمي .

وقد قال الفريق أول اسماعيل إنه : « في الحرب ، تكون هناك خطتان ، إحداهما خطة عمليات ، والأخرى خطة صورية » . وكانت هذه الخطة الأخيرة تشمل إقامة مواقع دفاعية قوية وواضحة بطول الضفة الغربية للقناة ولا سيما في الجنوب ، لخداع الإسرائيليين وحملهم على الاعتقاد بأن المصريين يتوقعون هجوماً إسرائيلياً . كما أمر أيضا بإجراء سلسلة من الدراسات ، بتنسيق من رئيس الأركان الشاذلي ، للعوامل التي ستؤثر على الخطة ، مثل طبيعة القناة نفسها وبناء خط بارليف ، وفي الوقت ذاته ، بدأت التجارب للتغلب على بعض المصاعب الواضحة .

وكانت واحدة من أخطر المشكلات التي كان يتعين على الفريق أول اسماعيل التغلب عليها هي ما يسميه « حمى الخنادق » ، أي العقلية الدفاعية الناجمة عن القتال في حرب الاستنزاف الثابتة و « المرابطة في الخنادق »، لمدة ست سنوات ، فكان عليه أن يبث في الضباط والجنود الروح الهجومية والثقة بالنفس . وحقق الشيء الأول بأن أبلغهم أن

الحرب محتومة ، وبالتالي فلابد أن يتأهبوا لها ، وأن يعتادوا الفكرة وأن يقاتلوا جيداً عندما يحين الوقت . ولكى يعطيهم الثقة ، فقد صاغ شعار « الرجل ، وليس السلاح ، هو المهم » ، قائلاً : « إن الرصاصة تخرج من ماسورة البندقية سواء كانت البندقية جديدة أم قديمة ، فالجندي الجيد يمكن أن يستخدم سلاحاً قديماً بكفاءة ، على حين يمكن للجندي الرديء أن يكون غير مؤثر بسلاح حديث » ويقول اسـ عيل : « كنت أريد أن أغير المفهوم القديم القائل « السلاح يصنع الرجل » إلى مفهوم « الرجل يصنع السلاح » .. فما لم يكن رجالنا واثقين بأنفسهم ، فإن أسلحتهم لن تحميهم على الإطلاق ، ولكن من الناحية الأخرى ، إذا كانوا واثقين بأنفسهم ، فإن أية أسلحة في أيديهم ستكون كفيلة بحمايتهم » .

وبعد ذلك ، كان يتعين على الفريق أول اسماعيل أن يبنى ثقة الجنود في ضباطهم ، الذين لم يظهر البعض منهم مقدرة على القيادة في حرب ١٩٦٧ ، وأدى استبدال الضباط من كبار السن أو الذين يفتقرون إلى الكفاءة أو الكسالى بضباط شبان مفعمين بالطاقة وقادرين على العمل الجاد الدءوب إلى إشاعة جو جديد في سلك الضباط . كما نشأ اتجاه جديد لرعاية الجنود . وأصبح القادة من كل الرتب يبقون الآن مع تشكيلاتهم أو وحداتهم في الصحراء ، في المواقع الدفاعية أو في التدريبات ، حتى اعتادوا أن « يأكلوا الرمل » وأصبحت الأجازات الطويلة التي اعتادوها في القاهرة شيئاً من الماضي . وفي يناير ١٩٧١ ، استحدثت شروط أكثر صرامة فيما يتعلق بتكليف الضباط ، وتمت ترقية عدد من الجنود الذين أظهروا كفاءة إلى سلك الضباط . وأصبح من الأسهل بوجه عام على أولئك الجنود الذين اكتسبوا مؤهلات خاصة أو أظهروا قدرة على القيادة كضباط أن يترقوا إلى سلك الضباط .

وكانت إحدى المهام الأولى التي واجهها الفريق الشاذلي المفعم بالطاقة هى رفع الروح المعنوية وبث روح هجومية في جيش تربى بصورة تقليدية على توخي الحذر والتزام الدفاع . ولكي يفعل ذلك ، فقد طور مبدأ يعرف باسم « المخاطرة المحسوبة » . فقبل ذلك ، إذا كانت هناك قنبلة لم تنفجر وتسد طريقاً ، فإن كل شيء كان يتوقف ويتم إخلاء المنطقة بأسرها ، حتى يحضر الخبراء للتعامل معها . وكان من الواضح أن مثل هذا الاجراء من شأنه أن يعرقل أي عملية لعبور القناة . حيث كان الإسرائيليون كثيراً ما يلقون قنابل زمنية تنفجر بعد فترة من أجل هذا الغرض . وقد طرأت هذه الفكرة على ذهن الشاذلي عندما انحرفت شاحنة عسكرية محملة بالجنود عن الطريق وانقلبت فلقى خمسة من الجنود مصرعهم وأصيب آخرون إصابات خطيرة ، وكانت مثل هذه الحوادث التي تقع على الطرق تعتبر من قبيل الحوادث المؤسفة ، وإن كانت ببساطة « من تلك الأشياء التي تحدث دائماً » . وأدى به هذا التفكير العقلاني إلى استنتاج مفاده أنه إذا كانت خسائر من هذا

النوع مقبولة من المدنيين دون انزعاج في الأوقات العادية ، فينبغي أن تكون مقبولة أيضا من جانب الجنود أثناء الحرب .

واختبر الشاذلي هذه النظرية باستخدام كمية من المقذوفات والمتفجرات القديمة ، كانت في حالة متحللة وخطيرة ، حيث كانت معزولة ومهملة في مخزن نفايات في الصحراء ، وبعد أن شرح الفريق الشاذلي مبدأ المخاطرة المحسوبة ، أمر جنوده بالتقدم لإزالتها . وتم إنجاز المهمة بسرعة ودون أية خسائر ، وهو ما أدهش الجميع بما فيهم الشاذلي نفسه ، واثبتت التجربة صحة مبدأه بصورة بالغة . وأصر هو على أن كل الجنود لابد أن يواصلوا المهام المكلفين بها مهما كانت الأخطار الظاهرة ، وبعد ذلك حتى وإن كان أحد الجسور يتعرض للهجوم من الجو ، فإن القافلة التي تمر فوقه بمركبات تفصل بين كل منها والأخرى مسافة ٣٠ متراً ، يجب الا تتوقف ، وإلا ستعطل جزءاً من نحو ٣٠٠٠ مركبة تعبر الجسر ، كذلك فإن الرجال الذين يعملون في مطار ألقيت عليه قنابل زمنية تنفجر بعد فترة ، لابد أن يواصلوا عملهم دون إخلاء المنطقة . وبذلك لم يعد القلق على السلامة الفردية يعطل أية عملية أو تدريب .

وعندما أصبح الفريق الشاذلي رئيساً للأركان ، وجد أن الجيش المصري يفتقر إلى المعايير النمطية الموحدة فيما يتعلق بالعتاد أو الذخيرة التي يتعين على كل فرد أو وحدة أن تحتفظ بها بصورة آلية في الخدمة النشطة أو في المعركة . وكان يعرف من تدريبه كمظلي أن ثقل وحجم هذه القطع من العتاد والذخيرة أمر يتسم بالأهمية . وأنه لا غنى عن بعض المعدات . والشيء الأهم أنه كان من الضروري أن تتحدد المعدات الحيوية على نحو واضح . بحيث لا يتم نسيان أو إغفال أي منها ، وشرع الفريق الشاذلي بسرعة في تصحيح هذا الوضع ، وجمع ضباط أركانه لبحث المشكلة وتحديد الأشياء التي يتعين على الجندي أن يحملها في القتال ، وكمياتها . وكان يؤمن أيضا بأن كل جندي يجب أن يتدرب بدقة على مهمته الخاصة في العملية ! وكان من رأيه أن من الأفضل أن يعرف الفرد مهمة واحدة بدقة عن أن يمتلك معرفة غير كاملة بمهام عديدة .

وبعدما يقرب من ثلاثة شهور من البحث والعمل المضني لهيئة الأركان ، أصدر الشاذلي توجيهه الشهير « التوجيه رقم ٤١ » في ٢١ مارس ١٩٧٣ ، الذي حدد المهمة الدقيقة لكل جندي والمعايير المحددة للأسلحة والذخيرة والمعدات وحصة التموين والماء وغير ذلك مما ينبغي أن يحمله كل فرد . وكان على الضباط أن يقرءوا فقط الجزء المتعلق بهم من التوجيه ، ليعرفوا فقط ما هو متوقع منهم ومن الجنود الذين تحت قيادتهم خلال العملية ، ولكي يعرفوا على وجه الدقة كيف يدربون ويجهزون جنودهم بالعتاد . ولم يكن مثل هذا النظام والإحكام معروفاً من قبل على الإطلاق في الجيش المصري ، وسرعان ما بدأ التدريب ، وكان التدريب على مستوى الأفراد والوحدات على حد سواء قاسياً ، ومكرراً ، ومستمراً ، وعملاً

بتوجيه الشاذلي ، كان كل فرد يتدرب على المهمة المعينة التي سيقوم بها عند بدء المعركة ، بحيث يستطيع بالتالي أن يقوم بها بلا مصاعب .

وقامت فرق من ضباط الأركان ، أساساً تحت إشراف الفريق الجمسي ، بدراسات أخرى على أساس علمي لتحديد وتحليل العوامل التي قد تؤثر على عبور القناة ، ووضع في الاعتبار اختيار يوم بدء الهجوم ورد الفعل الإسرائيلي المحتمل على حد سواء ، وكانت هناك ثلاث مشكلات عسكرية خاصة يتعين بحثها لإيجاد أفضل الحلول : العبور الفعلي للمانع المائي ، واختراق دفاعات خط بارليف ، والسرعة في فتح ثغرات كبيرة في الاستحكامات الرملية المرتفعة في الضفة الشرقية ، كما كان يتعين أيضا وضع خطة للخداع العسكري .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، ركز الروس تدريباتهم على أساليب « الهجوم عبر الموانع المائية » ورغم أن المصريين كانوا قد تعلموا قدراً كبيراً منهم في هذا الشأن ، فإنهم سرعان ما اكتشفوا أن قناة السويس تمثل مشكلات خاصة ، فهي ليست على الإطلاق بالممر المائي الهادىء الذي يجري في الأرض ، بل إن بها حركة مد قوية وتيارا سريعا يغير اتجاهه كل ست ساعات ، بالإضافة إلى اضطرابات مائية جغرافية موسمية أخرى ، وترجع هذه السمات أساساً إلى التقاء بحر عرضي « البحر المتوسط » مع بحر طولي « البحر الأحمر » من خلال الممر الضيق للقناة : كما كان يزيد من تأثير هذه السمات تلك القطاعات من المياه المفتوحة ، مثل بحيرة التمساح والبحيرات المرة . التي تقطع مجرى القناة نفسها . وكان المد في شمال القناة يرتفع (وينخفض) بمقدار ٦٠ سنتيمتراً فقط ، ولكنه كان يزيد إلى المترين في الجنوب ، على مسافة ١٧٥ كيلومتراً ، وكانت سرعة التيار تبلغ ١٨ متراً في الدقيقة في الشمال ، وتزيد إلى ٩٠ متراً في الدقيقة في الجنوب ، وسرعان ما اتضحت المشكلات في عملية مد الجسور ، أو حتى ببساطة في مجرد التجديف بزورق إلى نقطة معينة في الضفة المقابلة ، وأجريت دراسة خاصة لسجلات هيئة قناة السويس لعدة أعوام مضت لتحديد أنسب المواعيد للقيام بالعملية .

وتم تجميع نحو ٢٥٠٠ من زوارق الهجوم الصغيرة من أجل العبور . وكان كل زورق مصمماً ليحمل ثمانية جنود مقاتلين بكامل عدتهم القتالية ، بينما يقوم جنديان آخران بتسييره بالتجديف اليدوي . وراح الجنود الذين اختيروا كأطقم لهذه الزوارق يتدربون بقوة في الجزء الغربي من « تفريعة » البلاح ، حيث كانت الضفتان في حوزة المصريين ، وحيث طول « جزيرة » البلاح يبلغ خمسة أميال ، وعندما قال اللواء علي محمد قائد سلاح المهندسين فيما بعد « كانت هناك تيارات مائية في أرض تدريبنا بنفس سرعة تيارات قناة السويس » ، فقد كان يشير إلى تفريعة البلاح ، وقال أيضا : « إنهم تدربوا أكثر من ٣٠٠ مرة على مهام العبور ومد الجسور » .

وكانت المشكلة الثانية تتمثل في كيفية اختراق خط بارليف ، وكانت هذه السلسلة من

النقاط الحصينة قد تطورت من السلسلة الأصلية لنقاط المراقبة الصغيرة ، التي أقيمت على الضفة الشرقية بعد حرب ١٩٦٧ ، لتتحول إلى عائق منيع : وكان القصف المدفعي والجوي الكثيف خلال حرب الاستنزاف قد دفع الاسرائيليين إلى تقوية دفاعاتهم ، وتم تحويل عدد من النقاط إلى « قلاع » حصينة كبيرة متعددة الطوابق ومضادة للقنابل والقصف ، تحميها ألواح خرسانية سميكة من أعلى ، وتدعمها قضبان حديدية مأخوذة من خطوط السكك الحديدية المجاورة المهجورة ، وتعززها أكوام الرمال والصخور الضخمة المربوطة في شبكات من الأسلاك .

ودائماً ما كانت هناك كثبان رملية على الضفة الشرقية للقناة ، نتيجة لأعمال التطهير المستمرة التي كانت تلقى على ذلك الجانب وحده ، ونظم الإسرائيليون هذا الحاجز الرملي ، وزادوا ارتفاعه إلى ٦٠ قدماً أو يزيد ، وحركوا حافته الأمامية حتى حافة القناة ، ولم يكن هناك طريق أو موطىء لقدم عند حافة الماء . وكان هذا المنحدر الأمامي ملغماً بالألغام والشراك الخداعية ومليئاً بالأسلاك الشائكة . وأصبح في النهاية تلاً رملياً مستحكماً تبلغ درجة ميله ٤٥ درجة أو أكثر . ولم يكن بمقدور المركبات البرمائية صعوده ، فهي بوجه عام لا تستطيع أن تصعد إلا منحدرات تبلغ درجة ميلها ما يتراوح بين ٣٠ و٣٢ درجة فقط . وكانت النقاط الحصينة في خط بارليف مبنية داخل هذا التل الرملي الهائل ، وكانت تشمل مواقع للمدفعية ، وخنادق للاتصالات مكسوة بالحجارة والأسمنت ، ومخابىء للمركبات ، ومخازن للذخيرة ، وأماكن للنوم . وتختلف التقارير عن العدد الدقيق لهذه النقاط الحصينة ، فالمصريون يقولون إنه كانت هناك ٣١ نقطة حصينة في ٢٢ مجمعا دفاعيا ، بينما يصر الإسرائيليون على أنه لم يكن هناك سوى ١٦ نقطة حصينة فقط بالإضافة إلى المواقع الدفاعية الأخرى . أو المواقع التبادلية . ويبدو أن المسألة تخضع للتفسير المتميز لما يمكن أن يعتبر نقطة حصينة ، وما يمكن أن يعتبر مجرد موقع دفاعي فحسب ، إلا أن الملاحظة الوثيقة تكشف وجود ٢٦ نقطة حصينة ، تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم على ضفة القناة والبحيرات ، بالإضافة إلى نقطة على كل من ساحلي البحر المتوسط وخليج السويس .

وكانت النقاط الحصينة نفسها ، التي تحيطها حقول الألغام والأسلاك الشائكة ، لا تتصل ببعضها إلا بالدوريات وخطوط المواصلات التليفونية واللاسلكية . ووراء هذا التل الرملي كان يوجد تل آخر أصغر حجماً وغير منتظم على مسافة تتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ متر ، يشكل خطاً دفاعياً ثانياً . وكانت تتوزع بطوله ٢٤٠ « منصة » صخرية أو خرسانية لاستخدام القواذف الصاروخية ، التي كانت توجه نيراناً غير مباشرة إلى الضفة الغربية من فوق التل الدفاعي الرملي الأول . كذلك ، كان يتوزع على طول هذا الخط الدفاعي الرملي الثاني عدد كبير من المنصات الأخرى لتستخدمها الدبابات في حالة

الطوارىء لتوجيه نيرانها غير المباشرة إلى الغرب . أو لتستخدم من خلالها رشاشاتها لاصطياد أي غزاة فيما بين الخطين الرمليين . وفي القطاعات التي تغطي الطرق الرئيسية الثلاثة الممتدة من الشرق إلى الغرب . في مناطق القنطرة والاسماعيلية والسويس ، أقيم تل رملي آخر إلى الخلف يضم المزيد من المواقع الدفاعية والمنصات لاستخدام المركبات .

ولكي تتغلب القوات المصرية على خط بارليف ، فقد راحت تتدرب على نماذج دقيقة له أقيمت على ضفاف القنوات المتفرعة من نهر النيل ، وأخذ المصريون يجربون عدة أساليب في محاولة التوصل إلى أفضلها ، باستخدام سلالم التسلق وسلالم الحبال وأعواد الخيزران والحبال . وكان من الصعب تسلق الرمال الناعمة غير الثابتة بسرعة ، ولا سيما عندما كان الجنود يحملون عتادهم وسلاحهم ، بالإضافة إلى ثقل الذخيرة الإضافي ، فضلاً عن إمداد التموين وغير ذلك ، مما كان يصل في مجموعه إلى نحو ٦٠ رطلاً ، فجندي المشاه المهاجم كان يحمل الحد الأقصى من الذخيرة ، بالإضافة إلى طعام وماء يكفيانه ثلاثة أيام .

وكان الإسرائيليون يقدرون أنه إذا ما نجح المصريون في عبور القناة ، فإنهم سيحتاجون إلى ١٢ ساعة على الأقل لفتح ثغرات في التل الدفاعي الرملي الأول بحيث يتمكنون من مد الجسور ودفع المركبات عليها . وكان من شأن هذه المدة الزمنية أن تتيح للإسرائيليين فترة إنذار كبيرة يستطيعون خلالها تعبئة مدرعاتهم وطائراتهم واستخدامها في هجوم مضاد ، وكانوا يتوقعون أن يضطر المصريون لاستخدام وسائل تقليدية ، مثل المفرقعات أو الصواريخ أو آلات الحفر ، في فتح الثغرات في التل الرملي الدفاعي . إلا أن المصريين اكتشفوا وسيلة أسرع وأفضل . فقبل ذلك بشهور كثيرة ، وأثناء بناء السد العالي ، نجحوا فى نقل كميات كبيرة من الرمال اللازمة لصنع الخرسانة لمسافة عدة أميال من الصحراء إلى موقع السد ، بدفعها في أنبوبة ضخمة باستخدام ضغط الماء . وفي الموقع ، راحت المياه تتسرب إلى الأرض وتتبخر بحيث بقى الرمل وحده . ومن تجاربهم ، اكتشف المصريون أن بمقدورهم تحريك كميات من الرمال السائبة بسرعة ، باستخدام مضخات المياه العادية ذات الضغط العالي والخراطيم . وأجريت ٣٤٨ تجربة بوجه عام ، بحيث أصبح ممكناً عندما تتوافر المضخات المناسبة ، فتح ثغرة في التل الرملي الدفاعي الأول بقوة دفع المياه في ثلاث أو أربع ساعات ـ وهو ثلث الوقت الذي كان الإسرائيليون يتوقعونه وتشكلت نحو ٨٠ وحدة خاصة تم تدريبها لهذا الغرض .

ومن أبراج المراقبة التي يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً ، والموجودة في كل من المجمعات الدفاعية في خط بارليف ، كان بمقدور الإسرائيليين أن يروا لمسافة تمتد ٢٥ ميلاً عبر القناة وداخل الضفة الغربية في بعض الأماكن . وبالتالي لم يكن بمقدور المصريين أن يعتمدوا كثيرا على قدرتهم فى إخفاء استعداداتهم . ولذلك فقد اعتمدوا على الإجراءات الخداعية ، مثل إقامة تل رملي كبير على الضفة الغربية ، وهو وإن لم يكن في مثل ارتفاع التل الرملي

الإسرائيلي ، إلا أنه كان يمكن المصريين مع ذلك من أن يبنوا خلفه منصات للمدافع والدبابات ، كذلك راح المصريون يبنون على طول القناة وبفواصل تبلغ نحو ٥٠ متراً ، مزالق خرسانية لتمكين المركبات من النزول إلى الماء . وبنوا ٦٥ من هذه المزالق لإرباك الإسرائيليين حيث كان من المستحيل تقريباً تحديد أيها الذي سيستخدم .

وعلى مسافات بالقرب من النقاط المحددة للهجوم والعبور ، وعلى عمق نحو ١٠٠ متر من القناة ، أقام المصريون مصاطب رملية ضخمة على هيئة حدوة الحصان ، أعلى من التل الرملي الدفاعي الإسرائيلي الأول بحيث كانت تطل عليه . وتحت حافة المصطبة مباشرة كان يمتد طريق بطول حدوة الحصان ، التي كان طرفاها ينحدران إلى الخلف ، بحيث تستطيع الدبابات ارتقاء الطريق واتخاذ مواقع بالقرب من قمة المصطبة لتغطية القوات المهاجمة بنيرانها المباشرة . ولم يستطع الإسرائيليون أن يفهموا الغرض من كل هذا العمل ، أو « الأهرامات » كما كانوا يسمونها . ولكن مع استمرار العمل المحموم في نقل الرمال وتقليب الأرض واستخدام البلدوزرات على مدى شهور ، اعتاد الإسرائيليون هذا النشاط ، واعتقدوا أنه ببساطة مجرد مشروع معنوي لإبقاء القوات المصرية التى أصابها الملل مشغولة بشيء ما ، وفيما بعد ، قال الفريق أول اسماعيل إن عمليات البناء هذه كانت « مكلفة وصعبة ـ ولكنها كانت ضرورية للغاية . »

الفصل الثالث

عملية « بدر »

« كان [الروس] يغرقوننى بالأسلحة الجديدة »

الرئيس السادات

فى أوائل عام ١٩٧٣ ، أعرب الرئيس الأسد عن اهتمام محدد بالخطة ، وتم توسيع **عملية الشرارة** لتشمل سوريا . وفى ٢١ يناير ، تم تعيين الفريق أول إسماعيل قائداً عاماً للقوات المسلحة المتحدة لكل من مصر وسوريا . وأتاح ذلك لإسماعيل أن يوسع عمليته العسكرية ، وأن يخطط لمهاجمة إسرائيل على جبهتين فى نفس الوقت . وفى مصر ، تولى الرئيس السادات رئاسة الوزراء فى ٢٦ مارس « لفترة محدودة ولمهمة معينة » ؛ وفى اليوم التالى ، شكل مجلس وزراء جديد احتفظ فيه الفريق أول إسماعيل بمنصبه كوزير للحربية .

وبدأ إسماعيل يضع استراتيجية موحدة مع الفريق مصطفى طلاس ، الذى كان قد تم تعيينه قبل ذلك بثلاثة أيام وزيراً للحربية فى سوريا . وكان طلاس واحداً من الضباط الكثيرين ذوى الميول السياسية فى الجيش السورى ؛ وقد عين رئيساً للمحكمة العسكرية فى دمشق عام ١٩٦٤ ، كما كان قائداً عاماً للفرقة الخامسة فى حمص ، وهى التى لم تشترك فى حرب ١٩٦٧ ؛ ثم عين رئيساً للأركان عام ١٩٦٨ . وقد زار موسكو وبكين وهانوى ؛ وألف كتاباً عن حرب العصابات ، وكتاباً آخر عن غزوات النبى محمد ـ ﷺ ـ .

وكانت مصر وسوريا على حد سواء تريدان المزيد من الأسلحة الحديثة ، وخاصة صواريخ سام ، من الاتحاد السوفيتى ؛ ولهذا الغرض ، قام الفريق طلاس بزيارة الماريشال جريتشكو وزير الدفاع السوفيتى فى موسكو فى السادس من ديسمبر ١٩٧٢ . وتبعه إلى هناك فى شهر فبراير الفريق أول إسماعيل ، الذى اتفق على صواريخ سام وصواريخ سكود ، وهى صواريخ أرض أرض يصل مداها إلى أكثر من ١٨٠ ميلاً بما يتيح للمصريين ضرب المدن الإسرائيلية . ونجح إسماعيل فى مهمته ؛ وفى التاسع من أبريل ، قال السادات ، « لقد حصلت من الروس على ما أريد ، وأنا راض الآن » . وقال لهيكل ، « إنهم يغرقوننى بالأسلحة الجديدة . وفى الفترة مابين ديسمبر ١٩٧٢ ويونيو ١٩٧٣ ، حصلت على أسلحة منهم أكثر مما حصلت عليه طوال السنتين السابقتين » . وكان الشىء الأكثر أهمية أن السادات حصل على ٢٤ صاروخا من طراز « سكود » بأطقم سوفيتية ، بما كان يشكل تهديداً مضاداً لأى قصف إسرائيلى للمدن المصرية . وكان السادات يريد

حقا طائرات ميج - ٢٣ ، إلا أن الاتحاد السوفيتي ما كان ليقدم هذه الطائرات إلا بشرط عدم استخدامها على الإطلاق دون موافقة سوفيتية صريحة ؛ وهو الأمر الذى وجده السادات غير مقبول .

وفى الثاني من أبريل ، عقد فى دمشق أول اجتماع مصرى - سورى مشترك لوضع استراتيجية عسكرية ، وبدأ التعاون العسكرى يزدهر بين البلدين . وحضر كل من الفريق أول إسماعيل والفريق طلاس اجتماعا عقد فيما بعد فى القاهرة لرؤساء الأركان العرب يومى ٢١ و٢٢ أبريل ١٩٧٣ . وجاء فى تقييم عسكري قدمه الفريق أول إسماعيل أن المزايا التى تتمتع بها إسرائيل هى التفوق الجوى ، والمهارة التكنولوجية ، والتدريب الكفء ، والاعتماد على سرعة المعونات من أمريكا ؛ أما نقاط الضعف فهى طول خطوط المواصلات التى يصعب الدفاع عنها رغم أنها داخلية ، ومحدودية القوى البشرية التى لا تسمح بتحمل خسائر كبيرة ، واقتصاد لا يتحمل حربا طويلة ، و« شر الغرور المفرط » .

وفى إسرائيل ، نقل عن الجنرال أرييل شارون القائد العام للقيادة الجنوبية قوله « إن إسرائيل أصبحت الآن قوة عظمى عسكرية . فإننا أقوى من كل قوات البلدان الأوروبية . وخلال أسبوع واحد ، نستطيع أن نستولى على المنطقة الممتدة من الخرطوم حتى كل من بغداد والجزائر » . وكانت هذه الكلمات توضح المزاج العام السائد فى إسرائيل وقتئذ . وراح الفريق أول إسماعيل يؤكد على ضرورة أن تستغل الاستراتيجية العربية الموحدة نقاط الضعف الإسرائيلية . وفى ختام هذا المؤتمر العربى ، أشار الفريق الشاذلى إلى أن مساهمات بعض الدول العربية ، التى لم يذكرها بالاسم ، كانت غير مرضية .

ولقد كان الجيش السورى ، خلال حياته القصيرة المضطربة منذ الاستقلال ، مصدرا كبيرا للنفوذ ووسيلة لتحقيق السلطة السياسية على حد سواء . فكثير من الضباط قد انخرطوا فى صفوفه لهذا السبب وحده ، مما كان يضر بالكفاءة العسكرية . فالجيش كان يضم العديد من الطوائف والمجموعات التى اشتركت فى العديد من الانقلابات ومحاولات الانقلاب ، وهو ما كان يسفر عن موجات منهكة من عمليات التطهير والإقالة للضباط . وفى ربيع عام ١٩٧٢ ، بدأ الرئيس الأسد يستأصل شأفة الضباط ذوى الميول السياسية من القوات المسلحة ؛ ورغم أنه حقق بعض التقدم فى هذا الشأن ، فإنه ظل فى عام ١٩٧٣ من الناحية الأساسية جيشا يعتبر ضباطه الحياة السياسية أهم من أمور الاستراتيجية والتكتيك .

وكان رئيس الأركان السورى اللواء يوسف شكور ، وهو علوى ؛ بينما كان مدير العمليات اللواء عبد الرزاق الدردرى ، وكان نائبه العميد عبد الله الحبيبى ، وهو مسيحى . وكان المسيحيون بوجه عام يميلون إلى الابتعاد عن السياسة فى الجيش ، ويميلون بالتالى لأن يكونوا أكثر كفاءة . وكان قائد الدفاع الجوى هو العقيد على صالح .

ومع عدد السكان الذى يربو على الستة ملايين نسمة ، ومع فترة التجنيد التى تبلغ ٣٠ شهراً ، كان حوالى ١١٠,٠٠٠ جندى يخدمون فى القوات المسلحة السورية فى أى وقت من الأوقات . ومن بين هذا العدد ، كان حوالى ١٠٠,٠٠٠ منهم فى الجيش ، الذى كان يمكن أن يتسع فى أوقات الطوارىء بانضمام ٢٠٠,٠٠٠ من جنود الاحتياط إليه . وكان العنصر القتالى فى الجيش يتألف من فرقتين مدرعتين وثلاث فرق مشاة ميكانيكية ، وسبعة أفواج مدفعية ، ولواء مظلات ولواء قوات خاصة . وكانت القوات المسلحة السورية قد تكبدت هى الأخرى خسائر فادحة فى حرب ١٩٦٧ ، وخسرت الكثير من العتاد . إلا أن الاتحاد السوفيتى عوضهم عن الذخائر المفقودة ؛ وبحلول نهاية عام ١٩٧٢ كانت سورية تمتلك تقريباً ٨٠٠ دبابة ومدفع ذاتى الحركة ، و٥٠٠ عربة مدرعة خفيفة أخرى ، و٨٠٠ مدفع ، وثمان من بطاريات صواريخ سام المضادة للطائرات . وكانت هناك حاجة للمزيد من الأسلحة الحديثة للمشاركة فى عملية الشرارة ؛ وفى هذا الصدد ، كانت سوريا أفضل حظاً من مصر ، فالرئيس الأسد كانت تربطه علاقات أفضل بالحكومة السوفيتية .

وفى الثانى من مايو ، زار الأسد موسكو ، حيث قوبل بشكل طيب وحصل على وعود بمزيد من الأسلحة ؛ وبنهاية ذلك الشهر كان قد تلقى ٢٤ طائرة ميج ـ ٢١ على الأقل . ونظم الاتحاد السوفيتى برنامجاً طارئاً لإمداد سوريا بما يتراوح بين ٤٠ و٥٠ من بطاريات صواريخ سام خلال بضعة أسابيع ، بما أتاح تشكيل ونشر نظام كامل للدفاع الجوى من بطاريات سام ـ ٣ وسام ـ ٦ ومدافع ٢٣مم الرباعية المضادة للطائرات . وحصلت سوريا أيضاً على عدد غير محدد من الدبابات ت ـ ٦٢ السوفيتية بمدفعها ذى الماسورة الملساء عيار ١١٥مم الدقيق الإصابة بشكل قاتل على مسافة ١,٠٠٠متر . وكان هذا المدفع ، الذى يطلق قذائف شديدة الانفجار مضادة للدبابات ، وهى قذائف « تتوازن عن طريق زعانف » ولا تدور أثناء طيرانها ، يتمتع بقوة اختراق أعظم ضد الدروع . ويمكن للنيران المركزة لعدة دبابات ت ـ ٦٢ ، تطلق كل منها ثلاث أو أربع قذائف فى الدقيقة ، أن تدمر دبابة إسرائيلية على مسافة ٢٥٠٠متر .

وقام الماريشال جريتشكو ، يرافقه قائدا سلاحى الجو والبحرية السوفيتيين ، بزيارة سوريا فى الفترة من ١٠ حتى ١٤ مايو . وفى يوم ١٣ ، تم توقيع اتفاق للمعونة العسكرية الإضافية ، ولكن لم تعلن تفصيلاته . وكان من المعتقد فى ذلك الوقت بوجه عام أن قائد سلاح الجو السوفيتى كان هناك لاختيار السوريين الذين سيتلقون تدريباً فى سلاح الجو ـ ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك . ففى الشهر التالى ، حصلت سوريا على عشرة زوارق صواريخ . وقدرت المصادر الأمريكية أنه خلال عام ١٩٧٢ . زود الاتحاد السوفيتى سوريا بأسلحة قيمتها ١٥٠ مليون دولار ، بالإضافة إلى ماقيمته ١٨٥ مليون دولار خلال النصف الأول من عام ١٩٧٣ ، وإلى جانب الأسلحة السوفيتية ، كان هناك أفراد سوفييت

يعتقد أن عددهم كان قد وصل بحلول شهر أكتوبر إلى ٢,٠٠٠ فرد على الأقل . وتشير التقديرات إلى أنه بحلول شهر أكتوبر ١٩٧٣ ، كان السوريون يمتلكون ١١٠٠ دبابة (ت ـ ٦٢ وت ـ ٥٥ وت ـ ٥٤) ، و ١٠٠٠ عربة مدرعة أخرى ، و ٢٠٠٠ مدفع ، وأكثر من ٥٠ بطارية صواريخ سام ـ ٢ وسام ـ ٣ ، فضلاً عن ١٠ بطاريات من صواريخ سام ـ ٦ الجديدة ، والعديد من وحدات المدفعية ٢٣مم الرباعية المضادة للطائرات والمعروفة باسم **الشيلوكا** .

وبحلول شهر مايو ١٩٧٣ ، كان الرئيس السادات والقوات المسلحة المصرية ، التى كانت فى حالة تعبئة كاملة تقريبا منذ عام ١٩٦٧ والتى كانت تستبقى أغلبية المجندين فى الخدمة ، على أستعداد لخوض المعركة . وكانت الدراسات التى عكف الفريق الجمسى على إعدادها بتفصيل شديد قد أوضحت أيضا أنه (مايو) شهر ملائم للغاية لعبور القناة . إلا أن السوريين ، الذين كانوا قد دخلوا **عملية الشرارة** فى وقت متأخر ، كانوا يحتاجون وقتا أطول لتلقى واستيعاب الأسلحة السوفيتية الجديدة . ويبدو من المؤكد أن الإسرائيليين كانوا يتوقعون هجوما عربيا فى شهر مايو ، فقد قاموا بتعبئة قواتهم لصده . وكان السادات ينوى شن الهجوم فى ذلك الشهر : ولكنه أرجأه « لأسباب سياسية » ، كانت تتمثل فى اللقاء المنتظر بين بريجنيف ونيكسون الذى تم فى أمريكا فى الفترة من ١٧ إلى ٢٥ يونيو ، والذى أسفر عن اتفاقات أمريكية ـ سوفيتية للحيلولة دون نشوب حرب نووية وللحد من الأسلحة الاستراتيجية الهجومية . وكان سبب آخر أكثر إقناعا يتمثل فى أنه كان عليه فى ذلك الوقت أن يضع فى اعتباره إمكانات السوريين ووجهات نظرهم . وكان التأجيل يعنى أنه يتعين أن تنتظر العملية حتى الخريف عندما تعود الظروف المواتية فى قناة السويس .

وخلال شهر مايو ١٩٧٣ ، قام الرئيس السادات والفريق أول إسماعيل بزيارة دمشق . وفى يوم ٢٢ مايو ، استند إسماعيل إلى المزيد من الدراسات العسكرية ليصدر توجيها عاما موحداً لكل من القوات المسلحة المصرية والسورية بالنسبة للهجوم الاستراتيجى ضد إسرائيل ، حدد فيه إجراءات بعينها ، وخصص المهام الأولية ، كل منها بتوقيته الزمنى . وجرت مناقشة كل من يوم وساعة الصفر ، إلا أنه تقرر أن هناك حاجة للمزيد من المعلومات قبل أن يصبح من الممكن اتخاذ قرار فى هذا الشأن . وبعد التشاور مع الفريق طلاس فى القاهرة فى شهر يونيو ، أصدر الفريق أول إسماعيل المزيد من التوجيهات التى تتناول قوات الاحتياط المتاحة لكل من الجبهتين مع خطط التعبئة . وتم تعيين اللواء بهى الدين محمد نوفل ، وهو ضابط مصرى كان رئيسا لأركان هيئة الأركان العامة الموحدة ، كضابط اتصال يتولى مهمة ضمان سلاسة التعاون بين مجموعات التخطيط المصرية والسورية .

وكانت هناك خلافات أساسية بين مصر وسوريا حول هدف **عملية الشرارة** . فبقبول مصر لقرار مجلس الأمن الدولى رقم ٢٤٢ ، فإنها كانت قد اعترفت من الناحية الفعلية

بوجود إسرائيل ، ولكن سوريا لم تفعل ذلك ، وظلت ترفض ذلك ، وكان هدف الرئيس السادات من العملية يتمثل ببساطة فى استعادة الأراضى المحتلة ، بينما كان هدف سوريا هو إزالة دولة إسرائيل . وأمكن تسوية الخلاف حول هذه النقطة فى ١٢ يونيو ، عندما تمكن السادات من إقناع الأسد بقبول الهدف المحدود المتمثل فى « استعادة الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ » .

وبقى الآن الاتفاق على يوم بدء الهجوم . وفى أوائل أغسطس ، عقدت مجموعات التخطيط المصرية والسورية مؤتمراً مطولاً فى الأسكندرية ، بحثوا خلاله درجة استعداد وكفاءة وتنسيق القوات المسلحة فى البلدين ، وقاموا أيضاً بتقييم الأوضاع فى إسرائيل . ومع ذلك ، لم يكن ممكنا أيضا التوصل إلى أى اتفاق ، ولذلك فقد تم إرجاء اتخاذ القرار حتى تتقدم مجموعات دراسات العمل بنتائجها وتوصياتها .

ومن وجهة نظر المصريين ، كان العامل الرئيسى المؤثر على اختيار يوم الهجوم هو الحاجة إلى ضوء القمر خلال الجزء الأول من الليل ليتمكنوا من مد الجسور عبر قناة السويس ، مع خفوت الضوء بعد ذلك خلال الليل لتوفير ستار من الظلام يخفى عملية عبور الجنود والمركبات . أما السوريون من الناحية الأخرى ، فكانوا يفضلون التقدم فى ضوء النهار عبر هضبة الجولان . وكان يتعين أن يكون الطقس معتدلاً ، وخاصة بالنسبة للسوريين ، لكى يتلافوا الأمطار الغزيرة فى هضبة الجولان فى شهر نوفمبر ، والجليد على جبل الشيخ خلال شهر ديسمبر . وبالنسبة للمصريين ، فإن الأوضاع المائية الجغرافية فى البحر كان لابد أن تكون مواتية للعمليات البحرية ، على حين ينبغى أن تكون موجات المد والتيارات المائية معتدلة فى قناة السويس . وكانت هذه العوامل الكثيرة تستوجب تخطيطا دقيقا وشاملاً من جانب العرب ، وهو ما كان يتناقض مع الرأى الأجنبى المقبول بوجه عام والقائل بأن العرب غير قادرين على مثل هذا الاهتمام الدقيق بالتفصيلات .

وكان قرار تحديد يوم بدء الهجوم قراراً سياسياً . واختار الرئيسان السادات والأسد يوم السادس من أكتوبر ، وهو يوم تكون فيه عوامل كثيرة مواتية للعرب بأقصى قدر . وكان هذا اليوم يقع خلال شهر رمضان ، الذى يصوم فيه المسلمون ، تنفيذاً لأحكام القرآن ، طوال ساعات النهار ؛ ولن يتوقع الإسرائيليون على الأرجح أن يتعرضوا لهجوم خلاله . وكان السادس من أكتوبر أيضاً يوافق عيد الغفران ، وهو أكثر الأعياد العبرية قداسة ، رغم أن المخططين أصروا فيما بعد على أن هذه الحقيقة لم تتسم فى نظرهم بكثير من الأهمية . ولما كان السادس من أكتوبر يتوافق مع اليوم العاشر من رمضان ، وهو الذكرى التقليدية لموقعة بدر التى انتصر فيها النبى محمد - ﷺ - عام ٦٢٦ ميلادية ، فقد أصبح الجزء العسكرى من عملية الشرارة يعرف الآن باسم **عملية بدر** . وأطلق السوريون على الجزء الذى يخصهم من الخطة اسم **عملية العودة** ، ولكنهم وافقوا على الاسم الحركى « **عملية بدر** » .

وتم الإبقاء على موعد يوم بدء الهجوم فى سرية بالغة ، بحيث ربما لم يعرفه فى البداية سوى السادات والأسد وإسماعيل وطلاس والشاذلى وشكور والجمسى ، دون أن يعرف به الآخرون حتى قبل بدء العملية مباشرة . وعندئذ ، تم إبلاغه لبعض كبار الشخصيات والقادة على أساس « من تكون هناك حاجة لمعرفتهم به » . أما ساعة الصفر ، فلم تكن قد تحددت بعد .

وخلال ذلك كله ، استمر الخداع العسكرى ؛ ففى الرابع من يونيو ، عبر الفريق أول إسماعيل قناة السويس فى طرفها الشمالى الأقصى لزيارة ذلك المثلث الصغير من الأرض التى يسيطر عليها المصريون حول بور فؤاد ، وليتفقد ذلك الطريق الذى كان يزحف ببطء ناحية الشرق . وصدرت التعليمات المعتادة بإجراء مناورات الخريف السنوية خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ، كما كان الحال خلال عدة سنوات . ومثل السنوات الأربع السابقة ، كان مقرراً أن تختتم المناورات « بهجوم لعبور مانع مائى ، ثم الهجوم على خط دفاعى قوى ، ثم التقدم فى الصحراء » . وبالنسبة للإسرائيليين الذين كانوا يراقبون ذلك ، كان الأمر يبدو كما لو أن المصريين كانوا يقومون بنمط محدد يكاد أن يكون تقليديا ، أصبحوا يكررونه بصورة آلية ؛ وإن كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قد لاحظت أنه فى هذه السنة ، كان الجيش المصرى يجرى مناوراته بتشكيلات على مستوى الفرق لأول مرة .

وفى الوقت ذاته ، ظل الأردن معزولاً من الناحية الدبلوماسية عن بعض الدول العربية بسبب موقف الملك حسين وتصرفاته ضد الفدائيين الفلسطينيين . وفى ١٣ مايو ١٩٧٣ ، وجه حسين ، وقد توافرت لديه تلميحات مبهمة عن الأحداث القادمة ، رسالة سرية إلى ضباط قواته المسلحة يقول فيها إن العرب يتأهبون للحرب ، ولكنه يعتقد أن المعركة ستكون سابقة لأوانها . وربما كان ذلك مؤشراً على أنه لم تكن لديه أية نية للمشاركة فى الهجوم . إلا أن السادات والأسد كانا يدركان مدى ميزة دخول الأردن فى **عملية بدر** ، بحيث يمكن الضغط على إسرائيل من جبهة ثالثة أيضاً .

وفى شهر أغسطس ١٩٧٣ ، قام الرئيس السادات بزيارة الملك فيصل فى المملكة العربية السعودية . وخلال مباحثاتهما ، شرح السادات خطته الكبرى دون أن يكشف أية تفصيلات دقيقة . وتمكن من إقناع فيصل باستخدام سلاح البترول لدعمه فى الوقت المناسب ، وبأن يفاتح الملك حسين فى الأمر . ومن خلال المساعى الحميدة للملك فيصل وآخرين ، حضر الملك حسين اجتماع قمة عربيا عقد فى القاهرة فى العاشر من سبتمبر ، حيث تم إبلاغه بالخطوط العريضة لعمليتى **الشرارة وبدر** . ورؤى أن القوات المسلحة الأردنية أصغر من أن تنجح فى شن هجوم على الإسرائيليين فى الضفة الغربية للمملكة ، ولكن الملك حسين وافق على التعاون بتحريك قواته نحو نهر الأردن لإثارة قلق الإسرائيليين

وشغل بعض تشكيلاتهم . وكلفتة على حسن النوايا ، أعادت سوريا فتح حدودها مع الأردن . وفى يوم ١٩ سبتمبر ، أطلق الملك حسين سراح ٩٧٠ فدائيا كانوا فى السجون الأردنية منذ حرب عام ١٩٧١ ، ومن بينهم أبو داود وهو من قادة الفدائيين البارزين ؛ كما أسقط الرئيس السادات الاتهامات الموجهة إلى أكثر من ٢٠٠ من الطلاب والصحفيين المنشقين .

وبعدد سكان يناهز المليونين ونصف المليون نسمة ، وبمدة تجنيد تبلغ العامين ، كان عدد القوات المسلحة الأردنية يبلغ نحو ٧٠,٠٠٠ جندى ، من بينهم أكثر من ٦٥,٠٠٠ جندى فى الجيش . وإلى جانب عنصر المجندين ، كانت هناك فى الجيش نسبة عالية من الجنود النظاميين الذين يخدمون لفترة طويلة . وكان كثير من هؤلاء يرجعون بجذورهم إلى الضفة الشرقية* لنهر الأردن ، وكان الملك حسين يعتمد عليهم لموازنة الفلسطينيين أو جنود الضفة الغربية . وكان الجيش الأردنى يتألف أساسا من ثلاث فرق - واحدة مدرعة ، والأخرى مشاة ميكانيكية ، والثالثة مشاة - إلى جانب ثلاثة أفواج مدفعية ، ولواء مشاة مستقل ، ووحدة مدرعة من الحرس الملكى . وكان الأردن يملك حوالى ١٤٠ دبابة سنتوريون بريطانية . و١٩٠ دبابة أمريكية من طراز م - ٤٧ و م - ٤٨ و م - ٦٠ و ٥٥٠ عربة مدرعة خفيفة ، و٢٠٠ مدفع ، و٢٠٠ مدفع ذاتى الحركة مضاد للطائرات .

وبحلول ذلك الوقت ، كانت الأفكار الأساسية حول عمليتى **الشرارة** و**بدر** قد تبلورت . فالجنود السوريون سيستولون على هضبة الجولان بأكملها ، بما في ذلك الجرف الغربى للهضبة ، ويسيطرون على موطىء قدم فى الضفة الغربية لنهر الأردن الأعلى . أما القوات المصرية ، فستعبر قناة السويس ، وتقتحم خط بارليف ، وتتقدم إلى الممرات الثلاثة التى تقع على مسافة ٣٥ ميلاً من الممر المائى . وفى نفس الوقت ، سيكتفى الأردن بتمثيل التهديد بجبهة ثالثة . وفى الجزء الثانى ، والسياسى ، من **عملية الشرارة** ، ستتعرض إسرائيل لضغوط لتقديم تنازلات للعرب الذين سيطالبون بالجلاء عن الأراضى المحتلة . أما إذا فشلت القوى العظمى فى التدخل ، أو عجزت عن إجبار الإسرائيليين على تقديم التنازلات المطلوبة ، فإن العرب سيلجأون إلى تكتيك « مفرمة اللحم » ضد القوات الإسرائيلية التى تكون قد امتدت خطوطها واتسعت ، أى مواصلة القتال لأسابيع أو شهور حتى تستنزف قواهم ويضطرون للموافقة على الشروط العربية .

وفى الفترة السابقة على نشوب القتال ، استمرت « الحالة المعتادة من الاحتكاكات » بين الإسرائيليين والدول العربية المتاخمة لهم ، مع العديد من حالات تبادل القصف المدفعى

* على جانبى نهر الأردن ، كانت الضفة الشرقية فى الماضى هى إمارة (ثم مملكة) شرق الأردن ، بينما كانت الضفة الغربية هى الجزء العربى من فلسطين ، حتى ضمها الملك عبد الله فى ديسمبر ١٩٤٨ . واصبحت الضفتان تعرفان باسم المملكة الأردنية الهاشمية .

عبر خط وقف إطلاق النار فى الجولان ، والكثير من عمليات التسلل وحوادث الحدود الصغيرة . وامتد هذا الصراع إلى الجو والبحر . فحسب التقارير العربية ، اعترضت الطائرات المصرية فى التاسع من أغسطس ست طائرات إسرائيلية فى المجال الجوى المصرى ، وأسقطت إحداها كما قيل ، وكان الإسرائيليون قد نفوا ذلك . وفى ١٣ أغسطس ، هاجمت الطائرات المصرية ستة زوارق دورية إسرائيلية حاولت الاقتراب من الساحل المصرى فى خليج السويس ، فانسحبت الزوارق .

وفى ١٣ سبتمبر ، وقعت معركة جوية كبيرة فوق طرطوس فى سوريا . وزعم الإسرائيليون أنهم أسقطوا ١٣ طائرة سورية . وعلى حين اعترف السوريون بسقوط ثمان من طائراتهم ، فقد زعموا أنهم أسقطوا خمس طائرات إسرائيلية . وفى هذه المعركة ، كان السوريون يريدون استخدام صواريخ سام ، إلا أن المستشارين السوفييت لم يسمحوا باستخدامها ، مما زاد من تفاقم الحساسيات بين السوريين والروس . إلا أن هذه المعركة بددت أى تردد أو مراجعة للنفس كانت لدى السوريين فيما يتعلق **بعملية بدر** . بل لقد سأل السوريون ، فى الواقع ، يوم ١٤ سبتمبر ، عما إذا كان من الممكن تقديم موعد بدء الهجوم ؛ إلا أن الفريق أول إسماعيل ، بعد اجتماع مع كبار الضباط المصريين ، قال إن الاستعدادات لم تكتمل بعد ، وأصر على اتباع الجدول الزمنى بكل دقة . ولو كانت صواريخ سام قد استخدمت ، فربما كان ذلك قد شكل تحذيراً قبل الأوان للإسرائيليين بما ينبههم للفعالية القاتلة الجديدة التى أصبحت فى أيدى العرب .

ورغم أن العلاقات الدبلوماسية بين سوريا والاتحاد السوفيتى كانت مرضية ، إلا أنه كانت هناك احتكاكات بين الأفراد السوفييت فى سوريا وبين الشعب السورى . وكان ذلك يرجع فى جانب منه إلى افتقار السوفييت لفهم العرب ، وربما كان يرجع بنفس القدر إلى عيب كامن معترف به فى الشخصية السورية وهو الكبرياء والاستقلال العنيد الذى يصل فى بعض الأحيان إلى التعالى المتغطرس – مما كان يجعل من الصعب على السوريين طلب أ قبول النصح من الأجانب وكان الأفراد السوفييت فى سوريا يخضعون لعدد من القيود الت تبعث على الضيق ، كانت ، ضمن أشياء أخرى ، تحد من تحركاتهم وتبقيهم بعيداً ع المدن . وفى ٢٨ سبتمبر ، راح وزير الخارجية السورى ، ربما متأثرا برفض الضبا السوفييت السماح باستخدام صواريخ سام ضد الطائرات الإسرائيلية المهاجمة ، را يشكو للسفير السوفيتى من « موقف الخبراء السوفييت الذى يعد دليلاً على عـ انضباطهم ، والذى يخلق دولة داخل الدولة » . وتسبب ذلك فى فرض المزيد من القيود ع الأفراد السوفييت . وفى اليوم التالى ، ألقى القبض على عدد من الضباط السور لإعرابهم عن معارضتهم لسياسة حكومتهم بالاعتماد على الفنيين السوفييت . ومار السوفييت ضغوطهم عندئذ ، وتم إبلاغ الأسد بأنه إذا ما أراد استمرار تدفق الأسلد فلابد أن يقبل الفنيين السوفييت أيضا .

وفى السادس من سبتمبر ، أصدر الفريق أول إسماعيل توجيها عاما موحداً يضع القوات المسلحة المصرية والسورية فى « حالة تأهب لمدة خمسة أيام » تبدأ فى اليوم الأول من أكتوبر ؛ وفى يوم ٣٠ سبتمبر ، بعث برسالة حذرة إلى الفريق طلاس يوجهه فيها لأن يتأكد من أن كل شىء جاهز . ومنذ يوم ٢٤ سبتمبر ، كانت القوات السورية قد بدأت تحتشد ببطء فى جبهة الجولان ، إلا أن الإسرائيليين فسروا ذلك على أنه جزء من الوفاق مع الأردن ، وأنه قد تم سحب التشكيلات السورية من الحدود الأردنية لتعزيز تحسن العلاقات بين البلدين .

وفى اليوم الأول من أكتوبر ، أكد الفريق أول إسماعيل أن **عملية بدر** قد « بدأت » بشكل محدد . ووضعت القوات المسلحة السورية فى « حالة استعداد قصوى » ؛ وفى اليوم التالى ، بدأ استدعاء قوات الاحتياط . وكانت هناك درجات تأهب متفاوتة فى القوات المصرية والسورية والإسرائيلية . وبدأ التحرك البطىء لجنود ومركبات ثلاث فرق عسكرية ، ولكن كان يبدو أنها تنتشر بالقرب من خط وقف إطلاق النار فى « وضع دفاعى » ، أى مع بقاء الدبابات فى حفرها وبقاء المدفعية فى الخلف ، كما لو كانوا يتوقعون هجوما إسرائيليا - ولذلك ، لم يشعر الإسرائيليون الذين كانوا يراقبون ذلك بأى انزعاج بلا مبرر .

وعلى الجانب المصرى . وضعت القوات المسلحة فى « حالة تأهب » . وبدأت المناورات السنوية المعروفة باسم « **تحرير ٢٣** » ، والتى كان مقرراً لها من الأول حتى السابع من أكتوبر . إلا أنه فى ذلك الوقت ، كانت تشكيلات على مستوى اللواء تتقدم فى الصباح شرقا فى اتجاه القناة ، ولكن فى المساء كانت كتيبة واحدة هى التى تعود غربا ، بينما تبقى الكتيبتان الأخريان تحت الساتر بالقرب من المر المائى . وكان يتم أثناء الليل تحريك المدافع والمعدات الثقيلة للأمام ، لكى يتم دفنها فى الرمال أو إخفاؤها بوسائل أخرى . وجرى إبلاغ الجنود المصريين بأنه تدريب على التعبئة الشاملة يقوم خلاله سلاح المهندسين بتقوية دفاعات القناة ، والعمل أيضا فى الطريق الشمالى الذى كان يجرى إقامته كتمويه . وقال الفريق أول إسماعيل فيما بعد ، « أعتقد أننا نجحنا فى تخطيط خطتنا الصورية على مستوى استراتيجى وتعبوى ، ووضعنا لها توقيتات زمنية وجداول كانت تسير بالتوازى مع خطة العمليات الحقيقية » .

وقام العرب بمجموعة متنوعة من إجراءات الخداع الأخرى . فقد نشرت صحيفة الأهرام فى الثانى من أكتوبر أنه قد تقرر فتح الباب أمام الضباط الراغبين فى أداء العمرة بمكة المكرمة . وفى الثالث من أكتوبر ، تم تسريح نحو ٢,٠٠٠ من جنود الاحتياط . وفى السادس من أكتوبر ، كان عدة وزراء خارج البلاد فى مهام رسمية ، بما فى ذلك وزير الاقتصاد الذى كان فى لندن ، ووزير التجارة الذى كان فى أسبانيا ، ووزير الاعلام الذى كان فى ليبيا ، والقائم بأعمال وزير الخارجية الذى كان فى فيينا . وعلى الصعيد

الدبلوماسى . كانت أنباء « بدء وتوقف » الوحدة بين مصر وليبيا تحول الأنظار وتثير الابتسامات الساخرة . وفى المستقبل المباشر ، كان مقرراً فى السابع من أكتوبر أن تطير طائرة كوميت تابعة لسلاح الجو الملكى البريطانى من قبرص لاختبار ممرات الهبوط فى أبو سمبل والأقصر استعداداً للزيارة الوشيكة التى كانت الأميرة مارجريت ستقوم بها لمصر ؛ وفى الثامن من أكتوبر ، كان مقرراً أن يقوم وزير الدفاع الرومانى بزيارة الفريق أول إسماعيل .

وكان عمل آخر من أعمال الخداع ، وربما كان أنجحها جميعاً ولم يوافق عليه الرئيس السادات إلا على مضض ، يتضمن استخدام قوات الصاعقة الفدائية السورية . فلم يكن السادات يفضل الأنشطة الإرهابية . وكان الفتور قد أصاب فى الآونة الأخيرة موقف الرئيس الأسد من الفدائيين الفلسطينيين ؛ بل ووصل فى الواقع إلى حد أن سحب يوم ١٤ سبتمبر منشآت محطة إذاعة « صوت فلسطين » التى كانت منظمة التحرير الفلسطينية تشرف عليها ؛ اعتراضاً منه على لهجتها المعادية للملك حسين . وتم تنفيذ خطة الخداع يوم ٢٨ سبتمبر ، حيث قام مسلحان من الصاعقة السورية باختطاف قطار فى النمسا ، واحتجزا عدداً من الرهائن ، وطالبا باغلاق مقر قلعة شوناو بالقرب من ڤيينا ، والذى كان يستخدم كمعسكر « ترانزيت » لليهود الذين يغادرون الاتحاد السوڤيتى . ووافق المستشار النمسوى ، وهو نفسه يهودى - وهو قرار سبب غضباً ومرارة فى إسرائيل . وفى أعقاب هذا العمل الإرهابى ، كان معتقداً أن هيئة الأركان العامة الإسرائيلية تخطط لتوجيه ضربة انتقامية ضد العرب ، بحيث كانت « الإجراءات الدفاعية » المصرية والسورية تبدو طبيعية فى ضوء هذا الهجوم الإسرائيلى المتوقع .

ومن المثير للدهشة فى ضوء هذا التخطيط الدقيق حتى ذلك الوقت ، أن ساعة الصفر التى يتوقف الكثير عليها ، لم تكن قد تحددت بعد . ولم يكن قد تم التوصل إلى اتفاق ، فالسوريون يريدون أن تكون فى الصباح الباكر والمصريون يريدونها فى وقت متأخر من بعد الظهر ، لأن كلاً منهما كان يريد أن تكون الشمس خلف ظهره وفى أعين الإسرائيليين فى هذه اللحظة الحاسمة . وفى الثانى من أكتوبر ، توجه الفريق أول إسماعيل إلى دمشق ، حيث تم التوصل إلى حل وسط وافق عليه الرئيس الأسد : أن تكون ساعة الصفر فى الساعة الثانية بعد الظهر .

وفى الثالث من أكتوبر ، أطلق الاتحاد السوڤيتى قمراً صناعياً للاستطلاع ، هو « كوزموس ٥٩٦ » ، وهو الأول فى سلسلة من نوعه ، من قاعدة بلستسك بالقرب من أركانجل ، فى مدار فوق الشرق الأوسط فى كل يوم ، كان المدار ينحرف قليلاً بحيث كان يغطى الجبهتين الإسرائيليتين . وكان الأمريكيون قد أطلقوا بالفعل يوم ٢٧ سبتمبر قمراً صناعياً

من طراز « أچندا ـ دى » من قاعدة فاندنبرج الجوية فى كاليفورنيا ، بحيث أصبحت القوتان العظميان مستعدتين لمراقبة ميدان القتال إذا ما اندلعت الحرب فى الشرق الأوسط فى المستقبل القريب .

وعندما أدرك بريچنيف أن الرئيس السادات يبدو مصمماً على شن هجوم ضد إسرائيل رغم نصح السوڤييت له بعكس ذلك ، فقد سأل عما إذا كان يمكن سحب كل الأفراد السوڤييت الموجودين فى مصر ، ووافق السادات على مضض . وأرسل الاتحاد السوڤيتى ٢٠ طائرة ؛ وبدءاً من مساء الرابع من أكتوبر تم نقل الأفراد السوڤييت وعائلاتهم فى هدوء فى عربات كبيرة من مقار إقامتهم فى منطقة الجزيرة فى القاهرة إلى المطـار ، حيث استقلوا الطائرات . ورحل المستشارون والفنيون التشيك فى نفس الوقت تقريباً ؛ كما غادرت السفن السـوڤيتية ميناءى الأسكندريـة وبورسعيـد . ولم يبق فى مصر سوى ٧٠ فنيـاً سوڤيتياً . وفى سوريا ، بدأ خروج العائلات السوڤيتية فى الخامس من أكتوبر .

وخلال ليلة الرابع من أكتوبر ، تحولت فرق المشاة الميكانيكية الثلاث بالقرب من خط وقف إطلاق النار على الجبهة السورية من الوضع الدفاعى إلى الوضع الهجومى ، أى تقدمت المدافع إلى الأمام وخرجت الدبابات من حفرها مستعدة للاندفاع للأمام . وفى نفس الليلة ، على الجبهة المصرية ، تحركت الشاحنات التى تحمل معدات الجسور إلى الأمام نحو قناة السويس ، بينما تحركت بطاريات صواريخ سام إلى مسافات تقل عن أربعة أميال من القناة . وفجر السادس من أكتوبر ، وضعت صواريخ فروج التكتيكية على منصات إطلاقها . وفى وقت لاحق من صباح نفس اليوم ، وزعت على الجنود المصريين ملابس قتال معالجة كيماويا لتقليل آثار النابالم ، الذى استخدمه الإسرائيليون بكثرة عام ١٩٦٧ . ولم تكن هذه الملابس الخاصة توزع إطلاقا أثناء التدريبات ، ولم يكن يمكن ارتداؤها سوى مرة واحدة فقط ـ وهى حقيقة كان يعرفها الإسرائيليون . وفى صباح السادس من أكتوبر ، تم خفض منسوب المياه فى ترعة المياه الحلوة للحيلولة دون فيضانها فى حالة ما إذا تسببت أى قنابل إسرائيلية فى قطع ضفتيها .

وفى ليلة الخامس والساعات الأولى من السادس من أكتوبر ، قام رجال القوات الخاصة والضفادع البشرية المصرية بعبور القناة فى هدوء ، وأبطلوا « السلاح السرى » لإسرائيل . فكل نقطة حصينة من نقاط خط بارليف ، فيما عدا تلك التى على البحيرات المرة وساحـلى البحرين المتوسط والأحمر ، كان بها صهريج ضخم يضم حوالى ٢٠٠ جالون من البترول ، بأنابيب (عددها جميعا ٣٩ أنبوبة) تهبط حتى حافة الماء ، وفوهات إما تحت سطح الماء مباشرة أو فوقه مباشرة عند هبوط المد . وفى حالة قيام المصريين بهجوم واسع عبر القناة ، كان سيتم إطلاق البترول إلى الماء وإشعاله بقنبلة حرارية أو ماشابه ذلك أو بوسيلة كهربائية لإحراق المهاجمين . ورغم تصريحات النفى الرسمى الإسرائيلية ، فقد شاهدت

بنفسى كثيراً من الأدلة على هذا السلاح السرى ؛ كما اعترف بوجوده حاييم هرتزوج ، الذى كان المعلق العسكرى الرسمى الإسرائيلى خلال حرب أكتوبر .

وكان المصريون قد شاهدوا الإسرائيليين يجربون هذه الوسيلة الحارقة فى البحيرات المرة الكبرى يوم ٢٨ فبراير ١٩٧١ . وكانت الكمية المتاحة من البترول ، إذا ما أطلقت إلى الماء ، يمكن أن تظل مشتعلة لمدة تتراوح بين ٣٠ و ٤٠ دقيقة ، بدرجة حرارة تصل إلى حوالى ٧٠٠ درجة مئوية ، وبألسنة لهب يصل ارتفاعها إلى أكثر من أربعة أقدام . ولم يكن هذا السلاح ليشكل حاجزاً كاملاً من النيران بطول القناة ، ولكنه كان سيخلق جزراً طافية من اللهب تتحرك مع حركة المد . وأجرى المصريون تجارب على أساليب إخماد هذه النيران بسرعة ، ولكنهم لم يصلوا إلى إجراء مضاد ناجح . ولذلك ، فقد تقرر أنه فى حالة فشل رجال القوات الخاصة والضفادع البشرية فى مهمتهم لإبطال هذا السلاح ، فسيتم تأخير موجات الهجوم الأولى حتى تخمد بقع البترول المشتعل من تلقاء نفسها .

إلا أن المهمة كانت ناجحة : وتم إغلاق كل أنابيب البترول بالأسمنت الرطب ، أو قطعها فى منتصف التل الرملى الدفاعى بحيث يمتص الرمل البترول المتدفق . ويقول المصريون إن كثيراً من هذه الأنابيب ما كان سيعمل فى أى حال من الأحوال ، لأن قوات النقط الحصينة كانوا « يفرطون فى تأمينها » ويشددون فى إغلاقها بإحكام بصورة عصبية ، بحيث أصبح يتعذر فتح المحابس والصمامات بصورة يدوية . ولم يكن الإسرائيليون يدركون أنه قد تم تجريدهم من سلاحهم السرى . وفيما بعد ، أكد الفريق الشاذلى أن « العملية كانت ناجحة تماماً ، فلم يشتعل حريق واحد على سطح القناة ، وتم الاستيلاء على المستودعات وهى بحالتها الكاملة . وأسرنا المهندس الإسرائيلى الذى صمم النظام بأكمله ، وشهد خلال التحقيق بأنه قد جاء إلى المنطقة فى اليوم السابق مباشرة فى جولة تفقدية » . وكان فشل السلاح السرى نتيجة لكل من العمل الوقائى المصرى والإفراط الإسرائيلى فى الأمن ، وليس كما زعم كاتب إسرائيلى* من أن « حاجز النيران ، الذى يقوم على استخدام البترول لإشعال سطح القناة ، قد ظل دون استخدام ، فيما يبدو خشية أن يلجأ المصريون إلى استخدام الغازات » .

وأصبح من الضرورى الآن إشراك أعداد أكبر فى معرفة سر يوم بدء الهجوم ؛ وفى مساء الخامس من أكتوبر ، تم إبلاغ هيئات أركان الفرق التى ستقوم بالهجوم . وتعاهدت مجموعات عديدة من الضباط على تحقيق النجاح أو الاستشهاد فى المحاولة التى ستجرى فى الغد . ولم يتم إبلاغ قادة الألوية بوجه عام حتى الساعة الثامنة من صباح السادس من

* إدوارد ليتواك ، وكان ضابطاً إسرائيليا اشترك فى حرب ١٩٦٧ . وعندما بدأت حرب أكتوبر كان موجوداً فى إسرائيل حيث كان يؤلف كتابه « الجيش الإسرائيلى » ، وبقى هناك خلال الحرب كصحفى .

أكتوبر ؛ ومع بعض الاستثناءات ، فإن الرجال الذين كانوا فى سرايا المشاة فى المقدمة لم يعرفوا بأنهم سيقومون بالهجوم حتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً . أما طيارو سلاح الطيران ، فتم إبلاغهم عند الظهر .

وقام القادة المصريون والسوريون وضباط هيئات الأركان وكل الذين يعلمون بالعملية بضبط ساعاتهم معا عند الظهر على إشارات ضبط الوقت العادية التى تذيعها إذاعتا القاهرة ودمشق . وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ، دخل الرئيس السادات إلى مركز القيادة العامة للعمليات ، المعروف باسم « المركز رقم ١٠ » (وكان هناك مركز بديل يعرف باسم « المركز رقم ٣ ») ، واتخذ مقعده على المنصة ، يحيط به من الجانبين الفريق أول إسماعيل والفريق الشاذلى وكبار الضباط الآخرين . وفى الساعة ١,٤٠ بعد الظهر ، صدرت الأوامر بوقف كل حركة الطيران المدنى وحركة المرور البحرى ، والتى كانت تسير بصورة طبيعية كجزء من خطة الخداع والمفاجأة . وفى الساعة الثانية بعد الظهر تماما ، وهى ساعة الصفر ، انطلقت الطائرات المصرية والعراقية فوق قناة السويس متجهة إلى الشرق . (وكانت الطائرات العراقية من طراز ميج ـ ٢١ تخدم ضمن سلاح الطيران المصرى منذ مايقرب من عام) ، وفى الجبهة الشمالية أطلقت المدافع السورية القذائف الأولى من القصف ، بينما راحت الطائرات السورية تهاجم الأهداف الإسرائيلية . وفى الساعة ٢,٠٥ بعد الظهر ، بدأت القنابل المصرية تسقط على سيناء ، وفتحت المدافع المصرية نيرانها بطول القناة . وكان المصريون فى تقديرات تخطيطاتهم ، يتوقعون أن يصل حجم الخسائر البشرية إلى ٣٠,٠٠٠ فرد ، من بينهم ١٠,٠٠٠ قتيل ، فى هذه العملية الهجومية .

وفى البداية ، تراجع الإسرائيليون الذين فوجئوا بالكامل على كلتا الجبهتين . وفى مركز القيادة العامة للعمليات ، فى مكان ما بشرق القاهرة ، بدأت التقارير ترد بأنه قد تم إنجاز مختلف المهام بنجاح . وراح الرئيس السادات يراجع ذلك على الجدول الزمنى لها .

الفصل الرابع

قلعة اسرائيل الحصينة

« كان [الإسرائيليون] يعتقدون أنهم رسموا فى أمان خريطة الشرق الأوسط للمائة عام القادمة »

الفريق أول « احمد إسماعيل »

لقد أقامت إسرائيل ، الصغيرة الوحيدة التى يفوقها جيرانها العرب عدداً ، دولة عسكرية قوية لضمان البقاء وللسيطرة على الدول العربية المجاورة الأضعف على حد سواء . وكان الهجوم هو المفهوم الاستراتيجى الإسرائيلى . واستناداً لنجاحُها السابق ، كانت تعتمد على سلاح الجو (ذراعها الطويلة) الذى كان أفضل سلاح جو فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت ، للوصول والتأنيب الموجع لأية دولة عربية قد يصيبها الغرور بأكثر من اللازم ؛ كما كانت تعتمد على قواتها المدرعة لشن حملات تأديبية فى المناطق المجاورة لها عندما يكون من الضرورى قمع أية حكومة عربية . وفى عام ١٩٧٣ ، كانت « قلعة إسرائيل الحصينة » تزهو بنفسها وهى تتطلع فى أنحاء الشرق الأوسط ، وتحس أنها فى مأمن من الهجوم العسكرى التقليدى من جانب البلدان المحيطة بها ، سواء منفردة أو مجتمعة . وقد قال لى الفريق أول إسماعيل ، « كانوا يعتقدون أنهم رسموا فى أمان خريطة الشرق الأوسط للمائة عام القادمة » وفى ١٩ أبريل ١٩٧٣ ، عاد وزير الخارجية الأمريكى روجرز مرة أخرى ليحث إسرائيل والبلدان العربية على التفاوض حول تسوية سلمية ، ولكن أياً من الطرفين لم يكن مهتماً بذلك ـ لأسباب متعارضة فالعرب كانوا يستعدون لتوجيه ضربتهم ، بينما كانت إسرائيل على ثقة من أن العرب لا يملكون القدرة على ذلك .

وعندما كانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل تتطلع إلى مصر ، فقد كانت تعتقد أن الرئيس السادات قد جرب بالتناوب التهديدات والدبلوماسية ، ولكن دون فاعلية فى الحالتين . وفى السادس من مايو ١٩٧٣ ، وهو ذكرى قيام إسرائيل ، ورداً على سؤال حول قدرة السادات على شن حرب ، قالت ، « لن يستطيع الحصول على شىء بالحرب . وهو يعرف ذلك ، ولكننا نعتقد مع ذلك أنه قد يفعل شيئاً ، وإذا ما فعل شيئاً ، فإننا مستعدون » . ومن المشكوك فيه أنها كانت تعتقد حقاً أن السادات قد يشن هجوماً على إسرائيل ؛ ولكن هذا التصريح ، الذى كان يصدر من موقع القوة ، كان تحذيراً للمصريين من محاولة القيام بأية مغامرة عسكرية . وكان موشى ديان وزير الدفاع يعتقد أن « القناة هى أفضل خط دفاعى يمكن أن نأمل فيه » وكانت سياسته تتمثل باختصار فى البقاء خلف خط بارليف وانتظار أن يأتى العرب لإقرار السلام ، إذ كان يشعر أن إسرائيل تستطيع

الاستمرار فى حالة اللاحرب واللاسلم إلى أجل غير محدد ، وفى هذه الحالة الذهنية ، كان الإسرائيليون يغفلون أو يتجاهلون العديد من الدلائل الأوضح على الاستعدادات العسكرية العربية ، أو ينحونها جانباً كأشياء تافهة .

وكان الإسرائيليون يعتقدون أن الخطر الحقيقى يتمثل فى حرب العصابات الفدائية وأعمال الإرهاب أكثر مما يتمثل فى الهجوم التقليدى . ولذلك ، فقد أهملت أجهزة المخابرات جهودها فى البلدان العربية بعد انتصار يونيو ١٩٦٧ ، واستدعت كثيراً من عملائها . وبدلاً من ذلك ، فإن تنظيمات المخابرات الإسرائيلية راحت تركز على اختراق العديد من الجماعات الفدائية الفلسطينية . ولم تكن الحكومة الإسرائيلية تعتقد أن العرب يمكن أن يقوموا بحملة فدائية وإرهابية وأن يقوموا بمهاجمة إسرائيل فى نفس الوقت . وكانت التصريحات الرسمية الإسرائيلية توضح أن القادة العرب ليسوا على استعداد للحرب ، وراحت تحذر بشكل يكاد أن يكون عارضاً من أن أى هجوم عربى غير محسوب سرعان ما سيمنى بالهزيمة ، مثلما حدث عام ١٩٦٧ . وكانوا يؤكدون على أن إسرائيل ليست مهتمة بالحرب .

وكان الإسرائيليون يعرفون أن كلا من الرئيس السادات والفريق أول إسماعيل قد طلبا أسلحة سوفيتية ، وأنهما نجحا فى ذلك إلى حد كبير . ولكن عندما تم إخراج الخبراء والفنيين الروس والتشيك فى يوليو ١٩٧٢ ، استرخى الإسرائيليون إحساساً منهم بأنه ليس بمقدور المصريين تشغيل نظام حديث معقد للدفاع الجوى دون معاونة السوفيت ، وقدرت هيئة الأركان العامة الإسرائيلية أنه لن يكون بمقدور المصريين شن هجوم على إسرائيل قبل نهاية عام ١٩٧٥ .

ورغم عزلة الإسرائيليين فى الشرق الأوسط ، فقد كانوا يرتبطون دائماً مع حليف رئيسى ، كان بريطانيا وفرنسا فى وقت من الأوقات ، وأصبح الآن أمريكا . ولم تبرم بين البلدين معاهدة رسمية للتحالف أو الصداقة . ولكن كان مفترضاً أن الدعم الأمريكى سيتوافر فى حالة الطوارىء . فلم تكن إسرائيل تستطيع إنتاج إمدادات الأسلحة الحديثة التى تحتاجها للاحتفاظ بتفوقها العسكرى : وفى السنوات الأخيرة ، كان معظم هذا العتاد يأتى من الولايات المتحدة . وفى ديسمبر ١٩٧١ ، وعد الرئيس نيكسون بتقديم المزيد من طائرات القتال ، كما وعد أيضاً بتدعيم صناعات السلاح الإسرائيلية .

وشعر الإسرائيليون بالسرور والارتياح عندما أعيد انتخاب الرئيس نيكسون فى نوفمبر ١٩٧٢ ، حيث كان ذلك يعنى استمرار السياسة الأمريكية القائمة تجاه إسرائيل . وخلال زيارة إلى واشنطن أكدت رئيسة الوزراء مائير فى أول مارس ١٩٧٣ أن الحكومة الإسرائيلية لا تزال تستطيع الاعتماد على هذا الحليف القوى . وأوضحت التقارير الصحفية أن رئيسة الوزراء الإسرائيلية قد طلبت ٣٠ طائرة فانتوم ، و ٣٠ طائرة سكاى

هوك ، وطائرات هليكوبتر كوبرا ، وقنابل سمارت « الموجهة بأشعة الليزر » فضلاً عن المساعدات الفنية لتطوير الصناعة الجوية الإسرائيلية الوليدة ، وفى يوم ١٤ مارس ، أعلن أن الولايات المتحدة ستقدم لإسرائيل ٢٤ طائرة فانتوم ، و ٢٤ طائرة سكاى هوك ، ومساعدات لتطوير الطائرة الإسرائيلية « باراك » « وهى أصلاً طائرة « الميراج » الفرنسية المتعددة المهام » فضلاً عن المساعدة فى تطوير الرشاش الآلى الإسرائيلى الجديد « الجليل » .

وكان الإسرائيليون قد أصبحوا مفرطين فى الثقة ، كما أصبحوا يكادون أن يحتقروا العرب . وبدا الأمر كما لو أن العرب كانوا يستعدون فحسب لصد هجوم ، أكثر من أن يشنوا هجوماً . وفى التاسع من أغسطس ١٩٧٣ ، وفى محاضرة ألقاها وزير الدفاع موشى ديان فى كلية أركان حرب الجيش الإسرائيلي ، بعنوان « الانتقال من الحرب إلى السلم » قال ، « إن التوازن العام للقوى فى صالحنا . فتفوقنا العسكرى هو نتيجة لضعف العرب وقوتنا على حد سواء . وضعفهم ينبع من عوامل لن تتغير قريباً .. المستوى المنخفض لتعليم جنودهم ، وتكنولوجيتهم ، واستقامتهم .. والتفكك بين العرب .. والثقل الحاسم للقومية المتطرفة » ..

وكان « عام الحسم » « ١٩٧١ » ، الذى كان الرئيس السادات يتحجج به ، قد مر دون هجوم ، واستمرت الهدنة القلقة خلال العام التالى . وبالتالى ، فإن التحذيرات الواضحة ، مثل التصريح الذى أدلى به السادات عندما تولى رئاسة الوزراء فى ٢٨ مارس ١٩٧٣ ، من أن « مرحلة المواجهة الشاملة قد أصبحت محتومة ، وسندخلها سواء أردنا ذلك أم لم نرد » .. أو إعلانه يوم ٢٨ سبتمبر أن « مصر قد تضطر للقتال » لم تلق اهتماماً جاداً من جانب الإسرائيليين .

كما أن اهتمام العرب بالجهود الدبلوماسية قد خدع الإسرائيليين أيضاً . ففى ١٩ أغسطس ، أشارت التقارير الصحفية إلى أن مصر تعتزم القيام بهجوم دبلوماسى جديد ضد الإسرائيليين فى الشهر التالى . وفى ٢٨ سبتمبر ، اجتمع المبعوثون العرب مع وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر لبحث إجراءات المفاوضات ، واتفق على أن يجتمع كيسنجر مع الإسرائيليين فى وقت ما من شهر نوفمبر لنفس الغرض ، كما أن عودة الملك حسين إلى الحظيرة العربية لم تثر قلق الإسرائيليين . فقبل ذلك ، كان حسين وعرفات ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وزعيم حركة فتح الفدائية الفلسطينية ، قد تبادلا القبلات ، ثم عادا بعد وقت قصير واستأنفا عداءهما المميت ، ولم يكن هناك من الأسباب ما يدعو الإسرائيليين للاعتقاد بأن هذه الصداقة الجديدة بين السادات والأسد ستدوم أكثر من ذلك .

ولم تكن الثقة التى يظهرها الإسرائيليون تعنى أنه لم يكن هناك ما يقلقهم على الإطلاق .

وكانت أسباب قلقهم الرئيسية تتركز على العداء السوفيتى ، وحملات الفدائيين العرب ، والأنشطة الإرهابية العربية ، والحصول من أمريكا على ما يكفى من الأسلحة الحديثة .

كما كانت أوجه القلق الأخرى تشمل الاحتكاكات الدائمة على الحدود ؛ والمشكلة الأمنية الخاصة بالعرب فى الداخل ، ولاسيما فى قطاع غزة ؛ وتناقص تدفق المهاجرين ؛ وتقلص الدعم والمساهمات المالية الخاصة الأمريكية وغيرها ؛ والمصاعب الاقتصادية وبعض البطالة وفى أواخر سبتمبر ١٩٧٣ كانت موضوعات الأحاديث فى إسرائيل تدور حول قضية قلعة شوناو ، وعن الانتخابات العامة المقرر إجراؤها يوم ٣١ أكتوبر . وكان قدر كبير من الاهتمامات والانفعالات قد تطور فى المناخ السياسى الداخلى . فقد نشأت تيارات قوية من السخط تجاه سياسات وأنشطة حكومة ائتلاف العمل بقيادة رئيسة الوزراء جولدا مائير .. فقد ظل هذا الحزب يتولى الحكم لفترة طويلة ، وكان الكثيرون يعتقدون أنه يستغل انتصار ١٩٦٧ . وكان كثير من الإسرائيليين يعتقدون أن الوقت قد حان للتغيير .

وكان جيش الدفاع الإسرائيلى أو « زحال » كما يحب الإسرائيليون أن يسمونه ، جيشاً عالى التدريب والالتزام والكفاءة ؛ وربما كان فى ذروة مستواه عام ١٩٦٧ . وكانت الأفرع الثلاثة المنفصلة ـ الجيش وسلاح الجو والبحرية ـ تخضع بشكل صارم لسيطرة رئيس الأركان ، الذى يرأس هيئة الأركان العامة التى تضم نحو ٤٠ من كبار الضباط . وقد أوضح تعداد أجرى عام ١٩٦٩ أن هناك ١,٣٨٥,٠٠٠ عربى يعيشون فى إسرائيل والأراضى المحتلة « ٣٠٠,٠٠٠ مسلم و ٧٢,١٢٥ مسيحيا فى إسرائيل نفسها » أما اليهود ، فكان عددهم يبلغ ٢,٤٣٤,٠٠٠ نسمة . والتجنيد فى إسرائيل يشمل الرجال والنساء على حد سواء ، حيث يقضى الرجال مبدئياً ٣٦ شهراً فى الخدمة .. بينما تقضى النساء ٢٠ شهراً . تعقبها فترات متفاوتة من التدريب السنوى تبعاً للعمر .. ولم يكن يسمح ، باستثناءات كثيرة لليهود من التجنيد ، كما كان يخضع للتجنيد أيضاً الدروز الذين يعيشون فى إسرائيل ؛ إذ ٣٠,٠٠٠ من أفراد هذه الطائفة الدينية قد قبلوا السياسات الإسرائيلية واندمجوا فى الحياة القومية . كذلك فإن الشركس ، وهم جماعة عرقية صغيرة ينحدر أسلافها من روسيا ، كانوا يخدمون أيضاً بشكل طبيعى فى الوحدات الإسرائيلية . إلا أن العرب ، حتى العرب المسيحيين ، لم يكن مسموحاً لهم بالخدمة فى جيش الدفاع الإسرائيلى .

وكان العنصر النظامى فى الجيش الإسرائيلى يبلغ عدده نحو ٢٥,٠٠٠ رجل ؛ منهم ١١,٥٠٠ فى الجيش . و ٢,٠٠٠ فى البحرية ، و ١١,٥٠٠ فى سلاح الجو ، وفى أى وقت من الأوقات ، يكون هناك نحو ٥٠,٠٠٠ مجند فى مختلف مراحل التدريب ، بالإضافة إلى عدد غير معروف ، يكون عادة أكبر فى الخريف والربيع ، من قوات الاحتياط التى يتم استدعاؤها لقضاء التدريبات السنوية . وفى حالة التعبئة الشاملة كان الإسرائيليون

يتوقعون أن يحشدوا حوالى ٣١٠,٠٠٠ رجل خلال ٧٢ ساعة ، منهم مايقرب من ٢٧٥,٠٠٠ فى الجيش . وتشكل النساء ٣٥ فى المائة من هذه القوة ، حيث كن يكلفن بمهام غيرقتالية ، رغم تعليمهن الاستخدامات الأولية للأسلحة الصغيرة . وكانت النساء يشكلن نسبة كبيرة من « الذيل » الإدارى ، حيث كن يؤدين المهام التى تعفى الجنود للقيام بواجبات القتال ؛ وهو مايفسر ارتفاع نسبة « الذيل » إلى « الأسنان » فى الجيش الإسرائيلى إلى حوالى النصف بالنصف .

وكان التشكيل الميدانى الأساسى هو اللواء ، أوفريق القتال بحجم الفوج ، والذى كان يتفاوت فى حجمه بين ٣,٠٠٠ و ٤,٥٠٠ جندى تبعاً لنوعه . وعادة ما كان الإسرائيليون يعبئون ما يصل إلى ١٥ لواء فى الوقت الواحد ، يكونون خليطاً من المدرعات والمشاة الميكانيكية والمشاة ، ويضمون ثلاثة من ألوية المدفعية . وكانت هذه الألوية تستخدم إما فى واجبات الحراسة على جبهتى الجولان وقناة السويس ، أو فى حالة التأهب المترقب ، أو فى أدوار تدريبية ، أو لاستيعاب قوات الاحتياط فى التدريبات السنوية . وعند التعبئة ، يمكن أن يزيد هذا العدد إلى ٣٢ أو ٣٤ لواء ؛ وفى الواقع . فقد أمكن تحديد وجود نحو ٤٠ لواء عند نهاية حرب أكتوبر ، كان قد تم تشكيل بعضها على عجل لتحل محل ألوية أخرى استنزفتها الخسائر . وكان يتم تجميع هذه الألوية معاً لأغراض العمليات فى « قوة خاصة » (الأوجداد) تعادل حجم الفرقة من الناحية الفعلية . كما تم على الورق تخطيط عشر فرق « شكلية » لكى يتم تنشيطها فقط فى حالة الطوارىء ؛ وتم « تعيين » قياداتها من الضباط النظاميين والاحتياط ، الذين يمكن وقف وظائفهم العادية بشكل مؤقت خلال الأعمال العسكرية .

ودائماً ما كان الإسرائيليون يخططون لحرب قصيرة تستمر حوالى أسبوع فحسب ، حيث كانوا يقدرون أن الأمم المتحدة أو القوى العظمى سرعان ما ستتدخل لوقف أية أعمال عسكرية بين العرب والإسرائيليين . وكانت الاستراتيجية الإسرائيلية تقضى بالاندفاع السريع إلى أقصى مسافة ممكنة داخل الأراضى العربية ، بحيث يتمتع الإسرائيليون بأفضل الأوضاع المواتية لهم عندما يفرض وقف إطلاق النار بشكل مفاجىء . ولتدعيم هذه الاستراتيجية كان الإسرائيليون دائماً ما « يضعون أفضل السلع فى واجهة المتجر » أى يجعلون أفضل تشكيلاتهم تدخل المعركة أولاً ، ثم يليها بشكل مضطرد ، وحسبما تدعو الحاجة ، القوات الأقل تجهيزاً وتدريباً حسب مستوى القدرات . وكانت تشكيلات نظامية واحتياط معينة قد تدربت للقتال فى مناطق معينة ، مثل جبهتى الجولان أو قناة السويس .
ومنذ عام ١٩٥٦ ، كانت تكتيكات المعركة الإسرائيلية تستفيد من « الضربة المدرعة » (الهجوم المركز بالمواجهة بالدبابات والمدافع ذاتية الحركة) والاختراق العميق ، وحركة الكماشة . وظل هذا المفهوم قائماً ؛ ولكن منذ عام ١٩٦٧ ، أصبحت قلعة إسرائيل

الحصينة تتطلب قدرة دفاعية عريضة أيضاً . حيث كانت الدفاعات الإسرائيلية تقتصر على المواقع والنقاط الحصينة الأمامية . وكانت المدرعات هى مفخرة الجيش الإسرائيلى ، بينما لم تكن الأفرع والأسلحة الأخرى تحظى إلا بأولوية أقل . وفى العاشر من ديسمبر ١٩٧٢ ، وعندما كان الكنيست « البرلمان الإسرائيلى » يناقش الميزانية القومية ، تم تخصيص ثلثها للدفاع ، وأكد ديان وزير الدفاع « أن ٨٠ فى المائة من الميزانية العسكرية المخططة للسنوات الخمس التالية مخصص لسلاح الجو والمدرعات » .

إلا أن الأسلحة المتاحة لسلاح المدرعات الإسرائيلى ذى المكانة المرموقة كانت خليطاً غير منتظم ، حيث كانت إسرائيل تحصل عليها حيثما كان ذلك متاحاً ، فلم تكن كل الدول المنتجة للسلاح لتمد إسرائيل به . وبأرقام تقريبية ، كانت إسرائيل تمتلك ١,٧٥٠ دبابة : ٤٥٠ من طراز ام ـ ٤٨ باتون (بمدفع عيار ١٠٥ مم) و ٧٠٠ سنتوريون ، و ٢٥٠ « بن جوريون » (وهى دبابات سنتوريون مزودة بالمدفع الفرنسى عيار ١٠٥ مم) و ٢٥٠ سوبر شيرمان (بمدفع عيار ١٠٥ مم) بالإضافة إلى أعداد صغيرة من أنواع أخرى ، من بينها ١٠٠ دبابة ت ـ ٦٧ أو « تيران » وكانت أصلاً دبابات ت ـ ٥٤ و ت ـ ٥٥ تم الاستيلاء عليها خلال حرب ١٩٦٧ وتجديدها . ووفقاً لما يقوله ليتواك ، فإن كل الدبابات من طراز باتون قد تم رفعها إلى مستويات الدبابة أم ـ ٦٠ أ ، وكل الدبابات من طراز سنتوريون إلى مستويات الدبابة مارك ـ ١٠ . وكانت هناك أيضاً ٣٠٠ دبابة شيرمان أخرى تنتظر تحويلها إلى حاملات للمدافع أو الهاونات ..

أما حاملات الجنود المدرعة . فكانت تشمل على الأقل ١,٠٠٠ حاملة أمريكية قديمة نصف مجنزرة من طرازى ام ـ ٢ و ام ـ ٣ ، فضلاً عن الحاملات الأمريكية ام ـ ١١٣ ، وبعض النماذج السوفيتية التى تم الاستيلاء عليها .. وكانت الأسلحة الأخرى تشمل قواذف صاروخية عيار ١٧٥ مم ، ومدافع عيار ١٥٥ مم مركبة على « شاسيه » دبابة شيرمان ، ومدافع وهاوزر (عديم الارتداد) عيار ١٢٠ مم ، وهاونات عيار ١٢٠ مم و ١٦٠ مم ، ومدافع عديمة الارتداد عيار ١٠٦ مم مركبة على عربات جيب ، ومدافع عيار ٢٠ مم ، و ٣٠ مم ، و ٤٠ مم ، مضادة للطائرات . وقدرت مجلة « **أرمور** » الأمريكية أن ٧٨ فى المائة من الدبابات الإسرائيلية تتفوق على الدبابات ت ـ ٥٤ و ت ـ ٥٥ السوفيتية . وكان العدد الصغير من المركبات لدى جيش الدفاع الإسرائيلى ، وهو العدد الكافى للأنشطة العادية ، يكتمل فى حالة الطوارىء بتعبئة عدد كبير من سيارات الأوتوبيس والشاحنات المدنية التى تستخدم لنقل القوات والذخائر والإمدادات . وكانت أعداد من الدبابات والمدافع والمركبات الخاصة تبقى فى « الحفظ » ، أى « مشحمة » فى مخازن أو مواقف للمركبات انتظاراً لخروجها فى حالة الطوارىء . وبوجه عام ، كان الجنود الإسرائيليون قد اكتسبوا سمعة طيبة فى حسن صيانة مركباتهم ومهارة إصلاحها ؛ فكثير منها كان قديماً وعرضة للأعطال الميكانيكية الكثيرة .

وكان الإسرائيليون يملكون أسلحة مضادة للدبابات ، مثل صاروخ « لاو » الأمريكى القديم ، والفرنسى « اس اس ـ ١٠ » و« اس اس ـ ١١ » ، والمدفع ذاتى الحركة عيار ٣,٥ بوصة ، وهذا الأخير مصنوع فى إسرائيل وإن كان يستخدم ذخيرة أمريكية ؛ ولكنهم ما كانوا يعتمدون على هذه الأسلحة كثيراً .. وكان المبدأ المقبول هو أن « أفضل سلاح مضاد للدبابات هو دبابة أخرى » . وفى الواقع ، فقد أتيحت للإسرائيليين قبل أكتوبر ١٩٧٣ فرصة الحصول على الصواريخ الأمريكية المضادة للدبابات من طراز « تاو » ولكنهم رفضوا .

وكانت صناعة الأسلحة الإسرائيلية الصغيرة تنتج بعض الأسلحة الصغيرة والذخائر وقطع الغيار والمعدات ، ولكنها لم تكن تنتج أسلحة مثل الطائرات والدبابات والمدافع . وكان « معرض للأسلحة » أقيم فى إسرائيل فى ٢٧ مارس ١٩٧٣ قد تضمن بعض الأسلحة الجديدة، ومن بينها بندقية الهجوم الآلية « الجليل » وصاروخ جورجو . إلا أن الصاروخ سطح سطح الإسرائيلى « أريحا » الذى كثر الحديث عنه ، والذى يقال إن مداه يتجاوز ١٨٠ ميلاً ، لم يظهر قبل أكتوبر ١٩٧٣ . وقد تم إحراز تقدم فى إصلاح وتجديد المركبات والأسلحة السوفيتية التى تم الاستيلاء عليها ؛ وتمكن مصنع إسرائيلى للذخيرة من إنتاج ذخائر لكل أنواع المدافع السوفيتية التى تم الاستيلاء عليها . وفى هذا المجال ، كان هدف إسرائيل يتمثل فى انتاج ٧٥ فى المائة من كل الأسلحة المطلوبة بحلول عام ١٩٧٧ ، بما فى ذلك الصواريخ والزوارق البحرية الصغيرة والهاونات والبنادق الآلية والرشاشات والبنادق ، فضلاً عن قطع الغيار للدبابات وغيرها من المركبات المدرعة . أما إنتاج المدافع ، فكان لا يزال مشكلة بلا حل نظراً لصعوبة الحصول على ما يكفى من الصلب المناسب .

وكان فريق الجنرالات والكولونيلات الذين كانوا يديرون جيش الدفاع الإسرائيلى فى أكتوبر ١٩٧٣ يتألف من ضباط معينين حديثاً نسبياً . فمع حركة الترقيات العادية ، كانت أغلبية أسماء الجيش الإسرائيلى التى كانت معروفة للعالم الخارجى عام ١٩٦٧ قد خرجت تدريجياً من الساحة العسكرية . وعلى أية حال ، فإن معظم شخصيات الجيش الإسرائيلى كانت مجهولة للرأى العام ، حيث لم تكن الرقابة الإسرائيلية تسمح إلا بكشف أسماء بعض كبار الضباط والقادة ؛ وكانت الصحف تشير إلى معظم الشخصيات بالاسم الأول أو لقب الشهرة . ومع استثناءات قليلة ، فإن قادة الألوية المجهولين فى عام ١٩٦٧ أصبحوا قادة الفرق المجهولين فى عام ١٩٧٣ ؛ وقادة الكتائب والسرايا المجهولين فى عام ١٩٦٧ أصبحوا قادة الألوية والكتائب المجهولين فى عام ١٩٧٣ .

وظل موشى ديان وزيراً للدفاع ، وهو المنصب الذى تولاه عشية صراع ١٩٦٧ ؛ إلا أن معظم كبار ضباط هيئة الأركان العامة كانوا قد تغيروا . فرئيس الأركان الحالى اللفتنانت جنرال دافيد العازر ، قد عين فى يناير ١٩٧٢ خلفاً لحاييم بارليف ، الذى ترك الجيش ليصبح وزيراً للتجارة والصناعة فى حكومة جولدا مائير . وكان العازر قائداً عاماً للقيادة

الشمالية عام ١٩٦٧ ؛ وتولى قبل ذلك قيادة مدرستى المشاة والمدرعات ؛ ثم تولى قيادة لواء مظلات . ومع اختياره فى المقام الأول لمواهبه الإدارية فقد كان يفضل الاحتفاظ بتحصينات دفاعية أكثر من الاعتماد على العمليات المتحركة . وكان نائب رئيس الأركان ورئيس العمليات الميجور جنرال إسرائيل تال ، الذى عين أيضا عام ١٩٧٢ ، وكقائد للمدرعات فى الفترة من ١٩٦٤ حتى ١٩٦٩ ، فقد قاد طابوراً مدرعاً فى حرب ١٩٦٧ ، وكان الجنرال تال يعارض المواقع الدفاعية الثابتة ويفضل الحرب المتحركة .

ومن التعيينات الكبيرة الهامة الأخرى كان تعيين الميجور جنرال إسحاق هـوفى قائـداً عاماً للقيادة الشمالية فى مايو ١٩٧٣ . وكان مديراً للتدريب لمدة أربع سنوات ؛ وكان قد اشترك فى القتال عام ١٩٦٧ فى هضبة الجولان . أما الميجور جنرال شمويل جونين ، قائد اللواء المدرع السابع الشهير فى سيناء عام ١٩٦٧ ، فقد عين قائداً عاماً للقيادة الجنوبية فى يوليو ١٩٧٣ ، أما منصب قائد قوات المدرعات ، وهو منصب ذو مكانة كبيرة ، فكان يتولاه منذ عام ١٩٦٩ الميجور جنرال أفراهام أدان الذى كان من قبل قائداً للقوات المسلحة فى سيناء . وكان أدان قد خدم تحت قيادة الميجور جنرال أفراهام ماندلر ، القائد السابق للقوات المسلحة ؛ وكان مقرراً أن تنتهى مدة قيادة ماندلر فى السابع من أكتوبر ؛ ولكنه استمر فى الخدمة عندما نشبت الحرب . أما منصب مدير المخابرات الهام ، فكان قد تولاه عام ١٩٧٢ الميجور جنرال إيلى زائيرا ، الذى حل محل الميجور جنرال أهارون ياريف ، بعد أن ظل يشغله طوال تسع سنوات . وكان زائيرا قبل ذلك ملحقاً عسكرياً فى واشنطون ؛ وكان من رأيه أن العرب لن يهاجموا إسرائيل على الإطلاق .

واستدعى للخدمة جنرال متقاعد هو أرييل شارون ، الذى حقق لنفسه سمعة سيئة خلال حرب أكتوبر ، وكان قد تولى قيادة قوات المظلات فى الفترة من ١٩٥٤ حتى ١٩٥٦ ، وتولى قيادة فرقة فى سيناء عام ١٩٦٧ ، كما تولى منصب القائد العام للقيادة الجنوبية عام ١٩٦٩ . وترك شارون الجيش فى يوليو ١٩٧٣ ، عندما تردد أنه قد شعر بخيبة الأمل من عدم اختياره رئيساً للأركان . ودخل عالم السياسة مثل بضعة جنرالات متقاعدين آخرين ؛ وكعضو فى حزب الأحرار ، فقد لعب دوراً نشطاً فى تنظيم كتلة الليكود اليمينية . إلا أنه لم ينتخب عضواً فى الكنيست إلا بعد حرب أكتوبر .

وجاء أول تلميح إلى أن التساهل الإسرائيلى اللاهى عن القدرات العسكرية العربية ربما يكون فى غير موضعه . جاء يوم ٢٦ سبتمبر ، عندما قام موشى ديان ، برفقة رئيس الأركان ، بزيارة روتينية إلى هضبة الجولان . فقد أعرب الجنرال هوفى القائد العام للقيادة الشمالية عن قلقه ، وتشكك بصورة معلنة فى الثقة التى تضعها المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى أنظمة الإنذار المبكر ، وأشار هوفى إلى أن الذى يدافع عن الهضبـة لا يعدو لـواء مدرعـاً مخفض القوة ولواء مشاة . وطلب عودة تشكيل الحراسة النظامى ، وهو اللواء المدرع السابع ، الذى كان لا يزال فى الجنوب بالقرب من بير سبع بعد أن اشترك فى أحد

التدريبات . ووافقه ديان ، الذى كان يتسم بوجه عام بالحساسية تجاه الخطر العسكرى . ووضع العنصر النظامى للجيش فى « حالة تأهب مخفضة » وهو ما كان يعنى فقط عدم منح المزيد من الأجازات للجنود ، وكان رأس السنة اليهودية « روش هاشاناه » ، فى الفترة من ٢٧ حتى ٢٩ سبتمبر ، فترة أجازات كبرى فى إسرائيل ، حتى أن الصحف لم تكن تصدر خلالها . ولذلك ، لم يثر الأمر كثيراً من الانتباه عندما أقنع ديان ، خلال هذه الفترة ، رئيس الأركان بتحريك اللواء المدرع السابع إلى هضبة الجولان مرة أخرى .

وفى أمريكا ، لاحظ المراقبون المدققون دلائل تنذر بالسوء فى الموقف فى الشرق الأوسط . ففى ٢٤ سبتمبر ، وجهت وكالة الأمن القومى الأمريكية ، التى تراقب حركة الاتصالات اللاسلكية السياسية والعسكرية الدولية من قاعدة فى إيران ، تحذيراً للإسرائيليين من أن السوريين يقومون باستعدادات تشبه استعدادات الحرب ، ولم يأخذ الإسرائيليون ذلك مأخذ الجد . وظل مسموحاً بالزيارات السياحية لهضبة الجولان . وخلال أيام رأس السنة اليهودية ، قام أكثر من ٢٠,٠٠٠ من الإسرائيليين والسياح بزيارة ممر متلا فى سيناء لمشاهدة الدبابات والمركبات التى علاها الصدأ على جانب الطريق - فهى من بقايا وآثار حرب ١٩٦٧ ومن الرموز الأثيرة للتفوق العسكرى الإسرائيلى ، وبحلول يوم ٣٠ سبتمبر ، كان القلق الأمريكى قد ازداد . ولكن كانت أجهزة المخابرات الأمريكية تعتمد بشدة على التأكد من المصادر الإسرائيلية ؛ ولما كان الإسرائيليون يتمتعون بسمعة طيبة فيما يتصل بالآراء والاستنتاجات ، فقد كان تشككهم مقبولاً للأمريكيين . وقام الإسرائيليون باستخدام أجهزة الالتقاط والتصنت فى مواقع متقدمة جداً على الجبهتين المصرية والسورية ، ورغم أن طلعاتهم الاستطلاعية الجوية لم تكن بالكثرة التى كانت عليها فى الماضى ، فقد علموا بتحركات القوات ، واستبعدوا بشكل عرضى النشاط العربى باعتباره مناورات الخريف المعتادة .

وفى أول اكتوبر ، أدرك الإسرائيليون النشاط المصرى الزائد خلف التل الرملى الدفاعى المرتفع - قوافل من الشاحنات يجرى تحريكها ، وأوتاد يتم دقها فى الأرض بالقرب من القناة بجوار المزالق الخرسانية الجديدة ، وأعداد زائدة من الجنود ترابط فى الدفاعات . ولكن أفكار الإسرائيليين كانت فى مكان آخر : فرئيسة الوزراء مائير كانت فى النمسا لحضور اجتماع لمجلس أوروبا ؛ وبينما كانت هناك ، اجتمعت بالمستشار النمساوى فى محاولة غير ناجحة لتغيير قراره بإغلاق قلعة شوناو . وركزت أجهزة الإعلام على هذه الجهود الدبلوماسية ، ولم تخصص للنشاط العربي سوى أقل القليل من التغطية . صحيفة إسرائيلية واحدة هى التى نشرت تعليق ديان ، الذى قال فيه إن « نظاماً كاملاً للدفاع الجوى ، يقوم على صواريخ سام - ٢ وسام - ٣ ، قد أقيم فى مرتفعات الجولان » ، وأن « مدافع ودبابات ثقيلة سورية قد تم تحريكها إلى خط الجبهة » . وفى الثانى من اكتوبر ، ذكرت صحيفة إسرائيلية أخرى أن مصر قد أعلنت « حالة تأهب » فى منطقة قناة

السويس ، ولكن فى اليوم التالى ذكرت الصحف الأخرى بشكل ملطف ومهدىء أنه ليست هناك أية دلائل على التأهب المصري ..

وزار الجنرال جونين خط بارليف فى الثانى من أكتوبر ، ولكنه لم يعرب عن انزعاجه . ورغم أن الدلائل كانت تصبح أكثر وضوحاً، فقد بدا كما لو أن الإسرائيليين ما كانوا يريدون الاعتراف بالخطر المحدق . وعندئذ اختفى جونين فى « زيارة خاصة » وكان لا يزال غائباً عن مقر قيادته العامة فى الرابع من أكتوبر ، عندما تم الحصول على صور جوية أكثر مدعاة للانزعاج والقلق . وفى الخامس من أكتوبر ، صدرت الأوامر بالإسراع ببناء جسرين عائمين كان الإسرائيليون يبنوهما من أجل عملية محتملة لعبور القناة .

وفى الثالث من أكتوبر ، عقد اجتماع لمجلس الوزراء فى كل من القدس والقاهرة .. وفى القاهرة كان الموضوع الوحيد فى جدول الأعمال هو الوحدة المقترحة بين مصر وليبيا ، وفى القدس ، نوقشت قضية قلعة شوناو ، حيث كانت رئيسة الوزراء جولدا مائير قد عادت من النمسا . إلا أن مائير كتبت فيما بعد أنها التقت فى ذلك اليوم مع ديان وبعض كبار ضباط هيئة الأركان (ولكن ليس مع الجنرال زائيرا ، الذى كان مريضاً ولم يتمكن من الحضور) الذين أبلغوها بقلقهم إزاء استعدادات عربية لمهاجمة إسرائيل . وكان الإجماع على أنه ليس ثمة خطر من أن تشن مصر هجوماً ، ولم يكن معتقداً أن سوريا ستهاجم وحدها . ونظراً لذلك ، لم يصدر أى قرار باتخاذ أية أعمال على الفور .

وخلال الأسبوع الذى سبق السادس من أكتوبر ، طلب وزير الخارجية الأمريكى كيسنجر تنبؤات المخابرات الأمريكية ؛ وفى كل مرة ، كان يتلقى رأياً مفاده أن الأعمال الحربية لن تنشب فى الشرق الأوسط . وفى الرابع من أكتوبر ، طلب من جديد تقديراً للموقف ، وأعطت أجهزة المخابرات العسكرية الإسرائيلية والأمريكية على حد سواء نفس التنبؤ ـ ليس هناك احتمال للحرب .

وكانت رئيسة الوزراء جولدا مائير قد اعتادت أن تجمع بصورة غير رسمية بضعة من الوزراء وغيرهم بشكل مرتجل ، لبحث أى أمر معين يتسم بأهمية فورية . وكانت الصحف تشير إلى هذا الاجتماع المصغر باسم « حكومة المطبخ » وكانت تشعر بقلق مبهم إزاء الموقف العسكرى ، فدعت إلى اجتماع طارىء ظهر الخامس من أكتوبر ، قبل يوم واحد من عيد الغفران . وحضر الاجتماع الوزراء التسعة الموجودون فى تل أبيب ، بالإضافة إلى الجنرال ألعازر والجنرال زائيرا . واستعرض الاجتماع تقارير عن مغادرة عائلات الروس لسوريا ، إلا أنه لا ديان ولا ألعازر ولا زائيرا أعطى أية أهمية لهذا الحدث وقالت جولدا مائير بعد ذلك فى معرض تعليقها ، « لا ، لم يغير ذلك من تقييمهم » وخلال صباح الخامس من أكتوبر ، حلقت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية فوق الجبهة المصرية فقط . ولو كانت قد حلقت فوق الجبهة السورية ، لكانت قد لاحظت تغير أوضاع الفرق السورية بالقرب من خط

وقف إطلاق النار . وبسبب قلق رئيسة الوزراء ، وافق الوزراء الحاضرون على قرار يفيد بأنه إذا ما كانت هناك ضرورة لذلك خلال أيام العطلة القادمة ، يكون بمقدور رئيسة الوزراء ووزير الدفاع أن يصدرا أمراً « بالاستدعاء الكامل للقوات » ـ وهو الأمر الذى يتطلب عادة قراراً من مجلس الوزراء بكامل هيئته . وبعد ذلك ، كتبت جولدا مائير تقول ، « صباح ذلك الجمعة ، كان ينبغى أن أستمع إلى تحذيرات قلبى ، وأصدر أمر استدعاء القوات » .

وحوالى الساعة الرابعة صباحاً « بتوقيت إسرائيل » تلقت رئيسة الوزراء جولدا مائير برقية من وزير الخارجية أبا إيبان ، الذى كان فى نيويورك وقتئذ ، كان قد أرسلها فى الساعة التاسعة مساء « بتوقيت نيويورك » اليوم السابق ـ حيث أن هناك فارقا فى التوقيت يبلغ سبع ساعات . وذكرت الرسالة أن المصريين والسوريين سيشنون هجوماً مشتركاً على إسرائيل فى وقت متأخر من بعد الظهر . وتم أيضاً فى نفس الوقت إبلاغ الجنرال زائيرا بذلك من واشنطون . وعلى الفور ، قام بإبلاغ ديان وألعازر تليفونياً ؛ وفى الساعة السادسة صباحاً ، كان الثلاثة يعقدون اجتماعاً . واقترح ألعازر التعبئة العامة على الفور وتوجيه ضربة جوية وقائية ضد سوريا ، ولكن ديان لم يوافق . وفى حوالى ذلك الوقت . تم نقل هذه المعلومات لبعض الدبلوماسيين الأجانب فى إسرائيل . ومن بينهم السفير الأمريكى كينيث كيتنج .

والتقت رئيسة الوزراء جولدا مائير مع ديان وألعازر فى الساعة الثامنة صباحاً . وكان الجنرال ألعازر لا يزال يقترح ضربة جوية وقائية وتعبئة عامة تبدأ بكل سلاح الجو وأربع فرق من الجنود . فإذا ما تم استدعاؤها على الفور ، فإنها ستكون مستعدة لخوض القتال مع أول ضوء فى السابع من أكتوبر ، « ولكن لابد أن تعطونى الضوء الأخضر الآن » على حد قوله .. واعترض موشى ديان على هذه الخطة ، وفضل بدلاً منها استدعاء سلاح الجو بالإضافة إلى تعبئة فرقتين إضافيتين ، واحدة للشمال والأخرى للجنوب . وقال بأن إعلان التعبئة العامة قبل أن تنطلق طلقة واحدة سيتسبب فى دمغ إسرائيل بأنها الطرف المعتدى ، وتذكرت رئيسة الوزراء أن ألعازر كان قد سبق أن حذر من « الذئب ! الذئب » فى شهر مايو ١٩٧٣ ، وثبت أنه مخطىء ؛ ولذلك لم توافق على مقترحاته ، وأعطت موافقتها على تعبئة ١٠٠,٠٠٠ رجل فقط . وقد وسع ألعازر فى الواقع من حدود هذه الموافقة ، وعبأ عدداً أكثر من ذلك .

وفى الساعة العاشرة من ذلك الصباح ، اجتمع السفير كيتنج مع رئيسة الوزراء فى مكتبها ، وحذرها من توجيه ضربة وقائية ضد العرب ؛ لأن من شأن ذلك أن يجعل من الصعب على الولايات المتحدة إرسال معونة عسكرية إلى إسرائيل . وأكدت له جولدا مائير أن هذا الإجراء لن يتخذ .

وفى الساعة السابعة من صباح السادس من أكتوبر ، أظهر استطلاع قامت به طائرة إسرائيلية فوق جبهة الجولان بوضوح لأول مرة أن ثلاث فرق سورية قد تحولت من الوضع الدفاعى إلى وضع الهجوم ، على حين لوحظت على الجبهة المصرية معدات العبور والهجوم الأخرى . ولم يتبق كثير من الشك فى أن العرب على وشك القيام بهجومهم ، إلا أن الإسرائيليين كانوا يتوقعون أن يبدأ الهجوم عند الغسق ، فى حوالى السادسة مساء ، وافترضوا أن لديهم عدة ساعات يتأهبون خلالها . وبحلول الساعة التاسعة صباحاً ، كان قد تم إخطار كبار الضباط والشخصيات الرئيسية . وإبلاغهم بالتوجه إلى مراكز تعبئتهم . وبدأت « مرحلة الإمداد والتموين » من التعبئة : فراح يجرى إعداد تكليفات المهام ، وإخراج الأسلحة والمعدات ، واستدعاء الجنود لمختلف الوحدات بصورة تصاعدية للتوجه إلى مراكزهم عن طريق نداءات شفرية من خلال الإذاعة ، حيث كانت تستخدم كلمة أو عبارة مختلفة لكل وحدة ولا يعرفها سوى أفراد تلك الوحدة فقط .

ورغم أنه صار واضحاً لهيئة الأركان العامة أن الأعمال الحربية أصبحت وشيكة ، فإن التحذير راح ينتقل ببطء خلال التسلسل القيادى ، وفيما بعد ، اعترف الجنرال ألعازر بأنه لم يتم إبلاغ قادة الألوية حتى صباح السادس من أكتوبر (ولم يذكر فى أية ساعة) على حين أن صغار الضباط وكثيراً من القادة لم يتم إبلاغهم على الإطلاق . فكثير منهم لم يدركوا خطورة الموقف إلا قبل الهجوم العربى بدقائق ، أو عندما انفجرت القنابل أو القذائف الأولى . وكان الاستثناء الوحيد هو سلاح الجو ، بنسبته العالية من الجنود النظاميين ، حيث كان فى حالة تأهب كاملة . أما قوات احتياط سلاح الجو ، التى تقل عن ثلث قوته الإجمالية ، فكان قد تم استدعاؤها فى الرابع من أكتوبر ، دون موافقة وزارية فيما يبدو .

وفى لجنة التحقيق التى شكلت بعد الحرب ، زعم الجنرال ألعازر أن حالة التأهب فى الجيش الإسرائيلى قد بدأت قبل عشرة أيام من السادس من أكتوبر ، وأنها بلغت ذروتها صباح الخامس من أكتوبر فيما يتعلق « بالجيش النظامى » . وكان يشير إلى حالة التأهب المخفضة التى أعلنت يوم ٢٤ سبتمبر ، والتى تم رفعها بدرجة طفيفة وإن لم يتم توسيعها لاستدعاء الجنود النظاميين أو أولئك الذين كانوا يقضون تدريبهم الأولى أو الاحتياطى ، وفى الواقع ، فإنه قد « طلب » ولم « يستدع » ـ بعض قادة وضباط أركان فرق الاحتياط لإطلاعهم على الموقف ، كما طلب بعض كبار الضباط الآخرين لنفس الغرض خلال صباح السادس من أكتوبر . إلا أن ألعازر لم يقرر ، حتى الساعة الحادية عشرة من صباح السادس من أكتوبر ، إلغاء كل الاجازات والتحذير بأن استدعاء قوات الاحتياط أصبح محتملاً . ولم يصدر على الإطلاق أى قرار رسمى بالتعبئة الكاملة : بل لقد تمت التعبئة فحسب . فعندما بدأت الحرب ، كانت « مرحلة الإمداد والتموين » قد اكتملت بصورة جزئية ، وبدأت آلة التعبئة تمارس عملها ، وراحت الإذاعة تذيع الكلمات الشفرية لاستدعاء الجنود إلى وحداتهم .

وعلى المستوى الحكومى ، ظل التردد فى إصدار أمر التعبئة الكاملة مستمراً ، ربما حتى صباح السادس من أكتوبر . فقد كانت هناك ثلاث حالات للتعبئة منذ حرب ١٩٦٧ ، وكانت كلها باهظة التكلفة وضارة بالاقتصاد الإسرائيلى ـ واحدة فى ديسمبر ١٩٧١ ، عندما كان المصريون على وشك قصف شرم الشيخ ؛ والثانية فى ديسمبر ١٩٧٢ ، عندما كان المصريون على وشك إسقاط قوات مظلات فى سيناء ؛ والأخيرة فى مايو ١٩٧٣ . وحسب ما قاله الجنرال ألعازر ، فإن ذلك الموقف الأخير كان يبدو أكثر خطورة من الحالة الحالية للأمور ، ومع ذلك لم تقع الحرب عندئذ . وكانت نتيجة ذلك التردد وعدم الحسم . وكان رأى هيئة الأركان العامة الإسرائيلية أن فترة الخطر الحقيقية لحدوث هجوم عربى هى خلال عطلات أعياد رأس السنة اليهودية ، حين يكون الإسرائيليون فى أضعف حالاتهم من زاوية القدرة على التعبئة . وبالإضافة إلى ذلك ، كان معتقداً أن العرب لن يقوموا بعملية عسكرية خلال شهر رمضان . الذى كان فى عام ١٩٧٣ يمتد من ٢٦ سبتمبر حتى ٢٦ أكتوبر ، حين يتعين على كل المسلمين الصيام خلال ساعات النهار . ولم يجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى بكامل هيئته لبحث الموقف واتخاذ قرار حول ما ينبغى عمله إلا ظهر السادس من أكتوبر . وعندما وجه العرب ضربتهم فى الساعة الثانية بعد الظهر ، كان مجلس الوزراء لا يزال منعقداً ؛ وفيما بعد كتبت رئيسة الوزراء جولدا مائير تقول : « لم تكن الصدمة فقط فى الطريقة التى بدأت بها الحرب ، وإنما أيضاً فى حقيقة أنه قد ثبت خطأ عدد من افتراضاتنا الأساسية » .

وفى أمريكا ، فى اليومين الرابع والخامس من أكتوبر ، كانت أجهزة المخابرات تعكف على إعداد تقييم جديد للموقف فى الشرق الأوسط . ولم تكن هذه المعلومات الجديدة متاحة بعد فى الساعة السادسة صباحاً « بتوقيت نيويورك » والواحدة بعد الظهر « بتوقيت إسرائيل » يوم السادس من أكتوبر . عندما اتصل السفير الإسرائيلى بوزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر ليبلغه بأن العرب على وشك مهاجمة إسرائيل . وعقب هذه المكالمة التليفونية على الفور ، رجع كيسنجر إلى أجهزة مخابراته التى أكدت المعلومات ؛ وفى الساعة ٦,٠٧ صباحاً ، اتصل تليفونياً بالرئيس نيكسون ليبلغه النبأ فى واشنطون ـ قبل ٥٣ دقيقة فقط من الضربة العربية الفعلية . وكانت المفاجأة من نصيب الأمريكيين أيضاً .

الفصل الخامس

اقتحام خط بارليف

« كان كل منا يعرف عن ظهر قلب ما الذى يفترض أن يفعله . لقد تدربنا على المهمة وقتاً طويلاً جداً »

جندى مصرى جريح ـ فى تليفزيون
القاهرة ـ ٩ اكتوبر ١٩٧٣

على جبهة قناة السويس ، وإلى الخلف من خط بارليف ، تقع ثلاثة طرق رئيسية تمتد من الشمال إلى الجنوب . وكان أحدها ، الذى يمتد بمحاذاة القناة تقريباً ، مميزاً بخط من أعمدة التلغراف فى جانب منه ، مما كان يشكل علامة مميزة ومفيدة . وكان هناك طريق آخر ممهد ، ومعروف للإسرائيليين باسم « **طريق المدفعية** » حيث كان مخصصاً للانتشار السريع للمدفعية والدبابات ، يقع على مسافة تتراوح بين ستة وسبعة أميال شرقى القناة . وكانت تغطيه من جهة الغرب سلسلة من التلال الصغيرة التى يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠٠ قدم ، تل الطاسة وتل صبحة وتل كاتب الخيل ؛ وكان هذا الأخير معروفاً للإسرائيليين باسم « المثلث ١٠٠ » . وأضيفت أكوام وكثبان الرمل إلى هذه السلسلة لإخفاء الدبابات والمخازن والتحركات . كما وفرت للإسرائيليين أيضا نقاط مراقبة ممتازة لا يسهل تمييزها لوقوعها أمام سلسلة جبال الخاتمية الأعلى والتى تقع إلى الشرق منها . وكانت الأرض بوجه عام ترتفع بشكل تدريجى كلما اتجهنا شرقاً من القناة . وكانت الطاسة ، التى تقع على طريق المدفعية على نفس الخط العرضى الذى تقع عليه الإسماعيلية تقريباً ، هى مجمع عسكرى صغير يضم تحت الأرض مركزاً للقيادة ، وأماكن للإيواء ومخازن ومواقف للمركبات ، فضلاً عن مهبط طائرات صغير .

وإلى الشرق من ذلك ، وعلى مسافة من القناة تتراوح بين ١١ و١٢ ميلاً ، كان يوجد الطريق الممهد الثالث ، المعروف باسم « **طريق الإمداد** » . وتطل عليه من جهة الشرق سلسلة جبال الخاتمية ، التى ترتفع إلى ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، والتى يتراوح بعد سفوحها عن القناة بين ٢٠ و٤٠ ميلاً . وهى أعلى وأكثر اتساعاً فى الجنوب ، حيث تتصل بالكتلة الجبلية التى تشكل جنوب سيناء ، منها فى الوسط والشمال . وتتلاشى سلسلة جبال الخاتمية فى محاذاة القنطرة ، حيث نجد الرمال الناعمة ، التى تتلاشى بدورها كلما اتجهنا شمالاً ، لنجد المستنقعات المالحة بالقرب من ساحل البحر المتوسط . والطرق الثلاثة (**القناة والمدفعية والإمداد**) تتصل بشبكة من الطرق الجانبية الأصغر . وكانت المنطقة المستطيلة المحصورة بين قناة السويس وسلسلة جبال الخاتمية ، والتى تمتد من شمال القنطرة مباشرة حتى جنوب بور توفيق مباشرة ، مناسبة لتحركات المدرعات ، وإن كانت بها بعض المساحات الصغيرة من الرمال الناعمة السائبة .

وعلى مسافة نحو عشرة أميال شرقى القناة ، كانت هناك ستة مراكز قيادة إسرائيلية محصنة البناء ومموهة ومحصنة ضد القنابل والقذائف بجدران وأسقف خرسانية ، ومدعمة بالصخور المربوطة بالأسلاك الشائكة ، وكانت المراكز الستة موزعـة بطول الجبهة . كما كانت مزودة بمعدات اتصال حديثة للسيطرة على مناطقها . وإلى الخلف من سلسلة جبال الخاتمية ، توجد بير جفجافة ، التى يعرفها الإسرائيليون باسم « ردافين » ، وهى مجمع عسكرى كبير إلى حد ما كان يشكل مقر قيادة جبهة قناة السويس .

ولم يكن يعبر صحراء سيناء من الشرق إلى الغرب سوى أربعة طرق فحسب ، وإن كانت هناك شبكات من الطرق الجانبية والعسكرية التى تتفرع منها . كان الطريق الساحلى الشمالى يمتد من القنطرة شرق (تمييزاً لها عن القنطرة غرب التى تقع على الضفة الغربية للقناة) عبر رمانة ، ثم شرقاً حتى العريش . ومن رمانة . كان طريق معبد يمتد غرباً فى اتجاه قناة السويس ، مروراً بالمستنقعات المالحة إلى بور فؤاد . وكان الإسرائيليون قد أقاموا شبكة صغيرة من الطرق فى مثلث المستنقعات المالحة . أما الطرق الثلاثة الأخرى ، فكانت تمر خلال الممرات الحيوية الثلاثة فى سلسلة جبال الخاتمية : الطريق الأوسط ، ويمتد من الإسماعيلية ، خلال ممر الخاتمية ، إلى بير جفجافة وجبل لبنى وأبو عجيلة : والطريق الجنوبى ، ويمتد من شاطىء البحيرة المرة الكبرى ، خلال ممر الجدى ، إلى بير الحسنة ، ثم إلى القسيمة ، وأخيراً ، طريق الحجاج القديم ، ويمتد من بور توفيق ، عبر ممر متلا ، إلى نخل وتماده ورأس النقب . وكانت هذه الممرات الثلاثة هى الوسائل الوحيدة لانتقال المركبات عبر سلسلة جبال الخاتمية من الغرب إلى صحراء سيناء المفتوحة وراءها ، لأن بحر الرمال والمستنقعات المالحة شمال السلسلة الجبلية كانا يشكلان عائقاً منيعاً لتحركات المركبات .

وفى السادس من أكتوبر ، كان يرابط فى النقاط الحصينة لخط بارليف لواء احتياط من منطقة القدس ، هو اللواء ١١٦ مشاة . ورغم أن رئيسة الوزراء جولدا مائير قالت بعد ذلك إنه كان هناك ٦٠٠ جندى يحرسون الخط ، فإن الجنرال حاييم هرتزوج ، الذى أصبح المعلق العسكرى الرسمى خلال الحرب ، قال فى كتابه « **حرب الغفران** » ، إنه كان هناك « ٤٣٦ جندياً فى ١٦ نقطة حصينة » ، تدعمهم سبع بطاريات مدفعية ، وعلى حين لايناقض المصريون تماماً هذا العدد للنقاط الحصينة ، فإنهم يقولون إن الإسرائيليين يتحدثون فحسب عن مواقعهم الرئيسية ، ويغفلون ذكر المواقع البديلة أو تلك المواقع التى فشلوا فى الوصول إليها واحتلالها لأنهم فوجئوا . وكان خط بارليف يضم من الذخائر والمواد الغذائية والإمدادات مايكفى لمدة شهر على الأقل ؛ والمياه كانت تمتد فى أنابيب من العريش عبر الصحراء ؛ وكان قد تم تركيب خطوط الكهرباء ، وإتاحة أجهزة التليفون المدنية لكى يتصل الجنود ببيوتهم بأسعار رخيصة . وكانت مفرزة مشاة مستقلة أخرى تغطى منطقة المثلث الشمالى من المستنقعات المالحة .

وكان لدى الإسرائيليين ثلاثة ألوية مدرعة جاهزة للعمل فوراً : لواءان فى المنطقة بين قناة السويس وجبال الخاتمية يضمان فى إجماليهما حوالى ٢٨٠ دبابة و٥٠ قاذفاً صاروخياً ، أما اللواء الثالث ، فكان شرقى الجبال مباشرة . وعندما كانت السرايا التسع للواء المدرع الأمامى تنتشر بطول الجبهة ، فإنها كانت تتخذ مواقع خلف خط بارليف بنحو ميلين ، بحيث تكون مستعدة للاندفاع للأمام خلال ٣٠ دقيقة لضرب أية غزاة ، وإلى الخلف من ذلك ، كان لواء مدرع آخر ، بقرب خط الإمداد ، على استعداد لضرب أى هجوم كبير خلال زمن رد فعل يبلغ ساعتين . أما اللواء المدرع الثالث ، فكان يحتل مواقعه إلى الشرق مباشرة من السلسلة الجبلية بجوار الممرات ، وعلى استعداد للتحرك خلال الممرات على وجه السرعة . وكانت هناك ثلاثة ألوية أخرى شرقى جبال الخاتمية . وكانت هذه التشكيلات العديدة هى اللواء السابع واللواء ١٤ واللواء ٤٠١ واللواء ٤٦٠ مدرعات واللواء ٢٠٤ مشاة ميكانيكية واللواء ٩٩ مشاة (مظلات) . والنظام الإسرائيلى لتسمية تشكيلاتهم هو نظام مربك بشكل متعمد ؛ وكانت بعض الأسماء والأرقام مكررة ، فعلى سبيل المثال ، كان فى جبهة الجولان مايسمى أيضاً اللواء السابع المدرع .

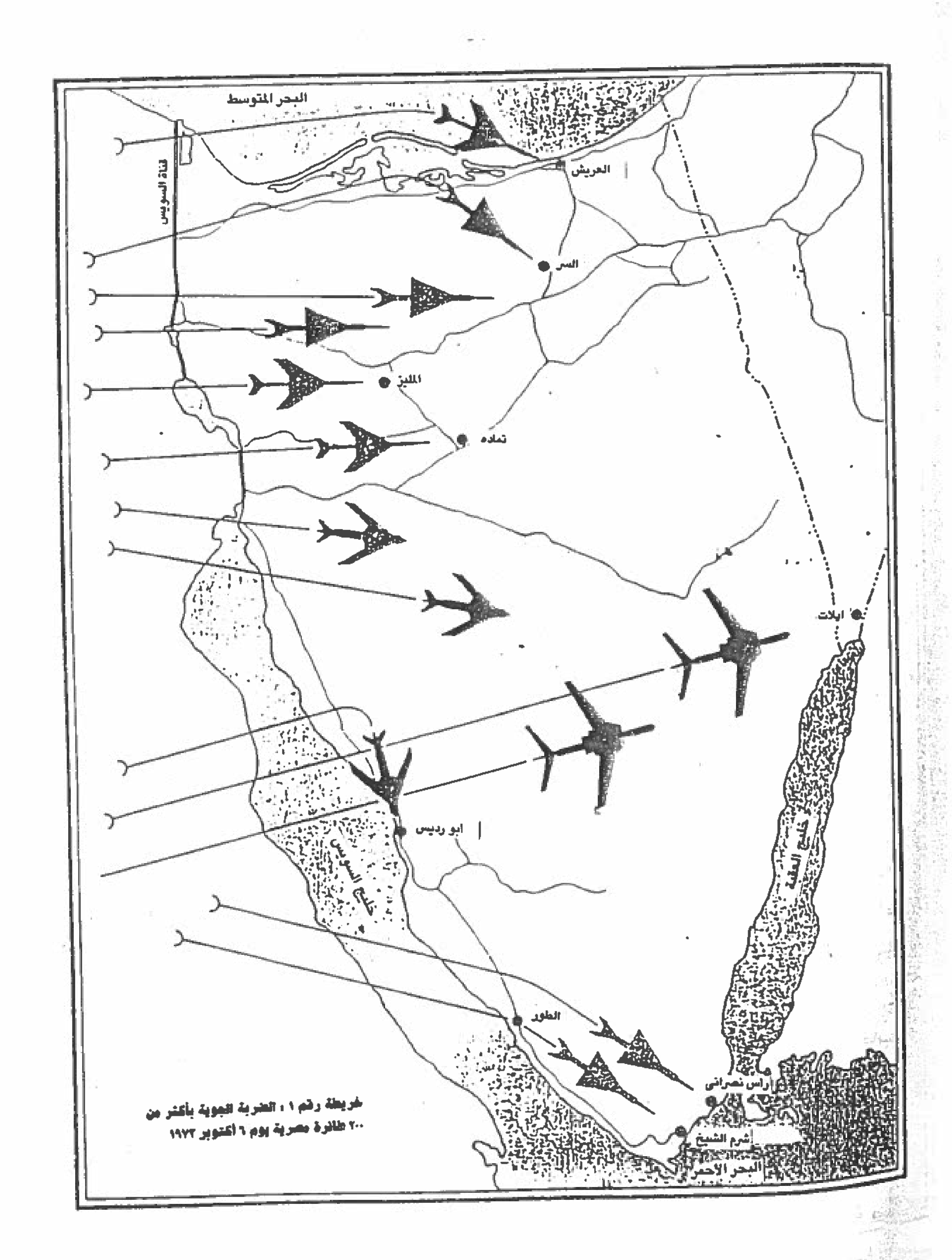
وعادة ماكان هناك نحو ثمانية ألوية من مختلف الأنواع فى سيناء ، سواء لواجبات الحراسة أو للتدريب ، وكان زمن رد فعلها للوصول إلى القناة فى حالة الطوارىء يصل إلى ثمانى ساعات . وكانت هناك ثلاثة ألوية احتياط أخرى مخصصة لتعزيز المنطقة فى حالة التعبئة . وكانت هناك أيضاً أربع كتائب من قوات « **ناحال** » ، التى تضم الجنود ـ العمال الذين يقيمون المستوطنات فى سيناء وقطاع غزة . وكان المصريون يقدرون أنه ، عند التعبئة الكاملة ، سيكون بمقدور الإسرائيليين حشد ٢٠ لواء فى سيناء ، إلا أنهم أخطأوا الحساب حيث ارتفع الرقم إلى ٢٧ لواء فى وقت انتهاء حرب أكتوبر . وفى السادس من أكتوبر ، كانت حساباتهم تقول إنه سيكون فى سيناء حوالى ٨,٠٠٠ جندى ، مع أكثر من ٣٠٠ دبابة و٧٠ قاذفاً صاروخياً .

وفى جبهة قناة السويس ، كانت القوات الإسرائيلية التى ترابط فى خط بارليف ، وتلك التى تعززها خلفه مباشرة ، لا تدرك أن الحرب كانت على وشك أن تبتلعهم ؛ فجو الطوارىء الذى كان محسوساً فى المستوى الأعلى لم يصل إليهم . وعلى الضفة الغربية للقناة ، استمرت أنشطة أوقات الفراغ العادية ، فالجنود المصريون يصيدون الأسماك ، أو يسبحون ، أو يستلقون فى استرخاء بالقرب من حافة الماء . وقال لى أحد كبار الضباط المصريين إنه فى الساعة ١٢٠٠ ذهب إلى التل الرملى الدفاعى فى القطاع الجنوبى ليلقى نظرة على الأرض التى كان على وشك أن يقتحمها ، ليكتشف هناك الكثير من القادة والضباط من تشكيلات المدرعات والمدفعية والمهندسين والمشاة ، ذهبوا لنفس الغرض . وراحوا يتجولون فوق قمة التل الرملى ، وهم يدخنون ويضحكون ويتناولون القهوة . ولما كان المصريون لا يحملون أسلحة ، فقد تجاهلهم الحارس الإسرائيلى فى برج المراقبة الذى

يبلغ ارتفاعه ٦٠ قدماً . وبعد ساعتين من ذلك ، أطلق قناص مصرى النار على هذا الحارس ، فأرداه قتيلاً .

كما أن قائد إحدى الوحدات أحضر وحدته معه فى شاحنات ، قائلاً ، « فليلق رجالى نظرة قبل المعركة » . ويبدو أنه كانت هناك حوادث مماثلة ، وإن كانت أصغر حجماً ، على طول القناة ، ولكن لم يكن هناك أى ارتياب فيما يحدث حتى حوالى الساعة ١٣٤٥ ، عندما ساد الهدوء الكامل فجأة الجانب المصرى بأكمله . فالجنود الذين كانوا يقضون أوقات فراغهم اختفوا ؛ ولاحظ الحراس الإسرائيليون الأكثر انتباهاً فى أبراج مراقبتهم أن المصريين راحوا يرفعون أغطية الفوهات من المدافع والهاونات على الضفة الغربية . وحوالى ظهر ذلك اليوم ، تم إخطار الجنرال ماندلر ، الذى كان يتولى قيادة الألوية المدرعة الأمامية الثلاثة ولواء المشاة الشمالى ، بأن من المتوقع حدوث هجوم مصرى فى المساء . ولما كان بطيئاً فى البداية فى تنفيذ خطة الهجوم المضاد الفورية ، فإنه لم يكن قد بدأ تحريك دباباته عندما بدأت الحرب . وفى نفس الوقت تقريباً ، تم تحذير قائد اللواء ١١٦ مشاة فى خط بارليف . وبدأ يتصل تليفونياً بكل نقطة من النقاط الحصينة ، ولكنه واجه صعوبة بالغة فى إقناع رجاله بأن من المتوقع حدوث هجوم . وأكد هرتزوج أن « الأمر استغرق منه خمس دقائق على الأقل فى كل حالة منفردة لإقناع ضباطه بأنه يتحدث عن حرب حقيقية » . وبدأ قلة من القادة الإسرائيليين يشعرون بأن ثمة خطأ ما ، واتخذوا احتياطات بدفع المزيد من الحراس إلى الأبراج ، واستدعاء الجنود من فترات الراحة إلى المواقع الدفاعية ، وبدفع قوات إلى الدفاعات الخارجية . ومع ذلك ، فإن معظم الجنود الإسرائيليين ، إذا كانوا من المتدينين ، فقد راحوا يواصلون صلواتهم ؛ أما غير المتدينين ، فقد استمروا يلعبون كرة القدم ، أو يغنون ، أو يسترخون فحسب .

وحوالى الساعة ١٤٠٠ ، انطلقت ٢٤٠ طائرة مصرية فى مجموعات صغيرة عبر القناة شرقاً إلى سيناء ، لتسقط القنابل وتطلق الصواريخ على اثنى عشر هدفاً إسرائيلياً أو أكثر . (ويزعم العراقيون أن ١٢ من طائراتهم شاركت فى الهجوم . إلا أن المصريين ينفون اشتراك أية طائرة عراقية) . وكانت الأهداف تشمل مقر القيادة الإسرائيلية ومنشآت الاتصالات والرادار وثلاثة مطارات وبطاريات صواريخ هوك وتجمعات المدفعية ونقطة « بودابست » الحصينة على البحر المتوسط . وكان الهدف يتمثل فى أن تصيب القنابل والصواريخ أهدافها بدقة فى ساعة الصفر - وأنجزت أغلبية الطائرات ذلك بالضبط . ويعترف المصريون بخسارة طائرة واحدة ، ولكنهم يقولون بأنه تم تدمير عدد من مدافع الميدان ، من بينها بطارية مدفعية ١٧٥مم بعيدة المدى ، بالإضافة إلى بعض معدات الرادار والاتصالات . وكان مخططاً توجيه ضربة جوية مصرية ثانية ، وكانت جاهزة للتنفيذ إلا أنها لم تنفذ لأنه أصبح معتقداً أن الضربة الأولى قد حققت مايكفى من الأضرار .

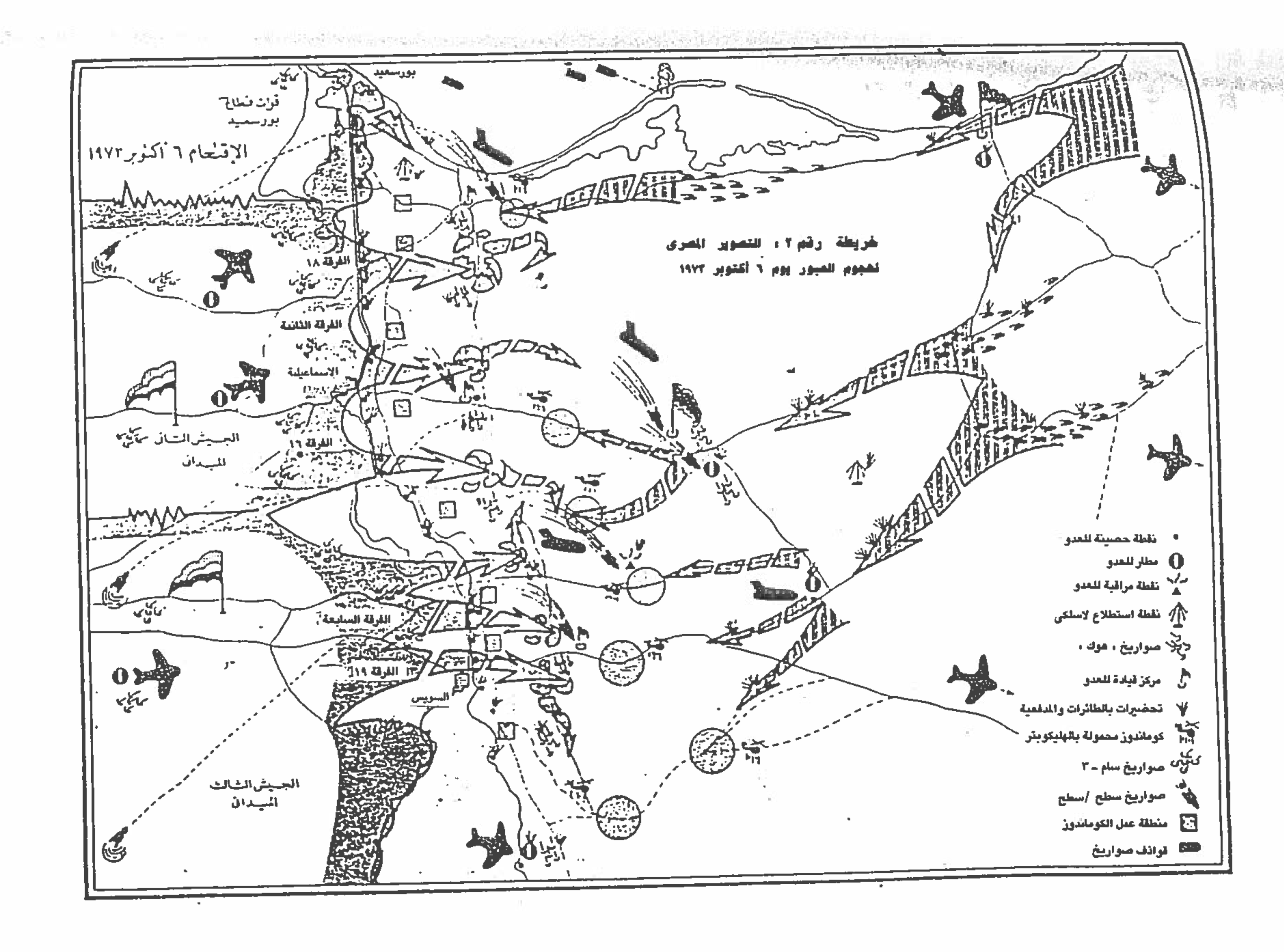


خريطة رقم ١ : الضربة الجوية بأكثر من ٢٠٠ طائرة مصرية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣

وفى الليلة السابقة ، وخلال ساعات الظلام ، كان المصريون قد حركوا مدافعهم وهاوناتهم إلى الأمام ، خلف ساتر التل الرملى الدفاعى مباشرة ؛ كما كانوا قد وضعوا دباباتهم فوق تلك « الأهرام » الرملية . وفى ساعة الصفر الساعة ١٤٠٥ ، فتح نحو ألفين من هذه الأسلحة نيرانها فى عملية قصف هائلة ؛ وكان نصفها يطلق نيرانه على خط بارليف مباشرة . وكانت قواذف الصواريخ مصوبة بحيث تنفجر صواريخها على المنحدرات الأمامية ، بحيث تفجر كل الألغام والشراك الخداعية بين النقـاط الحصينة ، وهى المنحدرات التى كانت القوات المهاجمة سوف تتسلقها . أما النصف الآخر من الأسلحة ، وأساسا الهاونات والمدفعية بعيدة المدى ، فقد استخدمت نيرانا غير مباشرة ضد أهداف وراء خط بارليف ، فى أربع مراحل متدرجة استمرت ٥٣ دقيقة . وخلال عملية القصف هذه ، تم إطلاق حوالى ١٠٥٠٠ قذيفة وقنبلة ، تقطعها قنابل دخان بين الحين والآخر ، بمعدل ١٧٥ قذيفة وقنبلة فى الدقيقة . ويصل ذلك فى إجماليه إلى أكثر من ٣٠٠٠ طن من المواد شديدة الانفجار . وكان المصريون متأهبين لمد عملية القصف لمدة ١٥ دقيقة أخرى ، فى حالة استخدام السلاح السرى الإسرائيلى . وكان ذلك للسماح للبترول المشتعل فوق الماء بالاحتراق حتى ينطفىء ، ولكن هذا الإجراء الاحتياطى لم يعد ضروريا بعد أن تم تعطيل كل أنابيب البترول . وفى نفس الوقت ، تم إطلاق عدد من صواريخ **فروج** سطح/سطح من ثلاثة مواقع فى الضفة الغربية على العديد من مراكز القيادة الإسرائيلية فى سيناء . وكانت نقاط المراقبة السبع عشرة التابعة للأمم المتحدة بطول قناة السويس تضم ٤٢ من ضباط الأمم المتحدة المراقبين ، الذين تم إجلاؤهم بناء على طلب المصريين بمجرد مرور ساعة الصفر ، إلا أن هذا النبأ لم يذع إلا بعد ذلك بثلاثة أيام ، فى التاسع من أكتوبر .

وكان تشكيل المدفعية المصرية بوجه عام هوستة مدافع فى البطارية ، وثلاث بطاريات فى الفوج وكانت قد تحولت عن أسلوب « الضرب الشامل » البريطانى إلى الأسلوب السوفيتى الذى يقضى بحشد المدافع بحيث تطلق كلها نيرانها على نفس القوس ، الذى لم يكن اتساعه يزيد عادة على ٩٠ درجة . وكانت عملية القصف بأكملها تخضع للسيطرة المركزية للواء سعيد الماحى قائد سلاح المدفعية . وقال لى رجال المدفعية المصريون إن الروس كانوا بارعين جداً فى استخدام حشد المدفعية بهذا الأسلوب ، ولكن لما كان النظام متصلبا جداً ، فقد كانت نقطة ضعفه تكمن فى عدم قدرته على الانتقال السريع لإطلاق النيران على الأجناب أو إلى الخلف فى حالة حدوث هجوم مفاجىء .

وفى الساعة ١٤٠٥ . وعند بدء القصف المدفعى بالضبط ، قامت فرق اصطياد الدبابات من المصريين ، المسلحين بقواذف « ساجر » و« سنابر » و« آر . بى . جى ـ ٧ » ، بإنزال قواربهم المطاطية المنفوخة إلى المياه ، حيث بدأوا فى عبور القناة . وكانوا فى عجلة من أمرهم . فمهمتهم كانت تتمثل فى تسلق التل الرملى الدفاعى الرئيسى فى الجانب الإسرائيلى ،

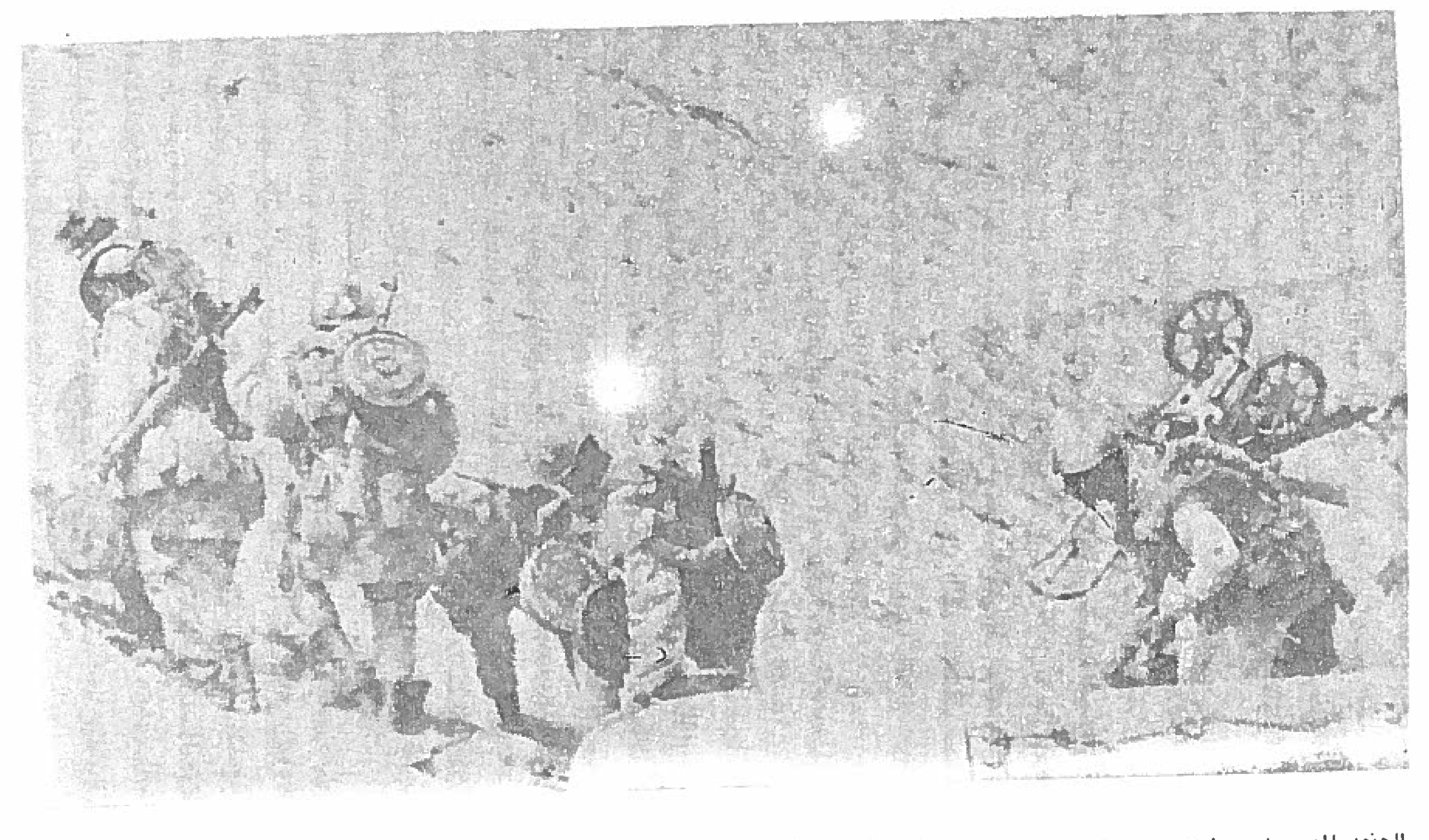

خريطة رقم ٢ : التصوير المصرى
لهجوم العبور يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣
الإقتحام ٦ أكتوبر ١٩٧٣
قوات قطاع
بورسعيد
بورسعيد
الفرقة ١٨
الفرقة الثانية
الإسماعيلية
الجيش الثانى
الميدانى
الفرقة ١٦
الفرقة السابعة
الفرقة ١٩
السويس
الجيش الثالث
الميدانى
نقطة حصينة للعدو
مطار للعدو
نقطة مراقبة للعدو
نقطة استطلاع لاسلكى
صواريخ ، هوك ،
مركز قيادة للعدو
تحضيرات بالطائرات والمدفعية
كوماندوز محمولة بالهليكوبتر
صواريخ سام - ٣
صواريخ سطح /سطح
منطقة عمل الكوماندوز
قواذف صواريخ

ثم الاندفاع عندئذ إلى التل الرملى الدفاعى الثانى واتخاذ مواقعهم لمواجهة الهجمات المضادة المتوقعة للمدرعات الإسرائيلية . وكان هؤلاء الجنود ، الذين يحملون كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، يلبسون أحذية بنعال خاصة مصممة لتوفر لهم بعض الحماية من الألغام . كما كانوا يحملون أيضا أقنعة واقية من الغازات ، حيث كان متوقعا أن يلجأ الإسرائيليون إلى استخدام الغازات الحربية ؛ إلا أن المصريين يصرون على أنهم ما كانوا يملكون أية غازات حربية . ومع تسلق الجنود للتل الرملى ، أصبح الأمر سباقا للزمن والسرعة .

وكان اللفتنانت شيمون تال من سلاح المهندسين واحدا من أول الضباط الإسرائيليين الذين وقعوا فى الأسر . وكان يتفقد السلاح السرى الإسرائيلى . وعندما بدأ القصف المدفعى المصرى الأولى ، كان بالقرب من النقطة الحصينة فى خط بارليف ، المعروفة للإسرائيليين باسم « هيزايوم » ، بالقرب من الفردان . وحاول الاحتماء ، ولكنه وقع فى الأسر .

وبمجرد صدور التحذير ، كانت نية الإسرائيليين دفع دباباتهم إلى مواقعها على التل الرملى الدفاعى الثاني ، حيث يكون بمقدورها إما استخدام مدافعها فى إطلاق نيران علوية ، أو رشاشاتها لاصطياد أي مهاجمين بين التلين الرمليين . وكان زمن رد الفعل الأولى الإسرائيلى المتوقع ، الذى يبلغ ٣٠ دقيقة ، سليما ؛ ولكن يبدو أن فرق اصطياد الدبابات من المصريين قد كسبت سباق الوقت والسرعة ؛ حيث يقولون جميعا إنه ما من دبابة إسرائيلية واحدة قد تجاوزتهم فى تلك المرحلة من المعركة . وقال بعض الجنود إنهم وصلوا إلى التل الرملى الثانى دون أن يضيعوا سوى ثوان ؛ ولما كانت أنفاسهم قد تقطعت بالكامل ، فقد وجدوا صعوبة فى تصويب أسلحتهم بثبات على الدبابات المقتربة . وكما كان متوقعا ، فقد شن الإسرائيليون خلال نصف ساعة ثمانى هجمات مدرعة بتشكيلات على مستوى السرية . وهاجمت الدبابات بالمواجهة ، وبسرعات عالية ، مع خفض أغطيتها ، ومع إطلاق النار من الحركة فى بعض الأحيان ، إلى وسط قصف القذائف والصواريخ المصرية ، ولكن تم إيقافها جميعا بعد تكبيدها خسائر . وكانت السرية التاسعة من اللواء المدرع الأمامى فى الشمال ، حيث كانت تعاون لواء المشاة الثابت حيث ظل ثابتا يراقب حامية بور فؤاد .

وكان السلاح الرئيسى لفرق اصطياد الدبابات هو الصاروخ ساجر ، أو الصاروخ « الحقيبة » ، الذى سمى كذلك لأن حقيبته تشكل قاعدة للسلاح ، وهى تشبه حقيبة الأوراق وتحمل بنفس طريقتها . ويسميه المصريون « **الملوكا** » ، ويصل أقصى مدى له إلى حوالى ٣٠٠٠ متر ، وأقل مدى له إلى حوالى ٥٠٠ متر . وصاروخه المضاد للدبابات ، وهو من النوع الموجه الذى يدور أثناء طيرانه ، ينطلق بسرعة ١٥٠ مترا فى الثانية ، ويتم توجيهه إلى هدفه يدويا عن طريق « عصا صغيرة » فى السلاح نفسه . والحصول على عامل كفء



الجنود المصريون يهبطون من زوارقهم المطاطية على الضفة الشرقية لقناة السويس لمهاجمة خط بارليف

ودقيق يتطلب عادة تدريبا وممارسة مستمرة لمدة ثلاثة شهور ، حيث أن عصا التوجيه تحتاج لمسات شديدة الدقة . وإذا ما انقطع العامل عن الممارسة ، فإنه يحتاج بعض التدريب من جديد . وقد ظل الجنود المصريون يتدربون طوال صيف وخريف عام ١٩٧٣ على صواريخ ساجر ، على أهداف خاصة ، بحيث كان الواحد منهم يطلق مايصل إلى ٢٥ صاروخا فى اليوم .

وكانت فرق اصطياد الدبابات تستخدم أيضا صواريخ سنابر ، وهو نوع أقدم من الصواريخ المضادة للدبابات ، ذو نظام إطلاق رباعى (يضم أربعة صواريخ) . ويتم توجيه الصاروخ سنابر ، الذى يحمل عبوة شديدة الانفجار مضادة للدبابات ، عن طريق زعانفه ، وهو لا يدور أثناء انطلاقه . ويصل أقصى مدى له إلى ٢,٠٠٠ متر ، وأقل مدى له إلى حوالى ٥٠٠ متر . ويحتاج العامل على صاروخ سنابر أيضا إلى الوقت ليكتسب الكفاءة والدقة . أما صواريخ آر . بى . چى - ٧ المحمولة على الكتف ، فتطلق صاروخا يتزن بزعانفه ، ويحمل عبوة شديدة الانفجار مضادة للدبابات . ويصل أقصى مدى له إلى حوالى ٤٥٠ مترا ، وأقل مدى له إلى حوالى ١٠٠ متر أو أقل من ذلك .

وفى الساعة ١٤٢٠ ، وبينما كانت آخر الطائرات المصرية تعود من مهمتها الأولى ، كانت الموجة الأولى التى تضم نحو ١٠٠٠ من قوارب الهجوم المطاطية قد بدأت عبور القناة . وكانت هذه القوارب ، التى يتم تسييرها يدويا بالمجاديف ، تحمل فى إجماليها حوالى ٨٠٠٠ جندى ، وكانت أغلبية هذه القوارب تحمل جنود مشاة تتمثل مهمتهم فى القفز إلى الشاطىء وانتزاع موطىء قدم صغير على الضفة الشرقية ؛ ولكن بعض القوارب كان يحمل أيضا « فرق الشاطىء » ، التى كان عليها أن تضع العلامات على الضفة الأخرى ، وتظل فى موقعها للسيطرة على وصول وانطلاق قوارب الهجوم المتتالية ، وتوجيه القوات المهاجمة . وبحلول ذلك الوقت ، كانت القناة ، مثل خط بارليف ، قد أصبحت مغطاة بالدخان الملون الكثيف ، بحيث كانت الرؤية تغيم من وقت لآخر . وسرعان ما امتدت الأسلاك عبر القناة كخطوط للتوجيه وتعيين الحدود بين الوحدات ؛ وكانت الألوان المختلفة لها تشير إلى مناطق وقطاعات مختلف التشكيلات .

أما الموجة الثانية ، فقد حملت ، إلى جانب المزيد من المشاة ، ٦٠ مفرزة من المهندسين على الأقل بمضخاتهم وخراطيمهم . وبدأوا على الفور فى فتح الثغرات فى التل الرملى الدفاعى تمهيدا لإقامة الجسور التى ستمكن المركبات من العبور إلى الضفة الشرقية . وكانت كل مفرزة من هذه المفارز تتألف من ١٤ رجلاً ومضختين ، لكل منها خرطومان ، تم حملهم فى أربعة من قوارب الهجوم ، أصبح قاربان منها منصتين عائمتين للمضختين . وكان اثنان من الجنود يقفان كحراس على قمة التل الرملى . وفى القطاع الشمالى ، تم فتح بعض الثغرات فى أقل من ثلاث ساعات .

وكانت هناك ١٢ موجة تضم كل منها ١,٠٠٠ من قوارب الهجوم ؛ ولم يخسر المصريون

سوى قلة قليلة جداً منها أثناء العبور، بحيث نجحت كل موجة فى النزول إلى الضفة الشرقية بفاصل ١٥ دقيقة بين الموجة والأخرى. وكانت الموجة الثالثة تحمل أساساً الجنود المختارين للعملية من فرق المشاة الخمس. ونظراً للانتقادات المهينة التى ترددت عام ١٩٦٧ بأن الضباط المصريين كانوا يهربون ويتركون جنودهم فى المعركة، فقد كان محدداً بشكل صارم أين ينبغى أن يكون الضابط بالضبط. فكان قادة الفصائل فى الموجة الأولى بطبيعة الحال، وقادة السرايا فى الموجة الثانية، وقادة الكتائب فى الموجة الثالثة، وعلى حين كان قادة الألوية، ومن فى مستواهم وضباط الأركان، فى الموجة الخامسة، فإن قادة الفرق أنفسهم عبروا فى الموجة السابعة، بحيث وضع معظمهم أقدامه على الضفة الشرقية حوالى الساعة ١٥٥٠. وكان يبدو أن العبور يسير وفقاً لما هو مخطط له.

واستخدم المصريون فى عبورهم بالمواجهة فرق مشاتهم الخمس فى هذا الهجوم. وكانت مقسمة إلى جيشين، تفصلهما البحيرات المرة ـ فى الشمال، كان الجيش الثانى الميدانى، بقيادة اللواء محمد سعد الدين مأمون، يضم ثلاث فرق مشاة، كانت من الشمال إلى الجنوب كالآتى: الفرقة ١٨ بقيادة العميد فؤاد عزيز غالى، والفرقة ١٦ بقيادة العميد عبد رب النبى حافظ، والفرقة الثانية بقيادة العميد حسن أبو سعدة وفى الجنوب، كان الجيش الثالث الميدانى الأصغر حجماً، بقيادة اللواء عبد المنعم واصل، ويضم فرقتى مشاة فقط هما: الفرقة ١٩ بقيادة العميد يوسف عفيفى، والفرقة السابعة بقيادة العميد أحمد بدوى. وكانت كل فرقة من فرق المشاة قوامها ١٤,٠٠٠ رجل تضم ثلاثة ألوية مشاة ولواء مشاة ميكانيكية.

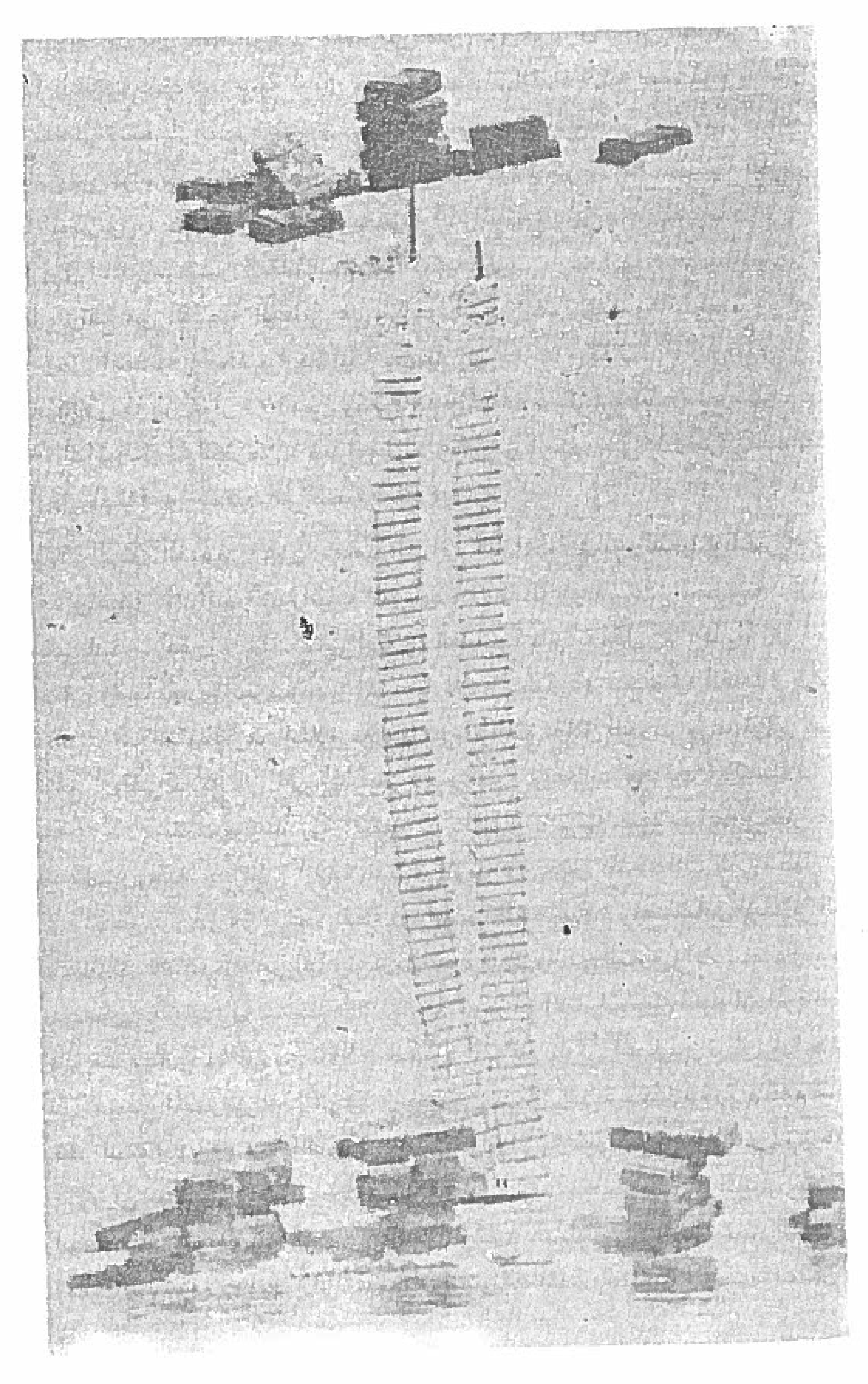
أما العنصر المدرع الداخل فى تشكيل الفرقة، فكان يصل إلى نحو ٩٥ دبابة مقسمة إلى أربع وحدات، كل منها ملحقة بأحد ألوية المشاة، على حين تشكل الدبابات الباقية احتياطى الفرقة. أما الجيش الأول، فكان احتياطياً تم تجريده من كثير من دباباته وأسلحته ومعداته لضمان تجهيز الجيشين المهاجمين بالعتاد الكافى.

ونزلت قوات المشاة المهاجمة على الضفة الشرقية بين النقاط الحصينة فى خط بارليف، وهى النقاط التى كان الدخان يلفها وتنهمر عليها النيران المباشرة من الدبابات التى تعتلى «الأهرام الرملية» والنيران غير المباشرة من الهاونات، فأغفلها الجنود بشكل مؤقت وهم يندفعون إلى التل الرملى الدفاعى الثانى ليشكلوا خمسة رءوس جسور أولية. وجلب جنود المشاة معهم إلى الأمام المزيد من الصواريخ والمدافع المضادة للدبابات، وكانت هذه المدافع تنقل كأجزاء يتم تجميعها بمجرد اجتياز التل الرملى الأول. وكانت تستخدم عربات يدوية صغيرة بأربع عجلات لنقل المعدات والذخائر الثقيلة، ويتم رفعها بالحبال فوق التل الرملى الأول. واستخدم الجنود سلالم تسلق من الخشب والحبال وغير ذلك لتمكينهم من التسلق السريع لرمال هذا المانع المنحدر، وعندما وصلت الفصائل المصرية إلى قمة التل الرملى قامت برفع الأعلام المصرية. وقيل: إن أول علم من هذا النوع قد ارتفع

فى قطاع الجيش الثالث ، قبالة الشط ، فى الساعة ١٤٣٠ ، أما أول علم فى قطاع الجيش الثانى ، فقد ارتفع فى القنطرة شرق فى الساعة ١٤٤٣ ، وجاء أول رد فعل من جانب المدفعية الإسرائيلية فى الساعة ١٤٤٥ .

وفى الشمال ، ومن بين النقاط الحصينة الأربع فى القنطرة شرق والتى هاجمتها الفرقة ١٨ مشاة بعد ظهر ذلك اليوم ، قيل إن إحداها سقطت خلال عشر دقائق ، وثانية خلال ١٥ دقيقة ، وثالثة فى الساعة ١٥٥٠ . ولقى كل المدافعين عن هذه النقطة الأخيرة مصرعهم . ونظراً للمسافات الفعلية التى كان يتعين على جنود المشاة قطعها ، فإن تلك الأقوال تبدو مبالغاً فيها ، أما النقطة الحصينة الرابعة فظلت صامدة : وفى وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم ، قام الإسرائيليون بقصف النقاط الأربع جميعها ، بما فى ذلك ، تلك التى كانوا لا يزالون يسيطرون عليها . وفى قطاع الجيش الثالث ، سقطت النقطة الحصينة الجنوبية من النقطتين اللتين كانتا تتوليان حماية الطرف الجنوبى من البحيرة المرة الصغرى فى الساعة ١٥٢٥ ، عندما استولت عليها قوات تم نقلها بالزوارق السريعة عبر البحيرة . وسقطت ثلاث نقاط أخرى أو دخلها المصريون فى الساعة ١٥٣٨ ، واحدة عند الكيلو ١٤٦ والأخريان قبالة الشط .

وبوجه عام ، فإن المصريين اكتفوا بتطويق النقاط الحصينة فى خط بارليف ، أو حتى تجاهلها فى ذلك الوقت ، لكى يتم التعامل معها فى وقت لاحق . ورغم أن معظم الهجمات المصرية على هذه النقاط الحصينة قد كلل بالنجاح ، فإن إحدى حالات الفشل الملحوظة كانت فى الهجوم على النقطة التى فى الطرف الجنوبى من القناة . فذلك الموقع المستطيل الضيق الذى يقع على شبه جزيرة ضيقة من الأرض قبالة بور توفيق ، والمعروف للإسرائيليين باسم الرصيف « الملاخ » ، كان يضم داخله ٤٢ رجلاً وخمس دبابات وكانت هذه هى النقطة الحصينة الوحيدة التى تضم دبابات . وتم صد الهجوم المصرى الأول بالمواجهة ، إلا أن هجوماً ثانياً على الجانب الآخر من شبه الجزيرة الصغيرة شق الموقع إلى نصفين . وتم إجلاء النصف الذى يقع على الطرف الجنوبى الأقصى من شبه الجزيرة . وصد المصريون واحداً من أول الهجمات المضادة بالمدرعات لتخفيف الضغط على هذه النقطة الحصينة ، حيث تمكنوا من تدمير معظم الدبابات المهاجمة . وكان جز الأرض الموصل إلى الموقع من البر لا يتجاوز عرضه ٣٠ متراً . وفيما بعد ، أحصيت بنفس ١١ دبابة من طراز « باتون » مدمرة أو معطوبة بشكل بالغ متناثرة على هذا الطريق الضيق ، ومعظمها قد انفصلت أبراجها عن أجسامها تماماً ، نتيجة لانفجار ذخيرتها وحتى على الرغم من مهاجمته من جديد من المواجهة ، ثم من الأجناب الثلاثة ، فقد ظ الجزء الرئيسى من الموقع الإسرائيلى ، وهو الأقرب إلى القناة ، صامداً . وكان هجوم مصر فاشل آخر هو ذلك الذى تعرضت له النقطة الحصينة الجنوبية من النقطتين المقابلة للفردان ؛ أما النقطة الشمالية ، فقد تم الاستيلاء عليها فى الساعة ١٦٢٠ .

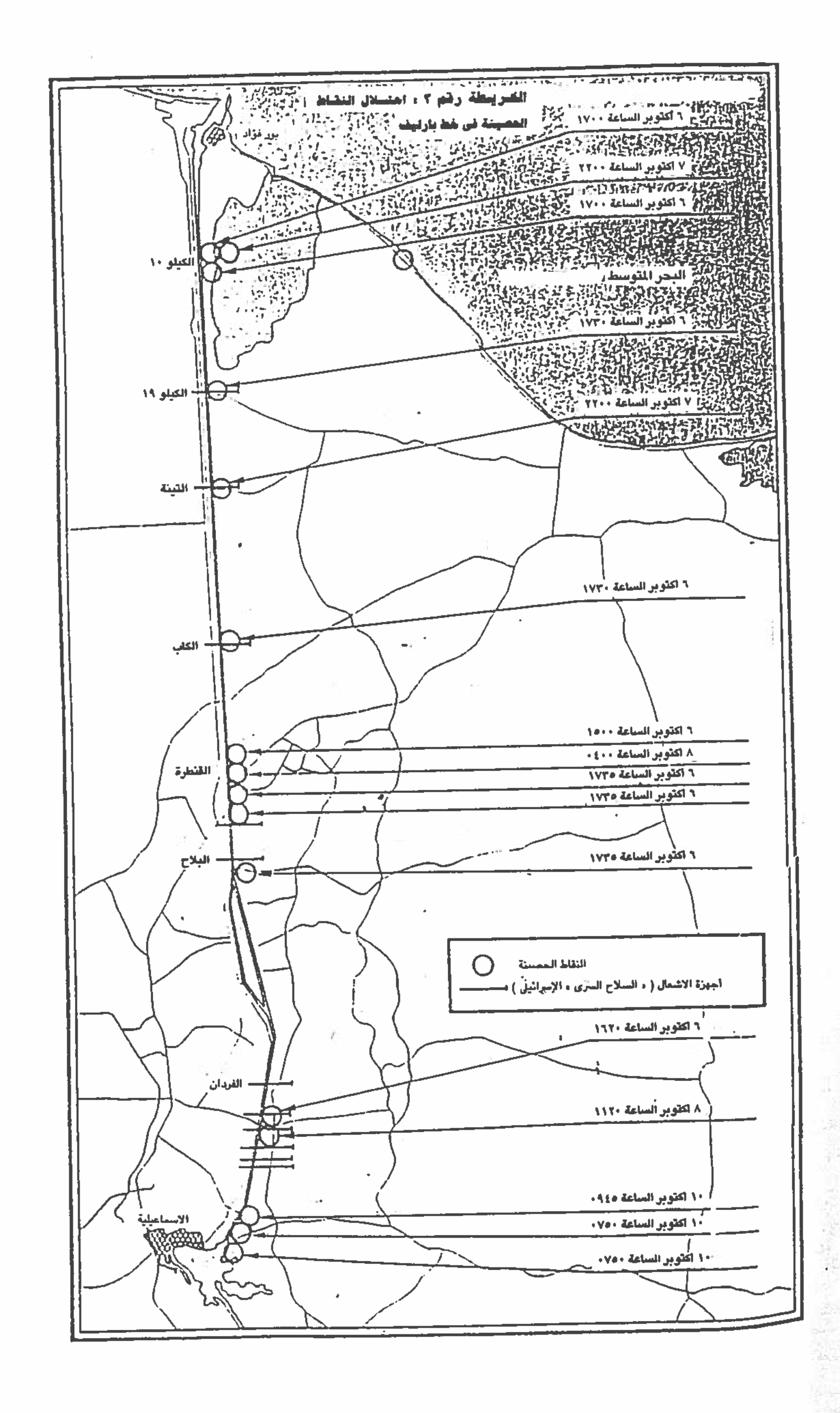


السلالم التى استخدمها الجنود المصريون لتسلق التل الرملى الدفاعى الإسرائيلى على الضفة الشرقية .

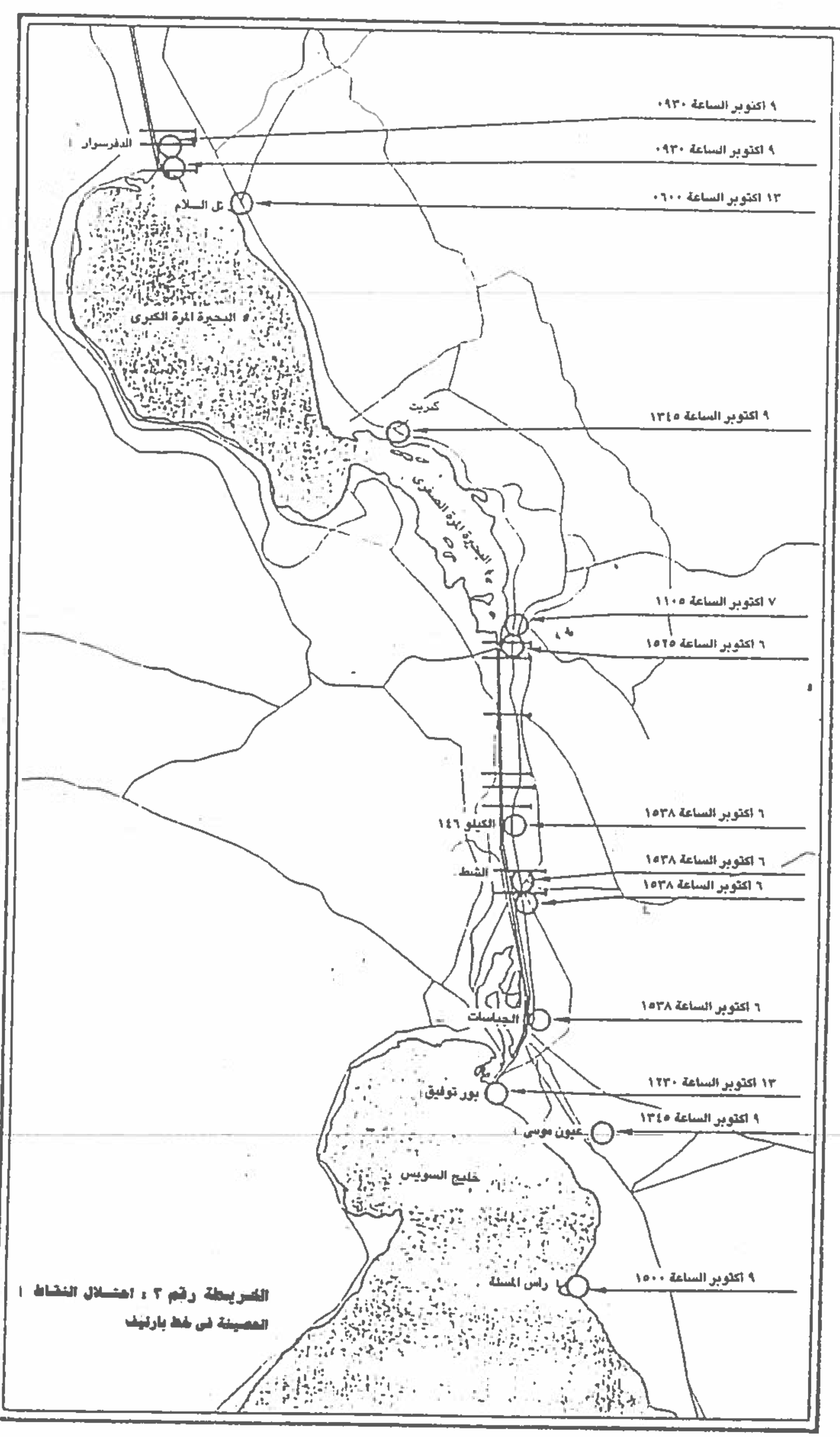
وكان المثلث الذى يسيطر عليه المصريون حول بور فؤاد فى أقصى الطرف الشمالى من الضفة الشرقية يمتد نحو ستة أميال جنوباً بمحاذاة القناة ، كما يمتد نحو ثمانية أميال شرقاً بمحاذاة ساحل البحر المتوسط . وكان المصريون قد أقاموا طريقاً معبداً مرتفعاً يمتد شرقاً من بور فؤاد كإجراء خداعى . وعلى مسافة نحو ميلين من حافة المنطقة التى يسيطر عليها المصريون ، كانت توجد نقطة حصينة إسرائيلية يسمونها « بودابست » . وكانوا يميلون إلى اعتبارها ضمن النقاط الحصينة لخط بارليف ، رغم أنها تبعد مسافة طويلة عن القناة ، وتقع من الناحية الفعلية على ساحل البحر المتوسط . وكانت مبنية بالصخور والعوارض المعدنية والخشبية بطريقة بدائية إلى حد ما ، وتضم ١٨ جندياً هم أطقم مدافعها الأربعة من عيار ١٧٥مم . وكانت هذه المدافع تستخدم ذخيرة أمريكية خاصة ، تزيد مداها ليصل إلى أكثر من ٤١ كيلومتراً . وكان من السهل على هذا الموقع للمدفعية أن يغطى كل منطقة بور سعيد على الضفة الغربية .

وخلال عملية القصف الأولى ، قامت المدافع الساحلية فى بور سعيد والضربة الجوية بقصف وتعطيل المدافع الإسرائيلية الموجودة فى نقطة بودابست الحصينة . واستمر القصف لمدة ساعتين ، حيث كان إطلاق القذائف يتم بمعدل ٣٠ قذيفة فى الدقيقة الواحدة . وفيما بعد ، اعترف مدير المدفعية الإسرائيلية ، فى محاضرة ألقاها فى فرنسا ، بأن هذه المدافع لم تتمكن من إطلاق نيرانها على الإطلاق خلال الحرب ، رغم توافر الذخيرة فى الموقع . ولقى ثلاثة من الإسرائيليين مصرعهم ، وتعطلت معدات الاتصالات . وفى الساعة ١٦٠٠ ، بدأت قوة مصرية ، تضم ١٦ دبابة و١٦ ناقلة جنود مدرعة وبعض عربات الجيب المحمل عليها مدافع ١٠٦مم عديمة الارتداد وبعض الشاحنات التى تحمل جنود المشاة ، تتقدم من بور فؤاد نحو نقطة بودابست الحصينة . وبعد تبادل لإطلاق النار ، ظهرت طائرات الفانتوم الأمريكية وأجبرت القوة المصرية على التفرق والإنسحاب ، بعد أن تعطلت بعض مركباتها فى المستنقعات المالحة . ويزعم الإسرائيليون أنهم أشعلوا النار فى سبع دبابات مصرية وثمان من ناقلات الجنود المدرعة ، وإن المصريين تركوا وراءهم ١٧ شاحنة . وينفى المصريون هذا الزعم ، ويصرون على أن الهجوم كان مجرد هجوم مخادع يستهدف اجتذاب « السرية التاسعة » من اللواء الإسرائيلى المدرع الأمامى من منطقة رمانة . إلا أن هذه السرية لم تتحرك فى الواقع . وفى وقت متأخر من بعد الظهر ، تم تعزيز نقطة بودابست بحوالى ٢٠ رجلاً ودبابتين ؛ وظلت الدبابتان خارج النقطة الحصينة ، حيث تمكنتا من الإفلات من نيران المدفعية والهاونات المصرية بتغيير موقعهما بشكل دائم فى الكثبان الرملية المحيطة بهما .

وكان للإسرائيليين نقطة حصينة أخرى على الشاطىء الشرقى لخليج السويس ، على لسان من الأرض يقع على مسافة نحو ١٥ ميلاً إلى الجنوب من بور توفيق . وكانت هذه



الخريطة رقم ٢ : احتلال النقاط الحصينة فى خط بارليف
بور فؤاد
٦ أكتوبر الساعة ١٧٠٠
٧ أكتوبر الساعة ٢٢٠٠
٦ أكتوبر الساعة ١٧٠٠
الكيلو ١٠
البحر المتوسط
٦ أكتوبر الساعة ١٧٣٠
الكيلو ١٩
٧ أكتوبر الساعة ٢٢٠٠
التينة
٦ أكتوبر الساعة ١٧٣٠
الكاب
٦ أكتوبر الساعة ١٥٠٠
٨ أكتوبر الساعة ٠٤٠٠
القنطرة
٦ أكتوبر الساعة ١٧٣٥
٦ أكتوبر الساعة ١٧٣٥
البلاح
٦ أكتوبر الساعة ١٧٣٥
النقاط الحصينة
أجهزة الاشعال (« السلاح السرى » الإسرائيلى)
٦ أكتوبر الساعة ١٦٢٠
الفردان
٨ أكتوبر الساعة ١١٢٠
١٠ أكتوبر الساعة ٠٩٤٥
الاسماعيلية
١٠ أكتوبر الساعة ٠٧٥٠
١٠ أكتوبر الساعة ٠٧٥٠



الخريطة رقم ٣ : احتلال النقاط ا
الحصينة فى خط بارليف

المصدر : بيانات حصل عليها المؤلف من المصريين .

النقطة تسمى رأس المسلة ، وكانت تعتبر أيضا ضمن نقاط خط بارليف ، بما يجعل نقاط هذا الخط ٢٧ نقطة حصينة وفقا لحساباتى . ولم يهاجم المصريون رأس المسلة فى السادس من أكتوبر ، رغم أن بعض القصف قد أصابها .

وكان قد تم جلب معدات الجسور وقوارب الهجوم إلى القناة ليلة الخامس من أكتوبر ، حيث تم إخفاؤها تحت ساتر التل الرملى أو فى الحفر . وفى ساعة الصفر ، تم بسرعة استخدام البولدوزرات لإزالة الرمال من القطاعات التى كان قد تم تقليصها بوجه خاص فى التل الرملى ، لينفتح الطريق إلى القناة بحيث يمكن البدء فى عملية مد الجسور ؛ وفى الساعة ١٥١٥ ، كان حوالى ١٥,٠٠٠ من رجال سلاح المهندسين قد عبروا الممر المائى . وفى البداية ، أقام المصريون عشرة جسور خداعية يفصل بين كل منها والآخر نحو عشرة أميال ؛ فقد كانوا يتوقعون أنه بمجرد أن يدرك الإسرائيليون مايجرى ، فإن سلاح الجو الإسرائيلى سيحاول قصف أية جسور عبر القناة . وكانوا على صواب فى ذلك ، وتم قصف كل هذه الجسور خلال الساعات الأولى من بعد الظهر . وكانت الجسور الخداعية خفيفة ويمكن استخدامها ، وتشبه الجسور الحقيقية من جوانب كثيرة ، لا سيما من حيث الشكل الخارجى ؛ كما وضع المصريون عليها أيضا مركبات خداعية . وعندما تم اختبار هذه الجسور الخداعية فى واحدة من القنوات التى تتفرع من نهر النيل ، قال الطيارون إنهم ما كانوا يستطيعون أن يميزوا من الجو الجسور الخداعية من الحقيقية . وفيما بعد ، استخدمت هذه الجسور إما كجسور للمشاة أو لمركبات الإمداد الفارغة أثناء عودتها إلى الضفة الغربية وخلق ذلك حركة مرور دائرية ، قيل إنها كانت أكثر سلاسة وانضباطاً من حركة المرور فى القاهرة !

وكان لدى المصريين مايكفى من المعدات لإقامة ١٨ أو ١٩ جسراً عبر القناة ، ولكن المعدات كانت من أنواع مختلفة . فقد كانت تشمل قطاعات من نوع بايلى البريطانى القديمة والأحدث معاً ، بالإضافة إلى نوع « تى . بى . بى » السوفيتى القديم الذى يرجع إلى الحرب العالمية الثانية ، ويتألف من أطواف معدنية ثقيلة يتعين تركيبها فى الماء . وكان يمكن إقامة الجسر من نوع « تى . بى . بى » بمعدل أربعة أقدام فى الدقيقة ، وهو ما يعنى أن الأمر كان يستغرق ساعتين ونصف الساعة لمد الجسر عبر القناة . وكانت أطواف الجسر ومعداته الأخرى تحتاج ١٥٠ شاحنة لنقلها ، وكان لدى المصريين أيضا مقاطع من الجسور السوفيتية الأحدث من نوع « بى . ام . بى » التى لاتحتاج لأكثر من ٤٠ شاحنة لنقلها والتى يمكن مد ١١٥ متراً منها خلال ٢٥ دقيقة . وكان كل مقطع ينفتح إلى أربعة أطواف بعد إنزاله بطريقة ميكانيكية إلى الماء . وهكذا ، كان الأمر يستغرق مايتراوح بين ٣٠ و ٤٠ دقيقة فحسب لمد الجسر عبر القناة . وفيما بعد قال ضابط إسرائيلى شاهد عملية مد أحد الجسور ، « كان يزحف فوق الماء مثل ذراع يطول بشكل متزايد » . وكان المصريون يملكون ثلاثة فقط من الجسور من نوع « بى . ام . بى » الحديثة ؛ ولكى يكملوا

احتياجاتهم ، فقد حصلوا على كميات من معدات الجسور من نوع « إل . بى . بى » ، وهو منتج تجارى سوفييتى . وكان الأمر يتطلب ١٩٠ شاحنة لنقل مايكفى من هذه المعدات لتغطية عرض القناة ؛ وكان من الضرورى تركيبها عند حافة الماء .

وقد تم تعديل كل مقاطع الأنواع المتعددة لكى يمكن تركيبها على بعضها البعض . وكانت النكتة المصرية الشائعة فى ذلك الوقت تقول إنها كانت المرة الأولى التى تمكنوا فيها من إجبار الشيوعيين والرأسماليين على العمل معاً . وسرعان ماأصبحت كل الجسور مختلطة التركيب ، حيث أن مقاطع الأطواف التى يدمرها النشاط الجوى والقصف الإسرائيلى كانت تستبدل بمقاطع من أنواع أخرى . وكانت الأطواف مملوءة بمادة رغوية للحيلولة دون غرقها عند إصابتها ؛ وكانت كلها بها دعامة خشبية بسيطة من أعلى . وكان الطول الإجمالى لقوافل الجسور المصرية يبلغ ١٨٥ ميلاً تقريباً . وكانت المرونة التى تتمتع بها هذه الجسور تمكن من تعويمها إلى مواقع جديدة ، أو ربطها إلى الضفة . وكانت هذه القدرة على الحركة هى التى دفعت الإسرائيليين فيما بعد إلى الزعم بإغراق كثير من الجسور .

وإذا ما استبعدنا الجسور الخداعية التى كان يسيطر عليها سلاح المهندسين ، فقد كان مخصصاً لقائد كل فرقة مشاة اثنان من الجسور ؛ وكان على كل قائد أن يمد جسريه بأسرع مايمكن . وكان الاستثناء الوحيد هو القائد الذى فى الشمال ، الذى ظل طوال أكثر من ٢٤ ساعة يستخدم أطواف واحد من جسريه فى نقل مدرعات فرقته عبر القناة : بحيث كان كل طوف يستطيع بوجه عام نقل دبابتين . وفى الخطة ، كان مسموحاً بفترة تتراوح بين سبع وتسع ساعات لإقامة الجسور . وبينما كان قد تم مد كل الجسور الخمسة من جسور الجيش الثانى بحلول الساعة ١٨٠٠ ، قبل الموعد المقرر لها بوقت كبير ، فإن جسور الجيش الثالث قد تأخر مدها عن موعده .

وبحلول ذلك الوقت ، كان المهندسون قد فتحوا حوالى ٧٦ ثغرة فى التل الرملى الدفاعى الضفة الشرقية . وبحلول منتصف الليل ، كان العدد قد ارتفع إلى ٨٢ ثغرة ، معظمها القطاع الشمالى ، حيث كان يعمل نحو ٥٠ عبارة . وكان المصريون يملكون أعداداً م العبارات السوفيتية الجديدة من طراز « جى . بى . اس » ، بالإضافة إلى بعض الأنواع الأقدم . وكانت هذه العبارات تتحرك على الأرض على قضبان من جزءين ؛ و قضبان كانت تنضم معاً فى الماء . وكان الجزء الرئيسى من فرق المشاة قد وصل إلى الض الشرقية بحلول الساعة ١٩٣٠ ، عندما بدأ القادة يحركون مدرعات فرقهم عبر الجسو وفى ذلك الوقت ، كانت رءوس الجسور تمتد لمسافة ميلين فى العمق ؛ وكان الهدف الم لكل فرقة أن تنتشر بعرض خمسة أميال وتتوغل لعمق ثلاثة أميال على الأقل قبل أن ت تشكيلات المدفعية والمدرعات فى التحرك إلى الضفة الشرقية .

وبحلول الساعة ١٧٠٠ ، كان قد أصبح واضحا أن الجيش الثالث يواجه مصاعب فى مد جسوره . فقد اتضح أن التل الرملى الدفاعى فى الضفة الشرقية كان أكثر سمكا مما كان متوقعا ؛ وكان عرضه يصل فى بعض المواقع إلى ٢٠٠ قدم ، وكان الرمل مختلطا بالطمى . وتحت تدفق المياه من خراطيم المضخات ، تحول المزيج إلى طين لزج لم يكن يذوب بسرعة وسهولة الرمال السائبة . وكانت القوات والمعدات تعبر القناة بقوارب الهجوم والعبارات ؛ ولكن لما لم يكن قد أقيم بعد أى جسر عبر القناة فى الجنوب ، فقد أوفد الفريق أول إسماعيل اللواء على محمود ونائبه العميد أحمد حمدى إلى الجيش الثالث بأوامر بمد الجسور على الفوروبأية تكلفة كانت . وكان على اللواء محمود أن يختار مواقع جديدة للعبور ، وأن يحرك البولدوزرات إليها . ولم يمد جسره الأول عبر القناة إلا فى الساعة ٩٠٠ من صباح اليوم التالى ، السابع من أكتوبر ـ بعد الموعد المحدد بنحو اثنتى عشرة ساعة .

وبالنسبة للإسرائيليين على الضفة الشرقية ، كانت فترة ما بعد ظهر السادس من أكتوبر فترة من الارتباك البالغ الذى كان يصل فى بعض الأحيان إلى درجة الذعر ، فالأفراد الموجودون فى خط بارليف على سبيل المثال والذين كان يعتمد عليهم فى نقل معلومات تفصيلية عن قوة الغزو ، وتوجيه نيران المدافع الإسرائيلية التى ترابط فى الخلف على طريق المدفعية ، كانوا عاجزين عن رؤية مايحدث بسبب الدخان الكثيف الذى أطلقه المصريون عمدا . وفى مناسبات عديدة ، أطلقت المدافع ، بل والطائرات الإسرائيلية نيرانها على مواقع إسرائيلية ؛ كما كانت المدافع الإسرائيلية تقصف مساحات صحراوية خالية لفترات طويلة . وكما قال قائد لواء إسرائيلى ، « لقد كانت سيناء كلها مشتعلة » .

كما كان هناك أيضا ارتباك فى الكلمات الشفرية والتنسيق بين الخرائط وإشارات التعارف ؛ ولم يكن أحد يعرف ـ فيما يبدو ـ مايفعله الآخرون ؛ وكانت هناك حالات تبادلت فيها المدافع والدبابات الإسرائيلية إطلاق النار على بعضها البعض . وكان الإسرائيليون قد أعطوا اسما شفريا لكل ملمح يمكن تعريفه وتمييزه ، سواء كان علامة فى الأرض أو طريقا أو دربا أو ملتقى طرق ، كأساس لتحديد الأهداف وكانت الأسماء الشفرية تتغير بشكل مستمر ؛ وكان لدى الإسرائيليين فى النقاط الحصينة دفاتر هائلة الأحجام للأسماء الشفرية . وكان الرجوع إلى هذه الأسماء بسرعة يميل لأن يكون صعبا مالم يألفها المرء إلى درجة كبيرة . ومن المعلومات المتاحة من الحديث مع الناجين ، يبدو أن مقر القيادة العامة كان يتسم بالبطء ، وهناك احتمال لأن كلا من مقر القيادة العامة والمدرعات والمدفعية والمشاة فى نقاط خط بارليف الحصينة كان يستخدم مجموعة مختلفة من الكلمات الشفرية . وإذا ماكان ذلك صحيحا ، فإن الارتباك يصبح مفهوما . وفى كتاب « **رؤية إلى حرب الشرق الأوسط** » ، يقول واحد من المراجع إن « نقطة أفى الحصينة طلبت دعما مدفعيا عندما هوجمت ، ففوجىء بالقذائف شديدة الانفجار تنهمر فوق نقطته ؛ وطلب ميركه وقف المدفعية ، إلا أن القيادة العامة احتاجت بعض الإقناع بينما استمر القصف

لفترة من الوقت . كما تعرضت نقطة حصينة فى الشمال للقصف من جانب مدفعيتها الخاصة : وفى ثلاث مناسبات أخرى على الأقل ، قصف الإسرائيليون مواقعهم الخاصة » .

ورغم ذلك ، فقد استمر الإسرائيليون فى شن هجمات مدرعة بمجموعات من الدبابات بحجم السرية بنفس الطريقة الطائشة ، بالهجوم الأعمى للأمام بسرعة عالية ؛ وهو التكتيك الذى لم يسفر إلا عن فقد المزيد من الدبابات بنيران القذائف والصواريخ التى يطلقها رجال المشاة المصريون الذين كانوا يقبعون فى الرمال المفتوحة . ففى الساعة ١٦٠٠ على سبيل المثال ، شن الإسرائيليون هجوماً بالمدرعات على النقطة الحصينة الجنوبية من النقطتين الواقعتين عند الطرف الجنوبى من البحيرة المرة الصغرى . وكان المصريون قد استولوا على النقطة لتوهم فى الساعة ١٥١٥ ، فصدوا الهجوم ودمروا سبع دبابات إسرائيلية : وفيما بعد ، قال لى ضابط إسرائيلى ، « لم يكن هناك جيش إسرائيلى واحد ، بل عدة جيوش » ، وأنه فى اليومين أو الثلاثة أيام الأولى ، كانت « مختلف الوحدات تقوم بالهجوم فى أنحاء الصحراء ، وكل منها يفعل مابدا له ، دون أية سيطرة أو تنسيق » . وبحلول الساعة ١٦٠٠ ، كان لواء مدرع يتحرك على محورين عبر ممرى الجدى ومتلا . كما كان لواء آخر قد وصل إلى منطقة بالوظة ؛ وتم تكليف البريجادير كالمان ماجن ، وهو ضابط نظامى ، بمسئولية القطاع الشمالى حتى القنطرة . ومع ذلك ، لم يكن الجنرال جونين قد حدد بعد مكان التهديد الرئيسى .

واشتركت الطائرات المصرية والإسرائيلية على حد سواء فى المعركة . وأثبت حائط الدفاع الجوى المصرى القوى على الضفة الغربية أنه فعال للغاية فى صد هجمات الطائرات الإسرائيلية . فخلال الساعات الأولى من بعد الظهر ، أسقط عشر طائرات إسرائيلية على الأقل ؛ وصدرت الأوامر عندئذ للطيارين الإسرائيليين بالبقاء على بعد ١٥ كيلو متراً منه . وفى الساعة ٦٤٥ من صباح السابع من أكتوبر ، شنت الطائرات الإسرائيلية سلسلة من الهجمات على مواقع بطاريات صواريخ سام ؛ وبعد ذلك ، ظلت بعيدة عنها بوجه عام لبضعة أيام . (وسنناقش فى الفصل ١٣ الجانب الجوى من الحرب بشىء من التفصيل) .

وبعد ظهر السادس من أكتوبر ، غادر الجنرال جونين مقر القيادة العامة للقيادة الجنوبية فى بير سبع ، وتوجه إلى مركز قيادة فى بالوظة ، حيث ظل هناك حتى حل الظلام . وعندئذ ، حاول أن يتحرك جنوباً على طريق الإمداد إلى مركز قيادة متقدم مجهز للمعركة لقيادة جبهته فى أم خشيب بالقرب من الفتحة الغربية لممر الجدى . وعندما وجد أن القوات الخاصة المصرية قد أغلقت الطريق ، فقد تحول عن طريقه واتجه إلى مركز القيادة الإسرائيلى فى رمانة ، حيث بقى لفترة من الوقت .

ويقول المصريون إنهم اعترضوا فى الساعة ١٨٣٩ ، طريق رسالة من هيئة الأركان العامة الإسرائيلية فى تل أبيب ، تبلغ القائد الموجود فى رمانة أنهم فقدوا الاتصال بالقائد العام (الذى كان فى الواقع يتحرك فى هذه اللحظة بعينها) ، ويأمرونه بتولى قيادة جبهة قناة السويس بأكملها حتى استعادة الاتصال بالقائد العام . وكانت الطائرات المصرية قد دمرت فى غارتها الأولية بعض معدات الاتصال والمركبات فى مقر قيادة الجنرال جونين .

وأخيراً ، وصل الجنرال جونين إلى أم خشيب ، التى تقع على مسافة ٢٣ ميلاً من شاطىء البحيرة المرة الكبرى ، وفى حوالى الساعة ١٠٠ من صباح السابع من أكتوبر ، وخلال بعد ظهر السادس من أكتوبر ، كانت قيادة سلاح الجو الإسرائيلى فى سيناء قد انتقلت أيضا من أم مرجان ، التى تقع بالقرب من الطريق الأوسط على مسافة حوالى ٥٣ ميلاً من القناة ، إلى شمالى مطار المليز مباشرة ، ثم إلى بالوظة ، وأخيراً إلى العريش حيث ظلت هناك .

وكان الإسرائيليون يعتقدون أن خط بارليف مانع دفاعى جيد ، وأن الأمر سيستغرق من المصريين ٢٤ ساعة على الأقل لدفع معدات الجسور اللازمة لعبور القناة ، ومايصل إلى ٤٨ ساعة لإقامة الجسور ووضع قوة عسكرية على الضفة الشرقية . وكان من شأن هذه الحسابات أن تسمح بفترة إنذار طويلة تكفى لدفع سلاح الجو للتعامل مع الموقف . إلا أنها كانت حسابات خاطئة ؛ فقد عبر المصريون القناة بقوتهم فى دقائق أكثر منها ساعات . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد تم صد الهجمات المضادة الإسرائيلية ، بالطائرات والمدرعات على حد سواء . لقد فوجىء الإسرائيليون .

وكانت التعبئة تجرى على عجل وفى فوضى ؛ فالطرق التى كانت خاوية قبل الساعة ١٤٠٠ ازدحمت واكتظت فجأة بالمركبات العسكرية والمدنية التى كانت تحاول التحرك من وإلى مراكز التعبئة أو إلى إحدى الجبهات . ففى مركز للمدرعات فى بير سبع - على سبيل المثال - لم تكن الدبابات والمركبات فى ساحة التعبئة جاهزة للعمل ؛ وكان كثير من الأسلحة لا يزال فى شحم الحفظ ؛ بينما لم يكن الوقود والذخيرة متوافرين على الفور . وكان مخزون الذخائر وقطع الغيار قد تقلص إلى مستوى منخفض بصورة خطيرة ، « على افتراض أن الحرب لن تتطلب سوى بضعة أيام ، ولن تحتاج قتالاً شديداً جداً » ، على حد قول إدوارد ليتواك فى كتابه « **الجيش الإسرائيلى** » .

وكان هد ، نقص فى حاملات الدبابات لنقل الدبابات والقواذف الصاروخية لمسافة ١٢٠ ميلاً إلى جبهة قناة السويس ؛ إلا أن الحاملات المتوافرة ظلت تعمل بلا انقطاع خلال الأيام القليلة التالية . وهى تتحرك بانتظام بسرعة ١٥ ميلاً فى الساعة . وفى نفس الوقت ، لم يكن هناك مايمكن عمله سوى تجميع أطقم الدبابات وتسليمهم دباباتهم ودفعهم غرباً عبر صحراء سيناء فى دباباتهم التى كانت تسير على جنازيرها بسرعة تقل عن ١٢ ميلاً فى الساعة . وكانت رحلة طويلة ومرهقة للرجال ، ومتعبة تماماً للمركبات التى تعطل كثير منها على جانب الطريق . ولم تبدأ الدبابات والمدافع المعبئة حديثاً فى الوصول إلى الجبهة حتى



القوات المصرية بعد ان استولت على إحدى النقاط الحصينة في خط بارليف .

القوات الخاصة المصريه تهبط من روارقها للقيام بغارات على المواقع الإسرائيليه خلال الحرب



ظهر اليوم التالى ، السابع من أكتوبر ، حين تم دفعها للقتال على الفور .واعترف الإسرائيليون فيما بعد بأن ٢٠ فى المائة من الدبابات والمدافع ذاتية الحركة بتعبئتهم كانت « غير جاهزة للقتال » ، وإن كان المرء يشك فى أن النسبة الحقيقية كانت أعلى من ذلك بكثير ، حيث أن النسبة التى شاع ترديدها فى الدوائر الإسرائيلية هى « ٤٠ فى المائة فقط هى التى كانت جاهزة للقتال » .ومعظم الجيوش الغربية ذات الكفاءة المعقولة تستطيع أن تعتمد على كون مايقرب من ٨٠ فى المائة من معداتها جاهزة ،و١٥ فى المائة تكون على الطريق خلال ٢٤ ساعة ، بينما تكون خمسة فى المائة غير جاهزة دائما . وكان يزيد من الاضطراب والارتباك أنه كان يتم نقل الجرحى من الجبهة إلى المستشفى فى بير جفجافة ، حيث كانوا يروون قصصاً مخيفة عن النكسات الإسرائيلية .

ويزعم الإسرائيليون أن تعبئتهم ، التى كان مخططا أن تتم خلال ٧٢ ساعة ، كان لابد من ضغطها فى ست ساعات فقط .ويقول الجنرال هرتزوج : « إن التعبئة ستدخل التاريخ إلى جانب تعبئة سيارات الأجرة قبل معركة المارن . كانت شيئا لا يصدقه عقل فى طابعه المتعجل والمرتجل » . وكان الإسرائيليون قد تمتعوا بميزة كبيرة أخرى عام ١٩٦٧ ، لأن الجيش كان قد قام بالتعبئة قبل بدء الحرب بأيام . ومكن ذلك الوحدات من الاستقرار معاً ، وأتاح لها وقتا لبعض التدريب التنشيطى . كما ضمن أيضا أن تكون المركبات والأسلحة فى حالة صالحة للعمل ، وأن يتوافر مايكفى من الوقود والذخائر . أما فى ١٩٧٣ ، فلم تتوافر هذه الظروف .

ومع حلول الظلام ،دخلت إلى الصورة القوات الخاصة المصرية ، التى تلقت تدريبا على أعمال التخريب والكمائن المضادة للدبابات . فقوة نيران قوات المشاة المصرية الموجودة على الضفة الشرقية ستكون ضعيفة لمدة ٢٤ ساعة تقريبا ، حتى يعبر القناة مايكفى من المدرعات والمدافع لتعزيزها . وكانت مهمة القوات الخاصة تتمثل فى تعطيل مشاركة الاحتياطى الإسرائيلى فى المعركة ، ولا سيما المدرعات القادمة من تجمعات الدبابات الإسرائيلية الرئيسية فى سيناء ، فى كل من المليز وبير جفجافة وتمادة . وكان على القوات الخاصة أن تخترق الخطوط الإسرائيلية على الأقدام وبطائرات الهليكوبتر ـ السوفيتية من طراز مى ـ ٤ التى تستطيع أن تنقل ٢٤ جنديا .

وكانت القوات الخاصة قد تشكلت عام ١٩٦١ على نمط قوات « البيريهات الخضراء » الأمريكية ؛ وكانت مشكلة فى فصائل تضم الواحدة منها نحو ٢٤ جنديا ، وكل ثلاث فصائل تشكل سرية ، وكل ثلاث سرايا تشكل كتيبة ؛ ويمكن لكتيبة أو أكثر أن تشكل « مجموعة » . وكان قادة الفرق يتمتعون فى مناطقهم بحرية كاملة فى العمل ، لا تقتصر على تحديد أين وكيف تقام الجسور عبر القناة وكيف يتم تحييد السلاح السرى الإسرائيلى فحسب ، وإنما أيضاً فى كيفية استخدام القوات الخاصة الملحقة بفرقهم .

وبدءا من الساعة ١٨٠٠ ، تحركت القوات الخاصة فى مجموعات صغيرة على الأقدام شرقا ، لتتسلل بين المواقع الإسرائيلية ، وتنصب أكمنة للمركبات على طرق الاقتراب الجانبية . وكانت الأوامر الصادرة إليهم تقضى بالتوغل لمسافة سبعة أميال . وانطلقت فصيلتان من منطقة الفردان ، وشقت فصيلتان أخريان طريقهما نحو ممر الخاتمية ، وتوغلت فصيلة أخرى نحو الطاسة ، وأخرى نحو ممر الجدى ، وأخرى نحو ممر متلا .

كما قامت طائرات الهليكوبتر بعد حلول الظلام بإبرار فصائل أخرى من القوات الخاصة خلف الخطوط الإسرائيلية ، حيث كانت مكلفة بمهام مماثلة ، ولكن مع اختراق أعمق يصل إلى ٢٠ ميلا ، وكانت هذه الفصائل تخضع لسيطرة القيادة العامة مباشرة . ومن بين هذه الفصائل الأخيرة ، تم إبرار فصيلة بالقرب من بالوظة ، وأخرى بالقرب من بير جفجافة ، وثالثة بالقرب من تل صبحة (فى القطاع الأوسط) ؛ كما وصلت سريتان ، يبلغ إجمالى قوتهما نحو ٣٠٠ جندى ، إلى وادي فى الجنوب الشرقى لإغلاقه . وكانت هناك وحدات أخرى من القوات الخاصة تم تكليفها بمهام استراتيجية تتطلب اختراقاً أعمق من ذلك داخل صحراء سيناء ، وفى جنوب سيناء وبطول ساحل خليج السويس . وتحركت سرية من القوات الخاصة بحراً فى قوارب الهجوم إلى موقع على الطريق المعبد الواقع إلى الشرق من نقطة بودابست الإسرائيلية المطلة على البحر المتوسط ، لتنصب أكمنة للمركبات .

وفى الساعة ٢٣٠٠ من ليلة السادس من أكتوبر أيضا ، اعترف الإسرائيليون بأن ثلاثة صواريخ قد أطلقت على معسكر فى بير جفجافة ، فأحدثت به خسائر وأضرارا ، وإن القوات الخاصة المصرية قد اخترقت ممر متلا ، وأن المصريين قاموا بعدة محاولات لإبرار القوات الخاصة بطائرات الهليكوبتر . وزعم الإسرائيليون أنهم أسقطوا ٢٠ طائرة هليكوبتر من هذه الطائرات . وأضافوا بعد ذلك أنه تم التصدى لقوة من القوات الخاصة المصرية قوامها ٩٠ رجلاً ، وقتل ٨٠ منهم . وشملت المزاعم الإسرائيلية الأخرى إسقاط ثمانى طائرات هليكوبتر مصرية ، يحمل كل منها ٣٠ من أفراد القوات الخاصة (رغم أن الطائرات المستخدمة فى هذا الغرض لم تكن تستطيع حمل أكثر من ٢٤ فرداً) ، وإبادة وحدة من القوات الخاصة تضم ٥٠ فرداً بالقرب من أبورديس . وفى الساعة ١٠٠ من صباح السابع من أكتوبر ، كانت القوات الخاصة قد أشعلت النيران فى آبار البترول فى أبو زنيم وسدر وفيران . واعترف المصريون فيما بعد بأن أكبر خسائرهم قد حدثت فى ممر الخاتمية ، ولكنهم لم يكشفوا تفصيلات أكثر . ويكتب الجنرال هرتزوج أن المصريين استخدموا ٣٥ طائرة هليكوبتر ، يزعم الإسرائيليون أنهم أسقطوا ١٤ منها .

وطوال الليلة الأولى ، راحت العبارات تنقل العناصر الباقية من فرق المشاة المصرية الخمس عبر القناة ، بينما كانت المركبات المدرعة تتحرك ببطء فوق الجسور . وعلى الضفة الشرقية ، بدأت قوات المشاة تزحف ببطء إلى الأمام فى « حرب زاحفة » ، وقد وضعوا

أسلحتهم المضادة للدبابات فى المقدمة . أما مدرعاتهم ، عند وصولها ، فقد ظلت فى الخلف . وكان الإسرائيليون قد استخدموا بشكل مكثف الألغام المضادة للدبابات والأفراد ، حيث يقول المهندسون المصريون إن كثافتها كانت تصل إلى « تسعة ألغام فى المتر الواحد » . وكان الأمر يتطلب جهداً مرهقاً فى البحث عنها ، ووضع علامات عليها عند تحديد مكانها أو تفجيرها فى موقعها . واستمرت الهجمات الإسرائيلية المدرعة بصورة عنيفة وسريعة ، وإن كانت جزئية . وشن الإسرائيليون ١٤ من هذه الهجمات خلال الليل ضد رءوس الجسور المصرية ، وكل منها بحجم السرية – ولكن تم صد كل هذه الهجمات .

وتلخيصا للقتال الذى دار فى اليوم الأول ، نقول : بحلول منتصف الليل ، كان المصريون قد عبروا قناة السويس ، ونجحوا فى اختراق خط بارليف واستولوا على ١٤ من نقاطه الحصينة ، ونصبوا خمسة جسور (وعشرة جسور خداعية) عبر الممر المائى ، ونقلوا الجزء الأعظم من فرق المشاة الخمس ، دون أن تزيد خسائرهم على ٢٠٨ قتلى فقط . وكانت لحظة انتصار للقوات المسلحة المصرية وللأمة المصرية . فقد سار كل شىء لصالحهم وضد الإسرائيليين . وكان نجاحهم يرجع إلى حد كبير إلى التدريب الشاق والتنظيم المحسوب ، أكثر مما كان يرجع إلى الحظ المحض . ومثلما قال جندى مصري جريح فى التليفزيون (فى التاسع من أكتوبر) : « كان كل منا يعرف عن ظهر قلب ما الذى يفترض أن يفعله . لقد تدربنا على المهمة وقتا طويلا جداً » .

الفصل السادس

تردد وارتباك فى اسرائيل

« مهما كان عدد [الجنود المصريين] الذين نقتلهم فقد ظلوا يتدفقون »

ضابط إسرائيلى

بعد أن حل الظلام يوم السادس من أكتوبر ، انتقل بالعبارات لواء مشاة ميكانيكية مصرى مزود ببرمائيات خفيفة من طراز « بى .تى ـ ٧٦ » و « بى . تى . أر » ، عبر البحيرة المرة الكبرى ، حيث نزل دون أن يصادف أى معارضة على الشاطىء الشرقى للبحيرة حيث لم يكن هناك تل رملى دفاعى . وانطلقت إحدى كتائبه نحو ممر الجدى ، بينما انطلقت كتيبة أخرى نحو ممر متلا ـ وهو تحرك كان يتواكب مع تحرك لواء إسرائيلى مدرع من الاتجاه المقابل . وأدت أعمال القوات الخاصة المصرية إلى إحداث مزيد من الارتباك فى تحركات مركبات القتال والامدادات الإسرائيلية التى كانت تتم فى اتجاهين ، والتى كانت مرتبكة أصلاً ، فى ممر الجدى . وعلى حين تمكن جزء من القوة المصرية من المرور ، فقد احتجز الجزء الباقى واضطر للعودة إلى القناة فى وقت مبكر من اليوم التالى . ويقول المصريون إنهم اعترضوا فى الساعة ١٠١٠ يوم السابع من أكتوبر طريق رسالة تفيد أن الدبابات المصرية كانت تتقدم إلى تماده ، التى كانت تقع على مسافة نحو ٥٠ ميلا أخرى إلى الشرق . وتم إطلاق صواريخ على مطار ومعسكرات تماده التى يسيطر عليها الإسرائيليون ، كما تعرضت فيما بعد محطة رادار للقصف من جانب نفس هذه القوة المصرية ، التى ظلت شرقى ممر الخاتمية حتى مساء الثامن من أكتوبر . وعندئذ ، عاد هؤلاء المهاجمون ليتسللوا وسط ارتباك الإسرائيليين فى ممر الجدى ، وينضموا مرة أخرى إلى راس الجسر .

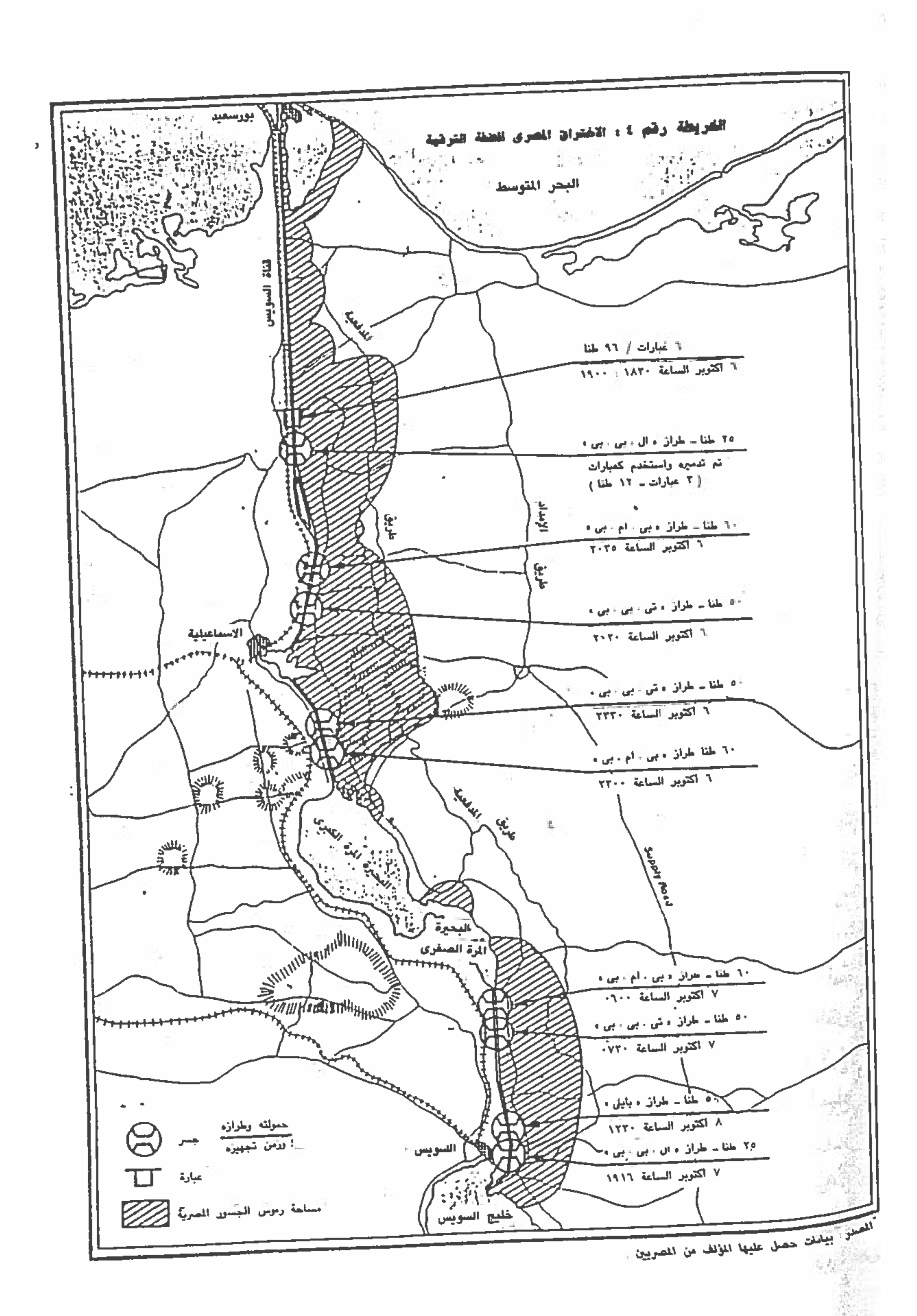
أما كتيبة المشاة الميكانيكية المصرية الأخرى ، فقد انطلقت نحو ممر متلا ، ولكنها اصطدمت حوالى الساعة ٢٠٠٠ مع كتيبة مدرعات إسرائيلية كانت قد اجتازت الممر لتوها . ويزعم الإسرائيليون أنهم ردوا الكتيبة المصرية إلى القناة . ووصل قائد اللواء الإسرائيلى نفسه إلى ضفة القناة حوالى الساعة ٢٢٠٠ ، حيث كان بمقدوره اطلاق النار على العبارات التى كانت تعبر القناة هناك . وخشية أن يكون قد تم تطويق النقاط الحصينة فى خط بارليف ، فقد أوصى بإخلائها على الفور . وكان جزء من كتيبة المشاة الميكانيكية المصرية قد تفادى المدرعات الإسرائيلية ، وواصل طريقه خلال ممر متلا . وفى الساعة ٠٨١٠ يوم السابع من أكتوبر ، يقول المصريون إنهم اعترضوا طريق رسالة من مركز قيادة ممر متلا

تقول إنها « محاطة بالدبابات المصرية » . وبعد إطلاق النار على بعض مراكز الرادار ، عاد المصريون إلى رأس جسرهم فى الساعة ١٣٥٠ .

وعندما وصل الجنرال جونين إلى مقر قيادته المتقدم فى أم خشيب فى الساعات الأولى من السابع من أكتوبر ، كان لديه انطباع بأن سرايا دباباته المتقدمة قد نجحت فى تحقيق الاتصال بنقاط خط بارليف ، وانه ليس هناك ما يدعو للاستعجال بصورة يائسة . وسرعان ما تبددت أوهامه عند الفجر . فقد أبلغ الجنرال ماندلر أنه خسر ثلثى دباباته التى يبلغ عددها ٣٠٠ دبابة ، وأن لواءه الشمالى لم يتبق به سوى عشر دبابات من قوته التى تبلغ نحو ١٠٠ دبابة ، وأن اللواء المدرع الذى تحرك خلال الممرات فى الليل قد تقلصت قوته إلى ٢٣ دبابة ولم يكن جونين قد حدد بعد مكان الخطر الرئيسى . وكان لا يزال يتعين عليه أيضاً أن يحدد ما إذا كان سيواصل ضرب عمليات الإنزال المصرية ، أم ينقذ الحاميات المحاصرة فى النقاط الحصينة ـ وهما مهمتان تتناقضان فى متطلباتهما . ورغم انه كان قد رفض فى وقت سابق السماح لحاميات النقاط الحصينة بإخلاء مواقعها فى القطاع الجنوبى ، فإنه عاد حوالى الساعة ١١٠٠ وسمح بإخلاء مواقع النقاط الحصينة فى بعض أجزاء القطاع الشمالى .

وبينما كانت الهجمات الإسرائيلية فى السادس من أكتوبر تتم بحجم السرية ، فإن هجمات السابع من أكتوبر كانت بحجم الكتيبة ، ولكنها أيضاً لم تكن أكثر نجاحاً . ففى الساعة ٠٧٠٠ ، على سبيل المثال ، شن الإسرائيليون هجوماً تجاه القنطرة فى محاولة لاستعادة النقاط الحصينة الثلاث فى القنطرة . وخسروا فى هذا القتال ٥٠ دبابة أخرى . كما تم شن هجوم آخر بحجم الكتيبة ، تطور إلى هجوم على محورين ، على النقاط الحصينة التى تقع إلى الشمال والجنوب مباشرة من بحيرة التمساح . وفى الجنوب ، تم شن هجوم آخر ، على محورين أيضاً ، على النقاط الحصينة الجنوبية . وبدأ هذان الهجومان حوالى الساعة ١٠٠٠ ، وانتهيا عند الظهر .

وخلال السابع من أكتوبر ، زاد المصريون عدد الجسور التى أقاموها عبر القناة من الخمسة جسور الأصلية إلى تسعة ، ثم إلى عشرة جسور ، بمجرد أن انتهى قائد الفرقة ١٨ مشاة فى الشمال من نقل معظم دباباته بالعبارات إلى الضفة الشرقية . وإذا ما أضفنا الجسور الخداعية ، فإن عددها جميعاً يصبح ٢٠ جسراً . ورغم الأوامر بالابتعاد « ٥ كيلومتراً من القناة » ، فقد شنت الطائرات الإسرائيلية عدة هجمات على هذه الجسور خلال اليوم . وسرعان ما كان يتم استبدال الأطواف المدمرة بأطواف جديدة ليست من نفس النوع بالضرورة . ويقول المصريون إنه ما من جسر تعطل عن العمل لأكثر من ساعة واحدة فحسب . وزعم الإسرائيليون أنه تم تدمير عشرة جسور من الأحد عشر جسراً ، وأن ٠٠ دبابة مصرية قد حوصرت فى الضفة الشرقية . وخلال الغارات الجوية الإسرائيلية استمرت المركبات تتحرك فوق الجسور وفقاً لتوجيهات الفريق الشاذلى . وأصبحت القد



المصدر: بيانات حصل عليها المؤلف من المصريين

نفسها مليئة بمخلفات المعركة : جثث البشر والأسماك الميتة التى كانت تطفو فى اتجاهات متباينة مع التيارات المتغيرة .

وعلى الأرض ، راح جنود المشاة المصريون يتدفقون للأمام من رءوس الجسور إلى الصحراء المفتوحة ، بحيث أنه مع غروب السابع من أكتوبر كان بعضهم قد توغل لمسافة ستة أو سبعة أميال شرقاً ، وهم يطهرون ممرات خلال حقول الألغام أثناء تحركهم ببطء للأمام . وبالتدريج اندمجت رءوس الجسور الخمسة الأصلية إلى ثلاثة رءوس جسور أكبر حجماً ، اثنان فى الشمال وواحد فى الجنوب . وتم خلال اليوم نقل المزيد من القوات والدبابات عبر القناة ، بحيث عندما قال الفريق أول إسماعيل أنه نقل خمس فرق مشاة إلى الضفة الشرقية خلال ٢٤ ساعة ، فإنه كان على صواب إلى حد كبير . وكان يستطيع أن يضيف أيضاً أنه نقل جزءاً كبيراً من فرقة أخرى فى الشمال حول بور فؤاد ، قبالة النقاط الحصينة لخط بارليف ، بين الكيلو ١٠ والكاب . وتم الاستيلاء على النقاط الحصينة الست بأكملها بحلول مساء السابع من أكتوبر . وحوالى الساعة ١٦٠٠ ، بدأ اللواء ٢٥ المدرع المستقل المصرى العبور فى الجنوب ؛ وبحلول منتصف الليل ، كان قد تمركز بالقرب من طريق المدفعية قبالة منطقة الشط . وفى نفس الوقت تقريباً ، عبر اللواء الثانى المدرع المستقل إلى الضفة الشرقية قبالة الإسماعيلية .

وبقيت فرق اصطياد الدبابات من المصريين فى المقدمة ، وغالباً ما كانت تنعزل بالكامل فى الصحراء المفتوحة . أما الإسرائيليون ، الذين كانوا يواصلون تكتيكهم المفرط فى حماسه بالهجوم الأعمى بسرعة بالغة للأمام ، فكانوا يتوقعون تماماً أن تختفى الفرق المصرية عندما يندفعون إليها بالدبابات . إلا أن المصريين ظلوا صامدين وهم يطلقون نيران أسلحتهم ، بحيث كانوا يطلقون ثلاثة أو أربعة صواريخ على كل دبابة . وبحلول هذا الوقت ، كان قد أصبح لدى المصريين مدفعية وهاونات فى الضفة الشرقية بما كان يوفر لهم نيران معاونة قريبة . كما كان لديهم أيضاً مدافع بعيدة المدى ودبابات فوق « الأهرام الرملية » فى الضفة الغربية ، وهى التى كانت تطلق نيرانها ضد الإسرائيليين المهاجمين من فوق رءوس القوات المصرية .

ونشطت القوات الخاصة المصرية فى اليوم السابع من أكتوبر أيضاً ، حيث يقولون إنهم اشتركوا فى اشتباكات بالقرب من بالوظة (فيما بين الساعة ٠٥٠٠ ـ ٠٦٠٠) ، وبالقرب من القنطرة (الساعة ٠٥٠٠ ـ ١٦٠٠) ، وفى تل صبحة (الساعة ٠٦٠٠ ـ ٢٤٠٠) ، وقبالة الاسماعيلية (من الساعة ٠٣٠٠ فصاعداً) ، وقبالة الدفرسوار (من الساعة ٠٥٠٠ فصاعداً) . ويقولون أيضاً انهم اشتركوا فى عمليات فى منطقة خليج السويس ، فى أماكن مثل الطور وأبو زنيم وفيران وميتولا وغيرها من الأماكن التى لا تظهر أسماؤها فى كل الخرائط ، مثل بابا وريك الراتس وسرد ، وربما كانت أكثر عمليات القوات الخاصة نجاحاً هى ذلك الكمين الذى نصبوه فى القطاع الأوسط ، وفاجأوا خلاله وحدة مدرعة

إسرائيلية أثناء قيامها بإنزال دباباتها من فوق الشاحنات . كذلك ، فإن القوات الخاصة تمكنت من اغلاق طرف الطريق الجنوبى المار بممر سدر حتى نهاية الحرب . ويفضل الإسرائيليون القول بأن هذه الغارات لم تكن شديدة الأهمية بوجه عام ، وأن معظم القائمين بها كان مصيرهم القتل أو الوقوع فى الأسر أو الفشل فى تحديد أهدافهم . ولكن فى الواقع ، فإن هذه العمليات قد أقلقت الإسرائيليين بشكل بالغ ، ولاسيما فى الأسبوع الأول من الحرب . فهجمات القوات الخاصة أحدثت خسائر وأضرارا فى طرق الامدادات ، مما أثر على المعنويات الإسرائيلية التى كانت تتعرض بالفعل لضغوط عظيمة .

وعلى جبهة القناة ، كان جونين وماندلر هما القائدان الميدانيان اللذان يتعين عليهما التصدى للغزو فى المرحلة الأولى . وكان الجنرال جونين ، باعتباره القائد العام للقيادة الجنوبية ، مسئولاً عن القيادة الشاملة لمسرح العمليات . أما الميجور جنرال أفراهام ماندلر ، الذى كان قائد لواء فى جبهة الجولان عام ١٩٦٧ ، فكان قائداً للقوات المدرعة فى سيناء . وكان هناك جنرالان آخران مكلفين بقيادة فرقتين من قوات الاحتيـاط عند تعبئتهما ، أما الثالثة فكان مخططاً أن يتولى ماندلر قيادتها . وكان أحد الجنرالين هو الميجور جنرال أفراهام أدان ، وهو ضابط نظامى كان قائداً لسلاح المدرعات منذ عام ١٩٦٩ ، وتولى قبل ذلك قيادة القوات المدرعة فى سيناء . ووصل إلى جبهة القناة فى الساعة ٠٨٠٠ من السابع من أكتوبر ، وتولى قيادة القطاع الشمالى ، التى كان يتولاها البريجادير ماجن بشكل مؤقت .

ووصل الميجور جنرال آرييل شارون حوالى الساعة ١٣٠٠ ، وتولى قيادة القطاع الأوسط ؛ بينما تولى ماندلر القيادة فى الجنوب . ولم يكن أدان أو شارون سعيداً للغاية بأن يوضع تحت قيادة جونين ، الذى كان مرءوساً لكل منهما حتى وقت قريب . بل لقد تبادل شارون فى الواقع موقعه مع جونين كقائد عام لفرقة قوات الاحتياط . وكان جونين أيضاً حديث العهد نسبياً بمنصبه ، وربما لم يكن بمقدوره أن يعرف المنطقة أو المهام أو المشكلات بالصورة التى كانت متوقعة منه . وكان كل من الرجلين يعتبر نفسه أكثر خبرة وأكثر جدارة بتولى القيادة العامة ، وكانت مواقفهما تعكس وجهات نظرهما . ولم يسهم ذلك فى توافر علاقة قيادية جيدة فى جبهة قناة السويس بين الإسرائيليين .

وعندما بدأت قوات الاحتياط والتعزيزات الإسرائيلية فى الوصول حوالى ظهر السابع من أكتوبر ، فقد تم دفعها دون نظام فى هذه التشكيلات الثلاثة ، إما كوحدات أو لتعويض الخسائر فى الوحدات التى هلك معظم أفرادها وكانت معظم المدرعات قد وصلت إلى سيناء سيراً على جنازيرها وكان الجنود منهكين ، ومع ذلك فقد دفع بهم إلى القتال مباشرة فى كثير من الحالات . ونظراً للأعطال والأضرار التى أصابت المركبات ، فقد نشأت مشكلات هائلة فى الامداد والتموين والاصلاح . وبحلول مساء السابع من أكتوبر ، كان أدان لديه لواءان

مدرعان ، وشارون ثلاثة ألوية مدرعة ، وماندلر لواءان مدرعان ؛ أما جونين فكان احتياطيه الوحيد هو لواء مظلات محمل على عربات نصف مجنزرة .

وكان مقر قيادة الجبهة للجنرال جونين فى أم خشيب يقع خلف سلسلة جبلية منحدرة ترتفع نحو ٢,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ويبلغ طولها نحو ميلين بموازاة القناة ، وتقع عند الطرف الشمالى الغربى من فتحة ممر الجدى . وكان قد تم تجهيز هذه السلسلة الجبلية بعد عام ١٩٦٧ مباشرة ، فأصبحت تمتلىء بأجهزة الرادار ومعدات الاتصالات والتصنت . وكان مقر القيادة الفعلى والمخابىء والمركبات تقع خلف السلسلة الجبلية . وفى بعض الأوقات ، كان بمقدور جونين أن يرى بشكل جيد أجزاء من ميدان القتال الممتد أمامه . وتحدث فيما بعد عن « موجات بشرية » من جنود المشاة الذين يتقدمون نحو دباباته المهاجمة - فى مشهد لا يصدقه العقل من البشر الذين يتصدون للصلب ، وشبههم بالجنود الصينيين فى الحرب الكورية . ويعتقد الجنرال جونين أن الجندى المصرى أصبح أقوى مما كان عام ١٩٦٧ ، وأصبح يتمتع بقوة تحمل كبيرة ؛ وفى تلك المرحلة ، لم يكن قد شكل فكرة طيبة جداً عن قيادة الضباط المصريين . ويزعم الإسرائيليون أنه كان هناك كم كبير من الاتصالات الصوتية الروسية عبر شبكات الاتصالات اللاسلكية الميدانية المصرية . وكانوا يشعرون أن ذلك يوضح بالتأكيد اشتراكاً مكثفاً من جانب أفراد سوفييت إلا أننى لم أتمكن من العثور على دليل قوى واحد يؤيد هذا الزعم .

وقام وزير الدفاع موشى ديان بزيارة جبهة قناة السويس فى السابع من أكتوبر ، حيث وصل إلى أم خشيب حوالى الساعة ١١٤٠ . ووفقاً لما قاله هرتزوج ، فإن جونين نصحه بألا يفعل ذلك ، بسبب قوات الكوماندوز المصرية الموجودة فى التلال المحيطة بالمنطقة . واستاء ديان مما رآه . وقال : « إنها حرب . لننسحب إلى المرتفعات . ولنترك التحصينات . ولنتخل من نستطيع إخلاءه . أما الجرحى ، فسنضطر لتركهم يقعون فى الأسر » . وعند عودته إلى تل أبيب ، اجتمع مع رئيسة الوزراء جولدا مائير وأبلغها أن الموقف سيىء جداً إلى درجة يعتقد معها أنه ينبغى أن تنسحب القوات الإسرائيلية بشكل كبير لتقيم خطاً دفاعياً جديداً بطول السلسلة الجبلية الصغيرة التى تحمى طريق المدفعية ، والتخلى عن خليج السويس ، والاحتفاظ فقط بشرم الشيخ عند الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء . واعترض رئيس الأركان الجنرال العازر على اقتراح الانسحاب ، واقترح بدلاً من ذلك أن يذهب بنفسه على الفور إلى جبهة قناة السويس ليقرر ما ينبغى عمله على الطبيعة . وطار إلى أم خشيب ، حيث وصل هناك حوالى الساعة ١٩٠٠ . وفى وقت لاحق من ذلك المساء ، عقدت مائير فى القدس اجتماعا لمجلس الوزراء ، وحصلت على موافقة الوزراء على شن هجوم مضاد ضد المصريين فى اليوم التالى ، الثامن من أكتوبر .

وعندما رأى قادة الفرق الإسرائيلية الثلاثة المصريين يحفرون مواقع دفاعية حول رءوس

جسورهم التى كانت تتسع بشكل بطىء ، ويقيمون الموانع ويزرعون الألغام ، وتقديراً منهم لمدى الصلابة التى يمكن أن يكون عليها المصريون فى الدفاع فقد كان من رأيهم جميعاً أن أفضل شىء هو الاندفاع بينهم للوصول إلى قناة السويس ، والاستيلاء على بعض الجسور والعبور إلى الضفة الغربية ، قبل أن يتمكن المصريون من تدعيم دفاعاتهم وتحقيق الاستقرار لها . وكان الصوت المخالف لهم هو جونين . ففى ضوء العدد الكبير بشكل واضح من المصريين فى الضفة الشرقية ، كان يشعر بأنه ليس لديه قوة كافية للقيام بمثل هذا الهجوم ، وكان يريد الانتظار حتى يصل المزيد من قوات الاحتياط . وكان قادة الفرق مدفوعين أساساً فى تفكيرهم بالرغبة فى إنهاء محنة القوات المحاصرة فى النقاط الحصينة المطلة على القناة .

وكان الجنرال شارون قد تحدث باللاسلكى مع الحاميات المحاصرة فى النقاط الحصينة الواقعة فى قطاعه ، كما طلب من قيادة الجبهة السماح له بمحاولة انقاذهم إلا أن جونين تردد فى ذلك . وزعم شارون أنه يستطيع تدمير المصريين الموجودين على الضفة الشرقية خلال ٤٨ ساعة ؛ إلا أن جونين لم يوافق على الخطة ، كما لم يسمح لشارون بلواء المظلات الاحتياطى من أجلها . وكانت أسباب جونين تتمثل فى أن العملية المقترحة كانت ستتم أثناء الليل ، وأنه كان يريد « تدعيم خطه الدفاعى » . وحوالى الساعة ١٥٠٠ ، تم شن هجوم بحجم الكتيبة ، كان ثانى هجوم ذلك اليوم ، نحو القنطرة ؛ وتم صده بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وفيما بعد ، وفى مقال نشره فى صحيفة « **نيويورك تايمز** » الأمريكية يوم ١١ فبراير ١٩٧٤ ، راح شارون يقول بمرارة ولهجة لاذعة إنه « ما من أحد كان يعرف ما يجرى . وقيادتنا العامة لم تكن تعرف الصورة . كانوا يديرون الحرب من الغرف المحصنة تحت الأرض ، وليس من الجبهة وفى ذلك اليوم [السابع من أكتوبر] ، فقدنا ١٥٠ دبابة ، معظمها بالأسلحة المضادة للدبابات التى يحملها جنود المشاة . وفى مساء ذلك اليوم ، أقمت خطاً دفاعياً على مسافة حوالى ستة أميال شرقى القناة » .

وعندما وصل الجنرال ألعازر إلى أم خشيب ، كان برفقته الجنرال اسحاق رابين رئيس الأركان السابق ؛ وكان الرجلان بمثابة عامل ملطف ومهدىء لما كان قد أصبح موقفاً متوتراً فى القيادة . وعقد ألعازر مؤتمراً ، وضع خلاله خطة للهجوم . ولم يتمكن شارون من الحضور بسبب مشكلات فنية صادفت طائرته الهليكوبتر . وعلى حين كان تفويض ألعازر فى شن هجوم مبعث رضا الأغلبية ، فإنه لم يرض جونين الذى كان يشعر بأنه مازال يفتقر إلى قوات الاحتياط الكافية لشن مثل هذا الهجوم . وكانت الخطة تقضى بالابتعاد ميلين على الأقل من الضفة الشرقية للقناة لتلافى تأثير النيران من الأسلحة المصرية الموجودة على التل الرملى والأهرام الرملية على الضفة الغربية ، والقيام بهجمات جانبية بحجم اللواء خلال رءوس الجسور المصرية لفصل عناصر القتال الأمامية عن عناصر المعاونة والإمداد والتموين . وقال ألعازر فيما بعد : « كنا فى موقف سىء ذلك المساء . فقد كان ذلك عقب

الخريطة رقم ٥ : خريطة اسرائيلية تبين خطة هجوم لعبور القناة



١ ـ المصدر : حصل عليها المصريون في الثامن من اكتوبر من دبابة إسرائيلية تم الاستيلاء عليها في القطاع الأوسط.

النجاح الأول للقوة المصرية وكان علينا أن نحدد ما البدائل . هل ينبغى أن نتقهقر ؟ أم ينبغى أن نظل فى نفس الموقف ؟ أم ينبغى أن نهاجم ؟ وخلال الاجتماع ، كان هناك اجماع على أننا لابد أن نهاجم » .

وكانت تفصيلات الخطة تقضى بأن يقوم اللواءان التابعان لقيادة أدان باختراق رأسى الجسر الخاصين بالجيش الثانى المصرى . أما فرقة شارون ، فتبقى كاحتياط فى الوسط ، بحيث تكون جاهزة لتعزيز ومساعدة أدان إذا ما صادف مصاعب . أما إذا نجح أدان ، فكان مقرراً أن يتحرك شارون جنوباً لاختراق رأس جسر الجيش الثالث المصرى . أما فرقة ماندلر ، فكان مقرراً لها أن تقوم بهجمات للمعاونة وتحويل الانتباه . وكان هناك بعض الجدال حول ما إذا كان ينبغى على الإسرائيليين فعلاً أن يعبروا القناة ، وهو ما كان الكثيرون يفضلونه ، إلا أن ألعازر أصر على أن ذلك سيتوقف على قدرتهم على الاستيلاء على الجسور المصرية سليمة . وبدأ القادة عندئذ يتأهبون لهذه العملية ، ويحددون الطرق والأهداف على خرائطهم . وقبل أن يغادر ألعازر أم خشيب مباشرة ، وصل شارون حاملاً خطة للقيام بهجوم ليلى لانقاذ الحاميات الموجودة فى النقاط الحصينة المحاصرة . وترك القرار معلقا بشأن هذا الاقتراح ، انتظاراً لما بعد نتيجة عمليات الثامن من أكتوبر .

وكان السابع من أكتوبر يوماً طيباً آخر للمصريين ، ويوماً مربكاً ومكلفاً للإسرائيليين . فبحلول الظلام ، كانت رءوس الجسور المصرية الثلاثة قد اتسعت لتغطى معظم - ولكن ليس كل - طول الضفة الشرقية . وفى بعض الأماكن كان جنود المشاة المتقدمون يطلون على طريق المدفعية ، بعد أن وصلوا إلى السلسلة المنخفضة الأولى من التلال الرملية . ويقول المصريون فى تواضع انهم دمروا فى ذلك اليوم ٦٠ دبابة إسرائيلية و ١٥ مدفعا ذاتى الحركة ؛ ولكن الرقم الحقيقى كان أعلى من ذلك بكثير . ويقول هرتزوج إنه بحلول ظهر السابع من أكتوبر ، لم يكن قد تبقى للإسرائيليين على الضفة الشرقية سوى ١١٠ دبابات فقط - وحتى هذا التقدير قد يكون مفرطاً فى التفاؤل . وسارع كبير حاخامات القوات المسلحة الإسرائيلية بإصدار بيانات دينية لرفع الروح المعنوية المتداعية .

وكان اليوم الثالث من الحرب ، الثامن من أكتوبر ، يوماً أسود بالنسبة للإسرائيليين . ففى ذلك اليوم ، عرض التليفزيون المصرى على المصريين أفلام عبور المصريين قناة السويس واقتحام خط بارليف . وفى القطاع الشمالى ، انتشرت الألوية المدرعة الثلاثة التابعة لقيادة الجنرال أدان بطول طريق الإمداد بين الطاسة وبالوظة ؛ وفى حوالى الساعة ١٨٠٠ ، بدأت تتحرك للأمام وفقا لخطة ألعازر . وبدلاً من التحرك إلى نقطة يمكن للألوية أن تنحرف منها جنوباً لتخترق رءوس الجسور المصرية ، فإن أخطاء فى تحديد الاتجاهات جعلتها تخرج عن طريقها فى الصحراء ، بحيث كانت فى بعض الأماكن تواجه المدافع المصرية مباشرة . وكان هذا الخطأ يعنى أنه يتعين على هذه التشكيلات أن تهاجم ناحية



جنود مشاة إسرائيليون فى حفر على الضفة الشرقية

الشرق مباشرة تقريباً لكى تعود إلى مواقعها المقررة ، بما جعلها تدخل وسط الكمائن المصرية .

ووقع اللواء الشمالى التابع لأدان فى كمين مصرى نصبته الفرقة ١٨ مشاة فى منطقة القنطرة ؛ ولكن عندما أبلغ أدان الجنرال جونين بأنه لم يخسر سوى ست دبابات فى الكمين ، ظن جونين أن كل شيء يسير على ما يرام . وحوالى الساعة ١١٠٠ ، أصدر جونين أوامره إلى شارون بالتحرك جنوباً لتنفيذ الجزء الخاص به من الخطة ، والذى كان يتمثل فى الاختراق العرضى لرأس جسر الجيش الثالث . وعندما حاول اللواء الثانى التابع لأدان أن يعود إلى مساره الأصلى ، صادف المتاعب قبالة الفردان . وفى الساعة ٩٣٠ ، وقعت إحدى السرايا فى كمين نصبته الفرقة الثانية مشاة ، وخسرت سبع دبابات . وبعد حوالى نصف الساعة ، وقعت سرية أخرى كانت تسير جنوبى الطريق المعبد فى كمين ، وخسرت أربع دبابات ؛ وتبعثرت الدبابات الباقية وانسحبت . وفى هذين الهجومين ، استخدم تكتيك الحماس المبالغ فيه ، حيث كانت الدبابات تندفع بأقصى سرعتها .

وحوالى الساعة ١٠٠٠ ، صدرت الأوامر لأدان بالاستيلاء على الجسور المصرية الثلاثة : واحد شمال البلاح مباشرة ، والآخر عند الفردان ، والثالث قبالة الاسماعيلية . وأمر أدان لواءه الشمالى (اللواء ١٤ مدرع بقيادة الكولونيل أمنون ؛ وكان هناك أيضاً اللواء ١٤ مدرع فى جبهة الجولان) ، الذى كان فى ذلك الوقت مشتبكاً فى القتال فى القنطرة ، بترك إحدى كتائبه هناك وتحريك الكتائب الأخرى لمساعدة لوائه الأوسط فى الفردان . وكان يعتزم القيام بهجوم على محورين على هذا الجسر بالذات . وإلى الشمال من الفردان مباشرة ، ظن قائد الكتيبة الملحقة من اللواء الشمالى (وهى الكتيبة ١٩٠ ـ ب ، التى يقودها اللفتنانت كولونيل عساف ياجورى) أنه قد حدد بشكل دقيق المواقع الأمامية للفرقة الثانية مشاة ، فحشد كل دباباته ومدافعه ذاتية الحركة ، التى تزيد على الخمسين دبابة ومدفعا وعندئذ ، اندفع شرقاً نحو الفردان ، من خلال ثغرة عرضها ٥٠٠ متر إلى الجنوب مباشرة من الطريق المعبد . وفى حوالى الساعة ١٣٣٠ ، وبينما كانت دبابة قائد الكتيبة على الطريق فعلاً ، وقعت فى كمين وأصيبت بنيران المدفعية المضادة للدبابات ، وهى على مسافة ميلين فقط من القناة . وقفز قائد الكتيبة وطاقمه المؤلف من أربعة أفراد من الدبابة المصابة ، ووقعوا فى الأسر . وفى اليوم التالى ، عرض التليفزيون المصرى قائد الكتيبة الإسرائيلى الأسير على شاشته .

وقد أصيبت دبابة قائد الكتيبة بنيران الصواريخ ؛ أما الدبابات التى كانت تليها ، فقد تعرضت لكمائن من الأجناب والخلف . ولم يكن قائد الكتيبة الإسرائيلي قد اكتشف موقعاً آخر لسرية مصرية كان قد أقيم فى نقطة متقدمة أثناء الليل . وظلت هذه السرية مختفية وهادئة بينما قامت الدبابات الإسرائيلية بعمليات استطلاعها ، ودخلت « منطقة القتل » . وفى هذا الهجوم ، خسرت الكتيبة الإسرائيلية كل دباباتها ومدافعها ذاتية الحركة وكانت

٣٥ دبابة لا تزال فى مكان المعركة عندما زرته فيما بعد ؛ وقيل لى ان ١٧ دبابة أخرى قد تم نقلها إلى القاهرة لعرضها على الجمهور . وقد تم توفير بعض المعاونة الجوية لهذا الهجوم الإسرائيلى ، حيث لم يكن قد توافر لأدان بعد أى من مدفعية الفرقة ؛ كما كان ينبغى أيضاً أن يتمتع بمعاونة مدفعية شارون .

وتقدم اللواء المدرع الجنوبى التابع لأدان شرقاً على محورين نحو رأس الجسر المصرى المقابل للاسماعيلية وكانت إحدى الكتائب تتجه نحو نقطة حصينة فى خط بارليف ، يعرفها الإسرائيليون باسم « بوركان » كانت حاميتها لا تزال صامدة . أما الكتيبة الأخرى ، فقد اتجهت جنوبا نحو نقطة حصينة يعرفها الإسرائيليون باسم « ماتزميد » ، على الطرف الشمالى للبحيرة المرة الكبرى ، الذى كان مقرراً أن يكون نقطة العبور فى حالة نجاح الهجمات الإسرائيلية . وحوالى الساعة ١٤٠٠ ، وصل هذا اللواء المدرع إلى رأس الجسر المصرى ، وتوقف . وبعد فترة بدأ المصريون يتقدمون نحو الإسرائيليين ؛ وبحلول الساعة ١٥٣٠ ، وبعد نصف ساعة من القتال ، تمكنوا من طردهم من نقطة تطل على طريق المدفعية ، ويعرفها الإسرائيليون باسم « هاموتال » . وبدأ هجوم مصرى آخر حوالى الساعة ١٦٣٠ ، وتمكن من طرد الإسرائيليين من نقطة مجاورة أخرى تتمتع بنفس القيمة التكتيكية . وفى الهجومين ، تكبد الإسرائيليون خسائر فادحة ، ولكن كذلك أيضاً كانت خسائر المصريين . وعن هذا القتال ، قال ضابط إسرائيلى معلقاً ، « مهما كان عدد الذين نقتلهم ، فقد ظلوا يتدفقون » . وحوالى الساعة ١٤٣٠ ، كان المحور الجنوبى من هذا اللواء الجنوبى التابع لأدان قد وقع فى كمين مصرى ، وسارع بالانسحاب بعد أن خسر أكثر من ٢٠ دبابة .

وبحلول الساعة ١٤٠٠ ، أدرك الجنرال جونين أن كل شىء ليس على ما يرام ، ولكنه لم يكن قد عرف بعد بالحجم الكامل للنكسات التى تكبدها الإسرائيليون . فأصدر أوامره لشارون بالعودة إلى القطاع الأوسط . وعندما أدرك جونين خطورة الموقف ، أمر شارون بالهجوم لمساعدة لواء أدان الجنوبى الذى كان مشتبكاً فى القتال قبالة الاسماعيلية . كما كان عليه أيضاً أن يساعد اللواء الأوسط الذى كان مشتبكاً فى القتال قبالة الفردان . وكان قائدا اللواءين على علم بهذا الأمر ، وكانا يتوقعان أن الهجمات التى سيقوم بها شارون سرعان ما ستخفف الضغط عليهما . ولكن بعد بضع دقائق ، كما يقول هرتزوج ، دخل شارون على خطوط اللاسلكى ليقول إنه لن يهاجم . وعندما علم قائدا اللواءين بذلك ، وأدركا مدى حرج موقفيهما ، فقد « طلب كلاهما السماح لهما بتحسين مواقعهما إلى الخلف » . وفى مقالة بصحيفة « **نيويورك تايمز** » فى ١١ فبراير ١٩٧٤ ، قال شارون عن هذه المعركة ، « كنت أراقب ، ورأيت قوة [أدان] تذبح . لقد فشل الهجوم بسبب نقص الدبابات . لوكنا كلنا قد هاجمنا معاً ، لكنا قد نجحنا » . وعلى أية حال ، يبدو أن شارون قد أصم أذنيه عن نداءات أدان للمساعدة ، وعن أوامر القائد العام . وبعد ذلك بوقت طويل ،

زعم شارون أنه قد تلقى « أوامر متناقضة ومربكة » ، وشكا من أن فرقته كانت قد وصلت لتوها بعد أن قطعت مئات الكيلومترات فى الصحراء على جنازير دباباتها . وفى البداية ، تم ارسالها جنوباً لمهاجمة الجيش الثالث ، ثم استدعيت بعد ذلك إلى الشمال مرة أخرى . وتسبب رفض شارون تقديم العون فى نشوب نزاع بين الجنرالين . ونشأ شك عميق فى أن شارون كان مصمما أن يكون أول قائد إسرائيلى يعبر قناة السويس إلى أفريقيا ، وأنه لم يكن يميل لمساعدة أى شخص آخر فى الحصول على هذا الشرف لنفسه .

وخلال مساء الثامن من أكتوبر ، اشتركت فرقة شارون فى انقاذ الأحياء الذين تمكنوا من الهرب من نقطة خط بارليف الحصينة (بوركان) . ونقل حوالى ٣٣ جندياً منهم على ظهر دبابة واحدة ؛ إلا أن هذا العمل المفرط فى الحماس كان موضع انتقاد فيما بعد ، لأن الكثير من كبار الضباط ، أحدهم برتبة البريجادير ، قد اندفعوا للمشاركة فيه .

وفى القطاع الجنوبى ، قام لواءا الجنرال ماندلر بهجومين ؛ أحدهما بقوة كتيبة ، وبدأ من منطقة ممر متلا ، وتطور إلى هجوم على ثلاثة محاور ضد رأس الجسر المصرى الجنوبى . أما الهجوم الآخر ، وهو على محورين ، فقد قامت خلاله كتيبتان بالهجوم من الجنوب الشرقى . وتم صد الهجومين . وكان إجمالى خسائر الإسرائيليين أكثر من ٤٠ دبابة . وعن القتال الذى دار فى هذا اليوم ، كتب هرتزوج يقول : « كانت الخطة تقضى بالهجوم المضاد فى منطقة جسر الفردان والاسماعيلية . ولكن الخطة فشلت ، بسبب عدم تركيز القوات المدرعة » . وهذا تقليل لشأن القتال يبسط الأسباب بدرجة مبالغ فيها .

ومنذ هذه المعركة ، نشأ الخلاف بين أدان وجونين . فالأخير أصر على أنه أصدر أوامره لأدان بالاختراق وعبور القناة عند القنطرة ، بينما ينفى أدان بشكل قاطع أنه تلقى مثل هذه الأوامر . ولا شك أن الإسرائيليين كانوا يطورون خطة ، حتى فى تلك المرحلة المبكرة من الحرب ، لاختراق الخطوط المصرية بشكل ما وعبور قناة السويس . ورغم أن الإسرائيليين قللوا فيما بعد من هذا الشأن ، فإن المصريين قد حصلوا على خريطة من دبابة إسرائيلية استولوا عليها فى الثامن من أكتوبر فى القطاع الأوسط ، عليها علامات توضح طرق وأهداف الوحدات . ولا يترك ذلك كثيراً من الشك فى النوايا الحقيقية للإسرائيليين .

وقد اكتسب الخلاف بين أدان وجونين مزيداً من الحدة ، واتخذ منعطفاً غامضاً ، عندما أجرت **لجنة أجرانات** تحقيقاتها فى أحداث الأيام الأولى من الحرب . إذ لم تجد اللجنة الصفحة الخاصة بتلك الأيام فى سجل الأعمال العسكرية للجنرال أدان ، بينما « أعيدت كتابة » صفحة أخرى بدلاً منها . ومن المفترض أن سجل الأعمال العسكرية للجنرال جونين فى ذلك التاريخ كامل ويؤكد صدور أوامره إلى أدان . وعند سؤال الرجلين عن الموضوع ، بدا كلاهما متراجعاً بشكل ما ، وغير صريح كما ينبغى أن يكون .

ومساء الثامن من أكتوبر ، عقد الجنرال العازر فى القدس مؤتمراً صحفياً قدم فيه صورة قوية مفعمة بالثقة ، وتحدث عن « انتصار إسرائيلى فى القريب العاجل » ، وقال ،

« سنضربهم ، وسنحطم عظامهم » . وكان يهدف أساساً إلى ردع الأردن لكيلا ينضم للحرب ضد إسرائيل . ولم يكن قد توافر للعازر فى ذلك الوقت حقائق الخسائر والهزائم الفادحة التى منيت بها قواته حينئذ . ومن الواضح أنه لو كان يعرف بها ، لكان قد خفف من تعليقاته تبعاً لذلك .

وكان الثامن من أكتوبر يوماً من النجاح المستمر للمصريين ؛ وبحلول المساء قالوا إنهم أصبحوا يسيطرون على الضفة الشرقية بأكملها . وكان قولهم صحيحاً فى جوهره . وفى الواقع ، فقد وصلوا فى بعض الأماكن إلى « هدفهم الأول » ، وهو طريق المدفعية . وحددت البيانات المصرية « المناطق المحررة » فى الضفة الشرقية ، والتى شملت بور توفيق (وهو ما لم يكن صحيحاً تماماً ، فرغم الاستيلاء على الموقع الموجود فى طرف شبه الجزيرة ، فإن موقع النقطة الحصينة الرئيسية كان لا يزال صامداً) وشرق الاسماعيلية والبلاح والشط والبحيرات الجنوبية والمنطقة الواقعة جنوبى بور فؤاد . وفى الثامن من أكتوبر أيضاً ، سقطت نقطتان حصينتان أخريان من نقاط خط بارليف : الأولى فى الساعة ٠٤٠٠ ، وكانت النقطة الباقية من مجموعة نقاط القنطرة ، ثم فى الساعة ١١٢٠ ، تم الاستيلاء على النقطة الثانية فى الفردان . وخلال نهار ذلك اليوم ، استمر تدفق الدبابات والقوات والامدادات المصرية إلى الضفة الشرقية ؛ وبحلول المساء كان كل دبابات وجنود فرق المشاة الخمس قد أتموا العبور ، بالإضافة إلى لواءين مدرعين مستقلين . وعندئذ بدأت تتحرك فوق الجسور مدرعات خمسة ألوية مشاة ميكانيكية (لواء واحد لكل فرقة مشاة) .

وبعد وقت قصير من المؤتمر الصحفى الذى عقده الجنرال ألعازر ، وعندما أدرك المعنى الكامل للطريقة التى سار بها القتال فى الضفة الشرقية ، فقد أصدر أوامره بالوقف الفورى للهجمات المضادة المكلفة .

ومساء ذلك اليوم ، لم يكن هناك سوى أقل من ٩٠ دبابة إسرائيلية تواجه المصريين ؛ وفيما بعد قرر الجنرال هرتزوج أن الإسرائيليين خسروا ٤٠٠ دبابة فى الأيام الثلاثة الأولى من الحرب ؛ ويقول المصريون إنهم أسروا ٤٥ إسرائيليا ودمروا ٩٢ دبابة فى اليومين الأولين – وهو ما كان بياناً متواضعاً آخر يقلل من حجم الانجاز .

وفى الساعة ٠٤٠٠ يوم التاسع من أكتوبر ، سمح الجنرال جونين لكل الأفراد الذين لا يزالون صامدين فى النقاط الباقية من خط بارليف إما بالاستسلام أو بمحاولة شق طريقهم للانضمام إلى قواتهم . وفى كتابه « **الجيش الإسرائيلى** »كتب ليتواك عن هذا القرار المؤلم قائلاً : « عندما اتخذ هذا القرار بترك النقاط الحصينة لمصيرها ، كانت شبكة الاتصالات اللاسلكية المفتوحة لا تزال تحمل النداءات اليائسة للرجال فى تلك النقاط من كل الجبهة » .

وحوالى منتصف الليل . أبلغ الجنرال جونين قادة الفرق الثلاث بالأمر الذى أصدره الجنرال ألعازر بوقف كل الهجمات المضادة ، ولكن كانت هناك وقتها خلافات حادة بين

جونين وشارون وبين شارون وأدان . ولم يكن جونين يثق بشارون ، الذى كان لا يزال يصر على السماح له بالهجوم « للقيام بعبور سريع » للقناة ؛ وكان جونين بالتالى يتصنت على محادثات شارون اللاسلكية التى كان بعضها مع موشى ديان ، حيث كان يشك فى أن شارون يتآمر من وراء ظهره .

ورغم هذه الأوامر ، شن شارون فى التاسع من أكتوبر هجوماً بلواءين على نقطتين مقابلتين للاسماعيلية (يعرفهما الإسرائيليون باسمى « ماخشير » و « تليفزيا ») وكان أحد ألوية أدان قد فقدهما بعد ظهر اليوم السابق . ورغم استعادة جزء من واحد من الموقعين (تليفزيا) ، فإن الهجوم كان فاشلا بوجه عام ، وخسر شارون أكثر من ٢٠ دبابة .

وزعم شارون أن جونين قد أمره بمهاجمة المصريين فى هذين الموقعين وبالاستمرار فى الهجوم إذا ما انسحبوا ، ووقف الهجوم إذا ما ظل المصريون صامدين . وأصر جونين على أنه لم يسمح بشن هذا الهجوم على الاطلاق ، وأنه أمر شارون بوقفه على الفور . وقال شارون انه بينما تمكن أحد ألويته من صد هجوم مصرى فى الصباح ، وانه لما كان هناك الكثير من الجنود المصريين المزودين بالصواريخ المضادة للدبابات فى المنطقة ، فإنه كان على وشك أن يردهم على أعقابهم نحو القناة . واستقل جونين طائرة هليكوبتر إلى مقر قيادة شارون وأمره مرة أخرى بوقف الهجوم ؛ ولكنه بعد أن رحل ، واصل شارون هجومه . وعندما علم جونين بذلك ، استشاط غضباً ، وطلب من الجنرال ألعازر عزل شارون من قيادته وفيما بعد ، شكا شارون (فى **النيويورك تايمز** » فى ١١ فبراير ١٩٧٤) من أن « القائد العام لم يكن يعلم بما كان يحدث فى الميدان » ، وأنه رفض مساندته لأسباب شخصية ، وبالتالى فقد ضاعت فرصة الوصول إلى القناة .

وخلال كل ذلك ، كانت وحدة الاستطلاع التابعة لفرقة شارون تقوم بأعمالها الاستطلاعية فى اتجاه الجنوب الغربى حول موقع المزرعة الصينية الذى يسيطر عليه المصريون ، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان موقع مزرعة تجريبية يابانية ، وعندما دخله اليابانيون عام ١٩٦٧ ، أخطأ الإسرائيليون العلامات التى كانت على الرافعات وظنوها صينية ، وكان المصريون يسمونها قرية الجلاء ؛ وكانت تضم أكثر من مائة من البيوت الصغيرة الشبيهة بالصناديق التى كانت تأوى فى الأصل عمال المزرعة التجريبية . ووصلت وحدة شارون إلى شاطىء البحيرة المرة الكبرى وإلى الموقع المجاور لها (الذى يعرفه الإسرائيليون باسم « ليكلان ») ، حيث ظلت هناك خلال ساعات الظلام . وتلقت أمراً بالانسحاب صباح اليوم التالى ، العاشر من أكتوبر ؛ ولكنها كانت قد أثبتت حقيقة وجود ثغرة مادية على الضفة الشرقية بين الجيشين الميدانيين المصريين .

وفى التاسع من أكتوبر ، نظم الإسرائيليون للصحفيين زيارة إلى جبهة القناة ، حيث وصلوا إلى مسافة ١٨ ميلاً من الممر المائى . ورأى الصحفيون كثيراً من الدبابات المصابة ،

ولكنهم رأوا أيضاً كثيراً من الدبابات التى توقفت بسبب أعطال ميكانيكية فحسب . ورأوا كذلك قوافل طويلة من سيارات الأتوبيس المدنية ذات الألوان الزاهية تحمل الذخائر والامدادات ، وسيارات أتوبيس هيئة النقل العام الإسرائيلية تحمل الجنود إلى الأمام ، ورأوا حطام طائرة هليكوبتر سوفيتية وبالقرب منها قبر جماعى ولاحظ رجال الصحافة أن أفراد الأطقم الإسرائيلية مرهقون ومتوترو الأعصاب ، وأن الزوار لم يكونوا موضع ترحيب - وهى علامة أكيدة على أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام . وقيل لهم ان المعركة الآن هى معركة دفاعية حيث كانت الأولوية قد أعطيت لجبهة الجولان . وكان خوف الإسرائيليين الحقيقى يتركز فى الكوماندوز المصريين الموجودين فى التلال الرملية على جانبى الطرق ، وراحت طائرات الهليكوبتر تطير على ارتفاعات منخفضة تبحث عنهم بصورة مستمرة .

ورغم أن اطلاق النار ظل مستمراً بطول الجبهة بأسرها خلال التاسع من أكتوبر ، فإن العمليات الإسرائيلية كانت محدودة بشكل واضح . فباستثناء هجوم شارون ، فإنهم قنعوا بالبقاء على مبعدة من المصريين ، واكتفوا بالرد طلقة بطلقة . ولكن كانت الحقيقة أنهم تكبدوا خسائر ، وكانوا يعانون من مشكلات فى التنظيم والامداد والتموين ؛ لقد كانوا منهكين بحيث كانوا سعداء بالتزام الهدوء .

تحقق المصريون المزيد من المكاسب خلال اليوم وفى الساعة ٠٩٣٠ ، احتلوا نقطتى خط بارليف الحصينتين المقابلتين للدفرسوار . وفى الجنوب تقدموا نحو مدخل ممر متلا ؛ وفى الساعة ١٣٤٥ ، احتلوا الموقع الإسرائيلى فى عيون موسى ، الذى كان يحمى الجزء الجنوبى من المدخل . واحتل المصريون عندئذ موقع المدفعية ١٥٥ مم ، بمدافعه الفرنسية الستة الذى يقع على مسافة حوالى ٥,٥٠٠ متر من بور توفيق وكانت بطارية المدفعية قد صمدت فى البداية فى وجه المصريين ، ثم رؤى أنه ينبغى التخلى عنها .

(وكانت هذه المدافع مسئولة عن جانب كبير من الدمار الذى أصاب بور توفيق) . كما رؤى أيضاً التخلى عن المواقع الإسرائيلية فى التل المر ، الذى يشرف على واحة عيون موسى ، بالإضافة إلى الموقع الموجود فى محطة الحجر الصحى القديمة للحجاج . وبدءاً من الساعة ١٨٠٠ ، شن المصريون فى القطاع الأوسط هجوماً ضد فرقة أدان فى نقطة كاتب الخيل ، إلى الغرب مباشرة من الطاسة . ودار القتال لمدة ست ساعات قبل أن يبسط المصريون سيطرتهم على النقطة بالكامل . وكان ذلك مبعث دهشة الإسرائيليين الذين كان لا يزال لديهم انطباع بأن المصريين لم يعتادوا القتال الليلى بدرجة كبيرة .

وفى الساعة ١٣٤٥ ، وبعد نصف ساعة من القتال فقط ، سقطت النقطة الحصينة فى كبريت فى أيدى قوة برية من الجيش الثالث تعززها سرية من اللواء ٢٥ المدرع المستقل . (وكانت هذه النقطة الحصينة تقع على الضفة الشرقية ، بينما تقع قرية كبريت الكبيرة على الشاطىء الغربى من الممر المائى الضيق الذى يفصل بين البحيرة المرة الكبرى والصغرى

وكان الإسرائيليون يسمون النقطة « بوتزر ») وكانت هناك أربع دبابات إسرائيلية تتولى الدفاع عن النقطة ، وتم تدمير اثنتين منها . وهربت الدبابتان الأخريان ؛ وعندئذ ، وعندما بدأت الحامية تنسحب عبر الرمال المفتوحة ، تعقبتها الدبابات المصرية وهى تطلق نيرانها عليها . وقتل عدد من الإسرائيليين . وفى اليوم التالى ، احتل المصريون نقطة كبريت الحصينة وكان ذلك غير مألوف إلى حد ما ، حيث كانوا يميلون إلى تلافى نقاط خط بارليف الحصينة ، من ناحية لأنها كانت لا تزال مليئة بالألغام والشراك الخداعية ، ومن ناحية أخرى لأنها كانت محددة بدقة على خرائط المدفعية الإسرائيلية .

ومساء التاسع من أكتوبر ، تقدم المصريون داخل مدخل ممر متلا ، لاحتلال نقطة القيادة الإسرائيلية التى تقع إلى أقصى الجنوب من الممر . وكانت هذه خامس نقطة قيادة يتم الاستيلاء عليها من نقاط القيادة الإسرائيليـة الست ، بحيث لم يتبق فى أيدى الإسرائيليين سوى نقطة قيادة واحدة فى بالوظة فى الشمال . وكانت الدلائل تشير إلى أنه قد تم التخلى عنها على عجل . ويقول المصريون إن الإسرائيليين تركوا وراءهم خرائط تحمل علامات ودفاتر شفرية ونسخاً من رسائل وتعليمات الاشارة ، وأن ذلك ساعدهم فى تحديد هوية التشكيلات الإسرائيلية ، ووفرلهم معلومات مخابرات قيمة أخرى وكانت إحدى هذه المعلومات القيمة كتاباً إسرائيلياً لشفرة الاتصالات اللاسلكية ؛ ولم يكن موجوداً منه سوى تسع نسخ فقط وعلى الفور ، تمت ترجمته إلى العربية وتعميمه على التشكيلات المصرية وأتاحت كتب الشفرة ، بالإضافة إلى ضعف تأمين الاتصالات اللاسلكية الإسرائيلية ، ميزة عظيمة للمصريين لمدة بضعة أيام ، حتى قام الإسرائيليون بتغيير شفراتهم .

وظل الشقاق بين الجنرالات فى جبهة قناة السويس يتزايد فى مرارته وخصومته ، ولاسيما بين شارون وجونين . وعندما طار ديان مرة أخرى إلى أم خشيب فى التاسع من أكتوبر ليرى ما كان يحدث وجد « أزمة ثقة » فى مقر قيادة الجبهة . ووجد أن جونين لا يسيطر على قيادته بشكل محكم وعند عودته اقترح على ألعازر أن يتبادل شارون وجونين منصبيهما . ولم يوافق ألعازر . وبعد اجتماع لمجلس الوزراء ، عرض الجنرال ألعازر منصب القائد العام للقيادة الجنوبية على اللفتنانت جنرال حاييم بارليف الذى كان فى الثامن من أكتوبر يقوم بزيارة لجبهة الجولان فى مهمة لتقصى الحقائق كلفته بها رئيسة الوزراء . وقبل بارليف هذا التعيين فى أول الأمر ، فقط لتساوره الشكوك بعد ذلك عندما سمع أن جونين قد اعترض على أن يحل محله . وأمكن الوصول إلى حل وسط ؛ وتم ارسال بارليف إلى جبهة قناة السويس « كممثل لهيئة الأركان العامة » ، وهى الواجهة التى أصبح تحتها القائد العام الفعلى . وللابقاء على ماء الوجه ، وللحفاظ على المكانة ، ولمحاولة اشاعة الثقة فى القادة القائمين من أجل الروح المعنوية ، فقد ظل جونين من الناحية الاسمية قائدا عاماً ، وكانت كل الأوامر تصدر باسمه .

وكان الجنرال بارليف واحداً من عدة ضباط كبار تم استدعاؤهم للخدمة عند اندلاع

الحرب ، رغم أن ذلك لم يعلن رسمياً حتى التاسع من أكتوبر . وكان كرئيس للأركان فى الفترة من ١٩٦٨ حتى ١٩٧١ قد تولى توجيه القوات المسلحة الإسرائيلية خلال حرب الاستنزاف ، وتخطيط برنامج إعادة تزويدها بالعتاد ، بل وأعطى اسمه فى الواقع لذلك الخط المشئوم ، « خط بارليف » . وقبل أن يترك الجيش ليدخل عالم السياسة (حيث أصبح فى نهاية الأمر وزيراً للتجارة والصناعة) ، كان قد تولى عدة مناصب هامة ، من بينها قائد سلاح المدرعات . وكان الشىء الأهم أنه كان أعلى فى الرتبة من الجنرالات المتنازعين فى جبهة القناة ، ودائماً ما كانوا من مرءوسيه . ورغم اتصافه بالحزم والحسم ، فقد كان ذا مزاج توفيقى أكثر من جونين . وعندما وصل إلى أم خشيب فى أوائل العاشر من أكتوبر ، كان برفقته البريجادير يورى بن آرى ، وهو أيضاً ضابط مستدعى ، وكان قائد لواء فى حربى ١٩٥٦ ، و ١٩٦٧ . وكان بن آرى يتمتع بقدرات ادارية كبيرة ؛ فعهد إليه بمهمة إعادة تنظيم وادارة مقر قيادة الجبهة ، التى كانت فى أمس الحاجة لمثل هذا الرئيس للأركان فى تلك اللحظة .

وواجه الجنرال بارليف على الفور ضرورة حل مشكلة خاصة بالانضباط ، حيث كان جونين يريد عزل شارون من قيادته بتهمة عدم الانصياع للأوامر . وكان رد شارون مرة أخرى أن أوامر جونين كانت متناقضة ومشوشة . وترك بارليف الأمر يمر ، لتهدئة المشاعر ولاقناع فريق الجنرالات بالعمل معاً فى تلك اللحظة الحرجة : وهكذا ، ظل شارون الساخط المتململ يتولى قيادة فرقته . واستاء الضباط النظاميون ، مثل جونين وأدان ، وكانوا يشكون فى أن ديان وبارليف ، وكلاهما وزير فى الحكومة ، كانا يحابيان شارون لأنه دخل الحياة السياسية وكان سيرشح نفسه للكنيست فى الانتخابات العامة التالية .

وانتقل بارليف عندئذ إلى الجوانب الأخطر فى تلك اللحظة . وكانت هناك ثلاثة خيارات يمكن للإسرائيليين أن يسلكوها فى جبهة قناة السويس : أحدها هو شن هجوم مضاد كبير ضد رأسى الجسر المصريين الكبيرين ؛ والثانى هو القيام بهجوم أكثر تركيزاً لعبور القناة فى نقطة واحدة ؛ والثالث هو الانتظار حتى يتقدم المصريون إلى الصحراء المفتوحة حيث يهزمونهم فى حرب متحركة . وفى مؤتمر القيادة العامة الذى عقد فى التاسع من أكتوبر ، تقرر انتهاج الخيار الأخير . وصدرت الأوامر للقوات الإسرائيلية فى الضفة الشرقية بالبقاء فى أماكنها ، وإعادة تنظيم قواها المفتتة ، والتزود من جديد بالدبابات والمدافع والمركبات والامدادات والأفراد .

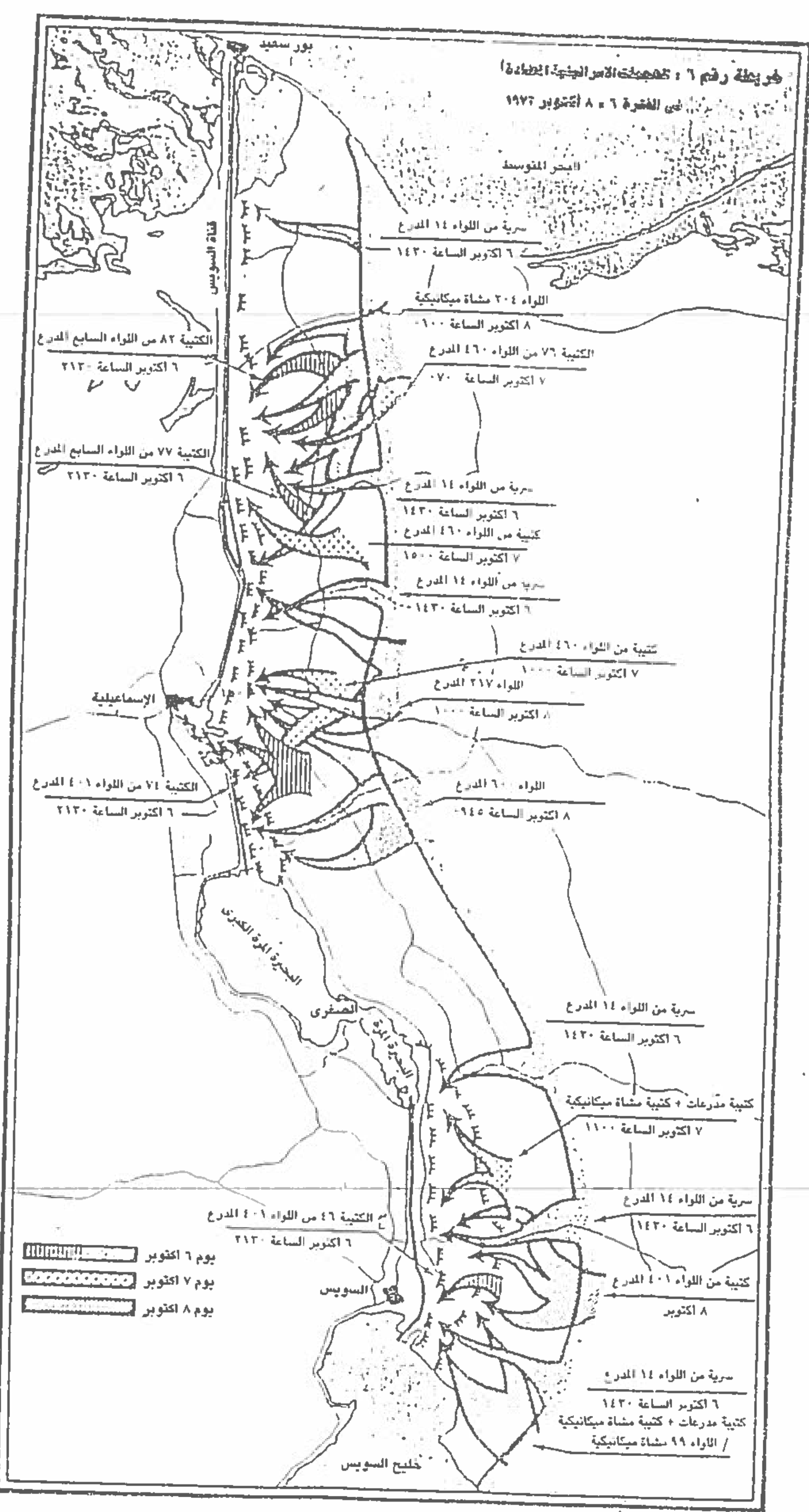
ورغم هذا القرار ، ظل موضوع عبور القناة مطروحاً بشدة ، وكان هناك كثير من المؤيدين لشارون فى مشروعه المفضل ، وكان واحد من المؤيدين ذوى النفوذ هو البريجادير أبراشا تامير ، وهو ضابط سابق بكلية القيادة والأركان ، ألف عدة كتب دراسية عسكرية ، وكان يعتبر واحداً من ألمع « الشخصيات الداخلية » فى هيئة الأركان العامة . وكان من رأيه أن القوات المصرية ليست مهتمة بالتقدم للأمام أكثر من ذلك . وفى ذلك الوقت ، كان

بارليف وجونين يعارضان بشدة أى عبور للقناة . وأشارا إلى أن سلاح الجو الإسرائيلى قد عجز عن ضرب الجسور المصرية ، وأن الفريق أول إسماعيل (هكذا كانا يظنان) كان لا يزال لديه نحو ٨٠٠ دبابة لم يستخدمها بعد فى الضفة الغربية ويمكن دفعها للعمل ضد أى قوة إسرائيلية تصل إلى الضفة الغربية ، وأن الأولوية قد أعطيت لجبهة الجولان . وقالا بأنه إذا تعثرت الأمور ، فلن يكون متاحاً توفير أية موارد إضافية للمساعدة ، وأن ذلك قد يتسبب فى ضياع الكثير ، بل وفى ضياع كل شىء . فى ذلك الوقت ، رأى كل من ديان وبارليف والعازر أن المقامرة ستكون هائلة كبيرة ، واختاروا أن ينتظروا ، وحتى شارون وتامير اعترفا بأنها ستكون « عملية محفوفة بالمخاطر » .

وفى نفس الوقت ، فى التاسع من أكتوبر ، ورغم الواجهة الرسمية التى تدعى لنفسها الشجاعة ، والتى كانت تساعدها الرقابة ، فإن صدمة الكوارث العسكرية كانت قد بدأت تصيب الشعب الإسرائيلى المذهول بكل قوتها ، وبعد ظهر ذلك اليوم ، تحدث ديان فى اجتماع مغلق مع لجنة رؤساء التحرير ، ونقل إليهم جانباً كبيراً من الأنباء السيئة (ولم ينشر هذا الحديث حتى ١٥ فبراير ١٩٧٤) . وبعد هذا الاجتماع ، كان مقرراً أن يتحدث ديان فى التليفزيون إلى الشعب ، إلا أن شخصا ما أبلغ رئيسة الوزراء مائير بفحوى الخطاب الذى كان سيلقيه ، فحظرت عليه ذلك . وبدلاً من ذلك . عرض الميجور جنرال ياريف ، وهو واحد من الضباط الذين تم استدعاؤهم ، صورة مخففة للموقف العسكرى حيث قال للشعب إن « الحرب ستكون حرباً طويلة » ـ وهو ما كان تصريحاً مدمراً لشعب مشبع بتراث الانتصار فى حرب المائة ساعة وحرب الأيام الستة . ولم تتحسن ثقة الإسرائيليين المدنيين والعسكريين ، بخطاب ياريف .

وحتى ذلك الوقت ، كانت البيانات الرسمية الإسرائيلية المتفائلة ، التى تنضح بالثقة وتلمح إلى الانتصارات ، موضع قبول بلا تساؤل ؛ إلا أن الشكوك بدأت تحيط بها من جانب الشعب ، بينما كان الجنود الجرحى العائدون من مناطق القتال يحكون عن الكوارث والهزائم وتقدم العرب ونقاط خط بارليف الحصينة المحاصرة . وفى الأيام الثلاثة الأولى ، خسر الإسرائيليون فى جبهة القناة أكثر من ٢٥٠ قتيلا . وتدهورت الروح المعنوية الإسرائيلية بصورة سريعة ، داخل البلاد وفى ميدان القتال على حد سواء . وتطلب الأمر دفع الأطباء النفسانيين على وجه السرعة إلى المستشفى الميدانى فى بير جفجافة لعلاج الجنود الذين أصابتهم الحرب بالصدمة . وفى دراسة نشرتها فيما بعد مجلة اتحاد الأطباء الإسرائيليين ، قدر أن تسعة فى المائة من اجمالى الجرحى الإسرائيليين (لم تنشر الأرقام الاجمالية نفسها) كانوا حالات نفسية .

ولم يفعل المؤتمر الصحفى الذى عقده العازر فى الثامن من أكتوبر أكثر من توسيع هوة المصداقية الآخذة فى الاتساع . وعلى حين كانت البيانات المصرية فى تلك المرحلة المبكرة نموذجاً للبيانات الهادئة المحكومة ، فإن بيانات الإسرائيليين كانت تعمد فى كثير من الحالات



المصدر بيانات حصل عليها المؤلف من المصريين

إلى التضليل السافر . فعلى سبيل المثال ، زعمت البيانات الإسرائيلية أن وحدة من القوات الخاصة المصرية قد حوصرت فى شرم الشيخ . ومكن هذا البيان المصريين من الرد بشكل قاطع بأنهم لم يرسلوا أى قوات خاصة إلى تلك المنطقة فى ذلك الوقت ؛ وكان ذلك يبدو حقيقياً . ثم زعم الإسرائيليون أنه فى الثامن من أكتوبر تم قتل خمسة أفراد وأسر ٤٥ آخرين من وحدة مصرية من القوات الخاصة قوامها ٥٠ فرداً نزلت بالقرب من أبو رديس فى طريقها إلى شرم الشيخ . وربما كان ذلك زعماً معدلاً أو محسناً ، ولكنه كان يبدو مع ذلك تكرارا لزعم مماثل سبق ترديده فى السابع من أكتوبر .

وخلال الأيام الثلاثة الأولى من القتال ، شن الإسرائيليون ٢٣ هجوماً مدرعاً بحجم الكتيبة أو يزيد ، وتم صدها جميعاً . وكان السبب الأساسى لهذا الفشل يتمثل فى أن الإسرائيليين وضعوا كل ثقتهم فى كتلة من الدبابات المندفعة ، الأشبه بهجمات الفرسان القديمة ، توقعاً منهم أن ذلك سيسحق كل المعارضة بصورة آلية ويجعل المصريين يولون الأدبار . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الدبابات كانت صيداً سهلاً أمام تصميم ومقدرة فرق اصطياد الدبابات ، التى تم دفعها أمام المشاة ، والتى صمدت بصلابة .

وكان الإسرائيليون يعرفون أن لدى المصريين وفرة من الأسلحة المضادة للدبابات ، إلا أنهم كانوا ينظرون بازدراء لهذه الأسلحة ويعتمدون على مدفعية دباباتهم فى هزيمتها فى القتال . وأغفل الإسرائيليون أيضاً مبدأ تركيز القوة فى نقطة حيوية ، وقاموا بدلاً من ذلك بهجمات متناثرة غير منسقة بطول الجبهة وفيما بعد ، قدروا كثافة الأسلحة المصرية المضادة للدبابات بأنها كانت « ٥٥ سلاحا فى الكيلومتر الواحد » وكان من السهل رصد فرق اصطياد الدبابات من المصريين فى العراء ، وقال لى ضابط مدرعات إسرائيلى أنه كان يظنهم جذوع أشجار حتى يبدأوا فى التحرك . ولما كان الإسرائيليون يتوقعون أنهم سيقاتلون دبابات وليس مشاة ، فلم يكن لديهم مقذوفات شديدة الانفجار لمدافع دباباتهم ، وهى التى كانت ستحطم المشاة المصريين وفرق اصطياد الدبابات فى الأرض المفتوحة . كذلك ، لم يكن المشاة والهاونات يدخلون فى تشكيلات دباباتهم ، وكانوا سيساعدون فى التصدى لهذه الفرق المصرية .

وأثبت الصاروخ « ساجر » المضاد للدبابات أنه شديد الفعالية عند استخدامه فى مجموعات من ثلاثة صواريخ توجه جميعاً إلى دبابة واحدة . أما قذائف « آر . بى . جى - ٧ » الأقصر مدى ، فقد أثبتت أيضاً فعاليتها على مسافات تصل إلى ١٠٠ متر أو أكثر ، مع اطلاق كل ثلاث أو أربع قذائف معاً على دبابة واحدة . أما الصاروخ « سنابر » فكان أقل فعالية بكثير ، وكانت الأعطال الفنية تعطل واحداً من بين كل أربعة صواريخ . ويقول الجنرال هرتزوج ان ٢٥ فى المائة من خسائر الدبابات الإسرائيلية جاءت نتيجة للصواريخ المضادة للدبابات ، وأن أغلبية هذه الدبابات لابد أنها أصيبت خلال هذه الفترة الأولية التى استمرت ثلاثة أيام ، عندما كانت الدبابات مكشوفة بسبب

التكتيكات الخاطئة . وسجل للعريف عبد العاطى ، وكان طالبا يدرس الزراعة قبل تجنيده فى الجيش المصرى عام ١٩٦٩ ، أنه دمر وحده ٢٣ دبابة إسرائيلية فى السادس من أكتوبر من بينها ثمانى دبابات « م ـ ٦٠ » خلال الساعة الأولى . وفيما بعد ، وعندما غير الإسرائيليون تكتيكاتهم ، أصبحت الصواريخ المضادة للدبابات أقل فعالية . ويقول المصريون ان ٧٠ فى المائة من الدبابات التى تركها الإسرائيليون وراءهم فى ميدان القتال قد أصيبت بصواريخ مضادة للدبابات .

وفى حديثه فيما بعد عن تكتيكات المدرعات الإسرائيلية خلال الأيام الثلاثة الأولى ، قال الفريق أول إسماعيل إنه كان يهدف إلى تكبيد الإسرائيليين أقصى قدر من الخسائر مع أقل قدر من الخسائر فى صفوف المصريين . وقال : « فى البداية ، بدأوا يهاجمون بشكل متهور ، ولكن هجماتهم المضادة كانت مرتبكة ومشوشة . وفى البداية ، هاجموا بسرايا ، ثم بكتائب ، ثم بألوية ، ولم يبدأوا فى السيطرة على أعصابهم إلا بعد ذلك » . وقال لى الفريق الشاذلى أيضاً أنه كان هناك افتقار ملحوظ للتنسيق فى رد الفعل الإسرائيلى المدرع خلال اليومين الأولين ، حين كان الأمر مشاعاً ، فراح كل قائد وحدة فرعية وكل جندى يسعى لتحقيق المجد الشخصى فى ميدان القتال .

ومنذ حرب ١٩٦٧ ، كان التركيز فى الجيش الإسرائيلى ينصب بشكل مكثف على الدبابات وكانت مجموعات العمليات (أوجداد) القديمة ذات التشكيل الفضفاض قد تحولت فى الواقع إلى فرق دبابات . وكان كل منها يتشكل من لواءين مدرعين ولواء مشاة ميكانيكية ، بالإضافة إلى بعض المدفعية المتحركة مثل المدافع ذاتية الحركة وكان كل لواء مدرع يضم كتيبتى دبابات فقط ، وكانتا تخلوان من عنصرى المشاة والهاونات العضويين فى تشكيلهما.كما كان لواء المشاة الميكانيكية قد تقلص فى حجمه ، ولم يكن توفير المركبات والأسلحة له يمثل أولوية كبيرة . وكانت مهمته تقتصر على أعمال التطهير بعد أن تتقدم الدبابات . وفى عام ١٩٦٧ ، كانت الألوية المدرعة الإسرائيلية تشكل أقلية ، ولكن مع الحصول على مزيد من الدبابات بالإضافة إلى تلك التى تم الاستيلاء عليها عام ١٩٦٧ وادخالها الخدمة ، بدأت ألوية المشاة تتحول بصورة مضطردة إلى ألوية مدرعة يضم الواحد منها ٩٦ دبابة . وبحلول عام ١٩٧٣ ، كانت الألوية المدرعة تشكل الأغلبية .

وكانت معظم الألوية المدرعة مزودة بدبابات باتون ام ـ ٤٨ وسنتوريون التى أعيد تجهيزها ، ذات المدفع ١٠٥ مم الذى يطلق قذائف شديدة السرعة ، والتى تعمل بمحرك ديزل ، ودبابات ام ـ ٦٠ إلا أن كثيراً من كتائب المشاة الميكانيكيةكانت لا تزال تضم مركبات ام ـ ٣ نصف المجنزرة التى ترجع إلى الحرب العالمية الثانية ، وكان قد تم الحصول على أعداد من حاملات الجنود المدرعة الأمريكية ام ـ ١١٣ ، ولكنها كانت أقل دروعها من المركبة ام ـ ٣ وعندما يقف فيها جندى المشاة ، لا تتوافر له إلا حماية محدودة

جزئية . وكان قد تم التخلى عن مفهوم فريق القتال الشامل ، الذى يضم المدرعات والمدفعية والهاونات والمشاة بأسلحتهم المضادة للدبابات . وكان ذلك يرجع فى جانب منه إلى أن المركبات ام ـ ٣ القديمة لم تكن تستطيع أن تواكب حركة الدبابات ، وبالتالى فقد تخلت عنها الألوية المدرعة . وأصبحت الدبابة وحدها معقد كل الآمال والثقة ، وأصبحت فى نظر الإسرائيليين الإله الكلى الجبروت فى ميدان القتال . وفيما بعد ، فى حديث صحفى نشرته صحيفة « **معاريف** » فى ٢٥ يناير ١٩٧٤ ، قال الجنرال شارون عن هذه المرحلة الأولية ، إن « الجيش قد فقد لمعانه ، واستبدل الفكر العسكرى والمبادرة والذكاء بالإيمان الأعمى بخصائص الصلب » . وكان شارون ينتمى إلى قوات المظلات أصلاً .

الفصل السابع

الهجوم السورى

« جولدا ، لقد كنت مخطئا فى كل شىء .. سيتعين علينا أن ننسحب من مرتفعات الجولان .. ونصمد حتى آخر رصاصة »

موشى ديان

وفي ميدان القتال الشمالي ، واجهت إسرائيل سوريا فوق هضبة الجولان ، وهى مساحة من الأرض تتمتع بقيمة استراتيجية عظيمة ، حيث تطل على وادي الأردن الأعلى وتغلق الطريق القديم بين دمشق وفلسطين . ويبلغ طول الهضبة المستطيلة نحو ٣٥ ميلاً من الشمال إلى الجنوب في أقصى أماكنها طولاً ، بينما يبلغ عرضها نحو ١٧ ميلاً من الشرق إلى الغرب . وهى مساحة من الأراضي المتموجة التي تقطعها نتوءات بركانية ، وبعضها مثل تل فارس (٣,٩٨٩ قدماً فوق سطح البحر) يرتفع من الهضبة مثل رابية ضخمة لتصبح هى النقط الحاكمة للمنطقة ، أما الجزء الباقي فيتميز بالنتوءات الصخرية البازلتية والبقع البركانية ، مع بعض النباتات والأشجار وهناك بعض الزراعة في الحقول الحجرية الصغيرة . التي يأخذ بعضها شكل المصاطب إلا أن اقتصاد المنطقة هو اقتصاد رعوى في جوهره .

وعند حافته الغربية . ينحدر جرف بصورة حادة إلى وادي الأردن الأعلى . وفي الجنوب ينحدر جرف شاهق آخر إلى وادي اليرموك ، مشكلاً الحدود مع الأردن ، الذي يفضي من ناحية الشرق إلى الرمال والأراضي البركانية ، وشمال الهضبة مغلق بجبل الشيخ الهائل الذي يرتفع ٩,٢٢٣ قدماً فوق سطح البحر . وهو يمتد بصورة مائلة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وتغطي الثلوج قمته طوال العام . أما الجانب الشرقي من الهضبة ، والذي يواجه سهل دمشق ، فهو أكثر انبساطاً .

ويسكن هضبة الجولان طائفة الدروز التي انشقت على الإسلام في القرن الثاني عشر ، وهم قومية تضم نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، موزعين في المناطق الجبلية في سوريا ولبنان والأراضي التي تحتلها إسرائيل ، وعندما بدأت الأعمال الحربية ، كان نحو ١٠,٥٠٠ من الدروز يعيشون في الهضبة ، نصفهم تقريباً في مجدل شمس ، والباقون في عشر أو أكثر من القرى الأخرى ، وكانوا بعد حرب ١٩٦٧ قد اختاروا البقاء والعيش في ظل الإدارة العسكرية الإسرائيلية ، وكان الإسرائيليون قد أقاموا ١٦ مستوطنة أساساً حول القنيطرة حيث الأرض أكثر ملاءمة للزراعة ، كما نظموا « **موشاف** » واحد ، وهو يتألف من مزارع

منفردة ترتبط بتنظيم جماعي للتسويق ، وكان يسمى « **رامات ماجشميم** » ويرابط فيه افراد « **ناحال** » ، وهم الجنود العمال .

ولم تكن هضبة الجولان أرضاً جيدة للدبابات ، ورغم أنها كانت أسهل في جزئها الجنوبي منها في الجزء الشمالي ، فإن أجزاء منها كان يتعذر مرور المركبات فيها نظراً للكتل البازلتية الضخمة والنتوءات الصخرية ، وكانت الشعاب الكثيرة توفر أماكن مثالية للكمائن ، وكانت طرق عديدة تعبر الهضبة ، كما كانت هناك شبكة من دروب المركبات أقامها الجيش والمستوطنون . وكان هناك طريقان يمتدان من الشمال إلى الجنوب تقريباً ، أحدهما وطوله ٧٥ كيلومتراً ، يمتد بموازاة وإلى الخلف قليلاً من خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧ ، ويمكن أن نسميه طريق وقف إطلاق النار . وكان يمتد من رافد في الشمال ، ويعبر هذه البلدة حتى الماسادا وهي قرية درزية في الشمال . وبطول طريق وقف إطلاق النار ، كان هناك شريط ضيق من « الأرض المحايدة » يقل عرضه في المتوسط عن نصف ميل ، ويقوم فيه أفراد الأمم المتحدة بدورياتهم من ١٦ موقعاً للأمم المتحدة على جانبي الخط .

أما الطريق الآخر الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب ، فكان يمتد بصورة مائلة إلى حد ما لمسافة نحو ٢٠ ميلاً بجوار خط التابلاين ، وهو خط أنابيب البترول الذي يمتد من السعودية مروراً بالأردن ، وعبر هضبة الجولان إلى لبنان ويمتد هذا الخط لأنابيب البترول تحت الأرض بينما يتحدد مساره فوق الأرض بسور عالٍ معدني مزدوج ، تخلو المنطقة الواقعة بين جانبيه من الألغام . وإلى الشرق من خط الأنابيب ، كان يمتد طريق ضيق لأعمال الصيانة ، ويمكن أن نسميه طريق التابلاين . وكان هناك أيضا طريق يمتد من الشمال إلى الجنوب بطول نهر الأردن عند سفح الهضبة .

وكانت هناك خمسة طرق جانبية تمتد من الشرق إلى الغرب عبر الهضبة بجسور على نهر الأردن . وكان الطريق الواقع في أقصى الشمال ، وهو طريق الماسادا يمتد من دان وبانياس (وهما اثنان من المنابع الثلاثة لنهر الأردن) إلى الماسادا ، وبعد يونيو ١٩٦٧ مد الإسرائيليون هذا الطريق حتى منصة التزلج التى أقاموها بالقرب من قرية مجدل شمس الدرزية عند سفح جبل الشيخ . وفوق جبل الشيخ نفسه ، لم تكن هناك أية طرق ، وإنما بضعة دروب للمشاة والدواب يتعذر السير فيها في الشتاء .

وإلى الجنوب من طريق الماسادا ، كان طريق جانبي آخر يمتد من كيبوتز جونين ، بالقرب من نهر الأردن ، إلى واسط ، ثم يستمر حتى يلتقي بطريق وقف إطلاق النار . وفي الوسط . كان هناك طريق دمشق ، وهو الطريق القديم الذي يمتد من حيفا حتى دمشق ، وهو يعبر نهر الأردن (الذي يبلغ عرضه في هذه النقطة حوالى ٢٠ قدماً) بجسر بينوت ياكوف ، ثم يلتف حول الجرف الشاهق قبل أن يمتد عبر نافاك والقنيطرة إلى دمشق . وكان جسر بينوت ياكوف جسراً قوياً مبنياً من الأحجار . أما الجسور الأخرى المقامة على النهر

فكانت أخف من ذلك ، إذ كانت إما جسور من نوع بايلى أو جسور مقامة بقطاعات من العوارض .

أما الطريق الجانبي الرابع ، فهو طريق اليهودية الذي يمتد من جسر أريك عند رأس بحيرة طبرية ، وهو يصعد الجرف المنحدر ويمر إلى الشمال مباشرة من باراك ليلتقي بطريق التابلاين . إلى الجنوب مباشرة من الخسنية ، والطريق الخامس هو طريق العال ، الذي يصعد جرف اليرموك من عين جيف وماجان (وكلاهما على شاطىء بحيرة طبرية) إلى العال ، ثم يمر خلال رامات ماجشميم ليلتقي بطريق التابلاين عند جوهادر . وهكذا كانت هناك خمسة جسور جيدة على الأقل عبر نهر الأردن .

وكانت الدفاعات الإسرائيلية الأمامية الثابتة تتولاها كتيبتا مشاه وأربع بطاريات مدفعية ، تضم كل منها ست قواذف صاروخية . وكانت تقع على خط يضم ١٧ موقعاً دفاعياً على التلال البركانية والروابي المرتفعة ، وكان كل موقع تشغله فصيلة مشاه تعززها ثلاث دبابات . في مواقع حصينة تتمتع بمجال رمى جيد وتحميها الأسلاك الشائكة والألغام . وبطول الجزء الأعظم من طريق وقف إطلاق النار تم حفر خندق كبير مضاد للدبابات بعمق ١٥ قدماً ، مع ارتفاع نواتج الحفر لارتفاع ١٢ قدماً على الجانب السوري ، وأقيمت موانع أخرى للدبابات . ووزعت الألغام بحيث تقود أية مركبات مهاجمة إلى « نقاط قتل » مختارة . وكان أفراد المشاه مسلحين بأسلحة مضادة للدبابات ، من بينها صواريخ « اس اس ـ ١٠ » و « اس . اس ـ ١١ » الفرنسية . وإلى الخلف من ذلك بحوالي ٢,٠٠٠ متر أو أكثر كانت ترابط أربع كتائب دبابات و ١١ بطارية مدفعية تضم أساساً مدافع عيار ١٥٥ مم ، وكانت مهمتها الأساسية تتمثل في إغلاق الطرق والدروب ، وأيضا تغطية « نقاط القتل » كما كان قد تم إقامة منصات خاصة على المرتفعات ، بحيث يمكن للدبابات والمدافع أن تطلق نيرانها إلى أسفل ضد المهاجمين ، بما يعطيها ميزة تكتيكية .

وكان مقر قيادة جبهة الجولان يقع في نافاك على طريق دمشق حيث كان هناك معسكر صغير للجيش على مرتفع صغير مع بعض المخابىء والتحصينات تحت الأرض . وكانت البلدة نفسها مدمرة منذ حرب ١٩٦٧ ، وكانت الحامية الإسرائيلية تصل إلى حوالى ٢٥٠٠ جندي في اجماليها ، يتشكلون في ثلاثة ألوية : لواءين مدرعين ولواء مشاة . وكان لواء المشاة موزعاً على الدفاعات الأمامية الثابتة وبعض النقاط الرئيسية الأخرى . وكان أحد لواءي المدرعات ، وهو لواء باراك ، يضم ثلاث كتائب دبابات ، تنتشر كتيبة منها لتعزيز دفاعات المشاة ، بينما ترابط الكتيبتان الأخريان في الخلف . وكان لواء باراك الذي يقوده الكولونيل شوام ، يضم حوالى ٧٥ دبابة ، معظمها من طراز سنتوريون ، ويقع مقر قيادته في نافاك .

وفي الخامس من أكتوبر ، انتقل مقر قيادة الجبهة من الناصرة إلى نافاك ، وازداد عدد الجنود في كل من النقاط الدفاعية إلى نحو ٢٠ جندياً ، أما اللواء السابع المدرع « وهو لواء

(الحامية) الآخر » فكان قد عاد من تدريبات في الجنوب ، وكان يتمركز حول نافاك ، وكان هذا اللواء ، الذي يقوده الكولونيل أفيجدور ، يضم أيضا ثلاث كتائب دبابات من طراز شيرمان ، وكانت احدى الكتائب قد وضعت تحت قيادة لواء باراك ، وتم دفعها إلى القطاع الشمالي . وكانت كتيبة أخرى ترابط في مفترق طرق واسط ، والكتيبة الثالثة في السنديانة ، التي كانت تقع على طريق التابلاين على مسافة نحو ميلين إلى الجنوب الشرقي من نافاك . وكانت هناك أيضا عناصر من لواء مشاة الجولاني في هضبة الجولان .

وعندما تم نقل مقر قيادة الجبهة في الخامس من أكتوبر من الناصرة إلى نافاك يقدر هرتزوج أنه في اليوم التالي كان لدى الإسرائيليين ١٧٧ دبابة و١١ بطارية مدفعية في هضبة الجولان . وبينما كان الميجور جنرال هوفي يتولى المسئولية الشاملة عن هضبة الجولان باعتباره القائد العام للقيادة الشمالية ، فإن القائد الميداني في الموقع كان البريجادير رافائيل ايتان ، الذي كان أيضا قد نقل مقر قيادته إلى نافاك ، وكان هوفي وايتان وشوام وافيجدور ضباطاً نظاميين . وكما يقول هرتزوج كان مخططاً في حالة الطوارىء تعزيز هضبة الجولان بما يصل إلى سبعة ألوية مدرعة إضافية من الاحتياط .

وربما كان أهم المواقع التي يسيطر عليها الإسرائيليون وأكثرها قيمة هو ذلك الذي يقع عند الطرف الجنوبي الغربي لجبل الشيخ ، فقد أقيمت نقطة حصينة ومركز للمراقبة على ارتفاع نحو ٦,٦٠٠ قدم على جانب من الجبل . الذي كانت بقيته في أيدى السوريين واللبنانيين . وكان مركز المراقبة ، الذي يشرف على هضبة الجولان بأسرها وعلى بضعة أميال من الأرض السورية شرقي الهضبة ، يضم أجهزة للتصنت والاتصالات وكانت ترابط به فصيلة من لواء الجولاني بالإضافة إلى بعض الفنيين ، ليبلغ عددهم جميعاً نحو ٥٥ فرداً ، وكان لسوريا أيضا مركز مراقبة على الجبل ، أعلى من مركز المراقبة الإسرائيلي بحيث كان يطل عليه .

وفيما بين هضبة الجولان ودمشق ، كان للسوريين ثلاثة خطوط دفاعية تتقاطع مع طريق دمشق . وكانت كلها مقامة على النمط السوفييتى ، بمواقع خرسانية للمدافع والدبابات ومخابىء وملاجىء تحت الأرض . وكان الخط الأول ، وهو أضعفها ، يقع على مسافة تتراوح بين ١,٠٠٠ و٢,٠٠٠ متر إلى الشرق من خط وقف إطلاق النار . أما الخط الثانى ، وهو أقوى من الأول ، فكان يقع على سلسلة ساسا الجبلية ، وهى سلسلة غير مستوية من التلال والنتوءات الصخرية والتراكمات البركانية . وكان طريق دمشق يلتوى ويتعرج نحو الشرق لمسافة حوالى ١٢ ميلاً فى هذه المنطقة . وكان كل من خطى الدفاع الأول والثانى يضمان أكثر من ٢٠٠ دبابة ثابتة من طراز ت ـ٣٤ ، تستخدم كمدفعية . (فى صباح السادس من اكتوبر لاحظ الإسرائيليون أن خط الدفاع السوري الثانى كان يخلو من الأفراد ، وهو ما أثار ريبتهم) . أما الخط الثالث وهو أقوى الخطوط الثلاثة ، فكان يقع على مسافة نحو عشرة أميال أخرى إلى الخلف ، إلى الغرب مباشرة من الطريق الواصل

من قطانة إلى كسوة ـ وهما بلدتان تضمان حاميتين . وكان لدى السوريين أيضاً حائط دفاع جوى قوى إلى الغرب مباشرة من الطريق الذى يمتد من دمشق إلى كسوة إلى الشيخ مسكين .

وكان هدف السوريين هو استعادة هضبة الجولان بأكملها خلال ٣٠ ساعة ، حيث كانوا يعتقدون أن الإسرائيليين سيحتاجون ضعف هذا الزمن لتعبئة احتياطياتهم . وكانت الخطة تقضى بتوجيه ضربة جوية فى ساعة الصفر ضد أهداف فى الهضبة ، من بينها جسر بينوت ياكوف . ثم يتم الاستيلاء عليه بقوات محمولة بطائرات الهليوكوبتر عقب الضربة الجوية مباشرة ، كما يتم فى نفس الوقت الاستيلاء على مركز المراقبة الإسرائيلى فى جبل الشيخ لحرمان الإسرائيليين من رؤيتهم لميدان القتال . كما كانت تقضى باختراق الدفاعات الإسرائيلية الأمامية في عدة نقاط على جبهة عريضة بثلاث فرق مشاة بحيث تتمكن بعدها فرقتا المدرعات المنتظرتان من الاندفاع من هذه الثغرات إلى نهر الأردن . وكان مقرراً عدم إضاعة الوقت مع أي مواقع دفاعية منفردة ، بل إغفالها وتركها ليتم التعامل معها فيما بعد .

وكان الثقل الرئيسي للهجوم السوري والاندفاع الأولى سيتم من خلال ثغرة رافد (وهي فتحة في غابة التلال والأراضي غير المستوية . كان تحرك المركبات أسهل فيها) ، ثم بعد ذلك إلى طريق التابلاين من الجنوب الشرقي . فإذا تحركت الألوية أو الكتائب على هذا الطريق ، فسيكون بمقدورها أن تتفرع غرباً إلى نهر الأردن عندما تصل إلى الطرق الجانبية . وكانت هناك أيضا عملية اختراق ستتم من خلال ثغرة كودنة ، إلى الجنوب من القنيطرة بنحو عشرة أميال ، وعملية أخرى إلى الشمال بنحو ستة أميال من القنيطرة ، التي كان سيتم إغفالها في البداية . وكان هناك هجوم آخر في الشمال ، يتم بصورة مائلة ضد طريق واسط ، وهجوم آخر ضد بلدة الماسادا ، للوصول إلى دان وبانياس ـ بحيث ينتهي الهجوم الأخير بحلول الساعة ٢٣٥٩ يوم السادس من أكتوبر . وكان اللواء شكور يتولى إدارة العملية بأكملها من مقر للقيادة العامة الميدانية فى قطفة ، وكان الإسرائيليون يعتقدون أن الهجوم السورى الرئيسي سيأتى على طريق دمشق نحو جسر بينوت ياكوف ، مع هجمات أصغر ، أو حتى خداعية ، على ثغرة رافد والنقاط الأخرى لتحويل الاهتمام وتشتيت مجهود القوات .

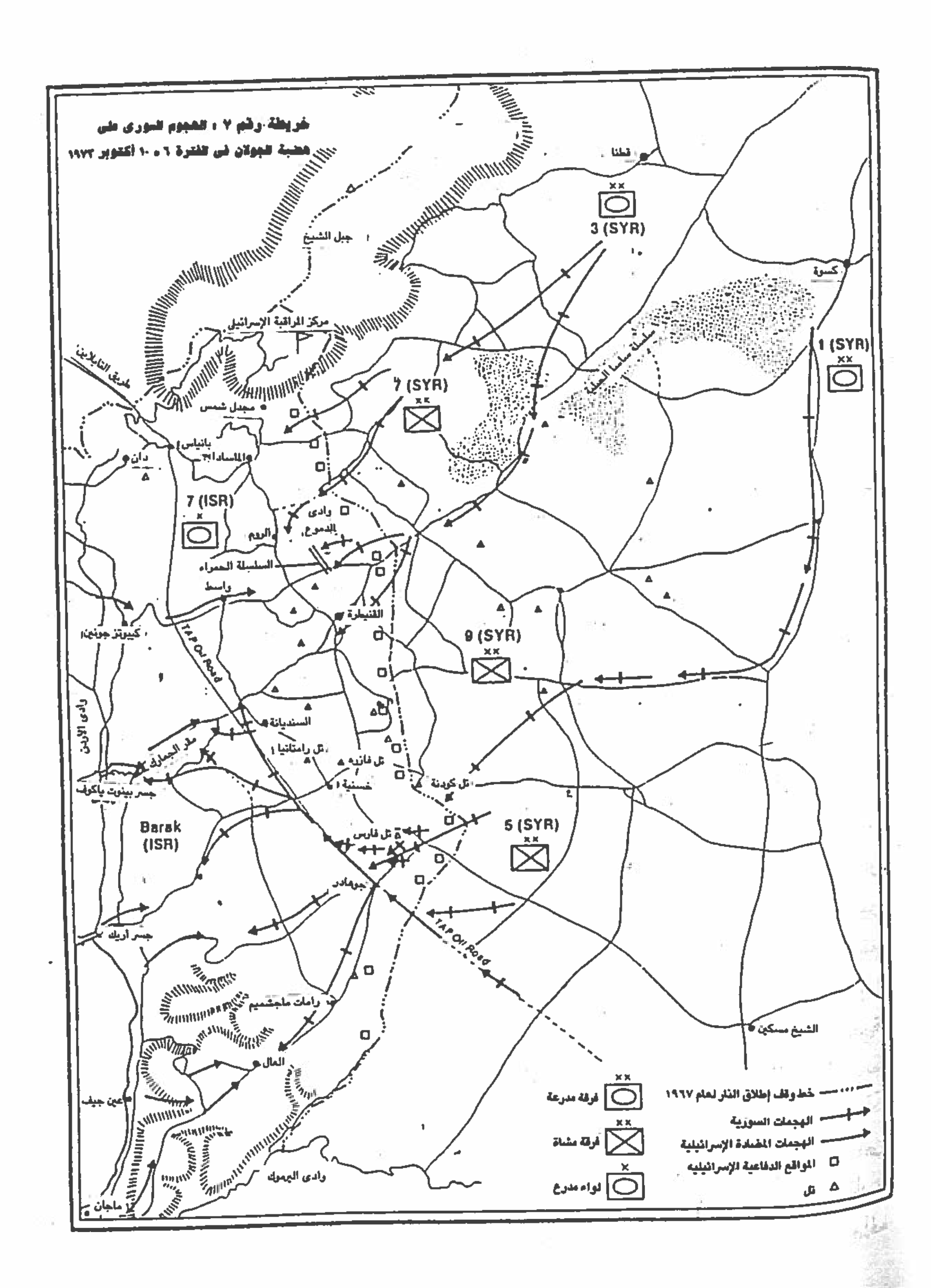
وكانت الفرق السورية التي احتشدت للقيام بالهجوم الأولى هى (من الشمال إلى الجنوب) ، الفرقة السابعة مشاة بقيادة العميد عمر أبراش ، وكانت مهمتها تتمثل في التقدم إلى الشمال مباشرة من القنيطرة ، قبالة نقطة يسميها الإسرائيليون « بوستر » والتوغل حتى طريق واسط . والفرقة الخامسة مشاة بقيادة العميد على اسلام ، وكان مقرراً لها أن تتقدم خلال ثغرة كودنة للاستيلاء على خسنية ، ثم نافاك ، لتنضم في النهاية إلى قوات الكوماندوز عند جسر بينوت ياكوف ، والفرقة التاسعة مشاة ، بقيادة العميد

جلال جهان ، وكان مقرراً لها أن تتقدم خلال ثغرة رافد ، ثم تتحرك على طريق التابلاين ، وتتقدم ألويتها غرباً على طريقي العال واليهودية حتى بحيرة طبرية ونهر الأردن .

وفي حقيقة الأمر . كانت هذه الفرق السورية « للمشاة » هى فرق « مشاة ميكانيكية » رغم اسمها . وكانت كل فرقة تضم أربعة ألوية ـ لواء دبابات ، ولواءى مشاة ميكانيكية ، ولواء مشاة واحداً فقط ، وحتى هذا اللواء الأخير كان يضم نحو ٣٠ دبابة ، وكانت ألوية المشاة الميكانيكية تضم في تشكيلها الأساسي كتيبة دبابات ت ـ ٦٢ ، والباقي من دبابات ت ـ ٥٤ و ت ـ ٥٥ . وكانت كل من هذه الفرق تضم نحو ١٨٠ دبابة ، بحيث يصل الإجمالي إلى ٥٤٠ دبابة في الهجوم الافتتاحي . وكان يتم تعزيز الدبابات ببطاريات مدافع ١٣٠ مم (التي يصل مداها إلى ٢٤,٥٠٠ متر) ومدافع ١٥٢ مم (التي يصل مداها إلى ١٦,٥٠٠ متر) وكانت الألوية السورية من كل الأنواع تضم وحدات تتألف الواحدة منها من أربع دبابات استطلاع طراز « بي . تى ـ ٧٦ » ، وحدة لكل سرية ، ووحدة لكل قيادة كتيبة أو لواء . (وتزن دبابة الاستطلاع « بى . تى ـ ٧٦ » حوالى ١٥ طناً ، وتستطيع السير بسرعة ٢٥ ميلاً فى الساعة) .

وفي ساعة الصفر (الساعة ١٤٠٠) ، استخدم السوريون حوالي ١٠٠ طائرة في توجيه ضربة جوية ضد أهداف في هضبة الجولان . ولم تشمل هذه الأهداف جسور نهر الأردن ، كما كان متوقعاً للمصريين ، لأنه كان قد تم تعديل الخطة الأصلية في اللحظة الأخيرة ، لأسباب سياسية ، وفي ساعة الصفر أيضا بدأت المدافع السورية توجه قصفاً مدفعياً زاحفاً استمر ٥٠ دقيقة ، وتحت غطاء القصف المدفعي ، بدأت الألوية الأمامية من الفرق الثلاث تندفع خلال أسلاك خط وقف إطلاق النار في الأماكن المختارة ، مع إغفال نقاط مراقبة الأمم المتحدة ، وطوال الحرب ، ظلت نقاط مراقبة الأمم المتحدة قائمة بطول خط وقف إطلاق النار ، باستثناء أربع نقاط تم إخلاؤها ، واحدة فى الجانب السورى وثلاث في الجانب الإسرائيلي ، وظل ضباط المراقبة في هذه النقاط على اتصال بمقر قيادة الأمم المتحدة في القدس . وفيما بعد ، وصف أحد ضباط مراقبة الأمم المتحدة هذا الجزء الأول من الهجوم السوري بقوله : « لم يكن يبدو مثل هجوم ، بل كان أشبه باستعراض بري » ، وكان السوريون قد ظلوا يتدربون لشهور ، مستخدمين تكتيكات تقوم على الدفع بموجة تلو أخرى من الدبابات المهاجمة ، بغض النظر عن الخسائر ، وبغض النظر عما إذا كان قد تم وقف الموجة السابقة أم لا .

وراحت الطوابير السورية تتحرك على جبهة عريضة بثلاث أو أربع مركبات جنباً إلى جنب على كل من جانبي الطريق أو الدرب ، مع استخدام بعض الدبابات في تفجير الألغام . وتم دفع البولدوزرات ، ومدافع « اس . يو ـ ١٠٠ » في الأمام ، مع قوات مشاة مسلحة بصواريخ ساجر وسنابر وآر . بي . جي ـ ٧ في حاملات الجنود المدرعة . وسرعان ما تمكنت البولدوزرات من ردم أجزاء من الخندق المضاد للدبابات ، بحيث أبطلت هذا


خريطة رقم ٧ : الهجوم السورى على
هضبة الجولان فى الفترة ٦ ـ ١٠ أكتوبر ١٩٧٣
قطنا
3 (SYR)
جبل الشيخ
كسوة
مركز المراقبة الإسرائيلى
1 (SYR)
طريق التابلاين
7 (SYR)
مجدل شمس
بانياس
المسعدة
دان
7 (ISR)
وادى الدموع
الروم
السلسلة الحمراء
واسط
القنيطرة
كيبوتز جونين
9 (SYR)
TAP Oil Road
وادى الأردن
السنديانة
مقر الجمارك
تل راماتانيا
تل فازيه
خسنية
تل كودنة
جسر بينوت ياكوف
Barak
(ISR)
5 (SYR)
تل فارس
جوخادر
جسر أريك
رامات ماجشيميم
العال
الشيخ مسكين
عين جيف
وادى اليرموك
ماجان
خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧
الهجمات السورية
الهجمات المضادة الإسرائيلية
المواقع الدفاعية الإسرائيليه
تل
فرقة مدرعة
فرقة مشاة
لواء مدرع

المانع ، ومكنت المركبات من عبوره واجتياز الدفاعات الإسرائيلية الأمامية الثابتة ، ومع ذلك فقد أصيبت عدة دبابات خلال هذه العملية ، فمع تقدم السوريين انسحبت الدبابات الإسرائيلية التي كانت تعزز الدفاعات الأمامية إلى مواقع مجهزة في التلال المطلة على طرق الاقتراب .

ورغم المفاجأة التي لحقت بالإسرائيليين ، فإنهم احتشدوا بسرعة وراحوا يردون بالنيران على المهاجمين ، حيث كانوا يفتحون نيرانهم على مسافة ٢,٠٠٠ متر أو أكثر بمجرد عبور السوريين لخط وقف إطلاق النار . وكانت تلك مسافة كبيرة جداً يتعذر معها إحكام الرمي ، مما دفع بالسوريين للقول بأن الأمريكيين قد أمدوا الإسرائيليين بنوع من « أجهزة التحكم في الرمي بأشعة الليزر » وينفي الإسرائيليون ذلك قائلين إنهم يعرفون الأرض والمسافات بدقة ، وأن هذه المعرفة الدقيقة هي السبب في نجاحهم في إصابة عدد كبير من الدبابات السورية ، وبغض النظر عن الخسائر ، واصلت المدرعات السورية تقدمها للأمام . وفي حالات عديدة ، اضطرت الدبابات والمدفعية الإسرائيلية للتخلي عن مواقعها المجهزة والانسحاب للخلف لكيلا تجتاحها المدرعات السورية . وكان انسحابهم ببساطة إلى الأرض الوعرة خارج الطرق الرئيسية ، في محاولة لضرب السوريين من الأجناب . وعندما كانت الدبابات السورية تصاب أو تتوقف لأعطال فنية ، مثلما حدث مراراً ، فإنها كانت غالباً ما تتسبب في اختناق المرور ، ولا سيما عندما كان طريقها يجري في أرض غير مستوية ، وفي بعض الأوقات ، كان يحدث توقف في المرور على الطرق ، وهو ما كان يوفر أهدافاً جيدة للمدفعية الإسرائيلية .

وفي البداية أغفلت بلدة القنيطرة ، وحاول لواء سوري من الفرقة السابعة مشاة تنفيذ الاختراق في نقطة على مسافة نحو أربعة أميال إلى الشمال من البلدة ، قبالة نقطة بوستر الإسرائيلية . وقامت عناصر من كتيبة من اللواء السابع المدرع باحتلال مواقع على السلسلة الجبلية ، المعروفة للسوريين باسم السلسلة الحمراء ، على مسافة نحو ٢,٠٠٠ متر من الخندق المضاد للدبابات . وكانت السلسلة الجبلية تحمي طريق وقف إطلاق النار الذي كان يمتد غربها ، وعبر السوريون الخندق المضاد للدبابات ، وحاولوا التقدم عبر الأرض المفتوحة التي كان الإسرائيليون قد جهزوها « كمنطقة للقتل » فقط لكي يتم اصطيادهم وإصابة دبابتين أو ثلاث في المرة الواحدة . وبعد ساعة انسحب السوريون إلى الخندق ويزعم الإسرائيليون أن السوريين تركوا خلفهم أكثر من ٦٠ دبابة مدمرة أو معطلة .

وعلى مسافة عشرة أميال تقريباً إلى الجنوب من القنيطرة ، اجتاز لواء من الفرقة الخامسة مشاة احدى نقاط المشاة الإسرائيلية إلى الجنوب ، واندفع عبر ثغرة كودنة ، وهي فتحة قبالة تل كودنة ، نحو خسنية ، التي تبعد نحو ستة أميال عن خط وقف إطلاق النار ، وانسحبت الدبابات الإسرائيلية أمامهم ، وتم إخلاء نقطة المشاة الإسرائيلية ، وإلى

الجنوب من ذلك بنحو عشرة أميال أخرى ، شق لواءان من الفرقة التاسعة مشاة طريقهما خلال ثغرة رافد المتسعة ، وبدآ يتحركان على طريق التابلاين من الجنوب نحو جوهادر على نقطة الالتقاء مع طريق العال . وتم بعد ظهر ذلك اليوم إخلاء ثلاث نقاط مشاة إسرائيلية كانت تتولى إغلاق هذه الثغرة ، وفي السماء ، كان ذلك اليوم كارثة لسلاح الجو الإسرائيلي الذي كان الإسرائيليون يعتمدون عليه بشدة للمعاونة الأرضية وقطع إمدادات العدو في مثل هذه المواقف . فقد اصطدم بحائط الدفاع الجوي السوري ، وخسر حوالي ٣٠ طائرة بعد ظهر اليوم الأول من الحرب .

وكان السوريون يعتزمون التعامل مع مركز المراقبة الإسرائيلي الموجود على جبل الشيخ في ساعة الصفر ، ولكن كان هناك تأخير في إبلاغ وتنظيم القوة المهاجمة ، التي كانت مجموعة من القوات الخاصة قوامها ٥٠٠ فرد ، وكانت المجموعة الوحيدة التى لدى السوريين ، فلما لم تكن القوات الخاصة قد تلقت أوامرها حتى الساعة ١٢٠٠ تقريباً . فإنها لم تصل إلى سطح الجبل وتبدأ في التسلق حتى الساعة ١٤٠٠ وفي الساعة ١٤٤٥ ، وصلت القوات إلى مسافة حوالى ٢٠٠ متر من الموقع الإسرائيلي . وخلال الجزء الأول من عملية التسلق . لم تطلق أية طلقات من الجانبين . كما لم تكن هناك أي نيران للتغطية من طائرات أو مدفعية الجانبين ، ولكن لابد أن نتذكر أن معركة واسعة النطاق كانت تدور إلى أسفل ، وأن الدخان الأسود والملون كان يغطي أجزاء من هضبة الجولان بالفعل ، وخلافاً لكثير من التقارير فإن القوات الخاصة السورية لم تصل بطائرات الهليكوبتر ، بل تسلقت الجبل على أقدامها . رغم أن قوات مظلات سورية أخرى تم نقلها بطائرات الهليكوبتر في نفس الوقت تقريباً لاحتلال مواقع لإغلاق الطرق على سفوح التلال الأقل ارتفاعاً لتغطية طريق الماسادا . وكانت القوات الخاصة السورية مسلحة ببنادق الكلاشينكوف والقنابل اليدوية وترتدي ملابس القتال المموهة العادية ، على العكس من المدافعين الإسرائيليين الذين كانوا يرتدون ملابس بيضاء لا تظهر في خلفية الثلوج المحيطة بهم .

وكان الموقع الإسرائيلي موقعاً قوياً مبنياً بالخرسانة ، ويحيط به عدد من نقاط إطلاق النار ، التي تربطها أنفاق تحت الأرض . وكان يتوافر للسوريين معرفة دقيقة بتفاصيل الموقع ، من مصادر الجواسيس . ومن مركز مراقبتهم الأعلى الموجود على جبل الشيخ ، ومن السكان الدروز في مجدل شمس . وتم إبلاغ القوات الخاصة بمهامها فرداً فرداً ، بحيث كان كل قطاع يعرف تماماً الهدف الذي سيهاجمه وكيف سيهاجمه . وعندما استردت القوات أنفاسها بعد عملية التسلق ، قامت بمهاجمة الموقع بالمواجهة ، على أمل أن تتمكن من التغلب عليه بقوة النيران ووفرة الأعداد فحسب ، ولكن تم إيقاف المهاجمين على مسافة أقل من ١٠٠ متر من هدفهم ، وفي هذا الهجوم الذي لم يكلل بالنجاح ، تكبد السوريون أقصى خسائرهم في الأرواح ، حيث تجاوزت ٥٠ فرداً .

وعندئذ أعاد السوريون تنظيم قواتهم ، واستخدموا تكتيكات مختلفة ، حيث راحوا يطلقون نيران القنص على النقاط الإسرائيلية الأمامية بينما يشقون طريقهم للأمام من صخرة إلى أخرى ، وكان الإسرائيليون في حالة من الانزعاج ، وكما يقول هرتزوج فإن « بعضاً من الأفراد الذين كانت هذه هى المرة الأولى التي يتعرضون فيها لإطلاق النار عليهم ، كانوا ينزوون في حجرات المخابىء تحت الأرض وقد تجمدوا من الخوف ، دون أن يستجيبوا لنداءات الذين كانوا يقاتلون لكي يهرعوا لمساعدتهم » . وشن السوريون هجومهم الثاني حوالي الساعة ١٧٠٠ فقد هاجموا فجأة من الغرب دون أية نيران تمهيدية تغطيهم . بينما كانت الشمس تواجه أعين المدافعين الإسرائيليين ، وعندئذ ، انسحب المدافعون إلى الموقع الرئيسى الأوسط ، الذي كان يحميه حائط عال ، وراح أفراد القوات الخاصة يتسلقون الحائط ، باستخدام الخطافات والحبال ، وبمجرد دخولهم الموقع دار قتال متلاحم شرس ، فاز فيه السوريون بفضل وفرة أعدادهم . ونجح نحو ١١ إسرائيلياً في الهروب والهبوط على جوانب الجبل للوصول إلى خطوطهم ، وتم أسر حوالى ٢٠ إسرائيلياً .

وقام السوريون بتطهير الممرات الموجودة تحت الأرض ، ولكنهم توقفوا عند المركز الرئيسي لأجهزة التصنت والاتصالات ، الذي كان مغلقاً بباب ضخم من الصلب ، وأتوا بأسير إسرائيلي وأرغموه على أن يبين لهم كيفية فتح الباب . وكما يقول داڤيد نيكول الذي كتب في إحدى المجلات في يوليو ١٩٧٥ ، فقد رفض الأسير الإسرائيلي مساعدة السوريين في البداية ، ولكنهم ضربوه بشدة حتى انهارت مقاومته . ووضع الإسرائيلي عندئذ يده على الأزرار الخمسة الموجودة بالباب وضغط عليها معاً ، فانفتح الباب . وخلفه كان هناك بضعة رجال يقومون بتشغيل مركز للاتصالات . فاستسلموا على الفور » . وفي هذه المرحلة زعم الإسرائيليون أنه تم قتل هؤلاء الأسرى رمياً بالرصاص ، وتقدمت الحكومة الإسرائيلية بشكوى رسمية عن مقتل خمسة أسرى مخالفة لمعاهدة جنيف ، وفي صباح السابع من أكتوبر أصدر الجنرال هوفي أوامره بشن هجوم مضاد لاستعادة مركز المراقبة . ولكنه نظراً للموقف المعاكس في الهضبة ، عاد وألغي الأمر . ثم عاد وأقره مرة أخرى عندما علم أن بعض الإسرائيليين مازالوا صامدين داخل مركز المراقبة (وهو ما لم يكن صحيحاً) . وفى صباح السابع من أكتوبر بدأت مفرزة من لواء الجولانى الهجوم حيث تحركت على الطريق العادي إلى مركز المراقبة ، ولكنهم وقعوا في كمين نصبه السوريون واضطروا للانسحاب بعد أن خسروا ٢٢ قتيلاً وحوالي ٥٠ جريحاً ، ونظراً للمفاجأة لم يكن أمام الإسرائيليين أية فرصة لتعزيز دفاعات مركز المراقبة في الوقت المناسب أو للقيام بتحركات خداعية لتحويل الانتباه .

وظلت مجموعة القوات الخاصة السورية تحتل هذا الموقع الحيوي لمركز المراقبة طوال الفترة الباقية من الحرب . وكان متوقعاً أن يحاول الإسرائيليون استعادته نظراً لقيمته الهائلة . ولكن باستثناء الاهتمام المتأخر وقصفه في فترة لاحقة بالطائرات والمدفعية ، فإن

ظل مكاناً هادئاً بدرجة كبيرة ، وكان الإسرائيليون مشغولين بالهضبة إلى أسفل . أما أجهزة التصنت والاتصالات اليابانية الأصل . فقد رفعها السوريون من مكانها . وسلموها إلى الاتحاد السوفييتي ولمدة تزيد على العامين ظل الروس يحاولون بلا نجاح إقناع الحكومة اليابانية ببيعهم معدات مماثلة .

وفي الساعة ١٦٣٠ ، أدرك الجنرال هوفي أن الهجوم السوري الرئيسي كان من الجنوب ، عن طريق ثغرتي رافد وكودنة ، وليس عبر طريق دمشق كما كان متوقعاً ، وكان يعتقد أن الهجوم على نقطة بوستر ربما كان هجوماً مخادعاً ولكنه لم يكن متأكداً . وبدلاً من تحريك اللواء السابع المدرع جنوباً ، فقد كلفه بمسئولية الجزء الشمالي من الهضبة ، بما في ذلك طريق دمشق . وعهد بقيادة الهضبة إلى البريجادير ايتان ، الذي ظل في نافاك .
وخلال فترة بعد الظهر أمر ايتان بإجلاء النساء والأطفال من المستوطنات وفي الصباح التالي أمر بإجلاء الرجال . وتم إجلاء الكثيرين منهم وهم يحتجون ، حيث كانوا يريدون البقاء للدفاع عن مستوطناتهم ، ولكنهم رحلوا جميعاً حيث ذهب بعضهم لأداء الخدمة في جبهة قناة السويس . وبعد ظهر ذلك اليوم أيضا ، قام الفدائيون الفلسطينيون بإطلاق صواريخهم على كريات شمونة ، ورداً على ذلك قام الإسرائيليون في الساعة ١٤٤٠ بإطلاق قذائفهم على قرية البليدة اللبنانية التي كان معتقداً أن الفدائيين يعملون منها ، وخلال الليل ، تم إطلاق المزيد من الصواريخ من الأراضي اللبنانية .

وعندما تم الإبلاغ حوالي الساعة ١٧٠٠ بأن السوريين يتحركون بقوتهم خلال ثغرة رافد نحو جوهادر، تحرك إلى هناك أيضاً الكولونيل شوام الذى كان يتولى وقتها قيادة الجزء الجنوبي من الهضبة ، وكان يعتقد أن بمقدوره أن يدير المعركة من جوهادر ، ولكن عندما وصل إلى تلك القرية وجدها تتعرض لقصف عنيف ، ووجد أن السوريين كانوا قد تسللوا بحيث تجاوزوها ونظراً لأنه لم يستطع العودة مباشرة إلى نافاك فقد سلك طريقاً دائرياً مروراً ببحيرة طبرية خلال ساعات الظلام ، وعلى أية حال ، ففي الساعة ٢٢٠٠ تقريباً ، كانت بضع دبابات من اللواء ٧٩ المدرع ، وهو لواء احتياط ، قد وصلت إلى طريق التابلاين ، فكانت أول تعزيزات تنضم إلى المعركة . أما لواء باراك ، فقد تعرض لخسائر فادحة في القتال نظراً لتشتته في مساحة واسعة . ووفقاً لتقديرات هرتزوج فإن عدد دباباته كان قد بلغ ١٥ دبابة [فقط] بحلول الساعات الأخيرة من ليلة السبت [السادس من أكتوبر] .

وحوالي الساعة ٢٢٠٠ يوم السادس من أكتوبر قام لواء سوري من الفرقة السابعة مشاة بهجوم آخر على موقع بوستر ، إلى الشمال مباشرة من القنيطرة ، ومرة أخرى ، أوقفهم الإسرائيليون من مواقعهم الحاكمة ، وارتد السوريون للخلف بعد ثلاث ساعات وبعد أن تكبدوا خسائر . وفي الجنوب ، وخلال ليلة السادس / السابع من أكتوبر ، اتجه

لواء إسرائيلي إلى الجنوب الغربي على طريق العال ، بينما تقدم لواء آخر على طريق اليهودية ، ولدهشة الإسرائيليين الكبيرة فإن القوات السورية ، وخاصة أفراد المشاة الذين كانوا يتحركون على الأقدام بأسلحتهم المضادة للدبابات ، ظلت تقاتل باستمرار خلال الليل . ووفقاً لما يقوله هرتزوج ، فان طوابيرهم الاستكشافية استمرت تتقدم ، وهى تستخدم الأضواء والأعلام الملونة لتمييز الوحدات المتعددة ، وكان الاسرائيليون فى وضع غير موات لأنه لم يكن بحوزتهم معدات بصرية كافية للقتال الليلى ، وكانوا قد باتوا على اقتناع بأن السوريين ليسوا مدربين على الحركة والقتال فى الليل .

وخلال الليل ، تدفقت دبابات الفرقة الخامسة مشاة عبر ثغرة رافد ، وحرك السوريون الفرقتين المدرعتين للأمام إلى خط وقف إطلاق النار ، وكان معظم الدبابات السورية مزودا بأجهزة تعمل بالأشعة تحت الحمراء ، التي كانت تومض وتبرق وسط نيران المدافع والمشاعل المضيئة التي كانت تضيىء ميدان القتال ، ويقول هرتزوج « وصف الرجال الذين كانوا في مرتفعات الجولان الهجوم السوري بأنه كان أشبه بمئات من أعين القطط التي تلمع وهي تجتاح الهضبة » .

ومع وصول الاحتياطيات الإسرائيلية إلى شاطىء بحيرة طبرية والضفة الغربية لنهر الأردن ، تم الدفع بها للأمام مباشرة وإدخالها إلى المعركة في مجموعات صغيرة ، وبحلول الساعة ٠٢٣٠ يوم السابع من أكتوبر كانت عناصر من اللواء ١٩ المدرع قد وصلت إلى العال ، بينما كانت عناصر من اللواء ١٧ المدرع تتحرك شرقاً على طريق اليهودية ، وكان هذان اللواءان من تشكيلات قوات الاحتياط . وبحلول فجر السابع من أكتوبر كان السوريون قد توغلوا بدرجة كبيرة في ثغرة كودنة وراحوا يقتربون من خسنية ، على حين ، إلى الجنوب من ذلك كان لواء سوري قد تقدم واحتل رامات ماجشميم على طريق العال . وعندما أدرك السوريون نجاحهم وأرادوا استغلال هذا النجاح ، فقد صدرت الأوامر للفرقة الأولى المدرعة بقيادة العميد توفيق جهنة ، بالتقدم عبر ثغرة رافد والاستيلاء على طريق التابلاين ، كما صدرت الأوامر للواء من الفرقة الثالثة المدرعة التي يقودها العميد مصطفى شرابة ، بالتحرك من خلال ثغرة كودنة ، وراح الإسرائيليون الذين تلاحقت عليهم الضربات وأصابهم الارتباك يتقهقرون أمام هجمات السوريين الذين يفوقونهم عدداً ، ويقول هرتزوج : « كان الضغط يتزايد على كل النقاط ، وبدأت الذخائر تنفد ، لأن كثيراً من الأطقم أسرفت في استخدامها خلال الساعات الأولى من المعركة » .

وعقب فجر السابع من أكتوبر مباشرة قام لواء سوري من الفرقة السابعة مشاة باختراق خط وقف اطلاق النار في القطاع الشمالي نحو موقع جبل الشيخ ، وكان ذلك الموقع يقع على مسافة حوالي ٥,٠٠٠ متر إلى الشمال الغربي من موقع بوستر ؛ وفيما بين الموقعين كان يمتد واد منبسط مستطيل الشكل ، بما يجعله مكاناً نموذجياً « لأرض القتل » وكان

معروفاً للإسرائيليين باسم « وادى الدموع » وراح اللواء السورى يتقدم بلا معاونة من المشاة ، وبعد قتال دام طوال الصباح ، اضطر للانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وكان يهدف إلى الوصول إلى طريق واسط ، للالتفاف وراء الدفاعات الإسرائيلية في بوستر وجبل الشيخ ، وبدءا من الساعة ٠٨٠٠ بدأ لواء سوري آخر هجوماً على موقع بوستر . وكان تقدمه على جبهة عريضة ، ولكن مرة أخرى بلا معاونة من المشاة ، تم صدده بعد أن تكبد خسائر ، وفي وقت لاحق من صباح ذلك اليوم ، حاول لواء من الفرقة الثالثة المدرعة أن يشق طريقه حتى طريق واسط ، ولكنه أيضا توقف عند موقع جبل الشيخ ، واضطر لوقف الهجوم حوالى الساعة ١٣٠٠ ، وعلى بعد بضعة أميال إلى الشمال من ذلك حاول صباح نفس اليوم لواء آخر من الفرقة السابعة مشاة ، أيضا بلا معاونة من المشاة ، أن يندفع نحو طريق الماسادا بالقرب من مجدل شمس ، واضطر هو الآخر للانسحاب .

وبينما راحت وحدات المدرعات والمشاة الميكانيكية السورية تتحرك وتهاجم تبعاً «للخطة الموضوعة » فإن قوات المشاة خذلتهم بصورة سيئة صباح هذا اليوم السابع من أكتوبر ، وكان هذا هو الوضع بوجه خاص في الشمال حيث كان ينبغي على عناصر المشاة في منطقة سفوح جبل الشيخ أن تتقدم للأمام لمعاونة هجمات المدرعات نحو الماسادا وطريق واسط ، ولسد ثغرة ضعيفة في منطقة مجدل شمس . وكان لواء مشاة مغربي ، قوامه نحو ١,٨٠٠ جندي ، كان موجوداً في سوريا منذ يونيو ١٩٦٧ ، يحتل موقعاً عند سفح جبل الشيخ ، وعندما صدرت الأوامر السورية بالتقدم امتنع المغاربة عن التحرك ، وكان هناك أيضا تشكيل مشاة من الدروز بقيادة المقدم عمر أبو شلش ، في نفس المنطقة وصدرت له أيضاً الأوامر بالتقدم ولكن المقدم فشل فى تحريك اثنتين من سراياه عن طريق اللاسلكى لأنهما لم يردا ببساطة على أوامره ، أما السرية الثالثة ، فقد ردت عليه ، ولكنها رفضت بشكل قاطع أن تتزحزح عن موقعها - كما رفض لواء مشاة سوري في نفس المنطقة أن يتحرك للأمام ، وكان ذلك أمراً يرقى إلى حد العصيان السافر ، ولم يصدر أي تفسير مقنع له على الاطلاق . وقد أسهم الافتقار إلى معاونة المشاة بدرجة بالغة في الفشل الذي لحق بأعمال المدرعات السورية ، وفيما بعد قال لي أحد ضباط الأركان السوريين إن المغاربة كانوا غير منضبطين بدرجة طيبة أو مدربين على الحرب التقليدية ، وبالتالي لم يكونوا مفيدين كثيراً . وقد ظلوا في منطقة المعركة لأسباب سياسية ، ولكن لم يتم استخدامهم بعد ذلك في القتال ، كما تم سحب وحدة الدروز ، ويقول ليتواك : « لقد قيل بصورة تتسم بالقسوة إن ... الملك الحسن ملك المغرب قد بعث بكتيبتين من مثيري الشغب لكي يشتركوا في القتال ويموتوا » .

وعندما وصل الكولونيل شوام إلى مقر قيادته في نافاك صباح السابع من أكتوبر ، وأدرك أن الهجوم السوري الرئيسي يتقدم نحوه على طريق التابلاين ، فقد أدرك أنه لابد أن ينظم

دفاعاً ضده ، وتحرك مرة أخرى جنوباً نحو جوهادر حيث كان يعتزم أن يقيم مقر قيادته الأمامي ، ولكن عند وصوله وجد أن الدبابات السورية والاسرائيلية تكاد أن تكون مختلطة ببعضها البعض ولما كانت خسائره أفدح مما كان يخشى فقد عاد مرة أخرى إلى نافاك وعندما صار على مسافة حوالي ٣٠٠ متر من تحصينات مقر قيادته . وبينما كان يقف في برج دبابته ، أصابته نيران رشاش دبابة سورية معطلة على جانب الطريق فأردته قتيلاً .

وبحلول الظهر في منطقة كودنة كان السوريون يحتلون خسنية ، وهى مجرد مجموعة من المباني المدمرة والمهجورة منذ حرب عام ١٩٦٧ ، ولم يكن بها سوى مئذنة وحيدة هى التي ظلت سليمة ، واندفع لواء من الفرقة الأولى المدرعة شمالاً على طريق التابلاين ، فوصل إلى نافاك بعد ساعة تقريباً من مصرع الكولونيل شوام . وراحت عناصره المتقدمة تهاجم منطقة المعسكر . التى أخلاها البريجادير ايتان في الوقت المناسب ، حيث نقل مقر قيادته لمسافة حوالى ثلاثة أميال شمال خط التابلاين ، وسرعان ما اشتبك التشكيل السوري مع القوات المتقدمة من اللواء ٧٩ المدرع الإسرائيلي .وكان هذا اللواء الاحتياطى قد وصل إلى المنطقة لتوه وبحلول الظهر ، كان لواء سوري قد توقف على مسافة ٨٠٠ متر فقط من العال ، بينما كان لواء آخر على طريق اليهودية على مسافة أقل من ستة أميال من بحيرة طبرية ، وكان قد تم القضاء على لواء باراك بالكامل تقريباً . فأكبر ضابط باق به كان برتبة الكابتن . وكانت الذخائر متناقصة بشكل حرج ، وراح الإسرائيليون يبعثون بسيارات الجيب من دبابة معطلة إلى أخرى . ومن مدفع إلى آخر ، لجمع الذخائر التي لم تستخدم . وحوالي الظهر . قام لواء سوري من الفرقة التاسعة مشاة بالهجوم غرباً ، إلى الجنوب مباشرة من القنيطرة ، إلا أن عناصر من اللواء السابع المدرع الإسرائيلي أوقفته بعد الظهر ، وصارت القنيطرة مطوقة حينئذ ، ولم يعد باقياً سوى حامية إسرائيلية صغيرة فى جزء من البلدة .

إلا أن خسائر السوريين كانت فادحة أيضا ، وخاصة عندما كان بمقدور سلاح الجو الإسرائيلي أن يشارك في القتال عندما تقدم السوريون خارج غطاء حائط الدفاع الجوي ، وأن يقدم معاونة أرضية وثيقة وكان يبدو أن الدبابات والمركبات السورية ظلت على الطرق أو بالقرب منها دون أية محاولة للتمويه أو التحصن في خنادق : وبحلول الساعة ١٧٠٠ يقول الاسرائيليون انهم كانوا قد أصابوا أكثر من ٤٠٠ دبابة سورية .

وكان الإسرائيليون يعطون الأولوية لجبهة الجولان ، وبحلول ظهر السابع من أكتوبر كانت طائرات الهليكوبتر تنقل تعزيزات من أطقم الدبابات وتعود بالجرحى ، وفي الليلة السابقة كان الميجور جنرال لانر المكلف بقيادة إحدى فرق الاحتياط في هضبة الجولان ، قد وصل وأقام مقر قيادة مؤقتاً لفرقته عند جسر أريك ، ومن هناك راح يوجه التعزيزات عند وصولها إلى طريق اليهودية والطريقين الموصلين إلى طريق العال لإغلاق الطريق على التقدم السوري . وقسم الجنرال هوفي هضبة الجولان بين ايتان ولانر بحيث يكون طريق دمشق

هو الخط الفاصل بينهما . وكانت احدى الوحدات قد تقدمت لمسافة ميلين تقريباً عندما أفادت أنها تتعرض للهجوم من جانب المشاة السوريين وأصدر الجنرال لانر ، وهو ضابط احتياط تولى في الماضي قيادة المدرعات في سيناء ، أوامره للوحدة بالصمود وهو ما فعلته ليكتشف فحسب ، على حد قول هرتزوج « أن القوات المهاجمة كانت في الواقع وحدات مشاة من لواء الجولاني ، كانت تتقهقر أمام حشد هجوم المدرعات السورية » . ويمكن الاستدلال على مدى اهتزاز الروح المعنوية الإسرائيلية من الكلمات التي ينقلها هرتزوج عن اللفتنانت كولونيل بيني نائب قائد منطقة الجولان ، الذي رأى أثناء تحركه من وادي الأردن إلى نافاك في السابع من أكتوبر « مشاهد أفزعته .. أيمكن أن يكون هذا هو جيش الدفاع الإسرائيلي ؟ فأمامه كانت وحدات شاردة من جيش مهزوم ،. وأوقف احدى الوحدات الفارة بأن وقف في منتصف الطريق وراح يذكر الضابط المسئول بصورة حادة بعقوبة الجبن في وجه العدو حتى فى جيش الدفاع الإسرائيلي وكان واضحاً له أن الجيش الإسرائيلي يكون في حيرة من أمره عند الانسحاب » .

وفي نفس الوقت كانت عناصر من فرقة الاحتياط التي يقودها الميجور جنرال بيليد ، والتي كانت مخصصة في الأصل لجبهة قناة السويس ، قد وصلت قادمة من جنوب إسرائيل ، وكان الجنرال موشى بيليد وهو ضابط نظامي قد استقال لتوه من منصبه كقائد لكلية القيادة والأركان العامة ، ولم تكن هذه الفرقة حديثة التشكيل مزودة بالعتاد بدرجة طيبة ، فقد أعطيت دبابات شيرمان كان بعضها لا يزال بمدافعه القديمة عيار ٧٥ مم ، واندفع تشكيلها الأمامي ، وهو اللواء ١٩ المدرع على طريق العال من عين جيف وماجان وسرعان ما تبعه اللواء ١٤ المدرع وامتلأت الطرق الإسرائيلية المؤدية إلى هضبة الجولان بناقلات الدبابات المحملة والاتوبيسات والسيارات المدنية (وكان بعضها مغطى بالوحل كنوع من التمويه) المليئة بجنود الاحتياط الذين كانوا يحاولون يائسين الوصول إلى وحداتهم أو مجرد الوصول إلى الجبهة بصورة ما ، وبوجه عام ، كانت هناك حالة من الارتباك ، وبينما تم دفع كثير من المتطوعين إلى المعركة فإن الأغلبية كانت بطيئة في وصولها .

وفى السابع من أكتوبر قام موشى ديان بزيارة جبهة الجولان وجعلته الصورة التى تلقاها يعود إلى تل أبيب في حالة مزاجية متشائمة ، وتقدم لرئيسة الوزراء جولدا مائير بتوصية مفادها أن تنسحب القوات الإسرائيلية من الهضبة لتشكل خطاً دفاعياً إلى الشرق مباشرة من حافة جرف نهر الأردن ، مع تشكيل خط دفاعى أقوى عند النهر نفسه . وقبل أن يغادر الجبهة كان قد أصدر أوامره بإغلاق طرق الجرف والتجهيز لنسف جسور نهر الأردن .

وحوالى الساعة ١٧٠٠ استدعت مائير الجنرال بارليف إلى مكتبها في تل أبيب ، وأطلعته

على توصيات ديان ، وأوفدته إلى الجولان ليرى ما يمكن عمله . ووفقاً لرواية هرتزوج فقد قال ديان : « جولدا ، لقد كنت مخطئاً في كل شيء ، إننا نتجه إلى كارثة ، سيكون علينا أن ننسحب من مرتفعات الجولان إلى حافة الجرف المطل على الوادي . وفي الجنوب في سيناء حتى الممرات ، ثم نقاتل حتى آخر رصاصة » ووصل بارليف إلى نهر الأردن حوالي الساعة ٢٠٠٠ وقام بجولة في المنطقة ، وتحدث إلى القادة والجنود وبث الثقة فيهم ، وأصدر أوامره بشن هجوم مضاد فى اليوم التالى وساعد هدوؤه وحسمه فى استقرار الروح المعنوية كثيراً . وتم تكليف الجنرال لانر بمسئولية دفاعات وادي الأردن الأعلى .

وفي نفس الوقت ، وعلى الجانب السوري بعد ظهر السابع من أكتوبر ، عقد مؤتمر على مستوى عال في قطنا ، وهى مقر القيادة الميداني السوري ، وحضره الفريق طلاس واللواءان شكور وناجي جميل « قائد سلاح الطيران » وغيرهم من كبار الضباط . وتقرر وقف تقدم القوات السورية في الجزء الجنوبي من الهضبة ، وهو واحد من أكثر القرارات إثارة للاهتمام والدهشة خلال الحرب . فبهذا التوقف غير الضروري ضاعت قوة دفع الهجوم ، وكان يصعب استعادتها من جديد . فلو لم تتوقف الطوابير السورية حوالى الساعة ١٧٠٠ عندما كان لا يزال هناك ساعة باقية من النهار ، لكان بمقدورها أن تصل إلى حافة الجرف ، بل وربما إلى نهر الأردن نفسه ، واستمر التوقف السوري طوال الليل ؟ وخلال ذلك الوقت ، وصل المزيد من الدبابات والمدافع والقوات الإسرائيليـة (كان الإسرائيليون يعانون من نقص في الذخيرة والدبابات والمدافع ، كما كانوا قد خسروا أكثر من ٢٥٠ قتيلاً) . وقرر السوريون أن يتقدموا مرة أخرى ، ولكنهم كانوا قد أضاعوا فرصتهم الأولية .

وقد اعترف لي الفريق طلاس بأن هذا الأمر قد صدر بالفعل ، ولكنه لم يوضح ملابساته ، واكتفى بالقول بأن : « الوقت ليس مناسباً بعد لمناقشة أسباب هذا القرار » وليس من المرجح أن يكون هذا الأمر راجعاً لأي من الأسباب التي يقولها الإسرائيليون مثل فقدان السيطرة أو ارتفاع الخسائر أو نقص الوقود أو تداعي الروح المعنوية . فرغم الخسائر الفادحة . ظلت شبكات اللاسلكي الميدانية تعمل بصورة طيبة ، وتلتزم الصمت إلا بالنسبة للكلمات الشفرية ، وإبلاغ « النطاقات » وتوضيح مواقع العدو ، واصدار الأوامر ، كما كانت هناك روح معنوية قتالية جيدة . ويتمثل أحد الأسباب المحتملة في أن القوات كانت قد تقدمت خارج غطاء حائط دفاعها الجوي ، وبدأ سلاح الجو الإسرائيلي يتدخل في القتال . فحتى لو كان السوريون قد وصلوا إلى نهر الأردن ، لكانوا قد أصبحوا تحت رحمة سلاح الجو الإسرائيلي المتفوق عليهم ، كذلك ، ربما كانت هناك رغبة في استواء خط الهجوم ، حيث كان بعض الطوابير يتقدم على الطوابير الأخرى . بما يجعلها مكشوفة للهجمات على أجنابها . وبالاضافة إلى ذلك ونظراً لفشل المشاة ، كانت هناك ثغرة في سفوح التلال الشمالية ، قال قائد سلاح الطيران السوري انه لا يستطيع إغلاقها للحيلولة دون

هجوم مضاد اسرائيلي من هذا الاتجاه . وربما كان هناك أيضا شيء من التردد والجبن في المستويات العليا من القيادة . وربما يكون الأمر مزيجاً من كل هذه الأسباب . وأياً كان التفسير ، فإنه كلف السوريين هضبة الجولان ، التي ربما كان باستطاعتهم الاستيلاء عليها خلال ٣٠ ساعة . أما عن قدرتهم على الاحتفاظ بها ، فتلك مسألة أخرى .

ولم تكن كل الوحدات السورية قد أطاعت الأمر بالتوقف ، ولكن الفرقة الأولى المدرعة أطاعته واستقرت في منطقة خسنية ، مع عناصر من الفرقة الخامسة مشاة ، وتعثر لواء الفرقة الأولى المدرعة الذي كان قد استولى على نافاك ، وبحلول الظلام كان قد طرد من المنطقة بواسطة اللواء ٧٩ المدرع الإسرائيلي الذي تحرك من جسر بينوت ياكوف ، وكان لواء تال آخر من الفرقة الأولى المدرعة قد انحرف جهة الغرب قليلاً لتفادي نافاك واللواء ٧٩ المدرع الإسرائيلي . ووصلت إحدى كتائبه إلى مقر الجمارك على طريق دمشق . على مسافة أربعة أميال من جسر بينوت ياكوف ، فقط لكي تنعزل هناك حيث راحت التعزيزات الإسرائيلية تصل من وادي الأردن لتقضي على هذه الكتيبة .

وإلى الشمال من القنيطرة ، استمر القتال بين الفرقة السابعة مشاة السورية واللواء السابع المدرع الإسرائيلي الذي كان يحتل موقع بوستر . وحوالي الساعة ٢٢٠٠ هاجم السوريون مرة أخرى ، ولكنهم اضطروا للتوقف بعد ثلاث ساعات من القتال الشرس ، ودون اهتمام بالخسائر التي تكبدوها ، عاد السوريون للهجوم مرة أخرى على موقع بوستر حوالي الساعة ٠٤٠٠ من اليوم التالي ، الثامن من أكتوبر قبل ظهور الضوء مباشرة . ولكن بنفس النتيجة . وخلال هذا القتال الليلي ، ترجل جنود المشاة السوريون من مركباتهم ، وراحوا يجوسون في ميدان القتال وهم يحملون قواذف « آر . بي . جي - ٧ » التي كبدت الإسرائيليين خسائر في دباباتهم .

ومساء السابع من أكتوبر ، أصدر الجنرال هوفي أوامره للجنرال بيليد بشن هجوم في الثامن من أكتوبر والاندفاع إلى طريق التابلاين ، ولكن الإسرائيليين ما كانوا مستعدين . فكثير من الدبابات والمركبات كان توقف بسبب الأعطال الفنية وهي في طريقها إلى الجولان . واستقرت الفرقة الأولى المدرعة والفرقة الخامسة مشاة السوريتان في منطقة خسنية ، التي تحولت إلى مركزهم الإداري الرئيسي ، ومركز التزود بالوقود . وكان هناك قتال مختلط ، ولكن لم يكن هناك تقدم كبير للأمام ، وفي قتال دار بعد الظهر على طريق اليهودية . صادف اللواء ٧٩ المدرع الإسرائيلي وقتاً عصيباً حيث خسر ثلاثة قادة كتائب وخمسة من قادة السرايا التسع ، دون أن يكسب أي أرض .

وفي الشمال . وخلال ليلة السابع / الثامن من أكتوبر ، هاجم السوريون مرة أخرى على الطريق المؤدي إلى واسط ، ومع كتيبتي مشاة ، ظلوا عاجزين عن التقدم للأمام . ومع ذلك ، وفي ضوء نهار الثامن من أكتوبر قاموا بمحاولة أخرى ، وقام لواء مدرع سوري وقوات الحرس الجمهوري بهجوم يتسم بالتصميم في نفس الاتجاه ، فقط لكي يتوقف قبل

موقع جبل الشيخ . وفي الثامن من أكتوبر كان اللواء ١٧ المدرع الإسرائيلي لا يزال يقاتل بعنف على طريق اليهودية . بينما إلى الجنوب منه ، كان اللواء ١٩ المدرع الإسرائيلي قد بدأ يتقدم في الساعة ٠٨٣٠ على طريق العال . وعن هذا القتال ، قال ضابط اسرائيلي معلقاً : « كانوا يطلقون النار ويخطئون . وكنا نطلق النار ونصيب الأهداف » ومع ذلك لم يتم إحراز أي تقدم ، وبالتالي تم دفع اللواء ٢٠ المدرع الإسرائيلي إلى الجانب الجنوبي بشيء طفيف من النجاح . وفي صباح نفس اليوم تمكن اللواء ١٤ المدرع التابع للجنرال بيليد من اخراج السوريين من رامات ماجشميم . ووصل إلى طريق التابلاين واندفع عليه ليصل إلى جوهادر في الساعة ١٣٠٠ ، وأوقفه السوريون المسلحون بقواذف آر . بي . جي ـ ٧ وصواريخ ساجر .

وبعد ظهر الثامن من أكتوبر ، قامت ثلاث مجموعات مدرعة سورية بالهجوم مرة أخرى على موقع بوستر ، حيث تحركت على جبهة عريضة على الوادي إلى موقع جبل الشيخ ، ومرة أخرى أوقف الإسرائيليون هذا الهجوم . وإن كانوا قد تكبدوا خسائر . وفي تلك الليلة ، شنت الفرقة السابعة مشاة السورية هجوماً آخر ، امتد على جبهة عرضها ستة أميال واستمر عدة ساعات ، ولكن السوريين كانوا ببساطة يخطون إلى منطقة مخصصة « لقتل الدبابات » . فبقايا الكتائب الثلاث في اللواء السابع المدرع الإسرائيلي استمرت تحتل المرتفعات ، وظلت في مواقع مواتية لها . ولكنها كانت تقترب من استنزاف قواها بالكامل . فرغم الوعود ، لم تكن التعزيزات من الدبابات والمدافع والجنود قد وصلت بعد .

وقد قال الصحفي جيرالد سيمور في وصفه لزيارة قام بها لهضبة الجولان في الثامن من أكتوبر ، إن مركبة من كل اثنتين على الطريق إلى الجولان كانت مركبة مدنية محملة بالجنود الإسرائيليين الشبان في طريقهم للانضمام إلى وحداتهم . ويوضح ذلك أن التعبئة الإسرائيلية لم تكن قد اكتملت بعد ، رغم أن الأولوية كانت لهذه الجبهة ، واستطرد سيمور يقول إنه كان يبدو أن خط الدفاع الإسرائيلي قد استقر إلى الجنوب مباشرة من نافاك ، حيث رأى بطارية اسرائيلية من المدافع ذاتية الحركة عيار ١٥٥ مم تقصف المركبات السورية التي كانت تحاول امداد القوات السورية في القنيطرة . وسرعان ما ردت المدفعية السورية ، مما جعل البطارية الإسرائيلية تغير موقعها على عجل . وأدت القذائف إلى اشتعال النيران في الأعشاب ، وتصاعدت سحب الدخان نحو الشرق فوق رءوس السوريين . وكان ما زعمه الجنرال هوفي مساء الثامن من أكتوبر من « أننا قد حققنا تقدماً » زعماً سابقاً لأوانه فرغم أن السوريين لم يتقدموا كثيراً في ذلك اليوم . فإن الإسرائيليين أيضا كانوا يتوقفون كلما حاولوا التقدم ، باستثناء صغير واحد في الجنوب .

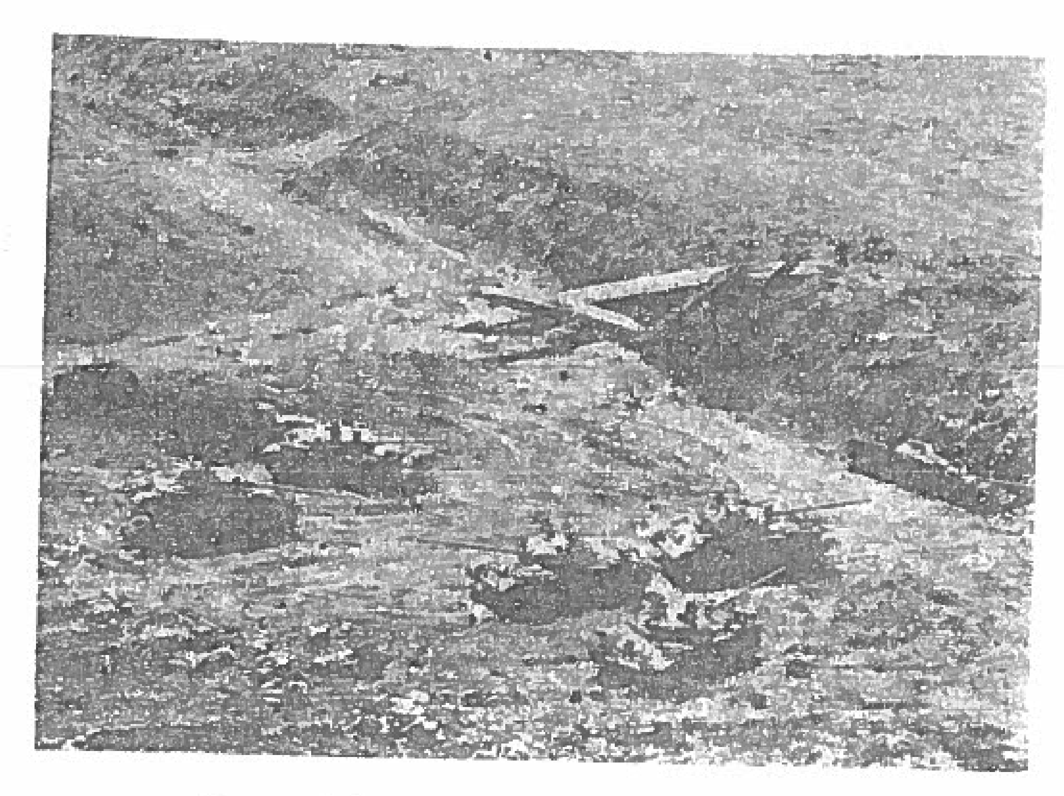
وصباح التاسع من أكتوبر ، وعندما انتهت فترة التردد في المستويات العليا السورية ، تحرك السوريون لمهاجمة السنديانة ، ولكن تم ايقافهم بواسطة اللواء ٧٩ المدرع الإسرائيلي الذي حال دون قيامهم بتعزيز أو إنقاذ الوحدة السورية الموجودة في مقر

الجمارك . وخلال بعد الظهر ، تقهقر السوريون ، ولم يعد من مقر الجمارك سوى أربع دبابات سورية ، وتقدم اللواء الإسرائيلي جنوباً إلى رامتانيا على طريق التابلاين .

وفي الجنوب ، بدأ الإسرائيليون يطوقون منطقة خسنية ، التي كان السوريون يتركزون بها ، فمع دفع مزيد من القوات الإسرائيلية على طريقى العال واليهودية إلى طريق التابلاين ، اضطر الإسرائيليون الفرقة التاسعة مشاة السورية إلى التزحزح جنوباً لتلافي الحصار . وفي الساعة ١١٠٠ ، كان اللواء ١٩ المدرع الإسرائيلي قد وصل إلى منطقة مرتفعة إلى الجنوب الشرقى من خسنية ، بينما فشل اللواء ٢٠ المدرع فى اقتحام تل فارس الذي يشرف على ثغرة رافد .

وفي التاسع من أكتوبر ، دخل سلاح الجو الإسرائيلي المعركة ، مما مكن اللواء ١٤ المدرع من الوصول إلى طريق وقف إطلاق النار . ومرة أخرى ، فشل اللواء ٢٠ المدرع في الاستيلاء على موقع تل فارس الحيوي . (وتم بعد ذلك الاستيلاء عليه في المؤخرة بالمشاة السائرين على الأقدام) . وفشلت الهجمات الأولى التي شنها اللواءان ١٧ و١٩ المدرعان قبل الظهر على خسنية ، وكان السوريون قد حولوا المنطقة إلى موقع دفاعي حصين بالاستخدام البارع لأسلحتهم المضادة للدبابات . وفي الساعة ١٦٠٠ ، صدرت أوامر للواء ١٩ المدرع بشن هجوم آخر على خسنية ، وفي هذه المرة ، ومع مزيد من معاونة المدفعية وبعض المعاونة الجوية ، وبالتطويق من الخلف ، تمكن اللواء الإسرائيلي من وقف لواء سوري كان يتقدم من الجنوب الشرقي ، وبحلول المساء ، كان جزء من الفرقة الأولى المدرعة والفرقة الخامسة مشاة قد صارا فى مصيدة فى خسنية فلم ينجح سوى لواء واحد من الفرقتين في الانسحاب شرقاً للهروب من المصيدة ، ومع حلول الظلام ، كان اللواء ٧٩ المدرع الإسرائيلي يلتف من الشمال الغربي للاستيلاء على تل رامتانيا المطل على خسنية ، بينما كان اللواء ١٧ المدرع على طريق التابلاين بحيث كان يغلقه ، على حين كانت الألوية ١٤ و١٩ و٢٠ المدرعة التابعة للجنرال بيليد تقترب من الجنوب ، وفي النهاية تمكن اللواء ١٩ المدرع من اختراق الدفاعات السورية ليدخل منطقة خسنية ، إلا أن السوريين ظلوا يحتفظون بأجزاء منها .

وفي الشمال ، ظهرت عند فجر التاسع من أكتوبر سبع طائرات هليكوبتر سورية فوق ميدان معركة السلسلة الحمراء ، وأنزلت أربع منها قوات كوماندوز بالقرب من بوكاته ، خلف السلسلة الحمراء . وأقلق ذلك الإسرائيليين بأكثر مما يعترفون . وفي الساعة ٠٦٠٠ ، شن السوريون مرة أخرى هجوماً على موقع بوستر وموقع جبل الشيخ ، وعلى السلسلة الحمراء بينهما . ومن الشمال ، حاول الحرس الجمهوري الاندفاع وراء موقع جبل الشيخ للوصول إلى الروم خلف موقع السلسلة الحمراء ، وفي هذا القتال ، اختلطت الدبابات الإسرائيلية بالسورية ، ويقول هرتزوج انه في هذا القتال تمكنت « كتيبة أقى من تدمير قوة [الحرس الجمهوري] التي ثبت أنها متواضعة جداً في ميدان القتال » . وفي



دبابات سورية بعد إصابتها في الخندق الإسرائيلي المضاد للدبابات وحوله بالقرب من السلسلة الجبلية الحمراء .

عمال الإصلاح الإسرائيليون يصلحون دبابات اصيبت خلال القتال على جبهة الجولان يوم ١١ اكتوبر ١٩٧٣ .



ذروة معركة السلسلة الحمراء في التاسع من أكتوبر بعث العميد عمر أبراش القائد العام للفرقة السابعة مشاة برسالة إلى قيادته الميدانية في قطنه ، يقول فيها إنه لم يتبق له سوى سبع دبابات فقط ، وتلقى رداً يقول : « أعد تنظيم القوات وهاجم » وفي نهاية المطاف ، عاد العميد ابراش بأربع دبابات فقط من بين حوالي ٢٣٠ دبابة دخل بها المعركة . وتم استدعاؤه وانتحر بعد ذلك .

ويقول هرتزوج إن اللواء السابع المدرع الإسرائيلي ظل « يقاتل أربعة أيام وثلاث لّيال دون لحظة واحدة من الراحة ، وتحت نيران متواصلة وفي المتوسط ، لم يكن قد تبقى لكل دبابة سوى ثلاث أو أربع قذائف » . وكان قائد اللواء يريد الانسحاب . ولكن تم اقناعه بالصمود . وبعد ذلك بوقت قصير ، انضم للقتال ضابط ومعه ١١ دبابة من لواء باراك ، حيث وصل « بالضبط بينما كان اللواء السابع على وشك الانهيار ، حيث لم يكن باقياً به سوى سبع دبابات من بين العدد الإجمالي الأصلي الذي كان قرابة ١٠٠ دبابة » ، وعندئذ بدأ السوريون ينسحبون وراح الإسرائيليون يتبعونهم بحذر في الوادي ، وادي الدموع ، ويزعم الإسرائيليون أنه كان هناك نحو ٢٦٠ دبابة ومئات من المركبات المدرعة الأخرى والمدافع التي كان قد أصابها الدمار أو تركها أفراد أطقمها . وبحلول الليل كان الإسرائيليون قد عبروا خط وقف إطلاق النار ، وإلى الجنوب مباشرة ، كان الجيب الإسرائيلي في القنيطرة لا يزال محاصراً . وهكذا ، انتهت معركة السلسلة الحمراء ، التي اقترب السوريون من كسبها بدرجة كبيرة ، والتي أساءوا إدارتها بدرجة بالغة ، وإن كانوا قد قاتلوا خلالها بعنف وشجاعة ربما ليس هناك ما يضارعها في التاريخ العسكري السوري .

وفي العاشر من أكتوبر تزايد الضغط الإسرائيلي على السوريين . ففي المعركة من أجل القنيطرة ، وبعد قصف مدفعيّ قصير ، اندفعت الدبابات الإسرائيلية وقد عادت إلى استخدام تكتيك الهجوم السريع بالمواجهة ، على طريق دمشق ثم إلى مركز البلدة . وسقطت في أيديهم بعد قتال استمر ساعة ، وتم إطلاق سراح الإسرائيليين الذين كانوا محاصرين داخلها . وكان الإسرائيليون يتمتعون بميزة أن دباباتهم كانت تستطيع المناورة بحرية حول القنيطرة ، حيث كانت الأرض خالية من الألغام وهكذا ، كان بمقدورهم استخدام مهاراتهم في الحرب المتحركة ضد السوريين ، وبحلول منتصف يوم العاشر من أكتوبر كان الإسرائيليون قد عبروا خط وقف اطلاق النار من عدة أماكن .

وفي الجنوب ، استولى اللواء ٢٠ المدرع الإسرائيلي في الساعة ٠٣٠٠ ، على تقاطع طرق القنيطرة ـ رافد ، بينما كان اللواء ١٩ المدرع لا يزال يخوض قتالاً بالقرب من خسنية ، بعد أن توقف قبل تل كودنة ، وفي الساعة ٠٤٠٠ ، عاد اللواء ١٩ المدرع للهجوم ، حيث تحرك خلال تل فازرة إلى تل كودنة . ولكن بحلول ذلك الوقت كان السوريون قد تلقوا أمراً بالانسحاب ، وأفلت كثير من دباباتهم ومركباتهم من المصيدة الإسرائيلية .

وبحلول مساء العاشر من أكتوبر ، كانت هضبة الجولان خالية من القوات السورية ، باستثناء بضعة جيوب قليلة مثل ذلك الذي في تل فارس . ومن بين نقاط المشاه الأمامية الإسرائيلية الأصلية ، وعددها ١٧ نقطة . نجحت جميعاً في الصمود ، باستثناء أربع نقاط ، ويزعم الإسرائيليون أن السوريين تركوا خلفهم ٨٦٧ دبابة مدمرة أو مهجورة ، وعلى سبيل المثال لم يعد سوى ١٤ دبابة سورية من الهجوم على طريق العال .

وذكر الصحفيون أنه خلال القتال من أجل خسنية ، كان مستوى الاخلاء الطبي الإسرائيلي جيداً ، حيث كانت طائرات الهليكوبتر تسرع للأمام لنقل الضحايا ، ولكن كان عدد الجرحى كبيراً بصورة تفوق طاقة عربات الإسعاف ، واستخدمت سيارات النقل لاخلائهم ، وكان هناك الضجيج المستمر للقذائف المنفجرة بينما كانت المدافع السورية تطلق نيرانها على الطوابير الإسرائيلية ، بالإضافة إلى أصوات نعيق سيارات الإسعاف . وحيث لم تصدر أية أرقام اسرائيلية رسمية عن أعداد الخسائر ، فإن هذه الخسائر التي كان يبدو أنها فادحة قد أثارت شائعات واسعة تبعث على القلق ولم ير الصحفيون كثيراً من الأسرى السوريين .

وفي القتال الذي دار يومي التاسع والعاشر من أكتوبر ، صادفت الدبابات الإسرائيلية أوقاتاً عصيبة بسبب فرق اصطياد الدبابات من السوريين ، والتي كانت تطلق صواريخها بدقة بالغة من مواقع في خنادق . وذكر الصحفيون الذين زاروا ميادين القتال أنهم رأوا كثيراً من دبابات سنتوريون المحترقة ، وبها ثقب صغير حفره الصاروخ في برجها ، وقد التفت عليها أسلاك توجيه الصاروخ وحتى مع ذلك ، فقد أشاد الإسرائيليون كثيراً بالدبابات سنتوريون ، ولكنهم ما كانوا يثقون كثيراً في مقدرة أطقم الدبابات السورية أو أطقم مدافعهم .

وحتى ذلك الوقت كان السوريون يعملون بصورة مستقلة تماماً ، متجاهلين مستشاريهم السوفييت ولم يسمح للروس بدخول غرفة العمليات بمقر القيادة الميدانية للإطلاع على خريطة المعركة ، إلا في وقت ما في العاشر من أكتوبر . وبدأت مجموعة من كبار الضباط السوفييت بقيادة جنرال سوفييتي تعمل في مقر القيادة . وعندما رأوا الموقف ، أقنعوا السوريين على الفور بتغيير هدفهم من نهر الأردن إلى القنيطرة التي كان الإسرائيليون قد استعادوها لتوهم ، وبسحب قواتهم إلى خط ساسا الدفاعي لإحداث توازن في الموقف . ونظراً للعمليات الفاشلة والخسائر الفادحة ونظراً لأن الإسرائيليين كانوا يندفعون إلى الأجناب فيما يبدو ونظراً لأن القوة السورية الموجودة في الجنوب كانت تواجه خطر التطويق ، فقد وافق اللواء شكور على وجهة نظر السوفييت ، وصدر الأمر بالانسحاب في أوائل فترة بعد الظهر .

إلا أن السوريين قاموا في الساعات الأولى من صباح ١١ أكتوبر ، بمحاولة أخيرة لاستعادة القنيطرة ، ولكنها لم تكلل بالنجاح ، وبالتالي فقد استمر الانسحاب ، الذي كان

يجري في أماكن أخرى بطول الجبهة . ومن هذه المعركة الأخيرة ، من أجل القنيطرة ، تعرضت مفارق الطرق الواقعة إلى الشرق منها إلى قصف سوري عنيف ومستمر ، وخسر الإسرائيليون كثيرا من شاحناتهم التي كانت تنقل الذخائر والامدادات إلى دباباتهم الأمامية ، وشنت الطائرات الإسرائيلية ضربة جوية على السوريين وهم ينسحبون على الطريق على مسافة حوالي ميلين شرقي القنيطرة . وسرعان ما امتلأ الطريق بدبابات ت ـ ٦٢ المدمرة أو المهجورة في مجموعات تضم الواحدة منها أربع دبابات ـ اثنتان مدمرتان واثنتان مهجورتان ، وبعضها كانت محركاته لا تزال تدور .

وجنح لواء اسرائيلي جنوباً حول القنيطرة نحو طريق دمشق ، في محاولة لمهاجمة السوريين المنسحبين من الخلف ، ولكنهم تمكنوا من الهرب . وبحلول المساء . كان هذا التشكيل قد تجاوز خط وقف اطلاق النار بحوالي أربعة أميال ، وبوجه عام ، فإن الانسحاب السوري ليلة العاشر وخلال يوم ١١ أكتوبر كان منظماً بدرجة معقولة ، والقول بأن الانسحاب كان هزيمة نكراء هو قول يتعذر اثباته ، رغم أنه تم التخلي عن كثير من المركبات . ويقول هرتزوج ، « ان الانسحاب الذي نفذه [السوريون] إلى داخل سوريا كان منظماً ومنضبطاً . ويوم ١١ أكتوبر قام وزير الدفاع ديان ، الذي كان في حالة مزاجية تختلف تماماً عن حالته في السابع من أكتوبر ، بزيارة أخرى بطائرة هليكوبتر إلى هضبة الجولان ليعلن أن « الجيش السوري قد تحطم » وقال لي ضابط كبير في المخابرات السورية إن ضابطاً إسرائيلياً أسيراً قام باستجوابه قال إنه في الثامن من أكتوبر . قال ديان له ولغيره من الضباط وقتئذ إنه سيتناول الغداء معهم في نادي الضباط بدمشق يوم ١١ أكتوبر ، وكان ذلك سابقاً للأوان قليلاً . وعندئذ انتقلت الأولوية إلى الجبهة المصرية .

وعلى هذه الجبهة الإسرائيلية الشمالية أيضا ، وخلال الأيام الثلاثة الأولى من الحرب أطلق السوريون حوالى ٢٠ صاروخاً من طراز « فروج » على سهل جزريل وسهل الحولة ، مما أسفر عن بعض الخسائر في الأرواح والعتاد وفي ليلة التاسع / العاشر من أكتوبر قام الفدائيون الفلسطينيون الذين كانوا يعملون من الأراضي اللبنانية بإطلاق حوالي ٣٠ صاروخاً على أهداف وراء الحدود الإسرائيلية مباشرة .

وفي البداية ومثل الإسرائيليين ، كان السوريون مفرطين في الثقة ، حيث كانوا يشعرون بأنهم لا يتفوقون عددياً على الإسرائيليين فحسب (بنسبة عشرة إلى واحد في المشاة ، و٢٠ إلى واحد في المدفعية ، و ١٢ إلى واحد في المدرعات) . بل إنهم أيضا أكثر تفوقاً في القتال على المستوى الفردي . ومن المؤكد أن الضباط من الرتب المتوسطة والدنيا وجنودهم قد قاتلوا بشجاعة وتصميم فائقين ، ولكن يبدو أن الضباط من الرتب العليا هم الذين كانوا يفتقرون إلى الخيال والاحساس بالمعركة ، وعادة ما يتم التركيز بأكثر من اللازم على أخطاء المهزومين ، وإغفال جوانبهم الجيدة ، وكان هذا هو الحال مع الجندي السوري الذي يتمتع بشجاعة رفيعة المقام ، ويستحق الثناء بوجه خاص أولئك الذين هاجموا مواقع

السلسلة الحمراء مراراً . وينبغي أن نتذكر أنهم كادوا يخترقون اللواء السابع المدرع الإسرائيلي ، الذي كانت تعزيزاته بطيئة وكان الإسرائيليون على وشك الانسحاب في اليوم الرابع من القتال ، ولم يبقوا في مكانهم إلا عندما وصلتهم بضعة تعزيزات من الدبابات ، وربما كان التأخير بضع دقائق أخرى يعني اختراق السوريين لهم بدلاً من ذلك .

ولا ينبغي أن نفترض بصورة آلية أنه بمجرد أن وصل الإسرائيليون إلى درجة نشاطهم المألوفة ، فقد كان من غير الممكن وقفهم ، فوصول التعزيزات كان بطيئاً ، وكانوا يرتبكون بوجه عام عندما يحرمون من المعاونة الجوية ـ البرية المتوقعة ، وكانت هناك حالات كثيرة للذعر والتردد فى جانبهم ، ولكن الحظ كان دائماً فى جانبهم في اللحظة الأخيرة ، ولسوء حظ السوريين ، فإن الشجاعة وحدها لا تكفي لكسب المعارك ، فمن الضروري أن يكون هناك قدر من الحظ .

وكانت خطة الخداع السورية الأصلية قد جعلت الجنرال هوف يعتقد أن الهجوم السوري الرئيسي سيتم على طريق دمشق ، وليس من خلال ثغرتي كودنة ورافد ، وبناء على ذلك ، فقد وزع القوات المتاحة له في البداية بطريقة خاطئة ، ومن المثير للاهتمام أن الروس قد نصحوا السوريين بالهجوم عبر خط وقف إطلاق النار بتشكيلاتهم المدرعة فى الأمام على أن تتلوها عندئذ فرق المشاة لاختراق الثغرات ، ولكن الفريق طلاس فعل العكس تماماً ـ وكانت النتيجة فادحة .

ومثل كثير من دول الشرق الأوسط الأخرى كان السوريون مصابين « بجنون الدبابات » الشائع . فقد كانوا يركزون ثقتهم على المدرعات التي لم تكن تتمتع بمزايا في هضبة الجولان التي كان يتعذر السير فى جانب كبير منها . كذلك فإن الدبابات تكون مكشوفة لتكتيكات الكمائن في هذه الأرض الوعرة . إنها أرض ينبغي أن يلعب المشاة دوراً أكبر جداً فيها ، لقد كان عصيان المشاة عقبة في وجه السوريين .

وكان شبح هزيمة ١٩٦٧ يلقى بظلاله على القيادة العليا السورية ، وربما كان ذلك عاملاً نفسياً هاماً في قرار التوقف في السابع من أكتوبر حين لم يكن مطلوباً سوى مواصلة الهجوم قليلاً للوصول إلى نهر الأردن . وقال لى الفريق طلاس إنه كان يعتبر نهر الأردن « الحدود الطبيعية لسوريا » ولم يكن السوريون يفتقرون إلى التصميم ، وقد عارض الجناح العسكرى بشدة النصيحة السوفيتية بالتقهقر إلى خط ساسا لإنقاذ الجيش على حساب الأرض والعتاد . ولم يوافقوا على هذه النصيحة إلا بأقصى قدر من التردد من جانب العناصر السياسية في القيادة العليا ، ومرة أخرى لابد أن شبح ١٩٦٧ قد أثر على هذا القرار .

وكان عامل نفسي آخر يتمثل في تجريد القوات من كل أجهزة الراديو . فعلى العكس من الإسرائيليين ، لم يكن بمقدور السوريين الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية لمعرفة كيف تسير

الأمور . كذلك فإن مقار القيادة والوحدات الميدانية كانت تضم « ضباط توجيه سياسي » (على النمط السوفييتي) ، موجودين أساساً لمراقبة التخريب من أي نوع .

وفي نظر الإسرائيليين ، فإن أحد الأسباب الرئيسية لفشل السوريين كان يتمثل في أنهم استخدموا قواتهم المدرعة بصورة مجزأة ، بدلاً من تركيزها عندما كان بمقدورهم أن يحققوا مكاسب فى البداية ، وتحدث الإسرائيليون بصورة طيبة عن مهارة رجال المدفعية السورية ، وعن قوة رجال المشاة وكانت المفاجأة الكبرى للإسرائيليين هى قدرة السوريين على التحرك والقتال ليلاً بأسلحتهم المضادة للدبابات فالجندى السورى قد قطع في رأيهم ، شوطاً كبيراً منذ عام ١٩٦٧ ـ ومن المؤكد أنه قد هزهم بشدة .

الفصل الثامن

الهجوم المصرى

« كانت نيران المصريين كثيفة جداً ، والتهمت النار كثيرا من الدبابات الإسرائيلية »

كولونيل بسلاح المدرعات الإسرائيلى

فى الجنوب ، وعلى جبهة قناة السويس ، كانت الأيام الخمسة الأولى من حرب أكتوبر أياماً من الإنجازات الهائلة للمصريين ، ولكن تلتها خمسة أيام أخرى من الحذر والتردد . وبدا الأمر كما لو كانت قوة الدفع المصرية قد نفدت ، فوقف جنودهم بأقدام مثقلة على الضفة الشرقية ، عاجزين عن التقدم للأمام أكثر من ذلك . وأصبحت هذه « الوقفة العسكرية » - وهو تعبير جديد دخل المفردات العسكرية - محرجة بصورة متزايدة للمصريين بعد نجاحهم الأولى . وبحلول العاشر من أكتوبر ، كان لدى الفريق أول إسماعيل حوالى ٨٠,٠٠٠ جندى و٧٠٠ دبابة على الضفة الشرقية ، وباستثناء الشاطىء الشرقى للبحيرة المرة الكبرى ، كان يحتل شريطاً يبلغ عمقه أكثر من عشرة أميال بطول القناة بأكملها من الناحية الفعلية . وكانت قواته ترابط بشكل مريح تحت غطاء حائط الدفاع الجوى ، وتغطيها المدفعية بعيدة المدى الموجودة فى مواقع ثابتة على الضفة الغربية للقناة . واعتبر إسماعيل أن جيشيه يحتلان مواقع دفاعية قوية جيدة ، بالمشاة وأسلحتهم المضادة للدبابات فى الأمام ، بينما تبقى المدرعات فى الخلف ، وكان مطمئنا إلى أنهما سيكونان « الصخور التى تتحطم عليها الموجات الإسرائيلية » .

ومن الناحية الأخرى ، كان رئيس الأركان الفريق الشاذلى يريد مواصلة الهجوم شرقاً بسرعة للاستيلاء على الممرات الثلاثة الرئيسية بينما لا يزال الإسرائيليون فى حالة الصدمة والارتباك وعدم التنظيم . وكان يدعو إلى ذلك منذ البداية . فنشأ خلاف حاد فى وجهات النظر بين الجنرالين . وكان الشاذلى يريد القيام بهجوم مدرع بطول الطريق الساحلى ، والقيام بجولة أخرى من غارات وكمائن القوات الخاصة المنقولة بطائرات الهليكوبتر ، والتقدم إلى الممرات باستخدام الألوية المدرعة . ولم يوافق الفريق أول إسماعيل ، قائلاً إنه ليس مستعداً لذلك بعد ، وأنه يتعين أولاً إنجاز عمل كبير جداً فى الإمدادات والتموين ، وأنه لا يملك من المعدات أو المؤن أو الذخائر على الضفة الشرقية ما يكفى لمثل هذه العملية .

وحقاً إنه فى حماسة المصريين الفائقة ، كانت سيطرتهم على إدارة النيران ضعيفة فى بعض الأوقات . وكانت الذخائر من كل الأنواع والصواريخ بحاجة إلى استكمالها ، ولكن

الارتباك فى الإمداد والتموين لم يكن مطلقاً بالسوء الذى حاول بعض الكتاب تصويره به . فعندما سألت الضباط المصريين الذين كانوا هناك وقتئذ عن هذه النقطة ، أصروا على أنهم لم يعانوا مطلقاً من النقص فى الذخائر أو الطعام أو غير ذلك من الإمدادات ، وكان الاستثناء الوحيد هو الماء . فخلال الساعات الأربع والعشرين الأولى ، كان يتعين على الجنود حمل الماء معهم فى أوعية من البلاستيك ويعبرون بها فوق الجسور الخداعية ، حتى تم فتح الثغرات فى التل الرملى الدفاعى بما يسمح بمرور عربات المياه التى تتحرك على عجلات . وبحلول اليوم الثالث ، كان قد تم مد أنابيب المياه تحت مياه القناة من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية .

كذلك ، كان الفريق أول إسماعيل الذى يتسم بالحذر متردداً فى التحرك إلى الصحراء المفتوحة خارج غطاء حائط دفاعه الجوى ، حيث ستصبح دباباته ورجاله تحت رحمة الطائرات الإسرائيلية . وكان قد تم احتجاز سلاح الطيران المصرى فى الخلف بشكل متعمد ، مع عدم إشراكه فى المعركة ، للاحتفاظ به سليماً بقدر المستطاع ، كما أن العرب كانوا يعتقدون أنه لم يعد باقياً لدى الإسرائيليين سوى ذخيرة يومين فقط ، وكان إسماعيل يأمل أن تنفد سريعاً . وعندئذ تصبح مدافعهم عاجزة .

وتعرض الفريق أول إسماعيل فيما بعد للانتقادات بسبب « وقفته العسكرية » التى استمرت من يوم ١٠ إلى يوم ١٣ أكتوبر ، لم يكن هناك خلالها بالكاد أى تقدم مصرى للأمام ، ولكنه أصر على أنها كانت فترة ضرورية لتثبيت الأقدام ليستعد خلالها بصورة سليمة للمرحلة التالية . والمرء يشك فى أن إسماعيل مثل الإسرائيليين ، كان يظن أن الحرب ستكون حرباً قصيرة ، ربما لن تستمر سوى أسبوع واحد ، قبل أن تتمكن القوى العظمى أو الأمم المتحدة من فرض وقف لإطلاق النار ، ولو كان ذلك قد حدث ، لكان المصريون قد وجدوا أنفسهم فى وضع سليم ومرضٍ للغاية ، يتيح لهم بدوره وضعاً طيباً على مائدة المفاوضات ، ولكن بدلاً من ذلك ، فقد استمرت الحرب . وقال لى الفريق أول إسماعيل فيما بعد إنه كان يقصد تماماً اتخاذ هذه الوقفة العسكرية بعد أن أنجز قفزته الأولى ، التى كانت تتمثل فى الوصول إلى طريق المدفعية ، وكان يرى أنه أنجز ذلك تقريباً بحلول التاسع من أكتوبر ، ولكنه لم يوضح تفاصيل الأمر بأكثر من ذلك .

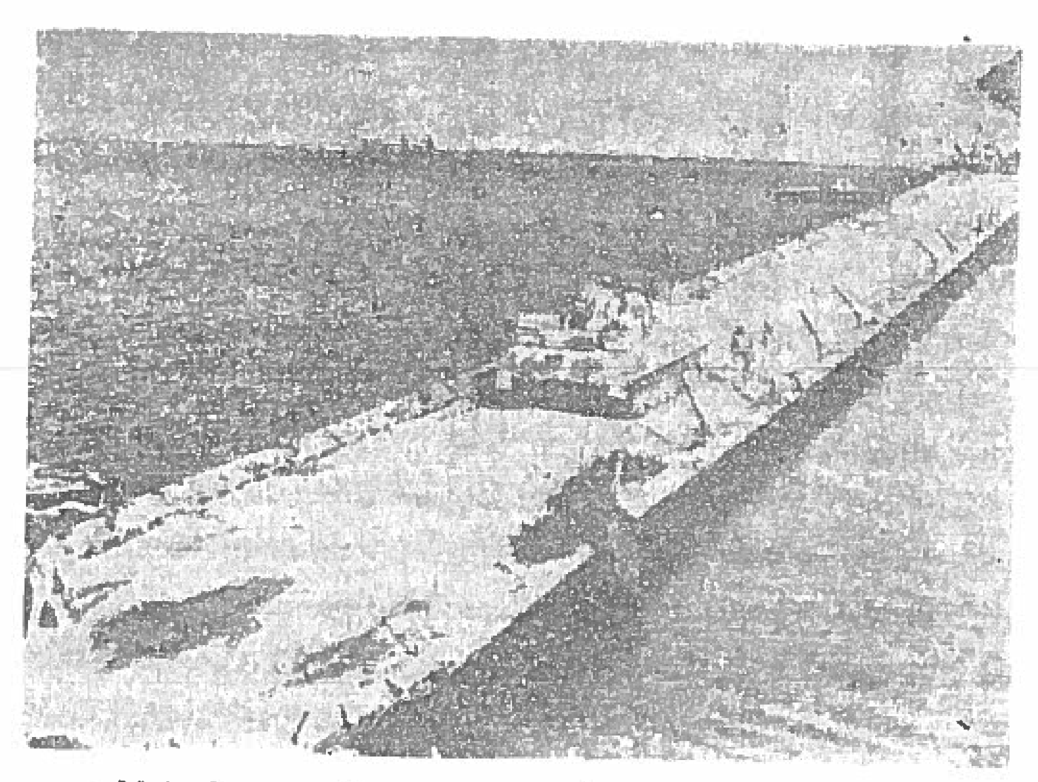
ورغم أن الصورة كانت ساكنة بالمعنى الاستراتيجى ، فإن الجبهة بالمعنى التكتيكى لم تكن هادئة بأى حال من الأحوال . ففى الجزء الشمالى ، يقول المصريون إن وحدة من القوات الخاصة تسللت على الأقدام ليلة التاسع من أكتوبر إلى منطقة بالوظة ، ونجحت فى تدمير مستودعات الوقود والذخائر والإمدادات . وفى الشمال أيضاً ، تمكن الإسرائيليون فى العاشر من أكتوبر من تحقيق الاتصال بنقطة بودابست الحصينة على ساحل البحر المتوسط ، بعد أن انسحبت فى الليلة السابقة سريتان من القوات الخاصة اللتان كانتا تغلقان الطريق إليها من الشرق لمدة أربعة أيام . وفى نفس اليوم ، احتل المصريون نقاط خط

بارليف الحصينة الثلاث المواجهة للإسماعيلية ، اثنتين فى الساعة ٠٧٥٠ ، والثالثة فى الساعة ٠٩٤٥ .

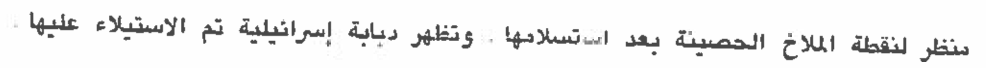
وفى العاشر من أكتوبر ، شن المصريون عدة هجمات على فرقة أدان . وفى هجوم تم بعد الظهر من هذه الهجمات ، يقولون إنهم دمروا ١٢ دبابة إسرائيلية وثلاث مركبات مدرعة أخرى . وفى الوسط حاولت فرقة شارون استعادة نقطة كاتب الخيل ، إلا أن الهجوم الأول صباح العاشر من أكتوبر قد منى بالفشل . كما فشل أيضاً هجوم ثان تم فى وقت لاحق من اليوم . عندما وقعت الدبابات الإسرائيلية وناقلات جنود المشاة نصف المجنزرة فى حقل ألغام ، مما جعل الإسرائيليين يخسرون معظم مركباتهم . وفى الظلام ، حوالى الساعة ٢١٠٠ ، تم شن هجوم إسرائيلى ثالث ، على ثلاثة محاور ، على نقطة كاتب الخيل . وفى هذا الهجوم ، تم إنزال بعض القوات الإسرائيلية بطائرات الهليكوبتر وراء الموقع المصرى ، وحاولت تطويقه على الفور . وتطور الهجوم الإسرائيلى إلى فشل ذريع ، حيث وقعت المركبات الإسرائيلية فى حقول الألغام والكمائن المجهزة ، كما تعرضت أيضاً لنيران المدفعية والهاونات . ويقول المصريون إنه فى هذه المعركة ترك الإسرائيليون مركباتهم وراح المشاة المصريون يتعقبونهم على الأقدام . ويقول المصريون أيضاً إنه لم يجرح لهم جندى واحد فى هذا الاشتباك ، وأنهم دمروا ٢٥ دبابة إسرائيلية . وتختلف الرواية الإسرائيلية ؛ ويقول هرتزوج إنه عندما هاجمت الفرقة ٢١ المدرعة المصرية فرقة شارون ، تم صدها وترك المصريون خلفهم ٥٠ دبابة فى ميدان القتال - وهى رواية ينفيها المصريون .

وفى الجنوب ، يزعم الإسرائيليون أن فرقة ماندلر ، التى تم تعزيزها بلواء مدرع إضافى ، ظلت تشن غارات متكررة على الجيش الثالث ؛ وكانت هناك بالتأكيد مناوشات فى تلك الجبهة . وإلى الجنوب من ذلك ، تقدم لواء مشاة ميكانيكية مصرى جنوباً بموازاة ساحل خليج السويس ، ولكن أحد الألوية المدرعة التابعة للميجور جنرال جافيش أوقفه ؛ ويقول المصريون إنها كانت مجرد عملية استطلاع بقوة كبيرة . وكان الجنرال جافيش ، وهو ضابط احتياط تم استدعاؤه ، قد تولى قيادة الجزء الجنوبى من سيناء ، بعد تقسيم القيادة الجنوبية إلى جزءين عقب اندلاع الحرب بوقت قصير . وكانت منطقته تشمل وادى رأس سدر ، ولكنها لا تضم ممر متلا . وفى نفس المنطقة ، تحرك لواء دبابات مصرى أخر نحو وادى رأس سدر . الذى كانت القوات الخاصة المصرية تغلقه من الناحيتين . وتعرض لواء الدبابات الذى كان خارج غطاء حائط الدفاع الجوى ، لهجوم من جانب الطائرات الإسرائيلية ، التى يزعم الإسرائيليون أنها دمرت ٥٠ دبابة .

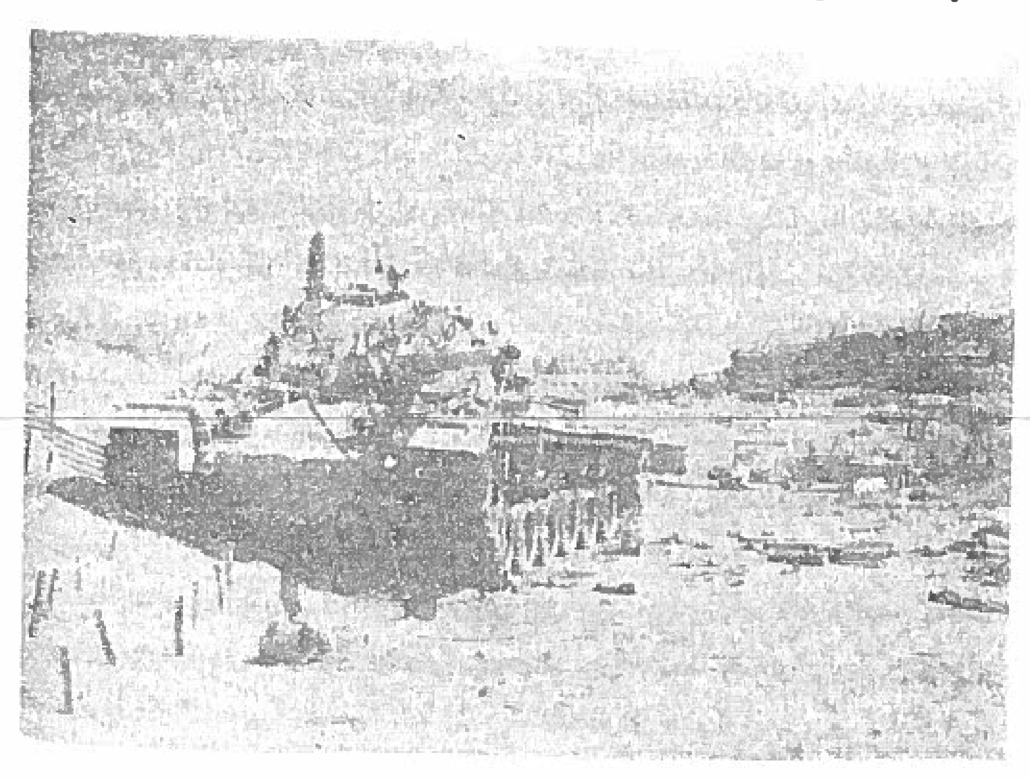
وفى العاشر من أكتوبر ، نظم المصريون أول جولة صحفية ، حيث أخذوا عدة صحفيين أجانب فى زيارة إلى الضفة الشرقية ، حيث عبروا أحد جسور الجيش الثالث ، وأكد الصحفيون أن المصريين قد وصلوا إلى مسافة حوالى عشرة أميال من القناة فى الجنوب . وأن ما يقوله المصريون يبدو صحيحاً فى جوهره . وذكروا أن المصريين ما زالوا ينقلون



المدرعات المصرية تعبر الجسر لاستغلال النجاح الذى تحقق على الضفة الشرقية .



منظر لنقطة الملاخ الحصينة بعد استسلامها . وتظهر دبابة إسرائيلية تم الاستيلاء عليها .



الدبابات والإمدادات إلى الضفة الشرقية ؛ وأن مدفعاً إسرائيلياً عيار ١٥٥ مم كان يطلق النار على الجسور من مسافة ١٥ ميلاً ؛ وأن الجسور المصرية قد أصيبت عدة مرات فيما يبدو ؛ وأن طائرة إسرائيلية حلقت فوقهم ذات مرة ، ولكن على ارتفاع لا تكاد ترى معه . وذكر الصحفيون الذين كانوا يسمعون صوت المعركة فى الشمال ، أن المصريين كانوا يقولون إن الجسور تقع خارج مدى كل المدفعية الإسرائيلية ، فيما عدا المدافع بعيدة المدى عيار ١٥٥ مم .

وفى نفس اليوم ، زار الفريق الشاذلى الضفة الغربية ، وتحدث إلى الصحفيين خلال الجولة ، وقال معلقاً فى تواضع ، « لقد سار العبور بطريقة مرضية للغاية ، وتتم العمليات وفقاً للخطط التى وضعتها القيادة المصرية » . وفى اليوم التالى ، ١١ أكتوبر ، راح يطمئن الشعب المصرى فى التليفزيون إلى أن « الجيش المصرى لن يقضم أكثر مما يستطيع مضغه » .

وفى العاشر من أكتوبر ، وصلت بطريق الجو أول إمدادات سوفيتية إلى مصر وسوريا ؛ ورغم أنها كانت تقتصر على ذخائر وقطع غيار لبطاريات سام والصواريخ الأخرى ، فإنها قد شجعت العرب . وجعلت هذه المساندة السوفيتية الفريق الشاذلى يحاول من جديد إقناع الفريق أول إسماعيل بالتقدم إلى الممرات الثلاثة ، مشيراً إلى أنه تم الاستيلاء على خمسة من مراكز القيادة الإسرائيلية الستة ، وأن وقت توجيه الضربة يجب أن يكون قبل أن يتمكن الإسرائيليون من استعادة السيطرة الكاملة على الجبهة بأسرها . وكان لدى إسماعيل ٧٠٠ دبابة فى الضفة الشرقية ؛ ورغم أنه كان على وشك تحريك ٢٠٠ دبابة أخرى فى اليومين التاليين ، فإنه كان لا يزال يخطط للاحتفاظ بالباقى فى الضفة الغربية ، لأنه كان يتوقع أن يقوم الإسرائيليون بهجوم محمول جواً على ذلك الجانب من القناة . وباختصار ، لم يكن يشعر أن لديه من المدرعات فى الضفة الشرقية ما يكفى للنجاح فى التصدى للإسرائيليين فى هجوم شامل .

وكان يوم ١١ أكتوبر هو عيد الخيام ، أو عيد الخروج اليهودى ، إحياء لذكرى النبى موسى الذى خرج باليهود من مصر منذ حوالى ٣,٠٠٠ سنة . وتتسم هذه المناسبة بدلالات دينية قوية ؛ ويقيم الجنود المتدينون خياماً صغيرة يتعين تناول كل وجبات الطعام تحتها لعدة أيام . وفى هذا اليوم ، كان هناك تراشق وقتال متقطع على طول الجبهة ، ثم راحت حدته تهدأ ، أساساً بسبب الإنهاك ونقص الذخيرة .

ومع وصول المزيد من الدبابات والتعزيزات الإسرائيلية ، تم تنظيمها على وجه السرعة فى ألوية جديدة ؛ وأطلق على بعضها أسماء تلك الألوية التى تبعثرت أو أبيدت بالفعل . وكانت كل ألوية الجنرال أدان قد أبيدت بالفعل ؛ وأعيد تشكيل فرقته بأربعة ألوية مدرعة حديثة التشكيل . وتم تعزيز فرقة شارون لتصبح خمسة ألوية ، وفرقة ماندلر لتصبح أربعة ألوية . وسميت فرقة أدان مجموعة العمليات ١٣١ ، وفرقة شارون مجموعة العمليات

٤٥ . وفرقة ماندلر مجموعة العمليات ٢٥٢ . وبالمثل ، فإن تسمية الألوية تمت بصورة عشوائية للإرباك . وتشكلت أيضاً فرقة مدرعة رابعة ، وبقيت تحت قيادة الجنرال جونين مباشرة ، كما تشكلت فرقة أخرى تحت قيادة الميجور جنرال إسرائيل تال .

وفى الدوائر العسكرية الإسرائيلية العليا ، استمر النقاش حول ما إذا كان ينبغى السماح للقوات الإسرائيلية بمحاولة عبور قناة السويس . وكان أحد المؤيدين الرئيسيين لذلك هو الجنرال شارون ، الذى كان يريد أن يتولى قيادة مثل هذه العملية . وأصبح أكثر إصراراً ؛ وراح يقول إنه إذا ما أعطيت له قوات كافية ، فإنه سيستطيع خلال ٤٨ ساعة أن يفتح ثغرة فى حائط الدفاع الجوى المصرى ، وأن « يفتح ثغرة فى السماء » . وكان شارون فى الأصل ضابط مظلات ، وليس ضابط دبابات ؛ وكانت فكرته موضع انتقادات عنيفة من جانب جنرالات المدرعات مثل أدان (قائد سلاح المدرعات ، الذى أصبح شارون يتشاجر معه الآن بشكل سافر) وماندلر ، وبطبيعة الحال جونين الذى كان القائد العام لشارون . ولم يكن يؤيد شارون سوى البريجادير تامير البعيد ، الذى كان يحث على السماح لشارون بتنشيط « عملية الغزالة » على الفور بينما لا يزال الفريق أول إسماعيل يقوم بعملية نقل قواته المدرعة إلى الضفة الشرقية .

وكانت هناك خطة إسرائيلية للقيام بهجوم مضاد عبر القناة منذ عام ١٩٦٨ ، حتى قبل أن يتولى شارون مسئولية القيادة الجنوبية . وكانت الخطة المعروفة باسم عملية الغزالة ، تقضى بالعبور فى واحدة من ثلاث نقاط ـ بالقرب من القنطرة ، أو بالقرب من الدفرسوار ، أو إلى الشمال مباشرة من ميناء السويس . وأقيمت طرق أو دروب مستتيمة تمتد من هذه النقاط حتى طريق الإمداد ، يمكن أن تجر عليها الجسور اللازمة حتى « رقعة من الأرض » ، طولها ٧٠٠ متر وعرضها ١٥٠ متراً ، محفورة فى ظل التل الرملى الدفاعى الأولى . وكان قد تم تقليص سمك هذا الحاجز الرملى عمداً ، بحيث يمكن دفع الرمال المتبقية بالبولدوزرات بسرعة إلى القناة . ولم يأخذ الإسرائيليون هذه الخطة مأخذ الجد بدرجة كبيرة . ولم تكن استعداداتهم لمد الجسور قد قطعت شوطاً بعيداً ، وإن كانوا قد جمعوا من المعدات ما يكفى لإقامة جسرين ، أحدهما من وحدات « اليونيفلوت » والآخر من نوع بايلى العادى . وليلة التاسع / العاشر من أكتوبر ، تم دفع أطواف الجسور للأمام من منطقة الطاسة إلى ظل تل يعرفه الإسرائيليون باسم « يوكون » إلى مسافة نحو ستة أميال إلى الجنوب الغربى ، حيث تم تركيبها وتحميلها على عربات نقل منخفضة بحيث تكون جاهزة لجرها .

ويوم ١١ أكتوبر ، نوقشت خطة العبور فى مقر قيادة جبهة الجنرال جونين ، الذى اقترح أن يكون عبور قناة السويس عند النقطة المجهزة بالقرب من الدفرسوار . واعترض شارون وأدان على ذلك ؛ فقد كانا يريدان العبور فى أماكن أخرى لتحقيق المفاجأة . وقال كلاهما إن

هناك كثيراً من الثغرات فتحها المصريون فى الحاجز الرملى الأولى ويمكن استخدامها فى هذا الغرض . إلا أن الجنرال جونين أشار إلى أن ذلك سيعنى خوض معركة أولاً . واستبعدت نقطة القنطرة المجهزة ـ التى كان يفضلها أدان لارتباطها بشبكة جيدة من الطرق فى الضفة الغربية ـ بسبب عدد قنوات الرى وحزام الزراعة الكثيف فى المنطقة . وفى ذلك الوقت ، كان الإسرائيليون يعتقدون أن للمصريين حوالى ٩٠٠ دبابة على الضفة الشرقية . وكانت هذه الدبابات ، باستثناء تلك التى تدخل ضمن تشكيلات المشاة ، تضم كثيراً من دبابات الفرقتين المدرعتين ـ الفرقة الرابعة فى الجنوب والفرقة ٢١ فى الوسط ـ ولواءى الدبابات المستقلين ـ اللواء ٢٥ فى الجنوب واللواء الثانى فى الوسط . وكان الإسرائيليون واثقين تقريباً من أنه لم يكن هناك تواجد مصرى فعلى فى الشاطىء الشمالى الشرقى للبحيرة المرة الكبرى ، وهى النقطة الفاصلة بين الجيشين الثانى والثالث المصريين .

وفى يوم ١٢ أكتوبر ، توجه الجنرال بارليف إلى مقر القيادة العامة حاملاً اقتراحاً بعبور القناة بالقرب من الدفرسوار ، وبالنسبة لهيئة الأركان العامة ، كان يبدو أن هناك ثلاثة بدائل :

أولاً : القيام بهجوم كبير على رءوس الجسور المصرية ، وهو مالم يكن الإسرائيليون مستعدين له بعد ، حتى يتم التوصل إلى مرحلة أكثر حسماً فى جبهة الجولان .

ثانياً : عبور القناة والتخلص من بعض قطاعات حائط الدفاع الجوى المصرى فى الوسط بين الجيشين المصريين .

ثالثاً : انتظار الهجوم المصرى المتوقع ، الذى كان ينبغى أن يبدأ ، وفقاً للمبدأ السوفييتى ، يوم ١١ أو ١٢ أكتوبر ، والتصدى له عندئذ وهزيمته فى حرب متحركة ، يمكن بعدها القيام بالعبور فى وجه مقاومة أقل .

وفى هذا الاجتماع ، اشتبك موشى ديان والجنرال العازر فى جدال غير مجد وغير واضح حول من منهما ينبغى أن يصدر القرار . وكان يبدو أن كليهما يحاول إلقاء التبعة على الآخر . ولم يكن ديان يرحب بفكرة بارليف على الإطلاق ؛ وكان يعتقد أنها لا يمكن أن تكون عاملاً حاسماً ، ولن تحقق وقف إطلاق النار ، وترك الأمر إلى العازر لكى يتخذ قراراً . وأصر العازر على أن يصدر القرار عن ديان ، وهو موقف غريب إلى حد ما من رئيس للأركان . ويحاول هرتزوج أن يفسر هذا المأزق بقوله ، « كان [ديان] يرى أنه ليس من شأن العازر أن يتخذ قرارات بناء على اعتبارات سياسية ؛ وأشار إلى أنه إذا كان العازر يستحسن هذا التحرك من الناحية العسكرية ، فإن عليه أن يتخذ قراره ويتصرف على أساسه » .

ودفع هذا التردد بديان لأن يعرض الأمر على رئيسة الوزراء ومجموعة صغيرة من الوزراء الذين كانوا يشكلون وزارة الحرب . وعقد فى ذلك المساء اجتماع طارىء للوزراء والجنرالات ، طرح فيه الجنرال بارليف خطته المقترحة لعبور القناة بالقرب من الدفرسوار . وبينما كان الاجتماع مستمراً ، تواترت الأنباء بأن الفريق أول إسماعيل بدأ

ينقل مدرعاته الباقية إلى الضفة الشرقية . واتفق على أن تنتظر العملية المقترحة إلى ما بعد حسم المعركة المنتظرة ، ولكن مع استمرار الاستعدادات للقيام بالعملية ، وتم تخصيص فرقة ادان للقيام بالعبور : وتم في ذلك المساء سحب جزء منها من منطقة المعركة لكي يستعد للعبور .

ومن يوم ١١ أكتوبر فصاعداً ، كان الفريق أول إسماعيل يتعرض لضغط سياسي شديد للقيام بهجوم على الإسرائيليين لتخفيف الضغط على الجبهة السورية . ويومي ١٢ و١٣ أكتوبر ، بدأ يستعد على مضض ، حيث نقل إلى الضفة الشرقية الجزء الأعظم من دباباته المتبقية ، وكانت كلها حوالي ٣٠٠ دبابة . وكان الإسرائيليون يعتقدون ، وهو مالم يكن اعتقاداً خاطئاً تماماً ، بأن هذه الدبابات كانت من فرق المدرعات والمشاة الميكانيكية الثلاث التي كانت تشكل الاحتياطي الاستراتيجي لإسماعيل . ويكتب هيكل بشكل يبعث على الارتباك ، أنه بحلول يوم ١٢ أكتوبر « كانت الفرقة ٢١ المدرعة ، خلف الجيش الثاني ، قد عبرت القناة ، وكذلك عبر لواء من الفرقة الرابعة المدرعة ، خلف الجيش الثالث » ، وبحلول مساء يوم ١٣ أكتوبر ، كان عدد الدبابات المصرية على الضفة الشرقية يصل إلى نحو ١,٣٠٠ دبابة . وحسب تشكيل القتال المصري . فإن ذلك كان يترك نحو ٤٠٠ دبابة أو أكثر على الضفة الغربية للقناة . ورغم أن بعض هذه الدبابات كان يشكل صلب فرق المدرعات والمشاة الميكانيكية التي يحتفظ بها المصريون في الخلف للدفاع عن العاصمة والدلتا ، فإن عدداً منها كان متوقفاً بسبب الأعطال العادية . كما كان قد تم إرسال عدد منها لاستعواض الخسائر والأعطال في الضفة الشرقية . وفي الواقع ، كانت الضفة الغربية مجردة من المدرعات إلى حد كبير .

وفي يوم ١٢ أكتوبر ، أنزل الروس قمر استطلاعهم الصناعي الثاني « كوزموس ٥٩٧ » الذي كانوا قد أطلقوه في السادس من أكتوبر ، دون أن يتجاوز نصف الوقت العادي له في مداره . وأتاح هذا القمر الصناعي معلومات جيدة عن معارك يومي ١٠ و١١ أكتوبر ، وأوضح مواقع التكتل الأكبر للمدرعات . وقال لي الشاذلي فيما بعد إنه كان يعتقد « أن الإسرائيليين قد حشدوا ما يقدر بنحو ١,٠٠٠ دبابة في شبه جزيرة سيناء ، من بينها ٨٠٠ دبابة قد تم دفعها إلى القتال بالفعل ، منها ٤٠٠ دبابة تم تدميرها » . ولم تكن معلوماته خاطئة بدرجة كبيرة .

ومع وصول المدرعات المصرية إلى الضفة الشرقية ، اشتبك بعضها في معارك صغيرة بالدبابات كانت تدور وتلتف بطول الجبهة . ولكن بوجه عام كان يتم التعامل مع الهجمات الإسرائيلية بواسطة جنود المشاة بأسلحتهم المضادة للدبابات ، بما اضطر الإسرائيليين للبقاء على مبعدة ، ويوم ١٢ أكتوبر قامت فرقة شارون بمحاولة أخرى للاستيلاء على كاتب الخيل . وفي الساعة ١٠٠٠ ، تحركت سرية تضم ١٤ دبابة وحاملة جنود مدرعة لمهاجمة هذه النقطة ، فقط لكي يتم تدميرها بالكامل ، حسب ما يقوله المصريون .. وفي نفس

الوقت ، حدث صدام دبابات فى منطقة القنطرة ، قال المصريون إنهم أصابوا خلاله ١٣ دبابة و١٩ مركبة مصفحة إسرائيلية أخرى ، وكبدوا الإسرائيليين خسائر فى الأرواح تزيد على ٢٠٠ جندى ، أساساً بنيران المدفعية والأسلحة المضادة للدبابات التى يطلقها المشاة وحقول الألغام .

وفى يوم ١٣ أكتوبر قام المصريون بعدة هجمات استطلاعية بطول الجبهة تمهيداً لهجومهم الرئيسى ، الذى كان سيمثل أساساً حركة كماشة واسعة على بير جفجافة . وفى نهاية اليوم ، زعم الإسرائيليون أنهم أصابوا ما يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ دبابة مصرية ، ولكن فى تلك المرحلة كانت البيانات الحربية الإسرائيلية لا تزال موضع شك ، ومن الناحية الأخرى ، كان المصريون حتى ذلك الوقت ينتهجون « سياسة ضبط النفس المتعمدة » فى بياناتهم ، وتمشياً مع هذا الموقف الهادىء ، لم يذكروا بأي حال استخدام الإسرائيليين النابالم بصورة واسعة ، كما لم يذكروا أعداد الخسائر المصرية الناجمة عن ذلك .

وفى الساعة ٠٦٠٠ ، استولى المصريون على النقطة الحصينة فى خط بارليف الواقعة عند الطرف الشمالى للبحيرة المرة الكبرى ، المعروفة للمصريين باسم تل السلام وللإسرائيليين باسم ماتسميد . وبذلك ، لم يكن باقياً سوى نقطة حصينة واحدة هى تلك المقابلة لبور توفيق ، والتى يعرفها الإسرائيليون باسم بيير . واستسلمت هذه النقطة أيضاً فى الساعة ١٢٣٠ من نفس اليوم ، بحضور ممثلى الصليب الأحمر الدولى والصحفيين . وكانت الحامية ، المؤلفة أصلاً من ٤٢ فرداً ، تضم خمسة ضباط و٣٢ جندياً ، وكان هناك ١٥ جريحاً وخمسة قتلى . وداخل نطاق النقطة الحصينة ، كانت هناك ثلاث دبابات من طراز باتون ؛ وكان واضحاً أن المدافعين لديهم وفرة من الذخيرة . وذكر ممثلو الصحافة أنهم سمعوا أصوات معارك على مسافة حوالى ٢٠ ميلاً إلى الشمال ، وأن صاروخاً مصرياً من طراز سام ٦ أسقط طائرة إسرائيلية أثناء عملية إخلاء هذه النقطة الحصينة .

وفى يوم ١٣ أكتوبر ، طار الجنرال جونين وبرفقته الميجور جنرال وايزمان ، وهو ضابط مستدعى كان قبل ذلك قائداً لسلاح الجو ، إلى مقر قيادة شارون بالقرب من الطاسة لعقد اجتماع لبحث كيفية التعامل مع الهجوم المصرى المتوقع ، وكان الاقتراح أنه إذا كان هجوماً بالمواجهة ، فسيصده شارون وماندلر ، أما إذا شق المصريون طريقهم نحو بير جفجافة ، فستضربهم فرقة أدان من الأجناب . وبناء على ذلك ، تم تحريك أحد ألوية أدان إلى المدخل الغربى لممر الخاتمية . أما أى هجوم مصرى على ساحل البحر المتوسط ، أو على شاطىء خليج السويس ، وهما خارج غطاء حائط الدفاع الجوى المصرى ، فسيتم التعامل معه بسلاح الجو الإسرائيلى . وكان شارون لا يزال يريد مهاجمة المصريين أولاً وعبور القناة ، ولكن لم يؤخذ برأيه . وقال جونين إنه سواء هاجم المصريون أم لا ، فإنهم سيستعدون للقيام بالعبور ليلة ١٤ أكتوبر . وكان الجنرال بارليف قد أوصى فى اليوم السابق ، ١٢ أكتوبر ، بإعفاء شارون من قيادته بسبب عصيانه الأوامر يوم التاسع من

... وقال العازر إنه سيتشاور مع ديان الذي رد بأن ذلك من شأنه أن يخلق مشكلات سياسية ، وأرجىء الموضوع .

وبينما كان الجنرال ساندلر قائد الفرقة المدرعة فى الجنوب ، فى طريقه إلى هذا المؤتمر فى مقر قيادة شارون ، أمر ضابط بطاريته الهليكوبتر فى موقع متقدم بقدر الإمكان ، ونزل منها وركب إحدى المركبات التابعة لمقر قيادته المتقدم ؛ وكان قد تحرك لتوه حوالى الساعة ١١٠٠ عندما أصاب صاروخ مصرى المركبة التى كان فيها ، فلقى مصرعه . وكان ساندلر قد هبط بطاريته الهليكوبتر بصورة تفتقر إلى الحكمة على مرأى من المصريين . كما تحدث بعدها على أجهزة اللاسلكى « المفتوحة » ، وبعد ٣٠ ثانية ، كان قد لقى مصرعه . واستمر الجدال حول ما إذا كانت قذيفة عشوائية هى التى قتلته بالصدفة ، أم أن المصريين سمعوه على موجات اللاسلكى وهاجموه بصورة متعمدة . وأوكلت قيادة فرقته إلى البريجادير كالمان ماجن ، الذى كان فى الجزء الشمالى من الجبهة حتى يوم ١٢ أكتوبر .

وإذا كان الإسرائيليون قد فقدوا جنرالاً فى المعركة ، فقد فقد المصريون فى نفس اليوم ضابطاً بنفس الرتبة : ففى الساعة ٠٧٢٠ ، أصيب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى بنوبة قلبية ، تم نقله للعلاج . وتولى القيادة رئيس أركانه ، الذى ظل يتولاها حتى يوم ١٥ أكتوبر ، عندما وصل القائد الجديد ، اللواء عبد المنعم خليل ، الذى كان قائداً لمنطقة القاهرة العسكرية .

ويقول المصريون إن قواتهم الخاصة قامت بكمين ناجح إلى الجنوب مباشرة من الطاسة ليلة يوم ١٣ أكتوبر . وكانت هذه الغارات التى تقوم بها القوات الخاصة تسبب قلقاً للإسرائيليين ؛ وبينما كان المصريون يلتزمون الصمت بشكل غامض إزاء هذه الأنشطة ، فإن الإسرائيليين كانوا يرفعون الصوت فى زعمهم أنهم كبدوا المصريين خسائر فادحة فيها . ويقول هرتزوج إنه خلال الأسبوع الأول من الحرب ، قتل الإسرائيليون ٤٥ من الكوماندوز المصريين وأسروا ١٥٥ آخرين . وينفى المصريون هذه الأرقام . ولكنهم لا يقولون الأرقام الصحيحة .

وتتضح خصائص الروح الهجومية المصرية مما قاله الضباط الإسرائيليون من أنه خلال تلك الفترة من ٦ حتى ١٣ أكتوبر ، كانوا يصدون خمس هجمات مصرية يومياً فى المتوسط . وكان الأسلوب المفضل لدى المصريين هو الزحف ليلاً إلى المرتفعات المطلة على طريق المدفعية ، ليكونوا جاهزين لهجوم الفجر . وكان ذلك الهجوم يتم بعد قصف مدفعى يستمر نصف ساعة . وعندئذ ، وتحت غطاء من نيران المدفعية ووابل من صواريخ الكاتيوشا ، تتقدم المدرعات فى أعقاب المشاة . ويقول هرتزوج إنه :

فى بعض الأحيان ، وبينما كان صف من جنود المشاة يقتربون ، وبعد أن يتكبدوا عدداً كبيراً من الخسائر من نيران الأسلحة الصغيرة والمدفعية ،

فإنهم كانوا يتوقفون ؛ ثم يظهر صف ثان ، كان قد حفر خنادقه فى الرمال أثناء الليل ، ليواصل الهجوم .. وتحطمت كل هذه الهجمات المصرية بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، فى المدرعات والمشاة على حد سواء ، ولكن على الرغم من ذلك ، كان جنود المشاة المصريون يعودون للهجوم مرة بعد الأخرى ، فقط لكى تحصدهم المدرعات والمدفعية التى فى انتظارهم .

وكان ذلك إشارة رفيعة حقاً بشجاعة وتصميم الضابط والجندى المصرى فى القتال . ويصف هرتزوج هذه الهجمات بأنها « هجمات مشاة بلا عقل » على حين قال الجنرال ماجن فيما بعد إنه « حتى يوم ١١ أكتوبر ، كانت هجمات المصريين تتسم بالتصميم الفائق ، حيث كانت موجات الجنود المصريين تتبع بعضها البعض بغض النظر عن أى شىء » . وكان ماجن يواجه الجيش الثانى المصرى .

وفى الساعة ٠٦١٥ يوم ١٤ أكتوبر ، هاجمت الطائرات المصرية أهدافاً فى سيناء ، كانت تشمل بطاريات صواريخ هوك ومحطات للتشويش الالكترونى . وفى نفس الوقت ، راح أكثر من ٥٠٠ مدفع متوسط وثقيل تطلق قصفاً مدفعياً فوق رءوس الستار المدرع الإسرائيلى الرفيع الذى كان يتخذ مواقعه على مسافة حوالى ٥,٠٠٠ متر من طلائع المشاة المصريين . وفى الساعة ٠٦٣٠ ، توقف القصف وبدأ الهجوم المصرى الرئيسى . وكان يتألف من ثلاث هجمات رئيسية ، وعدد من الهجمات الفرعية . ففى الشمال ، بدأ لواءان مدرعان ، أحدهما يضم دبابات ت ـ ٦٢ ، يتقدمان من القنطرة فى اتجاه رمانة ؛ وإلى جانبه ، تم إنزال عدد من وحدات القوات الخاصة بطائرات الهليكوبتر فى منطقة المستنقعات المالحة لتغطية الأجناب . وفى الوسط ، تقدمت أربعة ألوية مدرعة على الطريق الممتد من الإسماعيلية إلى ممر الخاتمية ، متجهة إلى بير جفجافة . وفى الجنوب ، تحرك لواء دبابات نحو ممر متلا . وفى الهجمات الفرعية ، تحرك لواء مشاة ميكانيكية نحو ممر الجدى ؛ بينما إلى الجنوب من ذلك ، تحركت ثلاثة ألوية دبابات ومشاة ميكانيكية أخرى نحو وادى رأس سدر . وهكذا كان إجمالى القوات التى دخلت المعركة نحو ١٢ لواء ؛ وكان فى مواجهتهم أربع فرق مدرعة إسرائيلية . كان أكثر من ٢,٠٠٠ دبابة على وشك أن تتصادم فى أكبر معركة بالدبابات منذ الحرب العالمية الثانية (وكانت أكبر معركة دبابات فى التاريخ هى معركة كورسك ، فى ١٢ يوليو ١٩٤٣ ، التى اشترك فيها ٦,٣٠٠ دبابة ومدفع ذاتى الحركة ؛ أما فى معركة العلمين . التى بدأت فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ ، فكان لدى الحلفاء ١,٠٢٩ دبابة و٢,٣١١ مدفعاً بينما كان لدى دول المحور ٤٨٩ دبابة و١,٢١٩ مدفعاً) وحوالى الساعة ٠٨٠٠ ، وصل موشى ديان إلى مقر قيادة الجبهة فى أم خشيب ؛ وكان يشك فيما إذا كان ذلك هو الهجوم الرئيسى المتوقع ، إلا أن الجنرالات الموجودين فى الميدان ، مثل بارليف وجونين كانوا واثقين من أنه هو الهجوم الرئيسى .

وفى نفس الوقت ، كانت معركة قد تطورت فى أقصى الشمال ، عندما تحركت مفرزة من بور فؤاد حوالى الساعة ٠٣٠٠ لمهاجمة النقطة الإسرائيلية الحصينة على ساحل البحر المتوسط ، بودابست : وتمكنت من تجاوزها لإغلاق الطريق المؤدى إليها من الشرق . وكان ذلك اختراقاً مصرياً يبدو أنه شتت الإسرائيليين بنفس القدر الذى فاجأهم به . وظلت النقطة صامدة ، وتحركت قوة إسرائيلية للتصدى للمصريين . واستمرت المعركة حتى حوالى الساعة ١٠٠٠ ، عندما انسحب المصريون . وقالوا إن هذا التحرك كان مجرد هجوم مخادع ، وعاونت الطائرات القوات الإسرائيلية فى هذه المعركة التى زعموا بعدها أنهم استولوا على ٢٨ عربة مدرعة مصرية من المستنقعات المالحة وحقول الألغام المحيطة بالنقطة الحصينة . وبحلول ذلك الوقت ، كانت بورسعيد قد أصبحت معزولة ، بعد أن أدى تدخل الطيران الإسرائيلى إلى تعطيل الجسرين اللذين يربطانها بالطريق المؤدى إلى الجنوب .

وتمكن الإسرائيليون من وقف الهجوم المصرى المتجه إلى بالوظه : أما فى القطاع الأوسط ، فقد وقع صدامان كبيران . كان أحدهما فى منطقة جالان (المزرعة الصينية) حيث يزعم الإسرائيليون أن المصريين تركوا وراءهم ٩٣ دبابة فى ميدان القتال ، مقابل ثلاث دبابات إسرائيلية فحسب أصابتها الصواريخ . أما الصدام الآخر ، فوقع بين لواءين مدرعين قريباً من هذا المكان ، حيث يزعم الإسرائيليون أن الفرقة ٢١ المدرعة المصرية خسرت ١١٠ دبابات - وهو رقم يتجاوز فى الواقع العدد الإجمالى لدبابات الفرقة . كذلك ، فإن الهجومين المدرعين ، اللذين كان أحدهما نحو ممر متلا والآخر نحو ممر الجدى ، قد قابلتهما أيضاً تشكيلات المدرعات الإسرائيلية وتمكنت من إيقافهما : وإن كان الهجوم الثانى قد وصل إلى جبل شايفة فى منتصف الطريق بين ممر الجدى والقناة . أما القوة المدرعة المصرية الموجودة فى أقصى الجنوب ، والتى كانت تقوم بحركة التفاف واسعة ، فقد انحرفت شمالاً على نحو مفاجىء فى محاولة لدخول الطرف المتسع لممر متلا عن طريق عيون موسى ، إلا أنها اصطدمت بلواء مدرع إسرائيلى وجه إليها ضربات من الأجناب . وتدخل سلاح الجو الإسرائيلى ، الذى يزعم أنه دمر ٦٠ دبابة ومدفعاً للمصريين .

وبحلول ذلك الوقت ، كان الإسرائيليون قد تخلوا بالكامل عن تكتيكات الهجوم المندفع المفرط فى حماسته وتحولوا إلى تكتيكات تقليدية بدرجة أكبر . وكانت خطة جونين تقضى بالسماح للمصريين بالتقدم للأمام ، لإغرائهم بالخروج من غطاء حائط الدفاع الجوى ، وجرهم إلى كمين . وأثناء التقدم المصرى الأولى ، سقط الكثير من المواقع الإسرائيلية المتقدمة على طريق المدفعية وبالقرب منه . وظلت المدرعات الإسرائيلية تختبىء فى كمائن ، وقد أغلقت فتحاتها ، ثم عندما دخل المصريون مرمى نيرانها ، كانت الدبابات تفتح نيرانها ببضع طلقات ثم تتحرك إلى مواقع بديلة لتطلق النار ، وهكذا دواليك ، وإلى جانب الاعتماد

بصورة كبيرة على مدافع الدبابات ، فقد استخدم الإسرائيليون أيضاً وبشكل واسع الصواريخ المضادة للدبابات مثل « اس .اس ـ ١٠ » و « اس . اس ـ ١١ » بالإضافة إلى صواريخ « تاو » الأمريكية التى تم تزويد الفرق بها فى اليوم السابق ، وراحت الدبابات المصرية تقع فى كمين تلو الآخر ، وعندما توقفت هاجمتها المدرعات الإسرائيلية من الأجناب .

وبدلاً من أن تقاتل الدبابات الإسرائيلية بشكل منفرد ، أو فى مجموعات من ثلاث أو أربع دبابات مثلما كانت تفعل من قبل ، فإنها أخذت تقاتل كسرايا . فقائد السرية يحدد الأهداف ويسيطر على النيران بصورة صارمة ؛ وكانت كل المدافع تتجه إلى هدف واحد فى وقت واحد . وكانت السيطرة على النيران ودقة التصويب جيدة فى الجانب الإسرائيلى . وكانوا بوجه خاص ينتقون المركبات من طرازى « بى . آر . دى . ام » و « بى . ام . بى » التى تحمل صواريخ ساجر .

وكانت المدرعات المصرية قد دخلت القتال دون معاونة كاملة من جانب المشاة ، ولكنها أخذت معها مركبات « بى . آر .دى . ام » السوفيتية ، وهى طراز محسن من المركبة « بى . تى . آر ـ ٤٠ » ، حيث تشكلت فى فصائل تضم الواحدة أربع مركبات . وكانت ثلاث من المركبات الأربع تحمل حوامل صواريخ ساجر ، التى يمكن رفعها من المركبة لإطلاقها ، أو خفضها من جديد لحمايتها أو للتحرك . وكانت كل مركبة تحمل ١٤ صاروخاً ، ولكنها لا تستطيع أن تطلق سوى صاروخ واحد فى المرة الواحدة ؛ وكان ذلك يحد من نيران الفصيلة إلى مجرد ثلاثة صواريخ فى الدفعة الواحدة . أما المركبة الرابعة ، فكانت مركبة قيادة الفصيلة ، وكانت مسلحة بالرشاشات . واستخدم المصريون أيضاً المركبة السوفيتية المجنزرة الجديدة « بى . ام . بى » وهى حاملة جنود مدرعة ؛ وكانت تحمل أربعة صواريخ ساجر يمكن إطلاق واحد منها فى كل مرة . وكانت هذه المركبة ، التى يتألف طاقمها من ثلاثة أفراد ، مزودة بمدفع ذى ماسورة ملساء عيار ٧٦ مم . وكانت تحمل أيضاً ١٢ من جنود المشاة يستطيعون إطلاق نيرانهم من فتحات جانبية فى دروع المركبة ، التى كانت دروعاً أقرب إلى الضعف فى حد ذاتها . وكانت أنظمة التحكم البديلة تمكن من إطلاق أى من صواريخ ساجر أو المدفع ذاتى التعمير الذى يستخدم ذخيرة مضادة للدبابات : فقد كانت هناك رافعة تمكن الجندى من إطلاق صاروخ ساجر أو قذيفة « آر . بى . چى ـ ٧ » . وقال المصريون فيما بعد إن أداء المركبة « بى . ام . بى » كان جيداً فى حرب أكتوبر . وكان جنود المشاة الذين يدخلون ضمن تشكيل ألوية المدرعات يحملون تجهيزات لإطلاق صواريخ ساجر تشبه الحقيبة . وقال الإسرائيليون فيما بعد إنه بعد المعركة كانت إحدى دباباتهم من طراز سنتوريون قد التف عليها ١٤ زوجاً من أسلاك توجيه الصواريخ المزدوجة الرفيعة .

وفى يوم ١٤ أكتوبر ، دفع الإسرائيليون بمشاتهم الميكانيكية وهاوناتهم وأسلحتهم

المضادة للدبابات إلى الأمام مع دباباتهم المتقدمة . وكانت هناك سرية مشاة ميكانيكية تضم ما يتراوح بين ١٤ و١٦ حاملة جنود مدرعة أمريكية من طراز « ام - ١١٣ » كل منها مسلحة بأربعة أو خمسة رشاشات .. وكان بمقدور الجنود إطلاق النار من جوانب المركبة حيث كان متاحا لهم مجال رؤية شامل وجيد . وكانت الرشاشات الإسرائيلية تفتح نيرانها على مسافات بعيدة ضد فرق اصطياد الدبابات من المصريين عندما كانوا ينصبون صواريخهم من طراز ساجر على الأرض . حيث كانت تمطرهم بوابل من الطلقات لتشتيت انتباه الجنود القائمين على عملية التنشين . وكان يتعين على المركبتين « بي . آر . دي . ام » و « بي . ام . بي » أن تكونا ثابتتين لحظة إطلاق الصواريخ ، ويستغرق الصاروخ ساجر حوالي عشر ثوان لكي يقطع مسافة ١,٠٠٠ متر ، وهي المسافة التي ربما كانت تشكل أقصى مدى له في المعركة ؛ وإنه لجندي شجاع يتسم بالتصميم ذلك الذي يستطيع الاحتفاظ بهدف صاروخه طوال تلك الثواني وهو يواجه نيران الأسلحة الصغيرة . ولم تقلل هذه التكتيكات كثيراً من المصريين ، ولكنها كانت تميل إلى إبطال فاعلية دفعات الصواريخ المضادة للدبابات . كما أن الإسرائيليين كان قد أصبح بحوزتهم الآن قذائف شديدة الانفجار لمدافع دباباتهم ، مما ساعد على تحطيم تشكيلات المشاة .

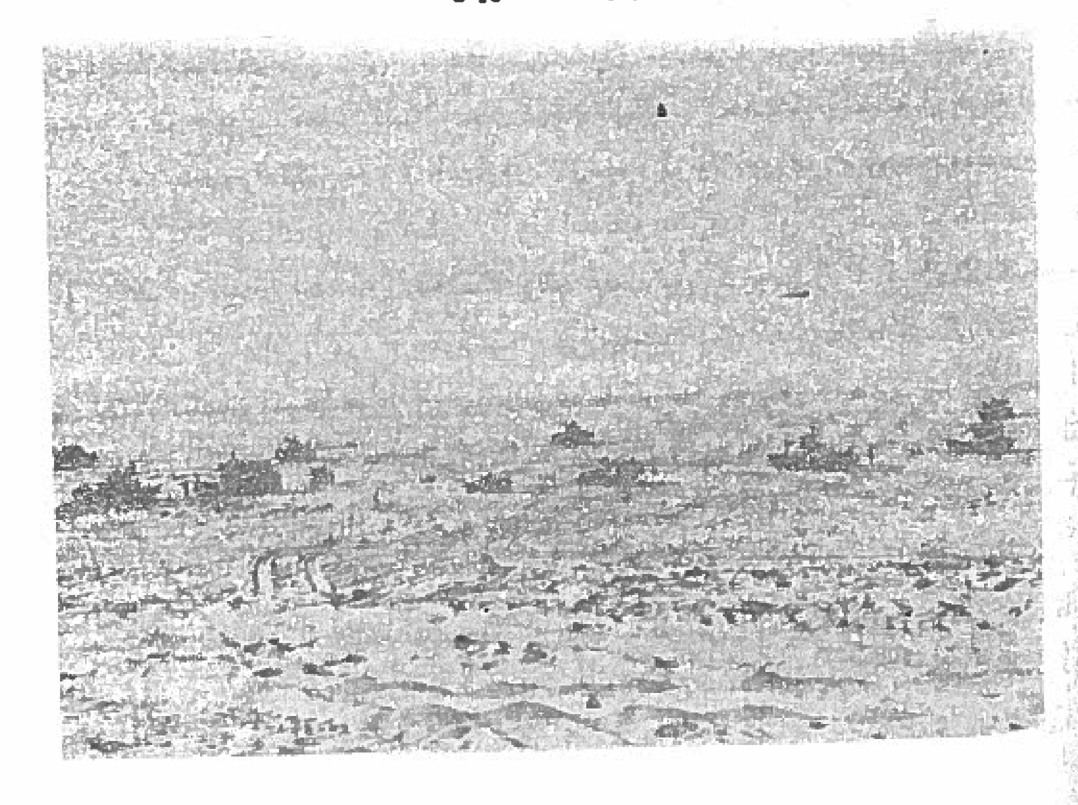
وينفي الإسرائيليون أنهم كانوا يمتلكون صواريخ « تاو » في ذلك الوقت ؛ ولكن الجنرال شارون اعترف فيما بعد بأن فرقته قامت بتوزيعها على الجنود في اليوم السابق ١٢ أكتوبر عندما راح يدرب جنوده على استخدامها . وفي تلك الحالة ، كان التدريب لمدة أربع ساعات فحسب كافياً لاكتساب كفاءة معقولة . والصاروخ « تاو » هو صاروخ مضاد للدبابات يتم إطلاقه من أنبوب ، ويتم تتبعه بصرياً ، ويتم توجيهه بالأسلاك . وهو صاروخ يمكن حمله ، ويمكن لطاقم من فردين تشغيله ، وفي فيتنام ، أثبت الصاروخ « تاو » أنه شديد الدقة ويتمتع بجهاز توجيه فعال . وأصبح واضحاً الآن أنه كانت لدى الإسرائيليين أعداد وفيرة من صواريخ « تاو » وأنهم قد استخدموها . وفي الواقع ، فإنهم اعتمدوا على صواريخهم واستخدموها بأكثر مما يعترفون ، ويقول هيكل إن « النيران الدقيقة من صواريخ اس . اس الفرنسية المتنوعة ، وأيضاً من صواريخ تاو التي وصلت حديثاً .. أوقفت المدرعات المصرية على مسافة تتراوح بين ١٢ و١٥ كيلو متراً من نقطة انطلاقها » .

وخلال معارك يوم ١٤ أكتوبر ، يقول المصريون إنهم واجهوا دبابات باتون أمريكية جديدة لم تقطع « سوى ١٨٠ كيلو متراً » وهي تقريباً المسافة من العريش حتى ميدان القتال . وإذا ما كان ذلك صحيحاً ، فلا يمكن أن يكون هناك الكثير من هذه الدبابات . وتكشف فيما بعد أن طائرة واحدة فحسب تحمل دبابات قد وصلت قادمة من الولايات المتحدة ، وهبطت في مطار اللد ، وليس في العريش ، وكانت تحمل بضع دبابات باتون (تتراوح التقديرات ما بين أربع وعشر دبابات) ومع ذلك ، فقد قال لي قائد سلاح الطيران المصري إنه في تلك المرحلة ، كانت الطائرات تحمي العريش بشكل مكثف « على كل



جنود المشاة المصريون يتقدمون مع المدرعات فى سيناء فى ١٤ اكتوبر ١٩٧٣ .

المدرعات الإسرائيلية تتقدم تحت غطاء جوى خلال المعركة التى دارت يوم ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ لعبور قناة السويس



المستويات » : ثم استطرد قائلاً : « كنا نشك فى أنه كان يجرى إنزال دبابات باتون هناك بطائرات الهيلكوبتر التابعة للأسطول السادس الأمريكى ، بعد نقلها من مخزون حلف الأطلنطى فى أوروبا » .

ويكتب هيكل : إن « تعليمات [الفريق أول إسماعيل] كانت تقضى بأن تتوغل المدرعات المصرية التابعة للجيشين الثانى والثالث إلى الممرات الثلاثة ، وأن تستولى بوجه خاص على طريق الإمداد الجانبى ، وتحييد الاحتياطيات الإسرائيلية التى تم نشرها هناك » .. وينبغى أن يضاف : أن ذلك كان من شأنه أيضاً أن يحرم الإسرائيليين من فرض سيطرتهم على الطريق مرة أخرى . وفى الساعة ١٨٠٠ ، أدرك الفريق أول إسماعيل أنه لن يحقق أهدافه ؛ وبالتالى فقد أمر قواته بالعودة إلى رءوس جسورها وإلى حماية حائط الدفاع الجوى .

وكانت الأولوية الإسرائيلية قد انتقلت من جبهة الجولان إلى جبهة قناة السويس يوم ١٣ أكتوبر وهكذا أصبح بمقدور سلاح الجو الإسرائيلى آن يهتم بميدان القتال المصرى بدرجة أكبر يوم ١٤ أكتوبر ، وإن ظلت طائراته بوجه عام خارج نطاق حائط الدفاع الجوى . ويزعم سلاح الجو الإسرائيلى أنه دمر « لواء مشاة ميكانيكية مصرياً فى الجنوب » بالقرب من وادى رأس سدر . كما كان نشطاً فى الشمال أيضاً ضد بورسعيد ، وفى معاونة نقطة بودابست الحصينة ، وكلتاهما خارج نطاق حائط الدفاع الجوى .

وكانت الطائرات الإسرائيلية تحلق فوق الرءوس خلال معارك يوم ١٤ أكتوبر ، إلا أنها لم تتمكن من التدخل بشكل مؤثر لأن الدبابات المصرية والإسرائيلية كانت معظم الوقت قريبة من بعضها البعض ، بل وفى بعض الأحيان متداخلة مع بعضها البعض . وكان المصريون لا يزالون يحتفظون بسلاح طيرانهم فى الخلف . حيث كانوا يستخدمونه أساساً فى أدوار استراتيجية أكثر منه فى المعاونة الأرضية أو الاعتراض . ونجح المصريون فى تحريك بضع بطاريات صواريخ سام ـ ٦ إلى الضفة الشرقية ، ولكن كانت توجد مشكلات فى ضبطها هناك . وعلى أية حال ، فعندما أوقف المصريون هجومهم وبدأوا فى الانسحاب ، تدخل الطيران الإسرائيلى وراح يناوشهم حتى وصلوا إلى غطاء حائط الدفاع الجوى . ويزعم الإسرائيليون أنهم دمروا ٥٠ دبابة فى هذه المرحلة . ويقول المصريون : إن طائرات الفانتوم الإسرائيلية كانت تسقط قنابل « سمارت » (وهى قنابل موجهة بدلاً من تلك التى تسقط سقوطاً حراً) التى لم تعترف الولايات المتحدة بتقديمها لإسرائيل حتى يوم ١٩ أكتوبر .

وراحت الفرق المدرعة الإسرائيلية تتتبع ببطء الطوابير المصرية المنسحبة ولكنها ظلت خارج مدى أسلحتها المضادة للدبابات مباشرة . ومكن هذا التكتيك الإسرائيليين من دفع مدفعيتهم إلى الأمام حتى صار بمقدورها أن تقصف الجسور ومنشآت حائط الدفاع

الجوى على الضفة الغربية ، وتوقفت التحركات بعد حلول الظلام بوقت قصير ، إلا أن إطلاق النار ظل مستمراً من الجانبين خلال ساعات الليل . وخلال هذا القصف للجسور لقى العميد أحمد حمدى نائب سلاح المهندسين المصري مصرعه بشظية ، بينما كان يشرف على إعادة تركيب أحد جسور الجيش الثالث .

ويزعم الإسرائيليون أنه فى قتال يوم ١٤ أكتوبر ، ترك المصريون ٢٦٤ دبابة فى ميدان القتال فى مقابل ما اعترف به الإسرائيليون من خسارة ست دبابات فقط ؛ بينما يقول المصريون إنهم دمروا ١٥٠ دبابة إسرائيلية و٤٤ طائرة . وحتى ذلك الوقت ، يبدو أن المزاعم الإسرائيلية كانت مضخمة كثيراً ، فرقم الست دبابات التى خسروها فقط لا يمكن اعتباره صحيحاً . وعلى سبيل المثال فقد قال لى كولونيل إسرائيلى بسلاح المدرعات ، وشارك فى تلك المعركة : إن « نيران المصريين كانت كثيفة للغاية ، والتهمت النار كثيراً من الدبابات الإسرائيلية » . ومن ناحية أخرى ، ورغم أن بيانات المصريين كانت متواضعة حتى ذلك الوقت ، فإنها بدأت من ذلك الوقت فصاعداً تتسم بالشطط والافراط فى التفاؤل . كان ذلك اليوم يمثل تغيراً ملحوظاً فى البيانات الحربية الإسرائيلية والمصرية على حد سواء ؛ فالأولى أضبحت أكثر دقة ، بينما أصبحت الثانية أقل دقة .

وفيما يبدو ، فإن الحقيقة هى أن المصريين ربما خسروا حوالى ٢٠٠ دبابة فى القتال (ربما مع نفس العدد من العربات المدرعة الأخرى والمدافع) وحوالى ٥٠ دبابة أخرى في الانسحاب . أما الخسائر الإسرائيلية ، فلابد أنها تجاوزت ٦٠ دبابة ونفس العدد من العربات المدرعة الأخرى والمدافع . وكان أقصى مدى وصل إليه المصريون فى تقدمهم هو ما بين الكيلو متر ١٨ والكيلو متر ٢٠ داخل ممر متلا ، ولكن فى الأماكن الأخرى ، ورغم عبور طوابيرهم لطريق المدفعية ، فقد فشلوا فى الوصول إلى طريق الإمدادات ، وهو هدفهم الأول .

وفيما بعد ، ناقشت هذه المعركة بشكل مطول مع الفريق أول إسماعيل ، وكان مصراً على رأيه بأن الولايات المتحدة حذرت الإسرائيليين من أن المصريين كانوا على وشك الهجوم ، وبالتالى كان الإسرائيليون مستعدين تماماً . وأكد أنه كان يتعرض لضغط سياسى لكى يشن الهجوم بسبب النكسات السورية ، وأنه خلافاً للشائعات المنتشرة ، فقد كان لديه من الذخائر ما يكفى أهدافه المحدودة . وأشار إلى أن مصر تمتلك مصانع ذخيرة تستطيع ملء دانات القذائف وتصنيع ذخيرة الأسلحة الصغيرة . وقال إن هدفه الرئيسى كان يتمثل فى توسيع رأس الجسر وتكبيد الإسرائيليين مزيداً من الخسائر ، ولكنه اعترف بأن جنوده الذين تقدموا خارج غطاء حائط الدفاع الجوى ، لم يحققوا الأهداف المخططة لهم . ولما كانت هناك خسائر فادحة فى الجانبين ، فقد أمر رجاله بالانسحاب إلى رءوس الجسور ، توقعاً منه لهجوم إسرائيلى كبير فى اليوم التالى ، وقال الفريق أول إسماعيل : إنها كانت « معركة انتهت بالتعادل » ولكنه قال بأنها خففت الضغط الإسرائيلى على جبهة

الجولان . وفيما بعد ، نقل عن الفريق الشاذلى أنه قال فى حديث لجنوده : إنهم فوجئوا على كل المحاور بالدبابات والصواريخ الإسرائيلية التى أوقفت تقدم كل الهجمات المصرية وأنزلت بها خسائر . ولم يكن الفريق أول إسماعيل يرى أية أهمية لمسألة عدم وجود قائد للجيش الثانى خلال هذه المعركة ، حيث أنه خلافاً لما هو الحال عليه فى إسرائيل ؛ فإن كل كبار الضباط يتعاونون مع رئيس الأركان ويدعمونه فى مسئوليته . إلا أنه كان هناك ـ فيما بعد ـ استنتاج بأن غياب القائد قد تسبب فى وقف تدفق المشاة عبر القناة .

وكان الإسرائيليون واثقين من أنهم كسبوا معركة مدرعات كبرى ضد المصريين ، وأن قواتهم المدرعة قد أثبتت مرة أخرى أن لهـا السيادة والنصر . وارتفعت معنـويات الإسرائيليين . وينبغى أن ينسب الفضل فى ذلك إلى الجنرال جونين ، وهو رجل تكتيك جيد تمكن من كبح جماح جنرالاته « المتهورين » ، واستدرج المصريين خارج غطاء حائط الدفاع الجوى ، ثم تقدم وأوقف هجومهم . ولم يسمح بأى تحرك نحو الغرب إلا عندما تأكد من أن المصريين ينسحبون . وفى نهاية اليوم ، كان المصريون ما زالوا يسيطرون على الأراضى ، التى كانت تحت أيديهم يوم ١٣ أكتوبر . وهكذا ، يمكن أن نعترف للإسرائيليين فقط بكسب معركة مدرعة فى أرض من اختيارهم ، بينما كانوا قبل ذلك يظلون فى كثير من الحالات على مسافات تصل إلى عدة آلاف من الأمتار . وكان الإسرائيليون يرون أن قوات المدرعات المصرية ضعيفة القيادة فى الحرب المتحركة ، وأن تكتيكاتها تفتقر إلى الخيال .

ومثلما توقع الفريق أول إسماعيل ، شن الإسرائيليون يوم ١٥ أكتوبر هجوماً بتسعة ألوية بطول الجبهة بأكملها ، واستمرت « معركة الدبابات الكبرى » أو بالأحرى سلسلة من المعارك . وصد المصريون كل الهجمات الإسرائيلية حتى مساء يوم ١٧ أكتوبر ؛ ولم يتقدم الإسرائيليون إلا عن طريق التسلل للأمام فى المساحات الخالية من الأرض الصحراوية . ويزعم الإسرائيليون أنهم بحلول يوم ١٧ أكتوبر ، كانوا قد دمروا ١٠٠ دبابة مصرية أخرى ؛ ولم يكن هناك شك فى أنه أصبح لديهم فجأة وفرة من صواريخ « تاو » الأمريكية التى أحدثت خسائر شديدة فى صفوف المصريين .

وكانت تنتشر فى إسرائيل شائعات مزعجة عن فداحة الخسائر فى الأرواح ، وهى الشائعات التى لم تفعل الحكومة الإسرائيلية شيئاً لتهدئتها حتى يوم ١٤ أكتوبر . فقد نشرت فى ذلك الوقت أول أرقام للخسائر ، حيث اعترفت بعدد ٦٥٦ قتيلاً حتى ذلك الوقت ؛ وهو الشيء الذى لم يوقف بالكاد مشاعر القلق المتزايد فى البلاد ، ولاسيما أنه لم تنشر أية أرقام عن الجرحى . ومن الواضح أن هذا الرقم لم يشمل خسائر معارك يوم ١٤ أكتوبر . وقال الإسرائيليون أيضاً إنهم أسروا ٤١٤ عربياً ، ولكنهم لم يوضحوا كم منهم كانوا من المصريين أو السوريين أو الجنسيات الأخرى . ويقول المصريون : إنه حتى يوم ١٤ أكتوبر ، لم يكن قد وقع فى الأسر من جنودهم سوى ما يتراوح بين ٦٠ و٧٠ جندياً فقط .

الفصل التاسع

رد الفعل العام

« إنها نهاية الهيكل الثالث »

موشى ديان لجولدا مائير

كان رد الفعل العربى إزاء اندلاع حرب أكتوبر يتسم بالحماس المتقد ، بينما كان رد الفعل الإسرائيلى يتسم بالصدمة والفزع . وكانت المفاجأة للجانبين معاً ، مثلما كانت إلى حد ما بالنسبة لحكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . كان الرئيس نيكسون متورطاً فى فضيحة ووترجيت ، ولم يكن لديه كثير من الوقت للشئون الخارجية ، حيث كان يتركها أساساً لوزير خارجيته هنرى كيسنجر . وكان هذا الأخير قد أنجز وقفاً لإطلاق النار فى حرب ڤيتنام ، وخفف من التوتر مع الاتحاد السوفيتى ، وحقق تقدماً أولياً فى هذا الاتجاه مع الصين ، ولم يكن كيسنجر ، المشغول بحل المشكلات العالمية ، قد أولى أى اهتمام خاص إلى الشرق الأوسط . كان يشعر ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين غيره ، أن حالة اللاسلم واللاحرب قد تبلورت فى ذلك الوقت ، ويمكن أن تتم معالجتها عندما يحين وقتها المناسب . ولم يكن كيسنجر يريد حرباً فى الشرق الأوسط ، حيث كان يعتقد أنها ستعرض للخطر الوفاق مع الاتحاد السوفيتى . وعندما أصبحت علامات الحرب الوشيكة واضحة ، كان عليه أن يسرع بطلب « ملف الشرق الأوسط » لكى « يقرأ لنفسه على عجل » . وفى زيارة لاحقة للقاهرة ، اعترف كيسنجر بقوله : « لم أكن قد فتحت ملف الشرق الأوسط من قبل . وكنت أتخيل أنه يمكن أن ينتظر دوره » .

وفوجئت الولايات المتحدة بدرجة أكبر ، لأنه كان معتقداً أن العرب لن يهاجموا يوم السادس من أكتوبر قبل الساعة ١٨٠٠ ، وليس الساعة ١٤٠٠ . ووضع الأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط ، الذى يتألف من نحو ٥٠ سفينة و ٢٠,٠٠٠ رجل فى حالة تأهب خاصة ، وألغيت كل أجازات النزول إلى الشاطىء . ومع ذلك ، فإن كل ما حدث على الفور بالفعل هو عملية إمداد إسرائيل سراً بالوسائل الالكترونية المضادة والصواريخ وقطع الغيار الحيوية . ولم يكن الاتحاد السوفيتى هو الآخر يريد حرباً فى الشرق الأوسط ، حيث كان يعتقد أن الهزيمة سرعان ما ستحيق بالعرب ، مما سيجعل الاتحاد السوفيتى يخسر نفوذه ومكانته فى هذا الجزء من العالم .

وفى مصر ، كان مطار القاهرة الدولى مغلقاً . وأعلنت الحكومة المصرية مناطق معينة من شرقى البحر المتوسط « كمناطق عمليات حربية » وحذرت كل السفن من الاقتراب منها .

وفى ذلك المساء فى القاهرة ، طُليت كشافات السيارات والنوافذ المضيئة باللون الأزرق ؛ وتحدث الرئيس السادات إلى الشعب فى التليفزيون . وفى سوريا ، كان رد الفعل الفورى مماثلاً لذلك إلى حد كبير : فأغلق مطار دمشق الدولى ، وتحدث الرئيس الأسد فى التليفزيون .

ورغم أنه كان هناك قدر كبير من الإثارة فى الأردن ، فقد كان هناك أيضاً ما هو أكثر من مجرد الحذر والتردد فى خوض القتال بشكل تلقائى ، فالذكريات المريرة لأحداث عام ١٩٦٧ كانت تسبب الشكوك والتردد . ورغم أن الملك حسين قد اطلع على جانب من خطة بدر ، فلم يكن قد تم إبلاغه مقدماً بموعد يوم بدء القتال ؛ وبالتالى ، كانت المفاجأة الكاملة من نصيبه هو الآخر . ولما كان متوقعاً منه أن يشكل جبهة « تهديد » ثالثة ، فقد اتصل به كل من الرئيس السادات والرئيس الأسد تليفونياً ، حيث أبلغاه أن الحرب قد بدأت وطلبا منه القيام بعمل فورى . وأمر حسين ، وهو فى حالة من التردد والحذر ، بإعلان حالة التأهب القصوى فى قواته المسلحة ، ولكنه لم يتخذ أى إجراء خلاف ذلك . منتظراً أن يرى كيف ستتطور الأحداث . وظلت الجسور المقامة على نهر الأردن مفتوحة أمام الأفراد العابرين من وإلى الضفة الغربية .

وفى العراق ، لم يكن الرئيس أحمد حسن البكر موضع ثقة الرئيس السادات . ورغم أن الرئيس العراقى ربما كان يشك فى أن شيئاً ما على وشك الحدوث . فإنه أيضا قد فوجىء ، مثله مثل غيره من الزعماء العرب والحكومات العربية . عندما سمع الأنباء من الإذاعات الأجنبية . وكانت هناك خلافات كثيرة بين العراق وسوريا المتجاورتين ؛ وكان خلافهما السياسي الرئيسى يتمثل فى أن كلاً منهما كانت تتبنى جناحاً منافساً من حزب البعث . وكان هذا التنافس يسبب حالات هروب من كل من الجانبين إلى الآخر ، وهو ما كانت تعقبه اتهامات مريرة متبادلة ، وكانت هناك خلافات حول مياه نهر الفرات ، الذى ينبع من تركيا ثم يجرى فى سوريا قبل أن يدخل العراق ،وكان السوريون قد بنوا بمساعدة السوفييت سداً على الفرات ؛ وكان العراقيون يشكون من أن السوريين يحتجزون مياهاً أكثر من اللازم ويحرمون منها المزارعين العراقيين . وعندما أمم العراق جانباً من صناعة البترول به عام ١٩٧٢ ، رفع السوريون الرسوم المفروضة على البترول المار خلال خط أنابيب التابلاين ، الذى يمتد من العراق حتى ميناء صيدا اللبنانى ، عبر الأراضى السورية .

وكانت للعراق مشكلة مع جارته الأخرى إيران ، حول الملاحة فى شط العرب . ونشأت مشكلات سياسية أيضاً مع اتساع قوة ونفوذ الشاه . بما كان يميل لأن يطغى على قوة ونفوذ العراق . وفى بعض الأوقات كان الجزء الأكبر من الجيش العراقى يرابط على الحدود مع إيران . وكانت فى العراق أيضا مشكلة أمن داخلى هائلة ، من تراث الحرب الأهلية مع الأكراد فى الجبال ، وهى الحرب التى امتدت من ١٩٦١ حتى ١٩٧٢ .

وكان العراق ، الذى يبلغ عدد سكانه نحو ٩,٢٥ مليون نسمة ، لديه أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رجل يخدمون فى صفوف القوات المسلحة ، بالإضافة إلى عدد مماثل من أفراد الاحتياط الذين يمكن تعبئتهم . وكانت هناك فترة تجنيد مدتها سنتان ، تعقبها فترة عشر سنوات فى خدمة الاحتياط . وكان الجيش مشكلاً من ست فرق - فرقتان مدرعتان وفرقتان مشاه ميكانيكية وفرقتان مشاه - مع مجموعتين من القوات الجبلية ولواء من القوات الخاصة . وكانت أسلحته ومعداته فى معظمها سوفيتية - ت - ٥٤، و ت - ٥٥ ، و بى . تى - ٧٦ و بى . تى . آر - ١٥٢ ، ومدافع ١٢٠ مم و ١٣٠ مم . أما الأسلحة الباقية ، فكانت بريطانية الصنع .

وفى السادس من أكتوبر ، تحدث الرئيس البكر تليفونيا مع الرئيس الأسد ، ولكن العلاقات كانت ضعيفة بين الاثنين . وكان الأسد يأمل أن يتمكن من انهاء قتاله مع الإسرائيليين بشكل سريع وناجح ؛ ولم يكن يريد إدخال العراقيين فى المعركة ليشاركوه أى فضل . ومن هنا ، لم تكن المحادثة الأولية مثمرة . ومع ذلك ، كانت الحكومة العراقية تريد أن تتحمل نصيبها الكامل فى « المسئولية العربية » ضد إسرائيل ؛ وفى السابع من أكتوبر ، أصدرت أمراً تحذيريا للفرقة الثالثة المدرعة ، التى ترابط فى حدحر على مسافة حوالى ٢٠٠ ميل إلى الشمال من بغداد ، للاستعداد للتحرك إلى سوريا . وفى اليوم التالى ، أعلن الرئيس البكر أنه يضع القوات المسلحة العراقية تحت تصرف القيادة المصرية - السورية المشتركة - وأرسل ثلاثة أسراب من الطائرات إلى سوريا ، واستأنف العلاقات الدبلوماسية مع إيران (وهو ما مكنه من تحريك بعض تشكيلات جيشه من منطقة الحدود الإيرانية) وأمم بعض الممتلكات البترولية الأمريكية فى العراق . وكان قد تم اقناع سوريا بقبول الهدف السياسي المحدود الذى يتمثل ببساطة فى استعادة الأراضى التى خسرتها قبل ذلك ؛ وبالتالى كانت تختلف عن العراق الذى كان يسعى وراء هدف أشمل يتمثل فى « تحرير كل الأراضى العربية » وكان ذلك ينطوى ، بطبيعة الحال ، على تدمير دولة إسرائيل . وكان هناك أيضاً الكثير من الخلافات الاستراتيجية والتكتيكية والتنظيمية العسكرية .

وأدت النكسات السورية فى أوائل الحرب إلى أن يفقد الأسد ثقته بنفسه ؛ وفى الثامن من أكتوبر ، بعث بنائب رئيس وزرائه إلى بغداد طلباً للمساعدة . وفى اليوم التالى ، وصل إلى دمشق لواء من هيئة الأركان العراقية ليرى ما المطلوب ، وطلب السوريون دبابات وقوات بأكبر أعداد ممكنة ، وبأسرع ما يمكن . وكان هذا الطلب يمثل مشكلات ، حيث لم تكن كل التشكيلات العراقية مدرعة ، كما كانت منتشرة على مناطق واسعة . فبعضها كان على الحدود الإيرانية ؛ وكلها كانت على مسافة تبعد بما يصل إلى ١,٠٠٠ ميل عن الجبهة السورية - الإسرائيلية . ولما كانت مساحة شاسعة من الأرض الصحراوية تفصل هضبة الجولان عن العراق ، فإن الإسرائيليين لم يتوقعوا أكثر من مجرد مشاركة عراقية رمزية فى هذه الحرب .

وفى نفس الوقت ، فى السابع من أكتوبر ، خلقت أنباء الهجمات العربية ، التى انتشرت كالنار فى أنحاء العالم العربى ، فورة هائلة من الحماس والأمل فى شعب ظل يتغذى على الهزيمة لفترة طويلة . وفى تلك الليلة ، عرض التليفزيون المصري طيارين إسرائيليين أسيرين ، مع فيلم يصور القتال الجوى وحطام طائرة إسرائيلية ؛ وقال المصريون : إنهم أسروا بالفعل سبعة طيارين إسرائيليين .

وفى الثامن من أكتوبر ، انتقد العقيد القذافى بشكل علنى خطة السادات للمعركة . وقال : « إننا مازلنا نختلف مع الخطط والأهداف . إننا ندعو إلى تحرير فلسطين ، ونقل المعركة إلى فلسطين فى ساعاتها الأولى ، بواسطة تكتيكات تختلف عن تلك التى يجرى بها القتال الآن » . وأثار هذا التصريح استياء السادات ، ولكن القذافى وافق على تقديم البترول والطائرات والأموال لدعم المجهود الحربى . وحسب مايقوله باجاك ، فإن ليبيا قدمت ٥٠٠ مليون دولار لدعم المجهود الحربى ، وكان ذلك يشمل تمويل استعواض ٧٠ طائرة ميج — ٢١ وغير ذلك من المعدات لكل من مصر وسوريا . وراح القذافى أيضا ، بصورة تفتقر إلى الكياسة ، يصف الملك حسين بالجبن لعدم انضمامه إلى القتال . وفى ذلك اليوم ، تم إجبار طائرة ركاب بريطانية من طراز بوينج على الهبوط فى اليمن الجنوبى ، بينما كانت فى طريقها من لندن إلى نيروبى . وكان ذلك يبين كيف كانت مشاعر تلك اللحظة تؤثر حتى على الدول العربية الأكثر تخلفاً . وأخذت وعود المساعدات العسكرية وغيرها تتدفق من المصادر العربية ؛ وفى الثامن من أكتوبر ، وصلت إلى مصر أول طائرة جزائرية ، وكانت كمجرد رمز . وتحدث العقيد عبد الغنى رئيس البعثة الجزائرية الخاصة مع السادات حول المعونات الإضافية المحتملة من الجزائر . وأعلنت الحكومة المغربية أنها ستعزز لواءها الموجود فى سوريا ؛ وفى التاسع من أكتوبر ، وعدت الحكومة السودانية بإرسال مفرزة من القوات للقتال إلى جانب المصريين .

وفى العاشر من أكتوبر ، تواترت أنباء بأن وحدات كويتية وسودانية وتونسية وجزائرية صغيرة تشارك فى القتال فى جبهة قناة السويس ؛ ولكن ذلك لم يكن صحيحاً . فرغم إعلان الوعود ، لم تكن أية وحدات قد وصلت بعد إلى مكان المعركة . وفى ذلك اليوم ، استعرض الرئيس التونسى بورقيبة وحدة مدرعة قوامها ٩٠٠ جندى قبل أن تبدأ رحلة طولها ١,٨٠٠ ميل إلى قناة السويس . وفيما بعد ، قال لى الفريق أول إسماعيل : « لسوء الحظ ، فإنهم لم يأتوا بأية مساندة إدارية لهم ؛ وبالتالى ، فقد كانوا عبئاً عسكرياً أكثر من أن تكون لهم أية قيمة ؟ ولكن كانت لهم قيمة سياسية ما » .

وفى إسرائيل ، لم يكن هناك أى حماس للحرب . فقد جاءت كصدمة عنيفة للناس ، الذين راحت أجهزة الراديو تذيع إليهم على نحو مفاجىء فى الساعة ١٤٠٠ من السادس من أكتوبر ، عيد الغفران ، أنباء موجزة عن الخطر المحدق ، وتحذرهم من البقاء فى الشوارع . وفى الساعة ١٤٠٢ انطلقت فى تل أبيب صفارات الإنذار من الغارات الجوية ؛

ولكن إذاعة الكلمات الشفرية ، التى توضح أن التعبئة تجرى ، لم تبدأ إذاعتها حتى الساعة ١٤٤٥ . وعندما حل الظلام ، كان هناك إظلام فى تل أبيب والقدس والمدن الكبيرة الأخرى ؛ ولكن الصحفيين لاحظوا وجود العديد من لافتات النيون المضاءة فى تل أبيب ، مما أثار قلقاً فى المدينة . أما مطار اللد ، الذى كان مقرراً إعادة فتحه فى الساعة ٢٠٠٠ ، فقد ظل مغلقاً .

وفى الساعة ١٨١٥ ، ألقت رئيسة الوزراء فى التليفزيون خطاباً قالت فيه : إن العرب هاجموا إسرائيل . ولكنها أضافت بشكل واثق من نفسه : « إن قواتنا قد انتشرت حسب الخطة الموضوعة لمواجهة الخطر المحدق » . وفيما بعد . فى الساعة ٢١٠٠ ، تحدث وزير الدفاع ديان إلى الإسرائيليين فى التليفزيون أيضاً . وكان المزاج العام يتسم بالقلق ، وليس بالاكتئاب ؛ فالجميع كانوا يتوقعون أن تكون حرباً قصيرة تنتهى بالانتصار ، ومرة أخرى مثلما حدث فى عام ١٩٦٧ ، تلقن العرب درساً يضعهم فى مكانهم تماماً جزاء طيشهم وتهورهم . وفى معرض استهواء الرأى العام العالمى ، راح وزير الخارجية الإسرائيلى أبا إيبان ، الموجود فى نيويورك ، يقول : إن الهجوم العربى هو بمثابة « بيرل هاربور ثانية ، فضلاً عن الكفر وتدنيس المقدسات » وكان ذلك يتناقض بشدة مع تصريحه عقب الضربة الوقائية الإسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧ مباشرة ، والذى التمس فيه عذراً لإسرائيل فى أن تهاجم دون إنذار ، بقوله : « على أية حال ، فإن القذائف العربية عبرت حدودنا أولاً » .

وخلال الجزء الأول من الحرب ، كانت الرقابة تحول دون معرفة الإسرائيليين بمدى خطورة الموقف بشكل كامل . وكانت رئيسة الوزراء ووزير الدفاع وغيره من المسئولين وكبار ضباط جيش الدفاع الإسرائيلى يدركون الموقف ، وحتى لوقلنا بأنهم كانوا قلقين للغاية ، فسيظل ذلك اقل من الحقيقة . وكان من المشكوك فيه منذ مدة طويلة أن إسرائيل تمتلك قدرة نووية . ولم يتأكد ذلك مطلقا ، ولكن حسب ما جاء فى تقرير فى مجلة « **تايم** » فى ١٢ أبريل ١٩٧٦ ، فإن إسرائيل كانت على استعداد لاستخدام الأسلحة النووية فى حالة الكارثة المحدقة بها . وفى الساعة ٢٢٠٠ يوم الثامن من أكتوبر ، أبلغ الجنرال هوفى القائد العام للقيادة الشمالية الجنرال العازر رئيس الأركان بقوله : « لست واثقاً من أننا نستطيع الصمود أكثر من ذلك » - وهو رأى تم نقله سريعاً إلى ديان ، الذى ذهب فى الساعة ٥٠٠ يوم التاسع من أكتوبر إلى رئيسة الوزراء ليطلب موافقتها على « تنشيط القنابل النووية الإسرائيلية » . وقال لها : « إنها نهاية الهيكل الثالث » وكان الهيكل اليهودى الأول قد دمره البابليون عام ٥٨٦ قبل الميلاد ، والثانى دمره الرومان سنة ٧٠ ميلادية . وأعطت جولدا مائير الموافقة المطلوبة .

وتكشف بعد ذلك ، فى أبريل ١٩٧٧م ، أنه ربما كان لدى الإسرائيليين ٢٠٠ طن من

اليورانيوم على الأقل ، وهو ما يكفى لصنع نحو ٢٠ قنبلة نووية من النوع الذى ألقى على نجازاكى « قوة ٢٠ كيلو طن » . وفى أكتوبر ١٩٦٨ ، تم تعبئة شحنة من ٥٦٠ وعاء ، كتب عليها « بلومبات : أوكسيد يورانيوم طبيعى » ، فى سفينة الشحن « شيرزبرج » فى هامبورج بألمانيا الغربية فى طريقها إلى جنوة بإيطاليا . وبعد أن تركت السفينة هامبورج ، رست فى أنتويرب ؛ وفى اليوم التالى ، غيرت اسمها ، ثم غيرت بعد ذلك طاقمها واسمها مرة أخرى .

وقامت هيئة الطاقة الذرية الأوروبية – التى جرى إبلاغها بالشحنة كإجراء متبع – بمراجعتها الروتينية المعتادة ، لكى تكتشف فقط أن اليورانيوم لم يصل إلى وجهته . وقامت الهيئة بتحريات ، ولكنها اصطدمت بجدار من الصمت من جانب أجهزة المخابرات فى أمريكا وألمانيا الغربية وإيطاليا وإسرائيل . وبعد نحو عام ، تم إغلاق تحقيق هيئة الطاقة الذرية الأوروبية « دون حسم القضية » . وكانت الاستنتاجات والأدلة المتاحة تشير إلى أن اليورانيوم قد انتهى به الأمر فى إسرائيل .

وحسب ما جاء فى تقرير مجلة « تايم » فإن إسرائيل كانت تمتلك ١٣ قنبلة ذرية « تم تجميعها على عجل فى نفق سرى تحت الأرض خلال مدة ٧٨ ساعة عند بداية حرب أكتوبر » . وعندما كان يتم تجميع كل قنبلة ، كان يتم دفعها بسرعة إلى وحدات سلاح الجو المنتظرة . وقبل « تجهيز أى منها للتفجير » كان اتجاه المعركة قد تحول لصالح الإسرائيليين ؛ وتم إرسال القنابل التى تم تجميعها إلى ترسانات فى الصحراء ، يفترض أنها فى مكان بصحراء النقب لا يبعد كثيراً عن ديمونة . وكانت القنابل من قوة ٢٠ كيلو طن ؛ وكان سيتم إسقاطها من طائرات فانتوم مجهزة خصيصاً ، وأيضاً من طائرات كفير التى يتم تجميعها فى إسرائيل ، وذلك لأسباب تتعلق بالمكانة الإسرائيلية . كما كان مقرراً أن تستخدم أيضاً كرءوس حربية فى صواريخ « أريحا » الإسرائيلية ، وهو سلاح لم يكن قد دخل مرحلة الإنتاج بعد . ولم يكن الإسرائيليون قد أجروا بعد تجربة لسلاحهم النووى .

وكان من نتائج الاستعداد النووى أن ذكرت مصادر المخابرات الأمريكية يوم ١٣ أكتوبر أن الروس قد أرسلوا من قاعدتهم البحرية فى أوديسا رءوساً حربية نووية إلى الأسكندرية من أجل صواريخهم من طراز « سكود » الموجودة فى مصر تحت سيطرة السوفييت . وعبرت هذه الرءوس ، المحمولة فى سفن سوفيتية ، مضيق البوسفور يوم ١٥ أكتوبر . وكان الإسرائيليون على اقتناع بأن الروس قد علموا بامتلاك إسرائيل لأسلحة ذرية من خلال القمر الصناعى كوزموس الذى يقوم بالاستطلاع .

وفى نفس الوقت ، كان صناع السلام فى العالم يعكفون على العمل ، رغم أن كلاً منهم كانت لديه أسبابه الخاصة . وكان الاتحاد السوفيتى يعتقد بصورة خاطئة أنه بمجرد أن أثبت الرئيس السادات قدرته العسكرية ، فإنه سيرغب فى وقف إطلاق النار

على الفور . وبناء على ذلك ، فى الساعة ٢٠٠٠ من السادس من أكتوبر ، زار فلاديمير فينوجرادوف السفير السوفيتى فى مصر السادات ، وأبلغه بأن سوريا قد طلبت وقف إطلاق النار ، وهو مالم يكن صحيحاً على الإطلاق ، مما جعل السادات يشك فى أن الحكومة السوفيتية تحاول « خداعه لكى يتخلى عن القتال » وغضب الرئيس الأسد أيضا عندما علم بهذه الخدعة ، وأصابه الضيق من استخدام اسمه بهذا الشكل دون موافقته . وزار فينوجرادوف السادات فى السابع من أكتوبر ، وكرر اقتراحه وقال السادات فيما بعد : إن « ردى عليه كان عنيفاً » .. وعند ظهر السابع من أكتوبر ، ذهب السير فيليب أدامز السفير البريطانى فى مصر إلى السادات ، وسأله عما إذا كان مهتماً بوقف إطلاق النار . ورفض السادات الاقتراح فى غضب ، وإن كان قد أضاف أنه يمكن النظر فى ذلك إذا كان مرتبطاً بتسوية طويلة الأجل .

وفى الثامن من أكتوبر ، كان وزير الخارجية الأمريكى كيسنجر يدعو إلى وقف لإطلاق النار على أساس العودة إلى مواقع ما قبل السادس من أكتوبر . وقال فى مقابلة صحفية : إن الولايات المتحدة قد « حددت مبادئها » ولكنها لم تطرحها للتصويت الرسمى فى الأمم المتحدة « لأننا أدركنا أنه ليس متاحاً الحصول على أية أغلبية » وليس شائعاً أن يكون وزير خارجية بمثل هذا التحيز الصريح . وفى الثامن من أكتوبر ، وعندما أصبح واضحاً أن العرب يقاتلون جيداً بشكل غير متوقع ، غير الاتحاد السوفيتى موقفه فجأة وبدأ يلح على الدول العربية الأخرى مثل العراق أن تنضم للقتال ضد إسرائيل ..

وفى يوم ١١ أكتوبر ، وهو اليوم الذى عرض فيه الإسرائيليون فى تل أبيب دبابة ت ـ ٦٢ استولوا عليها فى القتال ، حاول كيسنجر انتهاج خط جديد . فقد اقترح مبادلة ماخسره السوريون من الأرض فى جبهة الجولان بما كسبه المصريون فى سيناء وهو اقتراح كان لصالح الإسرائيليين بشكل واضح . وحتى تلك اللحظة ، كان يصر على انسحاب العرب إلى حدود ١٩٦٧ . وكان الأمريكيون قد أصبحوا ـ فجأة ـ متشككين فى قدرة الإسرائيليين ، من ناحية بسبب الجنرالات المتصارعين ؛ كما راودتهم لأول مرة الشكوك فيما إذا كان بمقدورهم فى الواقع طرد القوة المصرية من الضفة الشرقية .

وفى يوم ١٢ أكتوبر ، ضغط كيسنجر على رئيسة الوزراء جولدا مائير لكى تقبل بشروط أكثر قسوة لوقف إطلاق النار : أن يتوقف الجانبان فى المواقع التى كانا عليها ليلة ١١/١٠ أكتوبر . وقال الاتحاد السوفيتى ، حتى دون التشاور مع الحكومة المصرية : إن مصر لن توافق على ذلك مطلقاً . وكان كيسنجر يحاول دون نجاح أن يستبعد الوجود السوفيتى من مفاوضات وقف إطلاق النار .

وكان كيسنجر يريد أن تتقدم بريطانيا باقتراح لوقف إطلاق النار على هذا الأساس فى الأمم المتحدة ، ولكن رئيس الوزراء البريطانى كان متشككا ، وأمر سفيره فى القاهرة

بالتأكد من أن الحكومة المصرية توافق على ذلك تماماً . وزار السير فيليب أدامز السادات فى الساعة ٤٠٠ من صباح يوم ١٣ أكتوبر . ورفض الرئيس المصرى بحدة الشروط التى اقترحها كيسنجر . وتسبب رفض السادات فى انزعاج كيسنجر ، كما تسبب فى شيء من الاحتكاك بين البريطانيين والأمريكيين . وعاد أدامز إلى السادات مرة أخرى فى الساعة ١٦٠٠ ، ولكنه ظل عاجزاً عن إقناعه بقبول اقتراح كيسنجر . وفى نفس الوقت ، فى نفس اليوم ، قالت رئيسة الوزراء مائير فى التليفزيون : إن إسرائيل ستكون مستعدة لإجراء محادثات حول وقف إطلاق النار إذا ماكان العرب مستعدين لذلك ، ولكنها لم تذكر أنها قد قبلت بالفعل وقفاً لإطلاق النار بشروط مهينة بدرجة كبيرة .

وعند بداية الحرب ، لم يكن أى من الطرفين يثق بشكل مطلق بقدرته فى الحصول على إمدادات فورية من الأسلحة الحيوية والذخائر وقطع الغيار ، ومن المؤكد أن أياً منهما لم يكن قد خزن ما يكفى حرباً لمدة ٢٣ يوماً . بل على العكس من ذلك . فقد نفدت الإمدادات الإسرائيلية ؛ وكانوا على سبيل المثال يعانون من نقص شديد فى القذائف شديدة الانفجار عيار ١٠٥ مم . ويكتب ليتواك : إنه « كان قد تم تقليص مخزون الذخائر وقطع الغيار « الإسرائيلية » على اعتبار أن الحرب لن تتطلب سوى بضعة أيام من القتال الفعلى ، وحتى هذا القتال لن يكون شديداً للغاية » .

ومنذ اليوم الأول للحرب ، ورغم الافتقار إلى السلطة الرسمية من جانب الحكومة الأمريكية ، يبدو أن هناك دلائل كثيرة على أنه قد قيل لإسرائيل فى هدوء أن بمقدورها أن تحصل على ما تشاء من مواد عسكرية بقدر ما تستطيع نقله ؛ وبالتالى فقد تم تحويل كل الأسطول الجوى لشركة العال « ١١ طائرة بوينج ٧٠٧ وخمس طائرات بوينج ٧٤٧ » لهذا الغرض ، وكان الإسرائيليون فى أمس الحاجة لأجهزة الوسائل الالكترونية المضادة من أجل طائراتهم لكى تتصدى لصواريخ سام السوفيتية الأكثر تقدماً . وعلى سبيل المثال فى العاشر من أكتوبر . شوهدت إحدى طائرات شركة العال ، وقد غُطيت علاماتها المدنية ، فى محطة أوشن البحرية الجوية فى فيرجينيا بيتش بولاية فيرجينيا . وكان يجرى شحنها بصواريخ سايدونيدر وسبارو الأمريكية وغيرها من مواد غير محددة .

إلا أن كيسنجر رفض فى السابع من أكتوبر طلباً إسرائيليا بكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ، حيث كان يعتقد أن الإسرائيليين سيفوزون بالتأكيد بصورة سريعة ، وكان يشعر أن نكسة صغيرة من شأنها أن تمكنه من ترويض الإسرائيليين ، ويقول هيكل : إن كيسنجر أبلغه بأن « الأمريكيين كانوا يعتقدون أنه خلال ٤٨ ساعة من بدء الاشتباكات العسكرية ، سيكون الإسرائيليون فى الوضع الذى يمكنهم من القيام بهجوم مضاد مدمر ضد القوات المصرية فى سيناء » وفى العاشر من أكتوبر

أعلنت بريطانيا حظرا على كل الأسلحة المتجهة إلى الشرق الأوسط ، أضر بالإسرائيليين أكثر من غيرهم ، حيث حرموا من قطع الغيار والذخائر اللازمة لدباباتهم من طراز سنتوريون . وفرض الفرنسيون أيضاً حظراً على شحنات الأسلحة المتجهة إلى الشرق الأوسط .

وفى التاسع من أكتوبر قام الروس الذين كانوا ـ وقتها ـ يساعدون العرب فى الحرب ضد إسرائيل قد أنزلوا قمرهم الصناعى الاستطلاعى الأول كوزموس ، بعد أن قضى فى مداره ستة أيام هى نصف مدته العادية فحسب . (وكانوا قد أطلقوا قمراً آخر فى السادس من أكتوبر) وأوضحت المعلومات التى نقلها القمر ، الحجم الهائل للخسائر المادية التى تكبدها الجانبان . وفى اليوم التالى ، بدأ جسر جوى سوفيتى لنقل الإمدادات العسكرية لكل من مصر وسوريا . وفى هذا المشروع لم يصادف الاتحاد السوفيتى « مشكلة الطيران لمسافات بعيدة » فقد سمح الماريشال تيتو للطائرات السوفيتية بالطيران فوق يوغوسلافيا ، ليس نتيجة لأى ضغط سوفيتى ، وإنما لأنه كان صديقاً شخصياً للرئيس عبد الناصر ، كما سمح أيضاً للطائرات السوفيتية بالطيران فوق تركيا ، وهى عضو فى حلف شمال الأطلنطى ، وهو ما أثار ضيق كيسنجر بدرجة كبيرة .

وسرعان ما بدأ الجسر الجوى السوفيتى ، حيث راحت طائرات النقل من طراز أناتوف ـ ١٢ تهبط فى مطارات بالقرب من بالميرا فى سوريا ، بينما راحت طائرات أناتوف ـ ٢٢ ذات المدى الأطول تهبط بالقرب من القاهرة . وزعم الإسرائيليون أنه فى البداية كانت الشحنات تضم أساساً صواريخ سام ـ ٦ وغيرها من أنواع الصواريخ الأخرى . وقد بالغ الأمريكيون بدرجة كبيرة فى عدد الرحلات الجوية السوفيتية ، حيث زعموا أنها وصلت إلى ٧٠ رحلة جوية يوم العاشر من أكتوبر ، ثم ارتفعت إلى ١٠٠ رحلة بحلول يوم ١٢ أكتوبر . وقد تأكد فيما بعد أنها تراوحت بين ٢٥ و ٣٠ رحلة يومياً خلال الأسبوعين الأولين . ولما كان الاتحاد السوفيتى يعتبر « زمن التفريغ » السورى الذى يبلغ ثلاث ساعات ، بطيئاً للغاية ، فقد أرسل أطقماً سوفيتية من المراقبين الأرضيين والمشرفين على التفريغ والميكانيكيين الذين خفضوا هذا الزمن إلى نصف ساعة .

وأقام الاتحاد السوفيتى أيضاً جسراً بحرياً لنقل المعدات الأثقل وزناً إلى مصر وسوريا . ووصلت سفينة سوفيتية قادمة من أوديسا ومحملة بالعتاد الحربى إلى اللاذقية يوم ١١ أكتوبر ، مما جعل الإسرائيليين يزعمون أن برنامج الإمدادات قد بدأ قبل السادس من أكتوبر ، وقالوا : إنه لا يمكن لسفينة أن تشحن وتقطع مثل هذه المسافة فى مثل هذا الوقت القصير ، واستنتجوا من ذلك أنه لابد أن الاتحاد السوفيتى كان يعلم مسبقاً بأمر الهجوم العربى ، وقال لى السوريون : إن الأمر ليس كذلك ، وأن

السفينة كانت سفينة امدادات عسكرية عادية ، وذكرونى بأن الاتحاد السوفيتى كان يمد سوريا لفترة من الزمن بالأسلحة والمركبات بشكل منتظم .

وفى نفس الوقت ، كان الإسرائيليون يطلبون بشكل عاجل من أمريكا ذخائر وإمدادات عسكرية بكميات تزيد كثيراً عما يستطيع أسطول طائرات شركة العال أن ينقله . كذلك ، فإن جماعات الضغط اليهودية كانت تمارس ضغطاً على الرئيس نيكسون لتلبية هذا المطلب . وفى العاشر من أكتوبر ، وهو اليوم الذى كانت حسابات العرب تفيد أنه لم يتبق فيه لدى إسرائيل سوى إمدادات تكفى يومين فقط من أنواع معينة من الذخيرة ، كان الرئيس نيكسون على وشك أن يوافق ، ولكنه لم يفعل بناء على نصيحة كيسنجر . وحدث بعض الاحتكاك بين كيسنجر وجيمس شليزنجر وزير الدفاع الأمريكى ؛ وفى كتابهما « كيسنجر » يقول مارفى وبرنارد كالب : إن كيسنجر كان يريد من العرب والإسرائيليين أن « يستنزف كل منهما الآخر تماماً » . بينما كان يرتب سيناريو من شأنه أن يجعل أولئك الذين فى وزارة الدفاع « البنتاجون » يبدون فى صورة « الأشرار » وقد حاول كيسنجر فيما بعد أن يلقى على وزارة الدفاع الأمريكية باللوم فى تأخر إرسال الإمدادات إلى إسرائيل . ويقول مارفى وبرنارد كالب أيضاً أنه عندما فرضت بريطانيا حظراً على شحنات الأسلحة إلى الشرق الأوسط ، كانت إسرائيل على حافة الهزيمة بسبب نقص الإمدادات ، وقد رفضت قبرص السماح للطائرات الأمريكية التى تحمل الذخائر إلى الشرق الأوسط بالهبوط والتزود بالوقود فى أراضيها .

وبمجرد أن اقتنع كيسنجر بحجم الجسر الجوى السوفيتى للعرب ، فقد حاول تأجير طائرات مدنية لإرسال العتاد والذخيرة الحيوية إلى إسرائيل . وبمجرد أن فشلت خطته فى محاولة إقناع بريطانيا بالضغط على السادات بقبول وقف إطلاق النار ، فإنه لم يكن ليسمح بهزيمة الإسرائيليين . واصطدم عندئذ بوزارة الدفاع وغيرها من الوزارات . ولم يستطع السير فى برنامجه . وحسب ما يقول مارفى وبرنارد كالب فإن كيسنجر زعم أن البنتاجون لم يكن متعاوناً ، وأضافا أن طلب كيسنجر تأجير ٢٠ طائرة مدنية لإكمال طائرات شركة العال قد قوبل بالرفض ، وعندما صدر أمر باستخدام الطائرات العسكرية ، رفض شليزنجر أن يدعها تطير إلى جزر الآزور ، ولم يوافق الرئيس نيكسون على الطلب إلا فى وقت متأخر يوم ١٣ أكتوبر ، عندما اتصلت به رئيسة الوزراء جولدا مائير تليفونياً ، وطلبت منه إمدادات عسكرية بصورة عاجلة . ونشأ لديه انطباع بأن الإسرائيليين صاروا على وشك الهزيمة بسبب نقص الذخائر ؛ وبدأ جسر جوى متصل على مدار اليوم ، ووصلت الإمدادات الأولى إلى مطار اللد يوم ١٤ أكتوبر . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن كيسنجر كان يريد أن يكون الجسر الجوى عملية سرية ، إلا أن شليزنجر اختلف معه وأصر على أن تتم العملية بشكل علنى .

وعلى عكس الاتحاد السوفيتى ، لم تكن عملية سهلة بالنسبة للولايات المتحدة نظراً لطول المسافة ، التى تبلغ نحو ٧,٠٠٠ ميل ومثلها فى العودة ، معظمها فوق المحيطات والبحار . وكانت الأساليب والمنشآت الأمريكية الموجودة للتزود بالوقود فى الجو غير كافية للخدمة المستمرة لهذا الأسطول الجوى هائل الحجم فلم يسمح أى من الحلفاء فى حلف شمال الأطلنطى باستخدام أراضيه للهبوط او التزود بالوقود لهذا الجسر الجوى . ورفضت إيطاليا وأسبانيا علناً ، بينما لم يطلب من فرنسا أو بريطانيا افتراضا لأنهما كانتا سترفضان أيضاً . وكان على الأمريكيين أن يطلقوا طائراتهم الضخمة ، ومعظمها من طراز سى - ٥ العملاقة ، من قاعدة لاجيس فى جزر الآزور ثم يزودونها بالوقود فى الجو من طائرات وقود فى الأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط .

وكانت قاعدة لاجيس مؤجرة للولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٣ ، وكان مقرراً أن تنتهى مدة الإيجار فى فبراير ١٩٧٤ . وقد بدأ الأمريكيون استخدام القاعدة فى الجسر الجوى دون أن يطلبوا رسمياً موافقة الحكومة البرتغالية ، التى لم تكن تريد التورط فى الأمر ؛ ولم يحتج البرتغاليون إلا عندما أدركوا حجم العتاد الذى يتم نقله إلى إسرائيل . ولم يسمح باستخدام قاعدة لاجيس لشحن العتاد إلى إسرائيل إلا بشرط أن تساند الولايات المتحدة البرتغال فى الأمم المتحدة فى إحدى القضايا الاستعمارية التى لا تحظى بالشعبية . وكان الجسر الجوى يطير من قاعدة دوفر الجوية فى نانتوكيت « الولايات المتحدة » عبر المحيط الأطلنطى إلى جزر الآزور . وكانت هناك صعوبات . ففى مجلة « **افيشن ويك آند سبيس تكنولوجى** » الصادرة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٧٣ ، قال أحد المراجع إنه « عندما صدر الأمر بإقامة الجسر الجوى يوم ١٢ أكتوبر [وإن لم يكن الرئيس قد أقره] ولم يكن لدى قيادة الجسر الجوى العسكرى سوى ١٩ طياراً مؤهلاً للقيام بعملية التزود بالوقود فى الجو » . وقد اتخذت خطوات تمهيدية أخرى ، وفى نفس المقال ذكر أنه « قبل بدء الرحلات الجوية إلى إسرائيل ، تم إرسال أفراد ومعدات الصيانة إلى مطار قاعدة لاجيس » .

وكانت الشحنات التى نقلها هذا الجسر الجوى تشمل قنابل « سمارت » الموجهة بأشعة الليزر ، مثل القنبلة « والبى » المزودة بكاميرا تليفزيونية فى مقدمتها ، والقنبلة « روكيى » التى تسقط مجموعات من القنابل الصغيرة التى تستخدم ضد المجموعات الصغيرة من المشاة والدبابات والمدافع والمركبات وقام طيارون أمريكيون بالطيران ببعض المقاتلات من طراز سكاى لارك من أمريكا مباشرة . وتم تزويدها بالوقود فوق المحيط الأطلنطى بطائرات الوقود من طراز كيه . سى - ١٣٥ ثم بعد أن توقفت فى لاجيس ، تم تزويدها بالوقود مرة أخرى فوق البحر المتوسط بطائرات وقود الأسطول السادس الأمريكى . وكانت الطائرات تتفادى الطيران فوق الأرض بعد مغادرتها لاجيس .

واستخدمت طائرات سى - ١٣٠ ذات المدى الأقصر أساساً لجلب الإمدادات من أوروبا فقد أخذت الولايات المتحدة كميات من العتاد والذخائر من مخزونات حلف شمال

الأطلنطى هناك ، وخاصة من هولندا وألمانيا ، دون إخطار حكومة أى منهما . وتسبب ذلك فى احتكاكات دبلوماسية فيما بعد . وكان العتاد الذى جرى شحنه يشمل الدبابات وطائرات الهليكوبتر والصواريخ المضادة للدبابات والذخائر وقطع الغيار وتشير التقديرات إلى أنه خلال بضعة أيام نقل إلى إسرائيل جواً أكثر من ٢,٠٠٠ صاروخ مضاد للدبابات من طراز « تاو » وكان ذلك سلاحاً رفضه الإسرائيليون بازدراء فى وقت من الأوقات ؛ والآن كانوا يطالبون به بشكل عاجل . وقد أقيم الجسر الجوى فى الوقت المناسب تماماً . فقد كان الإسرائيليون يعانون من نقص حاد فى الذخائر والصواريخ من كل الأنواع ، فضلاً عن المركبات وقطع الغيار والطائرات .

وقد كانت الولايات المتحدة أقل تقدماً بكثير من الاتحاد السوفيتى فى مجال الاستطلاع بالأقمار الصناعية ، وقد شكت أجهزة المخابرات الأمريكية من أنه بعد تخفيض النفقات ، توقفت من الناحية العملية عمليات المراقبة بالأقمار الصناعية فى الشرق الأوسط . وقيل أنه بينما كان لدى الولايات المتحدة مراقبة تفصيلية لكل موقع ومركبة سوفيتية منفردة فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية . فإن الشرق الأوسط كان بالنسبة لها خريطة صماء .

وحدثت الجولة التالية من الاحتكاكات بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى حول طلب أمريكى باستخدام القاعدة البريطانية الجوية فى قبرص ، فقد كانت الولايات المتحدة تريد أن ترابط هناك طائرتا استطلاع طويلتا المدى من طراز إس - آر - ٧١ لوكهيد « بلاك بيرد » لاستخدامهما فى استطلاع ميادين القتال فى الشرق الأوسط وعندما نقل هذا الطلب إلى الحكومة البريطانية فى العاشر من أكتوبر ، اعترض رئيس الوزراء البريطانى إدوارد هيث وفى كتاب « **رؤية فى حرب الشرق الأوسط** » يزعم أحد المصادر أن هيث قال : إنه لن يوافق إلا إذا كان « بمقدور الولايات المتحدة أن تصنع قصة للتغطية يمكن أن تصمد ، ولا تتحطم خلال أيام » .. وقيل إن كيسنجر ألغى طلبه فى نوبة غضب . ثم بعد ذلك وعلى الرغم من الاتفاقات الجانبية ، فقد حجب عن البريطانيين بعض معلومات المخابرات التى كان يتم عادة توزيعها على الحلفاء فى حلف شمال الأطلنطى ، إلا أن تقريراً لاحقاً ، ومتناقضاً بعض الشىء ، نشرته صحيفة « **الديلى تلجراف** » فى ١٦ فبراير ١٩٧٤ ، أوضح أن الحكومة البريطانية لم تضع أية قيود على إقلاع طائرتى البلاك بيرد من قواعدها فى الشرق الأوسط . وعلى أية حال فإن طائرتى البلاك بيرد ، بمدى عملياتهما الذى يصل إلى أكثر من ٤,٠٠٠ ميل ، كان بمقدورهما بسهولة أن تقلعا من ألكونبيرى أو ميلد نهول ، وهما قاعدتان أمريكيتان فى المملكة المتحدة ، إلى الشرق الأوسط والعودة دون أن يعاد تزويدهما بالوقود .

وكيفما كانت الحقيقة الدقيقة ، ومع توتر العلاقات بالتأكيد بين أمريكا وبريطانيا فى تلك المرحلة ، فقد وضع كيسنجر ترتيبات أخرى لكى ترابط طائرتا البلاك بيرد فى إيران . ولم تقم الطائرتان برحلتهما الاستطلاعية الأولى والوحيدة حتى يوم ١٣ أكتوبر ، مما حدا

بكيسنجر لأن يلقى باللوم على الحكومة البريطانية فى تأخر معلوماته عن ميدان القتال لمدة ثلاثة أيام . وحوالى الساعة ١٣٠٠ يوم ١٣ أكتوبر قامت طائرتا البلاك بيرد برحلة جوية استغرقت ٢٥ دقيقة فوق الشرق الأوسط . على ارتفاع يتراوح بين ٦٥,٠٠٠ و ٧٠,٠٠٠ قدم وبسرعة تزيد على ٢,٠٠٠ ميل فى الساعة واتخذت الطائرتان طريقاً بدأ بالقرب من اليونان إلى بورسعيد ، ثم فوق قناة السويس حتى نجع حمادى ، ثم عادتا شمالاً فوق القاهرة . ثم شرقاً فوق القناة مرة أخرى ، ثم فوق سيناء قبل أن تعودا إلى القاعدة وحسب المعلومات التى وردت منهما ، قدرت مصادر المخابرات الأمريكية خسائر الإسرائيليين بما يبلغ ٤٠٠ دبابة . و ٣,٠٠٠ قتيل ، و١,٠٠٠ أسيرمن بينهم ٤٣ طياراً ، و١٥,٠٠٠ جريح وكانت الصور الجوية تبين تفاصيل دقيقة بشكل مذهل . وكانت تقديرات خسائر الإسرائيليين فى الدبابات صحيحة : أما التقديرات الأخرى ، فكانت عالية ، وكان ثمة شكوك فى أن المبالغة فيها كانت متعمدة ، مثلما جرى تعمد تسريبها ، لتضليل الرأى العام الأمريكى وجعله يؤيد الجسر الجوى الأمريكى المستمر لإسرائيل ولم تعلن أنباء الجسر الجوى حتى يوم ١٥ أكتوبر .

وكانت هناك مشكلة ضخمة تزداد ضخامتها مع استمرار الحرب ، وهى مشكلة البترول العالمى . فبحلول عام ١٩٧٢ ، كانت الولايات المتحدة قد أدركت فجأة أنه ستكون هناك أزمة طاقة ، أى نقص فى البترول ، بحلول عام ١٩٧٨ . وكان الشرق الأوسط ينتج حوالى ٣٥ فى المائة من الإنتاج العالمى من البترول ؛ وكانت السعودية تنتج نحو ٦٠ فى المائة من هذه الكمية ، ورغم أن الولايات المتحدة لم تكن تستورد سوى خمسة فى المائة فقط من إجمالى انتاج الشرق الأوسط . فقد كانت قلقة بشأن استمرار الإمدادات . وكانت دول الشرق الأوسط المنتجة للبترول تحصل منه على دخل أكبر مما تستطيع اقتصادياتها أن تستوعبه ؛ كما أن التضخم وانخفاض قيمة العملات كانا يزيدان من تآكل قيمة احتياطياتها النقدية . وكان الحديث يتردد عن خفض الإنتاج (للحفاظ على الاحتياطيات الطبيعية) ورفع الأسعار . وفى عام ١٩٧٢ ، كانت الكويت أول دولة فى الشرق الأوسط تخفض إنتاجها البترولى إلى ثلاثة ملايين برميل يومياً . وكان ذلك صدمة « لكارتلات » البترول الأمريكية التى كانت قد نجحت طوال سنوات فى الاحتفاظ بالبترول بعيداً عن السياسة فى الشرق الأوسط .

ومن بين دول الشرق الأوسط المنتجة للبترول ، كانت السعودية هى أكثرها صداقة للغرب . وفى أوائل عام ١٩٧٣ ، كان السعوديون ينتجون ٦,٥ مليون برميل يومياً ، وكانوا قد وافقوا على زيادتها إلى عشرة ملايين برميل عام ١٩٧٤ ، ثم إلى ٢٠ مليوناً عام ١٩٨٣ ولكن السعودية لم تكن راضية عن السياسة الأمريكية ، وكانت تحذر الولايات المتحدة سراً وتطلب منها تعديل موقفها شديد التطرف فى تأييده للصهيونية . وعندما طرد الرئيس السادات الخبراء السوفييت فى يوليو ١٩٧٢ كان الملك فيصل يتوقع فى مقابل ذلك أن

تضغط الولايات المتحدة على إسرائيل لكى تتفاوض مع العرب حول الأراضى المحتلة . ولكن أمله خاب عندما لم يحدث ذلك . وكانت اتفاقية طهران لعام ١٩٧١ ، التى وقعتها ست دول من أعضاء منظمة البلدان المصدرة للبترول « الأوبك » قد حددت سعر البترول بثلاثة دولارات للبرميل لمدة خمس سنوات ، إلا أن هذا الترتيب لم يكن سارياً بصورة جيدة ، فعلى سبيل المثال كانت إيران تطلب ستة دولارات للبرميل . وفى الثالث من سبتمبر ١٩٧٣ ، رفعت ليبيا سعر بترولها إلى ستة دولارات للبرميل . وفى أغسطس قام الرئيس السادات بزيارة سرية للملك فيصل وأقنعه بأن يعد بخفض إنتاج البترول بنسبة عشرة فى المائة سنوياً . وكان ذلك يعنى أنه للمرة الأولى بدأ العرب يستخدمون ضغط دبلوماسية البترول لتحقيق أهدافهم السياسية إلى جانب الأهداف الاقتصادية . وفى العاشر من سبتمبر ، اجتمع عشرة وزراء بترول من منظمة الأوبك لبحث استخدام البترول كسلاح .

وإذا كانت الحاجة للبترول عظيمة فى وقت السلم ، فإنها تتضاعف عدة مرات فى وقت الحرب ، وفرضت هذه الحقيقة نفسها بقوة على إسرائيل ، التى لا تمتلك أساساً أية ثروة بترولية طبيعية ، وإن كانت المفارقة تتمثل فى أنها بلد مصدر للبترول . فاحتياجاتها الداخلية كانت تقدر بما يتراوح بين سبعة وتسعة ملايين طن سنوياً . وكانت تحصل على ما يصل إلى ستة ملايين طن من آبار البترول فى سيناء المحتلة . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت تستورد مايصل إلى ١٨ مليون طن من إيران ، باستخدام أساليب الأبواب الخلفية ، مثل السفن التى ترفع أعلاماً ملائمة وتصل إلى ميناء إيلات . وكان الإسرائيليون قد أقاموا خطاً لأنابيب البترول من قطر ٤٢ بوصة ، يمكن أن يستوعب ما يصل إلى ٣٠ مليون طن سنوياً وكان يمتد من إيلات إلى أشدود على البحر المتوسط ، وكانت هناك مستودعات للتخزين فى كل من طرفيه . وكانت إسرائيل تصدر البترول الفائض ، أساساً إلى رومانيا والدول المجاورة لها .

وفى السادس من أكتوبر ، فرضت مصر حصاراً بحرياً على إسرائيل لضمان ألا تصلها إمدادات بترولية أو غيرها من الإمدادات . وكان ذلك أمراً خطيراً بالنسبة للإسرائيليين ، ولكن استخدام العرب البترول كسلاح قد أصاب دولاً أخرى أيضاً ، لم تتأثر أمريكا بذلك إلا بصورة هامشية فحسب ، ولكن أوروبا الغربية واليابان كانتا تعتمدان فى استمرار صناعاتهما على بترول الشرق الأوسط . وفى التاسع من أكتوبر ، اجتمع مندوبو نحو عشرين شركة بترولية مع ممثلى الأوبك للإعراب عن قلقهم . وفى نفس اليوم ، أعلن أن منظمة الأوبك ستعقد اجتماعاً لبحث دور البترول فى الصراع الدائر .

وفى العاشر من أكتوبر ، جرت محادثات بين مسئولين مصريين وسعوديين ؛ وفى اليوم التالى ، وفى محاولة أخيرة لإقناع الحكومة الأمريكية بتعديل موقفها تجاه إسرائيل ، أوفد الملك فيصل وزير خارجيته عمر السقاف إلى واشنطون حاملاً رسالة عاجلة للرئيس

نيكسون . وفى يوم ١٥ أكتوبر عقد اجتماع حاسم فى الرياض . وفى اليوم التالى أعلنت منظمة الأوبك زيادات فى الأسعار تتراوح بين خمسة دولارات و ١٢ دولاراً للبرميل . وفى ذلك اليوم ، وصل عمر السقاف وبعض وزراء الخارجية العرب الآخرين إلى واشنطون حيث استقبلوا استقبالاً فاتراً . وسلم السقاف رسالة فيصل إلى نيكسون . وكانت تقول : إنه مالم تغير الولايات المتحدة سياستها تجاه إسرائيل ، فسيكون هناك حظر بترولى خلال يومين . وقال الرئيس نيكسون : إن أمريكا ملتزمة بتدعيم إسرائيل وأن مجلس الشيوخ وافق بأغلبية الثلثين على إرسال المعونة لها .

وفى يوم ١٧ أكتوبر ، وافقت منظمة الأوبك على خفض إنتاج البترول بصورة مضطردة بنسبة خمسة فى المائة شهرياً حتى تنسحب إسرائيل من الأراضى المحتلة . وفى اليوم التالى ، وعندما طلب الرئيس نيكسون من الكونجرس « معونة عاجلة لإسرائيل » قيمتها ٢,٢ مليار دولار ، اعتبر الملك فيصل ذلك كإهانة شخصية تقريباً . وكان قد أعلن بالفعل يوم ١٧ أكتوبر خفض الإمدادات البترولية إلى الغرب بنسبة عشرة فى المائة ـ ضعف النسبة التى وافق عليها ممثلو أعضاء الأوبك . ثم بعد اجتماع لمجلس الوزراء فى الرياض يوم ٢٠ أكتوبر ، أعلن وقف كل صادرات البترول السعودية إلى الولايات المتحدة ، نظراً لاستمرار المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل .

وفى يوم ٢١ أكتوبر ، أوقفت الجزائر شحناتها البترولية إلى هولندا وهى دولة كانت متهمة فى الماضى بتوفير تسهيلات المرور لليهود الروس فى طريقهم إلى إسرائيل ، وأصبحت متهمة الآن « بتحويل نفسها إلى رأس جسر للمساعدات المتجهة إلى العدو » وقيل : إن شركة الخطوط الجوية الهولندية « كيه . إل . إم » قد « قامت برحلات جوية متواصلة لنقل المرتزقة إلى إسرائيل » . وأيضا أن هولندا كانت « تعيد شحن البترول الخام إلى إسرائيل » واتهم الغرب وزير الدفاع الهولندى بالتحيز للصهيونية لأنه شارك فى مظاهرة تأييد لإسرائيل ، وبوجه عام ، فقد ألقى باللوم بصورة واسعة على كيسنجر باعتباره مسئولاً عن أزمة البترول العالمية . وقيل إنه لم يفهم موقف أوروبا الغربية التى كانت تحصل على ٨٠ فى المائة من بترولها من الشرق الأوسط ، ولا موقف اليابان التى كانت تحصل على ٩٠ فى المائة من بترولها من نفس المصدر .

وداخل إسرائيل ، قام الفدائيون العرب فى العاشر من أكتوبر بتخريب خط أنابيب البترول الممتد من إيلات إلى أشدود ، ونجحوا فى تعطيله لفترة قصيرة . ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه طوال الحرب ، ظل البترول يتدفق خلال خط أنابيب التابلاين الذى يمر تحت الأرض عبر هضبة الجولان فى طريقه إلى صيدا . وقد تم تخفيض ضخ البترول خلاله إلى النصف لتقليل حجم البترول الضائع فى حالة حدوث أضرار لخط الأنابيب نتيجة للحرب .

ومن الحكايات الخفيفة فى حرب أكتوبر حكاية جولة عيدى أمين الرئيس الأوغندى المسلم غريب الأطوار . فقد قام دون أن يدعوه أحد ودون أن يريده أحد ، ودون أن يكافئه

أحد ، بجولة بطائرته الخاصة زار خلالها عدداً من العواصم العربية (من بينها الرياض وبغداد ودمشق) لتقديم نصائحه . وفى وقت ما ، نصحت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير بأن « نجمع ملابسها الداخلية وتهرع إلى واشنطون على عجل » وفى يوم ١٤ أكتوبر كان فى عمان ، حيث بقى فى معسكر على حافة ميدان القتال . ومن هناك طار عبر المجال الجوى السورى ترافقه مقاتلات الميج السورية .

ومن الشخصيات الغريبة بنفس القدر ، الإسرائيلي أبى ناتان وسفينته « شالوم » (السلام) التى جهزها كمحطة بث إذاعى عائمة . وكان يطوف بها سواحل شرق البحر المتوسط منذ فبراير ١٩٧٣ ، ليحث العرب والإسرائيليين على إقرار السلام ، وفى السادس من أكتوبر ، أمر بالابتعاد عن السواحل العربية والإسرائيلية ولكنه ظل يبحر فى اتجاه بور سعيد وهو يبث مزيجاً من الأغانى الخفيفة ودعايات السلام ، ويوبخ كلا من العرب والإسرائيليين على « أعمال القتل التى تفتقر إلى العقل » . وفى يوم ١٥ أكتوبر ، شوهد على مسافة حوالى ٤٠ ميلاً شمالى بور سعيد . ثم أبحر عندئذ إلى بيروت ، حيث رسا هناك ولكن لم يسمح له بالنزول إلى البر .

وبعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر ، ألقى الرئيس السادات خطاباً هاماً فى مجلس الشعب . قال فيه إنه سيقبل وقف إطلاق النار بشرط أن ينسحب الإسرائيليون إلى حدود ماقبل ١٩٦٧ تحت إشراف دولى . وعندئذ ، يحضر الإسرائيليون مؤتمر سلام تنظمه الأمم المتحدة . وتباهى السادات أيضاً بأنه يمتلك صواريخ يمكن أن تصل إلى أى جزء من إسرائيل . وكان كثيرون يعتقدون أنه يقصد الصواريخ مصرية الصنع التى لم يتم إنتاجها بسبب عيوب التوجيه ، ولذلك لم يؤخذ التهديد مأخذ الجد فى إسرائيل ولكن السادات كان يشير فى الواقع إلى ٢٠ صاروخاً سوفيتياً من طراز « سكود » يصل مداها إلى أكثر من ١٤٠ ميلاً .

وبعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر أيضا ، وصل رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين إلى القاهرة فجأة لإجراء مباحثات مع الرئيس السادات . وكان ذلك أول اتصال فعلى بين القادة المصريين والسوفييت ، وهى الحقيقة التى تميل إلى تأكيد أن السادات قد بدأ الحرب دون أن يحصل أولاً على موافقة السوفييت ، وكانت مهمة كوسيجين الحقيقية هى إقناع السادات بقبول وقف إطلاق النار ، وهو ما وافق عليه السادات قائلاً : إنه كان يريد فقط كسر حالة الجمود الناشئة عن اللاسلم واللاحرب . وكان كوسيجين يريد أيضاً تأكيداً من السادات بعدم استخدام صواريخ « سكود » ضد المراكز السكانية الإسرائيلية ، ومرة أخرى وافق السادات ولكن بشرط ألا يبدأ الإسرائيليون بمهاجمة مدنه من الجو . والآن والاتحاد السوفيتى يساند العرب بشكل نشط ، فإنه لم يكن يريد لهم الهزيمة . وكان الروس يمتلكون معلومات دقيقة من خلال أقمارهم الصناعية الاستطلاعية . كانوا يعرفون الحجم الدقيق للخسائر المادية التى تكبدها المتحاربون ، وكان بمقدورهم متابعة مسار

الحرب . وكان مفهوماً أن يشعروا بالقلق . وكإجراء أولى تم على الفور نقل حوالى ٣٠٠ من الأفراد الروس عن طريق الجو إلى مصر لتعزيز حائط الدفاع الجوى ، حيث كان الروس يخشون من أن يشن الإسرائيليون هجمات جوية على مصر .

الفصل العاشر

جمود على الجبهة الشرقية

« تقدموا ، وقاتلوا »

نصيحة سورية للعراقيين

بحلول العاشر من أكتوبر ، كان قد أصبح واضحاً بدرجة كبيرة أن السوريين ينسحبون ، أو هم على وشك الانسحاب ، عبر خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧ ، وكان لا يزال على الإسرائيليين أن يتعاملوا مع الجبهة المصرية ؛ وفى مساء ذلك اليوم ، عقد مؤتمر عسكرى على مستوى عالٍ لاتخاذ قرار حول ما إذا كان ينبغى الثبات وتدعيم المواقع عند خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧ ، أم التقدم داخل سوريا . وكان الجنرال العازر يريد التوغل داخل سوريا لمسافة ١٢ ميلاً ، بحيث تصبح دمشق داخل مرمى نيرانه ، وتدعيم مواقعه عند الحافة الشرقية لسلسلة ساسا الجبلية . وتردد ديان ؛ وطرح الأمر على رئيسة الوزراء جولدا مائير التى اختارت التقدم داخل سوريا .

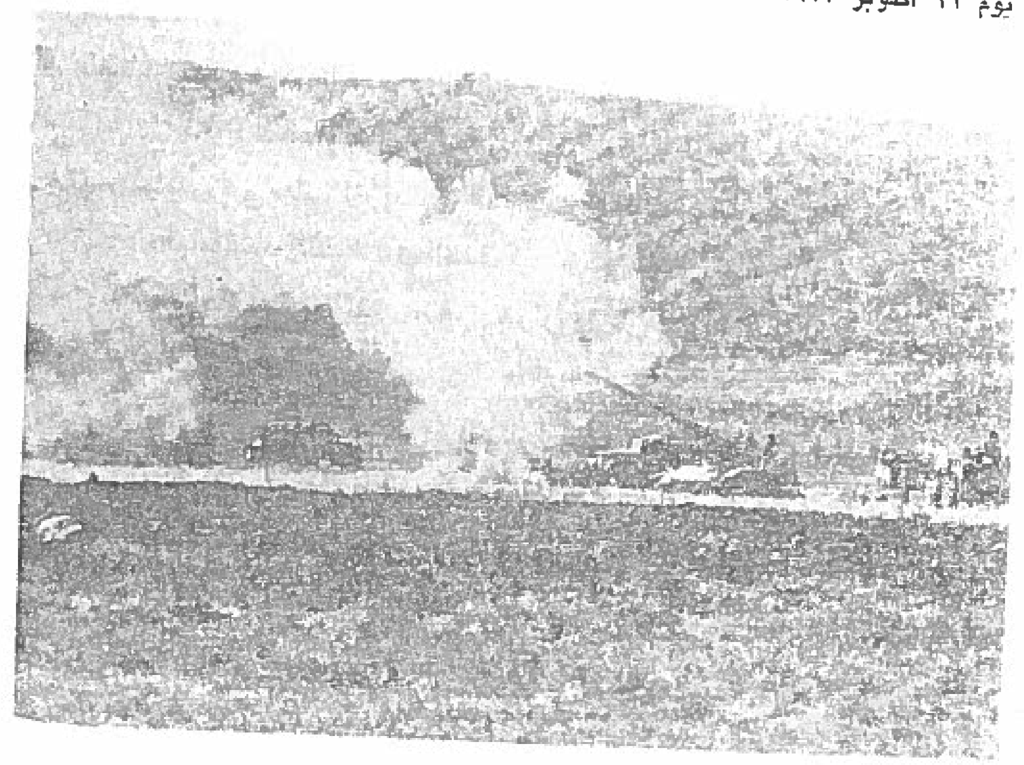
ووضعت خطة تتقدم بمقتضاها فرقة ايتان (التى تتألف من اللواء السابع المدرع ولواء باراك ولواء الجولانى واللواء ١٣١ مظلات) بطول التلال الواقعة عند سفوح جبل الشيخ . أما فرقة لانر (التى تتألف من الألوية ١٧ و١٩ و٧٩ المدرعة) ، فستهاجم وتستولى على تل شمس ، تمهيداً لأن تشق طريقها على طريق دمشق إلى ساسا وما بعدها . أما فرقة بيليد ، فكان عليها أن تبقى فى منطقة ثغرة رافد وتعيد تنظيم نفسها . وتقرر أن تكون ساعة الصفر فى الساعة ١١٠٠ ، عندما تكون الشمس فى مواجهة أعين السوريين . وفى نفس الوقت ، ركز الإسرائيليون على جلب المزيد من الدبابات والمدافع والذخائر والوقود ، وتعبئة المزيد من جنود الاحتياط لسد الثغرات فى الصفوف . وكان بعض التشكيلات الإسرائيلية قد تكبد خسائر فادحة ؛ على سبيل المثال ، يقول هرتزوج عن اللواء السابع المدرع ، « لقد تركوا أفيجدور بحوالى ٢٠ دبابة » .

وتحرك أحد ألوية إيتان ، اللواء السابع المدرع ، إلى منطقة مجدل شمس ، ثم بدأ يتحرك عندئذ شرقاً بطول تلال سفوح جبل الشيخ ، ليستولى على قرية مزرعة بيت الجن . وكان يوجد بالمنطقة لواء مدرع سورى يضم حوالى ٣٥ دبابة . وسرعان ما واجه لواء إيتان مقاومة عند مفترق طرق حاضر ، حيث تم وقفه . وحل الظلام ولا يزال الإسرائيليون عاجزين عن دخول قرية حاضر . وفجر اليوم التالى ، يوم ١٢ أكتوبر ، أرسل لواء الجولانى للاستيلاء على القرية حيث نجح فى احتلالها . إلا أنه تعرض على الفور تقريباً لهجوم مضاد



المدرعات الإسرائيليه تبدا اختراق الخطوط السوريه على مرتفعات الجولان
يوم ٩ اكتوبر ١٩٧٣

المدفعية بعيدة المدى توفر معاونة بالنيران للمدرعات الإسرائيلية فى عمليات الجبهة السورية
يوم ١١ اكتوبر ١٩٧٣



سورى أمكن صده . وخلال نفس اليوم ، شن السوريون هجمات مضادة أخرى حتى حوالى الساعة ١٧٠٠ ، عندما انسحب اللواء السورى من هذه المنطقة ، ويقول هرتزوج إن قائد هذا اللواء المدرع السورى ، العقيد رفيق الحلاوى وهو درزى ، قد حوكم محاكمة عسكرية بعد ذلك ، وأعدم رمياً بالرصاص لانسحابه دون أوامر . وينفى السوريون ذلك بشكل قاطع .

أما الجناح الجنوبى من فرقة إيتان ، بقيادة لواء باراك ، فقد صدرت له الأوامر بالاستيلاء على قرية جابا . وسرعان ما صادف مقاومة بالقرب من تل الأحمر الذى يشرف على خان أرنبة ؛ وبحلول مساء يوم ١١ أكتوبر ، لم يكن قد وصل إلا إلى قرية حرفة الدرزية الصغيرة . وفى الصباح التالى ، دفعت قوات المظلات الإسرائيلية للأمام لإنقاذ لواء من ألوية لانر ، كان قد نجح فى الوصول إلى مفترق طرق معتز ، ثم حاصرته عندئذ قوات المشاة السورية خلال الليل .

وكان الجنرال هوف متلهفاً على اختراق دفاعات سلسلة ساسا الجبلية بسرعة ، وأمر إيتان بتحريك لوائه المدرع الشمالى بميل عبر الحدود السورية لمهاجمة تل شمس والاستيلاء عليه . وكان هذا التل الضخم يتحكم فى المنطقة الواقعة إلى الشرق ، ولاسيما طريق دمشق فى الجزء الذى يمر فيه خلال ممر ساسا الضيق . وكانت عناصر من الفرق السابعة والخامسة والتاسعة مشاة السورية [من الشمال إلى الجنوب بالترتيب) تحتل الخط الدفاعى السورى والمواقع الخارجية المتناثرة ؛ ورغم أنهم كانوا قد فقدوا مركباتهم أو تخلوا عنها ، فقد كانت لديهم وفرة من المدفعية وأسلحة المشاة . وكان قد تم سحب الفرقتين المدرعتين إلى الخلف ، حيث كان يعاد تزويدهما بالدبابات والمدافع .

وشن الإسرائيليون ثلاث هجمات منفصلة على تل شمس يوم ١٢ أكتوبر . وكان الهجوم الأول في وقت مبكر من اليوم . عندما تقدمت كتيبة دبابات إسرائيلية من طريق الماسادا إلى المنخفضات الواقعة إلى الشمال الغربى من قرية ساسا ، واندفعت على الأرض المفتوحة نحو هدفها . وتم تحطيم هذا الهجوم بنيران المدفعية السورية من الجزء الشمالى من سلسلة ساسا الجبلية ؛ وانسحبت بقايا الوحدة الإسرائيلية لتحتمى بالمنخفضات .

وخلال صباح يوم ١٢ أكتوبر ، كان السوريون يخططون لإنزال بعض قوات المظلات على جانبى منطقة تل شمس ، ولكنهم عن طريق الخطأ أنزلوا القوات فى وسط ميدان المعركة ، حيث خسروا طائرات الهليكوبتر والرجال على حد سواء .

وبدأ الهجوم الإسرائيلى الثانى حوالى الظهر ، وفشل هو الآخر . ويقول السوريون إنهم قد دمروا حتى ذلك الوقت ٤٠ دبابة إسرائيلية و٢٠ مركبة مدرعة أخرى . وحوالى الساعة ١٦٣٠ ، بدأ هجوم مدرع إسرائيلى فاشل آخر . يقول السوريون إنهم دمروا خلاله ١٨ دبابة أخرى . وخلال اليوم ، استخدم الإسرائيليون بكثافة صواريخهم الجديدة من طراز « تاو » ، بعد أن تلقوا شحنة من مخازن حلف شمال الأطلنطى فى هولندا ، ورغم هاتين

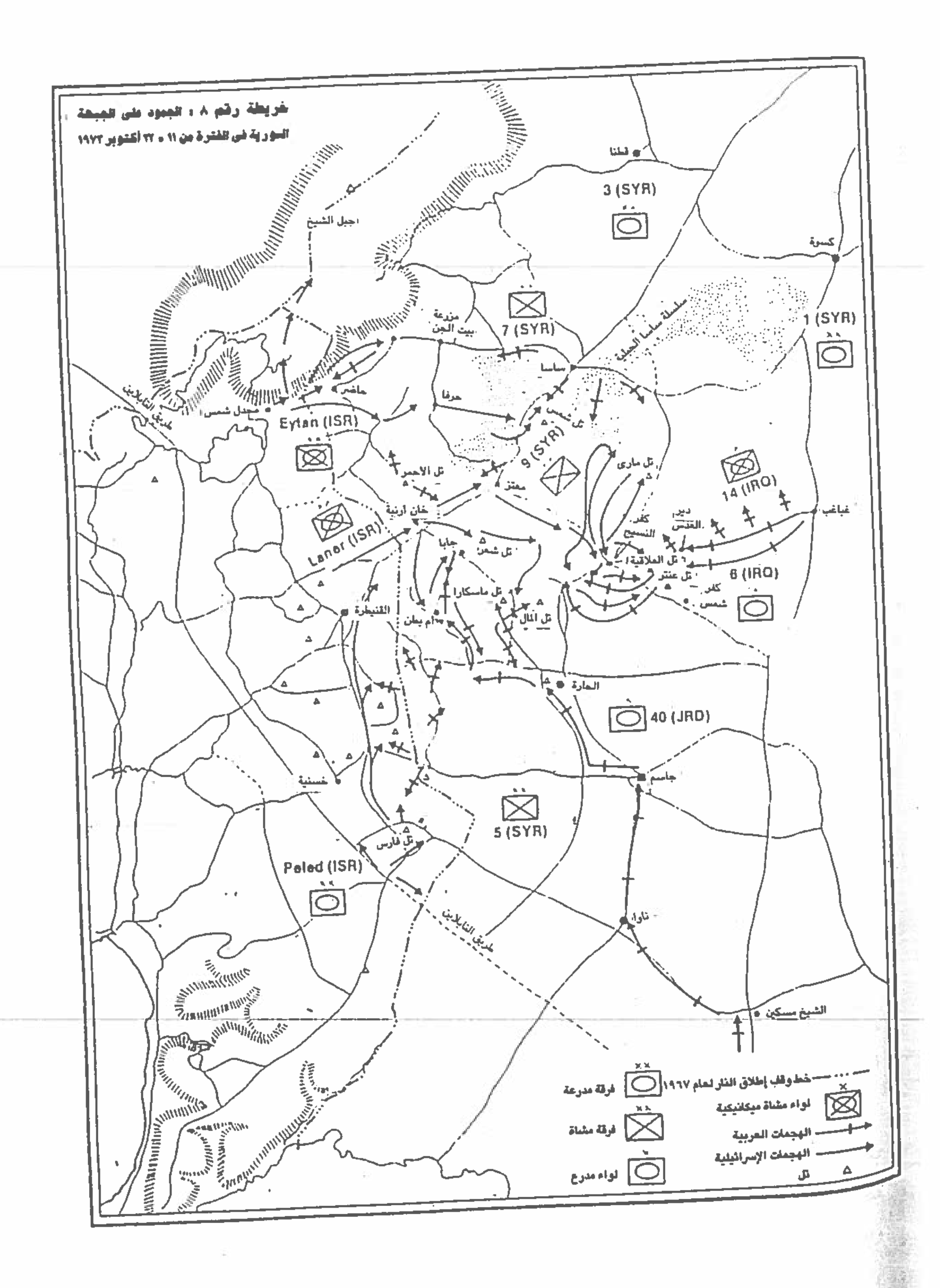
النكستين ، استرد الإسرائيليون معنوياتهم بدرجة كبيرة ؛ وكان كثير من العربات المدرعة الإسرائيلية تحمل شعارات مثل « قطار حيفا ـ دمشق السريـع » و « زوروا سوريـا السنية » .

وفى اليوم التالى ، ١٣ أكتوبر ، شن الإسرائيليون هجوماً أخر بالمواجهة على تل شمس ، سرعان ما باء بالفشل أيضاً ؛ ولكنهم كانوا قد أدركوا بحلول ذلك الوقت أنهم يستخدمون تكنيكات خاطئة .

فقد كانوا يهاجمون بالدبابات فوق أرض صخرية وحجرية مفتوحة ـ وأعلن قائد اللواء السابع المدرع نفسه أن ذلك كان « إساءة لاستخدام المدرعات » . كذلك ، فإن السوريين كانوا قد استقروا فى دفاعاتهم . ولم يكونوا يولون الأدبار بأى حال من الأحوال . مثلما كان بعض القادة الإسرائيليين يعتقدون نظراً لفداحة خسائرهم فى الأرواح والمعدات . وفى تلك الليلة ، ودون أى قصف تحضيرى بالمدفعية أو أى نيران مساعدة ، تحركت عناصر من اللواء ١٣١ مظلات الإسرائيلى فى هدوء على الأقدام من الخلف ، واستولت على تل شمس الضخم دون أن تخسر سوى أربعة جرحى . وفجر يوم ١٤ أكتوبر ، تحركت المدرعات الإسرائيلية إلى منحدرات التل ، ولكنها تعرضت لقصف مؤثر من نيران الهاونات السورية عيار ١٦٠ مم .

وإلى الجنوب ، اصطدمت فرقة لانر ، التى كانت تتقدم شرقاً من منطقة القنيطرة يوم ١١ أكتوبر ، بعناصر من الفرقة التاسعة مشاة السورية . ولم تصل الفرقة إلى مفترق الطرق الواقع عند قرية معتز إلا بصعوبة بالغة . وفى تلك الليلة ، قطع جنود المشاة السوريون الطريق خلف لواء لانر الأمامى ؛ وفى اليوم التالى ، ١٢ أكتوبر ، استخدمت قوات مظلات إيتان عرة أخرى لتطهيرها . وخلال يوم ١٢ أكتوبر ، تمكنت الهجمات الجوية السورية من وقف الإسرائيليين فى منطقة معتز . وبحلول ذلك الوقت ، ونظراً للمقاومة الشديدة فى منطقة تل شمس ، حول الجنرال هوفى اتجاه فرقة لانر إلى الجنوب . فكان عليه أن يلتف جنوباً حول النتوء الجنوبى البركانى من سلسلة ساسا الجبلية إلى منطقة طريق دمشق ـ درعا . وكان الهدف الأول هو قرية كناخ (التى يسميها الإسرائيليون « كناكر »). وحرك لانر اللواء ١٩ من مفترق طرق معتز جنوباً للاستيلاء على قرية كفر النسيج ، حيث أقام نقطة للتزود بالوقود . وكانت القرية تتحكم فى المنطقة الواقعة إلى الشرق منها ، ولاسيما حول تل عنتر وتل المال . أما اللواء ١٧ التابع للانر ، والذى قام بالتفاف أوسع ناحية الجنوب ، فقد تعرض لنيران السوريين من منطقة تل ماسكارا . ومـع تجاوز هـذا التل ، واصل الإسرائيليون طريقهم إلى كفر النسيج ..

وعندما تزود هذان اللواءان بالوقود ، أمرهما لانر بالتحرك إلى كناخ ، ووصلا إلى نقطة تعرف باسم التل ١٢٧ ، على مسافة ميلين فقط من هدفهما ؛ وإن كانت إحدى وحدات اللواء ١٩ قد وصلت حتى تل مارى على المحور الجنوبى من الهجوم الإسرائيلى . وكان تل


خريطة رقم ٨ : الجمود على الجبهة
السورية فى الفترة من ١١ - ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣
قطنا
3 (SYR)
كسوة
1 (SYR)
جبل الشيخ
مزرعة
بيت الجن
7 (SYR)
سلسلة ساسا الجبلية
ساسا
حضر
حرفا
مجدل شمس
Eytan (ISR)
طريق التابلاين
تل الأحمر
9 (SYR)
مغتر
تل مارى
14 (IRQ)
غباغب
دير العدس
كفر النسيج
خان أرنبة
Laner (ISR)
جابا
تل شعر
تل العلاقية
تل عنتر
6 (IRQ)
كفر شمس
تل ماسكارا
القنيطرة
الحارة
40 (JRD)
جاسم
خسنية
5 (SYR)
تل فارس
Peled (ISR)
طريق التابلاين
نوى
الشيخ مسكين
خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧
فرقة مدرعة
لواء مشاة ميكانيكية
فرقة مشاة
الهجمات العربية
الهجمات الإسرائيلية
لواء مدرع
تل

مارى يشرف على الطريق الجانبى الممتد من غباغب (التى يسميها الإسرائيليون « أباب ») . ومع تزود لوائه ، اللواء ٧٩ ، بالوقود في كفر النسيج ، فقد أقام لانر مقر قيادته في تل شعر ، وبعد الظهر وبينما كان يتطلع شرقاً ، رأى مجموعتين من الدبابات ، قدرهما معاً بحوالى ١٥٠ دبابة ، تتحركان شمالاً عبر جبهته . وظن أنها فرقة بيليد تتحرك شمالاً ، ولكن هوفى أبلغه بأن بيليد ما زال فى رافد ، واستنتج لانر عندئذ أنها لابد أن تكون فرقة مدرعة عراقية تتحرك إلى ميدان القتال . وفى الواقع ، فقد بالغ فى تقدير عدد الدبابات التى رآها ؛ فقد كان اللواء السادس المدرع العراقى ، وكان يضم حوالى ٦٠ دبابة فقط .

وفى نفس الوقت ، أقيمت فى دمشق هيئة أركان عراقية صغيرة بقيادة عميد عراقى لإدارة القوات العراقية فى سوريا ، وكانت تخضع للقيادة العامة السورية . وتم فرض درجة ما من التعاون بين السوريين والعراقيين . وكان ضابط الأركان العراقى ، الفريق أحمد النعمانى ، هو ممثل رئيس الأركان العراقى ، ومخولاً بصلاحيات كاملة للتصرف فى سوريا . وكانت الفرقة الثالثة المدرعة العراقية ، التى تم وضعها فى حالة تأهب ، تتحرك فى اتجاه سوريا ؛ إلا أن الفريق النعمانى أدرك أنها لن تكون كافية . وبناء على ذلك ، فقد وضع خططاً لأن تتحرك إلى جبهة القتال أيضاً فرقتان أخريان ولواء من القوات الخاصة .

ووصلت القوات العراقية إلى سوريا على دفعات . وكان أول تشكيل يصل هو اللواء الثامن مشاة ميكانيكية (من الفرقة الثالثة) . بقيادة العقيد محمود الوهابى ، الذى عبر الحدود فى التاسع من أكتوبر ؛ وفى اليوم التالى تبعه اللواء السادس المدرع بقيادة العقيد إمامى ، وكان قد وصل فى الليلة السابقة إلى شمارات بالقرب من الحدود السورية . ووصل العقيد إمامى إلى دمشق حوالى الساعة ١٩٠٠ ، ليجد أنه جاء على غير انتظار ، دون أن يجد تعليمات أو معلومات متاحة ، وقيل له ببساطة : « تقدموا وقاتلوا » ، مع الإشارة إلى اتجاه الجبهة بصورة مبهمة . وفى نهاية الأمر ، وصل اللواء السادس إلى الشمال مباشرة من غباغب حوالى الساعة ١٠٠٠ يوم ١١ أكتوبر .

وفى اليوم التالى ، قام الفريق محمد أمين قائد الفرقة الثالثة المدرعة العراقية بتقديم نفسه إلى اللواء شكور رئيس الأركان السورى فى دمشق . ووجهه شكور أيضاً بعبارة « تقدموا وقاتلوا » . ولكن دون أن يطلعه على شىء ذى قيمة . ولم ير الفريق أمين سوى الارتباك والفوضى ، والافتقار الواضح للمعلومات عن الوضع الراهن للمعركة . لم يكن لدى العراقيين سوى الخرائط التى أحضروها معهم ؛ فلم يقدم لهم السوريون أية خرائط . ولم يحصلوا على أية شفرة ، أو علامات نداء ، أو ترددات لاسلكى أو إشارات تعارف ؛ كما لم يخصص لهم أى ضباط اتصال سوريين .

وخلال الساعات الأربع والعشرين الأولى ، تغيرت مراراً الأوامر الصادرة للواء السادس المدرع العراقى ؛ فعلى سبيل المثال ، وضع فى البداية تحت قيادة الفرقة التاسعة ، ثم الخامسة ، مشاة السورية . وفى الساعة ٠٥٠٠ يوم ١٢ أكتوبر تلقى قائد

اللواء أمراً بمهاجمة الإسرائيليين فى منطقة كفر النسيج ، والابتعاد عن تل المال ؛ ولكن سرعان ما تغيرت هذه الخطة . وفيما بعد ، قال لى العقيد إمامى معلقاً إنه كان « صباحاً ضائعاً » .

وفي الساعة ١٣٠٠ ، قيل للعقيد أن يحرك لواءه إلى خط بداية بين كفر النسيج وتل المال ؛ وأن ساعة الصفر ستكون الساعة ١٤٠٠ . إلا أنه قبيل ذلك الموعد مباشرة ، تحدد له خط بداية جديد ، يمتد هذه المرة بين دير العدس ، الأبعد من جهة الشرق ، وتل المال . ومن موقعه على تل شعر ، على مسافة حوالى ستة أميال من كفر النسيج ، رأى الجنرال لانر هذه القوات العراقية تناور لاتخاذ مواقعها . وتحرك اللواء السادس العراقى من تل عنتر فى مجموعتين ، واحدة على محور الطريق الجانبى المتجه غرباً ، والأخرى إلى الشمال الغربى قليلاً فى اتجاه تل شمس .

ويروى الإسرائيليون والعراقيون روايات متناقضة عما حدث بعد ذلك من كل منهما تجاه الآخر ؛ وبوجه خاص ، يصعب التوفيق بين التوقيتات والتحركات المزعومة من الجانبين . يقول الإسرائيليون إنه بمجرد أن أدرك لانر ما يحدث ، فإنه أمر لواءه ، اللواء ٧٩ ، الذى كان يتزود بالوقود فى كفر النسيج ، بالانتشار جنوباً . وأمر اللواءين ١٧ و١٩ بالانسحاب من التل ١٢٧ ، كما أرسل اللواء ٢٠ المدرع ، الذى كان قد انضم إليه لتوه ، بالانتشار بين تل ماسكارا وتل المال . ويقول الإسرائيليون إن العراقيين راحوا يتقدمون ببطء إلى مدخل « منطقة الكمين » الذى كان لانر يجهزه لهم ، ولكنهم توقفوا قبل أن يبلغوه مباشرة فى الساعة ٢١٠٠ يوم ١٢ أكتوبر .

وخلال ليلة ١٢/ ١٣ أكتوبر . عزز لانر منطقة كمينه بنشر اللواء ١٩ على الطريق الذى يمتد خلف سفح تل شعر ، وبنشر اللواء ١٧ جنوباً على الطريق إلى كفر النسيج ، وبنشر اللواء ٧٩ شمالاً إلى مفترق طرق معتز . وكان ذلك يشكل موقعاً قوياً « على شكل حدوة حصان » ، يقوم على تل ماسكارا وجابا ومعتز وكفر النسيج ، مع فتحة تمتد أربعة أميال بين تل ماسكارا وكفر النسيج . ويقول الإسرائيليون إن العراقيين واصلوا تقدمهم فى الساعة ٠٣٠٠ يوم ١٣ أكتوبر ، وأنهم (الإسرائيليين) انتظروا حتى أصبحت الدبابات العراقية على مسافة ٣٠٠ متر قبل أن يفتحوا النار عليها . ويزعمون أنه بحلول الفجر ، كانت مدافعهم وصواريخهم قد دمرت أو أصابت ١٧ دبابة عراقية ، وأن العراقيين اضطروا للانسحاب .

وتختلف الرواية العراقية عن ذلك . فيقول العراقيون إنهم كانوا يتحركون من خط بدايتهم بعد ظهر يوم ١٢ أكتوبر ، وأن الطائرات الإسرائيلية هاجمتهم ، وأنهم واصلوا تقدمهم ، وأنهم تعرضوا فى الساعة ١٦٣٠ لنيران المدافع الإسرائيلية وصواريخ « تاو » . ويقولون إن إطلاق النار استمر حتى الساعة ١٨٠٠ ، وبعد ذلك ساد هدوء نسبى حتى

الساعة ٠٢٠٠ من صباح ١٢ أكتوبر . وينفي الإسرائيليون بشدة حدوث أي تبادل لإطلاق النار يوم ١٢ أكتوبر .

وقال لى قائد اللواء السادس المدرع العراقي إنه لم يستأنف تقدمه يوم ١٣ أكتوبر حتى الساعة ٠٧٢٠ ، عندما تلقت « مجموعته اليمنى » أوامر بالاستيلاء على كفر النسيج . وكان لواؤه مقسماً إلى مجموعتي عمل ، يمنى ويسرى ، لأنه لم يكن لديه سوى كتيبتي دبابات . وبعد قتال لمدة ساعة تقريباً ، نجح فى الاستيلاء على جزء من القرية فقط . وقام الإسرائيليون بهجوم مضاد . وانسحب العراقيون إلى منطقة تل عنتر مرة أخرى . وبعد ظهر يوم ١٣ أكتوبر ، هاجم العراقيون من جديد . ونجحوا هذه المرة فى احتلال كفر النسيج دون أية مقاومة فى الساعة ١٦٣٠ .

وعندما تقدمت « المجموعة اليسرى » من اللواء ، تعرضت هى الأخرى لكمين وتكبدت خسائر فادحة . مما اضطرها للانسحاب فى شيء من الارتباك . وفى وقت ما ، كانت الدبابات العراقية والإسرائيلية مختلطة ببعضها البعض فى حالة فوضى فى المنطقة الواقعة بين تل عنتر وكفر النسيج . ويزعم الإسرائيليون أنهم دمروا ٢٠ دبابة أخرى فى المجموعة اليسرى . وتم عندئذ سحب هذه المجموعة وإرسالها جنوباً إلى طريق دير العدس لاحتلال كفر شمس . وقال لى قائد اللواء السادس ، الذى كان قد تلقى خلال اليوم كتيبة دبابات أخرى كتعزيز لقواته ، إنه تلقى معاونة جيدة من المدفعية السورية خلال هذا القتال ، وأن المدفعية العراقية لم تكن قد وصلت بعد .

ورغم أن اللواء السادس المدرع العراقى قد وقع فى كمين وتكبد خسائر وانسحب إلى خط بدايته ، فإنه نجح فى وقف حركة التطويق التى كان الإسرائيليون يقومون بها جنوباً . ووقف العراقيون فى انتظار هجوم ليلى إسرائيلى ، وهو مالم يحدث . ويقول هرتزوج إنه فى يوم ١٣ أكتوبر ، تمكن الإسرائيليون من « تدمير لواء مدرع وتشتيت لواء آخر » - وهى مبالغة فى القول ، فلم يفعلوا سوى تعطيل جزء فحسب من اللواء المدرع . أما التشكيل العراقى الآخر . وهو اللواء الثامن مشاة ميكانيكية ، فلم يشترك فى القتال بالكاد ، وفى يوم ١٤ أكتوبر ، وهو اليوم الذى دخل فيه لواء مدرع أردنى سوريا للانضمام إلى العراقيين ، تلقى لانر أوامر بالبقاء حيث هو وإغلاق الطريق أمام التقدم العراقى . وكان لانر فى هذا الوقت يعانى من نقص فى الذخيرة ، وكان جنوده مرهقين ومنهكين .

ويزعم الإسرائيليون أن قوات الكوماندوز الإسرائيلية قامت يوم ١٣ أكتوبر ، فى غارة محمولة بطائرات الهليكوبتر ، بتدمير جسر على مسافة ٦٠ ميلاً شمال شرقى دمشق على الطريق الممتد من بالميرا ، بالقرب من قصر الحير . وكان هذا هو الطريق الذى تتحرك عليه القوات العراقية إلى سوريا ، عن طريق أبو حديثة وأبو جمل . ويقول هرتزوج إنهم « دمروا جسراً على طريق تقدم العراقيين ؛ وعندما توقف الجيش العراقى ، فتح الإسرائيليون النار من مواقع الكمائن ، حيث أشعلوا النار فى الشاحنات ونسفوا الدبابات » . وينفى

العراقيون أى علم بهذا الحادث ؛ ويقولون إنه على أية حال ، فإن تدمير جسر فى تلك المنطقة لم يكن يشكل عقبة فى موسم الجفاف .

وفى نفس الوقت ، فإن مما يوضح الوضع فى سوريا كان ذلك الاستقبال الذى قوبل به اللواء الثامن مشاة ميكانيكية (جزء من الفرقة الثالثة المدرعة) ، الذى وصل إلى مشارف دمشق فى الساعة ٠٤٠٠ يوم ١١ أكتوبر . وقال لى قائده العقيد الوهابى إنه لم يكن هناك أحد لمقابلته . وأن ما من أحد كان يتوقعه ، أو يعرف أى شيء فيما يبدو عن التدخل العراقى . وقال إنه عند الفجر رأى طائرات إسرائيلية تقصف دمشق ، وأنه رأى صواريخ سام تتصدى لها للمرة الأولى فى حياته . وعندئذ ، دخل المدينة بحثاً عمن يقدم نفسه إليه ويتلقى منه أوامره ؛ ولاحظ أن المتاجر كانت مغلقة والناس يختبئون ، وقابل بعضاً من « حرس طلاس الشخصى » الذين أخذوه إلى القيادة العامة ، التى كانت « داخل الجبل » ومن المفترض أنه كان جبل الدروز الذى يشرف على دمشق من جهة الشمال . وعندما دخل « سار لمدة عشر دقائق » حتى وصل إلى غرفة العمليات ، حيث وجد الرئيس الأسد .

وكان الأسد مسروراً برؤيته ، وقال له إن الإسرائيليين « قاموا باختراق صغير » فى منطقة ساسا ، وقال له إن « مجموعة قتال صغيرة من العراق ستغير الموقف » . وتم توجيه العقيد العراقى الذى لم يكن قد حصل على أية خرائط ، إلى الجزء الجنوبى من الجبهة ، وطلب منه حماية موقع لصواريخ سام إلى الجنوب مباشرة من دير العدس . وبعد أن اتخذ الطريق جنوباً من دمشق ، انحرف قائد اللواء العراقى غرباً عند غباغب ، حيث طلب منه بعض رجال الميليشيات المحلية أن « يتقدم ويقاتل » - وهى العبارة التى تكاد أن تصبح القول السورى المأثور للعراقيين خلال هذا الوقت الحرج .

وبينما كان العقيد الوهابى يقترب من دير العدس ، أدرك أنه ليس هناك أى خط للجبهة ، وأن الموقف برمته فى حالة من الارتباك السائب . وإلى الشمال الغربى ، رأى دبابات سنتوريون ومدافع ذاتية الحركة عيار ١٥٥ مم . ولما كان يعرف أنها لابد أن تكون إسرائيلية ، فقد وضع تشكيله فى مواقع دفاعية على طول الطريق . وكان الإسرائيليون الذين رآهم جزءاً من فرقة لانر يتقدمون صوب كناكر ، وظهر ضابط أركان عراقى وأوضح أنه يتعين على الوهابى أن يدافع عن طول الطريق من غباغب إلى دير العدس ، وهى جبهة تمتد ٢٠ كيلومتراً ظل يحتلها حتى نهاية الحرب . واتصل الوهابى بقائد اللواء ٤٣ المدرع السورى القريب منه ، والذى قال له ، « لقد انتهينا . إنها مهمتك الآن » .

ورغم أنه كان مخصصاً للأردن « دور تهديدى » فى **عملية بدر** ، فإن الأردن ظل سلبياً خلال الأيام الأولى من الحرب ؛ وكانت ثلاثة ألوية إسرائيلية فقط هى التى تغطى الجبهة الأردنية . وكثرت الشائعات عن اتفاق سرى بعدم الاعتداء بين الملك حسين وجولدا مائير بوساطة من الفرنسيين . ومع ذلك ، فإن المعلومات حول إرسال العراقيين فرقة مدرعة إلى سوريا قد أقلقت الملك حسين بشكل واضح ، والذى كان قد سمح على مضض بأن ترابط

فرقة عراقية فى الأردن وقت الحرب الأهلية ضد الفدائيين عامى ١٩٧٠ و١٩٧١ . وفى النهاية ، تم بعد لأى إقناع العراقيين بالرحيل . وكانت العلاقات بين الأردن والعراق رديئة بشكل واضح . وفى ٤ يناير ١٩٧٤ ، نسبت صحيفة **الديلى ميل** البريطانية للملك حسين قوله إنه « بعد اندلاع الحرب . اتفقت مع الرئيس السادات والرئيس السورى الأسد أن يدخل الأردن الحرب . ويشن هجوماً عبر نهر الأردن . بمجرد أن ينتهى السوريون من تحرير مرتفعات الجولان بالكامل ، وبمجرد أن يجتاز المصريون الممرات الصحراوية الرئيسية التى تتحكم فى سيناء » .

وفى العاشر من أكتوبر ، استدعى الملك حسين قوات الاحتياط ؛ وكلفتة على التضامن العربى ، أطلق سراح عدد من الفدائيين الذين كان يحتجزهم . وفى يوم ١١ أكتوبر ، قرر أن يرسل قوات إلى سوريا ، وكان السبب المعلن هو « حماية الجانب الجنوبى للفرقة العراقية » : إلا أن معظم المراقبين رأوا معانى سياسية في هذا القرار . وصدرت الأوامر للواء ٤٠ المدرع الأردنى بالاستعداد للتحرك . وكان اللواء أفضل تشكيلاته على الأرجح ؛ فقبل ثلاث سنوات فحسب كان يقاتل المدرعات السورية ، عندما قام السوريون بغزو الأردن . وكان هذا اللواء الذى يقوده العميد خالد المجالى . يضم حوالى ٩٠ دبابة سنتوريون ، ويتألف من كتيبتى دبابات وكتيبة مشاة ميكانيكية مع بعض الوحدات الفرعية المعاونة . وقد عبر الحدود إلى سوريا عند رامتا حوالى الساعة ١٢٠٠ يوم ١٣ أكتوبر ؛ وتحرك أولاً إلى نوا . ثم إلى جاسم التى وصلها فى حوالى منتصف الليل . وكلف فى البداية بمهمة القيام بهجوم مضاد عام ؛ ثم فى وقت مبكر من يوم ١٤ أكتوبر ، وضع تحت قيادة الفرقة الثالثة المدرعة العراقية .

وفى يوم ١٥ أكتوبر ، وهو اليوم الذى عرض فيه السوريون على الصحافة ٣٤ أسيراً إسرائيلياً فى بستان بالقرب من دمشق ، تلقى اللواء الأردنى أوامر بالاشتراك فى هجوم عراقى - أردنى مشترك فى اليوم التالى . فكان على العراقيين أن يستعيدوا تل عنتر ثم يندفعوا شمالاً ؛ أما الأردنيون ، الذين كانوا على يسار العراقيين ، فكان عليهم أن يستولوا على جابا ثم يقطعون الطريق بين جابا وتل عنتر . وإلى اليسار من الأردنيين ، كان هناك عدد من المواقع الدفاعية السورية على التلال ، كستار رفيع ضد الإسرائيليين الموجودين الآن فى المنطقة الواقعة بين رافد والقنيطرة . وكان الإسرائيليون يحتلون سلسلة من النقاط الحاكمة ، من بينها تل شبتون الذى يطل على القنيطرة ؛ وتل فارس الذى يطل على الممر الخارج من ثغرة رافد ؛ وتل شمس الذى يطل على طريق دمشق بالقرب من ساسا ؛ وتل ماسكارا وتل المال وتل عنتر التى تحمى الجزء الجنوبى ، وبوجه عام كان الإسرائيليون يتمتعون بميزة احتلال أراض أكثر ارتفاعاً بدرجة طفيفة ؛ ثم تنبسط جهة الشرق لتتصل بسهل دمشق ، الذى كان منبسطاً وجافاً ومترباً . وفى الجنوب ، كان الإسرائيليون قد شكلوا كتلة تمتد حتى دير العدس تقريباً .



الجنود الأردنيون يجهزون موقعاً لمدرعاتهم فى هضبة الجولان .



قائد اللواء الأردنى يشارك أفراد مقر قيادته طعامهم فى جبهة الجولان .



وفى يوم ١٤ أكتوبر ، دخلت السعودية الحرب ، حيث أقامت جسراً جوياً لنقل مفرزة من القوات فى ست طائرات نقل إيرانية من طراز سى ـ ١٣٠ من السعودية إلى سوريا . وكان التشكيل السعودى عبارة عن لواء مشاة قوامه نحو ٢,٠٠٠ جندى محمولين فى عربات نقل . وكان يضم بعض العربات المدرعة الفرنسية من طراز « بانارد » ؛ وكلف بمهمة حراسة طريق دمشق ـ درعا . وكان قوام الجيش السورى نحو ٣٨,٠٠٠ جندى ، وكان أحد ألويته يرابط فى جنوب الأردن منذ عام ١٩٦٧ . وفى نفس اليوم . أرسلت الكويت بطارية مدفعية إلى سوريا ؛ وفى يوم ١٧ أكتوبر ، استأنفت الحكومة الكويتية دفع الدعم السنوى الذى يبلغ حوالى ٤٠ مليون جنيه استرلينى ، والذى كان قد أوقف عام ١٩٧٠ .

وفى الساعة ٠٥٠٠ يوم ١٤ أكتوبر ، قامت المدفعية العراقية ، التى كانت قد وصلت لتوها ، بقصف بعض التشكيلات الإسرائيلية ؛ ولكن فى الساعة ٠٥٢٠ ، قام الإسرائيليون بهجوم مضاد استخدموا فيه الدبابات وصواريخ تاو المحملة على مركبات . وأجبروا العراقيين على الانسحاب من كفر النسيج . وأصيب الضابط العراقى الذى يقود المجموعة اليمنى . وعلى الفور ، أرسل قائد اللواء قوة صغيرة قوامها أربع دبابات لمحاولة مساعدة عناصر المجموعة اليمنى التى كانت لا تزال بالقرب من كفر النسيج . واعتقد لانر أنها وحدة مدرعات عراقية أخرى . وقال لى قائد اللواء العراقى ، « إن رد الفعل الفورى بقوة صغيرة يعطى نتائج أفضل من الانتظار لقوة أكبر فيما بعد . كانت عملية صدمة . ونجحت » . وفى ذلك المساء ، أرسل مجموعة دبابات صغيرة أخرى لتعزيز قواته بالقرب من كفر النسيج . ووصلت فى ذلك اليوم كتيبة دبابات أخرى ، كانت قد تركت فى الخلف بسبب نقص ناقلات الدبابات ، لتنضم إلى اللواء السادس المدرع ، بحيث أصبح فى هذا التشكيل أربع كتائب دبابات .

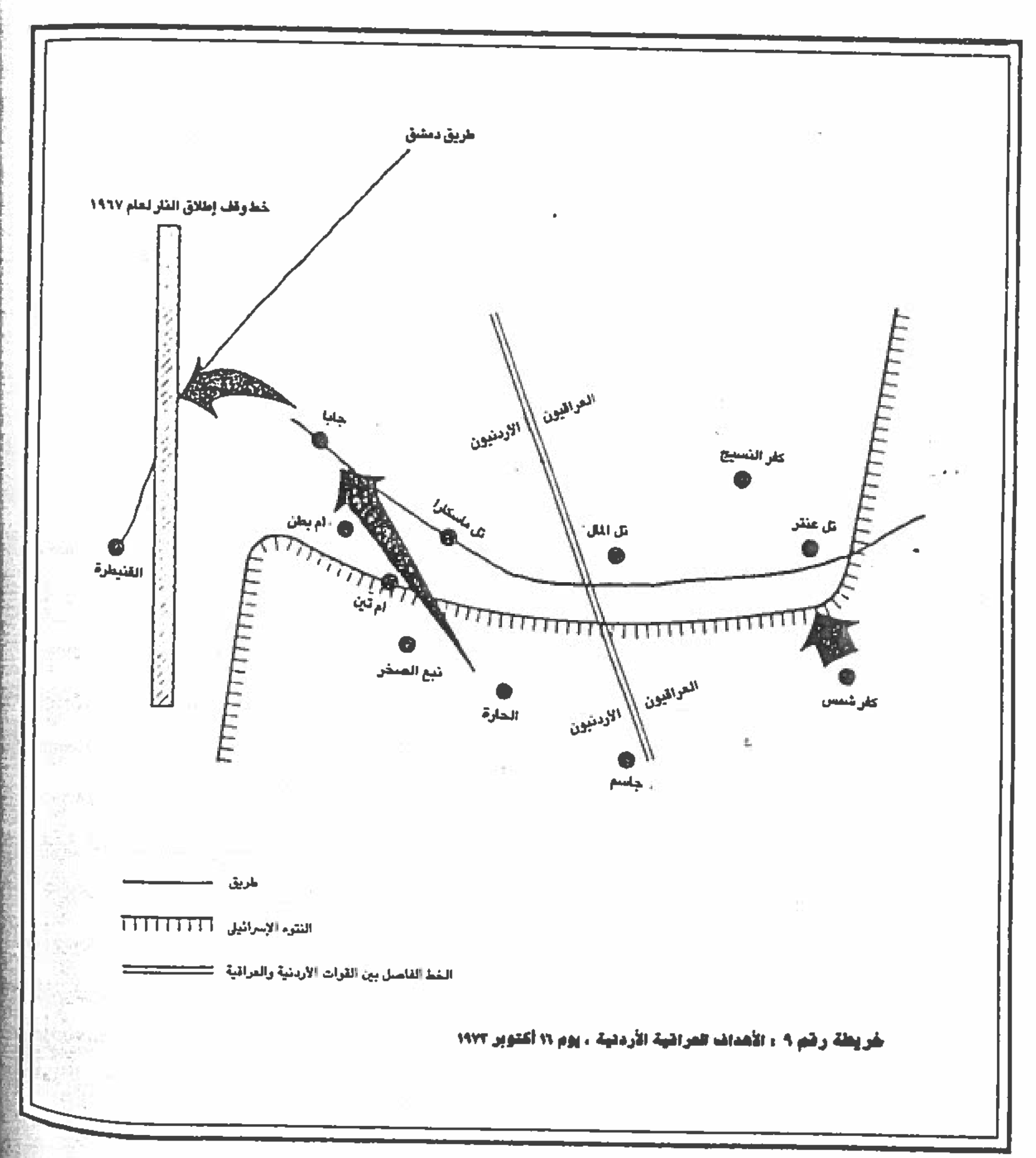
وفى الصباح المبكر من يوم ١٥ أكتوبر ، كان هناك تراشق بنيران المدفعية بين الإسرائيليين والعراقيين وتم قصف الطوابير الإسرائيلية التى كانت تتحرك جهة الشرق بين تل شمس وتل عنتر . وفى الساعة ١١٠٠ ، وجه الإسرائيليون قصفاً عنيفاً بشكل خاص إلى تل عنتر ، حيث كان يقع مقر قيادة اللواء السادس المدرع العراقى . وفى وقت لاحق من ذلك اليوم ، استولى الإسرائيليون على تل عنتر . وفى يوم ١٥ أكتوبر ، وصل قائد الفرقة العراقية ، مع لواء مدرع آخر ، هو اللواء ١٢ المدرع ، وأقام مقر قيادته على مقربة من قيطا على مسافة نحو ثلاثة كيلو مترات إلى الخلف من تل عنتر ، وقال لى قائد اللواء السادس المدرع العراقى إنه اندهش من السرعة التى كانت القوات العراقية تصل بها إلى ميدان القتال . وفى تلك اللحظة ، لم يكن العراقيون قد أدركوا تفوق قوة الإسرائيليين ، الذين كانوا يملكون عندئذ فى هضبة الجولان ستة ألوية مدرعة وثلاثة ألوية مشاة ميكانيكية وتسع سرايا « تيران » ، وهى دبابات من طرازت ـ ٥٤ وت ـ ٥٥ ومدافع ذاتية الحركة سوفيتية أعيد تجهيزها ، وكانت هذه السرايا موزعة بنسبة بطاريتين لكل لواء ، يصل إجمالى مدافعها إلى

١٠٦ مدافع . وكان الجزء الأعظم من هذه القوات يتشكل فى فرقتين ، فرقة لانر وفرقة إيتان ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، كانت هناك فرقة بيليد التى تتألف من أربعة ألوية فى منطقة خسنية ورافد . وكان الإسرائيليون أيضاً مندهشين من الهجمات العراقية .

وخلال الفترة من ١٢ حتى ١٦ أكتوبر . شن الإسرائيليون عدة هجمات صغيرة أثناء النهار على كل من العراقيين والأردنيين ، وإن كان العراقيون يقولون إن الإسرائيليين كانوا يلزمون مواقعهم الدفاعية أثناء الليل ، ونادرا ما كانوا يغامرون بالخروج منها . ويقول العراقيون إن قواتهم الخاصة أفادت بشكل جيد من ساعات الظلام ، حيث قامت بالعديد من هجمات المشاة الصغيرة ليلة ١٢/١٣ أكتوبر . وفى يوم ١٣ أكتوبر ، وصلت الكتيبة الأولى من لواء القوات الخاصة العراقي الذى يضم ثلاث كتائب ، لكى تستخدم فى القتال تلك الليلة والليالى التالية ؛ وقيل إنهم عطلوا العديد من الدبابات والمركبات الإسرائيلية .

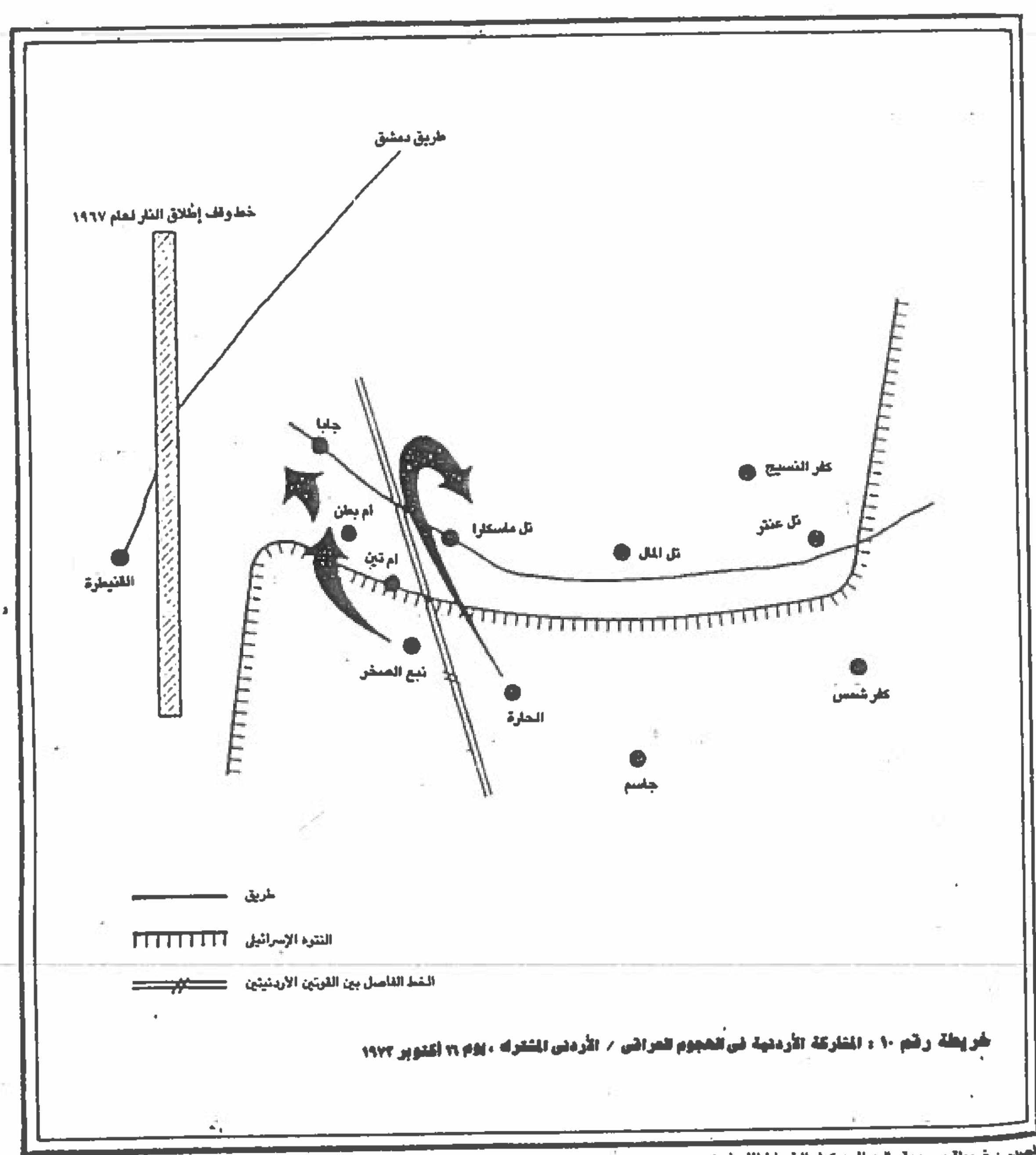
وكانت الخطة العراقية للهجوم المشترك يوم ١٦ أكتوبر تقضى بأن يتم بقيادة اللواء السادس المدرع ، الذى سيستولى على كفر النسيج وتل المال ، وكان على اللواء ١٢ المدرع والذى وصل مؤخراً أن يظل فى منطقة خط البداية « كقوة إيقاف » . ويقول هرتزوج إن العراقيين كانوا « يتحركون بصورة غير منسقة » ، ويقول الإسرائيليون إنهم هاجموهم بنيران المدفعية وهم ينتشرون على خط البداية ، ثم نصبوا لهم الكمائن وهم يتقدمون » . وعندما دمر الكثير من دبابات العراقيين ، عجزوا عن القيام بهذا الجزء من المهمة ، وهو حماية الجانب الأيمن للأردنيين . وقال لى القائد الأردنى إن اللواء السادس توغل داخل القوات الإسرائيلية « لمسافة عشرة كيلو مترات » . ووصل إلى أهدافه (كفر النسيج وتل المال) وعندئذ واجه هجمات مضادة إسرائيلية قوية وقصفاً جوياً ، استخدمت فيه صواريخ « تاو » بوفرة . وتم سحب التشكيل العراقى إلى خط البداية . ويقول الإسرائيليون إن اللواءين ١٩ و ٢٠ الإسرائيليين تمكنا من إخراج العراقيين من كفر شمس إلى تل عنتر وتل العلاقية على الترتيب . كذلك فإن اللواء ١٧ . بعد أن ضرب الأردنيين ، قام بحركة التفاف واسعة نحو الجنوب لينضم إلى المعركة مع العراقيين . ويقول هرتزوج إنه عندما انسحب العراقيون ، « تركوا خلفهم ٦٠ دبابة محترقة فى ميدان القتال » . ومن الناحية الأخرى ، يقول العراقيون إنهم دمروا ٣٠ دبابة إسرائيلية .

وفى وقت مبكر من يوم ١٦ أكتوبر ، تحرك اللواء ٤٠ المدرع الأردنى ، الذى كان ينقسم إلى مجموعتى قتال متساويتى الحجم تقريباً ، إلى خط بدايته الذى كان يقع إلى الشمال مباشرة من الحارة . وكانت ساعة الصفر هى الساعة ٠٥٠٠ ، حين كان مقررا أن تتقدم القوات العراقية والأردنية معاً ، ولكن عندما لم يظهر أى أثر للقوات العراقية فى الجانب الأيمن ، أجل قائد اللواء تقدمه انتظاراً لظهور القوات العراقية . ومع ذلك لم يبد أثر للعراقيين حتى الساعة ٠٦٠٠ ، فقرر أن يتقدم بدونهم حيث يقول « شعرت أن القوات العراقية تفتقر إلى الاستعداد القتالى » .



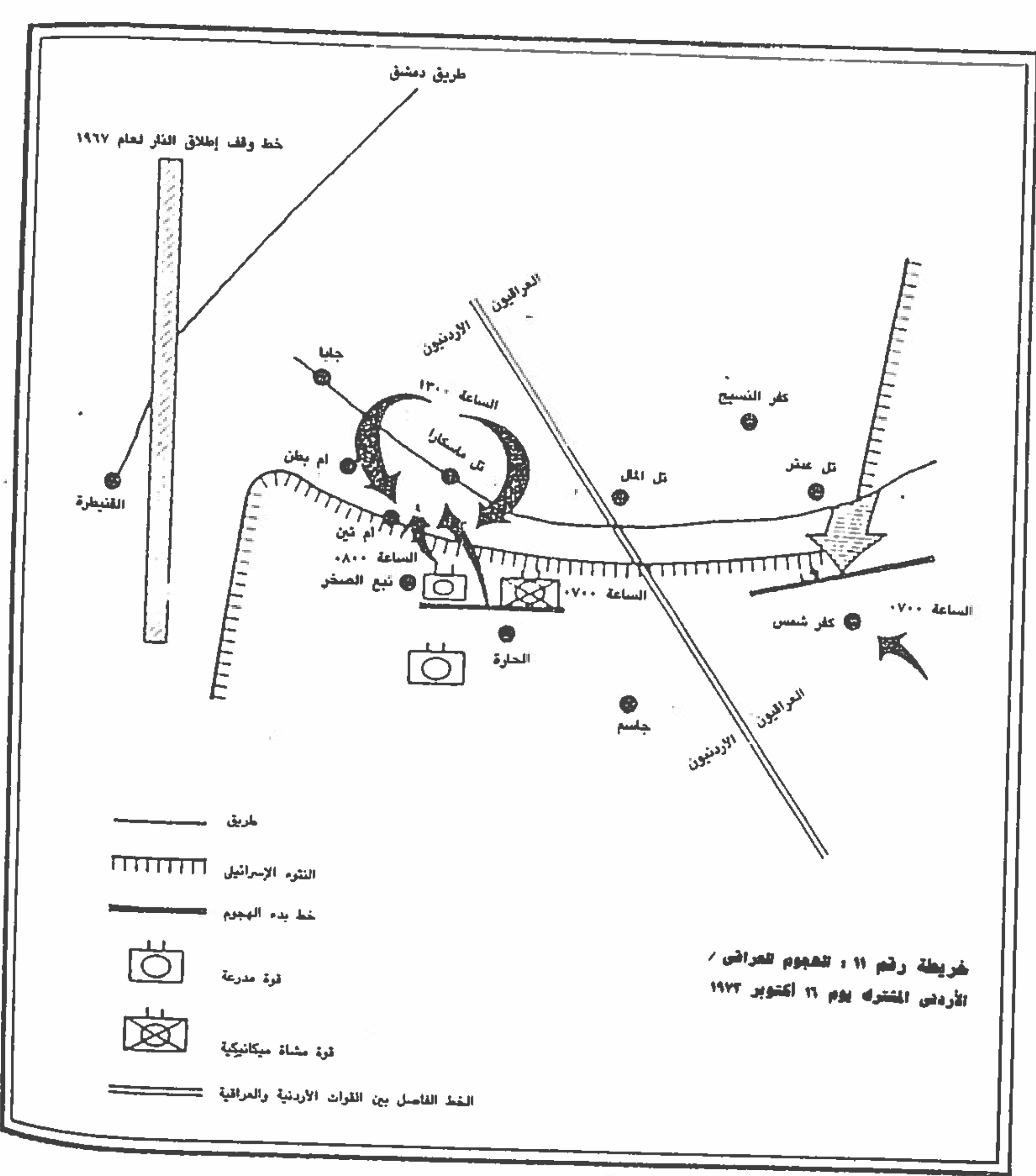
خريطة رقم ٩ : الأهداف العراقية الأردنية ، يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣

المصدر : خريطة مرسومة باليد لأحد كبار الضباط الأردنيين



خريطة رقم ١٠ : المشاركة الأردنية في الهجوم العراقي / الأردني المشترك، يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣

المصدر : خريطة مرسومة باليد لاحد كبار الضباط الاردنيين



خريطة رقم ١١ : الهجوم العراقي / الأردني المشترك يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣

المصدر : خريطة مرسومة باليد لأحد كبار الضباط الأردنيين.

وتحت غطاء من القصف المدفعى ، تقدم الأردنيون للأمام نحو تل ماسكارا ، ثم انحرفوا شرقاً نحو تل المال . وكان قادة الدبابات يطلون من أبراج دباباتهم وهم يرتدون الكوفيات ذات اللونين الأبيض والأحمر . ونصب اللواء ١٧ الذى كان فى انتظارهم « كميناً » لهم ، ويعترف الأردنيون بفقد عشر دبابات وعربتى نقل جنود مدرعتين فى قتال استمر ساعة واحدة . ويقول الإسرائيليون إنهم دمروا ٢٨ دبابة قبل أن ينسحب الأردنيون .

وفى الساعة ٠٧٠٠ ، تحركت مجموعة القتال الأردنية الأخرى لمهاجمة تل ماسكارا من الجنوب الغربى ، ورغم أن الأردنيين تعرضوا لنيران إسرائيلية من مدافع عيار ١٥٥ مم وصواريخ « تاو » فإنها كانت أقل تأثيراً هذه المرة ، ويقول الأردنيون إنهم دمروا خمس دبابات إسرائيلية . ويعترف الإسرائيليون بأن الإرهاق البالغ كان قد حل بهم جميعاً فى ذلك الوقت . واستولى الأردنيون على تل ماسكارا واحتفظوا به حتى حوالى الساعة ١٣٠٠ ، عندما تم إخراج مجموعة القتال وإعادتها إلى الحارة « لأن التشكيلات الإسرائيلية كانت تحيط بها » ..

وكان يوماً من الفوضى والارتباك للأردنيين والعراقيين بسبب الافتقار إلى التنسيق . فعلى سبيل المثال ، عندما تقدمت مجموعة القتال الأردنية الأولى . قصفتها المدفعية العراقية التى أخطأت أهدافها الفعلية . وفيما بعد ، عندما دعيت الطائرات السورية للمعاونة الأرضية . فإنها قصفت المدرعات العراقية عن طريق الخطأ . وفى منتصف اليوم ، استدعى الضابط السورى المسئول عن القطاع خارج العملية . وخلال اليومين التاليين ظل اللواء ٤٠ المدرع فى منطقة الحارة ، مكلفاً بمهمة الاحتفاظ بخط البداية الأصلى . ورغم حدوث تبادل لإطلاق النار ، فقد قضى الأردنيون معظم وقتهم فى إعادة التنظيم والتزود بالوقود .

وإلى الشمال من ذلك ، قام السوريون يوم ١٦ أكتوبر تحت غطاء قصف مدفعى مكثف انهالت خلاله قذائف الهاونات السورية عيار ١٦٠ مم على القنيطرة والمنطقة المحيطة بها ، قاموا بهجوم قوى فى اتجاه الغرب على طريق دمشق . وكان الهجوم يهدف إلى إخراج الإسرائيليين من تل شمس ودخول القنيطرة ، التى كانت لا تزال الهدف الرئيسى للسوريين . واصطدم الهجوم بلواءين إسرائيليين ، أحدهما فى تل شمس ، والآخر فى نقطة إلى الشمال منه . وكان القتال على تل شمس شرساً بشكل خاص ؛ ولقى نائب قائد لواء إسرائيلى مصرعه فى القتال . وبحلول وقت ما بعد الظهر ، تم وقف الهجوم ، ويزعم الإسرائيليون أنهم كبدوا السوريين خسائر فادحة فى الأرواح ، ويقول السوريون إنهم دمروا ٤٥ دبابة إسرائيلية على تل شمس فقط . وفى يوم ١٦ أكتوبر أذاعت الحكومة الإسرائيلية لأول مرة نبأ سقوط الموقع الإسرائيلى فى جبل الشيخ يوم السادس من أكتوبر .

وفى يوم ١٧ أكتوبر أعطى السوريون للعراقيين والأردنيين شفرات تعارف وإشارات

جديدة . وباستثناء بعض القصف . فقد قضى الجانبان معظم اليوم فى الراحة والاستعداد وإعادة التنظيم ، وزعم الإسرائيليون فيما بعد أنهم « اعتبروا اليوم أجازة » . وفى يوم ١٧ أكتوبر . انتقل مقر قيادة فرقة لانر إلى بيليد ، ولكن معظم الألوية ظلت فى مواقعها ، وغيرت تبعيتها القيادية فحسب .

وكان هناك استثناء واحد لحالة الهدوء العامة . فقد أصدر الجنرال هوفى أوامره إلى بيليد بالاستيلاء على قرية أم بطن التى يحتلها السوريون ، والتى تقع على مسافة نحو ثلاثة أميال إلى الشرق من القنيطرة ؛ وكانت تسيطر على مدخل القنيطرة . واستخدمت قوات مظلات من فرقة إيتان ، وهى التى كانت قد استولت قبل ذلك على تل شمس فى هجوم ليلى ، فى الاستيلاء على هذا الهدف الجديد . ونجحت القوات فى ذلك دون أن تتكبد خسائر كثيرة ؛ ويزعمون أنهم دمروا ست دبابات سورية .

وبينما كانت قرية أم بطن تتعرض لنيران المدفعية السورية ، واصلت قوات المظلات الإسرائيلية ، فى الساعات الأولى من يوم ١٨ أكتوبر ، الاستيلاء على بعض المرتفعات الواقعة إلى جنوبها . ومع أول ضوء ، تعرض لواء مشاة ميكانيكية ، تم إرساله لاحتلال المواقع التى تم الاستيلاء عليها ، تعرض لهجمات مضادة سورية ، كما تعرض لنيران مكثفة فى المدفعية السورية . (حدد هرتزوج هذه القوة الإسرائيلية بأنها اللواء ١٤ مشاة ميكانيكية بقيادة اللفتنانت كولونيل موشى ميلر . وبعد الحرب ، أصبح ميلر من أبرز المحتجين على الطريقة التى أديرت بها الحرب) . واستمرت المعركة طوال النهار والليل حتى صباح يوم ١٩ أكتوبر . وإلى الشمال من ذلك ، تمكنت كتيبة مشاة إسرائيلية يوم ١٨ أكتوبر من الاستيلاء على قرية مزرعة بيت الجن ، التى كان يحتلها العقيد رفعت الأسد وحرسه الجمهورى . وفى يوم ١٨ أكتوبر أيضاً ، كان العراقيون يريدون شن هجوم مشترك أخر ضد الإسرائيليين ، ولكن القيادة العامة السورية لم توافق ؛ وبدلاً من ذلك ، صدرت أوامر بشن هجوم فى اليوم التالى .

وكان ١٩ أكتوبر هو يوم الهجوم المشترك العربى الثانى ضد الإسرائيليين فى جبهة الجولان . كان اللواء الأردنى ، الذى كان على يسار العراقيين ، لا يزال مقسماً إلى مجموعتي قتال . تحركت إحداهما عند الفجر من موقع إلى الجنوب الشرقى من الحارة ، ولكن صده الإسرائيليون ، الذين كانت لديهم كتيبة دبابات على مقربة من المكان . وتعرضت دبابات السنتوريون الأردنية للقذائف ، ليس من جانب الإسرائيليين وحدهم ، وإنما أيضاً من جانب السوريين والعراقيين ، عن طريق الخطأ . وانسحب الأردنيون بعد أن قتل منهم ١٢ جندياً وتركوا دبابتين مدمرتين .

وفى الساعة ٠٧٠٠ ، صدرت الأوامر للتشكيل الأردنى باستعادة أم بطن . فترك نبع الصخر وتحرك شمالاً . ورغم أن الإسرائيليين رأوا مجموعة من الدبابات الأردنية تتقدم نحوهم ، فإنهم لم يروا مجموعة أخرى أغلقت فتحات أطقمها تقوم بتغطية المجموعة الأولى

من مواقع ثابتة . وفتحت هذه المجموعة الثانية نيرانها على الإسرائيليين من مسافة ١,٥٠٠ متر ، ويقولون إنهم دمروا عشر دبابات إسرائيلية بقذائفهم الأولى . وعندئذ انسحب لواء المشاة الميكانيكية الإسرائيلى إلى جابا . أما المدرعات الأردنية التى كانت تتعقبها ، فقد وقعت فى كمين نصبه الإسرائيليون إلى الجنوب الغربى من جابا مباشرة وخسرت أربع دبابات على الأقل أصابتها صواريخ « تاو » .

وفى الساعة ٠٧٣٠ ، صدرت الأوامر لمجموعة القتال الأردنية الأخرى بالتحرك لقطع طريق ماسكارا ــ جابا . وأرسل الإسرائيليون من جابا قوة من سبع دبابات لملاقاتهم . وفى القتال . دمر الأردنيون ثلاث دبابات ، وانسحب الإسرائيليون بعد ذلك . وقطع الأردنيون الطريق ، وبقوا هناك حتى الظهر تقريباً عندما انسحبوا . وحوالى الساعة ١٥٣٠ ، هاجمت طائرتا فانتوم القوات الأردنية . وكان ذلك غير مألوف إلى حد ما . حيث لم يقم الإسرائيليون بنشاط جوى مباشر واسع فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت . وقال لى الأردنيون إنهم لم يردوا بنيران مدافعهم المضادة للطائرات .

وحوالى الساعة ١٧٣٠ ، بدأت مجموعتا القتال الأردنيتان تتحركان للأمام مـرة أخرى . وعندما تعرضت كلتاهما للعـديد من قـذائف المدفعيـة وصواريـخ « تاو » الإسرائيلية ، قيل لقائديهما أن « يتصرفا حسب تقديرهما ومبادرتهما » وأطلق الأردنيون النار على جابا وتل الكروم القريب منها . ولكن بحلول ذلك الوقت ، كان ضوء النهار يخبو وأصبحت الرؤية ضعيفة ، فتلقى الأردنيون أمراً بالعودة إلى الحارة .

ورواية الإسرائيليين عن القتال ضد الأردنيين يوم ١٩ أكتوبر تختلف فى جـوانب كثيرة . فهم يقولون إنه فى حوالى الساعة ١٠٠٠ ، تحركت مجموعة قتال أردنية من الحارة لضرب الجناح الغربى من فرقة بيليد ، بين تل المال وتل ماسكارا ، وكان الأردنيون ، الذين كانوا يتقدمون فى تشكيل عريض فى اتجاه تل ماسكارا ، بطيئين فى حركتهم ، حيث استغرق الأمر منهم أكثر من ساعة للوصول إلى هدفهم ؛ وبحلول ذلك الوقت كانت المدفعية الإسرائيلية قد تدخلت . ولم يستول الأردنيون على المرتفعات المحيطة بتل ماسكارا إلا عند الظهر ، ولكن عندئذ أوقفهم الإسرائيليون الذين كانوا على التل نفسه . وحوالى الساعة ١٣٠٠ ، شنت وحدة مشاة ميكانيكية إسرائيلية ، من التلال الواقعة إلى الغرب من أم بطن ، هجوماً على الجناح الأردنى وأجبروا الأردنيين على الانسحاب . وتركوا حوالى ١٢ دبابة محترقة على جوانب التلال : وحوالى الساعة ١٥٠٠ ، عاد الأردنيون إلى منطقة الحارة . ويزعم الإسرائيليون أنهم دمروا ٣٠ دبابة فى ذلك اليوم .

كذلك تختلف أيضاً الروايتان الرسميتان العراقية والإسرائيلية عن قتالهما ضد بعضهما البعض يوم ١٦ أكتوبر . فالعراقيون يقولون إن لواءهم ١٢ المدرع تقدم حوالى الساعة ٠٩٠٠ ، بالدبابات فى المقدمة ، تتبعها المشاة فى ناقلات الجنود المدرعة . وقال لى القائد العراقى إنهم « تقدموا لمسافة نحو ستة كيلو مترات ، ولكنهم ارتدوا للخلف مرة

أخرى فى الساعة ١٥٠٠ ، بعد تعرضهم للقصف الجوى وصواريخ تاو ، التى كان مداها أكبر من مدى مدافع دباباتنا » .

ويقول الإسرائيليون إنه فى أول ضوء من يوم ١٩ أكتوبر ، بدأ العراقيون الذين كانوا يتركزون فى كفر شمس ، يتقدمون للأمام تحت غطاء قصف مدفعى مكثف على تل عنتر وتل العلاقية (وهما مرتفعان استراتيجيان فى اللجة الكبرى ، وهى نتوء من الصخور الجيرية والبركانية إلى الجنوب الشرقى من الجانب الآخر من طريق دمشق - درعا) . وكان اللواءان ٢٠ و١٩ الإسرائيليان يحتلان هذين المرتفعين على الترتيب . وكان الهجوم الأول على اللواء ٢٠ على تل عنتر ، وخلاله تم تثبيت اللواء ١٩ بنيران مكثفة ، ونجح اللواء ١٩ فى التحرك والقيام بهجوم واسع ضد الجناح الجنوبى للعراقيين ، وهو التحرك الذى جعل الهجوم العراقى يتداعى .

وبدأ الهجوم العراقى الثانى حوالى منتصف النهار ؛ وفى هذه المرة تقدم المشاة فى ناقلات الجنود المدرعة بينما تبعتهم الدبابات على مقربة للمعاونة . وترجل جنود المشاة على مسافة حوالى ٣,٠٠٠ متر من المواقع الإسرائيلية ، وشنوا هجوماً بالمشاة ، ولكن تم صده . وشن العراقيون هجومهم الثالث بعد الظهر ، عندما تقدمت موجة بعد موجة من الدبابات ، ووراءها جنود المشاة على أقدامهم هذه المرة . وهكذا ، بدأت معركة استمرت سبع ساعات ، استخدم الإسرائيليون خلالها معاونة المدفعية بشكل واسع ، ولكن لم تكن هناك معاونة جوية قريبة . وفى بعض الأوقات ، كانت الدبابات العراقية والإسرائيلية تختلط ببعضها البعض على التلين المرتفعين . وتدخل اللواء ٢٠ من الشمال ، من منطقة تل العلاقية ، فى لحظة حرجة من المعركة . وفاجأ ذلك العراقيين ، حيث كان لديهم انطباع بأن السوريين يسيطرون على سفوح تل العلاقية . وانسحب العراقيون فى نهاية الأمر ، تاركين وراءهم ، كما يقول هرتزوج ، « ٦٠ دبابة محترقة فى الميدان ، فى سهل ومنحدرات تل عنتر وتل العلاقية ، ونفس العدد من ناقلات الجنود المدرعة » . ويستطرد هرتزوج ليعترف بأن هذه المعركة كانت من نوع « اضرب واهرب » ، وأن الإسرائيليين تكبدوا كثيراً من الخسائر فى الأرواح وفقدوا كثيراً من المركبات .

وليلة ١٩ أكتوبر ، نشطت القوات الخاصة العراقية ، وقد أصبحت الآن لواء كاملاً يضم ثلاث كتائب ، فى العمل ضد المواقع الإسرائيلية . وفجر يوم ٢٠ أكتوبر ، حوصرت مجموعة منها فى المنطقة الواقعة بين تل عنتر وتل العلاقية ، حيث كانت الدبابات الإسرائيلية تتقدم للأمام لاحتلال مواقعها المتقدمة خلال النهار ، واندفعت الدبابات الإسرائيلية نحوهم ، وسحقت كثيراً منهم ، ويزعم الإسرائيليون أنهم تركوا خلفهم جثث ٣٥ عراقياً ، بينما هرب الباقون . وليلتا ٢٠ و٢١ أكتوبر ، تسللت القوات الخاصة العراقية وراء الخطوط الإسرائيلية خلال الليل ، وتمكنت من تدمير وإصابة عدد من المركبات والمدافع .

وخلال الفترة من ٢٠ حتى ٢٢ أكتوبر ، لم يحدث تغيير كبير فى المواقع الأساسية فى

جبهة الجولان ولكن خلال النهار ، كان هناك تراشق متكرر بالنيران ، وصدامات بين الدوريات ، ونشاط جوى بين الحين والآخر . ويقول العراقيون إن الإسرائيليين لم يقوموا بأية تحركات أثناء الليل ، وإنما ظلوا قابعين فى مواقعهم الدفاعية ؛ بينما يقول الإسرائيليون إن ذلك ليس صحيحاً ، ويقول الإسرائيليون أيضاً إن نمطاً خاصاً بدأ يظهر ، ففى كل صباح ، فيما بين الساعة ١٠٠٠ والساعة ١١٠٠ ، يقوم العراقيون والأردنيون بمهاجمة الجناح الإسرائيلى الجنوبى . ويقول العرب إن النمط الإسرائيلى كان يتمثل فى توجيه نيران للمضايقة بالمدافع والهاونات فيما بين الساعة ٠٣٠٠ والساعة ٠٧٠٠ ، ولكنهم يظلون صامتين خلال الليل .

وكان الإسرائيليون يأملون فى التقدم على محور طريق دمشق ، ولكن العراقيين والأردنيين كانوا يضربون جناحهم الجنوبى . واضطر ذلك الجنرال هوفى لوقف هجومه الرئيسى ومحاولة الانحراف جنوباً . وكان الجنرال لانر قد بالغ فى تقدير أعداد القوات المواجهة له . ونظراً للأولوية المعطاة لجبهة قناة السويس ، فقد قبل الإسرائيليون بصورة ضمنية الجمود الفعلى بعدم قدرتهم على التقدم خلال ، وليس حول سلسلة ساسا الجبلية . ومع ذلك ، ومع تردد الحديث عن وقف لإطلاق النار متوقع قريباً ، فقد كان الإسرائيليون متلهفين لدواعى المكانة ، على استعادة مركز مراقبتهم فى جبل الشيخ ، وهو المركز الذى فقدوه فى اليوم الأول من الحرب .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر ، كلفت كتيبة من لواء الجولانى باستعادة الموقع ، وبدأت تتقدم بالمواجهة على الطريق الملتف حول المنحدر النازل من مجدل شمس بالقرب من منصة التزحلق على الجليد . ولم يكونوا قد قطعوا مسافة كبيرة جداً عندما تعرضوا لنيران القناصة من القوات الخاصة السورية ، الذين كانوا قد اتخذوا مواقع حجرية على جانبى الطريق . وكان كل القناصة مزودين ببنادق ذات تلسكوبات تمكنهم من اصطياد المهاجمين . وأطلق السوريون أيضاً وابلاً من نيران الهاونات على الإسرائيليين ؛ ومن بين الدبابات السنتوريون الأربع التى كانت تتقدم الهجوم ، دمرت واحدة على الفور تقريباً بنيران المدافع المضادة للدبابات بينما احترقت دبابة أخرى ، بالإضافة إلى العديد من العربات نصف المجنزرة ، وعندما لقى قائد الكتيبة مصرعه ، اتضحت صعوبة المهمة ، وألغى الهجوم الإسرائيلى . وقد كلف هذا التقدير السىء للمعنويات السورية الإسرائيليين ٣٠ قتيلاً وكثيراً من الجرحى .

ومع جرح كرامة الإسرائيليين بهذه الانتكاسة المهينة ، فقد خططوا عملية مشتركة كبيرة لاستعادة هذا الموقع العزيز عليهم . وكانت العملية تشمل استخدام المدرعات والمدفعية والمظلات والمشاة والطائرات . وبدأ الهجوم حوالى الساعة ١٤٠٠ يوم ٢١ أكتوبر . وظلت الدبابات وغيرها من المركبات المدرعة بالقرب من منصة التزحلق على الجليد ، بينما بدأ جنود المشاة من لواء الجولانى يتسلقون جانب الجبل فى مواجهة نيران

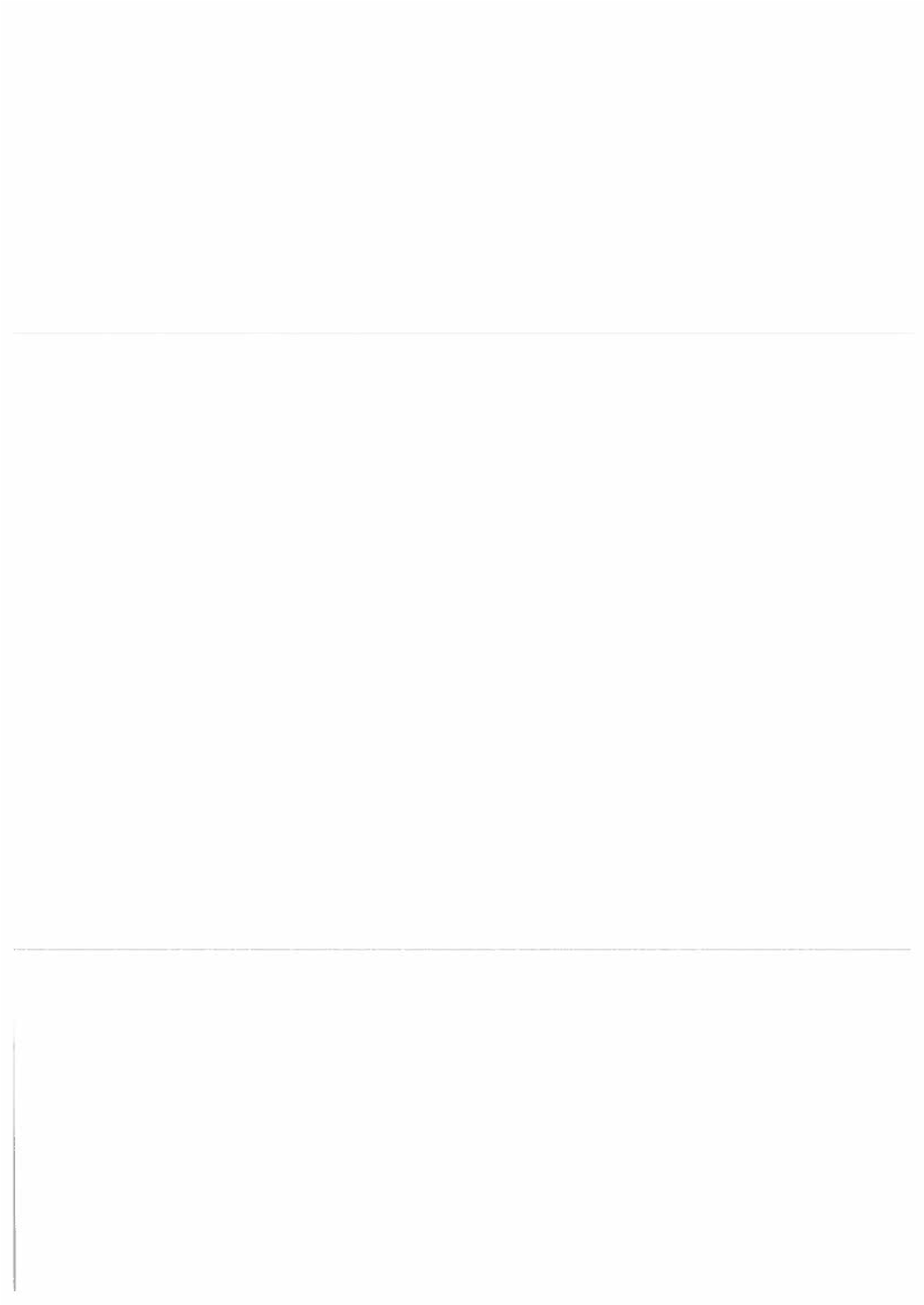
القناصة والهاونات . وفى وقت ما ، أصيب قائد اللواء ونائبه بجراح ، مما بدد قوة الاندفاع ، وتوقف الهجوم ، وكانت هناك وقفة حتى تقدم ضابط عمليات اللواء ، وهو برتبة الميجور ، واستأنف الهجوم من جديد . وخلال هذا التقدم على جانب الجبل فى ضوء النهار ، خسر الإسرائيليون ٤٠ قتيلاً فى فترة بعد الظهر . ولقى قائد كتيبة مصرعه وأصيب آخر .

وحوالى الساعة ١٥٠٠ ، نزلت أربع طائرات هليكوبتر إسرائيلية حول الهدف ، وأنزلت قوات المظلات ، ثم أقلعت بسرعة . وبدأ جنود المظلات يطلقون نيران القنص على الموقع الذى يسيطر عليه السوريون ، وهم ينتقلون من صخرة إلى أخرى أثناء مناوراتهم للاقتراب من الموقع . وفى نفس الوقت تقريبا . أنزل الإسرائيليون جنوداً من عشر طائرات هليكوبتر أخرى على الأقل فى نقاط أكثر انخفاضاً على جانب الجبل ، فى اتجاه الشمال الشرقى . ورغم أن هؤلاء الجنود تسلقوا مسافة ما على منحدر الجبل ، فإنهم ظلوا أسفل قمة السلسلة الرئيسية ، وكانوا محصنين بدرجة كبيرة من نيران القناصة والهاونات التى يطلقها المدافعون . وقامت طائرات هليكوبتر أخرى . بإسقاط ذخائر وإمدادات لهم .

وكان العقيد الذى يقود القوات الخاصة السورية التى تحتل مركز المراقبة قد استولى فى البداية على السلسلة الجبلية (وظل يحتلها طوال الحرب) وفى تلك اللحظة بعينها ، كان فى موقع آخر على الجبل ، ولكنه أمر رجاله فى مركز المراقبة « بالمقاومة حتى الموت » . وفى حوالى الساعة ١٦٠٠ ، سارع السوريون بدفع تعزيزات إلى مواقعهم فى جبل الشيخ ، وكانت معركة جوية تدور بشكل متقطع فى السماء فيما بين الساعة ١٦٠٠ والساعة ١٧٠٠ ، حيث كان كل من الجانبين يحاول توفير معاونة أرضية وثيقة لقواته . ويزعم الإسرائيليون أنهم فى نهاية اليوم كانوا قد دمروا ١٥ طائرة سورية وثلاث طائرات هليكوبتر « معظمها فوق جبل الشيخ » ..

إلا أنه فى مقر القيادة السورية ، التى كانت منهمكة فى التخطيط لعملية مشتركة كبرى يوم ٢٣ أكتوبر ، كانت هناك مراجعة لمدى استحسان فكرة السماح لوحدة القوات الخاصة الوحيدة لديها بأن تقاتل حتى النهاية بحيث يتم تدميرها . فكل خبرتها ستضيع ، دون أن يتبقى شىء يمكن إعادة بنائه أو توسيعه . وبسبب إقناع الروس لهم من ناحية ، وبسبب النجاح الذى قالت القوات الخاصة العراقية إنها حققته من ناحية أخرى . وأساساً لأنه كان يبدو أن الإسرائيليين كانوا يتوقفون عن الحركة والقتال ليلاً ، فقد صدرت الأوامر لجنود الكوماندوز السوريين ذوى التدريب العالى بإخلاء جبل الشيخ ليلة ٢١ أكتوبر ، والعودة إلى الخطوط السورية .

وبعد أن حل الظلام ، ترك جنود الكوماندوز السوريون ، فى مجموعات صغيرة ، مركز المراقبة وغيره من المواقع التى كانوا يحتلونها فى جبل الشيخ ، ولم يقع فى أيدى الإسرائيليين سوى بضعة أفراد منهم . أما تلك القوات الخاصة السورية التى أوقفتها القوات اللبنانية



عندما وصلت إلى ذلك القطاع من الجبل الذى يقع داخل لبنان . فقد استجوبهم اللبنانيون ثم سمحوا لهم بالانضمام إلى قواتهم عن طريق الشمال . إلا أن اللبنانيين لم يقدموا لهم أى مواد غذائية أو مياه أو مساعدة على الإطلاق ، حتى بالنسبة للجرحى ؛ وهو ما جعل جنود الكوماندوز السوريين أميل إلى مشاعر المرارة تجاه اللبنانيين . وقد تكبدت وحدة القوات الخاصة . التى يبلغ قوامها ٥٠٠ فرد ، خسائر تبلغ نحو ١٠٠ قتيل خلال الحرب .

وإلى الشمال الشرقى من ذلك على سلسلة جبل الشيخ ، راح جنود المظلات الإسرائيليون ، الذين كانوا قد انتشروا تحت خط القمة مباشرة ، يتسلقون الجبل بعد حلول الظلام بفترة ما ، واحتلوا موقعين سوريين والقمة الفعلية لجبل الشيخ . ويقول ليتواك إنه « خلال العملية بأكملها ، لم تخسر قوات المظلات سوى جريح واحد » . كانت مجرد نزهة : فالمدافعون السوريون كانوا قد رحلوا .

وتتفاوت إلى حد ما الروايات الإسرائيلية عن احتلال جبل الشيخ يوم ٢١ أكتوبر ، ولكنها تؤكد بوجه عام أن القتال استؤنف فى الساعة ٠٦٠٠ ؛ بينما كانت القوات الإسرائيلية تواصل شق طريقها لأعلى على الطريق الممتد من مجدل شمس إلى مركز مراقبتهم السابق . ويزعمون مرة أخرى أنهم رفعوا العلم الإسرائيلى على المركز فى الساعة ١٠٥٨ . ويذكرون أيضاً أنه كانت هناك نيران قناصة ، بل وحتى بعض القتال المتلاحم . ويصر السوريون على أنهم سحبوا قواتهم من الجبل فى الليلة السابقة . ويعترفُ ضباط إسرائيليون بأنهم قابلوا جنوداً سوريين يهبطون جانب الجبل خلال الليل ، ولكن ربما ظل بضعة قناصة سوريين فى الخلف حتى اللحظة الأخيرة .

وراح الإسرائيليون ، الذين كانوا يستخدمون طائرات الهليكوبتر لإنزال المزيد من القوات والمدافع ، يتقدمون بحذر على قمة الجبل . واحتلوا ثلاثة مواقع سورية خالية أخرى ، قبل أن تتوقف التحركات البرية بوقف إطلاق النار فى الساعة ١٨٥٢ ، وقد ظل إطلاق النار فى المنطقة ، بل وفى الجبهة بأكملها ، حتى حوالى الساعة ٢٣٠٠ ، أو ربما بعد ذلك . والتقديرات غير الرسمية للضباط الإسرائيليين تفيد أن لواء الجولانى خسر أكثر من ٧٠ قتيلاً وما يصل إلى ٢٥٠ جريحا خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من القتال ضد السوريين فى مواقع جبل الشيخ . وخلاف ذلك فى جبهة الجولان ، وصل يوم ٢٢ أكتوبر لواء مدرع أردنى آخر ، هو اللواء ٩٠ المدرع ، إلى الجنوب مباشرة من الحارة ؛ ومن حين لآخر ، كان الإسرائيليون يقصفون أهداف الفدائيين فى الأراضى اللبنانية .

وفى نفس الوقت ، وصل إلى سوريا المزيد من التعزيزات ، ووصلت القوات العراقية إلى ثلاث فرق ، تضم لواء قوات خاصة .. وبحلول يوم ٢١ أكتوبر ، كان خط الإمداد العراقى المستقل قد اكتمل ، وكان ما يتراوح بين ٣٥,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ طن من الإمدادات والوقود والمواد الغذائية تتدفق على سوريا . وكان هناك حوالى ٢٢,٠٠٠ جندى عراقى هناك . وكان اللواء ٩٠ المدرع الأردنى قد انضم إلى اللواء ٤٠ المدرع ، على حين أعيد تزويد الفرقتين

المدرعتين السوريتين ، الفرقة الأولى والفرقة الثالثة ، بالدبابات السوفيتية ، وأصبحتا جاهزتين للقتال مرة أخرى ، وكان قد وصل إلى سوريا ٧٠ دبابة من يوغوسلافيا ، و٩٠ دبابة من العراق ، وحوالى ٦٠٠ من الاتحاد السوفييتى (لم تكن كل هذه الشحنة الأخيرة لهاتين الفرقتين) .

وخططت القيادة العامة السورية هجوماً بخمس فرق على مرحلتين : تتألف المرحلة الأولى من الفرقتين المدرعتين السوريتين اللتين أعيد تجهيزهما ، والفرقتين المدرعتين العراقيتين ، وفرقة أردنية (يكملها لواء مدرع سورى) بالإضافة إلى القوات الخاصة السورية والعراقية ، وتحددت ساعة الصفر فى الساعة ٠٣٠٠ يوم ٢٣ أكتوبر ، وفى مساء ٢٢ أكتوبر ، بدأت هذه التشكيلات تتحرك إلى أماكن تجمعها وخطوط بداياتها . وفى الساعة ٠٠٠٥ ، أمرّت القيادة العامة السورية بوقف العملية ، وعندما أبلغ الفريق طلاس اللواء النعمانى ضابط الأركان العراقى بذلك ، حاول النعمانى بلا جدوى أن يحثه على إعادة النظر فى القرار والقيام بالهجوم . وأشار إلى أن القوات الإسرائيلية منهكة وضعيفة ، وأنها فقدت درجة من ثقتها فى نفسها من جبهة الجولان . كما أنه لم تعد لديها أية احتياطيات متاحة لمساعدتها فى حالة الطوارىء ، حيث أن طاقات إسرائيل كانت ممتدة إلى أقصى حد بين الجبهتين فيما يتعلق بإمدادات المعركة .

وكان قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٣٣٨ قد دعا إلى وقف إطلاق النار ، ولكنه سبب سخطاً وخلافاً ، فقد قبله الأردنيون . ولكن العراقيين رفضوا قبوله . وفى البداية قال السوريون الذين كانوا يخططون للقيام بهجوم ، إنهم سيدرسون الاقتراح . ثم أعلنوا فيما بعد أنهم سيقبلونه بلا قيد أو شرط ، حتى على الرغم من أنهم لم يكونوا طرفاً فى قرار الأمم المتحدة السابق رقم ٢٤٢ الذى يرتبط به هذا القرار . وعندئذ ألغى السوريون هجومهم . ولم يحظ وقف إطلاق النار بالشعبية سواء بين القوات السورية أو العراقية ، وتسبب فى حالة من التوتر والسخط ، وانسحبت القوات العراقية من سوريا يوم ٢٧ أكتوبر . ورفضوا بازدراء طلب السوريين أن « يبيعوا دباباتهم » لسوريا ، حتى على الرغم من أن الاتحاد السوفييتى وعد بتعويضهم عنها . وعاد اللواء ٤٠ المدرع الأردنى إلى بلاده فى ديسمبر ١٩٧٣ ، وعاد اللواء ٩٠ المدرع بعد ذلك بشهر .

وقد كسب الإسرائيليون حوالى ٣٠٠ ميل مربع من الأراضى السورية ، أساساً فى الجزء الشمالى من منطقة المعركة بالقرب من سفوح جبل الشيخ ، ولكنهم لم يتمكنوا من اختراق خط سلسلة ساسا الجبلية ، أو الالتفاف حوله من الجنوب . ويعترف الإسرائيليون بأنهم خسروا على هذه الجبهة ٧٧٢ قتيلاً و٢٤٥٣ جريحاً و٦٥ أسيراً ؛ ولكنهم يزعمون أن السوريين خسروا أكثر من ٣٥٠٠ قتيل وحوالى ٣٧٠ أسيراً ؛ وبعد ذلك اعترف السوريون بشكل غير رسمى بأن خسائرهم كانت تتراوح بين ١٠,٠٠٠ و١٢,٠٠٠ فرد ، ولكنهم لم

يقسموا هذا الرقم بين القتلى والجرحى . ويقول هرتزوج إن الإسرائيليين خسروا حوالى ٢٥٠ دبابة ، من بينها حوالى ١٠٠ دبابة « أبيدت » بالكامل ، بينما يمكن إصلاح البقية . ويصمت الإسرائيليون عن خسائرهم المادية الأخرى مثل المدافع والمركبات . ويزعمون أنهم دمروا أو شلوا أكثر من ١٢٠٠ دبابة سورية ، من بينها ٨٦٧ دبابة تركها السوريون عندما انسحبوا من هضبة الجولان . وإذا ما كان علينا أن نقبل هذا الرقم ، فلابد أنه يشمل المدافع ذاتية الحركة ، لأن إجمالى ما كان بحوزة السوريين عند اندلاع الحرب لم يكن يجاوز هذا الرقم ؛ رغم أن الاتحاد السوفييتى أمدهم أثناء القتال بحوالى ٦٠٠ دبابة أخرى على الأرجح ، كما وصلت دبابات أخرى من يوغوسلافيا والعراق . ولم تعلن خسائر العراقيين بشكل رسمى ، ولكن من المقبول بوجه عام أنهم خسروا أكثر من ١٠٠ دبابة ومدفع ذاتى الحركة ومركبة مدرعة ، ويزعم الإسرائيليون أنهم أسروا ١٧ أسيراً عراقياً . وكان الأردنيون أكثر صراحة ويعترفون بأنهم خسروا ٢٨ قتيلاً و٢٩ جريحاً ، ولكنهم يقولون إنه لم يقع من بينهم أسرى . كما يعترفون أيضاً بأن الإسرائيليين دمروا لهم ١٨ دبابة ، كما أصابوا ٢٩ مركبة مدرعة ، ولكن يمكن إصلاحها ؛ بينما تقول مصادر أخرى ، مثل الاتحاد السوفييتى ، إنهم خسروا ٥٠ دبابة على الأقل .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ، صدر بيان سعودى قال إنه فى قتال دام ثمانى ساعات ، دمر السعوديون خمس دبابات إسرائيلية وأصابوا خمس دبابات أخرى ؛ وأنهم خسروا أربعاً من عرباتهم المدرعة من طراز بانارد ، وأربعة مدافع عديمة الارتداد عيار ١٠٦ مم وعربة جيب ؛ وأن خسائرهم فى الأرواح كانت قتيلين وستة جرحى ومفقوداً واحداً . وما من أحد تحدثت إليه فى سوريا كان يعلم أى شىء عن هذا القتال ؛ ولما كان الجنود السعوديون مكلفين بواجبات خطوط الاتصالات على طريق دمشق - درعا ، فمن المعتقد أن أية خسائر قد يكونون تكبدوها إنما كانت نتيجة لغارات جوية إسرائيلية ، ومع ذلك ، يقول الإسرائيليون إنهم استولوا على عربة مدرعة من طراز بانارد ، التى لم يكن يستخدمها سوى السعوديين ، وبالتالى فربما كان السعوديون على تخوم القتال فى منطقة كناخ .

ورغم أن ذلك لم يذع بشكل علنى ، فإن خسائر السوريين فى النصف الثانى من الحرب لم تكن بأى حال من الأحوال مثل خسائرهم فى النصف الأول منها ؛ ويبدو أنه كان بمقدور السوريين أن يحتفظوا بخط سلسلة ساسا الجبلية دون صعوبة . ويميل المرء إلى رؤية توجيهات المستشارين الروس ، الذين أصروا على أن يضحى السوريون بمركباتهم وأسلحتهم . وينسحبوا بشكل مأمون إلى خط سلسلة ساسا الجبلية ، وأن يعتمدوا على الدفاع فى صد الإسرائيليين . ومع ذلك ، فقد كان بمقدور الإسرائيليين ، فى شكل فرقة لانر ، أن يلتفوا حول الخط السورى ويقطعوا طريق دمشق - درعا ، ومن هناك كان سيصبح بمقدورهم أن يقصفوا دمشق بقذائفهم . ولكن كان وصول العراقيين ، ثم الأردنيين ، هو فقط الذى حال دون ذلك ، ورغم أن العراقيين والأردنيين وقعوا فى كمائن إسرائيلية ،

واضطروا للانسحاب من المناطق التى تقدموا إليها ، فإنهم قد أوقفوا الإسرائيليين . أما الهجوم العربى بخمس فرق . الذى كان مقرراً أن يبدأ الساعة ٠٣٠٠ يوم ٢٣ أكتوبر ، فكان سيكلف الإسرائيليين خسائر فادحة .

ولم يكن رأى الإسرائيليين طيباً فى العراقيين ، فكانوا يظنون بوجه عام أن مستوى كفاءة العراقيين متدن ، وأنهم يتراجعون بمجرد توجيه الضربات إليهم . ومن الناحية الأخرى ، قال لى لواء عراقى إن أهم حقيقة ظهرت فى هذه الحرب هى أن الجنود العراقيين اكتشفوا أن الجندى الإسرائيلى ليس « السوبرمان » العسكرى المتفوق الذى صورته لهم الدعاية . وقال لى رئيس الأركان العراقى الفريق عبد الجبار شنشل إنه يعتقد أن الدرس الرئيسى للحرب يتمثل فى المفاجأة ، التى لا يزال من الممكن تحقيقها رغم وسائل المعاونة المعقدة الحديثة ؛ وأصر على أن فرقة لانر فوجئت باللواء السادس المدرع العراقى الذى أفقدها توازنها . وكانت تعليقاته الأخرى تشمل الحاجة إلى التدريب الجيد ، ولاسيما فى القتال الليلى ، والحاجة إلى المزيد من التعاون بين المشاة والدبابات . وكان يرى أنه لا يزال هناك مكان للدبابة فى ميدان المعركة الحديثة ، وتحدث عن الصراع الذى لم يحسم بين الدبابة وبين الصاروخ المضاد للدبابات ، وعن صواريخ « تاو » الأمريكية التى يزيد مداها على مدى أى مدفع دبابة فى العالم الآن .

وقال لى وزير الدفاع السورى الفريق طلاس إنه يعتقد أن القوات الخاصة السورية أفضل بكثير من قوات المظلات أو الكوماندوز الإسرائيلية . وقال فى تعليقه إنه « فى عام ١٩٦٧ ، عندما لم تكن سوريا مستعدة للحرب ، كانت إسرائيل تعتبر عندئذ متفوقة على سوريا ، ولكننا نعتبر إسرائيل الآن على أنها متدنية عنا » . أما اللواء شكور رئيس الأركان السورى ، فلأنه كان ضابطاً سياسياً أكثر منه عسكرياً ، فإنه لم يصل إلى مستوى الآمال المعقودة عليه فى المعركة . أما العميد الحبيبى نائب مدير العمليات ، وهو مسيحى وبالتالى غير سياسى ، فقد أثبت أنه أكثر كفاءة ؛ ولكن بوجه عام ، فإن أداء كبار الضباط السوريين فى الحرب لم يكن جيداً جداً . فكل الإسرائيليين الذين تحدثت معهم ممن شاركوا فى القتال فى جبهة الجولان يتفقون على أن جنود المشاة السوريين قاتلوا بشجاعة وتصميم فائقين ، حيث كانوا أفضل تجهيزاً وتدريباً عن ذى قبل ؛ ولكن ما من واحد منهم كان رأيه طيباً فى أفراد المدرعات السوريين . أما القوات المغربية والدرزية ، فقد فشلت فى المعركة ، ولم يسمع عنهم كثيراً . وفيما بعد رقى المقدم عمر أبو شلش ، قائد عناصر الدروز إلى رتبة العقيد — وهى ترقية سياسية بشكل واضح .

وتتفاوت الآراء بشأن أداء الأردنيين ، ولكن الرأى الغالب أنهم قاتلوا بصورة طيبة ، رغم أن « قلبهم لم يكن فى المعركة » . وكان ليتواك لاذعاً فى نقدهم حين قال إن « الأردنيين بما فى ذلك اللواء ٤٠ المدرع الشهير فى عام ١٩٦٧ ، لم يحاولوا بشدة خوض القتال » . ومع ذلك : يكتب هرتزوج إنهم « قاتلوا بصورة طيبة كالمعتاد . فلم يحدث مطلقاً أن رأيت الفيلق

العربى لا يقاتل بصورة طيبة » . ويضيف قائلاً إن « الأردنيين تكبدوا خسائر ، لأنهم لم يتلقوا معاونة من السوريين أو العراقيين على أجنابهم » . ومن المؤكد أن التعاون بين السوريين والعراقيين والأردنيين ما كان موجوداً بالكاد . فلم يعملوا مع بعضهم البعض من قبل على الإطلاق ؛ بل لقد قاتلوا بعضهم البعض فى وقت قريب ؛ وكانوا يبدون على استعداد لرفع مدافعهم فى وجوه بعضهم البعض على الفور إذا ما كان ذلك ضرورياً . فالشكوك القديمة كانت لا تزال قائمة ؛ وبقى كل منهم كياناً مستقلاً يتوخى الحيطة والحذر من الآخرين .

وفى الجانب الإسرائيلى ، وبعد الضربات القاسية التى تلقوها فى تل شمس ، وصد العراقيين والأردنيين لهم ، كان هناك تردد فى الاندفاع إلى المعركة بحماس . وكان يبدو أن الإسرائيليين راضون بما حصلوا عليه ؛ ولم يكن هم ، بل العرب هم الذين هاجموا يوم ١٦ أكتوبر ، ثم مرة أخرى يوم ١٩ أكتوبر . وفقط عندما اقترب موعد وقف إطلاق النار ، بذل الإسرائيليون من زاوية الكرامة والمكانة ، جهوداً لاستعادة مركز مراقبتهم على جبل الشيخ .

وظهرت آراء متعارضة فى مجادلة « الصاروخ ضد الدبابة » فيقول الإسرائيليون إنهم لم يستخدموا صواريخ « تاو » إلا بصورة بسيطة ، حيث أنها تحتاج وقتاً لاستيعابها ، ويناقض السوريون والعراقيون ذلك بشكل قاطع ، ويقولون إن الإسرائيليين استخدموا هذه الصواريخ بكثافة ، ورغم أن مستوى مدفعية الدبابات السورية لم يكن يرقى إلى مستوى مدفعية دبابات الإسرائيليين ، فإن هرتزوج يقول إن « كل الدبابات الإسرائيلية التى شاركت فى القتال فى هذه العملية [فى جبهة الجولان] قد أصيب فى وقت أو آخر » وذلك يدعو المرء إلى التساؤل عن سبب سوء رأى الإسرائيليين فى أفراد المدرعات السورية ـ ربما كانت كلها إصابات من جانب المشاة السوريين .

ويعترف الإسرائيليون بأن الدبابة السوفيتية ت ـ ٦٢ دبابة جيدة ولكنهم يقولـون إن السوريين والعراقيين ما كانوا يجيدون استخدامها . ويقول السوريون إنهم استولوا على ٤٠ دبابة سنتوريون ، بينما استولى العراقيون على « ١١ دبابة سنتوريون » ، وفى نهاية الأمر ، أعطت الدولتان تلك الدبابات للأردن .

الفصل الحادى عشر

على الضفة الغربية

« انظر إنه وادى الموت »

قائد لواء إسرائيلى لديان

بعد ظهر يوم ١٤ أكتوبر ، قرر الإسرائيليون عبور قناة السويس والتقدم على الضفة الغربية ولكن كان هناك قدر كبير من التردد ، إن لم نقل الجزع ، في الإقدام على مثل هذه العملية . وكان كل من ألعازر وبارليف قد استقرا على قبول الفكرة وناقشا الأمر مع ديان ، الذي لم يكن متحمساً جداً ، حيث لم يكن يعتقد أنها ستحقق حسماً عسكرياً أو ستجبر المصريين على طلب وقف إطلاق النار .

وفي يوم ١٢ أكتوبر نوقش المشروع في اجتماع ترأسته رئيسة الوزراء جولدا مائير وكان كل الحاضرين يشعرون بأنه قبل أي شيء سيكون الأفضل التفكير في كيفية التصدي للهجوم الكبير الذي كان متوقعاً أن يضطر المصريون للقيام به ، لأسباب سياسية فحسب وبينما كان الاجتماع مستمراً . وردت الأنباء بأن المصريين قد بدأوا يحركون احتياطيهم المدرع الاستراتيجي إلى الضفة الشرقية . واقترح الجنرال بارليف على الفور أن تضع القيادة الجنوبية أي هو وجونين . خطة لدحر الهجوم المصري وأقر هذا الاقتراح وانتهى الاجتماع باتفاق على أن يبحث الإسرائيليون تحركهم التالي بعد حسم المعركة القادمة وترك موشي ديان أمر هذا القرار التالي وتوقيته للجنرال ألعازر ولكن ألعازر كان يريد أن يتخذ ديان قرار عبور القناة ـ وهو الشيء الذي كان ديان متردداً فيه ـ وهكذا وقعت المسئولية على ألعازر .

وهناك عدد من العوامل التي أدت إلى القرار الإسرائيلي بعبور القناة . وكانت الاعتبارات الرئيسية تتمثل في أن الإسرائيليين كانوا يرون أنهم كسبوا معارك المدرعات الهائلة يوم ١٤ أكتوبر . وأنهم أعادوا المصريين إلى رءوس جسورهم وأنهم كبدوهم خسائر فادحة في الدبابات وفي ذلك اليوم أيضاً اعترفت الولايات المتحدة علناً بأنها تقوم بجسر جوي وبحري لنقل العتاد العسكري إلى إسرائيل ، وهو ما أعطى الإسرائيليين دفعة معنوية هائلة كذلك فإن المعلومات التي حصلت عليها طائرتا الاستطلاع الأمريكيتان « اس آر ـ ٧١ » قد أكدت أن هناك مساحة واسعة يصل عرضها إلى نحو ٤٠ كيلو متراً تكاد أن تكون خالية من أية قوات ، على جانبي القناة جنوبي الإسماعيلية وعلى شاطىء البحيرة المرة الكبرى وكانت هذه الثغرة بين الجيشين المصريين لاتضم سوى توزيع طفيف للغاية للقوات الأجنبية في

الشمال لواء عين جالوت من جيش التحرير الفلسطيني وفى الجنوب لواء اليرموك الكويتى .

ومن يوم ١٢ أكتوبر فصاعداً ، كان عدد من المجموعات تضم كل منها اثنين أو ثلاثة من أفراد المخابرات الإسرائيلية ، يقوم بالعبور إلى الضفة الغربية فى هذه المنطقة . وكانوا يعبرون إما بالقوارب وإما بالتسلل بين الخطوط المصرية حيث يفترض أنهم كانوا يعبرون الجسور المصرية وقد ارتدى بعضهم الزى العسكرى المصرى . كما تم إنزال البعض الآخر بطائرات الهليكوبتر . (استخدم الإسرائيليون الهليكوبتر لأول مرة فى هذا الغرض يوم ١٢ أكتوبر) وكان هؤلاء الأفراد من المخابرات إسرائيليين يتحدثون العربية باللكنات المحلية بحيث يمكن أن يختلطوا بالسكان العرب المحليين ويجمعوا معلوماتهم دون أن يثيروا الريبة وكانوا يرسلون تقاريرهم باللاسلكى وأكدوا مدى قلة القوات فى هذا القطاع .

وكان حائط الدفاع الجوى المصرى المنيع ، الذى تم تطويره فى حرب الاستنزاف قد جرى تعزيزه بدرجة كبيرة فى الأسابيع التى سبقت وقف إطلاق النار فى السابع من أغسطس ١٩٧٠ وكان قد أسقط عدداً من الطائرات الإسرائيلية بصورة غير متوقعة ودفع ذلك الإسرائيليين إلى وضع خطة وتجهيزات لعبور القناة بقوة مدرعة تكون مهمتها تدمير صواريخ سام وبطاريات الشيلوكا (المدفعية ٢٣مم المضادة للطائرات المحمولة على مركبات) على الضفة الغربية « لفتح ثغرة فى السماء » يمكن أن تخترقها الطائرات الإسرائيلية . وأختير عدد من نقاط العبور الممكنة ، بعض التقارير تقول إنها ثلاث نقاط بينما يقول هرتزوج إنها « عدة » نقاط وفى كل من هذه النقاط ، تم تقليل سمك التل الرملى الدفاعى الذى يمتد بطول القناة ، بحيث يمكن أن تفتح فيه البولدوزرات بسرعة ثغرة تمر منها الأطواف والمركبات ، وبالقرب من كل من المواقع المختارة للعبور ، أقيم مكان صغير لتجمع المركبات فى ظل التل الرملى وفى حماية التلال الرملية الأصغر . ومن المؤكد أن أحد الأماكن المخصصة للعبور كان يقع قبالة مطار الدفرسوار ؛ وكان أحد ألوية الفرقة ٢١ المدرعة يرابط هناك حتى يوم ١٢ أكتوبر قبل أن ينتقل إلى الضفة الشرقية . وكانت الخطة تعرف باسم « **عملية الغزالة** » وربما كان الجنرال شارون هو الذى وضعها فى الأصل حيث من المعروف الآن أنه اشترك بصورة عميقة فى تشكيلها وتجهيزها .

وربما بسبب معرفته بالمنطقة وبالخطة فقد سمح لشارون بأن يتولى قيادة العملية وحقاً فقد طلب منه يوم ١٢ أكتوبر أن يستعد لها وفى اليوم التالى أوفد إحدى وحداته المدرعة لجر الجسر الإسرائيلى السابق التجهيز الذى كان يجرى تجميعه فى منطقة الطاسة . وكانت الأطواف ووحدات الجسور ذاتية الحركة تتركز هناك أيضاً . وكانت الخطة الإسرائيلية تقضى بأن تتحرك فرقة شارون على الطريق الممتد من الطاسة إلى نقطة قبالة الدفرسوار ، ثم تفتح هناك ممراً وتحتفظ به مفتوحاً وتشكل رأس جسر على الضفة الشرقية ثم تعبر القناة وتقيم الجسر ، وتشكل رأس جسر آخر عرضه أربعة كيلو مترات على الضفة الغربية وكان ذلك سيسمح لفرقة أدان بعبور المر المائى فى الصباح التالى حيث كانت مهمته تتمثل فى

التحرك جنوباً لتدمير صواريخ سام . وكان على شارون أن يستولى على الموقع المصرى المعروف للإسرائيليين باسم المزرعة الصينية ، على الجانب الشمالى من الممر وعلى موقع آخر ملاصق له معروف للإسرائيليين باسم ميسورى أو سلسلة ميسورى الجبلية ثم يقوم عندئذ بفتح الممر بمدرعاته بينما يتقدم عندئذ لواء مظلاته فى عربات نصف مجنزرة وهم يحملون قوارب هجوم مطاطية يمكن نفخها ، لعبور القناة ثم يتم نقل الدبابات على أطواف ذاتية الحركة بينما يقام جسران اسرائيليان عبر القناة وإذا ما كانت هناك صعوبة فى تطهير الممر الذى يبلغ طوله ١٥ ميلاً فسيقوم أدان بعبور القناة بينما يبقى شارون على الضفة الشرقية لإكمال المهمة .

وكان طريق الطاسة ـ الدفرسوار المرصوف بالأحجار يمتد بصورة مائلة عبر الجناح الأيمن للفرقة ١٦ مشاة المصرية ، وهى الفرقة التى كانت تقع إلى أقصى الجنوب فى تشكيلات الجيش الثانى وكانت المنطقة الممتدة من هناك جنوباً حتى كبريت (وكان المصريون حينئذ قد استولوا على نقطة كبريت الحصينة فى خط بارليف) خالية من القوات . وفى الوقت نفسه كان على فرقة ماجن التى كانت قد تحركت جنوباً إلى مدخل ممر متلا ، أن تقوم بالضغط على الجيش الثالث المصرى لتحويل انتباهه . كذلك فإن فرقة جديدة أخرى فى الشمال ، بقيادة البريجادير ساسون كانت قد تشكلت لاحتواء الحامية المصرية فى بور فؤاد كان عليها أن تقوم بضغط مماثل على الجيش الثانى . وكانت فرقة خامسة تقرر أن يتولى قيادتها الميجور جنرال إسرائيل تال ، تتشكل فى الجزء الجنوبى من منطقة القناة .

وقد كان الإسرائيليون يتدربون منذ وقت على تجربة معدات إقامة الجسور من أجل **عملية الغزالة** ، ولكنهم لم يكونوا فى عجلة من أمرهم ، وما كان بمقدورهم مجاراة المصريين فى الخبرة أو الكميات . وكان لديهم جسران كل منهما طوله نحو ٢٠٠ متر ، أحدهما من نوع اليونيفلوت والآخر من أطواف أمريكية ثقيلة الحركة يتم ملؤها بمادة البولى أورثيان الكيميائية . وبدأوا فى تجميع هذا الجسر من الأطواف يوم ١٥ أكتوبر بالقرب من الطاسة ولم يكونوا قد توصلوا بعد إلى طريقة مرضية لربط القطاعات معاً ولذلك تم تثبيتها بالأسلاك والوسائل المرتجلة ووضع الجسر بأكمله على مركبات وناقلات وكانت هناك صعوبات وتأخير .

ووضع شارون خطة شديدة التعقيد لعبور القناة . فخصص أحد ألويته المدرعة للقيام بهجوم مخادع على جبهة الفرقة ١٦ مشاة ، بينما يقوم لواء آخر بحركة التفاف فى الأراضى الرملية إلى الجنوب من طريق الطاسة ـ الدفرسوار . وعندما يصل هذا اللواء الأخير إلى طريق القناة فإنه ينحرف شمالاً وينقسم إلى ثلاث مجموعات . واحدة تتحرك إلى الشمال بأقصى ما تستطيع لشغل الجناح المصرى والثانية تنحرف عند تفريعة الطريق إلى الغرب لتصل إلى القناة وتقيم رأس الجسر الأولى أما المجموعة الثالثة فتنحرف شرقاً عند تفريعة أخرى فى الطريق لتصل إلى طريق الطاسة وتطهره فى الاتجاه المعاكس ، لتسمح لألوية

المظلات والمدرعات المنتظرة مع الجسر المتحرك والأطواف ذاتية الحركة ، بالتحرك خلال الممر .

وتم تأجيل قرار البدء فى هذه العملية وكانت هيئة الأركان العامة الإسرائيلية تأمل أن تشن المدرعات المصرية هجوماً كبيراً آخر يوم ١٥ أكتوبر . وفقط عندما لم تكن هناك أية دلائل على حدوث ذلك اتخذ القرار بالمضى فى العملية ويعترف شارون بأنه لم يتلق الإذن بالمضى قدماً إلا بعد ظهر يوم ١٥ أكتوبر . وعندئذ كان هناك تأخير فى التحرك إلى خطوط البداية وفى تركيب الجسر المتحرك . واقترح الجنرال بارليف تأجيل ساعة الصفر من الساعة ١٧٠٠ حتى منتصف الليل ورغم أن شارون كان يعرف أنه ليس من المرجح أن يتمكن من التنفيذ فى الوقت المحدد ، فقد قرر أن يمضى قدماً وفقاً للخطة الموضوعة وأن يتعامل مع الموقف حسب الظروف التى تنشأ وفى الساعة ١٧٠٠ فتحت المدفعية الإسرائيلية نيرانها على طول الجبهة . وفى ضوء النهار قام أحد ألوية شارون بهجومه المخادع لاجتذاب الفرقة ١٦ مشاة والفرقة ٢١ المدرعة ثم فى الساعة ١٩٠٠ وبتأخير ساعة كاملة بالفعل ، بدأ لواء آخر ، بالإضافة إلى شارون ومقر قيادته الصغير ، فى التحرك للقيام بالتفاف إلى الجنوب من طريق الطاسة - الدفرسوار - ووصلوا إلى الطرف الشمالى من البحيرة المرة الكبرى فى الساعة ١٠٠ من صباح ١٦ أكتوبر ولم يكن بمقدور الدبابات سوى أن تتقدم ببطء فى الرمال ، وكان شارون الآن متأخراً ساعتين عن توقيتات الخطة فقد كان مقرراً أن يصل الجسر إلى القناة فى الساعة ٢٣٠٠ بحيث يمكن تركيبه عند منتصف الليل ، وكان مقرراً أن تعبره دبابات أدان فى الساعات الأولى من الصباح .

ووفقاً لخطة شارون ، فقد أرسل على الفور أحد ألويته المدرعة شمالاً وصادفت إحدى المجموعات التى كانت تتحرك شمالاً إلى تفريعة على مسافة نحو ١,٠٠٠ متر ، بعض المقاومة ولكنها تغلبت عليها . وتقدمت مجموعة تالية إلى مسافة ١,٠٠٠ متر أخرى إلى تفريعة أخرى ثم انحرفت غرباً . وواصلت مجموعة ثالثة تقدمها شمالاً حتى اصطدمت بالموقع المصرى المتقدم بعد حوالى ٨٠٠ متر أخرى فى منطقة ميسورى حيث تم ايقافها وبحلول ذلك الوقت . كان المصريون قد تنبهوا إلى أن هناك تحركات إسرائيلية على طريق الطاسة - الدفرسوار ، وراحوا يقصفون الطريق اعتباراً من الساعة ٢٠٠٠ يوم ١٥ أكتوبر وزاد هذا القصف خلال الليل ، واتسع ليشمل تفريعتى الطريق والمنطقة المحيطة به .

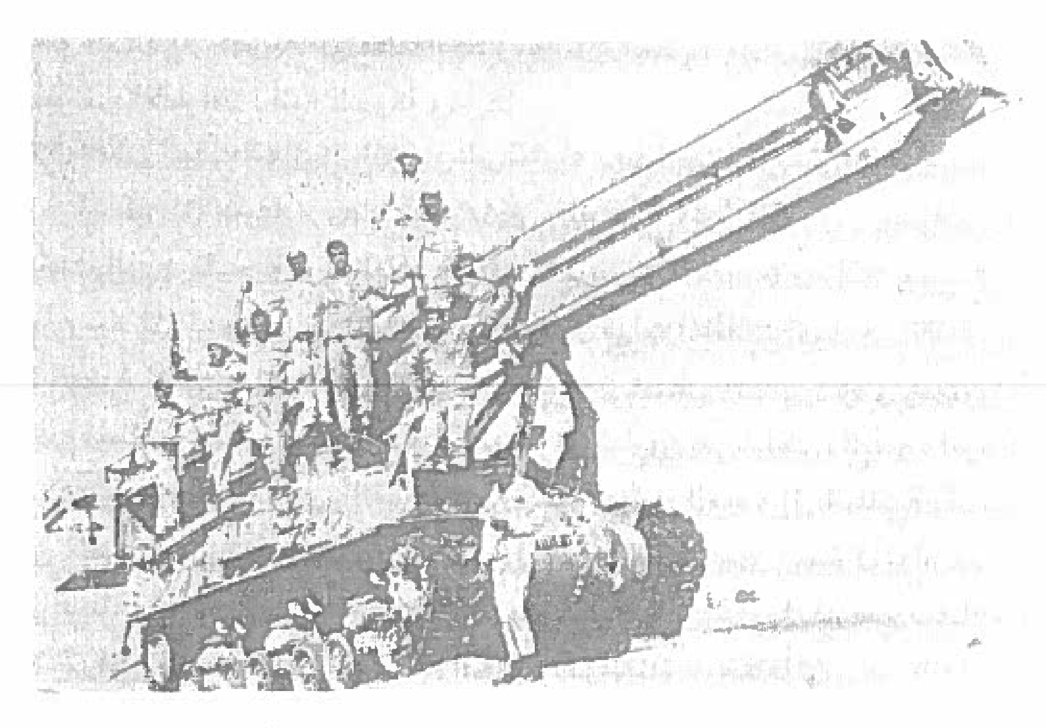
وبمجرد أن وصلت المجموعة المدرعة إلى الطاسة فقد استدارت مرة أخرى وقادت لواء المظلات على الطريق إلى القناة وتبعها الجسر المتحرك والأطواف ذاتية الحركة . وبينما كانت تتحرك خلال الممر فى طابور طويل ، تعرضت لإطلاق النيران عليها ، ولاسيما من موقع المزرعة الصينية وتقدمت وحدتا مشاة مصريتان مزودتان بأسلحة مضادة للدبابات ونجحتا فى إغلاق الطريق خلف قوات المظلات ، بحيث قطع الطريق على الجسر المتحرك

والأطواف ذاتية الحركة . وتفكك الجسر بعد أن أصابته نيران القصف وكذلك أصيب العديد من الأطواف ذاتية الحركة وغيرها .

وفى نفس الوقت تحرك شارون ومقر قيادته بعيداً عن تفريعتى الطريق حيث كانتا تتعرضان لنيران كثيفة ، وعاد إلى شاطىء البحيرة المرة الكبرى . وصادف تشكيل الدبابات الذى يتقدم لواء المظلات مقاومة بالقرب من التفريعتين ولكنه نجح فى التغلب عليها ، بعد أن خسر العديد من الدبابات ليوصل قوات المظلات إلى ضفة القناة . وعندما وصل جنود المظلات إلى القناة قفزوا من عرباتهم نصف المجنزرة وهم يحملون قوارب الهجوم المطاطية وساروا على الأقدام لينضموا إلى شارون على شاطىء البحيرة المرة الكبرى أما عرباتهم نصف المجنزرة الفارغة التى كانت تحاول العودة إلى الطاسة فقد تعرضت لنيران المصريين وتشتتت فى الرمال ، ولم يبدأ جنود المظلات عبور القناة فى قواربهم المطاطية إلا فى الساعة ٣٠٠ من صباح يوم ١٦ أكتوبر وانضمت إليهم فيما بعد عشر دبابات نجحت فى الاختراق ، ونقلتها الأطواف ذاتية الحركة عبر القناة . وخلافاً لكثير من التقارير يتعين أن نشير إلى أن هذا العبور الأولى تم عند الطرف الشمالى للبحيرة المرة الكبرى ، حيث لم يكن هناك أى حاجز رملى دفاعى وليس عبر القناة نفسها . وتم قصف المنطقة التى نزل بها الإسرائيليون على الشاطىء الغربى للبحيرة بكثافة لتطهيرها من الألغام ولكنهم لم يصادفوا أية قوات من الجانب الآخر على الإطلاق وكان لدى شارون بعض المدافع ذاتية الحركة والبولدوزرات وأيضاً مركز مراقبة مبتكر محمول على شاسيه دبابة شيرمان وقد وصل معظمها بعد بزوغ ضوء النهار .

وبحلول فجر يوم ١٦ أكتوبر ، وعندما كانت الضفة الشرقية تتعرض لقصف مدفعى مصرى ، يصر شارون على أنه كانت لديه كتيبة دبابات وكتيبة مظلات على الضفة الغربية . وهو زعم مشكوك فيه لأن الأطواف ذاتية الحركة لم تكن قد وصلت إلى القناة حتى بزوغ النهار ، وفى ذلك الوقت كان جنود المشاة المصريون قد تسللوا بالقرب من إحدى تفريعتى طريق الطاسة ـ الدفرسوار . وفى ضوء النهار حرك شارون مركباته ورجاله إلى الغطاء الكثيف الذى توفره الأشجار والزراعات حول حافة مطار الدفرسوار . وتوقف القصف المدفعى المصرى على الضفة الشرقية بعد حوالى نصف الساعة ؛ وبعد ذلك كانت هناك وقفة فى نيران المدفعية واستفاد الإسرائيليون من ذلك بالكامل ؛ ويقولون إنه بحلول الساعة ٩٠٠ كان لديهم ٣٠ دبابة و ٢,٠٠٠ جندى على الضفة الغربية . ولابد أن يكون ذلك صحيحاً إلى درجة كبيرة .

ولم يكن هناك سوى هجوم صغير واحد ضد قوة شارون فى الصباح وقامت به مجموعة من القوات الخاصة . التى تقول إنها دمرت بعض الدبابات الإسرائيلية وأجبرت البعض الآخر على الانسحاب إلى المستنقعات بالقرب من الدفرسوار . وظن القائد المصرى المحلى أنه قضى على قوة استطلاع إسرائيلية صغيرة . وخلال الصباح تلقى شارون إشارة تبلغه



برج مراقبة إسرائيلى متحرك محمول على « شاسيه » دبابة شيرمان .

المدرعات الإسرائيلية تتحرك خلال الاشجار الكثيفة بالقرب من الدفرسوار خلال عمليات الضفة الغربية يوم ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ .



أن جسر الأطواف أصيب بأضرار وأن إصلاحه سوف يستغرق اليوم بطوله وقرر شارون أن يتحرك بسرعة إلى الشمال ويحاول الاستيلاء على أقرب جسر مصرى ، على مسافة حوالى ستة أميال . وراح جنود مظلاته يتحركون ببطء لمسافة نحو ثلاثة أميال على جانب التل الرملى الدفاعى حتى صادفوا بعض المقاومة ووفقاً لما يقوله هرتزوج يزعم الإسرائيليون أنهم قتلوا حوالى ٣٠ مصريا وأسروا بعض الأسرى وأن قوات مظلاتهم استولت على نقاط التقاطع الأربع الرئيسية على ترعة المياه الحلوة التى تجرى داخل الضفة الغربية وعندما حلقت الطائرات المصرية عند الظهر لم تر أثراً لقوة شارون على الضفة الغربية كان المفروض أن تكون قد بدأت فى تشكيل رأس جسر . ولكنها بدلاً من ذلك كانت تختفى بعيداً عن القناة نفسها .

وفى نفس الوقت ، قامت مدافع شارون بقصف هوائيات أجهزة رادار بطاريات صواريخ سام فعطلت كثيراً منها . واضطرت بطاريات أخرى للانتقال إلى مواقع بديلة أو حتى إلى الانسحاب لتلافى الاستيلاء عليها ويقول شارون إنه عطل أربعة من مواقع صواريخ سام عن العمل يوم ١٦ أكتوبر . غير أن الرقم الصحيح ربما يكون سبعة مواقع أو أكثر وجعل هذا الوجود الإسرائيلى على الضفة الغربية المصرية يسمونه « نتوءاً » وليس « ثغرة » .

واستمرت قوات شارون تعبر البحيرة خلال اليوم ، دون أن يلاحظها أحد فيما يبدو وفيما بعد أصر لواء جيش التحرير الفلسطينى أنه أبلغ بحدوث هذه العملية وظل يبلغ باستمرارها ولكن القيادة العامة المصرية لم تلتفت إليها . وبحلول نهاية اليوم يصر شارون (بصورة أدق هذه المرة) على أنه كان لديه لواءان كاملان على الضفة الغربية مختفيان تحت الأشجار بالإضافة إلى أكثر من ٣٠ دبابة وعشر أو أكثر من حاملات الجنود المدرعة طراز م ـ ١١٣ إلا أن شارون فشل فى تحقيق مهمته المتمثلة فى الاستيلاء على رأس جسر على كلتا الضفتين . وعلى العكس ، فلو كان قد فعل ذلك لكان رأس الجسر قد تعرض لقصف مكثف ، ولكان المصريون قد انتبهوا بشكل واضح لحجم العملية ، أما ما حدث فإن المصريين راحوا يقصفون الضفة الشرقية حيث كانوا يشكون فى أن قوة إسرائيلية تتركز بها ويقول هرتزوج إن « المصريين اكتشفوا الخطة التى وضعها شارون فى مايو ١٩٧٣ لعبور القناة إلى الشمال من الدفرسوار ، مما جعلهم يحصنون تلك المنطقة الضعيفة بصورة شديدة بينما أهملوا من الناحية الفعلية القطاع الذى يقع إلى الجنوب من الدفرسوار ، الذي لم يكن به كثير من القوات » .

وبعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر أرسل شارون قوة مدرعة صغيرة شمالاً على طريق القناة فى اتجاه الإسماعيلية ، ولكنها وقعت حوالى الساعة ١٨٠٠ فى كمين نصبته لها القوات الخاصة بالقرب من قرية أم عطنة ، فتشتتت القوة . ودفع ذلك إذاعة القاهرة لأن تعلن فيما بعد « إبادة الاختراق » الإسرائيلي وتوغلت هذه المجموعة فى حزام زراعى من المزارع الصغيرة وقرى الأكواخ الطينية وزراعات النخيل والحدائق وحقول الأذرة والخضروات

التى تجوس فيها قطعان الجاموس والحمير . وكان الإسرائيليون يشيرون إلى أنظمة الرى المتعددة التى تقع إلى الجنوب من الإسماعيلية بين قناة السويس وترعة المياه الحلوة على أنها « الأدغال » أو « ڤيتنام » فقد كانت غير مناسبة على الإطلاق للمركبات . ووضع شارون صواريخ « تاو » على الأرض بينما جعل الجنود الذين يقومون بالتنشين والإطلاق يتسلقون الأشجار لتتاح لهم رؤية أفضل : ولكن ذلك لم يكن أسلوباً ناجحاً لأن كثافة الزراعات كانت تعوق أسلاك التوجيه للصواريخ .

وفى يوم ١٦ أكتوبر أيضا تحركت قوة إسرائيلية صغيرة من ٢٧ دبابة وسبع مركبات مدرعة فى مهمة استطلاع غربا ثم جنوباً إلى شاطىء البحيرة المرة الكبرى بالقرب من قرية صقر نوط على مدى مسافة بلغت ١٥ ميلاً وخلال هذه المهمة دمر الإسرائيليون أربعة مواقع لصواريخ سام و ١٢ دبابة و ٢٠ عربة مدرعة أخرى ، دون أن يخسروا سوى جندى واحد فقط . وذكروا أن المنطقة مفتوحة وخالية من أية قوات مصرية ، ومع ذلك صدرت الأوامر فى الساعة ٢٠٠ يوم ١٧ أكتوبر لهذه القوة بالانسحاب إلى الضفة الشرقية لترعة المياه الحلوة .

وفى نفس الوقت ، وعندما علم ديان بأن الجسر الإسرائيلى فشل فى الوصول إلى القناة أصبح متشائماً واقترح سحب قوات المظلات من الضفة الغربية وينقل هرتزوج عن ديان قوله « لقد حاولنا ولم ننجح .. سيذبحونهم فى الصباح على الجانب الآخر » وكان ديان يريد وقف العملية والتخلى عنها . أما الجنرال جونين ، فرغم أنه لم يكن شديد الثقة هو نفسه فقد كان يريد أن تستمر العملية طالما أنها بدأت . أما الجنرال بارليف فقد كان أكثرهم تأكيداً على أن العملية لابد أن تستمر .

وعلى الضفة الشرقية فجر يوم ١٦ أكتوبر كان واضحاً أن المصريين قد أغلقوا بشكل ثابت طريق الطاسة ـ الدفرسوار وكانت قوات مشاتهم المسلحة بالأسلحة المضادة للدبابات تغطى الجزء الأكبر منه وكان الموقع الرئيسى لإغلاق الطريق يقع عند المزرعة الصينية وكانت تسيطر عليه كتيبة مشاة ، يعاونها لواء من الفرقة ٢١ المدرعة موجود على نقطة جيدة تتحكم فيما حولها . وكانت المنطقة مليئة بالعديد من قنوات الرى ـ بعضها جاف والبعض الآخر به ماء ـ والبوابات المهجورة التى تتحكم فى تدفق المياه ، ومضخة مياه ، والعديد من المبانى الأخرى ، وبالقرب منها كانت هناك قرية تضم نحو ١٠٠ منزل صغير ، يعرفها المصريون باسم « قرية الجلاء » .

وبينما كان ضباب الصباح يزول ، أصدر جونين أوامره إلى أدان بتطهير القطاع الشرقى من طريق الطاسة ـ الدفرسوار ، وحمله مسئولية توصيل الجسر المتحرك إلى القناة . ويقول المصريون إنهم رصدوا رسالة إسرائيلية طلب خلالها قادة لواء أدان وقف هجومهم لأن نيران المدفعية المصرية الكثيفة كانت تغلق الطريق . ومع ذلك ، تلقى أدان أمراً بالمضى قدماً وتطهير الطريق .

وعند ظهر يوم ١٦ أكتوبر ، تحدث جونين باللاسلكى مع شارون وأمره بالاستيلاء على المزرعة الصينية وموقع ميسورى الملاصق لها . وتجاهل شارون الأمر ، بحجة أن ذخيرة دباباته كادت تنفد وقال إنه سينتظر حتى يتمكن أدان من تطهير قطاعه قبل أن يعزز ذخائره والتقى ديان مع جونين فى أم خشيب فى الساعة ١٦٣٠ حيث تقرر أنه إذا لم ينجح الجسر المتحرك ولا الأطواف ذاتية الحركة فى الوصول إلى القناة بحلول الليل ، فسيكون لابد من سحب القوة الموجودة على الضفة الغربية ، أما إذا وصلت الأطواف ذاتية الحركة إلى القناة . فسيكون بمقدور القوة أن تظل هناك ؛ ولكن لن يعبر أدان القناة إلا إذا أقيم الجسر .

وفى نفس الوقت ، شن أحد ألوية أدان المدرعة هجوماً على موقع المزرعة الصينية ، واستمر القتال طوال يوم ١٦ أكتوبر . وفى وقت ما كانت دبابات الجانبين مختلطة ببعضها البعض . وكان على أدان أيضاً أن يتصدى للهجمات المضادة من جانب الفرقة ١٦ مشاة وفى المساء ، وصلت تعزيزات من بينها كتيبة مظلات تم نقلها بطائرات الهليكوبتر وفى الساعة ٢٣٣٠ بدأ أدان هجوماً جديداً لتطهير الممر ودفع بقوات المظلات فى المقدمة ، حيث خاضت معركة استمرت ١٤ ساعة خسروا فيها ، على حد قول هرتزوج ٤٠ قتيلا و ١٠٠ جريح وفى الساعة ٢٣٠ من صباح يوم ١٧ أكتوبر . كان قد تم تطويق قوات المظلات ، ولكنها ظلت صامدة بينما راح أدان يتقدم بألويته المدرعة الثلاثة بقوة . وحوالى الساعة ١١٠٠ وصل إلى الجنود المحاصرين وأنقذهم .

واستمرت معركة المزرعة الصينية يوماً وليلة حتى تلقى المدافعون أمراً بالانسحاب شمالاً لمسافة حوالى ستة أميال إلى الخط التالى للمواقع الدفاعية المصرية . وانسحبوا بعد فجر يوم ١٧ أكتوبر ، إلا أن عناصر من الفرقة ٢١ المدرعة ظلت نشطة فى المنطقة . ويقول المصريون إن هذا كان الهجوم الإسرائيلى الوحيد الناجح حقاً طوال الحرب على الضفة الشرقية ولكن الجانبين تكبدا خسائر فادحة . وفى مرحلة ما من القتال ، دخلت الدبابات الإسرائيلية منطقة قيادة الفرقة المصرية دون أن تدرى .

وظل القتال يدور على طول ممر الطاسة يوم ١٧ أكتوبر . وتمكن اللواء ١٤ مشاة المصرى ، إلى الغرب من المزرعة الصينية ، من تدمير وحدة دبابات إسرائيلية ؛ وقام المصريون بهجومين كبيرين على الأقل ضد الإسرائيليين . وحوالى الظهر ، وصل ديان مع الجنرالين بارليف والعازر إلى مقر قيادة أدان المتقدم ؛ وكان يقع على التلال بالقرب من كشاف التى تشرف على مدخل ممر الطاسة . وانضم إليهم شارون ، الذى وصل بطائرة هليكوبتر . واقترح شارون أن يقوم أدان بتطهير الطريق بالكامل ، بينما تقوم بقية فرقته بالعبور إلى الضفة الغربية ، ولكن أدان اعترض على ذلك : وكان يريد الالتزام بالخطة الأصلية . واتفق الجنرال العازر مع أدان ، وأصدر أوامره إلى شارون بالاستمرار وتطهير

الجزء المخصص له فى الممر ، وعندما وردت أنباء تقدم اللواء ٢٥ المدرع المستقل المصرى من الجنوب . تأجل مجلس الحرب .

وفى فجر يوم ١٧ أكتوبر ، بدأ المصريون يقصفون الأطواف ذاتية الحركة التى كانت تنقل المركبات عبر القناة ؛ ومن بين الأطواف العديدة التى تم إغراقها ، كان أحدها يحمل اربع دبابات بأطقمها . وخلال الصباح ، كان قد أمكن إصلاح الجسر الإسرائيلى وتحريكه مرة أخرى ، وراح يتحرك ببطء وعظمة على طريق الطاسة حيث كانت تسحبه عشر دبابات سنتوريون وكان قد تم تمهيد هذا الطريق خصيصاً لهذا الغرض وكان يمتد مستقيماً ومباشراً تماماً . وراح الجسر يتقدم ببطء على ممر الطاسة ، بينما كانت المعارك تدور حوله بصورة فعلية حيث كان رجال أدان يحاولون إعادة فتح الطريق . ورغم أنهم وصلوا إلى حافة الماء عند الظهر تقريباً ، فإنهم لم يعبروا القناة إلا فى الساعة ١٦٠٠ وكان مجرد وصولهم ، ناهيك عن عدم تأثرهم نسبياً بالقصف المكثف بنيران القذائف والهاونات ، هو إحدى معجزات الحرب . ويصر المصريون على أن جسر الأطواف قد أصيب بأضرار جسيمة بحيث ما كان يمكن إصلاحه أو تحريكه ، وأن الإسرائيليين دفعوا بدلاً منه بالجسر الثانى من نوع اليونيفلوت . ورغم أن الإسرائيليين ينفون ذلك ، فإن ليتواك يقول بأن الجسر الأصلى أصيب بأضرار جسيمة بحيث ماعاد يمكن استخدامه ، وأنه تم إحضار الجسر الآخر واستخدامه فى البداية .

وتقول بعض التقارير إن المهندسين الإسرائيليين الذين كانوا مع الجسر راحوا يبحثون عن « حجارة حمراء » يزعم شارون أنها كانت علامات على أماكن العبور المقترحة التى تم فيها تقليل سمك التل الرملى الدفاعى . وينفى المصريون ذلك بشدة . ويصرون على أن الإسرائيليين استخدموا واحدة من الثغرات العديدة التى فتحها المصريون بمدافع المياه فى هذا القطاع بعد ظهر أول أيام الحرب . وينبغى أن نوضح أن الجسر قد أقيم فى النقطة التى تكاد تدخل فيها القناة إلى البحيرة المرة الكبرى ؛ وكان بالكاد فى حماية التل الرملى الدفاعى على الجانبين . وأمكن إقامته بفضل فرقة أدان ، التى كانت منهمكة فى دفع الفرقة ١٦ مشاة المصرية بعيداً عن الطرف الشمالى للممر . وقد قاتلت فرقة أدان بما يكفى لمرور الجسر ، بالإضافة إلى الأطواف ذاتية الحركة وبعض مركبات الإمداد المحملة بالذخيرة والوقود والمواد الغذائية لفرقة شارون . وكان جزء منها على الضفة الغربية ، والجزء الآخر مبعثراً على الضفة الشرقية وكانت عينا شارون تتجهان غرباً .

وصباح يوم ١٧ أكتوبر كان اللواء ٢٥ المدرع المستقل المصرى يتركز عند تفريعة على طريق المدفعية على مسافة نحو ١٥ ميلاً إلى الشرق من القناة ، حيث كان يغطى الجناح الشمالى للجيش الثالث وكان هذا اللواء يضم ثلاث كتائب تتألف كل منها من حوالى ٣٠ دبابة ت ـ ٦٢ وكانت إحدى وحداته قد تركت فى الخلف فى نقطة كبريت الحصينة . وحوالى الساعة ٦٣٠ بدأت الوحدتان الأخريان . ومعهما قيادة اللواء والعناصر المعاونة ، تتحرك

شمالاً ، حيث تصدت لها على الفور تقريباً عشر دبابات إسرائيلية . وتقول السرية المصرية المتقدمة إنها دمرت أربع دبابات منها وأجبرت البقية على الانسحاب . إلا أن هذه القوة المصرية ، التى كانت تعاونها مدفعية الفرقتين السابعة و ١٩ مشاة حتى خرجت عن مداها ، سرعان ما تعرضت لقصف مدفعى متواصل من جهة الشمال الشرقى . وخلال هذا الصباح ، هاجمت الطائرات الإسرائيلية المصريين مراراً .

وبينما بدأ اللواء المصرى يتحرك شمالاً ، بدأت مجموعة صغيرة من الدبابات الإسرائيلية تتحرك فى نفس الاتجاه على خط مواز – من ممر متلا إلى ممر الجدى على محور طريق الإمداد وكانت السلسلة الجبلية المنخفضة والمتداخلة تخفى الإسرائيليين فى بعض الأحيان ، ولكن لكونهم على أرض أكثر ارتفاعاً بوجه عام ، فقد كان بمقدورهم أن يطلوا على القوة المصرية فى بعض الأحيان . ويقول المصريون إنهم رصدوا فى الليلة السابقة رسالة إسرائيلية تتضمن أمراً إلى « ٦٦ دبابة إسرائيلية » بالقيام بهذا التحرك يوم ١٧ أكتوبر ولكن الإسرائيليين يقولون إن هذا التشكيل لم يكن يضم سوى حوالى ٣٠ دبابة . ويقول المصريون أيضاً إنه بينما كان لواؤهم المدرع يتقدم من نقطة إلى أخرى مع جناح حماية فى الجانب الأيمن لتغطية الدبابات الإسرائيلية ، فقد رصدوا رسالة أخرى إلى قائد هذه الدبابات تأمره بالانحراف غرباً ومهاجمة التشكيل المصرى ، إلا أنه رفض تنفيذ هذا الأمر – وقد أطلق نيران مدافعه على المصريين ، الذين ردوا بإطلاق النار ، ولكنه لم يقم بهجوم فعلى .

وحوالى الساعة ١٦٠٠ ، كان اللواء المصرى قد قطع مسافة تبلغ حوالى ٢٧ كيلو متراً . عندما وصل إلى قناة رى تمتد من الشرق إلى الغرب ، كان جزء منها استمراراً لوادى الجدى . وكانت القناة جافة فى معظمها ، ولكنها كانت تحتوى على مياه فى بعض الأماكن ، وكان الإسرائيليون قد أقاموا خطا من صواريخ « تاو » على مسافة نحو ستة أميال من موقع المزرعة الصينية . وحتى هذه اللحظة لم يكن اللواء المصرى قد فقد سوى خمس دبابات فقط . وقال لى ضابط العمليات الذى اشترك فى المعركة إنه بعد الساعة ١٠٠٠ تقريبا ، كان هناك « نشاط مكثف لطائرات الهليكوبتر » التى كانت تنقل ما اتضح أنه أعداد من صواريخ « تاو » وأطقمها إلى منطقة كتاب الحبشى ، وهى نقطة تقع إلى الغرب من ممر الجدى بالقرب من خط الكمين ، فوق سلسلة جبلية يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم وتطل على قناة الرى .

وبينما كان اللواء ٢٥ المدرع المستقل يقترب من خط هذا الكمين ، أرسل الإسرائيليون سبع دبابات من فرقة شارون لملاقاتهم ؛ ويقول المصريون إنهم دمروا الدبابات السبع جميعاً بمدافع دباباتهم ، « كل دبابة بقذيفة واحدة » بينما لا يعترف الإسرائيليون إلا بخسارة أربع دبابات فحسب .

وبينما اتخذت الدبابات المصرية وضع اغلاق فتحات الأطقم وهى تبحث عن نقطة

للاختراق ، تعرضت فجأة لوابل من صواريخ « تاو » وقال لى ضابط مصرى كان موجوداً وقتها « أصبحت السماء فجأة مليئة بالكرات الحمراء التى تتجه نحو دباباتنا ، وأصيب الكثير منها واشتعلت فيها النيران » . وبعد أن صمدت القوة المصرية لمدة ساعة ، وتكبدت خسائر فادحة ، صدرت لها الأوامر بالانسحاب إلى منطقة نقطة كبريت الحصينة .

وبمجرد أن بدأت فى الانسحاب ، راحت الدبابات الإسرائيلية تهاجمها ، ودارت معركة مستمرة حتى عادت القوة المصرية إلى النقطة الحصينة . وأوقف الإسرائيليون الهجوم المضاد المصرى على ممر الطاسة ، وكان هجوماً شرساً يتسم بالتصميم ، بفضل صواريخ « تاو » من موقع كمين جيد على طول حاجز الرى . وأمكن انقاذ رأس الجسر الإسرائيلى على الضفة الشرقية من التطويق - ربما فى لحظة حاسمة ، ووصلت الدبابات المصرية الأمامية إلى مسافة أقل من ثلاثة كيلو مترات من قرية قلعة سلام ، وهى قرية مهجورة على شاطىء البحيرة المرة الكبرى كان يحتلها رجال شارون . ومع حلول الظلام ، استخدمت المدفعية المصرية قذائف المشاعل لإضاءة ميدان القتال حول نقطة كبريت الحصينة .

ومثلما يبدو محتماً فى هذه الحرب ، تكون هناك تقارير ومزاعم متناقضة يقول الإسرائيليون إنه تم تدمير كل القوة المهاجمة ، وأن قائدها لقى مصرعه . ويعترف المصريون « بخسائر نسبتها ٣٠ فى المائة من دبابات » اللواء بأكمله وهو مايعنى أكثر قليلاً من ٣٠ دبابة فحسب . وكانت معظم هذه الخسائر فى الكتيبة الأمامية ، التى أعاد ضابط برتبة الملازم بقاياها إلى نقطة كبريت الحصينة . ويزعم الإسرائيليون أنهم دمروا ٦٨ دبابة ت - ٦٢ وكثيراً من العربات المدرعة الأخرى وعربات الوقود ، وأن أربع دبابات فقط هى التى نجحت فى العودة إلى نقطة كبريت الحصينة . ويقولون إن خسائرهم كانت أربع دبابات فحسب ، وقعت فى حقل ألغام بينما كانت تطارد المصريين . ويقول الإسرائيليون إنه لم يكن لديهم سوى نحو ٣٠ دبابة متاحة لمعاونة الكمين (تم استدعاء كتيبة على عجل من مواجهة الفرقة ١٦ مشاة فى الشرق) إلا أن المصريين يقولون إنه لابد أن الاسرائيليين كان لديهم حوالى ١٢٠ دبابة هناك . وأوضحت هذه المعركة ، وهى أول معركة تستخدم فيها صواريخ « تاو » بأعداد كبيرة ، أوضحت قدرة هذا الصاروخ القاتلة ضد الدبابات . فمداه الذى يصل إلى قرابة ٣,٠٠٠ متر كان أكبر من مدى المدفع السوفييتى عيار ١٢٠ مم الموجود فى الدبابات ت - ٦٢ ومن مدافع دبابات باتون وسنتوريون أيضاً - وهى مشكلة مازالت تسبب قلقاً لرجال الدبابات .

وبالنسبة لأدان ، كان يوم ١٧ اكتوبر يوماً طيباً . فقد فتح ممر الطاسة فى الصباح ، ثم صد لواء مدرعاً مصريا بعد الظهر واعترف بأنه خسر ست دبابات فقط ، من بينها ثلاث بنيران الصواريخ . وكان الجسر الإسرائيلي جاهزاً منذ الساعة ١٦٠٠ ولكن لما كان أدان مشغولاً فى إعادة تنظيم فرقته ، فإنه لم يتمكن من انتهاز الفرصة للعبور قبل أن تصله

الأوامر بالانتظار ورغم نداءات شارون بأن ينضم إليه أدان بفرقته على الضفة الغربية فقد تم تأجيل عبوره ليومين آخرين .

وبدءاً من صباح يوم ١٧ أكتوبر ، بدأت قوة مصرية يقول هيكل إنها اللواء ١٨٢ مظلات تتحرك إلى الجنوب من الإسماعيلية مباشرة إلى التل الرملى الدفاعى المجاور للقناة . وبينما كان قائد اللواء يتقدم فى طريقه جنوباً . كان يفصل بعض الوحدات لاحتلال نقاط معينة . وعندما وصل إلى البحيرة ، كان قد استخدم معظم رجاله فى ذلك ، واضطر مرة أخرى إلى التراجع لمسافة ما ، عندما راح شارون يضغط شمالاً لتوسيع رأس جسره على الضفة الغربية حيث صدرت له أوامر عاجلة بتنفيذ ذلك . وبمجرد إقامة الجسر الإسرائيلى عبر القناة ، طالب شارون بعبور فرقة أدان على الفور حيث كان يريد - خلافاً للأوامر الصادرة إليه - أن يتوسع هو نفسه فى اتجاه الغرب . وقد حاول أن يفعل ذلك ولكنه لم يتوغل لمسافة بعيدة ، بسبب طبيعة الأرض : الزراعات والأشجار والأرض غير المستوية . وحتى قبل أن يظهر الجسر الإسرائيلى كان شارون يطلب تعزيزات ولكن رد بارليف كان : « ليس قبل أن يقام جسر عبر القناة » .

وبمجرد أن أدرك المصريون هوية الجسر الإسرائيلى فى وقت مبكر من صباح يوم ١٧ أكتوبر ، توجهت إليه مدفعية الجيشين الثانى والثالث ، وأحدثتا به العديد من الإصابات . كما قامت الطائرات المصرية بقصف الجسر ، وأحدثت به مزيداً من الأضرار . وتلقت قيادة لواء المظلات الإسرائيلى ، التى كانت بالقرب من الجسر ، إصابة مباشرة ، أصيب خلالها كل من قائد اللواء ونائبه بجروح . ويقول هرتزوج إنه « منذ هذه اللحظة وحتى وقف إطلاق النار ، ظل رأس الجسر ومنطقة الجسر نفسه يتعرضان لقصف مدفعى مكثف ومتواصل ، واشتركت المدافع والهاونات وصواريخ الكاتيوشا فى صب عشرات الآلاف من القذائف على منطقة العبور . وحاولت الطائرات أن تقصف المنطقة بعد ظهر كل يوم .. وجاءت طائرات الهليكوبتر المصرية فى طلعات انتحارية لإلقاء النابالم على الجسر ورأس الجسر »

وتحرك لواء المظلات المصرى وبه وحدة صغيرة من الضفادع البشرية نحو الجسر لنسفه وزعم شارون أنه فى هذا الهجوم الصباحى على رأس جسره ، ترك المصريون عشر دبابات فى ميدان القتال عندما صدهم ، وحسب ما يقوله هرتزوج . فقد اعترف الإسرائيليون فيما بعد بأنه حتى ذلك اليوم كان شارون قد خسر أكثر من ١٠٠ قتيل ، و ٣٠٠ جريح فى القتال الدائر على الضفة الغربية وحوالى الساعة ١٧٠٠ ، تلقى القائد المصرى المندهش أمراً بالانسحاب إلى مواقعه السابقة « لتلافى نشوء نتوء » وحاول أن يراجع الأمر ، ليجد على حد قول هيكل ، أن الأمر قد صدر مباشرة من « المركز رقم ١٠ » (مركز القيادة العامة للعمليات) كما صدر الأمر للمدفعية التى كانت قد تقدمت معه ، بالعودة أيضاً إلى مواقعها السابقة .

وخلال الليل ، تم إصلاح الجسر ، ولكن لم يعبره سوى قليل من القوات الإسرائيلية

وكانت قوة الهجمات المضادة المصرية على ممر الطاسة قد فاجأت الجنرال بارليف ، الذى كانت تساوره الآن شكوك كبيرة حول مغامرة الضفة الغربية . وبناء على ذلك وحتى بعد أن كانت فرقة أدان قد أعادت تنظيم نفسها عقب المعركة التي دارت حول الممر ، فإن بارليف رفض السماح لها بالعبور إلى الجانب الآخر والانضمام إلى شارون . وكان بارليف يشعر أن عربات الوقود والشاحنات المدنية التي تحمل الذخائر لن يكون بمقدورها أن تتحمل القصف وبالتالى فإن الإمدادات لن تكون مضمونة . ويقول هرتزوج « عبرت آخر قوات جابيم (بارليف) فى الساعة ١١٢٠ يوم ١٧ أكتوبر وعندئذ لم تعبر أية دبابات أخرى لمدة ٢٧ ساعة » .

وقبل ذلك ، ظهر يوم ١٦ أكتوبر . عندما ذهب الرئيس السادات وبرفقته الفريق أول إسماعيل إلى مجلس الشعب لإلقاء خطاب هام لم يكن لديه علم بنزول الإسرائيليين إلى الضفة الغربية ، كذلك لم يكن الفريق أول إسماعيل لديه علم بذلك . لأن النبأ لم يكن قد وصل بعد إلى القيادة العامة . وأثناء مغادرة إسماعيل لمجلس الشعب . نقلت إليه الأنباء فنقلها بدوره إلى الرئيس ، حيث قال له إن « ثلاث دبابات استطلاع إسرائيلية » قد نزلت إلى الضفة الغربية ، ولكن يجرى التعامل معها . وفيما بعد قال السادات فى مقابلة مع مجلة « **الحوادث** » البيروتية فى ٢٤ أبريل ١٩٧٤ إنه « عندما قام الإسرائيليون بهجومهم المعاكس يوم ١٦ أكتوبر ، أمرت الفريق الشاذلى بالتوجه شخصياً إلى الاسماعيلية خلال ٩٠ دقيقة لإبقاء الإسرائيليين داخل الحدود التى حددناها بالفعل حول بحيرة الدفرسوار » وأبلغ الشاذلى أن يحاصر رأس الجسر الإسرائيلى ، وأن يسمح للإسرائيليين بدخوله ، ولكن لا يسمح لأحد منهم بالخروج منه . وقال إسماعيل إنه قد حذر هيئة الأركان العامة يوم ١١ أكتوبر من أن الإسرائيليين قد يحاولون الإغارة على الضفة الغربية ؛ كما قال لى أيضاً إنه يعتقد أن الإسرائيليين « سبحوا » بدباباتهم عبر القناة .

وفى إسرائيل أيضا كان مقرراً أن تلقى رئيسة الوزراء جولدا مائير خطاباً إلى الشعب عند الظهر ، ولكنها أجلته حتى الساعة ١٦٠٠ لتتمكن من الرد على السادات بعد أن عرفت فيما يبدو بتوقيت خطابه . وكانت تعتقد أن السادات يعلم بنزول الإسرائيليين على الضفة الغربية ، ولكنه تعمد إخفاء الحقيقة عن المصريين لكيلا يزعجهم أو يفسد الصورة الوردية التى رسمها لهم . وفى مواجهة معارضة من جانب العسكريين ، أعلنت رئيسة الوزراء مائير العالم أن الجنود الإسرائيليين قد « نزلوا فى أفريقيا » .

وعندما سمع السادات بذلك كان رأيه أنها مجرد خدعة نفسية تهدف إلى إثارة انزعاجه ولم يول الأمر كثيراً من الاهتمام ولم يهتم به أيضاً أحد فى القيادة .

وعومل الإنذار الذى وجهه جيش التحرير الفلسطينى عن وجود « ثلاث دبابات إسرائيلية » على الضفة الغربية معاملة الشائعات التى تهدف إلى إثارة الإنزعاج وكانت المعلومات التى تلقتها القيادة العامة المصرية يومى ١٦ و ١٧ أكتوبر تشير فحسب إلى قوة

إسرائيلية صغيرة من بضع عربات مدرعة . وكانت التقارير القائلة بأنه يتم التعامل معها محلياً موضع تصديق . ومع استمرار التقارير عن وجود إسرائيلى خلال هذين اليومين ، فقد جرى دفع وحدات مصرية صغيرة نحو قوة شارون بصورة عشوائية وجزئية ـ أولاً وحدات بحجم السرية ، ثم بعد ذلك بتشكيلات أكبر على نحو متزايد وبصورة تكاد أن تتسم بالنزق .

ومساء يوم ١٧ أكتوبر ، زار ديان الضفة الغربية بطائرة هليكوبتر لمقابلة شارون ، واقترح عليه أن يتحرك جنوباً بالارتباط مع فرقة أدان ، التى يمكن أن تتحرك على الضفة الشرقية . وكان جونين يلح على الاستيلاء على نقطة ميسورى ، لإخراج الجسر الإسرائيلى من مدى المدفعية المصرية . وكان شارون يريد نقل لوائه المدرع الآخر إلى الضفة الغربية . ولكن جونين لم يوافق ووجه شارون طلبه إلى الجنرال بارليف . الذى ألغى قرار جونين (فيما بعد إشارة ، لو كان المرء بحاجة إلى أية إشارة . على من كان يتولى فعلاً قيادة القيادة الجنوبية) وعندئذ اقترح شارون على بارليف تغيير الخطة ، وأن يتقدم شمالاً للاستيلاء على الاسماعيلية ، بدلاً من أن تتحرك فرقته جنوباً . ووافق بارليف . وكان ذلك يعنى أن تعبر فرقة أدان القناة . وتتحرك جنوباً على طول الضفة الغربية ، وأن تتحرك فرقة ماجن بمحاذاتها على الضفة الشرقية .

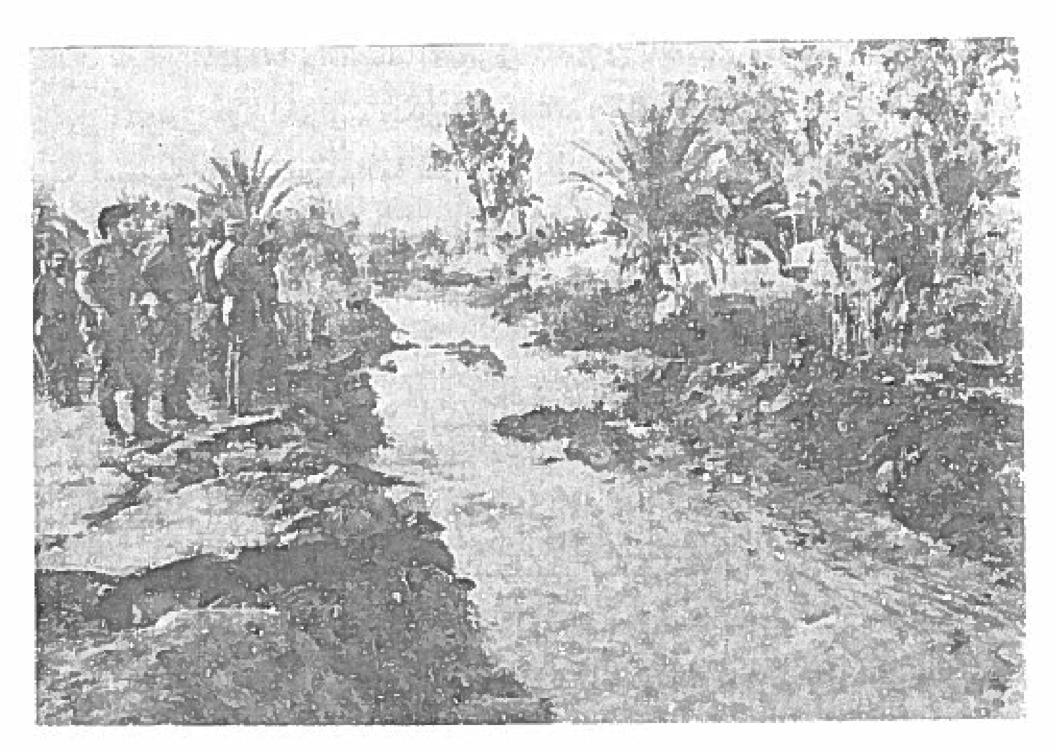
وحوالى الساعة ٢١٠٠ يوم ١٧ أكتوبر ، بدأت فرقة أدان تتحرك إلى الضفة الغربية لكى تتركز فى مطار الدفرسوار ، وكان العبور صعباً وخطراً ، وأغلقت دبابة مصابة لفترة من الوقت الجسر الإسرائيلى . الذى كان يتعرض لنيران المدفعية طول الوقت ، وتم نقل الدبابات بالأطواف ذاتية الحركة ، التى تم إصابة أولها وكان يحمل دبابتين بطاقميهما . وبحلول الساعة ٠٤٠٠ يوم ١٨ أكتوبر ، كان اثنان من ألوية أدان على الضفة الغربية .

وصباح يوم ١٨ أكتوبر ، وعلى الضفة الغربية . بدأ شارون يضغط ببطء على لواء المظلات المصرى الموجود على التل الرملى الدفاعى . لتوسيع رأس الجسر الإسرائيلى الهش فى ذلك الاتجاه . كذلك حاول بعض وحداته التحرك غرباً ، ولكنها توقفت عند تقاطع للطرق فى قرية نفاليا ، حيث توقفت بسبب الأعمال العسكرية ، وبسبب أن المدنيين كانوا قد أغلقوا الطرق الضيقة . واضطرت وحدة مظلات بقيادة الكابتن أسا كادمونى ، للاحتماء بمنزل كبير ، ظلوا معزولين فيه طوال اليوم ، حتى تم انقاذهم فى المساء بوصول المزيد من التعزيزات) وحصل كادمونى على وسام الشجاعة ، وهو أعلى وسام إسرائيلى ، لما قام به ولكنه رد فى أغسطس ١٩٧٥ هذا الوسام ذا الشريط الأصفر احتجاجاً على السياسة العسكرية لحكومته) . وفى نهاية الأمر ، تم إخلاء قوات المظلات بعد أن خسرت ١١ قتيلاً و ٢٧ جريحاً . وخلال اليوم دفع بلواء مشاة ميكانيكية مصرى ضد قوة شارون ، فاندفع إلى المنطقة بصورة مائلة من اتجاه الإسماعيلية فى محاولة للوصول خلف ما كان يعتقد أنه قوة مدرعة إسرائيلية صغيرة .

وصباح يوم ١٨ أكتوبر أيضا قام لواء أدان المدرع الآخر بهجوم من الخلف على موقع المزرعة الصينية ، ليجد فقط أنه تم إخلاؤها قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة . وعندئذ التف واشتبك مع عناصر من الفرقة ٢١ المدرعة المصرية . وبعد ظهر ذلك اليوم ، وصل ديان إلى ممر الطاسة ، ويقول لنا هرتزوج إن أحد قادة الألوية قال له : « انظر أنه وادى الموت » .

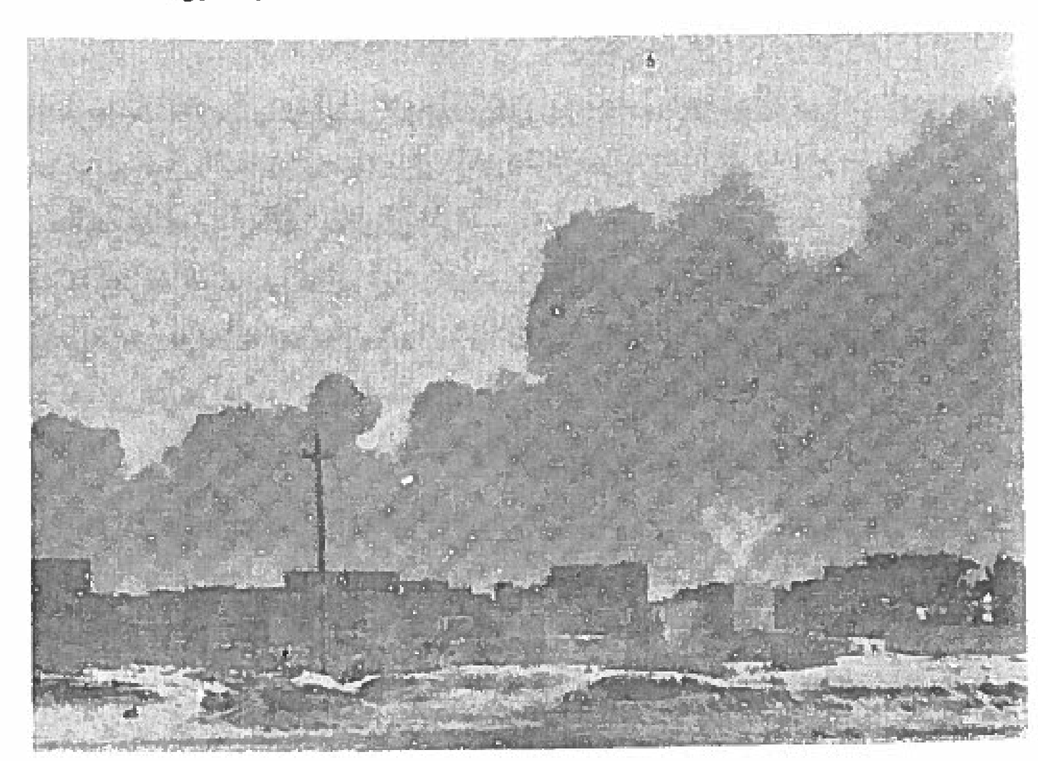
وكان الموقف على الضفة الشرقية يتمثل فى صد الهجمات المصرية من الجيشين الثانى والثالث ، وإخلاء موقع المزرعة الصينية وحتى على الرغم من أن ممر الطاسة كان الآن فى أيدى الإسرائيليين ، فإنه كان يتعرض لقصف مصرى متقطع ، أما نقطة ميسورى الجبلية القريبة بشكل خطر من رأس الجسر الإسرائيلى . فكانت لاتزال فى أيدى المصريين ؛ وكان هناك موقع قوى آخر تحتله الفرقة ١٦ مشاة على مسافة نحو أربعة أميال إلى الشمال من المزرعة الصينية وخلال اليوم ، وقعت معركة مدرعات كبرى فى المنطقة الخالية بين هذين الموقعين الأخيرين ، وشملت لواء من فرقة ماجن ولواء من الفرقة ٢١ المدرعة . وتكبد الجانبان خسائر فادحة ؛ وكانت تقارير الخسائر متناقضة ؛ ولكن كان هناك أكثر من ٥٠ دبابة ومدفع ذاتى الحركة ، معظمها مصرية ، لا تزال نرقد مهملة فى الرمال المفتوحة عندما كنت أتجول فى ميدان المعركة بعد عدة أسابيع . ويقول المصريون إن الإسرائيليين سارعوا بسحب ضعف هذا العدد تقريباً بمجرد سريان وقف إطلاق النار الأول فى هذه المنطقة . وفى ذلك الوقت كان الإسرائيليون يتلقون صواريخ « تاو » الأمريكية بوفرة ، ويستخدمونها بوفرة ، وتشير التقديرات إلى أنهم كانوا قد تلقوا نحو ٢٠٠٠ صاروخ بحلول يوم ١٨ أكتوبر ، ثم حصلوا على المزيد منها بعد ذلك التاريخ .

وصباح يوم ١٨ أكتوبر ، على الضفة الغربية تحرك أدان بلواءيه المدرعين من مطار الدفرسوار . وتوجه أحد اللواءين فوراً إلى الغرب نحو موقع يسميه الإسرائيليون « أوريل » ولكنه فشل فى الاستيلاء عليه . واستدار اللواء الآخر جنوباً ، ليصادف المتاعب على الفور عند « أورى » وهو تل كبير بالقرب من الطرف الشمالى من البحيرة المرة الكبرى ، وفشل الهجوم الأول بعد أن خسر عدة دبابات ثم قام اللواء بهجوم مدرع ثان على أورى ، وفشل هو الآخر وفيما بعد ، تحركت سرية مظلات فى محاولة لتجاوز الموقع ، ولكنها وقعت فى كمين نصبته لها قوة خاصة مصرية مسلحة بقذائف . « آر . بى . جى » فى الزراعات والأشجار . وعند هذه النقطة تقدمت كتيبة دبابات مصرية من الجنوب ضد هذا اللواء الإسرائيلى ، ولكن الدبابات المصرية تعطلت فى بعض الحقول الموحلة بالقرب من طريق ترعة المياه الحلوة ، حيث يزعم الإسرائيليون أنهم أبادوها . أما اللواء المدرع الذى فشل فى الاستيلاء على أوريل ، فقد توقف فى مفترق للطرق غرب أورى ، على حين أن عنصراً آخر من فرقة أدان ، كان يتقدم نحو تقاطع طرق شرق أوركا . تعرض للقصف من جانب لواء مدفعية مصرى ولما انقطع طريق أدان من الجنوب وعجز عن التقدم فقد راح يبعث بوحدات صغيرة لتدمير بطاريات صواريخ سام .



جنود إسرائيليون يقفون عند ترعة المياه الحلوة على الضفة الغربية يوم ١٨ اكتوبر ١٩٧٣ .

سحب الدخان تتصاعد فوق السويس بعد القصف الإسرائيلى .



وعادت نيران المدفعية والقصف الجوى المصرى لتصيب وتحدث أضراراً فى الجسر الإسرائيلى الأصلى مرة أخرى ، ولكن تم إصلاحه مرة أخرى فى المساء . وقامت القوات الخاصة المصرية بثالث هجوم لها على رأس الجسر ، ويزعم الإسرائيليون أنهم صدوا الهجوم ، وتقول القوات الخاصة المصرية إنهم نصبوا كمائن للمركبات الإسرائيلية فى منطقة أبو سلطان وسرابيوم وفى المرتفعات القريبة من أتاكيا وتقول القوات الخاصة أيضاً إنهم نصبوا كمائن للمركبات الإسرائيلية إلى الجنوب من الأدبية عند النهاية الجنوبية للقناة جنوبى ميناء السويس ولكن الإسرائيليين لم يذكروا هذه الحادثة على الإطلاق تمشيا مع مبدئهم فى عدم مناقشة تفصيلات غارات قوات الكوماندوز العربية . وخلال هذا القتال ، تقول القوات الخاصة إنهم وجدوا قذائف « آر . بى . چى » شديدة الفعالية وفى نفس الوقت كان قد تم تجميع الجسر الإسرائيلى الثانى (الذى يقول الإسرائيليون إنه من نوع يونيفلوت بينما يختلف معهم المصريون فى ذلك) ووضعه على مركبات النقل ، ودفعه إلى الأمام على ممر الطاسة ، ليصل القناة بحلول المساء ، ولكنه تعرض للقصف ولم يتم تركيبه عبر الممر المائى إلا فى منتصف الليل . ويقول هرتزوج عن هذا القصف إنه « فى ليلة واحدة ، لقى أكثر من ١٠٠ إسرائيلى مصرعهم ، وأصيب عدة مئات بجروح » .

وكان رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين قد وصل سراً إلى القاهرة يوم ١٦ أكتوبر ، وبقى فيها ثلاثة أيام . ونظراً للمعلومات المتوافرة من الأقمار الصناعية الاستطلاعية السوفيتية ، فقد كانت معلوماته عن الموقف فى ميدان القتال أفضل بكثير من معلومات الوزراء وكبار القادة والضباط العرب ، وعندما اتضح له أن المصريين لا يقدرون حجم التوغل الإسرائيلى ، فقد طلب أن ترسل إليه فى القاهرة أدلة فوتوغرافية مع مترجمين متخصصين . وأوضح للسادات أن هناك ٢٧٠ مركبة مدرعة إسرائيلية على الأقل فى الثغرة التى فى الضفة الغربية . ويقول الإسرائيليون إنه بحلول الوقت الذى كان الرئيس المصرى يطلع فيه على صور الأقمار الصناعية . كان هناك ضعف هذا العدد تقريباً . وأخيراً أدركت القيادة العليا المصرية مدى خطورة الموقف ، وفى اليوم التالى . أرسل الفريق الشاذلى مرة أخرى لتقييم الموقف . وبحلول ذلك الوقت ، ربما كان لدى الإسرائيليين خمسة ألوية على الضفة الغربية لواءان مدرعان ولواء مظلات من فرقة شارون ولواءان مدرعان من فرقة أدان ، وكان الإسرائيليون يستخدمون اللاسلكى لدعوة المصريين إلى الاستسلام .

ووفقاً لما يقوله هيكل ، فقد كان لدى المصريين خطة للتصدى للاختراق الإسرائيلى للضفة الغربية وكانت الخطة المعروفة باسم « الخطة ٢٠٠ » تشير إلى ثلاثة أماكن محتملة للعبور ، أحدهما بالقرب من الدفرسوار . وللمرء أن يتساءل هنا : ما الخطأ الذى حدث ؟ يبدو أن الخطأ الأساسى كان يتمثل فى أنه على الضفة الغربية ، لم يكلف أى تشكيل كبير بمسئولية تغطية الثغرة . وكان الدفاع عنها متروكا للقوات الفلسطينية والكويتية ذات

التسليح الخفيف فحسب . ولم يشعر أي من الجيشين الثانى أو الثالث أن عليه أن يتصرف بمبادرته الخاصة ، ويندفع لتصحيح الوضع . وعلى الضفة الشرقية ، وحيث كانت مثل هذه المهام محددة بدرجة أكبر من الوضوح ، كان رد الفعل أفضل وأسرع مثلما تشهد بذلك الهجمات المضادة المدرعة على ممر الطاسة من الشمال والجنوب على حد سواء ، والتى عطلت إقامة الجسر الإسرائيلى لمدة يومين . كما أن بقاء قوة شارون مختبئة فى الأشجار والزراعات ، وعدم قيامها بشكل واضح بتشكيل رأس جسر دفاعى تقليدى على ضفة القناة كما كانت تقضى الأوامر الصادرة له ، قد ساعد فى خداع المصريين . فلم يهتم المصريون بصورة جادة إلا عندما رأوا الجسر الإسرائيلى الثانى يقام عبر القناة فى وقت مبكر من يوم ١٨ أكتوبر وهو الاهتمام الذى عززته عندئذ صور الأقمار الصناعية السوفيتية .

وفى يوم ١٩ أكتوبر على الضفة الغربية ، استمرت ألوية شارون تدفع قوات المظلات المصرية شمالاً على طول التل الرملى الدفاعى ، حتى أصبح الإسرائيليون على مسافة خمسة أو ستة أميال من الإسماعيلية ، التى كان يتمركز فيها لواء مشاة مصرى . ومع اقتراب قائد المظلات المصرية من الجسر المصرى الجنوبى التابع للجيش الثانى ، فقد قام بتدمير أجزاء من ضفاف ترعة المياه الحلوة وغيرها من قنوات الرى لغمر المنطقة القريبة من قرية طوسون بالمياه ، وجعلها غير صالحة لمرور الدبابات الإسرائيلية .

أما لواء شارون الآخر ، الذى ظل حتى ذلك الوقت على الضفة الشرقية ، فقد بدأ يعبر القناة يوم ١٩ أكتوبر ، تاركاً خلفه كتيبة واحدة فقط لاحتواء موقع ميسورى الذى كان المصريون لايزالون يحتلونه . وتحركت عناصر اللواء الأمامية إلى معسكر أبو سلطان ؛ ومن هناك صدرت لها الأوامر بالتحرك شمالاً والاستيلاء على أوركا . وعلى مسافة نحو أربعة أميال إلى الغرب من سرابيوم ، تمكنت المدفعية المصرية من وقف وحدة إسرائيلية وفى البداية ، قرر قائد اللواء الإسرائيلى استخدام سرية مشاة للقضاء على موقع أمامى مصرى صغير ، ولكنه واجه دفاعاً عنيداً . وفى نهاية الأمر لقى كل المدافعين المصريين مصرعهم ويصف هرتزوج أحد هؤلاء الجنود بقوله إنه « ظل يقفز للخلف ، وهو يطلق النار أثناء ذلك ، ويقاتل حتى لقى مصرعه على قمة التل » ، ودفعت وحدات إضافية لمهاجمة موقع أوركا الرئيسى . ودار قتال عنيف ، شمل بعض القتال المتلاحم فى الخنادق ، حتى حل الظلام ، وتسبب سقوط موقع أوركا فى انهيار هذا الخط الدفاعى المصرى وتمكين المزيد من القوات الإسرائيلية من الوصول إلى التل الرملى . ومن هناك ، كان بمقدورهم أن يطلقوا النار عبر القناة لمعاونة قواتهم التى تواجه موقع ميسورى . ويزعم الإسرائيليون أنهم أحصوا فى اليوم التالى جثث ٣٠٠ قتيل مصرى مقابل ١٦ قتيلاً من جنودهم .

ومكنت الثغرات التى انفتحت فى حائط الدفاع الجوى المصرى سلاح الجو الإسرائيلى من تقديم معاونة أرضية وثيقة ، مما سمح لفرقة أدان بإكمال تمركزها فى مطار الدفرسوار ثم باحتلال مهبط جوى آخر إلى الشمال من المطار . وعندئذ تحرك أحد ألوية أدان ببطء فى

اتجاه الغرب ، بين القوات المصرية والفلسطينية والكويتية المتناثرة ، نحو تلال جنيفة ، حيث اصطدم بوحدة مدرعة مصرية عند ميتزنفيت . وبدأ لواء من فرقة ماجن يتحرك إلى الضفة الغربية ، حيث مر خلال فرقة أدان ليصل إلى نقطة زعم أنها تبعد ١٧ ميلاً عن القناة وفى المقابل ، عبر لواء مدرع مصرى من الفرقة السادسة مشاة ميكانيكية من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية وخلال اليوم تعرض الجسران الإسرائيليان لهجمات متكررة وتعطل كلاهما عند الظهر ، وتم إصلاحهما عندما حل الظلام ، وخلال الليل ، أقيم جسر آخر للمشاة كجسر خداعى فى الأساس .

وفى يوم ١٩ أكتوبر ، ذهب ديان مرة أخرى إلى الضفة الغربية لزيارة الجنرال شارون . وبينما كان هناك ، أفلت من الموت بصعوبة . فقد طارت أربع طائرات هليكوبتر مصرية على ارتفاع منخفض وأسقطت النابالم على الجسور الصغيرة من نوع بايلى التى كانت مقامة فوق ترعة المياه الحلوة وقنوات الرى الأخرى . ولم تصب أى من الطائرات أهدافها ، ولكنها أشاعت الارتباك فى مقر قيادة شارون القريب . وتم إسقاط الطائرات بالنيران الأرضية : ويزعم هرتزوج أن إحداها أسقطت بمدفع مضاد للدبابات .

أما نقطة كبريت الحصينة المحاصرة التى كانت تحتلها عناصر من اللواء ٢٥ المدرع المستقل ووحدة مشاة ، فقد هاجمتها قوة إسرائيلية لأول مرة يوم ١٩ أكتوبر ، دون أن تنجح فى الهجوم . ومنذ ذلك التاريخ ، تعرضت لهجمات عديدة وضغط مستمر من الإسرائيليين من ناحية البر .

وفى يوم ١٩ أكتوبر ، سمح الإسرائيليون لممثلى الصحافة بزيارة الضفة الغربية فى منطقة رأس الجسر . وذكروا أن ممر الطاسة لا يزال يتعرض من حين لآخر لقصف المدفعية المصرية ، وأن الطريق نفسه يمتلىء بالدبابات والمركبات المحترقة ، من بينها بطارية من ستة مدافع إسرائيلية ذاتية الحركة وكثير من الشاحنات المدنية التى تنقل الذخائر . وذكر المراسل الصحفى جيرالد سيمور أنه رأى ثلاثة جسور إسرائيلية عبر القناة ، وأن طائرة ميج هاجمت الجسر الأوسط بالصواريخ ونيران المدافع ، لكى تسقطها طائرة ميراج انقضت عليها . ورأى كثيراً من جثث القتلى طافية على مياه القناة . ودبابة مصرية محطمة على الضفة الغربية ، ومواقع صواريخ سام على الضفة الشرقية وقد دمرتها قنابل الليزر الأمريكية كما رأى العديد من الهياكل الخشبية الواقعية لصواريخ سام والمدافع . وكان الإسرائيليون يشكون من أن المعدات الأمريكية التى تشكل « جسرهم الرئيسى » (يفترض أنه جسر الأطواف)، كانت ثقيلة الحركة وغير مطواعة . ويزعم الإسرائيليون أيضاً أن عرض الثغرة على الضفة الغربية كان يبلغ ١٢ ميلاً ؛ ولكن لم يكن بمقدور الصحفيين أن يروا سوى وجود ضئيل على ذلك الجانب من القناة .

ولابد أن الفريق الشاذلى الذى كلف بمهمة احتواء الاختراق الإسرائيلى يوم ١٦ أكتوبر ، ظل مشغولاً فى المقام الأول بهذه المهمة خلال الأيام الثلاثة التالية ، ولكن دون أن

يحقق نجاحاً كبيراً . وإن كان ستار من الصمت يغلف ما فعله بالفعل . وقد رفض كل من الفريق أول إسماعيل والفريق الشاذلى أن يتحدثا معى عن هذه الفترة ، ومن المعروف أنهما اختلفا حول ما يتعين عمله . فقد كان الشاذلى يفضل سحب بعض المدرعات ـ يفترض أنها ثلاثة أو أربعة ألوية من الاحتياطى الاستراتيجى الذى كان قد تم دفعه إلى الضفة الشرقية يومى ١٢ و ١٣ أكتوبر ـ إلى الضفة الغربية واستخدامها فى تطويق وسحق الاختراق الإسرائيلى وأعلن الشاذلى أنه إذا لم يحدث ذلك ، فإن الجيش الثالث سيواجه خطر التطويق . ورفض إسماعيل رأى الشاذلى ، قائلاً إن تحريك أى قوات للغرب سيضر بالروح المعنوية ، وأيده الرئيس السادات فى ذلك . ومن الواضح أن كلاً من السادات وإسماعيل كانا يتوقعان وقفاً مبكراً لإطلاق النار . وفى نفس الوقت كانا يأملان فى أن يتمكنا من منع الإسرائيليين من الاستيلاء على المزيد من الأراضى التى يسيطر عليها المصريون .

وفى يوم ١٩ أكتوبر ، أرسل الشاذلى مرة أخرى لتقييم الموقف وتقديم تقرير إلى « المركز رقم ١٠ » وعاد فى وقت متأخر من مساء نفس اليوم . ويكمل السادات القصة فى حديثه لمجلة « **الحوادث** » بقوله إنه « فى يوم ١٩ أكتوبر ، اتصل بى وزير الحربية الفريق أول أحمد إسماعيل بعد منتصف الليل مباشرة ، وذهبت إلى مقر القيادة لأجد الفريق الشاذلى منهاراً . كان يقول إن الحرب انتهت ، وإن كارثة قد حدثت ، وأن علينا أن ننسحب بالكامل من سيناء ودرست الموقف ، ووجدت أن الهجوم الإسرائيلى ليس مخيفاً .. ولكننى كنت أخشى أن يؤثر يأس الشاذلى على معنويات القادة الآخرين فى غرفة العمليات ، وهو غرض إسرائيل الرئيسى من العملية . ولذلك عزلت الفريق الشاذلى من منصبه ، وعينت الفريق عبد الغنى الجمسى مكانه » .

ولم يعلن هذا القرار ، ولكن الشاذلى اختفى من الصورة بسرعة وبهدوء . وكل التقارير التى تواترت عن أنشطته فى الأيام التالية ، مثل قيادته للفرقة ٢١ المدرعة فى هجمات مضادة يائسة هى كلها من قبيل الأساطير . ورفض الفريق أول إسماعيل أن يناقش تلك الحادثة معى ، قائلاً إنها « تؤثر على سمعة الشاذلى الطيبة » وفى نفس الحديث الصحفى ، ورداً على سؤال حول سبب تعيين الشاذلى سفيراً ، قال الرئيس السادات « إن الرجل عبر القناة واقتحم خط بارليف ، ولن أنسى مطلقاً أن المراسلين الأجانب كتبوا أن المرور على الجبهة كان أفضل من المرور فى القاهرة ، وكان هذا إنجاز الشاذلى : أما الانهيار الذى أصابه فيما بعد ، فقد كان شيئاً إنسانياً » .

وخلال يوم ٢٠ أكتوبر ، « أصيبت الجسور الإسرائيلية ولكن أعيد إصلاحها مرة أخرى أثناء الليل . ولم يكن المرور عليها كثيفاً ، حيث كان يتمثل أساساً فى المركبات التى تحمل الذخائر والوقود والإمدادات . وكانت الطائرات الإسرائيلية تعمل بصورة أكثر كثافة فوق الثغرة ، فى قوس يأخذ فى الاتساع بينما يتم تدمير مواقع صواريخ سام . وكان هناك أيضاً اهتمام بضرب الجسور المصرية ، ولكن أقصى الأضرار التى تعرضت لها قد جاءت من

المدفعية ١٥٥ مم الإسرائيلية بعيدة المدى التى كانت تتمركز على مسافة ١٥ ميلاً إلى الشرق . وبحلول ذلك الوقت ، كان الإرهاق يحل بالجبهات على الضفة الشرقية ، حيث كان المصريون والإسرائيليون يواجهون بعضهم البعض على مسافات تتراوح بين ١,٠٠٠ و ٣,٠٠٠ متر . وكانت فرقة ماجن فى الشمال تضغط على الجيش الثانى . وفى الجنوب ، فى منطقة ممر متلا حيث الأرض أقل ملاءمة لحرب المدرعات بسبب طبيعتها الصخرية وتعرجاتها ، كانت فرقة تال تزحف لتقترب من الجيش الثالث . وعلى الضفة الغربية ، تحرك لواء إسرائيلى إلى منطقة جبل أم قطيف ، حيث ظل يواجه المدرعات المصرية خلال الأيام الثلاثة التالية ، بينما كانت عناصر من الفرقة الرابعة المدرعة المصرية قد تحركت لمحاولة إغلاق طريق تقدم أدان جنوباً .

ولم يأخذ الفريق أول إسماعيل وهيئة الأركان العامة الاختراق الإسرائيلى للضفة الغربية مأخذ الجد إلا يوم ٢٠ أكتوبر ، بعد أن زار الرئيس السادات « المركز رقم ١٠ » وأعفى الشاذلى من منصبه . فبدأوا يحركون التشكيلات لاحتوائه ، ولكن كان ذلك متأخراً للغاية . فلم يكن المصريون مجهزين ولا مستعدين للحرب المتحركة . وكانت هناك تكهنات حول ما سيفعله الإسرائيليون ، فبعض القادة المصريين كانوا يعتقدون أن الإسرائيليين يعتزمون القيام بعبور برمائى لبحيرة التمساح لتجاوز الإسماعيلية . أما السادات ، فكان يرى أنهم سيحاولون النزول إلى الساحل الغربى لخليج السويس .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر ، أراد شارون أن يتقدم شمالاً لتطويق الجيش الثانى ، ولكن جونين رفض السماح له بذلك ، واتهم جونين عندئذ شارون بعصيان الأوامر ، والتحرك غرباً من رأس الجسر ، وفى الواقع ، فقد تحرك شارون فعلاً فى ذلك الاتجاه لمسافة تصل إلى ٢٥ ميلاً قبل أن ينحرف شمالاً ، ولكنه لم يهاجم على الإطلاق مواقع الجيش الثانى بشكل جاد . ورد شارون بأنه كان « ببساطة ينفذ الأوامر » وتباهى بأنه كان بمقدوره أن يشتبك مع الجيش الثانى ، « كما كان مخططاً » وتطويقه ، لو لم يتردد جونين كل هذا الوقت فى إرسال التعزيزات على الجسور .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر أيضاً ، أصدر الجنرال جونين أمراً إلى شارون ، الذى كانت لا تزال لديه وحدة مدرعة على الضفة الشرقية ، بمهاجمة موقع ميسورى والقضاء عليه . وتجاهل شارون الأمر . وبدأ يتحرك جنوباً . ونقل عنه قوله إن العملية « ليست ضرورية » . وكان جونين يريد إعفاء شارون من قيادته فوراً ، وطلب منه أن يبقى حيث هو ؛ إلا أن شارون تخطى جونين وتوجه مباشرة إلى ديان ، الذى ألغى الأمر ، وقد قيل إن ديان وشارون كانا يتبادلان المحادثات كثيراً عبر وصلة اللاسلكى متجاهلين جونين ، الذى قيل إنه كان يتصنت عليهما .

وفى يوم ٢١ أكتوبر ، أوقفت قوات المظلات والقوات الخاصة المصرية أحد ألوية شارون على مشارف الإسماعيلية ؛ وفى الصباح تطلع الجنود الإسرائيليون الموجودون على التل

الرملى شمالاً ، فرأوا قوات مصرية تتحرك إلى الضفة الغربية فى المنطقة الواقعة جنوب بحيرة التمساح . وجعل ذلك شارون يضغط من جديد للقيام بحركة التفاف واسعة حول الجيش الثانى لتطويقه إلا أن الجنرال جونين كان يريد الاستيلاء على موقع ميسورى ، وأمر شارون بنقل أحد ألويته إلى الضفة الشرقية لهذا الغرض .

وبدأ الهجوم على موقع ميسورى فى الساعة ١٥٠٠ بوحدة شارون التى ظلت على الضفة الشرقية ، ولكن سرعان ما تشتت الهجوم ، ولم يحتل الإسرائيليون سوى ثلث هذه السلسلة الجبلية وسمع جونين أن العملية لا تسير على ما يرام ؛ وعندما حاول نائب جونين الاتصال بشارون ، قيل له إن شارون « مشغول للغاية » وفى المساء ، أصدر الجنرال جونين أمراً جديداً إلى شارون بمهاجمة موقع ميسورى ، ولكن يبدو أنه كانت هناك مشكلات فى الاتصالات بين القائدين ، وليس مؤكداً ما إذا كانت مشكلات متعمدة أم لا . ورد شارون بأنه لا يملك قوة كافية للقيام بالعملية . وعندئذ ظهر الجنرال بارليف فى الصورة وتحدث إلى شارون ، حيث أمره بتحريك لواء إلى الضفة الشرقية والقيام بالهجوم . وكان شارون قد نقل خمساً من دباباته فحسب إلى الضفة الشرقية ، عندما نقل الجنرال تال بعد ١٥ دقيقة أمراً من ديان إلى جونين بإلغاء الهجوم على موقع ميسورى وكان شارون قد تحدث لتوه مع ديان .

وفى يوم ٢١ أكتوبر ، على الضفة الغربية ، تحرك أحد ألوية ماجن فى اتجاه الجنوب الغربى على ممرات بين التلال والكثبان الرملية . وبحلول الغسق ، كان قد وصل بالقرب من طريق القاهرة ـ السويس ، وهو ما دفع الإسرائيليين لأن يزعموا بصورة سابقة لأوانها اتمام حصار الجيش الثالث . وفى نفس اليوم حاول شارون التسلل عبر الحزام الزراعى ، ولكنه لم يحقق كثيراً من النجاح . ونجح رجاله فى تعطيل العديد من مواقع سام وبطاريات المدافع ٢٣ مم الرباعية المضادة للطائرات والمحمولة على مركبات ، بقصف هوائيات أجهزة رادارها بالنيران . وفى الصباح ، شن المصريون غارة شملت ٢٠ طائرة على الجسور الإسرائيلية ، نجحت فى تحطيم الجسر الرئيسى وإغراق عدة أطواف بينما كانت ست دبابات تعبره ، وغرقت الدبابات وأطقمها إلى قاع القناة . وعندئذ حولت مدفعية الجيش الثالث المصرى نيرانها إلى رأس الجسر الإسرائيلى . ويكن الإسرائيليون رأياً طيباً فى قدرات رجال المدفعية المصريين الذين أصبحوا الآن يقصفون جسورهم وتجمعاتهم البرية بشكل يومى .

وفى ذلك الوقت ، كان سلاح الجو الإسرائيلى ينشط ضد مواقع صواريخ سام والرادار المصرية . وجعل ذلك الفريق أول إسماعيل يسحب جانباً كبيراً من هذه المعدات لكيلا تصاب أو يتم الاستيلاء عليها . وهو مازاد من اتساع الفجوة فى حائط الدفاع الجوى . وبالتالى أصبح بمقدور الطائرات الإسرائيلية العمل ، لتوفير الغطاء الجوى والمعاونة الأرضية للقوات الإسرائيلية على الضفة الغربية ـ وهما ميزتان هائلتان وكان ذلك يعنى فى

الواقع إزالة حائط الدفاع الجوى بالنسبة للجيش الثالث بحيث بدأت مركباته تتحرك بفواصل تبلغ نحو ٣٠٠ متر بينها ، بدلاً من ٥٠ متراً قبل ذلك .

ويزعم الإسرائيليون انه بحلول نهاية يوم ٢١ أكتوبر كانوا قد دمروا ٨٥٠ دبابة مصرية بوجه عام ، من بينها ٦٠ دبابة فى ذلك اليوم وحده ، وأن عرض رأس الجسر كان يبلغ ٢٥ ميلاً وعمقه ٢٠ ميلاً . ويبدو هذا القول الأخير مفرطاً فى التفاؤل على الأرجح فالبيانات المصرية والإسرائيلية حول حجم رأس الجسر بالتحديد تتباين بشكل حاد .

وزعم الإسرائيليون أن صواريخ كاتيوشا أطلقت خلال اليوم من سفينة الشحن الأمريكية « **أفريكان جلين** » وهى إحدى السفن التى تركت فى البحيرة المرة الكبرى منذ حرب ١٩٦٧ . وظهرت الطائرات الإسرائيلية ، وهاجمت السفينة بالقنابل والصواريخ فأغرقتها ، وهجرها طاقمها المخفض العدد .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر غضب شارون بسبب تكليف أدان بمهمة التوسع جنوباً وقال إن أدان اختير بدلاً منه « لأسباب سياسية » وتحرك شارون شمالاً مرة أخرى ، ولكنه واجه مقاومة عنيفة وخسر كثيراً من رجاله ، وأوقفته القوات الخاصة المصرية على طول ترعة المياه الحلوة ، حيث أحبطت محاولته الالتفاف خلف الإسماعيلية . وسرعان مافقدت إحدى كتائبه ثلاث دبابات فى منطقة مزرعة الصرف . ومن المؤكد أن المشاعـر السياسيـة الإسرائيلية قد تدخلت فى هذه الحرب ؛ ونقل عن شارون أنه كان فى بعض الأوقات يشجع جنوده بقوله : « إن سكرتير حزب الليكود معكم هنا » وبعد الظهر ، شنت القوات الخاصة المصرية هجوماً على فرقة شارون . وأعادت بعض قواته المتقدمة إلى ترعة المياه الحلوة .

وفى الصباح قام ديان بزيارة أدان على الضفة الغربية وحثه على التقدم إلى نقطة ليتوف ، عند الطرف الجنوبى للبحيرة المرة الصغرى ، وحدد له هدف « التقدم ٢٠ كيلو مترا خلال اليوم » . وانتشرت ألوية أدان المدرعة الثلاثة فتحرك أحدها إلى تلال جنيفة ، والآخر على طريق مواز إلى الجنوب من التلال ، بينما تحرك الثالث نحو مينا ، والآن ، كان الإسرائيليون يتمتعون بالحرية فى السماء ؛ وعلى الأرض كانت دورياتهم الصغيرة تتقدم فى كل مكان ، متفادية الطرق الرئيسية والمواقع المصرية وذكر تقرير صحفى إسرائيلى أن المصريين استخدموا طائرات التدريب من طراز « ياك » فوق منطقة فرقة أدان ، وأن أحد الشهود رأى « إسقاط خمس من بين تسع طائرات » فى غارة واحدة .

وقال لى ضابط إسرائيلى فى فرقة أدان إنه يبدو أن المدرعات المصرية قد تم سحبها غرباً إلى مرتفعات جبل شبراوات ، وهو كتلة جبلية تقع إلى الجنوب الغربى من فايد ، حيث كان بمقدوره رؤية الدبابات وهى تقوم بتحركات مناورتها ولكنها لم تطلق النار على الإسرائيليين الذين كانوا يتحركون جنوباً وقال لى هذا الضابط إن رأي الإسرائيليين لم يكن جيداً فى قدرات أطقم الدبابات المصرية ، الذين كان يقال إنهم كانوا يقتربون من أهدافهم بأكثر من

اللازم قبل أن يفتحوا النار . وربما كان ذلك القول من قبيل عقدة تفوق المدرعات الإسرائيلية .

وبعد الظهر ، صدرت الأوامر لألوية أدان الثلاثة بشق طريقها إلى القناة ، ولكنها توقفت بطول خط من المعسكرات والمنشآت العسكرية وبحلول الليل ، كان مقر قيادة أدان قد وصل إلى نقطة إلى الجنوب مباشرة من فايد على البحيرة المرة الكبرى ووصلت إحدى وحداته المتقدمة إلى طرف التل الرملى عند الطرف الجنوبى من البحيرة المرة الصغرى ، فقط لكى يتم ضربها وإعادتها للخلف مرة أخرى خلال الليل ، بعد أن خسرت تسع دبابات .

وفى مرحلة ما ، اختلطت دبابات أدان بدبابات المصريين . وفى بعض الأحيان ، كان يتعرض لهجمات من سلاح الطيران المصرى . وكان يتجاوز المواقع المصرية بقدر الإمكان ؛ وقد صمد موقع مصرى فى الركن الجنوبى الشرقى من مطار الدفرسوار حتى يوم ١٤ مارس ١٩٧٤ . وفى يوم ٢٢ أكتوبر عبر لواء مدرع آخر من ألوية ماجن إلى الضفة الغربية ؛ مثلما فعل فى المقابل لواء من الفرقة ١٩ مشاة المصرية فى الجنوب .

وفى الشمال ، خاضت حامية بور سعيد معركتها الدفاعية الخاصة ضد الإسرائيليين وكان قد تم تعزيزها بنجاح بوحدة تونسية قوامها ٩٠٠ فرد ونقلتها طائرات جزائرية إلى مصر . ودخل الجنود التونسيون إلى بور سعيد يوم ١٨ أكتوبر عن طريق دمياط حيث كان الطريق الممهد إلى الجنوب قد تعرض لقصف شديد من جانب الإسرائيليين .

وبدأ سريان وقف إطلاق النار على الجبهتين المصرية والسورية فى الساعة ١٨٥٢ . وقال لى ضابط مصرى إنه عندما أذيعت أنباء وقف إطلاق النار فى أجهزة الراديو الترانزستور ، راح كل الإسرائيليين الموجودين على الضفة الغربية يهللون ويطلقون نيران بنادقهم فى الهواء مثل العرب فى الصحراء، حيث كانوا سعداء بانتهاء الحرب ـ أو هكذا كانوا يظنون . ورغم أن العرب والإسرائيليين بالمثل كانوا غير سعداء بتوقيت وقف إطلاق النار ، فقد احترمه العرب بوجه عام .

وفى مساء ذلك اليوم ، عقد المتحدث العسكرى المصرى اللواء عز الدين مختار مؤتمراً صحفياً . وقال إن الإسرائيليين خسروا ٦٠٠ دبابة و ٤٠٠ عربة مدرعة و ٢٥ طائرة هليكوبتر و ٣٠٣ طائرات حربية و ٢٣ سفينة . وفى الساعة ١٨٠٠ من نفس اليوم . عقد الإسرائيليون أيضاً مؤتمراً صحفياً زعم فيه الميجور جنرال شلومو جازيت أن الإسرائيليين احتلوا حوالى ١,٢٠٠ كيلومتر مربع فى الضفة الغربية وحوالى « ٦٠٠ كيلومتر مربع » من الأراضى السورية . وقال إن مصر خسرت ٢٤٠ طائرة و ١,٠٠٠ دبابة وإن سوريا خسرت ٢١٢ طائرة و ١,٠٠٠ دبابة .

أما كتيبة القوات الخاصة التى كانت فى منطقة رأس سدر منذ السادس من أكتوبر ، فقد حرمت الإسرائيليين من هذا الطريق ، وأوقفت خطر تطويق الجيش الثالث المصرى

بالمدرعات الإسرائيلية وفى يوم ٢٢ أكتوبر . عادت القوات الخاصة إلى داخل نطاق الجيش الثالث . وفى منطقة ممر متلا ، ظلت الفرقة الإسرائيلية التى يقودها الجنرال تال على مسافة تتراوح بين ٧,٠٠٠ و ٩,٠٠٠ متر من الجيش المصرى بينما ظلت نقطة كبريت الحصينة التى يحتلها المصريون صامدة ضد الإسرائيليين الذين يحاصرونها .

وسألت الفريق أول إسماعيل فيما بعد عما إذا كان يعتقد أن الإسرائيليين سيقومون باختراق على الضفة الغربية ، فرد بأنه كان قد خصص أحد الألوية (يفترض أنه اللواء ١٨٢ مظلات) للتعامل مع أى محاولة من هذا النوع كما قال بأن الخطأ كان يرجع إلى القائد المحلى ، الذى راح يهاجم بشكل جزئى ، حيث كان يظن فى البداية أنها كانت مجرد قوة استطلاع صغيرة . كما قال بأن « المعلومات كانت تنقطع . لأننا أجرينا تغييرات فى المسئوليات فى بعض القيادات فى حالات طارئة » وكان يشيرون شك إلى إصابة اللواء سعد مأمون بنوبة قلبية . وفيما بعد ، قال الجنرال ألعازر رئيس الأركان الإسرائيلى ، فى مقابلة صحفية مع « **نيويورك تايمز** » يوم ١١ فبراير ١٩٧٤ إن « العبور لم يكن مبكراً أكثر من اللازم ولا متأخراً أكثر من اللازم فلو كان قد تم قبل ذلك لكانت الاحتياطيات المدرعة المصرية مازالت موجودة على الضفة الغربية ، بما كان سيشكل تهديداً على القوات الإسرائيلية بمجرد قيامها بالعبور » ..

الفصل الثانى عشر

انتهاك وقف اطلاق النار

« إن معظم المواد التى نزود بها إسرائيل يجرى سحبها من مخازن وزارة الدفاع ، وفى بعض الحالات من عهدة الوحدات العامة والاحتياطية »

وليام ب . كليمنتس
نائب وزير الدفاع الامريكى

عقد رئيس الوزراء السوفييتى كوسيجين اجتماعاً مع الرئيس السادات يوم ١٦ أكتوبر ، ثم اجتماعين يوم ١٧ ، ثم اجتماعين آخرين يوم ١٨ ؛ وأدرك أن الموقف المصرى قد ازداد سوءا بصورة كبيرة بعد يوم ١٤ أكتوبر . وفى يوم ١٧ أكتوبر ، قدم كوسيجين أدلة الأقمار الصناعية عن مدى اتساع الاختراق الإسرائيلى فى الضفة الغربية . ولكن رغم ذلك ، كان السادات ومستشاروه حريصين على مواصلة الحرب ، مالم يمكن وقفها عن طريق انسحاب كل الإسرائيليين من الأراضى المحتلة . وبحلول ذلك الوقت ، كان الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة يريدان وقف الحرب ، كل منهما لأسبابه الخاصة وبشروطه الخاصة . وتمكنا من إقناع السادات بالموافقة على وقف إطلاق النار ، واعترف هو بأن كل ما كان يريده هو كسر جمود حالة اللاحرب واللاسلم .

وفى يوم ١٨ أكتوبر ، التقى أناتولى دوبرنين السفير السوفييتى لدى الولايات المتحدة مع وزير الخارجية كيسنجر ، واقترح وقف إطلاق النار بشرط أن تنسحب القوات الإسرائيلية إلى حدودها عام ١٩٦٧ ولم يوافق كيسنجر . فقد كان يرى أن القوات المسلحة الإسرائيلية تقاتل بشكل جيد ، ولم يكن يريد لها أن تتوقف بعد . وفى يوم ١٩ أكتوبر ، عاد كوسيجين إلى موسكو ، حيث عرض نتائج زيارته للشرق الأوسط . وعُقِدَ اجتماع طارىء للمكتب السياسى تقرر فيه ضرورة القيام بشىء ما على الفور للحيلولة دون هزيمة عربية . ولأول مرة فى هذه الحرب استخدم « الخط الساخن » بين موسكو وواشنطن (وهو فى الحقيقة جهاز برق مثل أجهزة التلغراف) حين تخاطب السكرتير الأول بريچنيف مع الرئيس نيكسون ، وطلب منه بإلحاح أن يتوجه كيسنجر إلى موسكو لإجراء مشاورات . ووافق نيكسون . وفى اليوم التالى ، وبعد الانهيار الذى أصاب الشاذلى ، أدرك السادات فى النهاية مدى خطورة الوضع المصرى ، وراح هو الآخر يحث الاتحاد السوفييتى على الضغط من أجل وقف إطلاق النار فوراً .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر ، وهو اليوم الذى حظرت فيه السعودية كل صادرات البترول إلى الولايات المتحدة ، وصل كيسنجر ، وبرفقته كل من مساعده جوزيف سيسكو ودوبرنين السفير السوفييتى فى واشنطون ، إلى موسكو ، حيث أجرى كيسنجر محادثات استمرت

يومين مع كل من بريچنيف وجروميكو ، وكانت موسكو تريد وقفاً سريعاً لإطلاق النار : وبينما كانت واشنطون تريد ربطه بالوساطة بين العرب والإسرائيليين ، فإن الحكومة السوفيتية كانت تريد أن تجعله مشروطاً بانسحاب إسرائيل من معظم الأراضى المحتلة . ووافق كيسنجر على الجزء الأول ، ولكنه تردد فى قبول الجزء الثانى ، قائلاً : إن « الشروط ينبغى أن تكون أقل ما يمكن » وكان الاتحاد السوفييتى يريد أن تقوم قوات سوفيتية وأمريكية بمراقبة وقف إطلاق النار ، ولكن كيسنجر الذى لم يكن يرغب فى رؤية جنود سوفييت بصورة علنية فى الشرق الأوسط ، كان يريد أن تؤدى هذه المهمة قوة تابعة للأمم المتحدة . وفيما بعد ، قال كيسنجر لمجموعة من المفكرين اليهود الأمريكيين ، فى تصريحات نشرتها صحيفة « **نيويورك تايمز** » فى ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، أنه أعطى الإسرائيليين أربعة أيام إضافية من القتال ، وذلك بتأخيره إبرام الاتفاق على وقف اطلاق النار المصرى - الإسرائيلى .

وتم التوصل إلى حل وسط ، واتفقت القوتان العظميان على أن يكون هناك وقف فورى لإطلاق النار ، وأن تكون مهمة كيسنجر هى إقناع الإسرائيليين بقبوله . ومساء يوم ٢١ أكتوبر ، كان مجلس الوزراء الإسرائيلى لا يزال يعقد جلسة صاخبة . وفى الساعة ٠٢٠٠ من يوم ٢٢ أكتوبر ، تلقت رئيسة الوزراء مائير رسالة عاجلة تطلب منها قبول وقف لإطلاق النار ، حيث سيعرض اقتراح بذلك على الأمم المتحدة فى نفس اليوم . ووافق بعد تردد مجلس الوزراء ، الذى كان يريد « حدوداً آمنة وتسوية عن طريق التفاوض » ، ولكنه طلب أن يأتى كيسنجر إلى إسرائيل لمناقشة الأمر ، وهو ما فعله وهو فى طريق عودته من موسكو إلى واشنطون .

وفى يوم ٢١ أكتوبر ، أعلنت السعودية خفضاً بنسبة عشرة فى المائة من الإمدادات البترولية للغرب ، وحظراً كاملاً على الإمدادات البترولية للولايات المتحدة وهولندا . وربما كانت هذه هى القنبلة الأخيرة التى جعلت الرئيس نيكسون يضغط على الحكومة الإسرائيلية لقبول وقف فورى لإطلاق النار . وفى اليوم التالى ، وعندما أعلنت السعودية خفضاً بنسبة ٢٠ فى المائة من الإمدادات البترولية للغرب ، راحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى تدعوان علناً إلى وقف إطلاق النار فى الشرق الأوسط ، وأقر مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨ . وكان القرار يدعو إلى سريان وقف إطلاق النار فى موعد لا يتجاوز ١٢ ساعة من لحظة صدور القرار (وكانت الساعة ٠٨٥٢ بالتوقيت المحلى) وإلى أن تنفذ كل الأطراف المعنية القرار ٢٤٢ فوراً وبكل أجزائه . وقبلت مصر والأردن وإسرائيل القرار رقم ٣٣٨ ، أما سوريا ، التى لم تكن طرفاً فى القرار ٢٤٢ ، فقد قبلت أيضاً القرار الجديد على مضض وبصورة أولية .

وكان الرئيس السادات قد أبلغ الرئيس السورى الأسد يوم ٢٠ أكتوبر أنه سيقبل وقف إطلاق النار لأنه « لا يستطيع أن يحارب الجيش الأمريكى » ، وأنه لا يعتزم المخاطرة

بتكرار تدمير القوات المسلحة المصرية مثلما حدث عام ١٩٦٧ . وكان لدى السادات انطباع بأن الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة والأمم المتحدة ستضمن معاً انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة وعقد مؤتمر سلام لتسوية مشكلة الشرق الأوسط مرة وإلى الأبد . وفيما بعد ، اعترف السادات فى مؤتمر صحفى يوم ٣١ أكتوبر ، بأن قواته المسلحة كانت مترددة فى وقف القتال .

وقال الرئيس الأسد يوم ٢٩ أكتوبر إن أحداً لم يتشاور معه حول قبول مصر لوقف إطلاق النار ؛ ولكن فى يوم ٢٠ أكتوبر ، كان السفير السوفييتى فى سوريا قد أبلغ الأسد أنه لن يتم تزويده مستقبلا إلا بالذخيرة ، وأنه لن ترسل إليه أسلحة ثقيلة أخرى نظراً لخطر استيلاء الإسرائيليين عليها . وبمجرد قبول مصر لوقف إطلاق النار ، أبلغ السفير الأسد بأنه لن يتلقى أية إمدادات عسكرية أخرى ما لم تقبل سوريا أيضاً وقف إطلاق النار . ثم هدده بعد ذلك بسحب الفنيين السوفييت الذين يعملون مع حائط الدفاع الجوى واضطر الأسد للموافقة على وقف إطلاق النار .

ومساء يوم ٢٢ أكتوبر ، توقفت التحركات البرية على جبهة الجولان ، وتوقف العد التنازلى للعملية المشتركة الكبرى التى كانت على وشك أن تبدأ ، والتى كانت ستضم تشكيلات سورية وعراقية وأردنية . ومع ذلك ، ظل القصف والنشاط الجوى مستمراً بشكل متقطع وفى اليوم التالى بدأت « حرب الاستنزاف » [السورية] التى دامت ٨٢ يوماً واستمرت حوادثها تقع بشكل يومى تقريباً .

ورفضت الحكومة العراقية قبول القرار ٣٣٨ ، وغادرت القوات العراقية سوريا يوم ٢٧ أكتوبر ، رغم احتجاجات الحكومة السورية . كما رفض العراقيون أن يتركوا دباباتهم للسوريين ، رغم أن الحكومة السوفيتية وعدت بتعويضهم عنها فيما بعد . وانتقد العراقيون أيضاً إدارة السوريين للحرب . أما اللواءان الأردنيان ، فقد بقيا فى سوريا لبضعة أسابيع ، ولكنهما جميعا كانت قد رحلت بحلول الثالث من يناير ١٩٧٤ . وتم تخفيف قيود الطوارىء فى الأردن يوم ٢٥ أكتوبر . وفى يوم ٢٩ أكتوبر طلبت الحكومة اللبنانية من الفلسطينيين عدم شن أية هجمات أخرى على إسرائيل من الأراضى اللبنانية .

وفى أوائل نوفمبر ١٩٧٣ ، بدأ فنيون سوفييت ، يقدر أن عددهم الإجمالى وصل إلى ٣,٠٠٠ فى نهاية الأمر ، يصلون إلى سوريا لإصلاح الأسلحة والمعدات . وفى ٣١ مارس ١٩٧٤ ، زعم موشى ديان فى تصريحات أدلى بها فى واشنطون أن هناك لواء كوبيا فى سوريا يضم ١١٠ دبابات ، فضلا عن بعض الكوريين الشماليين وقوات أخرى من « فرقة أجنبية عربية » . ولم توقع اتفاقية فك الاشتباك السورية حتى يونيو ١٩٧٤ ؛ وقيل إن التأخير كان يرجع إلى مسألة إعادة الأسرى الإسرائيليين الذين قيل إنهم تعرضوا لاستخدام « عقار الحقيقة » معهم لانتزاع المعلومات منهم .

وعلى حين كان يبدو أن المصريين ينوون احترام وقف إطلاق النار (على سبيل المثال ،

أعيد فتح مطار القاهرة الدولى لفترة وجيزة) ، فإن الإسرائيليين ، على العكس من ذلك ، راحوا يدفعون بالقوات فوق جسورهم الثلاثة ليلة ٢٢/٢٣ أكتوبر وكان يبدو أنهم لا ينوون الالتزام بوقف إطلاق النار ، بل كانوا قد عقدوا العزم على توسيع مواقعهم على الضفة الغربية . فصدرت الأوامر لفرقة أدان بالتحرك بسرعة إلى الجنوب للاستيلاء على السويس ، بينما صدرت الأوامر لفرقة ماجن بالاستمرار فى إغلاق طريق القاهرة السويس وفى يوم ٢٣ أكتوبر ، حاول أدان أن يشق طريقه للأمام من المطار الموجود فى فايد . ولم ينجح إلا فى الوصول إلى منطقة جنيفة ، عند الطرف الجنوبى للبحيرة المرة الصغرى ، حيث توقف جزء من قواته لمدة يومين . وعندئذ ، استدار أدان غرباً إلى المرتفعات ، وشق طريقه خلال ممرات الجمال ، وقام بعملية التفاف أوصلته إلى المشارف الشمالية للسويس حوالى الساعة ١٧٠٠ . وقامت سريته المتقدمة بهجوم ضعيف تم وقفه ، وهكذا فشلت المحاولة الإسرائيلية الأولى لدخول السويس .

وإلى الغرب ، كانت فرقة ماجن تتحرك أيضاً عبر ممرات الجمال فى منطقة من الأراضى المتعرجة بين جبل جنيفة وجبل شبراوات ، فى طريقه إلى طريق القاهرة ـ السويس ، وهى مسافة أقصر إلى حد ما . ويزعم الإسرائيليون أن ماجن وصل إلى الطريق القريب من الكيلومتر ١٠١ (على مسافة نحو ٦٣ ميلا من القاهرة) مساء يوم ٢٣ أكتوبر ، وأنه ترك مجموعة صغيرة من الدبابات بالقرب من هذه النقطة ، ويعترف الإسرائيليون بأن فرقته تقلصت إلى ٥٠ دبابة فقط . ولا يوافق المصريون على ذلك ، ويصرون على أن ماجن لم يصل إلى ذلك الطريق إلا فى اليوم التالى . وكانت منطقة الجبلين تتألف من أرض حجرية لا تتناسب بوجه عام مع حركة المدرعات ، وهكذا ، فقد كمنت المدرعات المصرية فى ممر ضيق ، وراحت تستخدم النيران غير المباشرة لمدافعها ضد الإسرائيليين . أما على الجبلين ، فقد استخدم جنود المشاة المصريون الأسلحة المضادة للدبابات ذات المدى القصير .

وفى الشمال صدرت الأوامر لشارون بالتقدم فى اتجاه الشمال الغربى لمحاولة الوصول خلف الاسماعيلية وقطع طريق الاسماعيلية ـ القاهرة . ولم ينجح فى ذلك . حيث لم يستطع اختراق المنطقة الضيقة . ويقول المصريون : إنه خلال الليل ، تجمعت الدبابات والمركبات الإسرائيلية فى القرى ومناطق الثكنات المهجورة ، بينما ظلت محركاتها تعمل طول الوقت . ولم يقم الإسرائيليون بأية تحركات ليلية ، كما يبدو أنهم لم يقوموا بأية دوريات ليلية أيضاً .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ، أقر مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٩ ، بأغلبية ١٤ صوتاً مقابل لا شىء . وكان يتضمن تفويضاً بتشكيل قوة لحفظ السلام تابعة للأمم المتحدة ، تضم قوات أمريكية وسوفيتية ، ويطالب بتنفيذ وقف إطلاق النار . وكان انتهاك إسرائيل لوقف إطلاق النار واستمرارها فى تطويق الجيش الثالث المصرى قد دفع الاتحاد السوفييتى

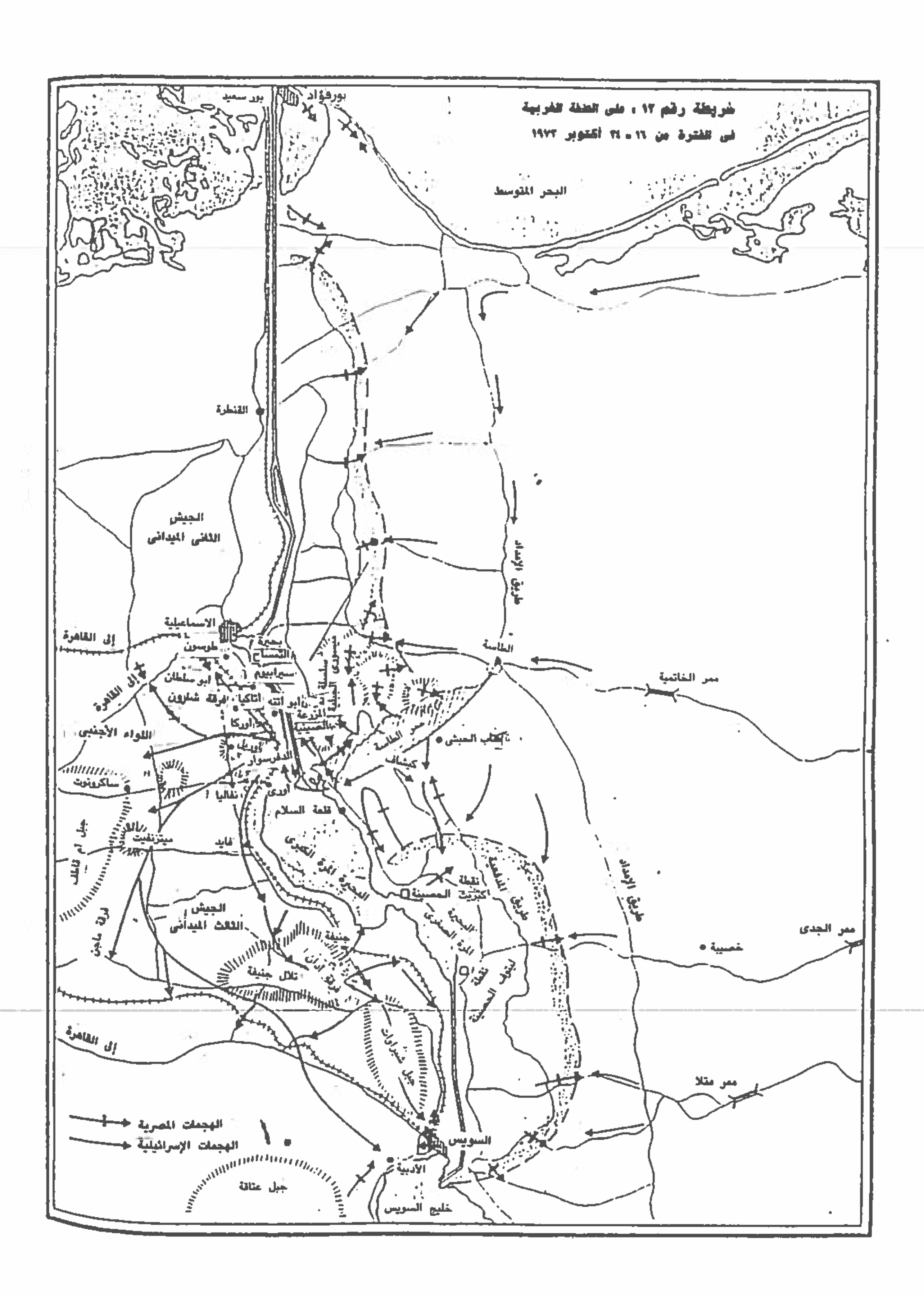
للاعتقاد بأن الولايات المتحدة قد تعمدت خداعه ، فاتهم الحكومة الأمريكية « بالسماح لإسرائيل بانتهاك وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ، وتحقيق مكاسب فى الأرض » إلا أن كيسنجر استاء أيضاً عندما سمع بأنباء انتهاك وقف إطلاق النار ، واتصل برئيسة الوزراء مائير ليحثها على وقف القتال فوراً ، ولكنه لم يحصل إلا على إجابة مراوغة . وكان مقرراً أن يبدأ سريان وقف إطلاق النار الثانى فى الساعة ٠٧٠٠ يوم ٢٤ أكتوبر ، رغم أن الأمم المتحدة كانت قد طلبت أن يبدأ فى الساعة ٠٥١٠ ، وهى لحظة شروق الشمس .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر ، بدأت فرقة ماجن ، التى كانت وقتها على طريق القاهرة ـ السويس ، تتقدم غرباً ، ولكن تم إيقافها عند الكيلومتر ١٠١ ، وعندئذ بدأ جزء منها يتحرك شرقاً لمحاولة عزل الجيش الثالث . وكانت عناصر من الفرقة ١٩ مشاة المصرية تتمركز فى السويس وفى الصباح ، طلب أدان التصريح له بمهاجمة المدينة مرة أخرى . ورد عليه جونين بقوله : « لو ستكون مثل بنغازى ، فلتهاجم ، ولكن لو ستكون مثل ستالينجراد ، فلا هجوم » .

واختار أدان أن يهاجم ، مستخدماً وحدة دبابات وكتيبة مظلات . وراحوا يتقدمون بشكل سافر على الطريق الواسع الذى يدخل إلى المدينة ، فتعرضوا لإطلاق النيران عليهم نجأة من المبانى على جانبى الطريق . وقال لى ضابط مصرى كان هناك إنه « خلال ٢٠ .قيقة . قتل أو أصيب ٢٠ من قادة الدبابات الأربع والعشرين الإسرائيلية التى كانت تتقدم ن طابور ، والذين كانوا مكشوفين فى أبراج دباباتهم » ولم يكن الإسرائيليون يتوقعون مثل ىذه المقاومة الشديدة ، ولكن رغم المفاجأة ظلت الدبابات تتقدم إلى الأمام ، أساساً لكى حتمى خلف المبانى .

كذلك ، فإن قوات المظلات التى كانت تتبعهم فى عربات نصف مجنزرة ، تكبدت خسائر ى الأخرى ، ولكن الجنود سارعوا بالنزول من العربات والاحتماء بالمبانى . وفى نهاية لأمر ، انسحبت من المدينة الدبابات الإسرائيلية التى استطاعت الانسحاب ، بينما حوصرت مجموعتان من قوات المظلات فى وسط المدينة ، وظلتا هناك طوال اليوم . وعندما ل الظلام ، نجح معظم أفرادهما فى الهروب إلى الخطوط الإسرائيلية . ويعترف إسرائيليون بأن خسائرهم فى الأفراد فى هذه المعركة الفاشلة بلغت ٨٠ فرداً ؛ كما خسروا ١ دبابة و ١٧ ناقلة جنود مدرعة وبعض الشاحنات . ويقول المصريون إن الإسرائيليين ركوا خلفهم فى المدينة ١٦ دبابة و ١٤ شاحنة . وبعد أن فشل الإسرائيليون فى احتلال قلب سويس ، فإنهم بدأوا الآن يطوقونها ، بينما راحت عناصر من فرقة ماجن تقترب من أدبية ، وهى محطات تكرير البترول الواقعة على جانب الخليج على مسافة نحو ثمانية يال من السويس .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر ، على الضفة الشرقية ، قامت فرقة الجنرال تال بتطويق الجيش ثالث المصرى ، كما شددت الحصار على نقطة كبريت الحصينة التى كانت معزولة عن



خريطة رقم ١٢ : على الضفة الغربية
في الفترة من ١٦ - ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣
البحر المتوسط
بور سعيد
بورفؤاد
القنطرة
الجيش
الثانى الميدانى
الاسماعيلية
إلى القاهرة
بحيرة
التمساح
طوسون
سرابيوم
ابو سلطان
الطاسة
ممر الخاتمية
طريق الإمداد
اللواء الأجنبى
الدفرسوار
قلعة السلام
كبريت
فايد
جنيفة
تلال جنيفة
الجيش
الثالث الميدانى
ممر الجدى
خصيبة
إلى القاهرة
ممر متلا
الهجمات المصرية
الهجمات الإسرائيلية
السويس
الأدبية
جبل عتاقة
خليج السويس

الجيش الثالث ، وكان الإسرائيليون عندئذ يغلقون طريق القاهرة ، السويس ، حيث كانوا لا يسمحون حتى بمرور ممثلى الصليب الأحمر الدولى والعربات التى تحمل امدادات الدم . وبدأت طائراتهم تسقط آلاف المنشورات على الجيش الثالث ، يحثون فيها الجنود على الاستسلام أو الفرار من وحداتهم . وكان الإسرائيليون يركزون على أسر أكبر عدد ممكن من الأسرى وكانت الغالبية من الأفراد الإداريين وأفراد الإمدادات الذين تخلفوا بعد انسحاب حائط الدفاع الجوى والوحدات الأخرى . كذلك ، فقد تم دفع مراقبى الأمم المتحدة للأمام لمحاولة فرض وقف إطلاق النار ، ولكن لم يسمح بالمرور خلال حواجز الطرق الإسرائيلية .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر ، بعث الرئيس السادات برسالة إلى بريچنيف يطلب منه فيها إرسال قوة خاصة لمساعدة الجيش الثالث . واتصل بريچنيف بدوره بالرئيس نيكسون ، من خلال السفير دوبرنين وكيسنجر ، واقترح نشر « قوة أمريكية ـ سوفيتية » باعتبارها « شكلا ثنائيا » لإجراء مناسب ورفض نيكسون هذا الاقتراح ، حيث لم يكن يرغب فى وجود قوات سوفيتية فى الشرق الأوسط . وفى المقابل ، وحيث لم يكن بريچنيف مستعداً لترك الجيش الثالث يهزم أويجبر على الاستسلام ، فقد أرسل « مذكرته شديدة اللهجة » إلى نيكسون ، والتى قال فيها : « إننا نحث بشدة على أن يرسل كلانا قوات لفرض وقف إطلاق النار ، وإذا لم تفعلوا ذلك ، فإننا قد نضطر للتفكير فى التصرف بشكل منفرد » وتسلم كيسنجر هذه المذكرة فى الساعة ٢٢٤٠ بتوقيت واشنطون .

وفى الساعة ٢٣٠٠ ، اتفق كيسنجر ووزير الدفاع شليزنجر على وضع القوات الأمريكية فى أنحاء العالم فى « حالة التأهب الدفاعى رقم ٣ » (المعروفة عموما باسم حالة « التأهب الأحمر » والمعروف أن هناك خمس حالات تأهب دفاعى أمريكية . وعادة ما تكون القوات الأمريكية فى الحالة « رقم ٢ » وكانت آخر مرة أعلنت فيها « حالة التأهب رقم ٣ » عند اغتيال الرئيس كيندى عام ١٩٦٣ . أما خلال أزمة الصواريخ الكوبية ، فقد أعلنت « حالة التأهب رقم ٥ ») . وأبلغ الأمر إلى قادة الأفرع الأمريكية ، وبدأ سريانه الساعة ٠٢٣٠ يوم ٢٥ أكتوبر . ولم يتم التشاور مع الحلفاء فى حلف شمال الأطلنطى ، وفى الساعة ٠١٠٠ ، كانت بريطانيا أول من أبلغ بذلك . وفى الساعة ٠٢٠٠ ، تم إبلاغ مجلس حلف شمال الأطلنطى فى بروكسل . وفى الساعة ٠٢٣٠ ، رد كيسنجر على مذكرة بريچنيف بأن الولايات المتحدة لن تسمح بتحريك قوات بصورة منفردة إلى منطقة الحرب ، ودعا إلى عمل مشترك من خلال الأمم المتحدة . وفى الساعة ٠٣٠٠ ، أبلغ كيسنجر الرئيس نيكسون بما حدث ، وأقر الرئيس ما فعله وزير خارجيته .

وكانت الاستجابة العامة لهذا التأهب الأحمر تتمثل فى أنه إما أن يكون الرئيس نيكسون قد بالغ فى رد فعله على المذكرة الروسية المتشددة ، وإما أنه قد تعمد تحويل الانتباه عن مصاعبه الداخلية ، التى كانت تشمل فضيحة ووترجيت . وفى ذلك الوقت ، كانت أجهزة

المخابرات الأمريكية تعتقد أن الاتحاد السوفييتى قد أرسل رءوسا نووية إلى مصر خلال هذه الحرب . ويقول كالب : إن هذه المواد النووية وصلت إلى بور سعيد صباح يوم ٢٥ أكتوبر ، فور إعلان « حالة التأهب رقم ٣ » الأمريكية . وكانت عمليات الاستطلاع الالكترونى ومصادر المخابرات الأخرى قد أوضحت يوم ٢٤ أكتوبر أن سبعا من الفرق السوفيتية المحمولة جواً الاثنتى عشرة الموجودة فى ألمانيا الشرقية وبولندا ، وتضم نحو ٤٢,٠٠٠ جندى ، قد وضعت فى حالة تأهب ، وأن طائرات النقل التى كانت تعمل فى الجسر الجوى السوفييتى لمصر وسوريا قد تم تحويلها إليها ، وأن سفناً سوفيتية بطائرات هليكوبتر وزوارق إنزال كانت تبحر بالقرب من الساحل المصرى . إلا أن صحيفة « **نيو يورك تايمز** » نقلت عن وزير الدفاع شليزنجر يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٧٣ قوله إن القوات السوفيتية المحمولة جواً كانت قد وضعت فى حالة تأهب قبل اعلان الولايات المتحدة « حالة التأهب رقم ٣ » بخمسة أو ستة أيام .

وصباح يوم ٢٥ أكتوبر ، كان مقررا أن يسرى وقف إطلاق النار فى الساعة ٠٧٠٠ ، ولكن فى الساعة ٠٦٥٠ ، وبينما كان مراقبو الأمم المتحدة يقتربون ، كانت هناك كتيبة دبابات إسرائيلية تقف بالقرب من الأدبية جنوب السويس ، وبدلاً من الانتظار وملاقاتهم ، انطلقت الدبابات الإسرائيلية فجأة ، ودخلت الأدبية ويقول المصريون إنها كانت خدعة غير شريفة . وتجمع حوالى ١٠٠ جندى مصرى على نتوء صخرى جنوبى الأدبية مباشرة ، حيث ظلوا صامدين ضد الإسرائيليين حتى يوم ٣١ أكتوبر ، ولكن مراقبى الأمم المتحدة لم يسمحوا لهم برفع أعلامهم .

وفى يوم ٢٥ أكتوبر ، شن الإسرائيليون هجومهم الثالث على السويس حوالى الساعة ٠٨٠٠ ، وفى هذه المرة استخدموا واحداً من تشكيلاتهم السوفيتية يضم نحو ١٥ دبابة من طراز « تيران » تعززها قوات مشاة فى شاحنات مدنية . ورغم أن القتال استمر حتى حوالى الساعة ١٥٥٠ ، لم يستطع الإسرائيليون اقتحام قلب المدينة ، واضطروا للانسحاب بعد أن خسروا عشر دبابات . وهدأ القتال فى هذه المنطقة حوالى الساعة ١٧٠٠ ، عندما وصل أربعة من مراقبى الأمم المتحدة إلى المكان وفيما بعد ، صرح متحدث عسكرى إسرائيلى بأن خسائر الإسرائيليين فى معركة السويس بلغت ٦٨ ضابطاً و٢٢ طياراً و٢٧٣ جندياً ومدنياً واحداً . وكانت السويس ، التى كانت قبل ذلك مدينة تضم نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، مقسمة الآن بطول الشارع الرئيسى فالمصريون يسيطرون على قلب المدينة ، بينما يسيطر الإسرائيليون على مشارف المدينة ومنشآت الميناء ومعمل تكرير البترول ، بحيث كانوا يحاصرون المصريين . ويعترف المصريون أنه فى ذلك الوقت ، كان الطريق قد أغلق عند الكيلومتر ١٠١ ، حيث أوقف الإسرائيليون مرة أخرى قافلة تابعة للصليب الأحمر الدولى ، ولكنهم سمحوا بمرور إمدادات الدم . وحوصر الجيش الثالث المصرى ، وكان به حوالى ٢٠,٠٠٠ رجل ونحو ٢٥٠ دبابة . وكانت الدبابات تدخل ضمن تشكيل فرقتى المشاة .

وكانت التشكيلات المدرعة ، فيما عدا التشكيل الموجود فى نقطة كبريت الحصينة ، قد تم سحبها إلى الغرب ، مع أحد ألوية المشاة .

ويقول الإسرائيليون إنه فى يوم ٢٦ أكتوبر ، وهو اليوم الذى وافق نهاية شهر رمضان ، كانوا قد أكملوا محاصرة الجيش الثالث بالكامل ، وألقوا المنشورات عليه لدعوته للاستسلام . ومن الناحية الأخرى ، يقول المصريون : إن « الجيش والميليشيات الشعبية والمدنيين » كانوا « يحاصرون الجيب الإسرائيلى » على الضفة الغربية . ومن المؤكد أن المدنيين كانوا يغلقون الطرق والدروب بالمركبات وغيرها من العوائق ، بحيث كانوا يحولون دون وصول شارون إلى طريق الاسماعيلية - القاهرة غربى الاسماعيلية . وعلى جانب القناة وبعد إغراق بعض المناطق الملاصقة للتل الرملى بالمياه ، تمكنت القوات الخاصة المصرية من استعادة أحد « الأهرامات » بينما ردت قوات المظلات جنود شارون إلى الخلف على التل الرملى . وخلال هذا اليوم ، كان هناك نشاط جوى إسرائيلى واسع فوق القوات المصرية فى هذا القطاع ، إلا أن الجزء الشمالى من منطقة قناة السويس ، وهو قطاع الجيش الثانى ، ظل أكثر هدوءاً ، حيث كان الجانبان يلتزمان بوجه عام بوقف إطلاق النار .

وللحيلولة دون توسع الإسرائيليين شمالاً وغرباً ، أمر الفريق أول إسماعيل احتياطيات الجيش الثانى بالتقدم للأمام ، وقال لى أيضاً إنه دفع جزءا من « احتياطى القيادة العامة » أى الجيش الأول إلا أن هرتزوج يقول إن ٨٠ فى المائة من الجيش المصرى كان على جبهة قناة السويس . واتخذت المشاة المصرية مواقعها على خط دفاع ثانوى على المرتفعات الواقعة غرب القناة ، على مسافة حوالى ٤,٥٠٠ متر من ترعة المياه الحلوة . وقام الجيش الثالث بعدة محاولات غير ناجحة لتحسين موقفه ، بمحاولة الاستيلاء على جسور الأطواف المصابة جنوب البحيرة المرة الصغرى ، والتى عطلتها النيران الأرضية الإسرائيلية ، وبمحاولة إقامة جسر آخر بالقرب من السويس . ويزعم الإسرائيليون أنهم أسروا بضعة جنود من الجيش الثالث ، وبضعة هاربين .

وفى يوم ٢٦ أكتوبر ، التقى السفير دوبرنين بكيسنجر فى واشنطون ، وطلب تقليل التوتر ، وكان لدى دوبرنين انطباع بأن مصير الجيش الثالث فى أيدى الأمريكيين ، وأن الأمريكيين قد تواطأوا مع الإسرائيليين فى خرق وقف إطلاق النار . ومع انزعاجه قليلا بسبب وجود حالة التأهب الأحمر ، فقد اتصل كيسنجر تليفونياً برئيسة الوزراء مائير ، وطلب أن يسمح الإسرائيليون بمرور الإمدادات إلى الجيش الثالث .

وفى اليوم التالى ، طالب الاتحاد السوفييتى مرة أخرى الولايات المتحدة بالضغط على الإسرائيليين للالتزام بوقف إطلاق النار ، وسكتت المدافع على الجانبين تقريباً فى هذا القطاع للمرة الأولى منذ بدء الحرب ، ولكن المصريين يقولون إنه لليوم الرابع على التوالى ، منع الإسرائيليون إمدادات الصليب الأحمر الدولى من الوصول إلى الجيش الثالث . وكان

اعتماد الإسرائيليين الكامل تقريباً على الولايات المتحدة قد مكن واشنطون من ممارسة بعض الضغط عليهم ، وعقد اجتماع عاجل عند الكيلومتر ١٠١ بين ممثلين عسكريين إسرائيليين ومصريين . وفى يوم ٢٧ أكتوبر ، بدأ الإسرائيليون بناء جسر عبر القناة ، إلى الشمال مباشرة من البحيرة المرة الكبرى ، على مسافة ٢٧ كيلو متراً بالضبط جنوبى الاسماعيلية ، وقد أقيم بكتل حجرية ضخمة مستطيلة الشكل ، تمر خلالها أنابيب للسماح بموجات المد بالتدفق خلالها . وفيما بعد ، أخرج المصريون هذه الكتل الحجرية ، وبنوا بها نصبا تذكاريا يشبه الهرم فى نفس الموقع الذى أقيم فيه الجسر . ووضع فوقه قارب صغير ، وكان يطل على موقعى المزرعة الصينية وميسورى على مسافة متوسطة .

وبدأت مجموعات القوات الخاصة المصرية تعود من غزواتها فى سيناء ، وعادت ست من هذه المجموعات فيما بين يومى ٢٢، ٢٧ أكتوبر ، حيث استقبلهم الفريق أول إسماعيل شخصياً وهنأهم ، وقالت القوات الخاصة إنها حققت كثيرا من العمليات الناجحة خلال الحرب ، من بينها الاستيلاء على نقطة بور توفيق الحصينة ، وتطهير القنطرة شرق ، ونصب الكمائن على كل طرق سيناء ، وإجبار الإسرائيليين على تخصيص لواء لجنوب سيناء ، وأسر أول أسير إسرائيلى (وآخر أسيرين أيضاً) ، وقتل أكثر من ١,٠٠٠ إسرائيلى ، وأسر ٦٠ منهم ، وتدمير أكثر من ١٠٠ عربة مدرعة إسرائيلية . وعادت بعض مجموعات القوات الخاصة من سيناء بعد مدد وصلت إلى عشرة شهور من انتهاء الحرب .

وفى يوم ٢٨ أكتوبر ، ورغم وقف إطلاق النار الثانى والهدوء النسبى فى اليوم السابق ، شن الإسرائيليون هجومهم الرابع والأخير ضد السويس . وبدأ الهجوم فى الساعة ٠٦٠٠ ، واستمر لمدة ساعة واحدة فقط ، وفشل هو الآخر . وحاولوا فى نفس الوقت التقدم جنوباً لتطويق الجيب المصرى الصغير فى الأدبية ، ولكن قوات حرس الحدود المصرية ووحدة سودانية وصلت لتوها هناك تمكنتا من وقفهم . أما مراقبو الأمم المتحدة ، الذين كان الإسرائيليون يمنعون معظمهم من يوم ٢٥ أكتوبر فصاعداً من الوصول إلى منطقة القتال ، فقد بدأوا الآن يصلون ويتخذون مواقعهم بحلول الساعة ١٢٣٠ ، وكان القصف قد جعل الإسرائيليين يؤجلون تسليم بعض الأسرى العرب إلى القوة التابعة للأمم المتحدة ، وهى وحدة سويدية قوامها ٢٠٠ جندى كانت قد دخلت السويس لتوها ، ولكن بحلول ذلك الوة القصف قد هدأ .

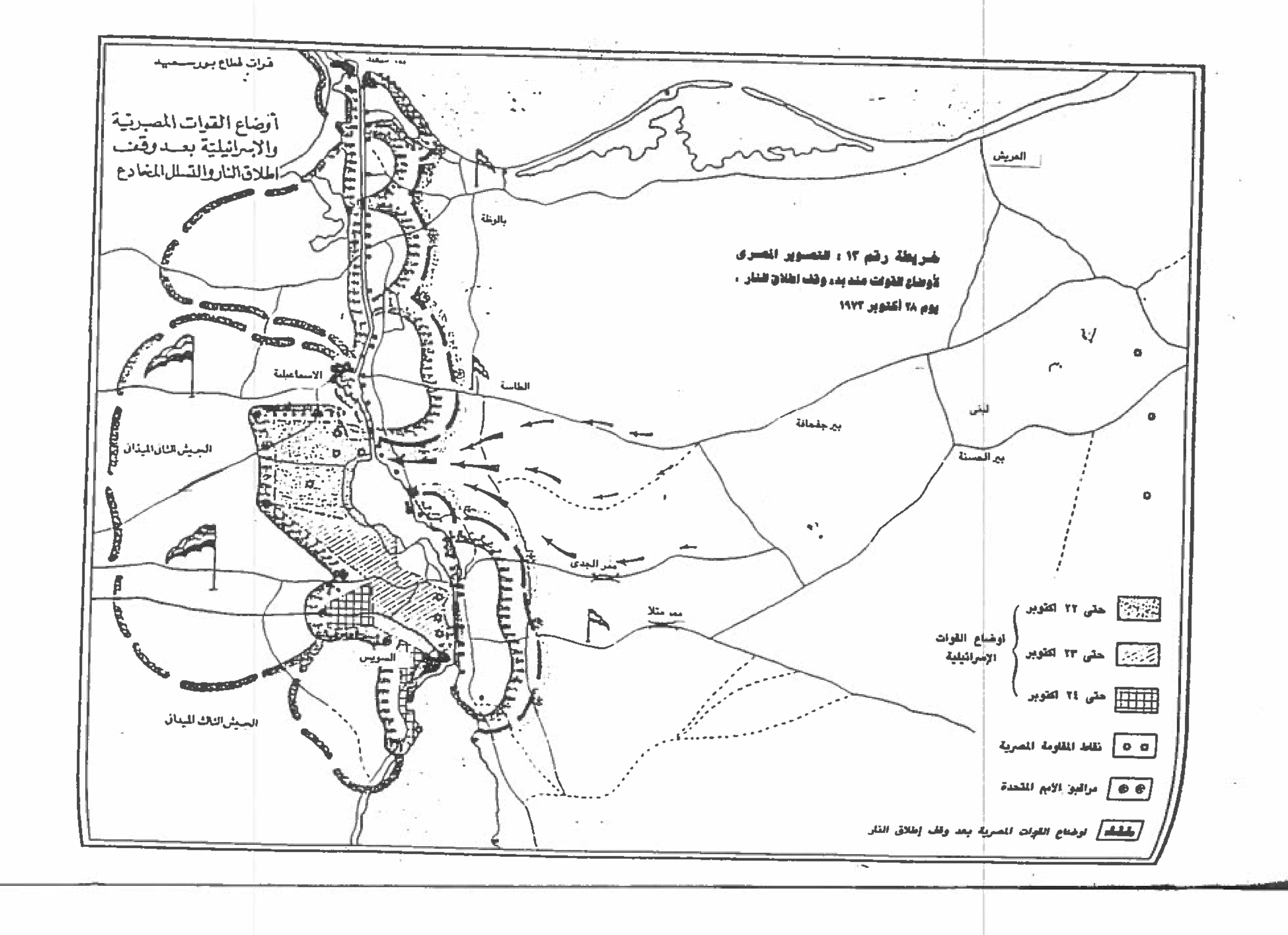
مة الأمريكية مجلس الوزراء الإسرائيلى بالسماح بمرور الإمدادات إلى
الإسرائيليين لم يوافقوا على أية تنازلات أخرى حتى يحصلوا على
ن . وفى كتاب « **حرب الاستنزاف** » يقول هرتزوج ، « لقد فهمت
لوا ذلك ، فلن يكون هناك ما يحول دون أن يقوم الروس
و فى خطاب ألقاه ديان يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٣ ، أكد أن
٢٠,٠٠٠ ر حيش الثالث المصرى المحاصر ، إذا ما واصلت

إسرائيل حصارها له » وسمح الإسرائيليون بمرور قافلة إمداد تحت إشراف الأمم المتحدة ، يقول الإسرائيليون إنها كانت تتألف من ١٠٠ شاحنة ، بينما يقول المصريون انها كانت تتألف من ٢٥ شاحنة فقط . وعندئذ ، وضعت الإمدادات على أطواف عبرت بها القناة إلى الضفة الشرقية . وكانت كل الجسور المصرية قد تعطلت فى ذلك الوقت ، بفعل نيران مدفعية الإسرائيليين وقصفهم الجوى .

وخلال الفترة من ٢٥ إلى ٢٨ أكتوبر ، على الضفة الغربية ، هاجم الإسرائيليون الكثير من الجيوب الصغيرة للقوات المصرية داخل المنطقة التى كانوا يزعمون أنهم يسيطرون عليها . وتم اجتياح بعض الجيوب ، بينما نجح الجنود المصريون فى حالات أخرى فى الهرب إلى السويس ، بينما ظلت بعض الجيوب الأخرى صامدة . ويقول المصريون إنه فى يوم ٢٨ أكتوبر ، كانت الألوية الإسرائيلية تمتد على جبهة واسعة طولها ٧٥ كيلومتراً فى وضع هش . ويقولون إن الإسرائيليين لم يحتلوا بشكل فعلى كل الأرض التى كانوا يطوقونها ، وإن كانوا يحتلون النقاط الحاكمة فقط ، وهو ما كان يمكن المصريين من تحديد مواقع الإسرائيليين وإجبارهم على التنقل يومياً لتفادى القصف المصرى . وكانت القوات الخاصة وغيرها من القوات المصرية تتواجد فى مجموعات صغيرة بين الإسرائيليين ، بحيث كانت تنقل المعلومات عنهم . ويقول المصريون إن الجيب الإسرائيلى كان مطوقاً بثلاث فرق دبابات وفرقتى مشاة ميكانيكية ، ولكن هذه التشكيلات لم تكن متاحة على الفور بشكل قريب من المعركة بسبب بطء رد فعل المصريين وحركتهم .

وفيما يتعلق بالأراضى التى استولوا عليها أو فقدوها على جبهة قناة السويس ، يزعم الإسرائيليون أنهم استولوا على حوالى ٥٠٠ ميل مربع على الضفة الغربية ، رغم أنهم يعترفون بأنه كان هناك كثير من الجيوب المصرية داخل هذه المنطقة . أما المصريون ، فقد استولوا على واحتلوا نحو ٣٠٠ ميل مربع على الضفة الشرقية ، ولكن جيشهم الثالث كان مطوقاً . إلا أنه فى الندوة الإسرائيلية عن حرب أكتوبر ، التى أقيمت فى القدس فى أكتوبر ١٩٧٥ ، قال المؤلف العسكري الكولونيل تريفور ديبوى إنه «كان واضحاً أن العميد أحمد بدوى وجيشه الثالث لم يكونوا على وشك الانهيار » . كذلك ، فقد كتب درو ميدلتون ، المحرر العسكرى لصحيفة « **نيويورك تايمز** » يقول : « إن الجيشين المصريين لم يتحطما . لقد تغلب [الإسرائيليون] عليهما فى المناورات ، ولكن لم يهزموهما . وكانا لا يزالان موجودين » .

وأرقام الخسائر إما مشوشة أو ناقصة أو غير متوافرة . فالتقدير الإسرائيلى الأول ، الصادر فى السادس من نوفمبر ١٩٧٣ ، كان يتضمن ١,٨٥٤ قتيلاً و ١,٨٠٠ جريح . ثم أصدر الإسرائيليون رقماً معدلاً هو ٢,٥٢٢ قتيلاً و ٢,٥٠٠ جريح بإصابات خطيرة ، ولكن من الواضح أن الرقم الإجمالى الخاص بالجرحى ناقص ، وكان موضع شك فى بعض الدوائر . وإذا ما اعتمدنا النسبة المقبولة بوجه عام بين القتلى والجرحى فى المعركة ، وهى



قوات قطاع بورسعيد
أوضاع القوات المصرية والإسرائيلية بعد وقف اطلاق النار والتسلل المخادع
خريطة رقم ١٣ : التصوير المصرى
لأوضاع القوات عند بدء وقف اطلاق النار ،
يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣
العريش
بالوظة
الاسماعيلية
الطاسة
بير جفجافة
بير الحسنة
الجيش الثانى الميدانى
ممر الجدى
ممر متلا
السويس
الجيش الثالث الميدانى
أوضاع القوات الإسرائيلية
حتى ٢٢ اكتوبر
حتى ٢٣ اكتوبر
حتى ٢٤ اكتوبر
نقاط المقاومة المصرية
مراقبو الأمم المتحدة
أوضاع القوات المصرية بعد وقف إطلاق النار

قتيل واحد إلى خمسة أوستة جرحى ، فإن إجمالى خسائر الإسرائيليين لابد أن تكون أكثر من ١٢,٠٠٠ فرد . وعلى سبيل المثال ، يقدر المصريون عدد القتلى الإسرائيليين بنحو ٨,٠٠٠ قتيل ، والجرحى بأكثر من ٢٠,٠٠٠ جريح ؛ وهى أرقام تؤيدها التقديرات السوفيتية ولم تصدر مصر أو سوريا أرقاماً رسمية بخسائرهما ، وإن كانت التقديرات الأمريكية تشير إلى أن خسائر المصريين تجاوزت ١٣,٠٠٠ فرد ، على حين تجمع المصادر الأخرى على أن المصريين تكبدوا خسائر بلغت نحو ٥,٠٠٠ قتيل (وهو رقم ألمح إليه الرئيس السادات فيما بعد) وحوالى ١١,٠٠٠ جريح . وتشير المصادر المماثلة إلى أن سوريا خسرت حوالى ٨,٠٠٠ قتيل و ١٢,٠٠٠ جريح . وإذا ما نظرنا إلى هذه الأرقام بالنسبة لعدد سكان البلدان المعنية ، سيمكن إدراك مدى تأثير هذه الخسائر على الإسرائيليين . وفى الندوة الإسرائيلية ، قيل إن المصريين فقدوا ما يتراوح بين ١٨ و ٢٠ لواء من بين إجمالى ٧٥ لواء من كافة الأنواع .

وكانت الخسائر المادية مذهلة ، ولاسيما فى الدبابات ، ففى ذلك الوقت ، على سبيل المثال ، لم تكن فرنسا تنتج سوى حوالى ٣٠٠ دبابة سنوياً ، والولايات المتحدة حوالى ٣٦٠ دبابة سنوياً . ويقول الإسرائيليون إن المصريين فقدوا ١,٠٠٠ دبابة متوسطة من بين ٢,٤٥٠ دبابة ، و ٤٠٠ ناقلة جنود برمائية مدرعة من بين ١,٨٧٥ ناقلة ، و ٥٠ ناقلة مدرعة أخرى من بين ١,٠٥٠ ناقلة ، و ٣٠٠ وحدة مدفعية من بين ٢,٢٢٠ وحدة . ويزعمون أيضاً أن سوريا فقدت ١,١٠٠ دبابة متوسطة من ٢,٠٠٠ دبابة ؛ و ٤٠٠ ناقلة جنود مدرعة من بين ١,٥٠٠ ناقلة ؛ و ٢٥٠ وحدة مدفعية من بين ١,٢٠٠ وحدة ، وأن الأردن فقد ١٣ دبابة . وفى مقابلة مع رئيس تحرير صحيفة « **التايمز** » نشرت فى الرابع من يوليو ١٩٧٦ ، قال الرئيس السادات إنه « فى السبعة عشر يوما الأولى من الحرب ، خسرت الأطراف الثلاثة ، مصر وسوريا وإسرائيل ، نحو ٣,٠٠٠ دبابة . فقد خسرت أنا ٥٠٠ دبابة ، بينما خسرت سوريا وإسرائيل ٢,٥٠٠ دبابة ، معظمها خسرها السوريون ، لأنهم خسروا خلال تراجعهم ١,٢٠٠ دبابة فى يوم واحد . وقد قالوا ذلك رسميا وخسرت إسرائيل أكثر من ١,٠٠٠ دبابة . وخسرت أنا ٥٠٠ دبابة » . وفى السادس من أكتوبر ١٩٧٤ ، كتب رونالد بين مراسل صحيفة « **صنداى تلجراف** » أنه « لإنقاذ الإسرائيليين ، اضطرت أمريكا لارسال ١,٠٠٠ دبابة ، منها كميات جاءت من المخازن فى ألمانيا » ، وكتب جلاسمان أنه « خلال الحرب ، تلقت سوريا ٨٥٠ دبابة كاستعواض للخسائر ، من بينها ٧٠٠ دبابة ت - ٦٢ » . وأضاف إنه « كان معتقداً فى البداية أن خسائر السوريين فى الدبابات تتراوح بين ٨٠٠ و ٩٠٠ دبابة . ولكن تم بعد ذلك خفض هذه الأرقام إلى أقل من ٥٠٠ دبابة » . وتتفاوت التقديرات الرسمية لخسائر الدبابات تبعاً للبلد الذى تصدر عنه هذه التقديرات . أما أرقام الخسائر فى المدافع والمركبات والمعدات الأخرى فيمكن تخمينها فقط .

ومع احتلال أفراد الأمم المتحدة لمواقعهم بين القوتين المتواجهتين ، صمتت المدافع فى

النهاية . وباستثناء حادثة واحدة وقعت يوم ٢٩ أكتوبر ، حيث يزعم الإسرائيليون أن المصريين حاولوا إقامة جسر عبر القناة على مسافة حوالى خمسة أميال إلى الشمال من السويس ، فقد ظل وقف إطلاق النار سارياً ، ولكن لمدة ثلاثة أيام فحسب . وفى ذلك اليوم ، اجتمع الجنرال الإسرائيلي ياريف مع اللواء المصرى بشير شريف عند الكيلومتر ١٠١ ، حيث أقيمت خيمة لهذا الغرض ، كما زارت رئيسة الوزراء مائير القوات الإسرائيلية فى الضفتين الشرقية والغربية .

وبدأت حرب الاستنزاف المصرية الثانية مع إسرائيل فى أول نوفمبر ١٩٧٣ ، واستمرت حتى ١٧ مارس ١٩٧٤ . وخلال هذه الشهور ، كانت تحدث يومياً تقريباً حوادث قصف وهجمات صغيرة وغارات بالدوريات فى قطاع الجيش الثالث . وكان هناك نشاط جوى إسرائيلى متكرر ضد الجيش المحاصر ، حيث كان الإسرائيليون يحاولون يائسين لأسباب خاصة بمكانتهم ، أن يجبروه على الاستسلام . وعلى سبيل المثال ، يقول المصريون إنه كان هناك أكثر من ١,٥٠٠ من هذه الحوادث فى الفترة من أول نوفمبر ١٩٧٣ حتى ١٨ يناير ١٩٧٤ ، وكانت تشمل أربعة صدامات كبيرة و ٨٩ حادثاً آخر خلال شهر نوفمبر ، و ٣١٢ حادثاً خلال شهر ديسمبر ، و١٣٣ حادثاً خلال شهر يناير . وربما كانت هذه أرقاماً انتقائية ، ولكنها تعطى مؤشراً على مدى هشاشة الجبهة وعدم استقرارها . كذلك ، فقد تدخلت الطائرات المصرية ، وحدثت أول معركة جوية فوق الجيش الثالث فى السادس من ديسمبر . وكان الموقف تعادلاً بقدر ما كان حصاراً ، وإن كان الإسرائيليون لا يحبون رؤية الموقف بهذا الشكل . وكان يتم نقل بعض الإمدادات إلى الجيش الثالث بطائرات الهليكوبتر ليلاً أو بالزوارق ، بينما كان يتم الحصول على المياه من عيون موسى وفى أول نوفمبر ، تم توحيد الفرقتين السابعة و ١٩ مشاة تحت قيادة العميد أحمد بدوى ، وأطلق عليهما اسم « قوة بدر » .

وخلال هذه الفترة ، صمدت أيضاً على الضفة الشرقية نقطة كبريت المحاصرة ، التى حاول الإسرائيليون بشدة إجبارها على الاستسلام . بتعريضها لنيران المدفعية والقصف بشكل مستمر . وكانت المياه فى هذه النقطة بالذات مليئة بالمخلفات ، بما فى ذلك الجثث البشرية ، التى كانت فى كل اتجاه مرتين كل ٢٤ ساعة .

وسبح بعض المدافعين أثناء الليل ، واستولوا على زورق بخارى عائم ، ثم استولوا على ثلاثة أطواف ذاتية الحركة ، استخدموها لنقل الإمدادات عبر المضيق المائى . وكانت الضفة الغربية لا تبعد عن النقطة الحصينة إلا بما يتراوح بين ٢,٣٠٠ و ٢,٧٠٠ متر . وتمت أول عملية عبور لنقل الإمدادات فى ليلة ٢٣ / ٢٤ نوفمبر وكانت ليلة مظلمة حيث كان قمرها محاقاً ، وبلغ إجمالى هذه العمليات ٣٠ عملية نقل خلالها حوالى ٣٠ طنا من الامدادات ، معظمها فى الليالى المظلمة . ويعتبر المصريون الدفاع عن نقطة كبريت الحصينة التى « استولوا عليها خلال ٣٠ دقيقة ، ودافعوا عنها طوال ثلاثة أشهر » ،

إحدى ملاحمهم الحربية ، حيث كان يتم التغلب على نقص المياه بغلى مياه القناة المالحة وتبخيرها ثم تكثيف البخار . ولقى قائد حامية نقطة كبريت الحصينة العقيد إبراهيم عبد التواب ، مصرعه يوم ١٤ يناير ١٩٧٤ .

وعلى الضفة الغربية ، استقر الإسرائيليون ، الذين وصلت قوتهم إلى ١٢ لواء على الأرجح ، فى مواقع دفاعية ، وأحاطوا أنفسهم بالألغام . وفيما بعد ، قال سلاح المهندسين المصرى أنه تم رفع حوالى ٧٥٠,٠٠٠ لغم من منطقة الثغرة ، معظمها ألغام أمريكية الأصل . وفى التاسع من ديسمبر ، أعلن المصريون أن عمق الجيب الإسرائيلى لا يزيد على ثلاثة أميال فحسب ، وليس عشرة أميال كما يزعم الإسرائيليون ، وأن هناك خطة معدة لسحق الجيب باستخدام خمس فرق و ٢٠ وحدة من القوات الخاصة . وفى ذلك الشهر ، تم إسقاط طائرة فانتوم إسرائيلية فوق منطقة الجيش الثالث .

وفى الثامن من نوفمبر ، أعلن الرئيس السادات خططاً لإعادة فتح قناة السويس ويوم ١٢ نوفمبر ، وقع الجنرال أهارون ياريف واللواء محمد عبد الغنى الجمسى اتفاقاً من ست نقاط لوقف اطلاق النار عند الكيلومتر ١٠١ ، تم بعده رفع الحصار الإسرائيلى . ويوم ١٥ نوفمبر ، تم تبادل الأسرى : ٣,٨٠١ أسير مصري مقابل ٢٤١ إسرائيليا . ويوم ٢٤ يناير ١٩٧٤ ، أزيلت الخيمة التى أقيمت عند الكيلو ١٠١ ، ويوم ٢١ فبراير ، بدأت القوات الإسرائيلية الانسحاب من الضفة الغربية بعد عملية استمرت ١٢٩ يوماً . وبحلول ذلك الوقت ، كان حوالى ٣٠٠٠ من الفنيين السوفييت قد وصلوا إلى مصر . وكان الإسرائيليون قد أعلنوا فى ٣١ أكتوبر ١٩٧٣ ، أن لديهم ٥,٤٦٧ أسيراً مصرياً ، و ٣٦٨ سورياً ، و ١٧ عراقياً ، وستة مغاربة ، بما يصل بالاجمالى إلى ٥,٨٥٨ ولم يقع جنود أردنيون فى الأسر .

وكان يوم ١٢ نوفمبر ١٩٧٣ يوم المكافآت والإحباط لكثير من الضباط والجنود المصريين . فقد رقى الفريق أول إسماعيل الحذر إلى رتبة المشير ورقى الجمسى إلى رتبة الفريق ، وتم تثبيته فى منصب رئيس الأركان . وتم عزل خليل وواصل ، قائدى الجيشين الثانى والثالث ، وعين اللواء فؤاد عزيز غالى قائداً للجيش الثانى ، والعميد أحمد بدوى قائداً للجيش الثالث . ولم يحضر الفريق الشاذلى الاحتفال العسكرى اللامع الذى أقيم أمام مجلس الشعب ، ووزعت فيه الأوسمة والأنواط والميداليات على الكثيرين . وبعد تحميله مسئولية الفشل فى تصفية الجيب الإسرائيلى وإقالته من منصبه رسمياً ، تم تعيينه فيما بعد سفيراً لمصر فى لندن . وفى أبريل ١٩٧٤ ، أمر إسماعيل (الذى توفى فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٥) بإجراء تحقيق فى كيفية عبور الإسرائيليين إلى الضفة الغربية ، ولكن لم تعلن أية نتائج حتى وقت صدور هذا الكتاب .

وكان هناك توتر وشكوك حادة بين الإسرائيليين والسوريين ، وتفاقم هذا التوتر بسبب عدم توافر المعلومات حول الأسرى الإسرائيليين الذين فى أيدى السوريين . فقد قدم الإسرائيليون قائمة تضم ١١٣ عسكرياً إسرائيلياً مفقودين على هذه الجبهة . وأدى التأخير

فى تبادل هؤلاء الأسرى إلى تعطيل اتفاقية فك الاشتباك بين البلدين ، فلم توقع إلا فى الخامس من يونيو ١٩٧٤ فى جنيف ، عندما أعيد آخر أسير إسرائيلى إلى بلاده .

وإلى جانب الطرفين العربيين الرئيسيين ، مصر وسوريا ، والطرفين اللذين تدخلا بعد بدء الحرب ، فقد أرسل عدد من الدول العربية الأخرى وحدات رمزية من القوات لإظهار التضامن ، كما أن باكستان المسلمة غير العربية قد بعثت بوحدة إسعاف ميدانية لكل من مصر وسوريا . وكان يوجد لواء مشاة مغربى على الجبهة السورية منذ شهر يونيو ١٩٧٣ ، وخلال الحرب أرسل العراق ثلاثة أسراب من الطائرات ، وفرقة على الأقل . وأرسل الأردن لواءين مدرعين إلى سوريا ، وانضمت إليهما فى النهاية وحدة مشاة سعودية ، وبطارية مدفعية كويتية . وأرسل العراقيون أيضاً ثلاثة أسراب من الطائرات إلى مصر . وينفى المصريون ذلك الآن ، إلا أن رئيس الأركان العراقى أصر فى تصريحاته لى على أن ذلك ما حدث ، وأشار إلى نحو « ٢٨ طائرة » وكانت هذه الطائرات ، إلى جانب لواء جيش التحرير الفلسطينى ووحدة مشاة كويتية ، تخدم بالفعل فى منطقة القناة عندما نشبت الحرب وانضمت كتيبة مشاة تونسية إلى حامية بور سعيد يوم ١٨ أكتوبر لتشارك بصورة نشطة فى الدفاع عن المدينة .

وفي يوم ٢٤ أكتوبر ، وفى وقت متأخر بالكاد بما لا يمكن معه الاشتراك فى القتال ، وصل لواء مدرع جزائرى يضم نحو ٢٠٠ دبابة بالقرب من قناة السويس ، وقد تملكه الارهاق بعد سفر عن طريق البر لمدة عشرة أيام . ووصلت كتيبة مشاة سودانية إلى الأدبية يوم ٢٨ أكتوبر ، فى الوقت المناسب تماماً للاشتراك فى القتال لفترة قصيرة ، للمساعدة فى وقف محاولة قوات أدان التقدم جنوباً فى ذلك اليوم . ولم تصل الوحدة المغربية المرسلة إلى مصر إلا بعد انتهاء الحرب ، رغم أن قائدها زار منطقة القناة يوم ٢٠ أكتوبر . وعلى الجبهة المصرية ، وصلت كل هذه الوحدات الأجنبية بلا أى معاونة ادارية أو إمدادات على الإطلاق ، متوقعة أن يقوم المصريون بإمدادها بالمواد الغذائية والوقود ، أما على الجبهة السورية ، فقد مد العراقيون والأردنيون خطوط إمداداتهم الخاصة . وقال الفدائيون الفلسطينيون إنهم طلبوا من الملك حسين يوم ١٨ أكتوبر السماح لهم باستخدام الأراضى الأردنية فى قتال الإسرائيليين ، ولكنه رفض وفى التاسع من مارس ١٩٧٤ ، ذكر متحدث باسم منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت أن خسائر المنظمة فى الأفراد فى حرب أكتوبر بلغت ٢٥٦ فرداً .

واستمرت حروب الاستنزاف بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا ، ولكن التحركات البرية توقفت . ورغم أن الرقابة العسكرية كانت تخفى الكثير عن الإسرائيليين ، فإن صدمة المفاجأة ، وأرقام الخسائر الكبيرة وإن كانت غير معروفة بعد ، وعدم توافر معلومات عن الجنود المفقودين والأسرى ، كلها قد جعلت الإسرائيليين ينخرطون فى تبادل الاتهامات المريرة ، بعد أن حل الغضب محل الخوف .

وفى إسرائيل ، كان هناك ما هو معتاد من مكافآت وإحباط للجنرالات وغيرهم . ففى ٣٠ أكتوبر رقى ايتان إلى رتبة الميجور جنرال . وفى ٣١ أكتوبر ، تم تسريح الجنرال بارليف ، الذى كان واحداً من أول كبار الضباط الذين استدعوا للخدمة عند نشوب الحرب . وأصبح الجنرال أدان ملحقاً عسكرياً فى واشنطون لفترة قصيرة ، لكي يعاد بسرعة إلى بلاده مرة أخرى ليصبح قائدا للقيادة الجنوبية فى ١٤ يناير ١٩٧٤ وفى ١٩ مارس استقال الجنرال تال ، بعد أن أصابه الإحباط لعدم اختياره رئيسا للأركان . وكان قد تردد نشوب خلافات بين الجنرال تال وكل من ديان وألعازر ، وقيل إن تال قد رفض تنفيذ أوامر ديان بإطلاق النار على القوات المصرية خلال فترة وقف إطلاق النار . وفى ١٤ أبريل ، تم تعيين الجنرال موردخاى جور ، الذى كان ملحقاً عسكرياً فى واشنطون أثناء الحرب ، قائداً للقيادة الشمالية ، بينما تم تعيين الجنرال هوفى رئيسا للأركان فى الثالث من سبتمبر .

وفى أوائل نوفمبر ١٩٧٣ أدلى الجنرال شارون الذى كان لا يزال فى الخدمة ، بتصريحات إلى تشارلز موهر مراسل صحيفة « **نيويورك تايمز** » انتقد فيها بشدة الإدارة الإسرائيلية للحرب . وطار موهر من إسرائيل بنسخة من هذه التصريحات لتفادى الرقابة . ونشرت المقابلة الصحفية يوم ١١ نوفمبر ، وسببت بعض التعليقات اللاذعة فى إسرائيل . وأمر ديان بإجراء تحقيق فورى فى الحادثة ، التى دفعت الجنرال بارليف إلى اتهام شارون بالزعم بأنه شخصياً صاحب الفضل فى الاختراق الإسرائيلى للضفة الغربية . وأصر بارليف على أن الأدلة والوثائق يمكن أن تثبت العكس . وفى يوم ١٣ نوفمبر ، طلب الجنرال جونين من رئيس الأركان تعيين ضابط للتحقيق ، بقصد تقديم شارون إلى محكمة عسكرية ، وتقدم جونين بنفس الطلب مرة أخرى يوم ٢٠ نوفمبر ، وبعد ذلك بيومين ، كان ديان قد عزل جونين من منصبه ، وعين مكانه بصورة مؤقتة الجنرال تال قائداً للقيادة الجنوبية .

وفى ١٨ نوفمبر ، أمرت الحكومة الإسرائيلية لجنة تحقيق قضائية من خمسة أعضاء برئاسة الدكتور شيمون أجرانات رئيس المحكمة العليا الإسرائيلية ، وهى اللجنة التى أصبحت تعرف باسم « لجنة أجرانات » ، بالتحقيق وتحديد المسئولية عن كوارث الأيام الثلاثة الأولى من الحرب فقط .

وأجريت الانتخابات العامة المؤجلة فى إسرائيل يوم ٣١ ديسمبر ١٩٧٣ . وانتخب شارون عضواً فى الكنيست لأول مرة ، كعضو فى حزب الليكود . وتم تسريحه من الجيش يوم ٢٠ يناير ١٩٧٤ ، ليتولى مقعده فى الكنيست الجديد فى اليوم التالى . وفى الأمر اليومى الأخير الذى أصدره شارون ، قال إنه « رغم الفشل والأخطاء ، وفقدان الأعصاب والسيطرة ، فقد خرجنا منتصرين » وانتقد الإدارة الإسرائيلية للحرب ، ودعا إلى عزل الجنرال ألعازر . ورفض ديان المطالب بتقديم شارون لمحكمة عسكرية بتهمة العصيان ، غير أن تعيين شارون قائداً لفرقة من قوات الاحتياط قد تم تغييره إلى فرقة غير مقاتلة . وقيل

إنه بينما كان شارون فى الخدمة ، كان يتصل تليفونياً بأعضاء حزب الليكود ، ويطلب منهم عدم مهاجمة ديان .

وفى الثانى من أبريل ١٩٧٤ ، أصدرت لجنة أجرانات تقريرها المؤقت الأول ، ويقع فى ٢٥ صفحة ، ويقتصر على بحث عوامل المخابرات وحالة الاستعداد الإسرائيلية . وقال التقرير : « إن أحد الأخطاء الرئيسية كان يتمثل فى إساءة تقدير المعلومات المتاحة ، نظراً للإيمان الأعمى بأن تحركات العدو على جبهة السويس كانت مجرد مناورات » . وأعفت اللجنة موشى ديان وزير الدفاع بالكامل من أى مسئولية ، بينما ألقت باللوم على الجنرالين العازر وزائيرا ، وأوصت أيضاً بوقف الجنرال جونين عن الخدمة الفعلية ، انتظاراً لصدور التقرير الكامل .

وكان ديان ، الذى كان قد فقد شعبيته بالفعل ، يواجه الآن مزيداً من الهجمات ، ولكنه كان لا يزال يرفض الاستقالة رغم عزل جونين فى اليوم التالى ، الثالث من أبريل ، وكانت هناك مظاهرات ضد ديان ، وكانت إحداها بقيادة الكابتن موتى اشكينازى ، الذى كان يقود نقطة بودابست الحصينة على البحر المتوسط فى الأيام القليلة الأولى من الحرب ، حيث كان يدعو إلى إقالة ديان من منصبه كوزير للدفاع . ولعبت حدة المشاعر ضد ديان فى نهاية الأمر دوراً فى إجبار رئيسة الوزراء جولدا مائير على الاستقالة ، وانهيار حكومتها معها . وتركت مائير منصبها فى الرابع من يونيو ١٩٧٤ ، وتلت ذلك فترة استمرت تسعة أسابيع من المساومات الائتلافية ، بينما ظلت حكومة مؤقتة برئاسة مائير تتولى الحكم . وفى نهاية المطاف ، أصبح الجنرال رابين رئيسا للوزراء فى أغسطس ، واختار شيمون بيريز وزيراً للدفاع .

واستمرت عدم شعبية ديان . وفى ١٩ ديسمبر ، فى جامعة بار اليان فى تل أبيب ، منعه المتظاهرون من آباء وأقارب الضحايا من إلقاء خطاب عام واضطر لأن يقنع بالتحدث إلى أعضاء الجامعة فحسب . وفى تلك المناسبة ، كشف أن الولايات المتحدة هددت بإمداد الجيش الثالث بطائرات الهليكوبتر ، إذا ما واصل الإسرائيليون حصارهم له . وكانت هذه صدمة أخرى للإسرائيليين ، الذين كانوا واثقين من أن الولايات المتحدة كانت صديقهم الثابت والصامد ، رغم أن العالم بأسره كان يبدو ضدهم فى تلك اللحظة . وفى الخامس من يوليو ١٩٧٤ ، أعلن أن الجنرال شارون ، الذى كان قد تنحى عن مقعده فى الكنيست بايعاز من بيريز ، سيعود إلى الجيش كمستشار لرئيس الأركان .

وفى العاشر من يوليو ، أصدرت لجنة أجرانات تقريرها الثانى ، وهو وثيقة تقع فى ٤٢٣ صفحة ، ولكن لم يذع منه سوى بضع مقتطفات فحسب . وتناول التقرير بالتعليق عدم وجود تقسيم محدد بوضوح للمسئولية بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس الأركان ، وأوصى بعزل الجنرال العازر . وزعم الجنرال جونين أن التسجيلات تعرضت للتزوير أو للمحو ، وأن السجل الحربى للجنرال أدان قد أعيد كتابته وتحريره وطلب بيريز من لجنة

أجرانات التحقيق فى هذه الادعاءات ، وفى التاسع من ديسمبر ، ذكرت اللجنة أنه لا أساس لها من الصحة . وفى ٢٧ أكتوبر أصدرت محكمة عسكرية حكماً بالسجن لمدة سبع سنوات على رقيبين فى الجيش الإسرائيلى بتهمة عدم إطاعة الأوامر خلال حرب أكتوبر . وكانا فنيين ميكانيكيين تم إرسالهما إلى إحدى نقاط خط بارليف الحصينة صباح السادس من أكتوبر لإصلاح مركبات ، وكانا هناك عندما بدأ المصريون هجومهم . ولمدة يومين ، ظل الرقيبان يرفضان القيام بدور نشط فى الدفاع عن النقطة ، أو فى نقل الذخيرة ، ولكنهما شاركا فى اليوم الثالث عندما استسلمت النقطة الحصينة . ووقع الرجلان فى الأسر . وفى ضوء افلات كل كبار القادة العسكريين - فيما يبدو - من كل اللوم والمسئولية عن نكسات الفترة الأولى من الحرب ، فقد أثار هذا الحكم صخباً فى إسرائيل ، حيث كانت مشاعر الانفعال والغضب والحزن تتداخل مع عمليات الانضباط الطبيعية .

وظلت عمليات الجسر الجوى لنقل العتاد الحربى الحيوى من كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى للجانبين مستمرة لعدة أيام بعد سريان وقف إطلاق النار الأخير . وقد بدأ الجسر الجوى الأمريكى يوم ١٣ أكتوبر ، وانتهى يوم ١٤ نوفمبر . ونقل أكثر من ٢٢,٣٩٥ طناً ، من بينها ١٠,٧٦٣ طناً نقلت فى طائرات « سى - ٥ » فى ١٤٥ رحلة جوية ، و ١١,٦٠٠ طن نقلت فى طائرات « سى - ١٤١ » فى ٤٢١ رحلة جوية ، وغطت الرحلات مسافة ١٤,٠٠٠ ميل . وكانت هذه الكمية بالإضافة إلى حوالى ٥,٥٠٠ طن نقلتها ثمانى طائرات ٧٠٧ وثلاث طائرات ٧٤٧ تابعة لشركة العال . وكانت طائرات « سى - ٥ » تتمتع بأبواب شحن كبيرة تعمل فى الاتجاهين ، وكانت تحمل دبابات م - ٤٨ و م - ٦٠ ، ومدافع هاوزر عيار ١٥٥ مم ، ومدافع عيار ١٧٥ مم ، وطائرات هليكوبتر « سى اتش - ٥٣ » وأجسام الطائرات « سكاى هوك ايه - ٤ إى » - وهى أسلحة ربما لا تستطيع طائرة أخرى فى العالم أن تنقلها .

أما فى الرحلات الجوية الأقصر ، القادمة من أوروبا ، فقد استخدم الأمريكيون طائرات « سى - ١٣٠ » التى كانت تطير من قواعد مثل القاعدة الموجودة فى رامشتين فى ألمانيا . وكانت تحمل الصواريخ والذخائر ، بحيث جردت من الناحية الفعلية مخازن حلف شمال الأطلنطى من أسلحة بعينها ، مثل صواريخ « تاو » وذكر تقرير فى مجلة « **آفيشن ويك** » أن المخزون الأمريكى من صواريخ « تاو » قد استنفد بنسبة ٩٠ فى المائة خلال حرب أكتوبر ، وأن « الإسرائيليين ، الذين حصلوا أيضاً على ما يصل إلى ٥٠ فى المائة من المخزون الأمريكى من أنواع الذخائر الأخرى ، يقولون الآن أن المخزون فى إسرائيل لم يكن منخفضاً بالدرجة التى كانت معتقدة فى أول الأمر . ويلقون بالمسئولية فى الخطأ فى الحساب على خطأ وقع فيه الكومبيوتر فى جرد الامدادات الداخلية » . كما نقل الجسر الجوى أيضاً معدات أخرى مثل الوسائل الألكترونية المضادة وقنابل سمارت ، التى كانت تنقل أساساً إلى العريش أو حيفا .

وحسب ما يقوله جلاسمان ، فإن الإسرائيليين كانوا « يعانون نقصاً فى ذخائر مدافع الدبابات عيار ١٠٥ مم ، وقذائف المدفعية عيار ١٧٥ مم ، والصواريخ جو/جو وجو/أرض » ويقول إن « الإمدادات الأمريكية وصلت أقصى طاقتها يوم ١٤ أكتوبر . وبعد ذلك اليوم ، لم تقتصر الولايات المتحدة على إمداد إسرائيل بالعتاد والذخائر المستهلكة فحسب ، بل أمدتها أيضاً بالطائرات والأسلحة الأخرى » .

وأحدث الإسرائيليون ضجة دعائية كبرى عندما هبطت فى مطار اللد شحنة تضم أربع دبابات ، ولكنها كانت المرة الوحيدة ، وربما لم تشترك هذه الدبابات فى القتال مطلقاً . فمعظم الدبابات كانت تنقل بطائرات الهليكوبتر من سفن الأسطول السادس الأمريكى إلى العريش . وكان بعضها لا يزال مزوداً بمدافعه القديمة عيار ٨٥ مم أو ٩٠ مم . كذلك فإن بعض الدبابات وصلت مباشرة من أوروبا ، وكانت هذه هى الدبابات التى انطلقت إلى المعركة مباشرة « دون أن تسجل عداداتها سوى ١٧٥ كيلومترا » فقط وإجمالاً ، فقد وصل إلى إسرائيل خلال حرب أكتوبر ٦٠٠ دبابة أمريكية على الأقل ، تقدر قيمتها بنحو ٩٥٠ مليون دولار .

وأقام الأمريكيون وحدة للسيطرة على الجسر الجوى قوامها نحو ٥٠ فرداً فى مطار اللد ، حيث كانت تزود الإسرائيليين ببعض معدات التفريغ التى لا يمتلكونها ، وكانت الوحدة تقول إنها حققت زمن تفريغ قدره ساعتان للطائرة « سى ـ ٥ » وأقل من ساعة واحدة للطائرة « سى ـ ١٤١ » . وقاد طيارون أمريكيون ما يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ طائرة أمريكية من طراز سكاى هوك من جزر الآزور ، وأعيد تزويدها بالوقود من حاملة الطائرات الأمريكية « **جون ف . كيندى** » بطائرات الوقود بالقرب من جبل طارق ، ثم استأنفت طيرانها إلى إسرائيل . وعلى سبيل المثال ، اعترفت الحكومة الأمريكية بأنها أرسلت « ٤٩ مقاتلة من طراز ايه ـ ٤ ـ إى (سكاى هوك) » إلى إسرائيل « من مخزونها الخاص » . ويقول هيكل إنه « عندما توقفت عمليات الجسر الجوى فى الجانبين آخر الأمر ، اتضح أن كمية العتاد الذى قدمته أمريكا لإسرائيل كان يعادل بالضبط تقريباً ، طناً بطن ، الكمية التى أمد الاتحاد السوفيتى بها مصر وسوريا » .

أما الجسر الجوى السوفييتى ، الذى بدأ فى التاسع من أكتوبر ، فقد استخدم طائرات « أناتوف ـ ١٢ » التى تبلغ حمولتها ٤٤,٠٠٠ رطل (٢٠ طناً) ، وطائرات « أناتوف ـ ٢٢ » التى تبلغ حمولتها ١٧٦,٠٠٠ رطل (٨٠ طناً) . وقامت هذه الطائرات بنحو ٩٤٣ رحلة ، حملت خلالها حوالى ١٥,٠٠٠ طن من العتاد من قواعد فى المجر ، ولكن بحلول أواخر شهر أكتوبر ، كان الاتحاد السوفييتى يعتمد بشكل مكثف على النقل البحرى . فقد كانت المسافة أقصر كثيراً من مسافة خط الإمداد البحرى الأمريكى . وكانت معظم عمليات الجسر الجوى السوفييتى تقلع من كييف بالاتحاد السوفييتى

(وتطير فوق تركيا) ومن بوادبست بالمجر ، حيث تم جمع الأسلحة والذخائر من مخازن وتشكيلات حلف وارسو (وكانت تطير فوق يوغوسلافيا) . ولم تطر الطائرات السوفيتية فوق رومانيا مطلقا ، وقيل إن رومانيا لم تقدم التصريح المطلوب .

وكان الجزء الأكبر من العتاد الذى زود به الروس والأمريكيون العرب والإسرائيليين قد تم نقله عن طريق البحر ، ولكن لم تتوافر أرقام دقيقة عن الكميات . والمعروف أن سوريا حصلت على كميات كبيرة من الدبابات والمدافع والصواريخ والذخائر ، بينما تلقت مصر كميات أقل ، معظمها من الذخائر وقطع الغيار .

ومع ذلك ، يذكر جلاسمان أنه « خلال عمليات الإمداد ، قيل إن مصر حصلت على ١٠٠ طائرة مقاتلة ، و ٦٠٠ دبابة ، ومعدات ٣٠ بطارية من صواريخ سام » . وقام طيارون سوفييت بقيادة طائرات الميج السوفيتية إلى سوريا ، وذكرت صحيفة « **واشنطون بوست** » فى ٢٤ نوفمبر ١٩٧٣ ، أنه « نظراً للنقص فى أطقم الدبابات السورية ، كان أفراد سوريون يقومون بقيادة الدبابات الفارغة من السفن الروسية من اللاذقية وطرطوس إلى دمشق » .



الفصل الثالث عشر

الحرب فى الجو

« إن أوقية من الوسائل الالكترونية المضادة تعادل رطلا من الطائرات الإضافية »

الميجور جنرال هود

خلال حرب ١٩٦٧ ، كان أفضل سلاح في الترسانة الإسرائيلية هو سلاحها الجوي ، الذي كان مفتاح نجاحها ، وقد احتفظت به إسرائيل في حالة جيدة ليمثل أعظم رادع ضد العدوان من الدول العربية المحيطة بها . وفي تلك الحرب ، دمر سلاح الطيران المصري بدرجة كبيرة ، كما أصيب سلاح الطيران السوري بأضرار فادحة . ومنذ ذلك الحين ، حصلت مصر وسوريا على شحنات كبيرة من الطائرات السوفييتية الحديثة ، ومع ذلك ، فبحلول أكتوبر ١٩٧٣ ، لم يكن سلاح الطيران في أي من البلدين كفؤاً لسلاح الجو الإسرائيلي ، ولما كان الأمر يستغرق نحو أربعة أعوام لتدريب الطيار ليصل إلى مستوى القتال ، ولما كان يتعين أن يكون التدريب تدريجياً وتصاعدياً ، فقد كان الأمر يتطلب أكثر من ستة أعوام قبل أن تمتلك مصر وسوريا ما يكفي من الطيارين ، وحتى مع ذلك ، فقد كانتا في وضع أضعف ، حيث لم يكن لدى الروس طائرة قادرة على التصدي لطائرات الفانتوم الأمريكية التي يمتلكها الإسرائيليون ، أما الأردن ، التي كان سلاحها الجوي الصغير قد دمر بالكامل عام ١٩٦٧ ، فقد كانت اقل حظاً من مصر وسوريا .

وكان تقدير الإسرائيليين أن المصريين ، الذين كانوا يعتبرونهم أكثر تقدماً ومهارة من السوريين ، لن يهاجموا إسرائيل حتى تتحقق لهم القدرة على ضرب كل المطارات الإسرائيلية في وقت واحد ، مثلما فعل الإسرائيليون عام ١٩٦٧ ، وكانوا يقدرون أن المصريين لن يحتاجوا فحسب أعداداً من الطائرات الحديثة ، مثل الميج ـ ٢١ ، والميج ـ ٢٣ والسوخوي ـ ٧ ، بل سيحتاجون أيضا طيارين مهرة ومحنكين ، وهكذا ما كانوا يشعرون بأن هناك أي خطر حقيقي من حدوث هجوم مصري حتى عام ١٩٧٥ على الأقل ، ولابد أن المصريين والسوريين كانوا يتفقون مع هذا الحساب ، حيث اتخذ كلاهما قراراً بالاعتماد في المقام الأول على نظام قوى للدفاع الجوي .

وكان المصريون قد تعلموا دروس عام ١٩٦٧ جيداً : فشكلوا هيكلاً قيادياً جديداً ، وأقاموا شبكات اتصالات بديلة ، وبدأوا تدريباً مكثفاً للطيارين والفنيين والأطقم الأرضية . وكان سلاح المهندسين قد أقام ٢٠ مطاراً جديداً ، ليصل إجمالي عدد المطارات إلى نحو ٣٥ مطاراً ، وبنوا ممراً إضافياً ببعض المطارات الموجودة أصلاً لزيادة طاقاتها .

ولتلافي تدمير الطائرات بضربة وقائية إسرائيلية أخرى ، مثل ضربة ١٩٦٧ ، التي دمرت كثيراً من الطائرات المصرية التي كانت تقف في العراء ، فقد صمم سلاح المهندسين عنابر خرسانية بأبواب منزلقة من الصلب ، لكل طائرة وكانت الطائرة تظل في عنبرها ما لم تكن تطير بالفعل . والآن ، تستخدم هذا النوع من العنابر دول عربية أخرى وبعض دول حلف وارسو . ولإصلاح المطارات التي تتعرض لغارات إسرائيلية ، شكل سلاح المهندسين فرقاً قامت بتخزين المعدات والعتاد في مواقع ملائمة لاستخدامها بصورة فورية . وكانوا يقولون إنهم كانوا قادرين على إصلاح أية أضرار تسببها القنابل خلال ثلاث ساعات ، كمهمة عادية ، وبعد إجراء تجارب ، ابتكروا ألواحاً حديدية يتم وضعها فوق حفر القنابل . كما شكل المهندسون أيضا فرقاً لإبطال مفعول القنابل .

وكان الفريق طيار محمد حسني مبارك قد تولى قيادة سلاح الطيران في أبريل ١٩٧٢ ، خلفاً للواء على بغدادي ، وتم شغل المواقع الرئيسية بالسلاح بضباط تم اختيارهم بدقة ، وزادت قوة سلاح الطيران بشكل تدريجي ، وتم إرسال طيارين وبعض الفنيين إلى الاتحاد السوفييتي لحضور دورات تدريب متقدم ، وكانت حرب الاستنزاف (١٩٦٨ / ١٩٧٠) قد أكسبتهم أيضا خبرة قيمة . وكانت الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٣ فترة لتحقيق التآلف مع الأسلحة والأفرع الأخرى بالقوات المسلحة ، ولاسيما قيادة الدفاع الجوي ، وتركز التدريب على التدريب الفردي والجماعي ، وصيانة وإصلاح المعدات ، والتعاون مع وحدات الرادار المتحركة ، ونظام العمليات المشتركة . وسار البرنامج بصورة طيبة ، إلى درجة أنه عندما سأل الرئيس السادات الفريق طيار مبارك في مارس ١٩٧٣ عما إذا كان بحاجة إلى أي شيء آخر ، فقد كان بمقدور مبارك أن يقول إن لديه كل ما يحتاجه للحرب . وفي الواقع ، فقد كان كل ما يحتاجه هو المزيد من الوقت لتدريب المزيد من الطيارين لتشكيل احتياطي يتمتع بقدر من الخبرة ، فالطيارون الذين كانوا لديه كانوا يكفون بالكاد للطائرات المتاحة .

وبدأ برنامج واسع لتدريب الطيارين ، وفي البداية كان هناك الكثير من الخسائر في الأرواح بسبب الحوادث ، ولكن نسبة الخسائر راحت تقل عاماً بعد عام مع اكتساب المزيد من الخبرة ، ويعترف المصريون بأن النتائج كانت ضعيفة في البداية ولكن طياريهم وصلوا بالتدريج إلى مستوى مقبول ، وكانت تدريبات العمليات تشمل الطيران على ارتفاعات منخفضة ، والهبوط والإقلاع بالطائرات المقاتلة على الطرق في الليالي المقمرة بحيث يمتلك الطيارون هذه القدرة في سيناء في يوم ما . واستفادة من الخبرة الإسرائيلية قبل يونيو ١٩٦٧ ، أقيمت مطارات ومنشآت خداعية ـ كاملة بهياكل الصواريخ والمدفعية ومواقع المشاة والعنابر والاتصالات ـ في الصحراء على مسافات من القاعدة الجوية المصرية تعادل بالضبط المسافات إلى الأهداف الحقيقية المنتظرة لكي يتم التدريب على عملية الضربة الجوية بكاملها ، بما في ذلك التوقيتات بالضبط .

وكثيراً ما كان يتم التدريب بالصواريخ والذخيرة الحية على الأهداف الخداعية ، وكان يتم تكليف الطيارين كما لو كانت تلك مهام حقيقية ، وبعد تنفيذ الضربة على الفور ، كان الفريق طيار مبارك يطير إلى منطقة الهدف الخداعي لمعاينة مدى فعالية الهجوم . وقد قال لي إنه لم يكن يقنع أبداً بالتقارير الشفهية ، ويصر على رؤية النتائج بنفسه . ويقول الطيارون إن هذه المعاينة على الطبيعة كانت أكثر تشدداً من الحرب الفعلية . ورغم هذا البرنامج التدريبي المتعجل ، فإن سلاح الطيران المصري لم يكن به حقاً ما يكفي من الطيارين ؛ وكان تدريب بعضهم جزئياً فحسب .

وكان سلاح الطيران المصري يتألف من نحو ٢٥,٠٠٠ رجل ، معظمهم جنود نظاميون أو يعملون لفترة محددة مثل الطيارين أو الفنيين ، وكانت هناك أيضا عناصر من المجندين المؤجل تسريحهم ، ولاسيما في أعمال الصيانة والمهام الأرضية ، وكان المصريون يمتلكون حوالى ٧٦٨ طائرة سوفيتية الصنع ، كلها من الأنواع الحديثة ، وكان منها نحو ١٥٠ طائرة لا تزال في المخازن ، بسبب نقص الطيارين . وكان ذلك يترك نحو ٦٢٠ طائرة جاهزة للعمليات ، كان مستوى صيانتها أعلى مما كانت الدعاية الإسرائيلية تقنع به العالم .

وقد قال أحد المتحدثين في الندوة الإسرائيلية عن حرب أكتوبر إن مصر كانت تمتلك ٦٥٣ طائرة مقاتلة ، و٣٩ قاذفة ، و١٦٠ طائرة هليكوبتر ، وحسب أرقام المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ، فقد كان لدى المصريين حوالي ٢٢٠ طائرة ميج ـ ٢١ ، و ٢٠٠ طائرة ميج ـ ١٩ ، وميج ـ ١٧ ، و١٢٠ مقاتلة قاذفة سوخوي ـ ٧ ، و١٨ قاذفة توبولوف ـ ١٦ متوسطة المدى ، وعشر طائرات من طراز اليوشن ـ ٢٨ ، وهو ما كان يشكل الجسم الأساسي لقوتهم الجوية الهجومية ، وكانت الطائرات ميج ـ ٢١ وميج ـ ١٧ مزودة بصواريخ « أتول » وهو صاروخ جو / جو يركب على مبعدة من جسم الطائرة ، أما الطائرات ميج ـ ٢٣ ، التي كان يقوم بتشغيلها طيارون سوفييت ، فقد تم سحبها عندما رحل الروس . أما الباقي ، فكان يشمل طائرات تدريب من طراز « ياك » و« ميج » و « إل ـ ٢٩ » وطائرات نقل من طراز « اليوشن ـ ١٤ » و « أناتوف ـ ١٢ » ، بالإضافة إلى أكثر من ١٠٠ طائرة هليكوبتر ، من طرازات « مي ـ ١ » و « مي ـ ٤ » و « مي ـ ٦ » و« مي ـ ٨ » . وكانت طائرات الهليكوبتر السوفييتية كثيراً ما تتعطل لأسباب فنية ، وفي وقت ما ، كان نحو ٥٠ في المائة منها معطلاً لهذا السبب .

ونظراً لضعف سلاح الطيران المصري ، فقد كان أمراً مفهوماً أن يعتمد المصريون بشكل مكثف على قيادة الدفاع الجوي ، التي كان يرأسها اللواء محمد على فهمي ، في التصدي لسلاح الجو الإسرائيلي . وقد أقاموا حائطاً قوياً للدفاع الجوي يمتد لمسافة نحو ٧٠ ميلاً بطول الجزء الرئيسي من منطقة قناة السويس . وكانت بور سعيد مثلاً لها دفاعها الجوي الخاص . شأنها في ذلك شأن بعض المطارات الحيوية الأخرى ، والأهداف المحتملة الأخرى مثل السد العالي . وكان « صندوق الصواريخ » (الذي تناولته في كتابي

« الحرب الألكترونية في الشرق الأوسط ١٩٦٨ / ١٩٧٠ ») قد بدأ يثبت لتوه فعاليته ، عندما راح يستخدم في السابع من يوليو ١٩٧٠ معدات معدلة ومحسنة وأساليب وتكتيكات جديدة ، ويقول المصريون إنهم أسقطوا ١٤ طائرة إسرائيلية قبل وقف إطلاق النار في السابع من أغسطس ١٩٧٠ ، فلم تقتصر حرب الاستنزاف على توفير خبرة قيمة فحسب ، بل لقد أظهرت أيضا نقاط الضعف ، وخاصة الحاجة لحماية كل الصواريخ وأجهزة الرادار والمعدات في مخابىء ومواقع خرسانية .

ولما كان المصريون يعتزمون أن يكونوا البادئين بتوجيه الضربة الأولى ، فقد كانوا يتوقعون رداً انتقامياً واسعاً ، وكان ردهم عليه هو حائط الدفاع الجوي ، المتعدد العناصر والمتعدد الارتفاعات ، والذي يجمع بين الصواريخ سام سطح/جو والمدفعية م / ط . وكانت الصواريخ من طرازات سام ـ ٢ وسام ـ ٣ وسام ـ ٦ ، وكان هذا الطراز الأخير جديداً تماماً بالنسبة للغرب ، وكان الصاروخ سام ـ ٢ الثابت ، الذي يصل مداه المائل إلى ٣٠ ميلاً ، مخصصاً للتعامل مع الطائرات التي تطير على ارتفاعات عالية ، وقد استخدم بشكل واسع ضد الطائرات الأمريكية في فيتنام ، وبناء على ذلك ، استطاع الأمريكيون تطوير وسائل الكترونية مضادة له ، وكانت هذه الوسائل تتألف من أجهزة رصد وغيرها من أجهزة للتشويش وحرف مسار الصاروخ ، يتم تركيبها في أجنحة الطائرة ، وكانت تعطي الطيار إنذاراً بالصاروخ المقترب ، بحيث يستطيع أن يهرب منه .

وعندما يتم تشغيل الوسائل الالكترونية المضادة ، فإن جهاز التشويش بها كان يتداخل في موجة تردد الصاروخ ، مما يتسبب في انحرافه عن مساره ، وفي يوليو ١٩٧٠ حصل المصريون على صواريخ سام بنوع جديد من أجهزة التوجيه الراداري لتوجيه الصاروخ إلى هدفه ، وكانت هذه الأجهزة تتمتع بمدى ترددات أوسع ، مما في الوسائل الالكترونية المضادة التي كانت بحوزة الإسرائيليين . ومن الناحية الأساسية ، كان الصاروخ سام يضم ثلاثة أنواع من الرادار : رادار الرصد الذي يبحث عن الطائرة ويرصدها على مسافة كبيرة ، ورادار التتبع الذي يتعقب مسار الطائرة بعد رصدها ، ورادار التوجيه الذي يوجه الصاروخ ويطلقه ، وكان الرد يتمثل في وسائل الكترونية مضادة تشوش الومضة التي على شاشة الرادار أو تزيف مسافتها أو موقعها الفعلي ـ كشيء أشبه بشاشة التليفزيون المشوشة ـ ، وكانت بعض الطائرات تستخدم صواريخ خداعية صغيرة تضم وسائل الكترونية مضادة وتطلقها في عدة مسارات مختلفة عن مسار الطائرة المستهدفة نفسها ، وفي يوليو ١٩٧٠ أرسل الأمريكيون شحنة تضم ٢٠٠ من أحدث الوسائل الالكترونية المضادة التي تتمتع بمدى ترددات أوسع وبأجهزة رصد إضافية ، تستطيع إرسال موجات كهرومغناطيسية على نفس التردد الذي تستخدمه رادارات الرصد والتتبع والتوجيه في صواريخ سام .

أما الصاروخ سام ـ ٣ فهو نوع مماثل من الصواريخ يبلغ مداه المائل حوالي ١٧ ميلاً ،

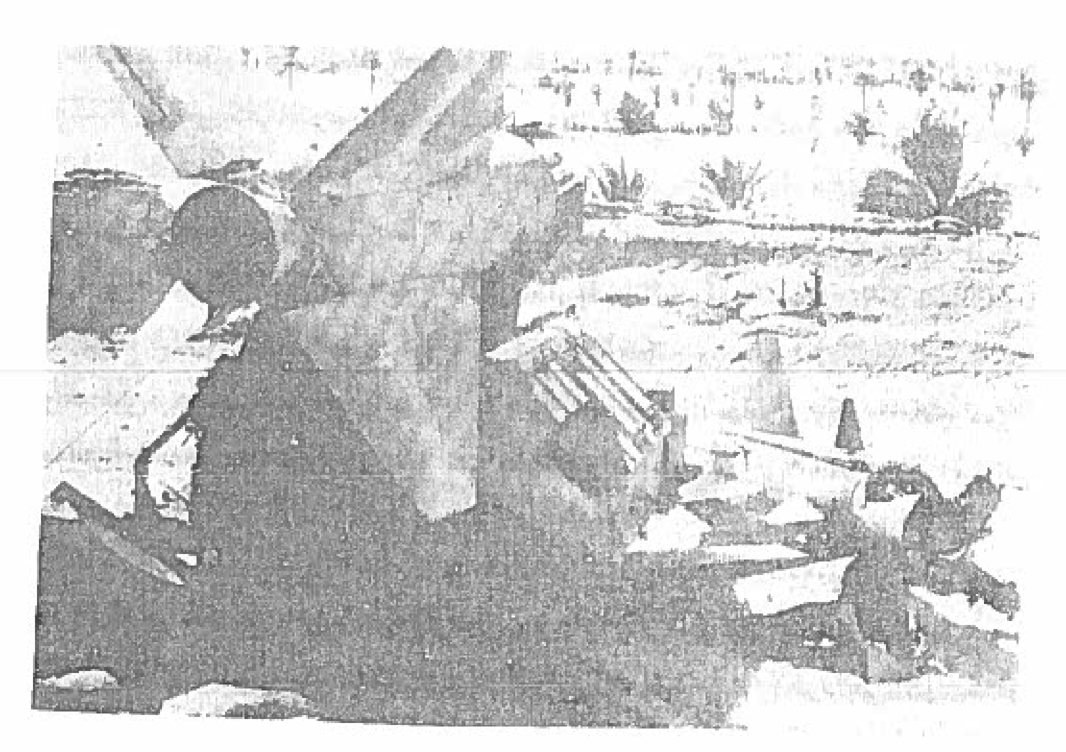
وهو مصمم للتعامل مع الطائرات على ارتفاعات أقل مما يدخل ضمن قدرات الصاروخ سام ـ ٢ ، وكان كلا النوعين ثقيل الحركة في تشغيله ، ويستغرق وقتاً في ضبط معداته . وكان لدى المصريين نحو ٤٠ موقعاً من مواقع سام ـ ٢ ، بكل منها ست قواذف ، وما يتراوح بين ٧٥ و٨٥ موقعاً من مواقع سام ـ ٣ بكل منها أربع قواذف ، وقد قيل في الندوة الإسرائيلية إنه كان لدى المصريين ١٤٦ بطارية من صواريخ سام . وقد بنى المهندسون ٦٥٠ موقع إطلاق منفرداً تمتد بطول القناة ، بها الكثير من الهياكل الخداعية . بالإضافة إلى المخابىء والملاجىء الخرسانية اللازمة للأفراد والذخائر ، وكان الكثير من المواقع الخداعية يضم قواذف وصواريخ خداعية . بينما كان يجري احتلال المواقع الحقيقية بشكل تبادلي لإرباك الإسرائيليين .

وقد قال الميجور جنرال بنيامين بيليد قائد سلاح الجو الإسرائيلي إن الدفاع الجوي المصري كان يتألف من ١٨٠ موقع رادار ، و٥٠ مركز قيادة وسيطرة ، و٤٠٠ جهاز رادار مختلف . وقال « إنهم يستخدمون في هذا النظام نحو ٢٠٠,٠٠٠ فرد على أعلى مُستوى » .

وفيما بعد قال الرئيس السادات وهو يتحدث عن عدد طائرات الفانتوم الإسرائيلية التى أسقطتها الصواريخ : « إن كل ما كانوا يتفاخرون به قد سقط بفضل الصواريخ أرض /جو التي كانت لدينا ، ولم تكن صواريخ حديثة . كانت سام ـ ١ ، وسام ـ ٢ ، سام ـ ٣ صاروخ حديث ، وسام ـ ٦ أيضا صاروخ حديث جداً وفعال جداً ، ولكن سام ـ ١ وسام ـ ٢ صواريخ قديمة جداً » . وربما كان يقصد بالصاروخ سام ـ ١ النموذج المبكر من الصاروخ سام ـ ٢ ، والذي كانت لديه كميات منه ، إلى جانب الصاروخ سام ـ ٢ الأكثر تقدماً منه .

أما الصاروخ سام ـ ٦ المتحرك ، المحمول على عربة مجنزرة فكان مداه المائل يبلغ نحو ٢٠ ميلاً وهو مخصص لصد هجمات الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة ، وكانت وحدة الرادار بالصاروخ سام ـ ٦ تتمتع بنشاط ترددي جيد . كما أنّ جهاز توجيه الصاروخ الذي يعمل بالأشعة تحت الحمراء ، لم يكن يسهل خداعه بالانفجارات الحرارية ، إلا أن قدرة هذا الرادار على البحث كانت محدودة ، ورغم أن الصاروخ سام ـ ٦ متحرك ، فإنه كان يحتاج إلى ما يصل إلى ثماني ساعات بعد كل تحرك لإعادة ضبط معداته وأجهزته ، وأقيمت مواقع خرسانية لهذه الصواريخ . ويقول باجاك إن المصريين نشروا ٤٦ بطارية سام ـ ٦ ، بكل منها أربع قواذف يضم الواحد منها ثلاثة صواريخ .

وبالنسبة للمدفعية م / ط (المضادة للطائرات) فكانت تتألف من وحدات المدافع السوفييتية الرباعية عيار ٢٣ مم ، التي تعمل بالرادار ، والتي تستطيع إطلاق أكثر من ٤,٠٠٠ طلقة في الدقيقة الواحدة . وكان لدى المصريين حوالي ٨٠٠ وحدة منها ، وعندما كان يتم إطلاق عدد من هذه الوحدات معاً ، كان يتشكل ساتر صلب من النيران يكاد يكون



قاعدة صواريخ سام - ٢ مصرية استولى عليها الإسرائيليون فى الضفة الغربية



مهندسون من الجيش الإسرائيلى ينقلون صاروخ سام - ٣ من الضفة الغربية



من المستحيل أن تتمكن طائرة من اختراقه دون أن تصيبها الطلقات . وكان هذا المدفع المحمول على عربة مجنزرة يضم هوائياً للرادار يشبه الطبق الصغير . وكان عيبه الرئيسي يتمثل في أنه كان يحتاج دقيقتين للتسخين بعد التشغيل ، كما لم يكن يستطيع التتبع الراداري وإطلاق الصواريخ أثناء الحركة . وكان يمكن تشغيل وإبطال حائط الدفاع الجوي ككل وهي عملية كانت تتطلب ضبط التوقيتات بأجزاء الثانية لعدم تعريض الطائرات المصرية للخطر . وإن كانت هناك ممرات متفق عليها للطيران المصري داخل حائط الدفاع الجوي نفسه .

ومن الناحية النظرية ، كان سلاح الطيران هو العنصر الثالث من نظام الدفاع الجوي ، ولكن في الواقع ، لم يكن المصريون يعتزمون استخدامه في دور اعتراضي ضد الطائرات الإسرائيلية ، فالصواريخ والمدافع هي التي تولت هذه المسئولية . أما شبكة الإنذار الراداري ، فقد تم تعزيزها بثلاثة خطوط من المراقبين بالنظر ، وبالتالي كان المصريون يرون أن من المتعذر التشويش عليها . وكان المصريون يعتمدون على صواريخهم من طراز « سكود » التي يصل مداها إلى ١٦٠ ميلاً ، في الرد الانتقامي في حالة قيام الإسرائيليين بقصف جوي في العمق ، وبالإضافة إلى ذلك . كان لدى المصريين مدافع م / ط عيار ٣٧ مم مع كل تشكيل برى ، كما كان لديهم أيضا رشاشات ثقيلة م / ط عيار ١٤,٥ مم .

أما الإسرائيليون ، فكانوا يعتمدون بشدة على الفارق التكنولوجي المزعوم بينهم وبين العرب ، فكانوا يتباهون علناً ويؤمنون بصورة راسخة ، بأن العرب لن يستطيعوا اللحاق بهم إلا بعد جيلين على الأقل . وكان ذلك افتراضاً خاطئاً ، فقد كان المصريون يتعلمون بسرعة ، فعلى سبيل المثال ، عندما رحل الروس في يوليو ١٩٧٢ ، كانت بعض معدات التدريب على صواريخ سام ـ ٢ ، قد وصلت إلى معهد التدريب الفني ، وكانت لا تزال في صناديقها . وكان الروس يقدرون أن تركيبها سيستغرق تسعة أشهر من فريق يتألف من ٢٩ خبيراً سوفييتياً . إلا أن المعلمين والدارسين المصريين نجحوا في إتمام هذه المهمة في ٥٠ يوماً فقط . وعندما رحل الروس أيضا أدخل المصريون بعض التعديلات على صواريخ سام ومعدات الرادار ووسائلهم الالكترونية المضادة وهي تعديلات لم يعلم بها الإسرائيليون في وقتها ـ وكان ذلك سراً أخر أحيط بالكتمان الشديد ، وكان الإسرائيليون ـ وغيرهم ـ يقللون بصورة فادحة من شأن قدرات المصريين بالنسبة للرادار والأجهزة الالكترونية .

وكان لدى المصريين أيضا صاروخ آخر مضاد للطائرات هو الصاروخ سام ـ ٧ ، الذي يستخدمه جنود المشاة والمخصص للتصدي لطائرات الهجوم الأرضي ، وهو صاروخ قصير المدى يحمل على الكتف ، ويقوم بتشغيله فرد واحد ، وكان عيبه الرئيسي يتمثل في أن شحنته الناسفة كانت صغيرة ، بحيث أنها نادراً ما كان يمكن أن تسقط طائرة ، وإن كانت قادرة على إصابتها بأضرار . وهو صاروخ باحث عن الحرارة ، يدخل في فتحة عادم

الطائرة ، ولذلك كان يتعين إطلاقه أثناء ابتعاد الطائرة عن جندي المشاة على الأرض . وقد استخدم الصاروخ سام ـ ٧ بشيء من النجاح ضد طائرات الهليكوبتر في ڤيتنام ؛ ولكن كان يتم التصدي له باستخدام الانفجارات الحرارية ، وكان لدى المصريين أنواع أحدث من الصاروخ سام ـ ٧ ، مزودة بمرشحات للأشعة تحت الحمراء لا تتأثر بالانفجارات الحرارية ، ولم يكن الإسرائيليون يعلمون ذلك ، وكان يمكن تركيب عدد من صواريخ سام ـ ٧ على عربة مجنزرة وإطلاقها دفعة واحدة معاً .

وكان الاتحاد السوفييتي قد أعاد تزويد سلاحي الطيران المصري والسوري بالعتاد والتدريب ، ولكن على عكس الحال في مصر ، كان سلاح الطيران السوري ، بقيادة اللواء ناجي جميل ، لا يزال يتسم بشدة بالوجود الفني للروس . وكانت نزعة الاستقلال الفظ في الشخصية السورية والفظاظة الباردة للروس تتسببان في احتكاكات تعرقل سلاسة العمل والاتصالات . وربما لم يكن الطيارون السوريون بنفس براعة الطيارين المصريين ، وبوجه عام كان الفارق التكنولوجي بينهم وبين الإسرائيليين أوسع بدرجة كبيرة . وقد قيل في الندوة الإسرائيلية إن سوريا كانت تمتلك ٣٣٨ طائرة قتال ، كلها سوفيتية الأصل ، كان من بينها ٢٠٠ طائـرة ميج ـ ٢١ ، و ٨٠ طـائرة ميـج ـ ١٧ ، وحوالي ٨٠ طـائرة سوخوي ـ ٧ ، وبعض طائرات اليوشن ـ ٢٨ الخفيفة ، (ولكنها لم تكن تملك طائرات ميج ـ ١٩) ، ورغم برنامج تدريبي متعجل ، كانت سوريا تعاني من نقص الطيارين ؛ وكانت هناك نسبة من الطيارين الموجودين غير مكتملة التدريب أو الخبرة .

ومع إدراك السوريين لأوجه القصور في سلاح طيرانهم ، فإنهم اعتمـدوا ، مثل المصريين ، على حائط للدفاع الجوي يضم الصواريخ والمدافع لصـد سلاح الجـو الإسرائيلي . وكان قائد حائط الدفاع الجوي السوري هو العقيد على صالح . وكان مقدراً أن السوريين يمتلكون ١٢ بطارية من صواريخ سام ـ ٢ ، وسام ـ ٣ ، و٣٢ بطارية من صواريخ سام ـ ٦ المتحركة ، وبالإضافة إلى ذلك كان لدى سوريا نحو ١٦٠ وحدة مدفعية م / ط ٢٣ مم الرباعية التي تعمل بتوجيه راداري . وكان حائط الدفاع الجوي يحمى دمشق ويغطي الجزء الشرقي من هضبة الجولان . ولكنه لم يكن يصل إلى نهر الأردن ، ويقول جلاسمان إن « صواريخ سام السورية قد نصبت في سهل دمشق ، بحيث كانت تترك الأهداف الاستراتيجية في سوريا مكشوفة أمام الضربات الجوية » وكان هناك ٢,٠٠٠ على الأقل من الأفراد السوفييت في القوات المسلحة السورية ، نصفهم على الأقل مع حائط الدفاع الجوي ، وكثير منهم كانوا يقومون بأدوار في العمليات .

وكان سلاح الطيران العراقي يضم حوالي ١٩٠ طائرة قتال ، وحوالي ١٠,٠٠٠ فرد ، معظمهم جنود نظاميون ، وكانت طائراته سوفييتية في معظمها ، وإن لم تكن جميعها . وكانت تشمل ثماني قاذفات متوسطة المدى من طراز توبولوف ـ ١٦ ، و ٦٠ قاذفة ـ مقاتلة سوخوي ـ ٧ ، و ٩٠ ميج ـ ٢١ ، و ٣٠ ميج ـ ١٧ . وكان هناك أيضا نحو ٣٢

من طائرات الهنتر البريطانية وكانت ثلاثة أسراب ميج ـ ٢١ عراقية تخدم مع سلاح الطيران المصري في جبهة قناة السويس لمدة تناهز العام . وكان العراقيون يمتلكون أيضا نحو ٤٦ طائرة هليكوبتر سوفييتية (مي ـ ١ ، ومي ـ ٤ ، ومي ـ ٨) ، وحوالي ٣٠ طائرة نقل (من بينها طائرات أناتوف ـ ٢ ، وأناتوف ـ ١٢ ، وأناتوف ـ ١٤ ، واليوشن ـ ١٤ ، وتوبولوف ـ ١٢٤ السوفييتية ، وطائرات هيرون البريطانية) . وكان سلاح الطيران العراقي يعاني من أوجه قصور مماثلة لما كان في مصر وسوريا ، ولاسيما من حيث نقص الطيارين ، رغم أن الطيارين العراقيين كانوا يتدربون في الاتحاد السوفييتي لفترة ما . وخلال الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧٣ ، أرسل الاتحاد السوفييتي إلى بغداد سرباً يضم نحو ١٥ طائرة توبولوف ـ ٢٢ ، وهى قاذفة استراتيجية أسرع من الصوت ، وكانت هذه أول طائرات من هذا الطراز ، الذي يعتبر متفوقاً على طائرات الفانتوم الإسرائيلية ، يتم إرسالها خارج أوروبا ، وكان سلاحا الطيران المصري والعراقي فقط هما اللذان يمتلكان القدرة على القصف الاستراتيجي .

أما سلاح الطيران الأردني ، الذى كان قد تم تدميره بالكامل تقريباً عام ١٩٦٧ ، فيتألف من نحو ٥٠ طائرة غربية ، من بينها ٣٥ طائرة « هنتر » بريطانية ، و١٥ طائرة أمريكية من طراز « ف ـ ١٠٤ أ » ، وفى وجه الحجم والتفوق الإسرائيلي ، فإن سلاح الطيران الأردني كان ضئيلاً وعديم الفاعلية ، ولم يشارك في الحرب على الإطلاق .

وكان سلاح الطيران الآخر الذي شارك في الحرب بشكل هامشي هو سلاح الطيران الليبي ، الذي كان العقيد القذافي يعمل على تحديثه وتوسيعه ، وكان يتألف أساساً من عشر طائرات أمريكية من طراز « ف ـ ٥ أ » سكاي هوك ، وتسع طائرات نقل من طراز « سي ـ ٤٧ » ، وثماني طائرات نقل متوسطة من طراز « سى ـ ١٣٠ اي » ، و١٨ طائرة هليكوبتر فرنسية . كذلك كان القذافي قد طلب من فرنسا ١١٥ طائرة ميراج ، ويقول باچاك إنه كان قد تم تسليم أكثر من ١٠٠ طائرة منها ، وقد زودته فرنسا بهذه الطائرات بشرط ألا تستخدم إلا في الدفاع عن ليبيا ، وألا يعاد تصديرها ، والميراج هى طائرة مقاتلة متقدمة ذات مقعد مثلثة الأجنحة تطير بضعف سرعة الصوت ، وقد صممت أصلاً كمقاتلة اعتراضية على ارتفاعات عالية ، وهي مسلحة بصاروخ جو / جو فرنسي من طراز « ماترا » ، ومدفعين عيار ٣٠ مم ، وصاروخين من طراز « سايدونيدر » وفي يونيو ١٩٧٣ ، لم يكن هناك سوى عشرة طيارين ليبيين فقط مؤهلين لقيادة طائرات الميراج ، وكان قد تم إرسال طيارين ليبيين آخرين ، وبضعة مصريين ، بالإضافة إلى الفنيين والأطقم الأرضية ، إلى فرنسا للتدريب في برنامج لتبادل الطيارين . وكانت الدفعة الأولى ، التي تضم نحو ٢٥ طياراً ليبياً مدرباً ، قد وصلت لتوها . وتم إرسال مجموعة أخرى محلها ، وتم إرسال نحو ٤٨ طائرة ميراج ليبية إلى مصر خلال الحرب ، ولكن تولى قيادتها طيارون عرب آخرون .

أما سلاح الجو الإسرائيلي ، الذي كان يحظى بالفخر والأولوية ، وبحصة كبرى من مخصصات الميزانية العسكرية ، فكان يتألف من مجموعة متنوعة من الطائرات يصل عددها إلى حوالي ٤٨٠ طائرة قتال ، وكان الاسرائيليون يحصلون على الطائرات كلما أمكن ذلك ، ليشكلوا منها الذراع الطويلة ، التي يمكن أن تمتد وتطول أي دولة عربية تتجاوز حدودها ، ويقول ليتواك إن هذه الطائرات كانت تشمل ١٢٧ طائرة فانتوم ، و١٦٠ طائرة سكاي هوك ، و٦٠ طائرة ميراج ، و٥٠ طائرة سوبرميستير (فضلاً عن بعض طائرات الميستير والأوراجون الأقدم) ، و٢٠ طائرة نورأطلس ، وحوالي ١٢ طائرة نقل من طراز سي ـ ٤٧ ، وسي ـ ١٣٠ ، وكانت اسرائيل تمتلك أيضا نحو ٧٥ طائرة هليكوبتر ، من بينها ١٢ من طراز سوبرفريلون ، و٢٠ من طراز ألويت الفرنسيين . والبقية أمريكية من طرازي « سي . اتش ـ ٥٣ » . و « ايه . بي ـ ٢٠٥ » وكان التركيز على طائرات القصف قصير المدى والمعاونة الأرضية ، حيث لم تكن إسرائيل تمتلك أية قاذفات بعيدة المدى . وكان لدى إسرائيل عدد من طائرات الاستطلاع بلا طيار من طراز « تليداين ريان ـ ١٢٤ » وكان سلاح الجو قد حصل على نحو ٢٥ طائرة من طراز باراك (من بين ٢٠٠ طائرة تم طلبها) وهى طائرة يتم تجميعها محلياً .

وعلى العكس من العرب ، كان لدى إسرائيل وفرة في أعداد الطيارين ، ربما ثلاثة طيارين لكل طائرة ، حيث كانت عملية اختيارهم وتدريبهم تسير بشكل مكتمل دون أن يعرقلها شيء على مدى سنوات . وكان سلاح الجو يتألف من حوالي ١٠,٠٠٠ جندي نظامي ، بالإضافة إلى ١,٠٠٠ آخرين يتدربون في أي وقت من الأوقات . وعند التعبئة تتضاعف هذه الأعداد بفضل استدعاء قوات الاحتياط الذين كانوا في الأساس يوفرون المعاونة الفنية والأرضية . وكانت قلة منهم هي التي تتولى قيادة طائرات الصف الثاني . وكان تدريب الطيارين مكثفاً ؛ وكان الطيارون يطيرون ساعات أطول مما يحدث عادة في أي سلاح جو آخر ؛ ولذلك كان المستوى مرتفعاً ، وعلى سبيل المثال ، كان عدد ساعات طيران طيارى الميج العرب تبلغ في المتوسط نحو ٤٠ ساعة في الشهر ، وهو أقل من نصف الساعات التي يطيرها الطيارون الإسرائيليون ، ومع ذلك فإن العرب يقولون إن نصف الطيارين الإسرائيليين فقط هم الذين كان بمقدورهم الطيران ليلاً ـ وهى حالة تدريبية لا يتناولها الإسرائيليون بالتعليق . وكان الإسرائيليون يجمعون أكثر طياريهم خبرة وبراعة في أسراب خاصة تعرف باسم « أسراب الصيد » وكانت دائماً ما تكون هى البادئة بخوض القتال حيث كانت السياسة الإسرائيلية تعتمد على توجيه ضربة سريعة قصـيرة وإن كانت حاسمة .

وكان لدى الإسرائيليين نحو عشرة مطارات في سيناء ، وأكثر من اثنى عشر مطاراً في اسرائيل نفسها . وكان المطاران الكبيران في سيناء يقعان في العريش على ساحل البحر المتوسط ، وفي المليز بالقرب من الطريق الأوسط على مسافة حوالي ٥٠ ميلاً شرقي القناة ،

وكانت المطارات الأخرى ذات المنشآت الجيدة تشمل مطارين في تمادة وبير الحسنة ، كما كان هناك أيضا عدد من مهابط الطائرات الصغيرة مثل ذلك الذي في الطاسة ـ وكانت القيادة الجوية لسيناء تقع في أم مرجان بالقرب من المليز . وبوجه عام ، دائماً ما كان هناك نحو ست طائرات فانتوم وعدد من طائرات سكاي هوك وميراج ، تعمل لتغطية جبهة قناة السويس .

وكانت الصعوبات في الحصول على الطائرات قد جعلت الإسرائيليين بارعين في صيانة ما يمتلكونه من طائرات ، وكانت الأطقم الأرضية قد وصلت هي الأخرى إلى مستوى عال من الكفاءة ، وكان الإسرائيليون يزعمون عام ١٩٦٧ أنهم خفضوا زمن تجهيز الطائرة إلى ٣٠ دقيقة ، بدلاً من الزمن المعتاد الذي يبلغ نحو ساعتين . ونظرياً ، فإن ذلك يضاعف عدد الطائرات المتاحة للعمليات بمقدار أربعة أضعاف إلا أنه من حيث الواقع كان ذلك معدلاً لم يستطع الإسرائيليون الاستمرار فيه طويلاً ، وقد اتضح عام ١٩٦٧ أنه حتى وإن كان بضعة طيارين قد حققوا في المتوسط تسع طلعات يومياً لمدة يوم أو يومين ، فإن المتوسط الشامل كان يقل عن ثلاث طلعات يومياً . وقد تعرض الزعم الإسرائيلي حول الرقم القياسي في تجهيز طائرة القتال لضربة عندما اتضح أن فريقاً سوفييتياً في سوريا كان يستطيع تفريغ طائرة نقل أناتوف ـ ١٢ ، بالكامل ثم تعبئتها بالكامل في نصف ساعة فقط . كما أن زمن التجهيز العربي قد تقلص هو الآخر بصورة تدخله في المنافسة ، وأصيب الإسرائيليون بصدمة أخرى عندما علموا أن المصريين يستطيعون إعادة تزويد طائرة قتال واحدة بالوقود والعتاد في ست دقائق فقط ، مقابل الزمن الإسرائيلي الجديد الذي يبلغ ثماني دقائق ، وفي أول نوفمبر ١٩٧٥ قال اللواء عبد المنعم . الذي خلف الفريق مبارك في قيادة سلاح الطيران المصري ، في خطاب بمناسبة الذكرى الثالثة والأربعين لتأسيسه إن « الزمن المطلوب لإعادة تزويد طائرة بالوقود قد أمكن خفضه إلى دقيقتين ، بحيث أصبح ممكناً إقلاع ثماني طائرات في نفس الوقت خلال دقيقة ونصف الدقيقة » .

أما حرب « العلماء المجانين » الإلكترونية بين الصواريخ والوسائل الإلكترونية المضادة ، التي بدأت في فيتنام . فقد تصاعدت في حرب الاستنزاف . فمع اكتشاف تحسين ما ، كان يجرى البحث عن رد ، والعثور عليه ، لكى يزول هذا الرد بفضل تحسين تالٍ . وكان الإسرائيليون قد حصلوا على ٢٠٠ من أجهزة الوسائل الالكترونية المضادة ، ولكنها وصلت متأخرة بما حال دون استخدامها في حرب الاستنزاف . وكانت الوسائل الإلكترونية المضادة ، التي كانت الطائرات تحملها على حساب شحنات الأسلحة الأخرى ، تستطيع التصدي لصواريخ سام ـ ٢ ، وسام ـ ٣ التي كان المصريون يستخدمونها في ذلك الوقت . إذ كان يظهر ضوء تحذيري في كابينة الطيار ، بما يمكنه من القيام بمناورة للمراوغة ، أو التشويش على الصاروخ القادم ، أو حرف مساره ، وكان

جهاز راداره يبث بصورة آلية ، إشارات مضادة مضبوطة على الترددات المصرية للتشويش على أشعة راداراتها ، فكان ما يحدث إما « ركوب الشعاع » أو «حرف الشعاع » عن مساره . وكان الإسرائيليون يستخدمون طائراتهم من طراز « ستراتوكروزر » كمراكز تصنت محمولة جواً مليئة بمعدات الرصد الإلكتروني ، التي كان المصريون يستخدمون ضدها ما يسمونه « التمويه الالكتروني » .

وبعد أغسطس ١٩٧٠ ، أدخل الأمريكيون تحسينات متتالية على الوسائل الإلكترونية المضادة ، إلا أنهم رفضوا أن تحصل إسرائيل عليها خشية أن يتم إسقاط طائرة تحملها داخل الأراضي العربية ، كذلك لم تسمح الولايات المتحدة بحصول إسرائيل على أي من الأسلحة الأحدث ، مثل الصاروخ « لانس » الذي يتسم بفعاليته ضد بطاريات الصواريخ . وكما ذكرت مجلة « **أفيشن ويك** » في ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، فقد حظر على الإسرائيليين حضور ندوه سرية حول الوسائل الإلكترونية المضادة عقدت في واشنطون بمشاركة وزارة الدفاع الأمريكية ، وقد حضر هذه الندوة ممثلون لدول أعضاء في حلف شمال الأطلنطي ، وغيرها مثل استراليا . وعقدت الندوة قبل حرب أكتوبر بأسبوعين فقط .

إلا أن الإسرائيليين كانوا واثقين من قدرة طياريهم على ابتكار تكتيكات دفاعية ضد أسلحة الدفاع الجوي العربية ، وكانوا يؤمنون بأن الرد يتمثل في الجمع بين وسائل إلكترونية مضادة بسيطة ومهارة الطيارين المحنكين في الطيران . ومع ثقة الإسرائيليين العظمى في سلاحهم الجوي ، فإنهم لم يقيموا حاجزاً للدفاع الجوي ، وإن كان لديهم نحو ثماني بطاريات من صواريخ هوك الأمريكية ، تضم جميعاً حوالي ٤٨ قاذفاً . ويبلغ المدى المائل لصواريخ هوك حوالي ٢٨ ميلاً .

والتعليقات التي أدلى بها الرئيس السادات فيما بعد عن بعض جوانب المزايا النسبية للطائرات العربية والإسرائيلية هى تعليقات مثيرة للاهتمام ففي مقابلة نشرتها صحيفة « **التايمز** » في الرابع من يونيو ١٩٧٦ : قال « قبل الحرب ، لم يكن مجرد تفوق ، بل كان سيادة كاملة ، فقد كانت لديهم طائرات الفانتوم والميراج ، وكان عندي الميج ـ ٢١ ، وستندهش إذا قارنت النوعين ، في الميج ـ ٢١ ليس لدى الطيار سوى البوصلة ، ولا توجد أية تسهيلات على الإطلاق . أما في الميراج وفي الفانتوم ، وفي طائراتكم الجاجوار أيضا ، فإن كل شيء يعمل بالكومبيوتر من أجل الطيار ، إذا دخل منطقة صواريخ . يظهر ضوء ليبلغه بذلك ، وإذا كان هناك من سيهاجمه من الخلف ، فإن ضوءاً آخر يبلغه بذلك . ويكفيه أن يضع بطاقة في جهاز الكومبيوتر ، وسيأخذه إلى المكان الذي يتوجه إليه ، وسيخطره بأن يسقط القنابل ، وسيعيده إلى المطار ، ولكن ، صدقني ، إن كل ذلك يتم حتى هذه اللحظة ، في الميج ـ ٢١ وكل المعدات العسكرية السوفيتية ، بالطيار وحده ، إنه شيء شديد البدائية ، ولذلك ، عندما أقول لك إن إسرائيل كانت تمتلك السيادة الجوية الكاملة ، وليس مجرد التفوق فإنها الحقيقة » .

وفي السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، وقبل أن تعود ١٠٠ طائرة سورية و ٢٤٠ طائرة مصرية (وعراقية) إلى قواعدها من طلعاتها الأولى داخل إسرائيل والأراضي المحتلة ، انتفض سلاح الجو الإسرائيلي مثل عش زنابير هائج وانطلق للانتقام بسرعة ، ليجدوا أن العرب قد قاموا بتشغيل حائط الدفاع الجوي الذي اندفعت الطائرات الإسرائيلية تصطدم به ، بنتائج أشبه بالكارثة ، وخلال ٣٠ دقيقة ، كان قد تم إسقاط عشر طائرات إسرائيلية ، ثم تساقط المزيد مع القيام بالمزيد من الطلعات ، وبعد ساعة واحدة و٥٠ دقيقة كان الإسرائيليون قد فقدوا ٢٥ طائرة سكاي هوك وخمس طائرات فانتوم على جبهة الجولان .

وعلى الجبهة المصرية أيضا ، تعرضت الطلعات الجوية الإسرائيلية الأولى ، التي بدأت في الساعة ١٤٢٠ ، لكوارث وإن لم تكن بنفس الحجم ، عند تشغيل حائط الدفاع الجوي ، ويقول المصريون إنهم بحلول نهاية اليوم ، كانوا قد أسقطوا ١١ طائرة إسرائيلية . ويعترف المصريون بأنهم خسروا طائرة واحدة خلال ضربتهم الجوية الأولى . وكان يقود هذه الطائرة النقيب عاطف السادات ، الأخ غير الشقيق للرئيس المصري ، وقد لقى مصرعه فيها .

ومن الناحية الفعلية ، كانت الوسائل الإلكترونية المضادة الإسرائيلية عديمة الفاعلية ضد صواريخ سام ـ ٢ وسام ـ ٣ العربية ، كما كانت بلا تأثير على الإطلاق ضد صواريخ سام ـ ٦ ، ومع فزع رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال ألعازر من هذه الخسائر الهائلة غير المتوقعة ، فقد أوقف كل العمليات الجوية الإسرائيلية بعد الساعة ١٦٠٠ مباشرة ، وكان يريد مهلة لالتقاط الأنفاس ، تفكر خلالها قيادته الجوية العامة فيما تفعله . وبعد حوالي الساعة أمر ألعازر سلاح الجو باستئناف العمليات ، قائلاً إنه تم في ذلك الوقت استخدام تكتيكات جديدة ـ هى تكتيكات الضرب من الأجناب ـ ولكن ، في الواقع ، كان ذلك يعني ببساطة الابتعاد عن حائط الدفاع الجوي . ويقول المصريون : إنهم رصدوا رسالة إسرائيلية تأمر كل الطائرات الإسرائيلية « بالابتعاد ١٥ كيلومترا عن القناة » واستؤنفت الطلعات الجوية الإسرائيلية مرة أخرى ، ولكن مع توخي الحذر ، ومع ذلك تكبد الإسرائيليون مزيداً من الخسائر . وعلى سبيل المثال يقول السوريون : أنهم أسقطوا أربع طائرات إسرائيلية أخرى حوالى الساعة ١٧٣٠ . وقام الإسرائيليون بطلعات جوية ليلية محدودة . ويقول السوريون : إنهم أسقطوا ثلاث طائرات إسرائيلية أخرى حوالى الساعة ٢٠٣٠ ، وعلى الأرض ، تمكن جنود المشاة العرب في الجبهتين ، باستخدام صواريخ سام ـ ٧ السوفيتية من إصابة عدة طائرات إسرائيلية ، وإن لم ينجحوا في إسقاط أي منها .

وبحلول نهاية اليوم الأول من الحرب ، كان الإسرائيليون قد فقدوا بسبب الصواريخ ونيران وحدات المدفعية م/ط ٢٣مم الرباعية ، ما لا يقل عن ٣٠ طائرة سكاي هوك وعشر طائرات فانتوم ، ونسبة من أفضل طياريهم ، كانوا صفوة « أسراب الصيد »

الإسرائيلية . ويقول السوريون : إنهم أسقطوا خلال ذلك اليوم ٤٣ طائرة اسرائيلية ، وهو ما يبدو صحيحاً . وناشدت الحكومة الشعب السوري عبر موجات الاذاعة « مساعدة قواتنا المسلحة في أسر الطيارين الإسرائيليين أحياء » حيث كان أهالي القرى قد قتلوا بالفعل بعض الطيارين الإسرائيليين الذين تم إسقاطهم ، وعن ذلك اليوم يقول المصريون : إنهم أسقطوا ٢٧ طائرة إسرائيلية (وهوشيء أميل إلى التفاؤل في ضوء أسلوبهم الجديد في إصدار بيانات هادئة متواضعة) كما اعترفوا بأنهم خسروا ١٥ من طائراتهم . وكانت الصدمة هائلة في الحكومة والقيادة العامة الإسرائيلية ، وكان من أمثلة رد الفعل ما تم من نقل القيادة الجوية لسيناء بشكل يكاد يتسم بالذعر إلى العريش .

وذكر الإسرائيليون أنه في الساعة ١٤٣٠ ، أسقطت طائرة سورية قنبلة على إيليت هاشاهام في الجليل ، وأنه في الساعة ١٤٤٠ أسقطت طائرة سورية داخل لبنان في سهل البقاع ، وأصيب الطيار بإصابات طفيفة ، وذكر الإسرائيليون أن طائراتهم التي كانت تستخدم المجال الجوي اللبناني لتلافي حائط الدفاع الجوي السوري أثناء تشغيله ، اشتبكت في معركة جوية فوق مخيم النبطية للاجئين حوالي الساعة ١٥٣٠ ، واشتركت في هذه المعركة ٣٠ طائرة سورية ، إلا أن الإسرائيليين قالوا : إن كتلة من الغيوم والسحب المنخفضة جعلت الأوضاع غير مناسبة للقتال الجوي ، ولكنهم لم يعلنوا المزيد من التفاصيل . وذكرت الحكومة اللبنانية فيما بعد أن طائرة فانتوم إسرائيلية سقطت على قرية لبنانية ، مما أسفر عن إصابة أربعة أشخاص بجروح ، كذلك قامت الطائرات الإسرائيلية في نفس الوقت بقصف قرية مجدل شمس ، وأصيب العديد من الدروز .

وفيما بعد يوم ١٤ أكتوبر ، زعم أبا إيبان في الأمم المتحدة أن المصريين أطلقوا صاروخاً من طراز « كيلت » على تل أبيب بعد ظهر اليوم الأول من الحرب . والصاروخ « كيلت » الأشبه بالصاروخ « في - ١ » المستخدم في الحرب العالمية الثانية ، يمكن أن تحمله طائرة توبولوف - ١٦ ، وقد تمكن طيار إسرائيلي من إسقاطه فعلاً باستخدام تكتيكات تشبه تلك التي كان يستخدمها طيارو سلاح الجو الملكي البريطاني في الحرب العالمية . وعندما سألت المشير إسماعيل عن ذلك - فيما بعد - فقد اعترف بذلك ولكنه أصر على أنه « لم يطلق على تل أبيب » ، وأضاف : إنه لم يكن ليفعل ذلك إلا لو كان الإسرائيليون قد ضربوا المدن المصرية أولاً .

وخلال اليوم الثاني من الحرب ، السابع من أكتوبر ، كانت الطلعات الجوية الإسرائيلية تتكبد خسائر كلما اصطدمت بحائط الدفاع الجوي . وحسب الميجور وليام ميلينكرودت من سلاح الجو الهولندي . وهو خبير في الصواريخ وكان أحد مراقبي الأمم المتحدة في إحدى النقاط على خط وقف إطلاق النار السوري لعام ١٩٦٧ ، أنه خلال الأيام الثلاثة الأولى من الحرب كانت « ثلاث من بين كل خمس طائرات اسرائيلية » تظهر في السماء يتم إسقاطها ، سواء بالصواريخ أو بنيران المدفعية . وأطلق إنذار غارة جوية في

القاهرة وقام الإسرائيليون بثلاث غارات جوية على مطارات مصرية ، وفي نهاية اليوم ، قال المصريون الذين اعترفوا بخسارة ست طائرات : إنهم أسقطوا ٣٠ طائرة إسرائيلية أخرى . ووقعت معركة جوية أخرى على الأقل فوق جبهة الجولان .

وبوجه عام تم الاحتفاظ بسلاحي الطيران المصري والسوري في الخلف وظل حائط الدفاع الجوي يعمل باستمرار - وهى سياسة أتت ثمارها - ولكن كانت هناك استثناءات مع ذلك . وفي الساعة ١٢٠٠ هاجمت الطائرات المصرية أهدافاً في سيناء ، ويعترف المصريون بأنهم خسروا طائرة واحدة ، وتقول البحرية المصرية : إنها أسقطت طائرة هليكوبتر إسرائيلية بالقرب من ساحل شمال سيناء ، كما تم شن غارة في المساء على منطقة بير الجفجافة ، ومساء ذلك اليوم عرض التليفزيون المصري فيلماً لقتال جوي ، ولحطام الطائرات الإسرائيلية ، وقال المصريون : إنهم أسروا سبعة طيارين إسرائيليين . وصرح متحدث أردني بأنه في الساعة ١١٤٥ يوم السابع من أكتوبر ، أطلقت المدفعية المضادة للطائرات بالقرب من قويلة ، على مسافة ١٢ ميلاً غربي عمان ، نيرانها على طائرة فانتوم إسرائيلية كانت تطير فوق الأراضي الأردنية ، وقال أيضا : إنه تم إغلاق مطار عمان الدولي .

وفي اليوم الثالث من الحرب ، الثامن من أكتوبر ، قامت الطائرات الإسرائيلية ، وقد تشجعت بعدة غارات ولكنها حرصت على الابتعاد عن حائط الدفاع الجوي . وأغارت للمرة الأولى على بور سعيد ، وهى منطقة لا يغطيها حائط الدفاع الجوي المصري الأساسي . وأصيب الجسران اللذان يربطان المدينة بالطريق الممتد جنوباً ، وتم تعطيلهما . وأدى تدمير الجسرين إلى وقف جميع التحركات البرية من هذا الاتجاه . واستمرت الغارات الجوية المكثفة على منطقة بور سعيد في معظم الأيام ، مما أسفر عن كثير من الخسائر ، وأحياناً لم يكن الفارق بين الغارات يزيد على ثلاث ساعات . وكان لدى بورسعيد دفاعها الجوي الخاص ، الذي يعتمد على المدفعية م / ط عيار ٢٣ مم الرباعية الموجهة بالرادار ، وغيرها من المدافع المضادة للطائرات والصواريخ ومعدات الوسائل الإلكترونية المضادة . وكان معظمها موجوداً في مواقع ومخابيء مبنية بالطوب تشبه الأكواخ ذات القبو وتتراكم الرمال على أجنابها لحمايتها من الانفجارات .

وفى الثامن من أكتوبر ، وفي عدة أوقات ، أغار الإسرائيليون من جديد على الجسور المصرية عبر القناة ، مثلما كانوا يفعلون منذ بدء الحرب . ورغم الأضرار التي لحقت بالجسور ، فإن أياً منها لم يتعطل عن العمل لفترة طويلة . وفيما بعد ، وفي مقابلة نشرتها صحيفة « **الأخبار** » في ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ ، قال الفريق الشاذلي : « لم يكن ممكناً أن تنجح عملية العبور دون أن تتم تغطية المنطقة بالطائرات وشبكة الصواريخ ، كانت مظلة الدفاع الجوي تحمي المشاة والمهندسين ، وكانت هجمات العدو الجوية قوية ومتواصلة . وقد أصابوا بعض النقاط ، ولكن الجسور العسكرية تقام من قطاعات متصلة ، يمكن

استبدالها . وكان إصلاح أحد الجسور يستغرق عادة ما يتراوح بين نصف الساعة والساعة . وكنا أيضا ننقل جسورنا من مكان إلى آخر لإرباك طياري العدو ، الذين كانوا يعملون اعتماداً على معلومات الاستطلاع . ونشرنا ستائر دخان كثيفة لجعل التنشين أكثر صعوبة عليهم . بينما كانت النيران المكثفة المضادة للطائرات تزيد من الصعوبة عليهم . وحاول العدو اتباع تكتيكات الطيران على ارتفاعات شديدة الانخفاض للوصول إلى الجسور ولكن صواريخ سام - ٧ أثبتت نجاحاً رائعاً في اسقاط هؤلاء المهاجمين . وبعد أن فقد الإسرائيليون خمس طائرات أخرى بحلول نهاية الثامن من أكتوبر ، بدأ المجهود الإسرائيلي في هذا الاتجاه يهدأ ، مع فداحة الخسائر .

ويقول هيكل إن أسطول طائرات شركة العال أحضر على جناح السرعة ٢٠٠ من وحدات الوسائل الإلكترونية المضادة الأكثر تقدماً من أمريكا إلى إسرائيل ، فضلاً عن كميات من الرقائق المعدنية حيث لم يكن الإسرائيليون يملكون أيا منها عند بداية الحرب . وكان يتم حمل هذه الرقائق المعدنية في فجوة جهاز فرملة طائرات الفانتوم ، وعند إسقاط هذه الرقائق ، كان كل منها يبدو كما لو كانت طائرة على شاشات الرادار . وحصل الإسرائيليون أيضا على أجهزة لإسقاط الرقائق المعدنية وقنابل للرقائق المعدنية من المنتجين الأمريكيين مباشرة ، وحاول الإسرائيليون تحييد صواريخ سام - ٦ بإطلاق بالونات خداعية ، يتراوح قطرها بين ١٢ و ١٨ بوصة ، يتم حملها في وحدات الوسائل الإلكترونية المضادة أو تثبت أسفل طائرات الفانتوم . وكانت هذه البالونات مطلية بمادة تعكس الأشعة ، وتظهر أيضا على شاشات الرادار ، وتجتذب الصواريخ الباحثة عن الحرارة - وهو أسلوب يعرف باسم « تعزيز أصداء الرادار » .

ولما كانت قدرة صواريخ سام - ٦ على البحث الراداري محدودة ، فإن التكتيكات الإسرائيلية كانت تتمثل في الانقضاض عليها من ارتفاعات عالية ، وتكون سرعة الصاروخ بطيئة في البداية ، وإن كان يصل في نهاية الأمر إلى ضعف سرعة الصوت . وحققت هذه المناورة شيئاً من النجاح . ولكن صواريخ سام - ٦ ظلت تشكل خطورة حيث كانت تتميز بنشاط تردداتها ، وهو ما كان يعني أنها تستطيع العمل على مجموعة واسعة من الترددات بما يجعل التشويش عليها أمراً بالغ الصعوبة . وعندما كان الطيار الإسرائيلي يرى وميض انطلاق الصاروخ والخط الأبيض المندفع نحوه ، فإنه كان يسقط رقائقه المعدنية ، ثم يهبط بشكل حاد ، ولكن بطاريات الصواريخ كانت مرتبة بحيث أن هذه المناورة من جانب الطيار كانت تدخله فحسب داخل مدى بطارية أخرى ، بحيث أنه عندما كان يتم مناورته الرابعة ، يكون قد فقد ارتفاعه تماماً ، فتصيده نيران المدفعية ٢٣ مم الرباعية الموجهة بالرادار .

وفي الثامن من أكتوبر ، قام المصريون بعدة طلعات جوية لقصف أهداف من بينها القاعدتان الجويتان في المليز وتماده ، وبطاريات صواريخ هوك ، ومحطات الرادار في

بالوظة وتمادة وأم مرجان وأم خشيب . كما يقولون أيضا إنهم أسقطوا طائرة فانتوم وعدة طائرات هليكوبتر . وعلى حين يعترف الإسرائيليون بحدوث هذه الغارات ، فإنهم يصرون على أن المصريين لم يصيبوا أيا من هذه الأهداف المذكورة . واعترف المصريون بأنهم خسروا عشر طائرات بحلول نهاية اليوم ، ولكنهم يقولون إنهم أسقطوا ٢٤ طائرة فانتوم ، بينما يقول الإسرائيليون أنهم أسقطوا خمس طائرات مصرية ، وفي الثامن من أكتوبر وصلت مجموعة تضم نحو ١٠٠ طيار مصري كانوا يتدربون في الاتحاد السوفييتي .

وعلى الجبهة السورية حلقت الطائرات الإسرائيلية فوق دمشق للمرة الأولى في غارة عند الفجر ، وتم إسقاط بعض القنابل ، ولم تسمع صفارات الإنذار من الغارات الجوية ، ولكن الناس ذهبوا إلى المخابىء وقال الإسرائيليون إن كثافة الغيوم فوق الجولان كانت تحد من النشاط الجوى ، ولكنهم باختصار كانوا يحرصون على الابتعاد بقدر الإمكان عن حائط الدفاع الجوى . وفى المساء ، عرض التليفزيون السورى فيلماً يصور حطام الطائرات الإسرائيلية ، والطيارين الأسرى ، ولقطة لطائرة فانتوم وهي تهوى محترقة ، وكانت خسائر الإسرائيليين فادحة ، وربما كانوا قد خسروا في الثامن من أكتوبر نحو ٣٠ طائرة من مختلف الأنواع على الجبهة المصرية ونحو ٢٠ طائرة أخرى على الجبهة السورية . وكان الشيء الأخطر بالنسبة إلى الإسرائيليين يتمثل في أن العرب كانوا قد قضوا بالفعل على ٥٠ أو أكثر من صفوة طياريهم العاملين في « أسراب الصيد » .

وفي الثامن من أكتوبر دخل العراقيون الحرب ، ففي ذلك اليوم ، وصل إلى سوريا سربان من طائرات الميج ـ ٢١ ، واشتركا في القتال على الفور تقريباً . إلا أن حائط الدفاع الجوي السوري أسقط أربعا من هذه الطائرات ، لأن إشارات التعارف (لتحديد ما إذا كانت طائرات معادية أم صديقة) لم تكن مثبتة بها بصورة صحيحة ، كما لم يتم إبلاغ الطيارين العراقيين بالتعليمات بصورة صحيحة . وكانت إشارات التعارف ، وهى الرد الثابت على إشارات الرادار ، تستهدف الحيلولة دون أن تطلق الصواريخ والمدافع نيرانها على طائراتها ، وفي الثامن من أكتوبر أيضا قال الأردن إنه أسقط طائرتين إسرائيليتين ، ولكن لم يتم إثبات ذلك .

وزعمت إسرائيل أنه منذ بدء الحرب ، تم إطلاق حوالي ٢٠ صاروخاً من طراز « فروج » من سوريا ولبنان إلى داخل الأراضي الإسرائيلية ، مما أحدث أضراراً ويقول جلاسمان إن السوريين أطلقوا ثلاثة صواريخ « فروج » في السادس من أكتوبر ، وسبعة صواريخ في الثامن من أكتوبر ، وستة صواريخ في التاسع من أكتوبر . وفي الساعة ١٢٠٠ من التاسع من أكتوبر ، رد الاسرائيليون عندما ظهرت ست طائرات فانتوم فوق دمشق وألقت بقنابلها ، وأصيبت بضعة مبان ، من بينها وزارة الدفاع ،

وقتلت امرأة وأحد ضباط الأمم المتحدة . وقام الإسرائيليون بغارات جوية أخرى داخل سوريا ، أدت إحداها إلى إصابة وإشعال النيران في مستودعات البترول في حمص ، وقصفت مستودعات الوقود ومنشآت الإنزال في عدرا وطرطوس واللاذقية ، كما تم تدمير محطة تصدير البترول الخام العراقي في بانياس على ساحل البحر المتوسط . وزعم الإسرائيليون أيضا أن طائراتهم دمرت أيضا مولدات القوى الكهربية في دمشق وحمص ، وفي غارات أخرى قامت طائرتا فانتوم إسرائيليتان بقصف محطة رادار على جبل باروخ الذي يبلغ ارتفاعه ٧,٠٠٠ قدم في لبنان . وكانت هذه المحطة تستطيع رصد تحركات الطائرات لمسافة تصل جنوباً حتى قناة السويس .

ويقول جلاسمان إنه في التاسع من أكتوبر ، توقفت صواريخ سام ـ ٦ السورية عن الإطلاق بسبب « قرب نفاد الصواريخ » عندما سحب السوريون بعضاً من قواذفهم المتقدمة إلى سهل دمشق ويقول باجاك إنه « في الأيام الثلاثة الأولى من بدء القتال ، بلغ إجمالي عدد الصواريخ من طراز سام التي أطلقت على الجبهتين المصرية والسورية أكثر من ١,٠٠٠ صاروخ ، بما يعكس كثافة نشر الصواريخ التي كانت تفوق كثافة أي نظام معروف لصواريخ سام في العالم ، بما في ذلك الاتحاد السوفييتي » .

وفى الساعة ٠٩٠٠ فى الجنوب قصفت الطائرات المصرية مهابط الطائرات فى المليز وتمادة ، ويقول المصريون إنهم عطلوا الاتصالات بين هذه المهابط وبين القيادة الجوية في العريش . وبعد الظهر ، ألقت الطائرات الإسرائيلية قنابلها على مطاري المنصورة والقطامية في الدلتا ، وتعرضت بورسعيد مرة أخرى . لغارات جوية مكثفة ، ويقول المصريون إنهم أسقطوا ١٦ طائرة فأنتوم وسكاي هوك خلال ذلك اليوم ، التاسع من أكتوبر .

وكان المصريون قد أقاموا حوالي خمسة مواقع لصواريخ سام في الضفة الشرقية ، وفي العاشر من أكتوبر ، كانوا قد نقلوا إليها بضع بطاريات من صواريخ سام ـ ٦ عبر القناة . وفي ذلك اليوم ، زار الفريق الشاذلي الضفة الشرقية ، وقال : « لقد حطم الهجوم المصري أسطورة التفوق الجوي الإسرائيلي ، وجعل من الضفة الشرقية أكبر مقبرة للعدو » وقال وزير الخارجية المصري أن متطوعين أمريكيين يخدمون في سلاح الجو الإسرائيلي ، وهو ما نفته كل من الولايات المتحدة واسرائيل .

وكان مراسلو الصحف الذين يزورون جبهة الجولان مازالوا يؤكدون أن الصواريخ السورية كانت تصيب ثلاثا من كل خمس طائرات إسرائيلية تظهر فى السماء ، وقال أحدهم فى تعليقه إنه كان « مشهداً مألوفاً أن نرى الخيط اللولبي الأبيض لصاروخ سام ـ ٦ في السماء الزرقاء كل يوم ، وربما مرتين يومياً ، ثم انفجاراً من الدخان الرمادي . وتتهاوى طائرة الفانتوم المشتعلة بسرعة ، قبل أن تتفتت ، ونادراً ما كان

المرء يرى مظلات» . إلا أن الإسرائيليين يزعمون أن سلاحهم الجوي ظل نشطاً ، وقال الجنرال بيليد فيما بعد ، « في العاشر من أكتوبر هاجمنا كرسنا وأبو حامد ودمشق وحالس وحلحول وبلاي » . وفي يوم ١١ أكتوبر سقطت طائرة فانتوم إسرائيلية على قرية خيام اللبنانية ، على مسافة حوالي ميلين من الحدود الإسرائيلية » ، وقال الجنرال بيليد فيما بعد « في يوم ١١ أكتوبر ، هاجمنا بلاي وصيقال وحلحول والدمير والمزة والمصارية ودمشق ونقطة ت ـ ٤ في سوريا ، كما هاجمنا ثلاثة مطارات في مصر ، هي الصالحية والمنصورة والقطامية » . وفي يوم ١٢ أكتوبر ، فتحت المدفعية المضادة للطائرات اللبنانية نيرانها على طائرات إسرائيلية كانت تحلق فوق الأراضي اللبنانية . وفي نفس اليوم ، أكد أحد مراقبي الأمم المتحدة أن الصواريخ السورية كانت لا تزال تسقط الطائرات الإسرائيلية على جبهة الجولان . وقامت الطائرات المصرية بغارات جديدة في سيناء ، حيث يقول المصريون إنهم دمروا محطات الرادار في الطاسة وأم مرجان ، وفي الشمال ، اعترف العراقيون بأنهم خسروا ١٢ طائرة ، ولكنهم قالوا إن ستة من الطيارين لم يصابوا بأذى .

وتدريجياً ، زاد الإسرائيليون عدد طلعاتهم الجوية الاجمالية على الجبهتين من ٧٩٠ طلعة في الثامن من أكتوبر ، إلى ١١٠٠ طلعة ف التاسع من أكتوبر ، إلى ١١٦٤ طلعة في العاشر من أكتوبر ، إلى ١٣١٨ طلعة يوم ١١ أكتوبر ، وفي نفس الوقت ، واصلوا قصف الجسور المصرية ، ولكنهم كانوا يحدثون بها أضراراً أكبر بمدفعيتهم بعيدة المدى عيار ١٥٥ مم ، وبدأ العرب يستخدمون صواريخ سام ـ ٧ المحملة فوق مركبات (التي تعرف من الناحية الفنية باسم سام ـ ٩) حيث كانوا يطلقونها دفعة واحدة تضم ثمانية صواريخ في المرة الواحدة . وكان هذا الأسلوب في إطلاق هذه الصواريخ يميل إلى إلغاء تأثير حركات المراوغة والمناورة التي يقوم بها الطيارون الإسرائيليون ، وأمكن بواسطته تدمير كثير من الصواريخ . ويقول هيكل أنه من السادس حتى ١٣ أكتوبر ، قام الإسرائيليون بأكثر من ٢٫٥٠٠ طلعة جوية ضد مصر ، كان ٧٠ في المائة منها ضد القوات البرية ، و٦ في المائة ضد المطارات و١٥ في المائة ضد تجمعات الصواريخ المستقلة . و٩ في المائة ضد بور سعيد وغيرها من المدن .

وكان ١٤ أكتوبر يوم معارك الدبابات الكبرى بالقرب من قناة السويس ، عندما خرج المصريون عن نطاق حماية حائط دفاعهم الجوي ، وتحرك سلاح الجو الإسرائيلي بحرية ، وراحت الطائرات التي كانت تطير أزواجاً توفر المعاونة الأرضية ، حيث كانت تستخدم بشكل جيد قنابل « سمارت » الأمريكية التي حصل عليها الإسرائيليون حديثاً . وخلال انسحاب المصريين ، كانت هذه القنابل هى التي دمرت أكثر من ٥٠ دبابة ، كما أسقطوا أيضا طائرتي ميراج فوق سيناء ، ولما كان معروفاً أن المصريين

لا يملكون طائرات ميراج ، فقد قيل إنهما ليبيتان . وأكد لي ضباط كبار كانوا يعملون في مقر القيادة المصرية (المركز رقم ١٠) أن الرئيس السادات لم يعط « الضوء الأخضر » لاستخدام الطائرات الليبية إلا يوم ١٨ أكتوبر ، وربما كان الطيارون مفرطين في الحماس فحسب . ونفت مصر وليبيا حدوث ذلك بصورة رسمية . وفيما بعد ، ورداً على الانتقادات الموجهة للسلبية الليبية خلال حرب أكتوبر ذكرت وكالة الأنباء الليبية في ١٩ مايو ١٩٧٤ ، أن « سلاح الطيران الليبي قام بحوالي ٤٠٠ طلعة جوية ضد الإسرائيليين » ، وهو ما كان موضع نفي رسمي حتى ذلك الوقت . وبعد ذلك ولأغراض التمييز ، بدأ الإسرائيليون يضعون علامات صفراء كبيرة على طائراتهم الميراج لتمييزها ، وفي الساعة ١٥٣٠ ، قام الإسرائيليون في ثلاث مجموعات تضم الواحدة منها ٢٠ طائرة ، بمهاجمة مطارات الدلتا ، واعترضتهم نحو ٣٥ مقاتلة مصرية . وفي المعركة الجوية التي استمرت ٣٥ دقيقة ، يقول المصريون إنهم أسقطوا ١٦ طائرة اسرائيلية ، بينما خسروا هم تسع طائرات .

وعلى هضبة الجولان ، كانت المدفعية الإسرائيلية تدمر صواريخ سام ، بإصابة هوائيات راداراتها التي تشبه الأطباق بالقذائف ونيران الهاونات ، بما كان يحدث ثغرات في حائط الدفاع الجوي ، كذلك فإن عمل حائط الدفاع الجوي أصبح مهلهلاً وغير ثابت ، بسبب الخسائر وعدم الخبرة . وفي يوم ١٤ أكتوبر ، يزعم الإسرائيليون إنهم دمروا نصف سلاح الطيران السوري ، وإنهم قصفوا في ذلك اليوم مطار دمشق الدولي على مسافة نحو ١٥ ميلاً من العاصمة . وقال السوريون إن طيارين أمريكيين من أصحاب الخبرة في حرب فيتنام كانوا يقودون طائرات سلاح الجو الإسرائيلي ، وقوبل ذلك بالنفي مرة أخرى .

وفي يوم ١٤ أكتوبر ، قامت قوات الكوماندوز الإسرائيلية المحمولة بطائرات الهليكوبتر بغارة على محطة مصرية للرصد الالكتروني في جبل عتاقة . وفيما بعد ، في الندوة الإسرائيلية عن الحرب وفي معرض تعليقه على نقص الصواريخ لدى العرب ، قال الجنرال بيليد إنه « بحلول الوقت الذي قررنا فيه إنزال قوات برية على قمة جبل عتاقة ، كان وضع دفاعات صواريخ سام في المنطقة قد اختلف بصورة بالغة عما كان عليه . فقد كادت أن تصبح غير موجودة ، ولكن المدفعية العادية المضادة للطائرات كانت موجودة » . ورداً على سؤال في نفس الندوة ، عن كيف أمكن لطائرات الهليكوبتر الإسرائيلية تفادي حائط الدفاع الجوي المصري ، قال الجنرال العازر « لقد استخدمنا طرقنا وأساليبنا لاختراقه والنزول بقواتنا أربع مرات متعاقبة ، رغم المعارضة والأسلحة أرض / جو ، بما في ذلك صواريخ سام ـ ٦ التي كانت تتقدم من مطار القطامية لمحاولة إيقافنا » .

وفي يوم ١٩ أكتوبر ، شهدت القاهرة إنذاراً بغارة جوية استمر لمدة ساعة . وفي

الساعة ١٢١٠ بدأت أطول معركة جوية فوق الجزء الشمالي من الدلتا ، واستمرت ٤٥ دقيقة . فقد شن تشكيل إسرائيلي من نحو ٢٤ طائرة فانتوم و ٢٤ طائرة ميراج هجوماً ، وتصدت لهم نحو ٤٨ مقاتلة مصرية تمكنت من ردهم على أعقابهم ، ويقول المصريون إن النتيجة كانت إسقاط سبع طائرات فانتوم وطائرتين مصريتين .

وبحلول يوم ١٦ أكتوبر ، كان الجسر الجوي الأمريكي إلى إسرائيل في ذروته ، حيث نقل دفعة جديدة من الوسائل الالكترونية المضادة الأكثر تحسناً ، والمعروف باسم « تيس » وبعض المدربين الأمريكيين لإعطاء الإسرائيليين برنامجاً تدريبياً سريعاً ومكثفاً على استخدامها . وأحضر الجسر الجوي أيضا صواريخ جو/جو من طراز « سبارو » وقنابل « سمارت » من نوعي « رد آي » و « وول آي » . وأدى استخدام هذه القنابل بالمصريين لأن يتحدثوا عن أربع قنابل تخرج من قنبلة واحدة ، لتصيب كل منها دبابة منفصلة . وتواترت أيضا أنباء عن قيام مشاة البحرية الأمريكية بتجهيز ٨٠ طائرة سكاي هوك لإرسالها إلى اسرائيل . واعترف متحدث رسمي بأنه « تم سحب ٤٩ طائرة من العهدة لإرسالها إلى إسرائيل » وكان الإسرائيليون يطلبون طائرات سكاي هوك على وجه الخصوص حيث كانت تتميز بقدرتها الجيدة على قصف الأهداف الأرضية برشاشاتها .

وكان ١٦ أكتوبر هو اليوم الذي دمر فيه الجنرال شارون سبعة من قواذف الصواريخ ، بما أحدث ثغرة في حائط الدفاع الجوي المصري تمكنت الطائرات الإسرائيلية من اختراقها . وخلال يومين ، اتسعت هذه الثغرة . وأمر كوسيجين وهو في القاهرة بإرسال ٣٠٠ فرد سوفييتي على الفور إلى مصر لتعزيز حائط الدفاع الجوي ، حيث كان يخشى من الغارات الجوية الإسرائيلية ، وخاصة على الهاكستب قاعدة قوات المدرعات وتولى أفراد سوفييت آخرون واجبات السيطرة الأرضية وتفريغ طائرات الإمداد السوفييتية كذلك ، فإن الأفراد السوفييت من المراقبين الأرضيين والمشرفين على التفريغ وغيرهم راحوا يتدفقون على سوريا ، حيث كان الروس يرون أن الأطقم الأرضية السورية تتسم بالبطء الشديد . وفي يوم ١٦ أكتوبر قال السوريون إنهم أسقطوا طائرة أمريكية من طراز « ريان فايربي » (وهى طائرة استطلاع بدون طيار) كانت تطير على ارتفاع ٥٤,٠٠٠ قدم إلى الغرب من دمشق ، وأنهم حصلوا على الكاميرا التي كانت بها سليمة . وفي اليوم التالي ، تم اسقاط طائرة « ريان فايربي » أخرى فوق منطقة القناة .

وفي يوم ١٨ أكتوبر ، نفى الإسرائيليون مرة أخرى استخدام طيارين أمريكيين بينما ردت الولايات المتحدة بأن ٣٠ طياراً من كوريا الشمالية يقودون طائرات سلاح الطيران المصري . وزعم البنتاجون أنهم كانوا في زيارة للتبادل ، وهو ما نفاه المصريون بدورهم ، وفيما بعد ، في الخامس من نوفمبر ، قال وليام كلمنش نائب وزير الدفاع

الأمريكى فى مؤتمر صحفى إن طيارى كوريا الشمالية كانوا « يطيرون فى دوريات دفاعية . ولم يشتركوا في الاشتباكات الحربية » ، وأضاف قائلاً إنه « كان هناك بضعة باكستانيين في المنطقة ممن كانوا يقومون بتوجيه أفراد سلاح الطيران المصري » ويقول جلاسمان إن « حوالي ٢٠ طياراً من كوريا الشمالية كانوا يطيرون في مهام سلبية للدفاع الجوي داخل مصر » . ووصلت مجموعة أخرى من طياري كوريا الشمالية إلى سوريا بعد الحرب . واعترفت الولايات المتحدة بأن عدداً محدوداً من العسكريين الأمريكيين كانوا موجودين في إسرائيل للمساعدة في أعمال الجسر الجوي . ولكنها أصرت بأنه لم تكن هناك قوات مقاتلة . وقال المصريون الذين كانوا يستخدمون طائرات الهليكوبتر في الثغرة على الضفة الغربية لإسقاط النابالم على الإسرائيليين ، مما أحدث كثيراً من الخسائر في الأفراد ، إنهم قد أسقطوا ٢٨١ طائرة اسرائيلية و١٥ طائرة هليكوبتر ولكن بحلول ذلك الوقت لم يكن يمكن الوثوق في بياناتهم على الإطلاق .

وبحلول يوم ١٩ أكتوبر ، وهو اليوم الذي قال فيه المصريون إن الاسرائيليين حصلوا على ٣٥ طائرة فانتوم إضافية من الولايات المتحدة ، كانت الثغرة في حائط الدفاع الجوي المصري قد ازدادت اتساعاً . وزعم الجنرال شارون أنه دمر عشرة قواذف صواريخ ، بينما زعم سلاح الجو الإسرائيلي أنه أصاب ٢٦ موقعاً آخر . بحيث تم بذلك تدمير خط الدفاع الجوي المصري المتقدم . واستولى الإسرائيليون أيضا على مطاري الدفرسوار وفايد . ومن يوم ١٩ أكتوبر فصاعداً ، شن الإسرائيليون ١,٠٠٠ طلعة جوية يومياً لمدة ثلاثة أيام فوق منطقة اختراقهم في الضفة الغربية ، وفي ذلك اليوم ، أفلت ديان من الموت بصعوبة أثناء زيارته للضفة الغربية ، عندما ظهرت فجأة طائرة هليكوبتر مصرية من طراز « مى - ٨ » على ارتفاع يعادل قمم الأشجار ، وراحت تسقط النابالم ، حيث أخطأته بعدة أمتار فحسب ، وتم إسقاط الطائرة الهليكوبتر بالنيران الأرضية .

وفي يوم ٢١ أكتوبر قام المصريون بغارة شملت ٢٠ طائرة على الجسرين الإسرائيليين عبر القناة ، حيث تمكنوا من ضرب قافلة من ست دبابات فوق أحد الجسرين ، فغرقت كل الدبابات إلى قاع الممر المائي . وعندما سحب الفريق أول اسماعيل بطاريات حائط الدفاع الجوي للحيلولة دون الاستيلاء على أسلحتها أو إصابتها ، توفر للإسرائيليين مجال أوسع على الضفة الغربية ، وفي الشمال ، شنت الطائرات الإسرائيلية غارات أخرى على دمشق ، ودارت اشتباكات جوية بين الطائرات الإسرائيلية والسورية .

وفي يوم ٢٢ أكتوبر يوم وقف إطلاق النار الأول ، زعم الإسرائيليون أن المصريين خسروا ٢٤٠ طائرة ، وفي مؤتمر صحفي مصري ، قيل إن الاسرائيليين خسروا ٣٠٣ طائرات و٢٥ طائرة هليكوبتر . ورغم قبول السوريين لوقف إطلاق النار الأول ، كانت

هناك اشتباكات جوية فوق هضبة الجولان يوم ٢٣ أكتوبر ، وفي يوم ٢٤ أكتوبر ، أسقطت الطائرات الإسرائيلية منشورات فوق الجيش الثالث المصري تدعو إلى الاستسلام .

وفي يوم ٢٤ أكتوبر ، سمح للصحفيين الأجانب بدخول بور سعيد للمرة الأولى منذ بدء الحرب . وقال المحافظ اللواء عبد التواب هديب إن الطائرات الإسرائيلية التي تستخدم قنابل من طراز « جويفا » ظلت تغير على المدينة لمدة ١٥ يوماً متعاقبة . ورغم إجلاء أكثر من نصف السكان « حوالي ٢٥,٠٠٠ في ذلك الوقت » في الأيام الأولى من الحرب ، فقد لقى ما لا يقل عن ٢٠٠ مدني مصرعهم وأصيب ٥٠٠ آخرون وكانت المدينة بلا كهرباء . كما انقطعت امدادات المياه العذبة . وقالت حامية بورسعيد أنها أسقطت ٩٢ طائرة إسرائيلية ولكن لم يعترف لها رسمياً إلا بنحو ٤٢ طائرة فقط . وقيل إن اجمالى وزن القنابل التي أسقطت على المدينة يعادل قنبلة ونصفا من القنابل النووية التي تبلغ قوتها ٢٠ كيلوطن (مثل تلك التي ألقيت على هيروشيما في الحرب العالمية الثانية) وبوجه عام كان الإسرائيليون يقصفون المدينة من ارتفاعات عالية . وتم اسكات عدد من مواقع الدفاع الجوي خلال بعض الغارات ، ولكنها عادت إلى الحياة مرة أخرى ، وهو ما كان مفاجأة للمهاجمين الإسرائيليين .

وفي يوم ٢٥ أكتوبر ، أغارت الطائرات الإسرائيلية على بور سعيد مرة أخرى . وفي يوم ٢٦ أكتوبر ، شاركت الطائرات الإسرائيلية في معركة السويس ، وعادت لإسقاط منشورات تدعو الجيش الثالث المصري للاستسلام . ورغم توقف التحركات على الأرض في يوم ٢٨ أكتوبر ، فإن ما يسميه العرب « حروب الاستنزاف » استمرت على الجبهتين حتى توقيع اتفاقيات فك الاشتباك تقريباً . وخلال هذه الفترة ، كان هناك نشاط جوي . وعلى سبيل المثال ، تم إسقاط طائرة فانتوم إسرائيلية في التاسع من نوفمبر على الجبهة المصرية ، ثم في يوم ٢٩ نوفمبر ، وهو يوم إعادة فتح مطار القاهرة الدولي ، تم إسقاط ثلاث طائرات هليكوبتر مصرية أثناء محاولتها إنزال قوات كوماندوز على الشاطىء الشرقي لخليج السويس .

وهناك عدة مجموعات من المزاعم المتناقضة حول الخسائر الجوية في هذه الحرب . فالإسرائيليون يقولون بأنهم قاموا اجمالاً بأكثر من ١١,٠٠٠ طلعة جوية (يقول جلاسمان إنها ١٨,٠٠٠ طلعة جوية) . ويزعمون أنهم أسقطوا ٥٥٠ طائرة عربية ، قتل فيها ٣٥٠ طيارا عربيا ، ويقولون إن ٨٠ في المائة من خسائرهم كانت بسبب النيران الأرضية . ويزعم الإسرائيليون أيضا أنهم دمروا ٣٠ من بطاريات صواريخ سام ، ولكنهم يقولون إن ١٠ في المائة فقط من خسائرهم كانت بسبب صواريخ سام ـ ٦ ، ويعترفون بأنهم خسروا ١١٥ طائرة (منهم ٦٠ طائرة في الأسبوع الأول

من الحرب) ، ٨٠ طائرة فوق هضبة الجولان ، و٣٥ طائرة فوق جبهة القناة ، ويقول هرتزوج إن الإسرائيليين خسروا ١٠٢ طائرة فقط .

ويقدر السوفييت أن الإسرائيليين خسروا ٢٨٩ طائرة ، بينما تقول التقديرات الأمريكية إنها ٢٠٠ طائرة فقط ، وأياً كان الرقم الحقيقي ، فإنه كان كماً كبيراً من الطائرات في وقت قصير . ففي ذلك الوقت ، لم يكن مصنع ماكدونيل للطائرات في الولايات المتحدة ينتج سوى ثلاث طائرات من طراز فانتوم في الشهر . وقال لي اللواء طلاس إنه حسب ما جاء في اعلان ظهر في كل لوحات الاعلانات في معسكرات سلاح الجو الإسرائيلي بعد الحرب ، فإن ١٠٦ طيارين إسرائيليين قد لقوا مصرعهم . ولكن إسرائيل لا تعترف إلا بمصرع نحو ٥٠ طياراً فقط .

وتقدر وزارة الدفاع الأمريكية أن العرب خسروا ٣٦٨ طائرة : المصريون ١٨٢ طائرة ، والسوريون ١٦٥ طائرة والعراقيون ٢١ طائرة ، ويزعم هرتزوج أنهم خسروا ٥١٤ طائرة . ويزعم الإسرائيليون أنهم دمروا ٢٤١ طائرة مصرية ، و١٧٩ طائرة سورية . ولكن الرئيس السادات يعترف بأنه فقد ١٢٠ طائرة فقط ، وفي الندوة الإسرائيلية قيل إن مصر خسرت ٢٢٢ طائرة ، وقاذفة واحدة ، و٤٢ طائرة هليكوبتر و٤٤ من بطاريات صواريخ سام ، بينما خسرت سوريا ١١٧ طائرة وثلاثا من بطاريات صواريخ سام ، إلا أن باجاك يقول إن سوريا خسرت ٢٢٢ طائرة وما يتراوح بين ١٧ و٢٠ من بطاريات صواريخ سام .

وقال لي اللواء طلاس إن الهدف كان يتمثل في قتل أفضل الطيارين الإسرائيليين ، أولئك الذين في « أسراب الصيد » وإنه عندما تحقق ذلك ، « كان طيارونا متكافئين مع الإسرائيليين في التدريب والمهارة » . واستطرد يقول : « لو كان السوريون يمتلكون الفانتوم والإسرائيليون يمتلكون الميج فتأكد أنه ما من طيار اسرائيلي كان سيطير فوق الأراضي السورية » . ويتفق الرئيس السادات مع طلاس بشأن القدرات النسبية للطائرات الأمريكية والسوفييتية . وقال لي طلاس أيضا أن أربعة أو خمسة طيارين إسرائيليين هبطوا في مطارات سورية وسلموا أنفسهم ، وأنه أعطى إحدى طائراتهم الفانتوم إلى الاتحاد السوفييتي وفيما بعد تمت مبادلة ٦٣ طياراً إسرائيلياً أسرهم السوريون بأسرى عرب .

كذلك ، فإن التقارير تتناقض حول الوسائل التي تم تدمير الطائرات بها ، ففي حديثه في الندوة الدولية التي عقدت في القاهرة عام ١٩٧٥ نقل الفريق محمد على فهمي ، القائد السابق لقوات الدفاع الجوي ، عن مصدر غربي نشر تحليلاً لخسائر اسرائيل من الطائرات جاء ، فيه أن ٣٠ في المائة منها كان يرجع إلى الصواريخ المضادة للطائرات و ٣٠ في المائة إلى المدفعية م / ط ٢٣ مم الرباعية ذات التوجيه الراداري وغيرها من المدافع ، و ١٥ في المائة خلال القتال الجوي ، إلا أنه عجز عن

تقديم سبب واضح لخسارته النسبة الباقية وقدرها ٢٥ في المائة . وهو قول لابد أن الفريق فهمي كان متفقاً معه ، وفيما بعد قال لي الفريق فهمي إنه من بين كل خمس طائرات اسرائيلية تم اسقاطها اسقطت الصواريخ اثنتين والمدافع واحدة ، وقال ان الوسائل الالكترونية المضادة لم تكن مؤثرة بالصورة التي يقولها الإسرائيليون . ويقول جلاسمان أنه من بين ١٢٠ طائرة اسرائيلية تم اسقاطها . اسقطت صواريخ سام ـ ٦ ، نحو ٨٠ طائرة ، بينما سقط معظم الباقي بنيران المدافع السوفييتية ، ومن المثير للاهتمام أن نسبة الطائرات الأمريكية التي أسقطتها الصواريخ في ڤيتنام كانت تبلغ نحو ١٧ في المائة ، وفي حديثه مع صحيفة « **التايمز** » تناول الرئيس السادات ذلك بالتعليق فقال أن « ثلث طائرات الفانتوم « الإسرائيلية » وكل ما كانوا يتباهون به قد سقط بفضل الصواريخ أرض /جو . إننا نعيش في عصر الصواريخ . إن الصواريخ أرض /جو قد حرمت إسرائيل من سيادتها الجوية » .

وأسقط حائط الدفاع الجوي العربي عدداً من الطائرات العربية ، وقال تقرير أمريكي أنه تم اسقاط ٣٥ طائرة مصرية بسبب أخطاء في الحائط ، ويقول جلاسمان إن المصريين « أسقطوا فيما يبدو عدداً من طائراتهم » وأن « الطائرات المصرية كانت تصادف صعوبة أكبر . (من الطائرات السورية) في ايجاد طرق عودتها » . وقال أيضا إنه « حدثت بعض الأخطاء في إطلاق الصواريخ » .

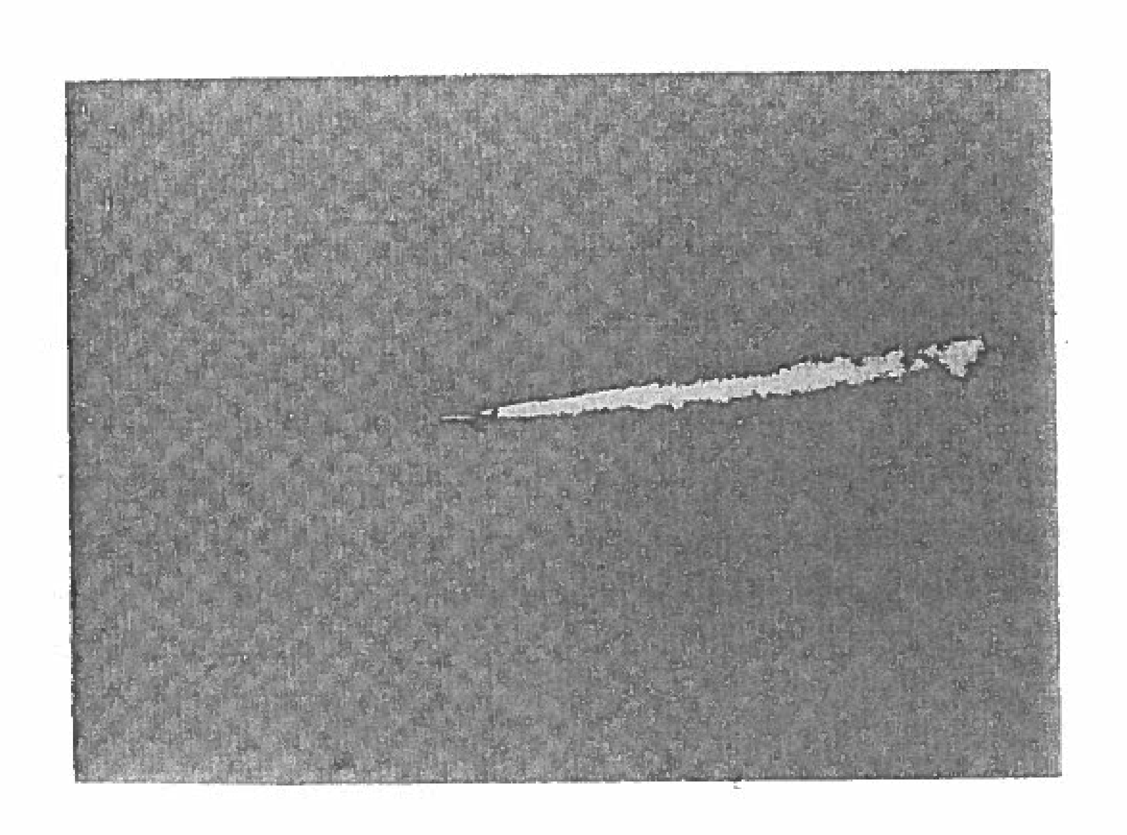
وكان واضحاً أن الصواريخ سام ـ ٦ تسبب قلقاً للإسرائيليين ، الذين لم يكن لديهم حتى أبسط الوسائل الالكترونية المضادة . مثل الصندوق الأسود الذي يحذر الطيار من أن جهازاً للرادار قد رصد طائرته في شبكة أشعته . كذلك ، ما كانوا يعرفون كثيرا عن رادار البحث والتتبع المصري ، الذي يستطيع تغيير تردداته بسرعة . وبالتالي ما كان يمكن تضليله بالتشويش . وكانت طائرات سكاي هوك الإسرائيلية مكشوفة بوجه خاص أمام صواريخ سام ـ ٦ . ورغم أن الإسرائيليين استولوا على ست وحدات مدمرة من صواريخ سام ـ ٦ ، فإن مصدراً في البنتاجون اعترف فيما بعد بأنهم فشلوا في تحديد جهاز توجيه الصواريخ ، ودون فحص جهاز التوجيه ، لم يكن بمقدور الخبراء الفنيين الأمريكيين ابتكار وسيلة الكترونية مضادة للتصدي للصواريخ من هذا النوع . وقال المتحدث باسم البنتاجون إن « القوات المصرية المتراجعة نزعت جهاز الرادار السري من صواريخ سام ـ ٦ السوفييتية التي تخلوا عنها خلال الهجوم الإسرائيلي على مصر » . أما المصريون فيقولون إن الصورة التي أكثر الإسرائيليون من استخدامها وترويجها لصواريخ سام ـ ٦ التى استولوا عليها هى لمجرد دمية خشبية .

ولابد أن ينتهي المرء إلى استنتاج أنه على حين كانت الوسائل الالكترونية المضادة

الأمريكية المتقدمة قادرة على التصدي لصواريخ سام ـ ٢ المحسن وسام ـ ٣ ، فإنها كانت عديمة الفعالية إزاء صواريخ سام ـ ٦ التي تم تدمير معظمها بالمدفعية الأرضية التي كانت تصيب هوائياتها ، وحتى مع ذلك ، فإن الإسرائيليين يزعمون عن حق أن وجود وكفاءة سلاحهم الجوي قد اضطرا العرب إلى الاقتصار على أهداف محدودة ، حيث لم يكن بمقدورهم أن ينجحوا في التقدم خارج نطاق حماية حائط الدفاع الجوي العربي . ويلاحظ ليتواك بشكل مثير للاهتمام أن « هناك من الأسباب ما يدعو للاعتقاد بأن الجيوش العربية أطلقت خلال حرب أكتوبر صواريخ أرض /جو أكثر مما في كل مخازن قوات حلف شمال الأطلنطي في أوروبا » .

وكان التكتيك العربي يتمثل في اطلاق صواريخ سام ـ ٦ وسام ـ ٧ في دفعات تشمل عدة صواريخ في وقت واحد لتحييد قدرة الطائرات الإسرائيلية على المناورة السريعة . وكان الإسرائيليون يطلقون صواريخ هوك أزواجاً ، ويزعمون أنهم أسقطوا ٢٢ طائرة في ٢٥ عملية إطلاق من هذا النوع . وكانت الطائرات الإسرائيلية التي تحمل وسائل الكترونية مضادة بدلاً من الأسلحة ، تميل لأن تطير على ارتفاعات أقل ، مما كان يجعلها فى مرمى صواريخ سام ـ ٦ وسام ـ ٧ .

وفي الحقيقة ، فإن سلاحي الطيران المصري والسوري لم يشتركا مطلقاً في القتال بشكل كامل ؛ وبالتالى لم يتكبدا خسائر فادحة ؛ ولكن حدث كثير من الاشتباكات الجوية عندما كان الإسرائيليون يعترضون الطائرات العربية التي تقوم بغارات على أهداف قريبة . وتتناقض التقديرات بشأن نتائج الاشتباكات الجوية ولا يعترف الإسرائيليون رسمياً إلا بخسارة أربع طائرات فحسب بهذا الشكل (وإن كان هرتزوج يقول إنها خمس طائرات) . وقال لي اللواء مبارك إنه من بين كل خمس طائرات اسرائيلية تم إسقاطها كانت المقاتلات المصرية هي التي اسقطت اثنتين منها . وأن المقاتلات الاعتراضية المصرية أسقطت أكثر من ٨٠ طائرة فانتوم وميراج اسرائيلية . وفي وصفه لمعارك أيام ٧ و٨ و١١ أكتوبر قال اللواء طلاس : « إنه عندما كان يتم وقف عمل حائط الدفاع الجوي لتنطلق طائراته الميج ـ ٢١ والميج ـ ١٧ لتهاجم طائرات الفانتوم الإسرائيلية كانت النتيجة ثلاثة مقابل اثنين لصالح السوريين وهي نتيجة أفضل مما كنا نتوقع » وأعلن المصريون رسمياً أنهم نفذوا ٦,٣٧٦ طلعة جوية خلال الفترة من ٦ إلى ٢٠ أكتوبر ، وقال اللواء محمد شاكر عبد المنعم إن بعض الطيارين المصريين كانوا يقومون بست أو سبع طلعات يومياً وأن « بعضهم شارك في القتال الجوي في نفس اليوم الذي هبطوا فيه بالمظلات ، وأن بعض الطيارين أسقطوا أربع أو خمس طائرات اسرائيلية في اشتباك جوي واحد » وكان سلاحا الطيران المصري والعراقي فقط هما اللذان يملكان قاذفات استراتيجية ، ولكنهما لم يوجها ضربات داخل اسرائيل نفسها . مع بعض الاستثناءات الطفيفة .



طائرة ميج مصرية تشتعل فيها النيران فوق جبهة قتال الضفة الغربية يوم ١٩ اكتوبر ١٩٧٣ .

واستخدم الإسرائيليون طائرات الهليكوبتر لنقل الذخائر والامدادات الحيوية إلى الجبهتين ، والعودة بالجرحى ، أما المصريون فكانوا يميلون إلى استخدام طائراتهم الهليكوبتر كطائرات قتال ، مثلما فعل الأمريكيون في فيتنام ، وبالتالي ، فقد تكبدوا خسائر فيها ، ويعترفون بأنهم خسروا ما لايقل عن ١٥ طائرة هليكوبتر بينما يقول الاسرائيليون إنها ٤٢ طائرة . وفيما بعد ، استخدم المصريون طائراتهم الهليكوبتر ، التي كانت تعاني دائماً من أعطال ميكانيكية ، في الطيران على ارتفاعات توازي قمم الاشجار لإلقاء النابالم على الجسور الإسرائيلية عبر القناة وأيضا لتحديد الأهداف للطائرات المصرية الأخرى ، ويقول المصريون إنه ما من طائرة من طائراتهم قد أصيبت وهى في عنابرها الخرسانية ، إلا أن الجنرال بيليد قال بشكل قاطع في الندوة الإسرائيلية : « إننا متأكدون من أنه تم تدمير ٢٢ طائرة عربية وهى في عنابرها » .

وكان هناك أيضا ما هو معهود من مصادفات غير مقصودة ، فعلى سبيل المثال تمكنت طائرة هليكوبتر مصرية من إسقاط طائرة فانتوم إسرائيلية بصاروخ ، عندما حاولت طائرة الفانتوم أن تطير أسفل الطائرة الهليكوبتر . كما أسقط مدفع إسرائيلي مضاد للدبابات طائرة هليكوبتر مصرية كانت تهاجم جسراً اسرائيلياً . أما بالنسبة للشائعات التي تتردد وتستمر خلال الحرب . فكانت إحداها تتمثل فيما قاله المصريون من أنه اعتباراً من يوم ١٨ أكتوبر فصاعداً كان نوع جديد من الطيارين الأكثر خبرة بكثير هو الذي يقود الطائرات الإسرائيلية وقالوا بأن هؤلاء الطيارين هم من المرتزقة الأجانب قاصدين الأمريكيين وربما كان جانب من الاجابة على ذلك يتمثل في تغيير التكتيكات الذي اضطر إليه الإسرائيليون ، إلى جانب الخبرة التي تحققت خلال أيام الحرب . بينما يتمثل جانب آخر فى الطيارين الإسرائيليين الذين يحملون جنسية مزدوجة .

ويقول الإسرائيليون أنه قرب نهاية الحرب كانت الروح المعنوية للإسرائيليين منخفضة للغاية ، بحيث كان يتعين ربط الطيارين الإسرائيليين بالسلاسل في مقاعد طائراتهم ، ولكن لا يمكن بالكاد تصديق ذلك ، وتم تداول صورة فوتوغرافية - رأيت نسخة منها - تبين طياراً اسرائيلياً قتيلاً ، وقد تم تقبيد معصمه بقيد حديدي إلى قضيب في جسم طائرته المحطمة ، ولكن لم يطرح أي تفسير مقبول لذلك . وفيما بعد شكت الحكومة الإسرائيلية للصليب الأحمر الدولي من أن مالا يقل عن ستة طيارين اسرائيليين قد تم الاجهاز عليهم بالرشاشات بعد هبوطهم بالمظلات في سوريا .

وتلخيصاً لما سبق ، يمكن للمرء القول بأن التفوق العددي في الطائرات الذي كانت مصر وسوريا تتمتعان به على اسرائيل ، كان يبلغ نسبة اثنين إلى واحد ، ولكن لابد من استنتاج أن الطيارين العرب لم يكونوا بنفس كفاءة الطيارين الإسرائيليين في هذه

الحرب ، رغم أن الفارق بين الجانبين قد ضاق بدرجة كبيرة ، ولاسيما من الجانب المصري . كما ضاق الفارق التكنولوجي أيضا ، حيث قام المصريون بتشغيل حائط الدفاع الجوي على سبيل المثال ، وحقيقة أنهم تمكنوا من تشغيله أصلاً ، ناهيك عن تشغيله بصورة جيدة جداً إنما تشير إلى مدى تقدمهم في هذا المجال . وقال لي المصريون إن آليات الطائرات السوفيتية كانت شديدة التعقيد ، وأن كل الأنواع الأخرى كانت أسهل كثيراً فى تشغيلها واستخدامها وصيانتها .

والاستنتاج البارز الذي أدهش أولئك القائلين بانتهاء عهد المدافع التقليدية لصالح الصواريخ ، إنما يتمثل في أنه قد ثبت أن أفضل رد على الطائرات المهاجمة إنما هو المدافع المضادة للطائرات ، مثل المدفع ٢٣ مم الرباعى الموجه راداريا ، إلا أنها تسرف إسرافاً شديداً فى استهلاك الذخيرة ، والتعليق الذى يورده هرتزوج مثير للاهتمام ، حيث يقول : « فيما يتعلق بسلاح الجو ، فلابد أن ندرك أن القوات البرية ستكون أقل تدليلاً فى المستقبل ، إذ سيتعين عليها أن تتعود على عدم توافر نفس المعاونة التى اعتادتها » . وقال الجنرال هود ، وهو قائد سابق لسلاح الجو الإسرائيلى ، إن « أوقية من الوسائل الالكترونية المضادة تعادل رطلاً من الطائرات الإضافية ، فى وجود الدفاع الجوى الحديث المكثف » وعلى الجانب الآخر ، قال اللواء الجمسى إن « سلاح الطيران المصرى هو الذى بدأ الحرب وأنهاها » .

الفصل الرابع عشر

الحرب فى البحر

« كان التفوق المصرى فى البحر الأحمر كاملا »

الادميرال بنيامين تيليم
قائد البحرية الاسرائيلية
فى الندوة الإسرائيلية

لم تؤثر القوات البحرية للدول المتحاربة بشكل مادى على نتيجة حرب أكتوبر ؛ وكانت ثلاث فقط من الدول المعنية ـ هى مصر وإسرائيل وسوريا ـ هى التى تملك قوات بحرية على قدر من الأهمية . فالقوات البحرية للأردن لم تكن تستحق الذكر ؛ أما العراق ، فلم يكن لديه سوى حفنة من زوارق الدوريات ، وكانت جميعها فى الخليج . أما البحرية المصرية ، وهى أكبرها ، فكانت تتمتع بقدرات استراتيجية وتكتيكية على حد سواء . وكان يمكن أن تؤثر على النتيجة لو كانت الحرب قد استمرت لفترة أطول ، حيث كانت تفرض حظراً على الإمدادات ، ولاسيما البترول ، المتجهة إلى إسرائيل ـ وهو حصار كان قد بدأ يشدد من قبضته على إسرائيل . أما البحرية الإسرائيلية الأصغر حجماً ، فيمكن النظر إليها على أنها قوة هجومية تكتيكية . أما البحرية السورية الأصغر من ذلك ، فلا يمكن النظر إليها كدفاع محلى عن السواحل والموانىء .

وبصورة طبيعية إلى حد ما ، لا تحتل الأساطيل فى الشرق الأوسط سوى أولوية متأخرة فى الميزانيات والمكانة العسكرية بالنسبة للجيوش والقوات الجوية ، لأن السفن بطيئة فى التحرك من مكان إلى آخر ، بالمقارنة بالطائرات الحديثة مثلاً . كذلك ، فإن حقيقة عدم حدوث أية صدامات بحرية كبيرة تمخضت عن خسائر مؤكدة فى حرب ١٩٦٧ ، كانت تميل إلى التقليل من شأن الطلب على البحرية .

وكان على البحرية المصرية ، التى تضم قوات حرس السواحل وقوة كوماندوز بحرية صغيرة ، أن تحمى الساحل المصرى على البحرين المتوسط والأبيض . وبقوتها التى تزيد على ١٥,٠٠٠ فرد ، فقد كانت تتألف أساساً من ١٢ غواصة (يصر الإسرائيليون أنها ١٦ غواصة) ، وثمانى مدمرات وفرقاطات . و١٩ زورق صواريخ (يصر الإسرائيليون أنها ٢٥ زورقاً) ، و٣٤ زورق طوربيد ، و١٤ كاسحة ألغام ، وسفن صغيرة أخرى من بينها وحدات إنزال . وكانت قيادة البحرية وقاعدتها الرئيسية فى الأسكندرية ؛ وكانت هناك قواعد أخرى فى الغردقة وسفاجة والقصير على ساحل البحر الأحمر ؛ وكان هناك العديد فى المحطات البحرية الصغيرة الأخرى ومنشآت التزود بالوقود على ساحل البحرين المتوسط والأحمر . ونظراً لقرب بورسعيد من الوحدات العسكرية الإسرائيلية والنقاط الحصينة فى

خط بارليف ، ولاسيما نقطة بودابست على ساحل البحر المتوسط ، فإن المصريين لم يستفيدوا من منشآتهم البحرية هناك .

وكانت الكلية البحرية فى أبو قير تعطى لطلابها دورة دراسية تدريبية مدتها أربع سنوات ؛ وتستوعب أكثر من ٤٧٠ طالباً فى الدفعة الواحدة . وكانت الدورة الدراسية أقل من ذلك بالنسبة لضباط الاحتياط ، الذين كان معظمهم ـ مثلما كان الحال فى الجيش وسلاح الطيران ـ ممن تم استبقاؤهم فى الخدمة العسكرية الفعلية منذ حرب ١٩٦٧ ، وكان ذلك يعنى أن البحرية المصرية كانت تتمتع بالكامل بعناصر الضباط ذوى الخبرة . أما الجنود العاديون ، فكانوا من المجندين الذين خدموا لمدة ثلاث سنوات ، ثم أصبحوا جنود احتياط لمدة تسع سنوات أخرى ، وكان المتطوعون ، الذين يتم قبولهم على أساس مدد أطول ، فكانوا يشكلون ضباط الصف والفنيين المهرة مثل عمال تشغيل أجهزة الرادار . ودائماً ما كان هناك كثير من المتطوعين للخدمة طويلة الأجل فى البحرية .

وقال لى الفريق بحرى فؤاد ذكرى قائد البحرية إنه فى البداية استوعبت البحرية المصرية الأساليب والتقاليد البريطانية ، ولكن حتى فى الخمسينيات كانت أميل لأن تعتبر « القريب الفقير للقوات المسلحة » . وقال إنه فى حرب عام ١٩٤٨ ضد الإسرائيليين ، لم يكن هناك سوى بضع مناوشات بحرية ، مجرد مناوشات ، ولكن لم تحدث أية صدامات جادة . وقال إنه عندما بدأت حرب عام ١٩٥٦ ، كانت البحرية قد بدأت فحسب تتلقى المعدات السوفيتية ، ولكن « لم يتوافر وقت لإتقان العمل عليها » .

وفى عام ١٩٦٧ ، وعندما بدأ تصاعد التوتر الذى سبق اندلاع الأعمال الحربية ، كانت البحرية المصرية تضم سفناً أكبر مما لدى الإسرائيليين . وكان دور البحرية المصرية يتمثل فى حماية الموانىء والسواحل . وأيضاً السيطرة على مضيق تيران (وهو ممر مائى مكشوف وبالغ الضيق يؤدى من البحر الأحمر إلى ميناء إيلات الإسرائيلى الجنوبى ، وأيضاً إلى ميناء العقبة الأردنى المجاور له) . وقال لى الفريق ذكرى إنه « لم يكن لنا أية سفن فى المياه الإسرائيلية عند اندلاع الحرب ؛ ولم يكن هناك وقت لنشرها . وفى تلك الحرب ، لم تكن بحريتنا هجومية بما فيه الكفاية ؛ ولم تكلف بأية مهمة هجومية » . واستطرد يقول إن البحرية المصرية لم تستغل قوتها البحرية المتفوقة فى وقت كانت هى البحرية الوحيدة (باستثناء بحرية الاتحاد السوفيتى وبعض دول حلف وارسو) التى تمتلك صواريخ سطح/سطح على سفنها .

وسلطت الأضواء على البحرية المصرية يوم ١٢ يوليو ١٩٦٧ ؛ عندما أغرقت المدمرة الإسرائيلية « إيلات » (التى كانت من قبل السفينة البريطانية « زيلوس ») ، ودخلت بذلك التاريخ البحري باعتبارها أول بحرية فى العالم تغرق سفينة معادية بصاروخ موجه . وكان زورقا صواريخ مصريان من طراز « كومار » قد اشتبكا مع المدمرة قبالة ساحل سيناء الشمالى . وأطلقا عليها ثلاثة صواريخ سوفيتية من طراز « ستيكس » على مدى يتجاوز ١٢

ميلاً ، مما أدى إلى إغراقها ومصرع ٤٧ من أفرادها . وقال لى الفريق ذكرى ، « لم يكن هناك أى مستشارين سوفييت على زوارق صواريخنا فى ذلك الوقت . كانت عملية مصرية بالكامل ؛ ولم يعرف السوفييت بها إلا بعد وقت من إنجازها » .

وكان هناك اتجاه فى التفكير يدعو إلى التخلى عن المدافع والاعتماد على الصواريخ الموجهة ، لأنه ، على العكس من قذائف المدافع العادية ، فإن المقذوفات الصاروخية يمكن تغيير وتحويل مسارها بعد إطلاقها . كذلك فإن الروس . تأثراً منهم بالعدد الذى تم إغراقه من سفن الحلفاء الكبيرة والمتوسطة الحجم خلال الحرب العالمية الثانية ، وحيث كانوا بسبيلهم لتشكيل بحرية عالمية ضخمة ، فإنهم كانوا يميلون إلى تفضيل الصواريخ الموجهة على المدافع التقليدية . وطوروا مفهوم السفن الصغيرة السريعة المسلحة بصواريخ سطح ، سطح ، التى تعمل فى مياه سواحلها أو سواحل الدول الصديقة . وكانت مصممة بالشكل الذى يتيح لها الاشتباك مع الوحدات البحرية المعادية على مدى يتراوح بين ٢٢ و٢٨ ميلاً ، وهى مسافات كانت تعتبر متقدمة فى المجال الفنى لحقبة الخمسينيات . وكان المبدأ البحرى المقبول بوجه عام ، والثابت فى الفكر البحرى منذ أيام اللورد نيلسون وما قبله ، يتمثل فى أنه فى أى اشتباك ، تكون السفينة التى تطلق نيرانها أولاً هى التى تخرج من الاشتباك منتصرة ؛ وكان يستنتج من ذلك بشكل طبيعى أن السفينة المسلحة بمدفع ذى مدى أطول إنما تتمتع بميزة حيوية .

وفى وصفه لهذا النوع الجديد من السفن الصغيرة وسلاحه الرئيسى فى حديث فى الندوة الدولية الإسرائيلية ، قال الأدميرال بنيامين تيليم قائد البحرية الإسرائيلية إن « المفهوم الروسى يقوم على البساطة بالنسبة للعامل الذى يتولى التشغيل ، وعلى الأعداد الكبيرة من الزوارق والصواريخ ، وعلى المدى البعيد والقدرة على الإصابة » . وكانت زوارق الصواريخ التى يتم إنتاجها للبحرية السوفيتية مسلحة بالصاروخ سطح/سطح « ستيكس » الذى يبلغ مداه نحو ٤٠,٠٠٠ متر (حوالى ٢٥ ميلاً) . وكانت هذه الزوارق تتمتع بسرعة الاندفاع وتوجيه ضربتها بسرعة ، اعتماداً على التعرف المبكر على الهدف المعادى ؛ وبمجرد إطلاق صواريخها . فإنها تسارع بالانسحاب من الاشتباك .

وقد ظهر نوعان رئيسيان من زوارق الصواريخ فى البحرية السوفيتية : طراز « كومار » الذى يزن ١٠٠ طن ، وهو مسلح بزوج واحد من قواذف صواريخ ستيكس ، وبدأ المصريون يتسلمونه فى عام ١٩٦٢ ؛ وطراز « أوسا » الذى يزن ١٦٠ طناً ، والمسلح بزوجين من قواذف صواريخ ستيكس ، وقد بدأ يصل إلى الأسكندرية عام ١٩٦٦ ، وكان الطرازان مسلحين أيضاً بأسلحة بحرية خفيفة . وكانت سرعتهما تتجاوز ٤٠ عقدة ، وهو ما كان يعتبر سريعاً جداً فى ذلك الوقت . وكانت هذه الزوارق الصاروخية السوفيتية من طرازى كومار وأوسا أول زوارق من نوعها تحصل عليها دولة من غير الأعضاء فى حلف

وارسو ؛ وبحلول منتصف عام ١٩٦٧ ، كانت مصر تمتلك ١٢ زورقاً من طراز أوسا ، وستة زوارق من طراز كومار ، كلها مسلحة بصواريخ ستيكس .

وبعد حرب ١٩٦٧ ، كانت هناك عملية إعادة تنظيم وتطهير فى البحرية المصرية ، إلا أن الانتصار الذى حققته بإغراق المدمرة الإسرائيلية « **إيلات** » أنقذها من عمليات العزل والإقالة الواسعة التى تمت فى الجيش وسلاح الطيران . وأعيد تحديد المهمة الأولى للبحرية لتصبح حماية القواعد البحرية من الهجمات الإسرائيلية . وخلال حرب الاستنزاف ، من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٠ ، قامت البحرية بعمليات فى عدة مناسبات ، حيث قصفت أهدافاً برية فى شمال سيناء ، وكانت ترد بين الحين والآخر بإطلاق النيران على الطائرات الإسرائيلية المهاجمة . وكانت وحدات الكوماندوز البحرية تقوم بغارات ضد المواقع الساحلية الإسرائيلية ومنشآت البترول على الجانب الشرقى من خليج السويس ، باستخدام صواريخ غير موجهة فى سفنها الصغيرة .

وبطبيعة الحال ، كان الفريق ذكرى ضمن كبار الضباط الذين تولوا التخطيط **لعملية الشرارة** ، **ثم عملية بدر** ، ومنذ توليه قيادة البحرية المصرية وهو يجهزها حقاً للقتال . فقد قام بوجه خاص بتعزيز وتدريب قوة البحر الأحمر ، التى كانت موجودة هناك منذ عام ١٩٦٩ ، وكانت تقوم بعدد من تدريبات الاتصالات والانتشار فى منطقة البحر الأحمر . وكان يتعين على الفريق ذكرى الانتهاء من وضع خططه وتقديمها إلى الرئيس السادات بحلول شهر يناير ١٩٧٣ ؛ وبمجرد إقرارها ، بدأ استعداداته . فعلى سبيل المثال ، تم إرسال بعض الغواصات إلى سفاجة على البحر الأحمر ، وقد وصلت إلى هناك بالإبحار عن طريق رأس الرجاء الصالح لأن قناة السويس كانت مغلقة . ووضعت أيضاً ترتيبات لكى تستخدم المدمرات المصرية ميناء عدن فى اليمن الجنوبية ؛ وأجريت مفاوضات مع باكستان لإجراء إصلاحات بحرية واستخدام منشآت الأحواض الجافة بها . ونظراً لأن البحرية لم تكن تمتلك عنصراً جوياً ، فقد تقرر أن تعمل سفنها المتوسطة خارج دائرة عمل سلاح الجو الإسرائيلى فقط ، وأن تعمل سفنها الأصغر حجماً فى الليل بشكل أساسى .

وكانت السرية وحسن اتخاذ المواقع أمرين يتسمان بالأهمية ؛ وبحلول نهاية سبتمبر ١٩٧٣ ، كان قد تم نشر عدد من السفن المصرية فى منطقة واسعة . وفى الأسبوع الذى بدأ فى أول أكتوبر ، تم خروج أكثر من ٥٠ وحدة بحرية إلى البحر . وأرسلت مجموعة منها إلى ليبيا لتهديد طريق البحر المتوسط واستدراج زوارق الصواريخ الإسرائيلية ، بينما تم إرسال ثلاث مدمرات مصرية إلى ميناء عدن . وكانت المهمة الأساسية تتمثل فى تعطيل طرق الملاحة البحرية من وإلى إسرائيل ، وحرمانها من الإمدادات والبترول . وباختصار ، كان على البحرية أن تفرض حصاراً بحرياً على إسرائيل ؛ ولكن الفريق ذكرى وصف لى هذه الإستراتيجية بشكل أكثر تواضعاً بأنها مجرد القيام « بأعمال ضد المواصلات البحرية » . ولم يكن يستخدم تعبيرات فجة من قبيل « الحصار الشامل » ، مثلما فعلت

بريطانيا فى الحربين العالميتين . وفى الساعة ١٣٠٠ من يوم السادس من أكتوبر ، أرسل الفريق ذكرى إشارة إلى غواصاته فى سفاجة ومدمراته فى ميناء عدن بالبدء فى الأعمال الحربية فى الساعة ١٨٠٠ ؛ وبإغلاق الطريق أمام الملاحة بأسرها فى مضيق تيران وخليج السويس ومضيق باب المندب ، وكما ذكرنا من قبل ، فإن الحكومة المصرية كانت قد حددت مناطق القتال فى البحر ، وحذرت السفن لكى تبتعد عنها .

وليس هناك ما يقال عن البحرية السورية سوى أنها كانت صغيرة وتفتقر إلى الخبرة ، حيث لم تكن قد تشكلت إلا فى وقت حديث نسبياً . وكان إجمالى أفرادها يقل عن ٣,٠٠٠ فرد ؛ وكانت تتألف (حسب ما يقوله الإسرائيليون) من حوالى ٤٠ سفينة خفيفة ، من بينها ما لا يقل عن تسعة زوارق صواريخ و ١٧ زورق طوربيد . وكان مؤكداً أن سوريا تمتلك ستة زوارق صواريخ من طراز كومار مسلحة بصواريخ ستيكس ، وثلاث كاسحات ألغام سوفيتية من طرازت ـ ٤٣ ، وما لايقل عن ثلاثة طرادات من طراز نانوشكا ، وهى أحدث الطرادات السوفيتية . وكانت قد وصلت لتوها إلى سوريا ؛ وكانت أحدث طراز سوفييتى من سفن الصواريخ يظهر فى البحر المتوسط تحت علم غير سوفييتى . وكانت هناك مجموعة صغيرة من المستشارين السوفييت فى قيادة البحرية السورية فى اللاذقية . ولكن ليس هناك أى أدلة قوية على أن أفراداً سوفييت كانوا موجودين بشكل فعلى على ظهر أى من السفن التى اشتركت فى العمليات خلال حرب أكتوبر . وكانت مهمة البحرية السورية ، التى كانت هى الأخرى أشبه بالقريب الفقير غير المرغوب فيه ، تتمثل فى حماية موانىء سوريا الرئيسية ـ اللاذقية وطرطوس وبانياس ـ وساحلها المطل على البحر المتوسط .

أما البحرية الإسرائيلية ، فيمكن أن يقال عنها أكثر من ذلك ؛ رغم أنها أيضاً كانت صغيرة بالمقارنة بالأفرع العسكرية الإسرائيلية الأخرى ؛ كما كانت تعتبر نفسها أيضاً مثل القريب الفقير فيما يتعلق بالأولوية والمعدات والمكانة ، وبعد الإشادة بها لاستيلائها على مدمرة مصرية فى حرب ١٩٥٦ ، فقد أصبحت منبوذة مرة أخرى بسبب سلبيتها النسبية فى حرب ١٩٦٧ . وتحت قيادة الأدميرال تيليم ، كانت تتألف من نحو ٣,٠٠٠ جندى نظامى ، بالإضافة إلى حوالى ١,٠٠٠ آخرين من المجندين فى مختلف مراحل التدريب ؛ وكان قوامها يمكن أن يصل إلى ٥,٠٠٠ جندى عند التعبئة الكاملة . وكانت تضم قوة كوماندوز قوامها ٥٠٠ جندى ، من بينهم ضفادع بشرية . وكانت تمتلك ما لا يقل عن ثلاث غواصات ومدمرتين وحوالى ٤٠ سفينة أصغر حجماً ، من بينها ١٢ زورق صواريخ من طراز « سار » مسلحة بصواريخ « جابرييل » وأربعة زوارق طوربيد ، وعشر سفن إنزال ، وسفينتان من طراز « ريشيف » .

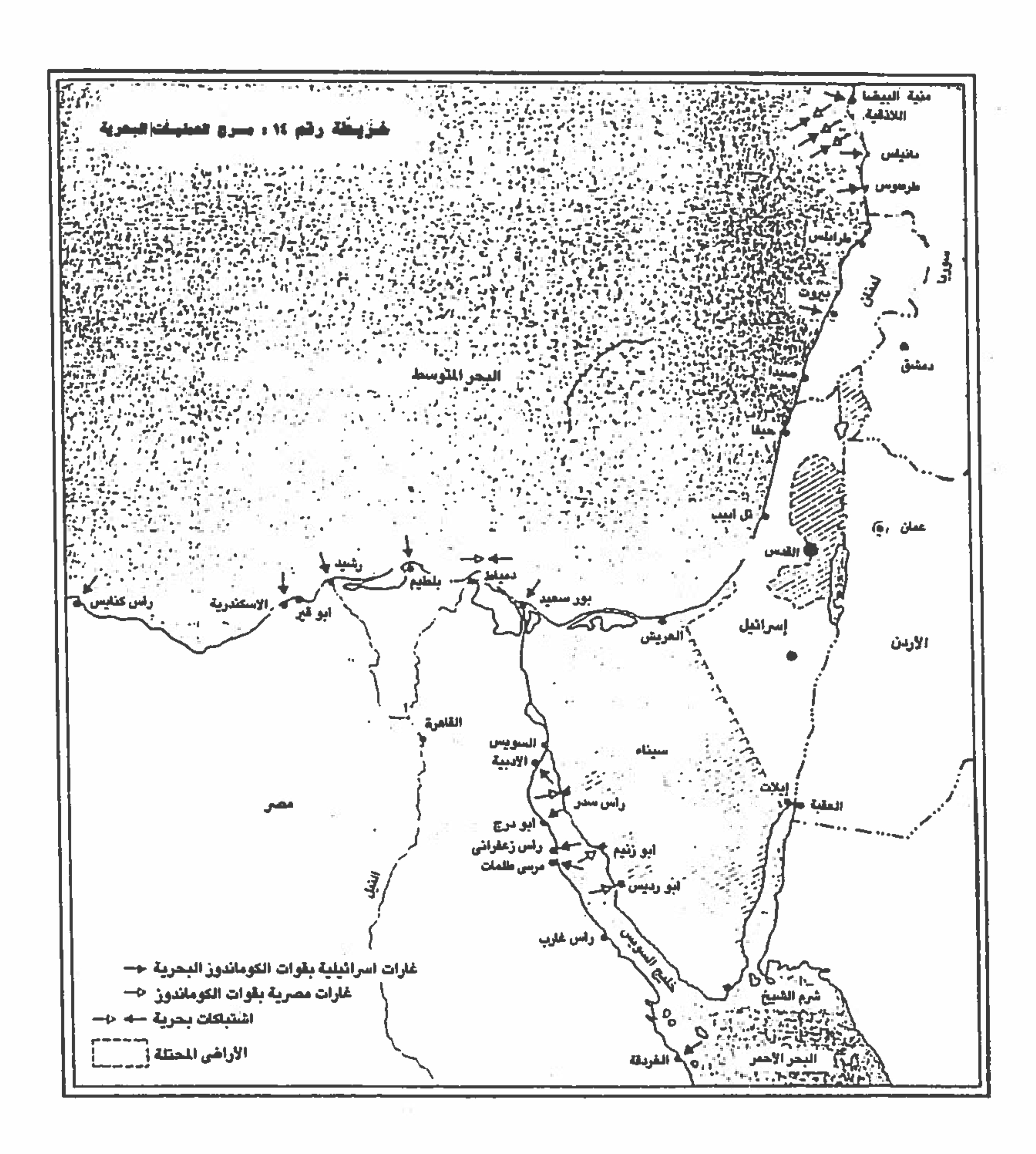
وقد ترك إغراق المدمرة « إيلات » بصاروخ سوفييتى أثراً عميقاً على الفكر البحرى الإسرائيلى ، ودفع الإسرائيليين للبحث عن مفاهيم جديدة للحرب البحرية ، وأسفر ذلك فى

إسرائيل أيضاً عن نموذج زوارق الصواريخ ، الذى يحمل اسم « **ميفتاخ** » ، فى ديسمبر ١٩٦٧ . وأعقب ذلك فترة من التجارب والتطوير أسفرت عن مواصفات دفعت الحكومة الإسرائيلية لأن تطلب ١٢ من سفن الدورية الصغيرة السريعة ، المعروفة بطراز « سار » . من الحكومة الفرنسية فى وقت كانت العلاقات الإسرائيلية مع الرئيس ديجول ودية . وكان قد تم تسليم سبعة زوارق منها لإسرائيل عندما فرض ديجول حظراً على تسليم الزوارق الباقية . وأدى ذلك إلى العملية المثيرة لتهريب الزوارق ، التى تبلغ زنة الواحد منها ٢٢٠ طناً ، من ميناء شيربورج يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ ؛ ووصلت إلى حيفا بعد ذلك ببضعة أيام ، وكانت زوارق الصواريخ سار ، التى يقال إن سرعتها تصل إلى ٤٢ عقدة وتضم طاقماً قوامه ٤٠ فرداً ، تتمتع بقدرة على القيام بأعمال الدورية لمسافة تزيد على ٦٠٠ ميل ؛ وكان كل منها مسلحاً بثمانية صواريخ من طراز جابرييل ومدفع سريع الطلقات .

وأجرى المزيد من الأبحاث والتجارب . ولاسيما فيما يتعلق بالرصد الرادارى والأسلحة والوسائل الألكترونية المضادة ، وهو ما تمخض فى نهاية الأمر عن مفهوم زورق الصواريخ « ريشيف » . وكان أحد الاعتبارات الأولية يتمثل فى أن يتم إنتاجه فى إسرائيل ، التى تمتلك صناعات حربية متقدمة إلى حد كبير بمقاييس الشرق الأوسط . وأنتج جسم أول زورق « ريشيف » عام ١٩٧٠ ؛ ويقول الإسرائيليون إن زورقين من هذا الطراز كانا يعملان عندما بدأت حرب أكتوبر . إلا أن المصريين يصرون على أن زورقاً واحداً هو الذى كان يعمل ، وأنه لم يتم تسليم الزورق الثانى إلا بعد أن كانت الأعمال الحربية قد توقفت . وكان زورق الصواريخ ريشيف الذى يزن ٢٦٠ طناً يحمل ثمانية صواريخ جابرييل ومدفعين سريعى الطلقات ؛ ويقال إن سرعته كانت تزيد على ٤٠ عقدة .

وكانت صناعة السلاح الإسرائيلية قد أنتجت الصاروخ سطح/سطح « جابرييل » الذى يبلغ مداه ٢٠,٠٠٠ متر (حوالى ١٢ ميلاً) والذى بدأ يدخل الخدمة فى أواخر عام ١٩٦٩ . وكان يهدف أساساً إلى التفوق فى مداه على المدفع ٤,٥ بوصة الموجود فى المدمرات السوفيتية من طراز « سكورى » ، وهى الوحدة البحرية الرئيسية التى كان المصريون يستخدمونها فى الستينيات . وفى الواقع ، فإن النموذج الأول من الصاروخ جابرييل قد تم تركيبه على مدمرة إسرائيلية من طراز « زد » ولكن رؤى على الفور أن المطلوب له سفينة أصغر وأسرع . ويزعم الإسرائيليون أن الصاروخ جابرييل هو صاروخ منزلق ، حيث أن مساره يكون منخفضاً للغاية أثناء طيرانه . ويظل قريباً من سطح البحر ، بما يجعله يظل دون قدرة الرصد المنخفضة لأجهزة الرادار العادية . وقالت صحيفة « **الجيروزاليم بوست** » فى ١٦ نوفمبر ١٩٧٣ ، إن « نسبة الصاروخ جابرييل فى إصابة أهدافه كانت تبلغ ٩٠ فى المائة » .

وفى السادس من أكتوبر ، لم تبدأ الأنشطة البحرية إلا فى الساعة ١٨٠٠ ، عندما حل الظلام ، بسبب احتمال التدخل الجوى . وفى تلك الليلة ، وقع الاشتباك الأول من


خريطة رقم ١٤ : مسرح العمليات البحرية
منية البيضا
اللاذقية
بانياس
طرطوس
طرابلس
بيروت
لبنان
سوريا
دمشق
صيدا
حيفا
تل ابيب
عمان
القدس
إسرائيل
الأردن
البحر المتوسط
راس كنايس
الاسكندرية
ابو قير
رشيد
بلطيم
دمياط
بور سعيد
العريش
القاهرة
مصر
النيل
السويس
الأدبية
سيناء
راس سدر
ابو درج
راس زعفراني
مرسى طلمات
ابو زنيم
ابو رديس
راس غارب
خليج السويس
إيلات
العقبة
شرم الشيخ
البحر الأحمر
الغردقة
غارات اسرائيلية بقوات الكوماندوز البحرية
غارات مصرية بقوات الكوماندوز
اشتباكات بحرية
الأراضي المحتلة

اشتباكات زوارق الصواريخ . فقد كان الإسرائيليون يتوقعون أن تقوم قوة سورية من زوارق الصواريخ بمهاجمة حيفا أو أهداف أخرى على الجزء الشمالى من الساحل الإسرائيلى . ولذلك تم إرسال قوة إسرائيلية تضم خمسة زوارق - أربعة من طراز سار وواحد من طراز ريشيف - شمالاً فى دورية هجومية . وحدث الاشتباك الأول حوالى الساعة ٢٢٣٠ من زورق طوربيد سورى من طراز ك - ١٢٣ ، وتم إغراق كاسحة ألغام من طراز ت - ٤٣ ؛ وكلها أصيبت بنيران المدافع أثناء قيامها بمناوراتها . وعندئذ ، رصد الإسرائيليون كاسحة ألغام من طراز ت - ٤٣ وثلاثة زوارق صواريخ شرقى القوة الإسرائيلية ؛ وعندئذ تركوا زورقاً من طراز سار للتعامل مع زورق الطوربيد السورى ، وغيرت الزوارق الإسرائيلية اتجاهها وتقدمت نحو القوة البحرية السورية ، حيث رصدتها وحددت مواقعها بشكل إيجابى على مسافة ٤٠,٠٠٠ متر . وحدث اشتباك جنوبى اللاذقية عندما فتح السوريون النار بالصواريخ على مسافة ٣٧,٠٠٠ متر ، ولكن أيا من الصواريخ لم يصب هدفه . وظلت الزوارق الإسرائيلية تتقدم حتى أصبحت على مسافة ٢٠,٠٠٠ متر ، ثم فتحت نيرانها بصواريخ جابرييل عند الحد الأقصى لمدى هذه الصواريخ .

ويزعم الإسرائيليون أنهم أغرقوا زورقاً سورياً من طراز أوسا ، وزورقين من طراز كومار ، وزورق طوربيد ك - ١٢٣ ، وكاسحة ألغام ت - ٤٣ ، جميعها بصواريخ جابرييل ؛ وأن زورق صواريخ سوريا أطلق نيران مدفع ٤٠ مم على زورق صواريخ كومار آخر كان قد جنح ؛ وأنه لم تقع خسائر بين الإسرائيليين . أما السوريون ، من الناحية الأخرى ، فيقولون عن هذا الاشتباك ، الذى بدأ حوالى الساعة ١٠٠ . صباح السابع من أكتوبر واستمر ساعتين ، أن بطارياتهم الساحلية اشتركت فيه وأغرقت أربعة زوارق إسرائيلية . والبيانات السورية لا تحظى بكثير من الثقة . وهكذا ، فقد انتهى بشكل غامض أول اشتباك بزوارق الصواريخ فى التاريخ البحرى .

ويقول المصريون إنهم اعتباراً من الساعة ١٨٠٠ فصاعداً ، قاموا فى البحر المتوسط « بمهام لإطلاق النار على مراكز السيطرة ومواقع الرادار فى سيناء » ، وهو ما يعنى فى الواقع أنهم كانوا يوفرون معاونة أرضية للمدفعية . وفى الساعة ٠١٠٠ ، وبسبب هذا القصف ، استخدمت الطائرات الإسرائيلية ضد السفن المصرية . وبعد أن حل الظلام يوم السابع من أكتوبر . قامت قوات الكوماندوز البحرية المصرية فى خمسة زوارق صيد عادية . بالنزول شرق نقطة بودابست الإسرائيلية الحصينة على الطريق الساحلى . وفى الجنوب على خليج السويس ، أنزل المصريون عدداً من زوارق الصيد بالقرب من الطور ، فى عملية قالوا إنها كانت عملية خداعية .

وفى تلك الليلة ، السابع من أكتوبر ، قصف المصريون مرة أخرى مواقع أرضية فى شمال سيناء ؛ وكرد على ذلك ، قصف الإسرائيليون بور سعيد من البحر . وفى خليج السويس ، قامت قوات الكوماندوز المصرية بعدد من الغارات على الساحل الشرقى . وفى

الليلة التالية ، الثامن من أكتوبر ، شن الكوماندوز المصريون غارة على حفار بترول بلاعيم ، الذى كان فى البحر بالقرب من أبو رديس . فقد عبروا الخليج الذى يصل عرضه إلى ١٦ ميلاً بعد الساعة ١٨٠٠ ، ليصلوا إلى الساحل الشرقى ويكتشفوا أن للحفار ثمانى أرجل بحرية ، وليس أربع أرجل فحسب كما كانوا يعتقدون ، وهو ما كان يعنى أن تستغرق مهمة تخريبه ضعف المدة المحددة لها . وتم إنجاز المهمة عند الفجر ، وعادت الزوارق عبر الخليج المفتوح فى ضوء النهار ، فى رحلة مكشوفة محفوفة بالمخاطر ، ولكن لم يتم رصدها من جانب سلاح الجو الإسرائيلى ، الذى كان فى ذلك الوقت مشغولاً ومرتبكاً فى أماكن أخرى . وغرق أحد الزوارق أثناء رحلة العودة . واضطر الرجال للعودة سابحين فى مياه تكثر بها أسماك القرش المفترسة ، ولكن الجميع عادوا سالمين بعد ظهر التاسع من أكتوبر .

وبعد أن وجه الإسرائيليون ضرباتهم فى البداية إلى البحرية السورية فى الشمال ، فقد تحولوا بعد ذلك إلى المصريين . ولما كان الإسرائيليون يتوقعون أن يحرك المصريون قوة من زوارق الصواريخ من الأسكندرية لتعزيز بور سعيد ، فقد أرسلوا ستة من زوارقهم من طراز سار لاعتراض القوة المصرية . ووصلت القوة الإسرائيلية قبالة دمياط فى الساعة ١٨٤٦ يوم الثامن من أكتوبر ، ثم راحت تطوف فى المنطقة حتى رصدت مجموعة سفن مصرية تضم أربعة زوارق صواريخ من طراز أوسا فى الساعة ٢١١٠ ، ثم حدثت بعض المناورات بعد ذلك . وأطلق المصريون الدفعة الأولى من صواريخهم ، وكانت ١٢ صاروخاً ، فى الساعة ٠٠١٥ من يوم التاسع من أكتوبر من مسافة ٤٠,٠٠٠ متر ، ولكن أياً منها لم يصب هدفه . وسرعان ما اقترب الإسرائيليون إلى مسافة ٢٠,٠٠٠ متر . وهى أقصى مدى لصواريخهم من طراز جابرييل ، ثم أطلقوا هذه الصواريخ ؛ ويزعمون أنهم دمروا على الفور ثلاثة من الزوارق المصرية ، وأجبروا الرابع على الفرار نحو بلطيم . ويقول الإسرائيليون إنهم لم يتكبدوا أية خسائر على الإطلاق فى هذا الاشتباك ؛ إلا أن المصريين الذين أطلقوا كمّاً أكبر من الصواريخ والمدافع ، يصرون على أن الإسرائيليين خططوا بصورة جيدة لهذا الاشتباك بزوارق الصواريخ ، وأنهم استخدموا طائرات الهليكوبتر لتحديد مواقع الزوارق المصرية ، وكانت طائراتهم الحربية تحلق فوق المنطقة لتوفير غطاء ضد التدخل المحتمل من جانب سلاح الطيران المصرى .

وبعد ذلك ، وقع اشتباكان بزوارق الصواريخ ليلة العاشر من أكتوبر . وكان هذا هو اليوم الذى وصلت فيه إلى اللاذقية أول سفينة من الجسر البحرى السوفييتى ، وكانت قد أبحرت من أوديسا وهى محملة بالذخائر وقطع الغيار فى السابع من أكتوبر . وفى حادث ما ، وبينما كانت مجموعة من الزوارق الإسرائيلية من طراز سار تقصف منشآت فى طرطوس ، خرجت زوارق الصواريخ السورية من الميناء بشكل مفاجىء لتهاجم الإسرائيليين . وبعد إطلاق بعض الصواريخ ، سارع السوريون إلى الانسحاب من

الاشتباك وعادوا للاحتماء بالميناء ومدفعيته الساحلية . ويزعم الإسرائيليون الذين ردوا بإطلاق النار ، أنهم أغرقوا اثنين من زوارق الصواريخ السورية ، وفى نفس الليلة ، اصطدمت ستة زوارق صواريخ إسرائيلية من طراز سار بمجموعة من زوارق الصواريخ المصرية قبالة دمياط ، ويزعم الإسرائيليون ، أنهم أغرقوا ثلاثة زوارق مصرية أثناء تبادل إطلاق النار ، غير أن المصريين ينفون ذلك .

وفى الليلة التالية ، يوم ١١ أكتوبر ، وقع اشتباكان آخران بزوارق الصواريخ فى البحر . فبينما كانت قوة إسرائيلية من زوارق الصواريخ تتحرك نحو ميناء اللاذقية ، ظهرت زوارق الصواريخ السورية بشكل مفاجىء ، وأطلقت صواريخها ، قبل أن تعود بسرعة للاحتماء بمدفعيتها الساحلية ، والاحتماء بين سفن الشحن ذات الجنسيات المتعددة الراسية فى الميناء ، وواصل الإسرائيليون إطلاق النار ، وأصابوا ثلاثاً من السفن التجارية ، غرقت إحداها ، وهى السفينة اليونانية « **تسيمنتارخوس** » ولقى اثنان من بحارتها مصرعهما ، وأصيب سبعة آخرون . وكانت الثانية هى السفينة السوفيتية « **ساميركوت** » ، والثالثة سفينة الشحن اليابانية « **ياماما شيبومارو** » التى اشتعلت فيها النيران وغرقت بعد ذلك . ويقول جلاسمان إن « بعض الصواريخ [الإسرائيلية] لم تكن دقيقة » . ويزعم الإسرائيليون أنهم دمروا أربعة زوارق صواريخ سورية فى هذا الاشتباك ، ولكن السوريين ردوا بأنهم أغرقوا ثمانية زوارق إسرائيلية .

ووقع الاشتباك الثانى بزوارق الصواريخ فى تلك الليلة قبالة طرطوس ، حيث اتبعت البحرية السورية تكتيكات مماثلة . فبمجرد ظهور زوارق سار الإسرائيلية ، كانت زوارق الصواريخ السورية تندفع بأقصى سرعة من الميناء ، وتطلق صواريخها ، ثم تنسحب لتحتمى بالسفن التجارية الدولية الراسية فى الميناء . وفى تلك الليلة ، قصفت البحرية الإسرائيلية مرة أخرى المنشآت الساحلية السورية ، وأشعلت النار فى مستودعات تخزين البترول فى بانياس .

ومن يوم ١٢ أكتوبر فصاعداً ، أصبحت البحرية الإسرائيلية تتمتع بالحرية أمام الساحل السورى ، وصار بمقدورها أن تقترب وتوجه نيران مدافعها عيار ٧٦ مم إلى منشآت البترول وغيرها ، والبطاريات الساحلية ومواقع الرادار فى اللاذقية وطرطوس وبانياس . وقد قصفت على سبيل المثال ، جسر طريق الإبراش الرئيسى إلى الشمال من طرطوس مباشرة ، مما أحدث به أضراراً وسبب انزعاجاً . وتوقع السوريون أن يكون ذلك مقدمة لعملية إنزال برمائية على الساحل السورى ، فنقلوا لواءين سوريين من جبهة الجولان إلى السهل الساحلى لصد مثل هذه العملية . وبعد يوم ١٢ أكتوبر ، لم تقع اشتباكات بحرية بين زوارق الصواريخ ؛ ولكن تم فى ذلك اليوم إغراق سفينة الشحن السوفييتية « **إيليا ميتشنكوف** » بصاروخ جابرييل بالقرب من طرطوس . وسارع الإسرائيليون إلى القول بأن ذلك حدث عن طريق الخطأ ؛ ولكنهم بعد هذا الحادث صاروا يتوخون أقصى الحذر ،

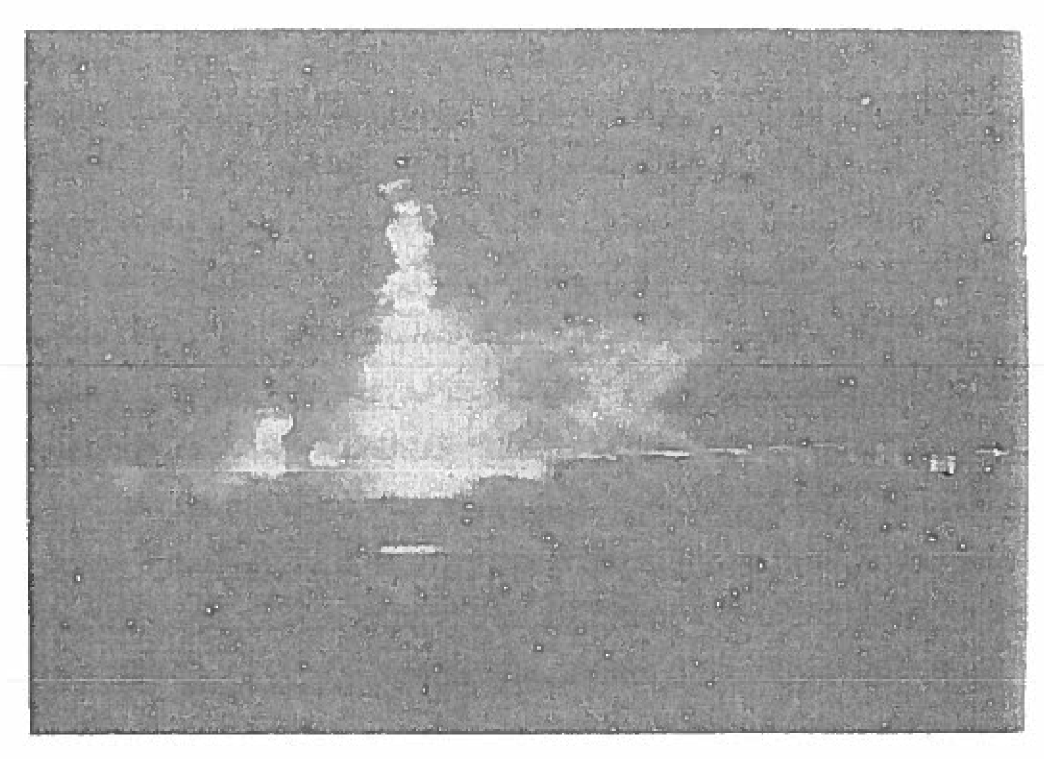
ولم يطلقوا كثيراً من الصواريخ الأخرى . وعلى أية حال ، فإنهم كانوا قد أطلقوا عدداً كبيراً منها ، وكانت قد بدأت تنقص لديهم ، وراحت زوارق الصواريخ الإسرائيلية تطوف أيضاً قبالة الساحل المصرى المطل على البحر المتوسط ، ولكن بدرجة أقل ، حتى على الرغم من أن زوارق الصواريخ المصرية لم تغامر بالاشتباك معها مرة أخرى .

وتحولت الحرب فى البحر آنذاك إلى ما يمكن اعتباره أعمالاً صغيرة غير واضحة ، يؤكد أحد الجانبين على بعضها ، بينما يتجاهله الجانب الآخر . وقد قيلت لى روايات متضاربة فى هذه المنطقة التي مازالت رمادية بدرجة كبيرة . والتى لا يزال يتعذر الغوص فى أعماقها أو التحقق منها . وربما لن تظهر أدلة قاطعة ؛ والتلميحات العريضة إما أنها ستصمت ويلفها النسيان . وإما سيضخمها أحد الجانبين ويحولها إلى أسطورة . وكل من الإسرائيليين والمصريين ، بل والسوريين أيضاً ، يقولون إنهم كانوا يقومون يومياً بعمليات بحرية تشمل قصف أهداف أرضية وغارات كوماندوز وأنشطة للضفادع البشرية فى موانىء العدو . فعلى سبيل المثال ، يقول الإسرائيليون إنهم فى يوم ١٤ أكتوبر ، قصفوا دمياط ؛ وفى يوم ١٥ أكتوبر أغاروا بقوات الكوماندوز على رأس غريب فى خليج السويس ، حيث دمروا ١٨ من زوارق الهجوم المطاطية المصرية . كما يقولون أيضاً إنهم قصفوا بور فؤاد وبور توفيق فى عدة مناسبات .

وفى يوم ١٦ أكتوبر ، شن الإسرائيليون غارة كبيرة بالضفادع البشرية على ميناء بور سعيد ، وهى غارة انتهت بكارثة ؛ فقد لقى ما لا يقل عن ١٩ من الإسرائيليين مصرعهم ، وفيما بعد ، طلبت شقيقة أحد رجال الضفادع البشرية الإسرائيليين المفقودين معلومات عن اختفائه ؛ وفى ١٤ فبراير ١٩٧٤ ؛ ردت عليها السيدة چيهان السادات قرينة الرئيس المصرى برسالة أعربت فيها عن تعاطفها .

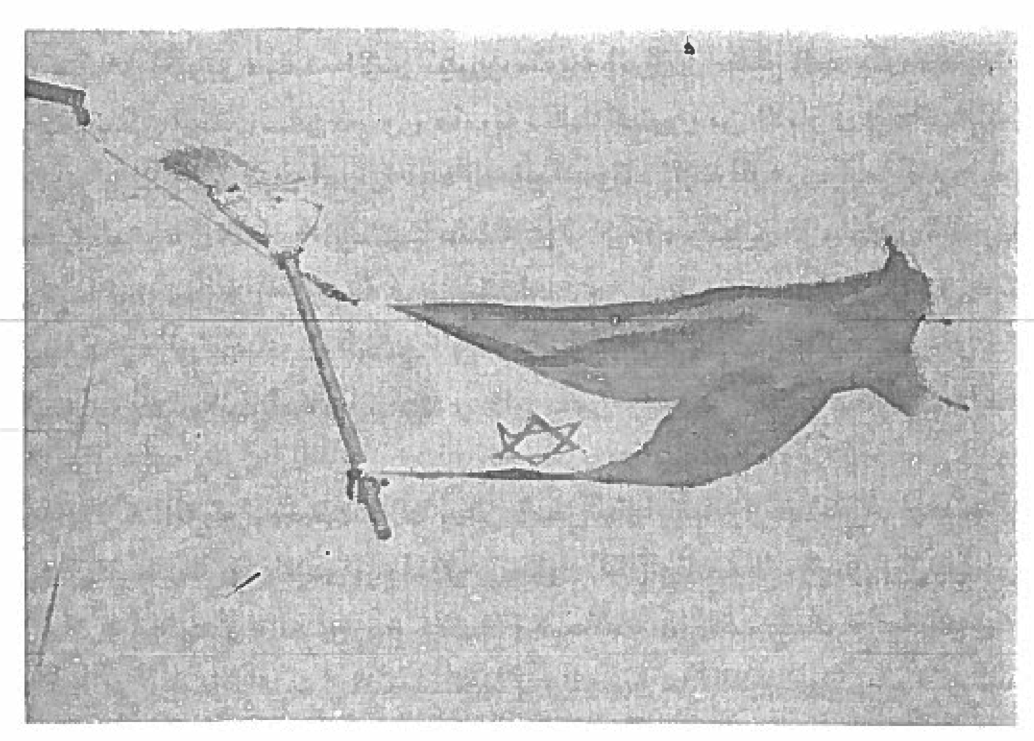
وفى يوم ١٧ أكتوبر ، وضع الإسرائيليون سفينة إنزال فى خليج السويس ، لاكتشاف ما إذا كان يمكن إرسال سفن بصورة مأمونة لجلب البترول من الآبار فى الجانب الشرقى من الخليج ، ولكن المصريين أغرقوا هذه السفينة . وقام الإسرائيليون بمحاولتين أخريين لدفع سفن صغيرة فى الخليج ، ولكنهما فشلتا ؛ إلا أن الإسرائيليين لا يذكرون ذلك بتاتاً . ورأيت فيما بعد نسخة (مترجمة) من مقتطفات من تحقيق مع بحار إسرائيلى انتشله المصريون بعد إغراق سفينته فى الخليج . وإذا ما كان ذلك صحيحاً ، فإنه يميل إلى تأكيد هذه الخسائر الإسرائيلية والسبب الذى كان يكمن وراء مثل هذه المحاولات المحفوفة بالأخطار .

وفى يوم ١٦ أكتوبر . وصلت ثلاث سفن شحن سوفييتية إلى اللاذقية ؛ بعد ساعات فحسب من قصف السفن الإسرائيلية لها . وبحلول ذلك الوقت ، كان السوريون يعانون من نقص حاد فى الذخائر والصواريخ المضادة للدبابات . وكانت هناك قافلة كبيرة من الشاحنات على أرصفة الشحن تنتظر لنقلها إلى الجبهة على الفور ، ولكن لم تكن السفن



اشتعال مستودعات البترول فى ميناء اللاذقية بعد هجوم بزوارق الصواريخ الإسرائيلية على الميناء البترولى السورى فى التاسع من اكتوبر ١٩٧٣ .

العلم الإسرائيلى مرفوع بمكنسة على سارية بعد نجاح زورق صواريخ إسرائيلى فى مهمة خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ .



لتبدأ تفريغ شحناتها حتى تتلقى أوامر من السفير السوفييتى فى دمشق . ولما كانت سفينة سوفييتية قد أصيبت بأضرار فى غارة جوية . وأغرق الإسرائيليون سفينة أخرى على الأقل ، فقد صدرت الأوامر للسفن السوفييتية بالخروج إلى عرض البحر مرة أخرى دون تفريغ شحناتها . ولم يحصل السوريون على الذخائر والصواريخ التى كانوا فى أمس الحاجة لها ، وتعرضت العلاقات السوفييتية السورية لمزيد من التدهور .

ويزعم الإسرائيليون أنه خلال ليلة ١٨ أكتوبر ، قصفت سفنهم الموجودة فى منطقة بور سعيد وفى خليج السويس أهدافاً مصرية . وفى نفس الليلة ، أحدثت قوات الضفادع البشرية الإسرائيلية انفجاراً تحت الماء قبالة بيروت ، قطع خلاله خطان من كوابل الاتصالات البحرية ، يمتد أحدهما إلى الأسكندرية ، والآخر إلى مارسيليا . وقطع ذلك خطوط التلكس والاتصالات بين دمشق والغرب . وكان ذلك ضربة للعرب ، لأن كلاً من الحكومتين المصرية والسورية كانتا تستخدمان هذه الوسيلة للاتصال ببعضهما البعض بدلاً من الاتصالات اللاسلكية ، التى كانت أجهزة المخابرات السوفييتية والأمريكية والإسرائيلية تتصنت عليها . وعندئذ ، بدأت الاتصالات بين مصر وسوريا تتم عن طريق محطة للاسلكى فى عجلون بالأردن ، كانت تبث إشاراتها عن طريق قمر صناعى أمريكى . ولم يتم إصلاح كوابل بيروت البحرية إلا يوم ٢٧ أكتوبر ، حين عادت الاتصالات مع الغرب .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر ، زعمت البحرية الإسرائيلية أنها قصفت مرة أخرى منشآت عسكرية بالقرب من دمياط ، وأنها أشعلت النار ، لثانى ليلة على التوالى ، فى مخازن الإمدادات بالقرب من رشيد بنيران صواريخها .

وفى الأسبوع الأخير من الحرب ، قام رجال الضفادع البشرية المصريون بثلاث أو أربع غارات على إيلات . ولم يحدثوا كثيراً من الأضرار . وإن كانوا قد سببوا انزعاجاً للإسرائيليين . ولم يعلن المصريون تفصيلات دقيقة ، كما أن الإسرائيليين يراوغون فى هذا الشأن ، حيث ينفون بشكل غامض حدوث أى من هذه الغارات . ويقول المصريون إنهم أطلقوا يوم ٢١ أكتوبر ، الصواريخ من قواعد على الشاطىء ضد السفن الإسرائيلية ؛ ولكنهم لا يقولون إنهم حققوا أية إصابات .

وفجر يوم ٢٢ أكتوبر . وهو يوم وقف إطلاق النار الأول ، شن الإسرائيليون هجوماً برمائياً على ميناء الغردقة على البحر الأحمر . وكان هدفهم هو تدمير ما كانوا يعتقدون أنه آخر زورق صواريخ مصرى من طراز كومار . كان لا يزال يعمل فى تلك المنطقة . فقد نجح اثنان من زوارق الكوماندوز الإسرائيلية (لا يؤكد الإسرائيليون انهما كانا من طراز سار ، وإن كان المصريون يؤكدون أنهما كانا كذلك) فى المناورة دون أن يرصدهما المصريون ، ليصلا إلى مرسى بين الشعاب المرجانية ، حيث رصدا الزورق كومار راسياً بالقرب من المرفأ . وأطلق الإسرائيليون النار على الزورق كومار ، بصواريخ مضادة للدبابات ، من

مسافة ٥٠ متراً . ولم يصب الزورق ، وإن كان ذلك قد نبه المصريين الذين فتحوا نيرانهم على الزورقين الإسرائيليين من الشاطىء ، فجنح أحدهما على الشعاب المرجانية بالقرب من زورق الكومار المصرى . وفى نفس الوقت ، نجح صاروخ إسرائيلى مضاد للدبابات فى إصابة الزورق المصرى الذى اشتعلت فيه النار وانفجر . وتم تخليص الزورق الإسرائيلى من الشعاب المرجانية ، وعاد الزورقان إلى قاعدتهما بالقرب من شرم الشيخ .

وبعد وقف إطلاق النار الأول ، هدأت حدة النشاط القتالى البحرى ؛ وإن ظلت البحريتان المصرية والإسرائيلية فى حالة تأهب متوتر . وفى يوم ٢٥ أكتوبر ؛ تم إغراق سفينة شحن يونانية ، زنتها ٣,٠٠٠ طن وترفع العلم القبرصى ، أثناء إبحارها من الأسكندرية إلى بنغازى ، قبالة الأسكندرية ، ولقى ١٤ بحاراً مصرعهم من بين أفراد طاقمها وعددهم ١٨ فرداً . وقيل إنها أصيبت بطوربيد من سفينة مجهولة الهوية . وينفى الإسرائيليون مسئوليتهم عن ذلك . وفى يوم ٢٦ أكتوبر ، وبينما كانت ناقلة البترول الليبيرية « **سايروس** » التى تبلغ زنتها ٤٥,٠٠٠ طن والمؤجرة لإسرائيل ، قد أبحرت من إيلات فى طريقها إلى أبورديس لجلب البترول ، فإنها اصطدمت بلغم وغرقت ، عندما كانت تقترب من أبورديس .

وهذه فيما يبدو هى العمليات والأحداث والحوادث البحرية الرئيسية فى حرب أكتوبر ، التى تتوافر درجة من التأكيد بشأنها . وفى المقابلات والمناقشات ، أعطانى الجانبان تلميحات عن أعمال وعمليات أخرى قامت بها السفن الصغيرة وقوات الكوماندوز ؛ ودائماً ما كان المتحدث يضيف بسرعة أنه لا يستطيع التوسع فى التفاصيل لأسباب « أمنية » أو لأن المعلومات « محظورة » وحيث لا يتوافر ما يثبت مثل هذه التلميحات ، فإنها لا يمكن أن تؤخذ مأخذ الجد . وعلى الجانب الاستراتيجى ، قال لى الفريق ذكرى إن الغواصات المصرية استخدمت ثلاث مرات ـ فى أيام ٧ و ١١ و ٢٢ أكتوبر ـ ولكنه لا يعرف ما إذا كانت قد أصابت أو أتلفت أو أغرقت أيا من السفن الإسرائيلية ، « وليس ممكناً معرفة ذلك » . وأضاف أيضاً أنه كانت هناك « بضع عمليات بالصواريخ ، وبعض عمليات طائرات الهليكوبتر مع البحرية ، وفقاً لخطة تقليدية تم خلالها التنسيق بين الهدف الاستراتيجى والهدف السياسى للمرة الأولى » .

وفى المجال البحرى ، مثلما فى المجالين البرى والجوى . هناك مزاعم متناقضة بحيث يستحيل التوفيق بينها . وكثير من المزاعم التى أعلنها الجانبان قد تم تعديلها فى هدوء أو تقديمها بشكل مختلف . فالإسرائيليون يزعمون أنهم دمروا ١٤ من زوارق الصواريخ العربية فى المعركة ، كما دمروا زوارق أخرى فى مراسيها . ويعترف المصريون بأنهم خسروا زورق صواريخ واحداً فقط تم إغراقه ليلة السادس من اكتوبر ؛ كما أصيب زورقان آخران بأضرار ولكنهما لم يغرقا . ويصر الإسرائيليون على أن زورقاً واحداً من زوارق صواريخهم من طراز سار قد أصيب إصابات طفيفة بالشظايا ، وأنه لم يتم إغراق أى من زوارقهم ، أو

لم يخسروها بأى شكل آخر إلا أن تقديرات البنتاجون تشير إلى أن البحرية الإسرائيلية خسرت ما لا يقل عن اثنين ، وربما ثلاثة ، من زوارق صواريخ سار تم إغراقها ؛ كما أصيب زورق آخر أو اثنان بأضرار . وتقول التقديرات السوفييتية إن الإسرائيليين خسروا خمسة زوارق من مختلف الأنواع .

وبالإضافة إلى ذلك ، يزعم الإسرائيليون أنه فى البحر الأحمر وخليج السويس وساحل البحر المتوسط ، خسر السوريون والمصريون عدداً من السفن الأخرى ، من بينها كاسحات ألغام وزوارق طوربيد ومجموعة متنوعة من السفن المعاونة التى تتراوح بين القاطرات المسلحة وناقلات الذخيرة ، ولا تتوافر تفصيلات دقيقة عن التوقيتات أو الأماكن أو السفن . وكان الاستثناء الوحيد هو ما زعمه الإسرائيليون من أن المصريين خسروا ليلة ١٣ أكتوبر ثلاثة زوارق أوسا « فى حماية موانئهم » .

وتحليل اشتباكات زوارق الصواريخ يبين أن الإسرائيليين كانوا المنتصرين فيها بشكل مطلق . وهم يفخرون بأن أياً من المصريين أو السوريين لم ينجح فى إصابة هدف إسرائيلى واحد بصواريخ ستيكس ، رغم أن مداها يبلغ ضعف مدى صواريخ جابرييل . ويقول الإسرائيليون إن نجاحهم فى هذه الاشتباكات البحرية ـ وهى الأولى من نوعها فى التاريخ البحرى ، وبالتالى فمن الواضح أنها ستكون موضع دراسة دقيقة من جانب القادة وضباط الأركان فى الكليات البحرية فى أنحاء العالم ـ كان يرجع إلى تفوقهم البحرى ، وإلى الصواريخ الأفضل . والزوارق الأفضل والأقدر على المناورة ، وإلى الأطقم الأفضل تدريباً والأكثر مهارة . كما يزعمون أنهم كانوا متفوقين على العرب بشكل مطلق فى هذا الشكل الجديد من الحرب البحرية . وبذلك فقد خلقوا أسطورة تفوق بحري ربما لا يتمتعون به بالضرورة ؛ والوضع يذكر المرء فيما يبدو بالثقة المفرطة الطاغية فى البحر والجو عقب حرب ١٩٦٧ .

ويقول الإسرائيليون إن أنشطتهم فى حرب أكتوبر بزوارق صواريخهم الصغيرة قد دمرت التصور السابق لأوانه . والقائل بأن أيام السفن السطحية ، ولا سيما الكبيرة منها مثل المدمرات ، قد أصبحت معدودة ؛ وأنهم قد أظهروا أنه حتى الدول الصغيرة تستطيع أن تمتلك أساطيل فعالة ، وإن كانت صغيرة ، من زوارق الصواريخ التى يمكن أن تتصدى لسفن تفوقها حجماً بعدة مرات . ومع تطلع الإسرائيليين إلى أسواق التصدير ، فقد زعموا أن سرعة وكفاءة زوارق صواريخهم من طرازى ريشيف وسار إنما تجعلهما من الزوارق الممتازة لصيد الغواصات ، ولمرافقة قوافل السفن ، وفى نقل منصات الأسلحة لمعاونة العمليات المشتركة . إلا أن المصريين يغمغمون قائلين إن الإسرائيليين ينسبون لزوارق صواريخهم ، ولا سيما زوارق ريشيف ، قدرات تفوق ما تمتلكها هذه الزوارق فعلاً ، ليس فقط لخلق انطباع بتفوقهم على البحريات والأساطيل العربية ، وإنما أيضاً لكى يمكن بيعها فيما وراء البحار .

والحقيقة التى قد لا تكون مستساغة لإسرائيل هى أنه مثلما فوجىء الإسرائيليون بتدنى الوسائل الألكترونية المضادة التى فى طائراتهم فى السادس من أكتوبر ، كذلك فقد فوجىء المصريون والسوريون بأن لدى الإسرائيليين وسائل الكترونية مضادة متفوقة على ما هوموجود فى زوارق صواريخهم . فهذه الميزة الألكترونية كانت هى السبب الوحيد فى أن أياً من الزوارق الإسرائيلية لم يصب بصواريخ ستيكس . وكان ذلك هو ما يفسر قدرة الإسرائيليين على التقدم لمسافة ٢٠,٠٠٠ متر نحو زوارق الصواريخ العربية دون أن يمسهم أذى ، حتى تصبح هذه الزوارق داخل مرمى صواريخهم من طراز جابرييل ؛ وما يفسر كثرة الإصابات القاتلة التى حققها الإسرائيليون بالصواريخ ، وعدم تحقيق العرب لأية إصابة مقابلة ، فزوارق الصواريخ أوسا وكومار السوفييتية بصواريخها من طراز ستيكس كانت عاجزة أمام الوسائل الألكترونية المضادة والحديثة التى كانت على زوارق الصواريخ الإسرائيلية . ولم يكن هناك مجال واسع للاختيار بين المهارة والتفوق البحرى ؛ فالزوارق السوفييتية كانت قادرة على المناورة بنفس قدرة الزوارق الإسرائيلية ؛ بل إنها كانت حقاً أسرع منها فى المياه .

وكان الصاروخ جابرييل يحمل وسائل الكترونية مضادة تستطيع التشويش على الصاروخ ستيكس أثناء مساره المنحرف ؛ كما كان به جهاز آلى يوجهه نحو هدفه ويعمل خلال ارتفاع الأمواج وتقلب الجو دون أن يفقد دقته أو كفاءته الفنية . وكانت الوسائل السوفيتية الإلكترونية المضادة أقل فى كفاءتها ، لأن سوء حالة الجو والأمواج كانت تحدث فيها ارتباكاً يؤثر على مستوى أدائها . وباختصار ، لم تكن الوسائل الإلكترونية المضادة السوفييتية تستطيع التصدى لصواريخ جابرييل الإسرائيلية . ولكن صواريخ جابرييل كانت تستطيع أن تحرف مسار صواريخ ستيكس ، وهو ما كان مبعث ارتياح لمصممى ومخططى حلف شمال الأطلنطى والولايات المتحدة ، ومبعث سخط للروس . فالصاروخان كانا قاتلين ويتسمان بالكفاءة فى حد ذاتهما ؛ ولكن كانت هناك فجوة واضحة فى الوسائل الإلكترونية المضادة فى الجانب العربى ، أو السوفييتى ؛ وترك الإسرائيليون العالم ينتهى إلى استنتاجات خاطئة . وربما كان القول المأثور عن اللورد نيلسون لا يزال صحيحاً ؛ ولكنه قول تم تعديله بمدى القدرات المتقابلة فى مجال الوسائل الإلكترونية المضادة .

ومن النقاط الهامة الأخرى التى أشار إليها الأدميرال تيليم أن « الزوارق لا ينبغى بأى حال من الأحوال أن تكون كبيرة أو مكلفة ، بحيث يصبح الدفاع عنها نفسها هو الأولوية الأولى . فذلك سيؤدى حتماً إلى نفى قدرتها الهجومية » - وهى نقطة يجدر بمصممى الطائرات والدبابات أن يفكروا فيها أيضاً .

ويقول المصريون إن الحصار الذى ضربته قوتهم فى البحر الأحمر كان كاملاً ؛ وأنه منذ مساء السادس من أكتوبر وحتى ٢٨ أكتوبر ، لم تدخل البحر الأحمر أية سفينة متجهة إلى إيلات . كما لم تغادر المنطقة أية سفينة خارجة من ذلك الميناء الإسرائيلى . وقد أوقف

المصريون أكثر من ٢٠٠ سفينة عند مضيق باب المندب ؛ ولم يسمحوا إلا لأربع سفن فحسب بالمرور إلى موانىء فى السودان أو اليمن .

وذكرت صحيفة « **جيروزاليم بوست** » فى الثانى من نوفمبر ١٩٧٣ أن « ما من سفينة دخلت ميناء [إيلات] منذ نشوب الحرب وإغلاق مضيق باب المندب عند مدخل البحر الأحمر بعد ذلك . ولم تبحر سوى سفينة واحدة ، هى سفينة الشحن اليابانية **كيو مارو** ، التى تردد أنه سمح لها بالمرور خلال الحصار ؛ أما الثلاث عشرة سفينة الأخرى فقد ظلت هناك . وربما مرت سفينة واحدة . وكانت ثلاث مدمرات مصرية توجد قاعدتها فى ميناء عدن هى أساسا التى فرضت الحصار ، بمعاونة بعض السفن الأصغر ، وكانت تعاونها أيضاً سفن إنزال من بحرية اليمن الجنوبية الصغيرة ، التى كانت تتألف هى نفسها من سفينتين لمطاردة الغواصات ، وكاسحتى ألغام ، وثلاث سفن إنزال . أما السفن التجارية الثلاث عشرة التى حوصرت فى ميناء العقبة الأردنى فى السادس من أكتوبر ، فقد اضطرت للبقاء هناك طوال الحرب .

أما الحصار العربى فى البحر المتوسط . فلم يكن محكماً بهذه الدرجة ؛ ويعترف المصريون بأن ١٧ سفينة وصلت إلى حيفا خلال الحرب . ويشيرون إلى أنه لابد من مقارنة هذا العدد بعدد ١٩٨ سفينة وصلت إلى ذلك الميناء خلال نفس الفترة من عام ١٩٧٢ . ويعترض الإسرائيليون على هذا الرقم ، ويصرون على أن أكثر من ٨٠ سفينة شحن وركاب قد وصلت إلى موانئهم خلال الحرب . ولكنهم لا يذكرون تفاصيل ذلك . وقال لى الفريق ذكرى مرة أخرى : « إننا كنا نستخدم فعلاً الحق الدولى فى زيارة وفحص سفن الملاحة التجارية ، التى كان يجب أن تطلعنا على ما إذا كانت تحمل مواد استراتيجية يحتاجها المجهود الحربى الإسرائيلى » . ويضيف قائلاً إن « حركة ملاحتنا التجارية كانت طبيعية للغاية من وإلى الأسكندرية ؛ ولما كان أسطولنا التجارى المصرى صغيراً ، فقد كانت فى معظمها سفناً أجنبية . وكان ذلك يظهر الثقة الدولية فينا ، حيث أن ما من دولة كانت لتخاطر بسفنها لو لم تكن واثقة من سلامتها . ولم يكن الأمر كذلك مع إسرائيل » .

وينبغى أن نشير إلى حادث مثير للاهتمام وقع أثناء الحصار ، لأنه كاد أن يتسبب فى مضاعفات دولية ؛ وهو الحادث الذى أصبح معروفاً باسم « قضية لاسال » ؛ وقد بدأ خلال الأيام الأولى من الحرب عندما بعثت سفينة الشحن الأمريكية « **لاسال** » ، التى كانت تتحرك جنوباً فى البحر الأحمر ، تفيد بأن مدمرة مصرية أطلقت النار عليها فى مضيق باب المندب . فقد أطلقت طلقة على مقدمتها ، وعادت السفينة إلى ميناء مصوع الأثيوبى . وفى ذلك الوقت . كانت المدمرة الأمريكية « **تشارلز أدام** » فى ميناء چيبوتى الفرنسى على البحر الأحمر ، إلا أن السلطات الفرنسية منعتها من مغادرة الميناء لمساعدة السفينة « **لاسال** » . وكان التعامل الأمريكى الفظ مع الحلفاء فى حلف شمال الأطلنطى خلال هذه

الأزمة قد أثار الاحتكاكات ، مما دفع ميشيل جوبير وزير الخارجية الفرنسى للقول بأن « القوتين العظميين تمتهنان الدول الأوروبية » . وفى أعقاب هذا الحادث ، أرسلت الولايات المتحدة قوة بحرية ، تضم حاملة الطائرات « **هانكوك** » وخمس مدمرات مرافقة لها ، إلى المحيط الهندى لمراقبة الشرق الأوسط من ذلك الاتجاه .

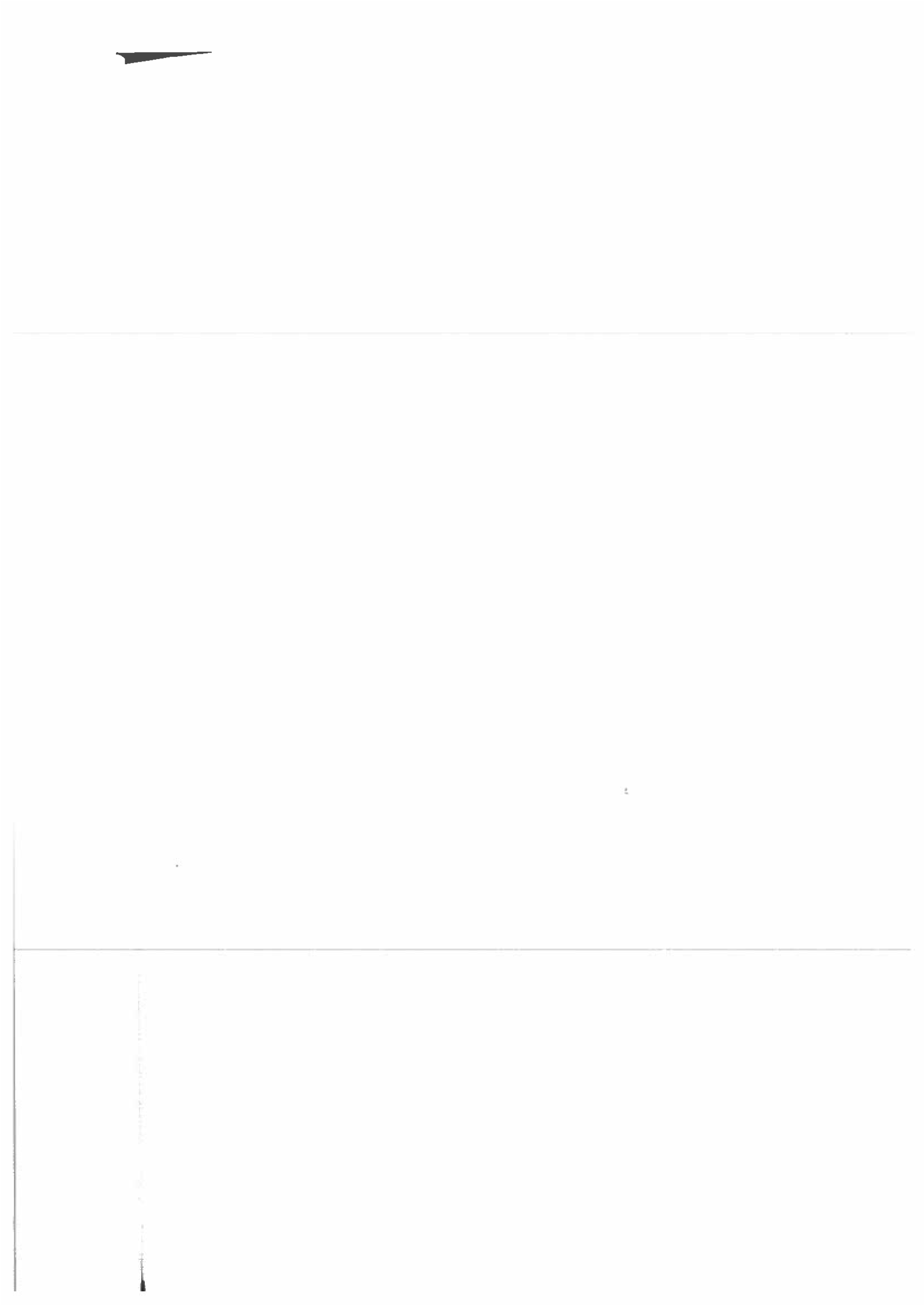
ويرفض الإسرائيليون بحسم مناقشة مشكلتهم الخاصة بالبترول خلال حرب أكتوبر ، ولكن لاشك أن هذه المشكلة قد أقلقتهم بدرجة تفوق ما هم مستعدون للاعتراف به . فبسبب الحصار البحرى المصرى ، لم يصل أى بترول إلى إسرائيل ؛ ومن المعروف أن خط الأنابيب الذى يمتد من إيلات إلى أشدود على البحر المتوسط . والذى يبلغ قطره ٤٢ بوصة ؛ كان فارغاً من البترول عند نهاية الحرب . وليس معروفاً كم من البترول كان متبقياً فى مستودعات تخزين البترول الإسرائيلية ـ ولكن لا يمكن أن يكون كثيراً . وفى ضوء ذلك ، قد يمكن للمرء أن يتكهن كم يوماً أكثر ، أو حتى كم ساعة ، كان بمقدور الإسرائيليين أن يقاتلوا خلالها ، خاصة لو كان قد تم تنفيذ الهجوم السورى ـ العراقى ـ الأردنى المشترك بخمس فرق يوم ٢٣ أكتوبر كما كان مخططاً ، أو لو كانت المقاومة المصرية قد اشتدت فى ميدان القتال .

وقد اتضح مدى حاجة إسرائيل الملحة للبترول فى الجهود المحمومة التى بذلتها رئيسة الوزراء جولدا مائير خلال المفاوضات التى دارت قبل وبعد اتفاقات إطلاق النار ، وإصرارها على أن الشرط الأولى قبل أن يوافق الإسرائيليون على أى شىء ـ وهو شرط يتعين عدم إبلاغه للصحافة ـ هو رفع الحصار البترولى عن مضيق باب المندب . وبذل الإسرائيليون أيضاً جهوداً يائسة لتوصيل ناقلات البترول إلى إيلات ، وللحصول على البترول من حقول بترول سيناء . وعندما حوصر الجيش الثالث المصرى وكان بحاجة إلى الأدوية والإمدادات الحيوية الأخرى ، كان الشرط الأول للإسرائيليين هو رفع الحصار البترولى المصرى فى البحر الأحمر . وحاول الإسرائيليون أيضاً إقناع الولايات المتحدة بإرسال ناقلات بترول ترفع العلم الأمريكى ، ولكن الحكومة الأمريكية لم تكن مستعدة للوصول إلى هذا المدى ، من ناحية بسبب التصعيد السوفييتى المحتمل ، ومن ناحية أخرى لأن الرد العربى سيتمثل فى فرض حظر بترولى فورى وشامل على الغرب بأسره ، وكان واضحاً أنه ليس بالاقتراح العملى أن يتم نقل البترول جواً بأية كميات ذات شأن . أما العرب ، فلم يعانوا من أية مشكلة فى إمدادات البترول ؛ فحتى سوريا كان يتم إمدادها من الكويت عن طريق العراق ، التى أصبحت صديقاً مؤقتاً لسوريا ؛ وكانت ليبيا ترسل البترول لمصر ولكنها تطلب ثمنه بالأسعار التجارية العادية .

وإدراكاً منهم للقوة التى صارت بين أيديهم ، فقد بدأت الدول العربية المنتجة للبترول تستخدمه لمساعدة المجهود الحربى ضد إسرائيل . ونتيجة لذلك ؛ نشأت أزمة البترول

العالمية ، وتطورت بصورة خطيرة بعد انتهاء حرب أكتوبر ؛ فالأمريكيون والهولنديون ، على سبيل المثال ، كانوا مكروهين جداً من العرب ، على حين أن بعض الدول الأخرى ، مثل بريطانيا وأسبانيا وفرنسا ، كانت تدخل ضمن طائفة الدول « الأولى بالرعاية » بالنسبة للسعودية وأبو ظبى على الأقل ، مما كان يضمن أن تستمر إمداداتهما البترولية فى مستوياتها الطبيعية تقريباً . وأوضحت السعودية أنها ستفرض عقوبات على أية دولة تنقل البترول الخام أو منتجاته المكررة إلى دولة أخرى تخضع للحظر ؛ أما نداءات هولندا للحصول على بترول ، فكانت موضع تجاهل .

وعندما اجتمع وزراء البترول العرب فى الكويت فى الرابع من نوفمبر ، كانوا يعتزمون تشديد قبضتهم ، وتعزيز الإجراءات التى اتخذوها بالفعل . وفكروا فى خفض الإنتاج (وليس الشحن) بنسبة ٢٥ فى المائة ، بفرض خفض قدره خمسة فى المائة أخرى فى شهر ديسمبر . ووعدوا بشكل مبهم باستئناف الإمدادات الطبيعية للدول التى تحظى بالرعاية ، وحظر الهولنديون قيادة السيارات فى أيام الآحاد ، وفكر الألمان فى تطبيق إجراءات مماثلة . وجهز البريطانيون خطة لتوزيع البنزين بالبطاقات . وبينما ظلت الدول العربية المنتجة للبترول متحدة ، ولما كانوا قد زادوا بالفعل أسعارهم بحوالى ٧٠ فى المائة ، فإن التوقعات كانت تشير إلى أن العائدات البترولية التى يحصلون عليها لن تقل عما كانت عليه قبل إجراء التخفيضات فى أكتوبر ١٩٧٣ ، إلا بدءاً من شهر فبراير ١٩٧٤ ، وقال الملك فيصل لوزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر أنه يفضل أن يتوقف إنتاج البترول تماماً على أن يتخلى عن أمله فى الصلاة فى المسجد الأقصى قبل أن يموت ؛ وأعلن أن بلاده لديها من الاحتياطيات النقدية ما يكفيها للحياة لمدة ثلاث سنوات دون أن تحصل على أية عائدات بترولية . إن حرب أكتوبر قد أخرجت سلاح البترول العربى من غمده . ونظر العرب إلى هذا السلاح ، واختبروه ووجدوا أنه سلاح قاطع .

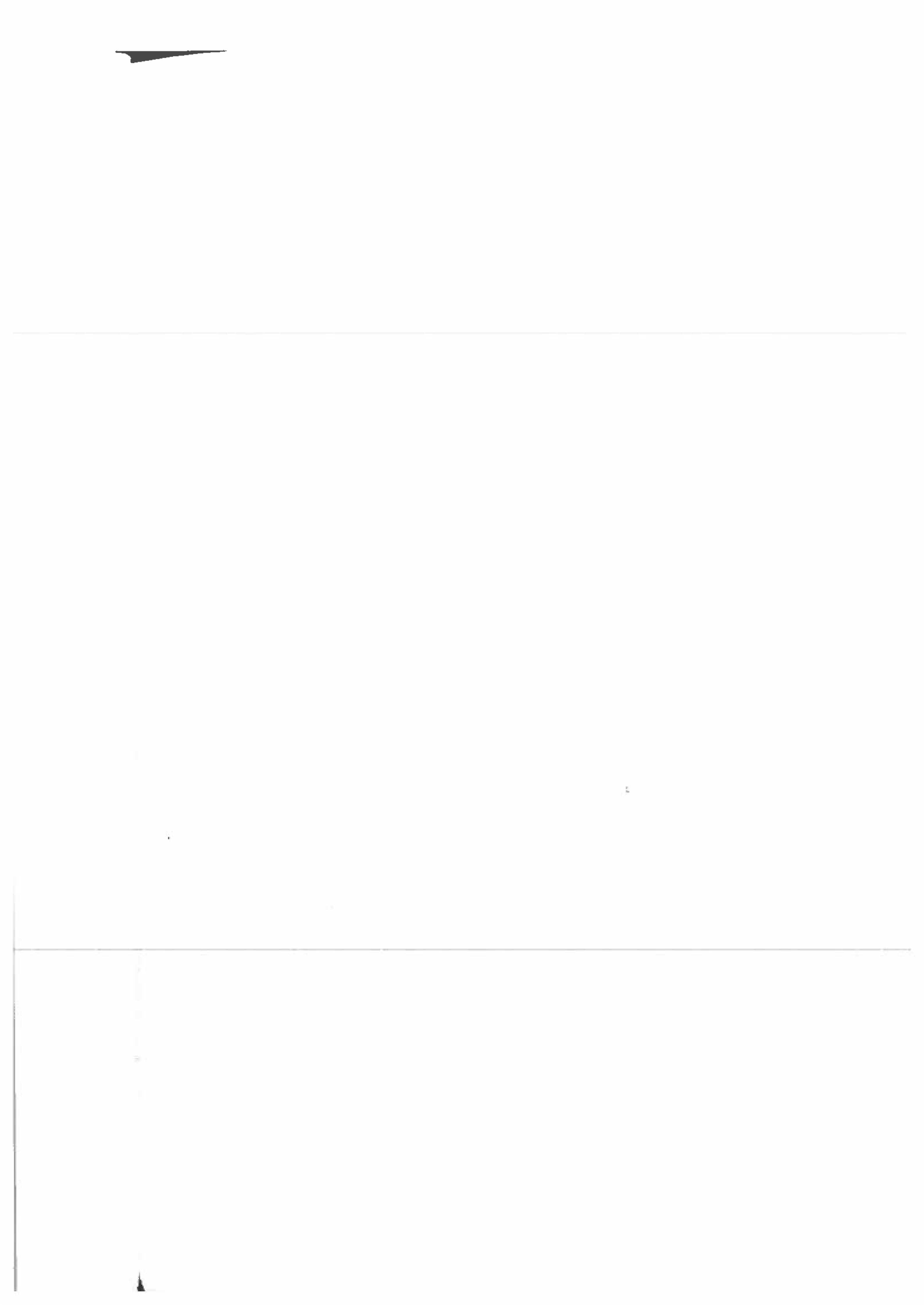


الفصل الخامس عشر

استعادة ما حدث

« لقد كانت الحرب شبه كارثة : كانت كابوساً »

رئيسة الوزراء جولدا مائير



يزعم كل من الجانبين أنه انتصر فى حرب أكتوبر . ولا يعترف أى منهما بالهزيمة ، ولما لم يكن هناك أى حسم عسكرى واضح فى ميدان القتال ، فقد راح يجرى صنع الأساطير وإدراجها فى كتب التاريخ القومى . والآن ، يحاول الإسرائيليون خلق انطباع مفاده أنهم فوجئوا فحسب ، وأنه بمجرد أن استعادوا توازنهم ، كان كل شىء على ما يرام . ويصرون على أن « الكيف » الإسرائيلى لا يزال متفوقاً على « الكم » العربى ، وأن جنرالاتهم الشبان المقتدرين والمفعمين بالطاقة كانوا متفوقين على كبار الضباط العرب ، مثلما كان الجندى الإسرائيلى متفوقاً على الجندى العربى . ويفضل الإسرائيليون القول بأنهم ردوا العرب على أعقابهم فى الجبهتين على حد سواء ، وأنهم عبروا قناة السويس ، وتوغلوا فى أفريقيا ، وحاصروا الجيش الثالث المصرى بسهولة . كما يزعمون أن تدخل القوى العظمى وحده هو الذى أنقذ الجيش الثالث من الاستسلام ، وحال دون تقدم الإسرائيليين داخل الأراضى العربية أكثر من ذلك ، حيث كان الطريق إلى القاهرة مفتوحا أمامهم . ولم تكن هذه الصورة صحيحة على الإطلاق ، وتكرار ترديدها وتصويرها على أنها الحقيقة إنما يعرض الإسرائيليين للوقوع فى نفس أخطاء خداع النفس والإفراط فى الثقة ، وهى الأخطاء التى وقعوا فيها بعد حرب ١٩٦٧ .

ومن الناحية الأخرى ، فإن المصريين يحاولون أيضاً اقناع أنفسهم والآخرين بأنهم كسبوا الحرب . وهم يشيرون إلى حقيقة أن الإسرائيليين ما عادوا على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وأن خط بارليف ما عاد موجوداً . وأن قناة السويس أصبحت الآن مفتوحة أمام حركة الملاحة العادية . إلا أنهم عندما يفعلون ذلك ، فإنهم يتعامون بشكل ضار عن الانجازات العسكرية الإسرائيلية ، وعن حقيقة أنهم لم يتوغلوا فى سيناء بأكثر من ١٦ أو ١٧ ميلا . بل وحتى سوريا قد أقنعت نفسها بأن دفاعها عن خط ساسا كان انتصارا بينما يعتقد العراق والأردن أن وقف اطلاق النار كان سابقا لأوانه ، وأنه منعها من إعادة الإسرائيليين إلى نهر الأردن .

والحقيقة أن حرب أكتوبر كانت ، من الناحية العسكرية ، تعادلاً فرغم أن المصريين قد كسبوا حوالى ٣٠٠ ميل مربع من أراضى سيناء التى يحتلها الإسرائيليون على الضفة

الشرقية لقناة السويس ، فقد خسر السوريون تقريباً نفس المساحة من الأرض فى الشمال .

أما من الناحية السياسية ، فقد غيرت الحرب بشكل حاد الموقف فى الشرق الأوسط من وضع « اللاحرب واللاسلم » الذى كاد أن يتبلور إلى وضع « اللامنتصر واللامهزوم » وباختصار ، فإن كل جانب قد كسب مزايا ، وإن كان قد تكبد خسائر ، وربما كان العرب هم الذين كسبوا أكثر من الإسرائيليين . كما أن الفلسطينيين ، الذين حارب العرب من أجل قضيتهم ، قد كسبوا أيضاً من الناحية السياسية ، وبحلول منتصف نوفمبر ١٩٧٣ ، كان الاتحاد السوفييتى يطالب بضمان « الحقوق القومية » للفلسطينيين ، بالمقارنة بالتعبير المألوف والأقل تحديداً الذى كان يشير إلى « الحقوق المشروعة » ثم اعترفت اليابان « بالحقوق المشروعة » للشعب الفلسطينى ، وفى مارس ١٩٧٤ اعترفت إيطاليا « بالحقوق القومية » للفلسطينيين .

وفقد الإسرائيليون تفوقهم العسكرى الذى ظلوا يتمتعون به على العرب لمدة طويلة ، ولم تعد قوتهم العسكرية وحدها كفيلة بردع العرب عن مهاجمة إسرائيل . وعلى حين يبدو منذ ذلك الحين أن العرب قد كسبوا أكثر من المفاوضات اللاحقة ، فإن الإسرائيليين قد عززوا ترسانتهم الحربية بالأسلحة التى قدمتها الولايات المتحدة بصورة لم يسبق لها مثيل على الإطلاق . وكان أعظم مكسب عربى من الحرب يتمثل فى تحطيم الأسطورة المخيفة عن « الجندى الإسرائيلى الذى لا يقهر » وفى كتاب « **حياتى** » ، كتبت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير تقول : « كانت الحرب شبه كارثة ، كانت كابوساً خضته بنفسى ، وسيظل يلازمنى دائماً .. لقد وجدت نفسى كرئيسة للوزراء فى موقع المسئولية القصوى فى الوقت الذى تواجه فيه الدولة أعظم تهديد عرفته على الإطلاق » .

وقد تمخضت هذه الحرب عن عدد من الدروس الحادة ، بعضها ليس من السهل قبوله . ويتمثل درس من هذه الدروس ، وهو درس يؤثر على حلف شمال الأطلنطى بالقدر الذى يؤثر به على أى حلف آخر ، فى أن هجوم العدو قد لا تسبقه بالضرورة فترة « التوتر السياسى المتصاعد » المقبولة والمتوقعة بشكل تقليدى تقريباً ، وهى الفترة التى تشكل جزءاً من المبدأ العسكرى الغربى الراهن الذى يعتمد عليه حلف شمال الأطلنطى فى تعبئة وحشد احتياطياته ونشر قواته . فقد كان هناك توتر مستمر فى الشرق الأوسط ، وظل يتذبذب فى درجته فحسب قبل أن تنفجر القنبلة الكبرى .

أما الدرس البارز من هذه الحرب ، فيتمثل فى أنه لا يزال من الممكن تحقيق المفاجأة فى العصر الحديث ، على الرغم من تقدم وسائل الحصول على المعلومات والمخابرات ، وأن المفاجأة ربما لا تزال أقيم مبدأ حربى نظرى . وفى الندوة الدولية التى عقدت فى القاهرة فى أكتوبر ١٩٧٥ ، قال الفريق الجمسى إن « هذه [الحرب] أثبتت أنه يمكن تحقيق المفاجأة فى الحرب الحديثة » . فالإسرائيليون ، الذين خدرهم إحساسهم بالتفوق ، ما كانوا يتصورون أن يتمكن العرب من شن هجوم عليهم ، ناهيك عن القيام به على جبهتين فى نفس

الوقت ، كما لم يتخيلوا أن يستطيع العرب وضع مثل هذه الخطط الخداعية أو الاحتفاظ بمثل هذه الأسرار . ولابد أن نستنتج من ذلك أن القوات المسلحة لأية دولة لابد أن تتوخى الاحتراس فى كل الأوقات ، وأن تكون مستعدة للرد على الفور .

ويميل البعض لإلقاء اللوم على أجهزة المخابرات لفشلها فى إعطاء الانذار فى الوقت المناسب ، إلا أن جهاز الموساد الإسرائيلى جهاز شديد الكفاءة ، وقد رصد التحركات العربية وقام بالابلاغ عنها . ولم يكن الفشل يكمن فى تقييم القدرات ، وإنما فى التفريق بينها وبين النوايا . وكان رأى أجهزة المخابرات الأمريكية طيبا فى جهاز الموساد ، ويشك المرء فى أن الجانبين كانا يعملان معاً بشكل وثيق ، وربما كان الأمريكيون يعتمدون على الموساد بأكثر من اللازم . ويقول هيكل « اعترف الأمريكيون لمصر فيما بعد أنهم حصلوا على خطط عملية بدر فى مايو [١٩٧٣] ، ولكنهم لم يصدقوها » .

وكانت الصدمة التالية لمخططى حلف شمال الأطلنطى وللاتحاد السوفييتى ولغيرهم تتمثل فى الحجم الذى لا يصدقه عقل من الدمار المادى الذى حدث فى مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن ، ورغم أن الأرقام الدقيقة مازالت غير متوافرة ، فإنه يمكن الاطمئنان للقول بأنه تم تدميرما لا يقل عن ٥٠٠ طائرة ، و ٢٥٠٠ دبابة ، وعدد لا يحصى من المدافع والمركبات والمعدات الأخرى . وحدث كل ذلك فى الوقت الذى كانت مصانع الإنتاج الحربى الأمريكية قد قللت فيه انتاجها بعد انتهاء حرب فيتنام . ويقول تقرير رسمى (لجنة القوات المسلحة بمجلس النواب الأمريكى - تقرير اللجنة الفرعية عن الشرق الأوسط عام ١٩٧٤) أنه « لا يوجد فى الولايات المتحدة سوى منتج واحد فقط للدبابات من أجل الجيش الأمريكى ، ومعدل الإنتاج الحالى هو ٣٠ دبابة فى الشهر ، أو ٣٦٠ دبابة سنوياً » . ومن المعتقد على سبيل المثال أن فرنسا لم تكن تنتج سوى نحو ٣٠٠ دبابة سنوياً ، كما أن من المعتقد أن الاتحاد السوفييتى لم يكن ينتج أيضاً سوى نفس العدد تقريباً .

وعندما نعرف أن المدفع ٢٣ مم الرباعى المضاد للطائرات يمكن أن يطلق ٤,٠٠٠ طلقة فى الدقيقة ، وأن كثيراً من هذه المدافع كان يفعل ذلك لفترات طويلة فإننا يمكن أن نبدأ فى تقدير الحجم الهائل لمشكلة الإمدادات فى الذخائر وحدها . ويقول هرتزوج « إن الانفاق الإسرائيلى على الذخائر كان عالياً بدرجة غير عادية » وبوجه عام ، كانت الذخائر تستخدم بمعدلات أكبر مما كان متوقعاً ، وسيكون مثيراً للاهتمام أن نعرف على وجه التحديد أعداد كل أنواع الصواريخ السوفيتية والأمريكية ، التى أطلقت خلال هذه الحرب ، وتحليل نتائجها . فقد جعلت هذه الحرب مخططى حلف شمال الأطلنطى ، الذين يشك المرء أنهم كانوا لا يزالون يعتمدون على خبرات الحرب العالمية الثانية ، يسارعون بتعديل تقديراتهم للمخزون الأوروبى من الأسلحة والذخائر ، ولابد أن الاتحاد السوفييتى قد اضطر هو الآخر لإعادة حساباته بشكل مماثل على نحو متعجل .

وعندما قررت الولايات المتحدة أن تقيم علنا جسراً جوياً عبر المحيط الأطلنطى لنقل العتاد الحيوى إلى إسرائيل ، فإنها واجهت صعوبة غير متوقعة . فقد وجدت الأعضاء المنفردين فى حلف شمال الأطلنطى لهم وجهات نظرهم الخاصة إزاء الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وغير مستعدين لقبول السياسة الأمريكية بلا تفكير . وبوجه عام ، كانت أوروبا الغربية وبريطانيا العظمى واليابان تفضل أن تأخذ جانب العرب ، ربما متأثرين فى ذلك باعتمادهم على البترول العربى ، وكانت هولندا وحدها التى تؤيد إسرائيل بشكل سافر . وبصورة متغطرسة أو تفتقر إلى التفكير ، بدأ الأمريكيون يستخدمون قواعدهم الجوية المؤجرة فى جزر الأزور دون أن يبلغوا أولا البرتغاليين بذلك ، وعندما اكتشف البرتغاليون ذلك ، لم يقتنعوا بالسماح باستمرار ذلك إلا لأنهم كانوا بحاجة إلى التأييد فى الأمم المتحدة لموقف استعمارى لا يحظى بالشعبية . ولولا هذه التسهيلات التى قدمها البرتغاليون على مضض ، لما كان بمقدور الولايات المتحدة أن تزود إسرائيل بالإمدادات عن طريق الجو . بل إن تركيا ، وهى عضو فى حلف شمال الأطلنطى ، قد أعطت بالفعل موافقتها للاتحاد السوفييتى لكى تطير طائراته فوق الأراضى التركية لنقل الإمدادات العسكرية للدول العربية ومرة أخرى ، فى العاشر من أكتوبر ، رفضت الحكومة البريطانية السماح للأمريكيين باستخدام قبرص كقاعدة لطائرتى تجسس أمريكيتين من طراز « اس . آر ـ ٧١ » ، ولم تتمكن الولايات المتحدة من إقناع إيران بتوفير قاعدة لهاتين الطائرتين إلا فى يوم ١٢ أكتوبر ، وشعر الأمريكيون بأن حلفاءهم فى حلف شمال الأطلنطى قد خذلوهم بصورة سيئة . وراح آرثر هارتمان مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون أوروبا ينتقد علنا ترددهم فى مساندة الولايات المتحدة خلال حرب أكتوبر ، ويتحدث عن « خيبة أملنا الحادة إزاء بعض الحلفاء خلال أزمة الشرق الأوسط » .

كذلك ، فقد قام الأمريكيون خلال الحرب بسحب الأسلحة ـ وخاصة صواريخ « تاو » ـ والذخائر والعتاد من مخازن حلف شمال الأطلنطى فى أوروبا دون إبلاغ الدول المضيفة بذلك . وعندما تم اكتشاف ذلك ، تسبب فى إثارة مشاعر السخط ، كما أثار التساؤلات حول ما إذا كانت المصالح الثنائية الأمريكية تأتى قبل مصالح حلف شمال الأطلنطى ، وحول ما هو إذن الغرض الأساسى من الحلف ؟ واكتشف الأمريكيون أن حلفاءهم فى حلف شمال الأطلنطى ليسوا توابع على الطريقة السوفيتية ، وتسبب مسلكهم فى حدوث شرخ عميق آخر فى التحالف .

وما من دولة من دول حلف شمال الأطلنطى تستطيع الاستمرار بشكل طبيعى فى وقت السلم دون البترول العربى لاستهلاكها المحلى والصناعى ، بل إن الولايات المتحدة نفسها تحتاج إلى القليل منه للاحتفاظ بمستوى معيشتها المرتفع . وبالنسبة لحلف شمال الأطلنطى ، كان الحظر البترولى العربى هو من أهم العوامل فى الحرب فالاقتصاد الغربى كان يقوم على افتراض أن البترول العربى الوفير والرخيص سيظل متوافرا لسنوات

قادمة . وأظهرت الحرب أن الحال لم يعد كذلك ، حيث أصبح البترول العربى بشكل مفاجىء أكثر تكلفة ، مالياً وسياسياً ، والشىء الأهم أنه كان بمقدور العرب أن يتحملوا انقطاعه تماماً لفترة من الزمن ، حيث كانوا يمتلكون من الاحتياطيات النقدية ما يكفى لاستمرارهم وكانت هذه الحالة توضح أن حلف شمال الأطلنطى لم يكن ليستطيع أن يشن حرباً ضد حلف وارسو دون توافر إمدادات البترول العربى بلا أية قيود . وحيث أن الدول العربية المنتجة للبترول لم تعد « محتلة » ولم تعد القوى الاستعمارية الغربية تسيطر على اقتصادياتها مثلما كان الحال فى الحرب العالمية الأولى ، فقد كان يتعين على حلف شمال الأطلنطى أن يكسب قبول وتأييد العرب ، ربما على حساب إسرائيل ، فى الوقت الذى قد تنشأ فيه المصاعب حول ما إذا كان ينبغى أن تستمر الولايات المتحدة فى ضمان ومساندة إسرائيل .

أما الدروس العامة الأخرى ، فمن بينها خطر الاستعداد لحرب قصيرة فحسب ، فلو لم تكسب مثل هذه الحرب فى الفترة المحددة لها ، فإن نتيجتها الثابتة تكون الخسارة لأن الخطط ومخزون العتاد لا يغطيان الوقت الإضافى . كما يجب أن تكون هناك سيطرة مركزية محكمة على الطائرات ترتبط بشكل وثيق مع الدفاع الجوى ، لتنسيق الفروق الدقيقة التى تستغرق أجزاء من الثانية بين فتح وإغلاق حائط الدفاع الجوى . ويتعين أن تكون القيادة الجوية التكتيكية فى الخلف بأقصى ما يمكن ، بحيث تستطيع السيطرة على جبهة كاملة أو أكثر . ومن الناحية الأخرى ، فإن القيادة العامة للقوات البرية وقادة التشكيلات ينبغى أن تكون متقدمة أماماً على الأرض ، بحيث تكون قادرة على الرد الفورى على أى حالة طارئة . وعلى سبيل المثال ، فبمجرد أن بدأت المعركة وأصبحت العمليات فى حالة سيولة ، فإن مقر القيادة العامة للفريق أول إسماعيل فى « المركز رقم ١٠ » كان بعيداً جداً إلى الخلف . وعندما سألته لماذا لم يكن لديه مقر قيادة عامة ميدانى فى الأمام ، رد بأن « المسافات كانت صغيرة جداً ، وأن إقامة مثل هذه القيادة الميدانية كانت ستتطلب ١٠٠ ضابط إضافى من ضباط الأركان ، وهو ما لم يكن لدينا . وقد كان لدينا مركز قيادة متقدم ، وكنت أزوره أنا والشاذلى من حين لآخر ، كما كان لدينا أيضاً مركز قيادة عامة ميدانى كنا سننتقل إليه فى حالة تقدمنا ويبدو أن القول المأثور هو أن مركز السيطرة الجوية ينبغى أن يكون متأخراً إلى الخلف بقدر الإمكان ، وأن مركز السيطرة البرية ينبغى أن يكون متقدماً إلى الأمام بقدر الإمكان .

وكانت هذه أول حرب ترصد فيها ميادين القتال بشكل منتظم بالأقمار الصناعية الاستطلاعية ، التى تستطيع التقاط وإرسال الصور الفوتوغرافية التى يمكن تكبيرها لدرجة إمكان تحديد المركبات والمدافع والمواقع المنفردة . وكان الروس يتمتعون بميزة كبرى من حيث حصولهم على صورة أوضح وأدق لمسار الحرب ، بشكل يفوق المحاربين أنفسهم الذين كانت رؤيتهم غائمة من جراء دخان وغبار المعركة ، وبشكل يفوق الأمريكيين

الذين كانوا قد أهملوا الشرق الأوسط لصالح أوروبا بسبب التخفيضات فى برامجهم الفضائية . وكانت هناك حالة كوسيجين عندما عرض صور الأقمار الصناعيـة على السادات يوم ١٧ أكتوبر ، ليثبت له مدى اتساع وقوة الاختراق الإسرائيلى فى الضفة الغربية . وفى حروب المستقبل ، ستحصل القوى العظمى بواسطة الأقمار الصناعية الاستطلاعية على معلومات أدق عن ميدان القتال والعدو بصورة تفوق ما كان يحدث من قبل على مدى التاريخ ، بما سيطرح مشكلات جديدة وعاجلة حول المرونة والتمويه .

ولقد أصبح الاستطلاع والمراقبة الجوية أمراً شائعاً فى حروب اليوم ، ورغم أن أداء الإسرائيليين والأمريكيين كان طيباً فى هذا المجال خلال الحرب ، فإنه قد تأثر كثيراً بكفاءة الدفاعات الجوية العربية . وقد أرسلت طائرة استطلاع أمريكية بدون طيار من طراز « ريان فايربى » فوق منطقة قناة السويس يوم ١٧ أكتوبر ، فتم إسقاطها ، لتتوقف بعد ذلك هذه الطريقة باعتبارها مكلفة وضعيفة للغاية . ويبدو أن الجانب الذى يمتلك النظام الأفضل للاستطلاع بالأقمار الصناعية إنما سيتمتع بميزة بارزة فى أى حرب فى المستقبل ، على حين أن الدولة التى لا تمتلك مثل هذا النظام ستكون فى وضع سلبى حاد .

ومن التجديدات الأخرى فى هذه الحرب ما زعم عن تعرض الأسرى الإسرائيليين لاستخدام « عقار الحقيقة » على أيدى السوريين ، الذين أخروا تبادل الأسرى حتى استنزفوا منهم كل المعلومات المفيدة ووفقا لبعض المصادر ، فإن الأسرى الإسرائيليين كانوا يتكلمون بلا تحفظ . وكان العقار المستخدم هو مادة « الساكينيل كولين » ، وزعم أحد المصادر أن فرق التحقيق العسكرية السوفيتية ، التى كانت تستجوب أسرى الحرب الإسرائيليين ، كانت تستخدم أساليب طبية وغيرها لكسر مقاومة الأسرى . وإذا ما أثبتت أساليب « عقار الحقيقة » نجاحها وتطورت بشكل كبير ، وهو ما يقول البعض إنه النتيجة المحتومة ، فإنها قد تصبح عاملاً مساعداً قيما آخر من عوامل جمع المعلومات التى قد نشهدها كسمات شائعة فى حرب المستقبل .

إن قلة من الحروب هى التى تخلو من الاتفاقيات السرية ، التى تفرضها الظروف ، ولم تكن هذه الحرب استثناء من هذه القاعدة . فعلى سبيل المثال ، كانت هناك شكوك قوية فى أن الملك حسين قد عقد ، من خلال وسطاء فرنسيين ، اتفاقاً سرياً مع الإسرائيليين بعدم مهاجمة إسرائيل فى الجزء الأول من الحرب . ومكن ذلك إسرائيل من تحريك تشكيلات من الضفة الغربية لنهر الأردن لاستخدامها فى أماكن أخرى فى وقت حرج . وتميل سياسة الجسور المفتوحة التى ينتهجها الأردن إلى إثبات وجود مثل هذا الاتفاق ، وإن كانت الحكومتان تنفيان وجوده . كما أن بعضا من طائرات الميراج الفرنسية التى حصلت عليها ليبيا ، قد استخدمها المصريون ، وهى حقيقة ظلت الحكومتان تنفيانها لفترة من الوقت بعد الحرب ، عندما طلب العقيد القذافى إعادة الطائرات ، وتردد السادات فى إعادة الطائرات ، حيث كان هناك شىء من الاحتكاك بين الرجلين فى ذلك الوقت ، ولم يكن السادات متأكدا من

الطريقة التى قد يستخدمها بها القذافى الذى لا يسهل التنبؤ بأفعاله . وكان القذافى قد وعد فرنسا بعدم تصدير الطائرات أو استخدامها فى غرض آخر غير الدفاع عن ليبيا ، ولذلك كانت السرية أمراً يمكن فهمه ، فلو أذيع الأمر ، فإن فرنسا ربما لم تكن لترسل الجزء الباقى من شحنة الطائرات الموعودة أو إمدادات قطع الغيار الحيوية .

وقد اتهم العرب الأمريكيين بمساعدة الإسرائيليين ، واتهم الإسرائيليون الاتحاد السوفييتى بمساعدة العرب . وقال كل جانب إنه لولا هذه المساعدة المتصلة ، لما كان بمقدور الجانب الآخر على الأرجح أن يخوض الحرب ، وليس لكل هذه المدة بالتأكيد . وكان كلاهما على صواب ، فقد تدفقت الامدادات المادية بكميات كبيرة من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ، أما مسألة من حصل على كميات أكبر ، فهى مسألة مازالت موضع خلاف لم يحسم . إن دعم العمل العسكرى يميل دائماً للتصاعد ، سواء فى التعزيزات أو الأسلحة أو الإمدادات ، وحرب ڤيتنام نموذج على ذلك . ففى الأصل ، لم يكن لا الاتحاد السوفييتى ولا الولايات المتحدة يريدان الحرب ، نظراً لاهتمامهما ومصلحتهما فى الوفاق الدولى ، ولكن بمجرد أن بدأت الحرب ، ما كان أى منهما يريد الهزيمة لأتباعه . وبالتالى ، بدأ كل منهما فى إمداد أتباعه ، وهى العملية التى راحت تتصاعد بشكل هائل ، نظراً لفداحة الدمار المادى الذى حدث فى ميدان المعركة ، وهو التصاعد الذى ما كان بمقدور أى من الجانبين إيقافه حتى تم فرض وقف لإطلاق النار . ويقول هيكل إنه فى يوم ١٧ أكتوبر ، أبلغ كيسنجر الرئيس نيكسون أن إسرائيل لا تستطيع خوض الحرب بمفردها لأكثر من تسعة أيام ، وأنها بعد هذه المدة ستعتمد بالكامل على الولايات المتحدة . وفى مقابلة صحفية مع صحيفة « **النهار** » اللبنانية يوم ٢٢ يونيو ١٩٧٥ ، قال الرئيس السادات : « عندما أردت تصفية الجيب الإسرائيلى [على الضفة الغربية] فى ديسمبر ١٩٧٣ ، وكنت مستعداً لعمل ذلك ، جاء كيسنجر يومى ١١ و ١٢ ديسمبر ، ونقلت إليه الموقف ، وسألته عن موقف أمريكا . ورد كيسنجر بقوله : سندخل الحرب إلى جانب إسرائيل ضدك ، لأننا لن نسمح بأن تنتصر الأسلحة السوفيتية على الأسلحة الأمريكية **مرة أخرى** » (خط التشديد للمؤلف) .

ولم يرسل أى من الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة قوات مقاتلة بمعنى الكلمة ، كالطيارين أو الجنود ، ولكن كانت هناك مساحة رمادية واسعة فى الجانبين ، عندما بدأت الحرب ، كان هناك حوالى ٧٠ من الأفراد السوفييت مع المصريين ، الذين يصرون على أنه لم يكن بينهم أى مستشار ، بل كانوا جميعا فنيين متخصصين ، إما لتدريب المصريين أو لإصلاح المعدات المعقدة . وخلال الحرب ، وصل إلى مصر ما يصل إلى ١,٠٠٠ سوفييتى آخرين . وكان هناك على الأرجح نحو ٢,٠٠٠ سوفييتى أو أكثر فى سوريا عندما بدأت الحرب ، كان واضحا أن بعضهم من المستشارين ، بينما كان نحو ١,٠٠٠ منهم موزعين على وحدات الدفاع الجوى . ويقول جلاسمان إن « المستشارين السوفييت كانوا

موجودين فى مواقع القيادة السورية فى كل المستويات ، من مستوى الكتيبة فصاعداً ، بما فى ذلك القيادة العليا » وخاض بعضهم القتال فعلاً مع السوريين ، ومن المعتقد أن ٢٠ سوفييتيا على الأقل قد قتلوا خلال المعارك مع افتراض نسبة أكبر من الجرحى ، وهى النسبة المقبولة بصورة تقليدية وفى تصريحات أدلى بها شيمون بيريز أمام الكنيست ، فى الثانى من يوليو ١٩٧٤ ، قال إن « ضباطا كباراً من الروس قد قتلوا فى ميدان القتال فى سوريا » دون أن يحدد عددهم وترددت شائعات قوية فى ذلك الوقت بأن الإسرائيليين أسروا عدداً من الروس ، ولكن هذه الشائعة نفيت وتم التقليل من شأنها . ولكن كان ملحوظاً بعد الحرب مباشرة أنه تم السماح لبعض اليهود بمغادرة الاتحاد السوفييتى حيث تواترت شكوك بحدوث عملية تبادل سراً . وأكدت صحيفة « **الأوبزرفر** » اللندنية هذه الشائعة بقولها إن « الإسرائيليين أسروا سبعة جنود نظاميين روس فى الأسبوع الأول ، حيث استسلم الروس عندما اجتاح الإسرائيليون موقعهم المحصن فى الخط الأول من الدفاعات السورية » . وأضافت إن الإسرائيليين أحاطوا هذه الحادثة بأكبر قدر من السرية ، ونقلوا الروس بسرعة إلى قاعدة رامات دافيد الجوية لاستجوابهم وتدفقت على سوريا خلال الحرب أعداد أخرى من السوفييت من أجل الجسر الجوى السوفييتى ، ومن أجل إصلاح معدات صواريخ سام وأجهزة الرادار .

وعلى الجانب الآخر ، تلقت إسرائيل مساعدات أمريكية مماثلة ، وإن لم تكن مكثفة بهذا القدر . وقد أعلن العرب بشكل واسع أن طيارين أمريكيين ، بعضهم ممن خاضوا القتال فى حرب فيتنام كانوا يطيرون بطائرات سلاح الجو الإسرائيلى . ورغم نفى هذا الاتهام ، فقد تم الاعتراف فيما بعد بأن عدداً صغيراً من العسكريين الأمريكيين كانوا فى إسرائيل من أجل الجسر الجوى الأمريكى . وخلال الحرب ، عاد عدد كبير من أفراد الاحتياط الإسرائيليين فى الخارج ، ومن بينهم عدد يحمل جنسية مزدوجة أى يحملون جوازى سفر إسرائيلى وأمريكى ، وهذه مساحة رمادية واسعة يلتزم الإسرائيليون الصمت فيها ، وربما يكون هناك جانب من الحقيقة فيما يقوله العرب بشأنها .

وإذا كان الهجوم الأول المفاجىء هو أقوى ورقة فى الجانب العربى ، فإن أقوى ورقة فى الجانب الإسرائيلى كانت القدرة على الرد بتعبئة سريعة . فخلال أربع وعشرين ساعة ، كانت عناصر أربع فرق احتياط موجودة فى ميادين القتال وكان ذلك عكس ما حدث عام ١٩٦٧ ، ففى هذه المرة كان العرب هم الذين عبأوا قواتهم على مدار عدة أيام ، وتمتعوا بميزة التدريب التنشيطى والجماعى ، بينما كان الإسرائيليون هم الذين فى حالة من عدم الاستعداد والتجهيز . وكانت الساعات الأولى فى التعبئة تتسم بالارتباك ولكن سرعان ما انتظمت الأمور .

وبينما كان هدف إسرائيل الاستراتيجى يتمثل فى كسب معارك حاسمة بشكل سريع ، فإن الهدف الاستراتيجى للعرب كان محدوداً بدرجة أكبر ويتمثل ببساطة فى استعادة

الأراضى المحتلة . ويقول الفريق الجمسى إنه « على المستوى الاستراتيجى ، فإن الحرب قد هزت النظريات والمبادىء التى يعتنقها الإسرائيليون ، ودمرت نظرية الأمن » الإسرائيلية ، بالإضافة إلى نظريتهم فى « الحرب الوقائية » واستطرد يقول إن الحرب « كانت مخططة وأود أن أؤكد من البداية أنها كانت استراتيجية مصرية خالصة ، ليست مستوردة لا من الشرق ولا من الغرب » وقد عبر المصريون قناة السويس على جبهة عريضة واقتحموا خط بارليف ، وكانت هذه هى المرة الأولى فى التاريخ العسكرى التى يتم فيها التغلب على مثل هذا المانع الدفاعى بوسائل عسكرية فالموانع الأخرى ، مثل خط ماجينو ، كان يتم الالتفاف حولها . وبمجرد أن أصبح على الضفة الشرقية ، فإن الفريق أول إسماعيل الذى يتسم بالحذر ربما كان سيظل على الأرجح فى ظل حماية حائط الدفاع الجوى قانعاً فى انتظار وقف إطلاق النار ، وراضياً على قوة ومزايا موقفه بينما الإسرائيليون يدمرون أنفسهم على « صخوره » وربما لم يكن على الأرجح ليتقدم إلى الأمام على الإطلاق لو لم يضطر لذلك بسبب قرار سياسى ، وقد تدرب الجنود المصريون على القيام بهذه العملية بالتحديد ، وقاموا بها بشكل رائع ولكن إسماعيل كان يعرف أنهم غير مدربين على الحرب المتحركة ، وخرجت الأمور عن نطاق السيطرة ، حيث لم تكن قيادته العامة ولا تشكيلاته الميدانية تتسم بالمرونة .

إن قرار الفريق أول إسماعيل بنقل جزء من احتياطيه المدرع الاستراتيجى إلى الضفة الشرقية يومى ١١ و ١٢ أكتوبر ، لابد أن يكون موضع تساؤل ، فقد قال لى إنه كان يتوقع عملية إنزال إسرائيلية محمولة جواً فى الضفة الغربية ، وكان يعرف بخطة الإسرائيليين لعبور القناة و « اجتياح » حائط الدفاع الجوى . فمدرعاته كانت الشىء النموذجى لصد مثل هذه العمليات .

أما الفريق الشاذلى رئيس الأركان الذى كان يتجادل مع الفريق أول إسماعيل ، ويحثه خلال الأسبوع الأول على الاندفاع إلى الممرات ، فقد كان فى تقديرى مخطئا تماماً . فخارج حماية حائط الدفاع الجوى ، كان الجيش المصرى سيصبح تحت رحمة سلاح الجو الإسرائيلى ، الذى كان لا يزال أكثر تفوقاً من سلاح الطيران المصرى . ومع ذلك ، فإن التوصية التى اقترحها الشاذلى ، بعد أن زار الجبهة يوم ١٨ أكتوبر وأدرك مدى قوة وعمق الثغرة الإسرائيلية ، كانت تتمثل فى سحب المدرعات الاستراتيجية من الضفة الشرقية على جناح السرعة للتعامل مع الثغرة . وكان ذلك اقتراحاً صائباً ، فى تقديرى ، حيث يمكن أن تكون المدرعات فعالة فى هذه الحالة . ومن القرارات الخاطئة الأخرى ، التى ربما كان الشاذلى هو المسئول عنها ، قرار سحب لواء المظلات ووحدات المدفعية التى كانت تهدد وتقصف جسر الإسرائيليين ورءوس جسورهم يومى ١٨ و١٩ أكتوبر . فغياب هذه القوات مكن الإسرائيليين من تثبيت أقدامهم على الضفة الغربية دون أن يتكبدوا كثيراً من الخسائر .

وقد أعطى المصريون الأولوية للمشاة واحتفظوا بالمدرعات فى الخلف . وكان ذلك تشكيلاً طيباً ، وعكس ما كان الإسرائيليون يتوقعونه ويأملون فيه ، ولكن بعد أن تقدم المصريون ، كانت تشكيلاتهم تتسم بالجمود الشديد وضيق الأفق البالغ ، فكانت عيونهم جميعاً تنظر للأمام فقط ، وباختصار ، فقد طور المصريون مفهوم الارتقاء بالمشاة المزودين بالأسلحة المضادة للدبابات إلى دور قيادى ، بدلاً من الدور المعاون إلا أن الاتصال كان ضئيلاً بين قادة التشكيلات والتشكيلات التى على أجنابهم ، وكان نقل المعلومات للقيادة ضعيفاً ، ورد الفعل إزاء أى شىء غير متوقع بطيئاً . وكانت الحاجة واضحة لوجود قائد للقوات فى الميدان . وبإيجاز ، فقد خطط المصريون لقفزتهم الكبرى الأولى وتدربوا عليها بالتفصيل ولكنهم فكروا فقط فى القفزة التالية ، وهى التقدم إلى الممرات ، دون أن يخططوا لها أو يتدربوا عليها .

وكانت الاستراتيجية السورية تتمثل فى شق الطريق عبر هضبة الجولان إلى نهر الأردن ، ولكن الهجوم الواسع ، الذى كان ناجحاً فى البداية ، توقف بسبب الافتقار إلى الثقة بالنفس ، وبسبب إدراك مدى ضعف المدرعات بمجرد خروجها من نطاق حماية حائط الدفاع الجوى . وعندئذ ، فشل السوريون فى التقدم وردتهم إلى الخلف تعزيـزات الإسرائيليين الذين استعادوا توازنهم بعد الصدمات الأولى وبالنسبة للشخصية السورية التى تعتد بنفسها ، فإن أى نصيحة . ولاسيما من الأجانب ، كانت شيئاً كريها ، وانقضت أربعة أيام قبل أن يسمح للمستشارين السوفييت بدخول غرفة عمليات القيادة العامة ، وبحلول ذلك الوقت كانت الكارثة قد وقعت للفرق السورية واقترح المستشارون السوفييت انسحابا سريعا إلى خط ساسا .. وتم تنفيذ الانسحاب بصورة طيبة إلى حد كبير ، باستثناء التخلى عن كل المدافع والمركبات ، وبمجرد أن تمركز السوريون فى خط ساسا ، فقد صمدوا ، ولم يتمكن الإسرائيليون من اختراق صفوفهم .

ولأسباب سياسية لم يدع العراقيون إلى ميدان القتال إلا فى « ساعة الذعر » لكى يساعدوا فى تحقيق استقرار الموقف . وبعد أن وصل العراقيون ، تبعهم الأردنيون ، لأسباب سياسية أيضاً .

وقد فشل الهجومان العربيان المشتركان بسبب الافتقار إلى التنسيق أو الثقة بين الجيوش الثلاثة ، وبسبب عدم وجود قيادة حازمة . وكانت طبيعة القتال على الجبهة السورية تميل إلى الشكل القوى البطىء الذى لا ينطوى على كثير من المهارة أو البراعة .

وقال لى اللواء طلاس : « لقد كنا مستعدين سياسياً ، ولكننـا لم نكن مستعدين عسكرياً » وقال : عندما نفكر فى صراعنا مع إسرائيل ، فإننى أرى السوريين مثل الروس والإسرائيليين مثل الألمان فى الحرب العالمية الثانية » . وكان واضحاً أن شبح نكبة ١٩٦٧ يطارده وكان طلاس يبدو لى شخصاً لطيفاً ، وإن كان متردداً ، لا يريد حدوث متاعب فورية ، وتراوده الأفكار المترددة كثيراً ، ولابد أن يقع اللوم على القيادة السورية العليا ،

ولابد من القول بأن القيادة السياسية فى جيش يخوض معركة ليست بديلاً عن القيادة العسكرية السليمة . فالخيال والإقدام فى عالم السياسة ليس بديلاً عن الخيال والإقدام فى المعركة .

وقبل حرب أكتوبر ، كانت الدول الأكبر تميل إلى أن تستبدل مدافعها بالصواريخ تدريجيا . وكانت النظرية التى تكمن خلف ذلك تقول بأنه بمجرد إطلاق قذيفة المدفع ، فإنها لا يمكن أن ترد ، بل لابد أن تستمر فى طريقها حتى وإن كان الهدف (دبابة مثلا) قد تحرك من الموقع الذى تم التنشين عليه فى الأصل . أما بالصاروخ المضاد للدبابات على سبيل المثال ، فمهما تحركت الدبابة ، فإن الصاروخ يستطيع ملاحقتها ، بشرط أن تظل داخل مدى ومجال رؤية الصاروخ . وكانت هناك حجج مماثلة بالنسبة للصواريخ سطح/جو ، التى كانت مصممة بحيث تندفع للاصطدام بالطائرة بوسائل متنوعة ، حيث كان معتقداً أن المدفعية التقليدية المضادة للطائرات قد أصبحت شيئاً عتيقاً . وكانت الحرب قد أحدثت بعض الاستنتاجات المفاجئة والمزعجة لأنصار الصواريخ أو الدبابات أو الطائرات . وليس متاحاً بعد القيام بتحليل كامل لتأثيرات مختلف الأسلحة ، وربما لن يتوافر على الإطلاق ولكن هناك أرقاماً جزئية وانتقائية وهى الأرقام التى صارت حججاً لأنصار هذا النوع أو ذلك . فعلى سبيل المثال ، ظل الإسرائيليون بشكل تقليدى يقللون من شأن التأثير القاتل للصواريخ ، سواء المضادة للطائرات أو المضادة للدبابات ، ويتفاخرون بتفوق سلاحهم الجوى ومدافع دباباتهم ، بينما يميل العرب إلى جانب الصواريخ .

ولما كان الإسرائيليون يؤمنون بأن تدمير دبابة يتطلب دبابة أخرى ، ولما كانوا يؤمنون بتفوقهم فى حرب المدرعات المتحركة ، فإنهم كانوا يحتقرون الصواريخ المضادة للدبابات ، التى كانت أولويتها متأخرة جداً بالنسبة لهم . وحتى الآن ربما لا يحرصون على الاعتراف بكفاءة تلك الصواريخ ، لأسباب نفسية فى المقام الأول ، يمكن أن نضيف إليها أسباب المصالح المستقرة . ويقول الجنرال هرتزوج أن أقل من ٢٥ فى المائة من الدبابات الإسرائيلية هى التى أصيبت بالصواريخ أما الجنرال إيتان ، فى معرض حديثه عن التقدم الإسرائيلى داخل سوريا عبر خط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧ ، فيصر على أن الصواريخ لم تصب أياً من دباباته . ومع افتخار الإسرائيليين بكفاءة أطقم مدافع دباباتهم وإصابتهم لأهدافهم من أول قذيفة ، فإنهم راحوا يقللون من شأن استخدامهم المكثف لصواريخ « تاو » فى الجزء الثانى من الحرب ويعترف المصريون بأن صواريخ « تاو » دمرت كثيراً من دباباتهم . ومن المؤكد أن الدبابات التى لا يعززها مشاة متحركون تصبح هدفاً سهلاً للصواريخ التى يطلقها رجال المشاة فى الجانب الآخر .

ومع تصاعد الاتجاه الشائع لحمل جنود المشاة فى ناقلات جنود مدرعة توفر لهم الحماية ضد شظايا القذائف ونيران الأسلحة الصغيرة ، فقد كان معتقداً أن الحاجة للقذائف

شديدة الانفجار المخصصة أصلاً لتحطيم تشكيلات المشاة ، لم تعد ضرورية . وفى البداية لم يكن الإسرائيليون يمتلكون أياً من هذه القذائف التى كانت ستتسم بالفاعلية ضد المشاة العرب المسلحين بالصواريخ المضادة للدبابات ؛ كما لم تكن دباباتهم المتقدمة تمتلك أى هاونات . وبمجرد أن أدرك الإسرائيليون ما كان يحدث ، فقد عادوا إلى أسلوب فرق القتال الشاملة (بكل الأسلحة) التى كانت تضم الدبابات والمدافع والهاونات والصواريخ والمشاة ، والتى كانت أكثر نجاحاً . واضطر السوريون إلى انتهاج هذا الأسلوب حيث كانت كل أسلحتهم مكدسة معاً فى هضبة الجولان أما المصريون ، فلم يخرجوا حقاً عن هذا الأسلوب على الإطلاق . وهكذا كان الاستنتاج الذى انتهى إليه خبراء حلف شمال الأطلنطى وأنصار حرب المدرعات هو أن الدبابة ليست سلاحاً عتيقاً عفا عليه الزمن ، ولكنها سلاح لابد أن يستخدم بصورة مشتركة مع الأسلحة الأخرى . وأشعر أن التراث والمصالح المستقرة تتضافران للإبقاء على أهمية الدبابة .

وفى الجو ، يميل العرب إلى التأكيد على الكفاءة القاتلة لصواريخهم من طراز سام ، بينما يقللون من شأن الوسائل الالكترونية المضادة المثبتة فى الطائرات ؛ أما الإسرائيليون فيحاولون إقناع المرء بعكس ذلك . ويستخدم كل جانب مجموعات من الأرقام الانتقائية لتعزيز وجهة نظره . وفى المجال المعقد للطائرات والصواريخ وأجهزة الرادار والوسائل الالكترونية المضادة وفى السباق المجنون الهائل التكلفة لتحقيق التفوق الفنى ، فإن أقل ميزة تتحقق لطرف يمكن أن تعنى كارثة للطرف الآخر . كذلك فإن الأمر يتطلب أعداداً كبيرة منها لتغطية مساحة صغيرة نسبياً من الأرض ، وبالتالى فلابد من استخدام وسائل قتال أخرى أقل تعقيداً لصد الهجمات الجوية . وقد رأينا مدى التأثير القاتل لساتر الرصاص الصلب ـ وهو أمر مكلف أيضاً وإن لم يكن بمثل تكلفة صواريخ سام والوسائل الالكترونية المضادة ـ الذى كانت تشكله نيران المدافع التقليدية المضادة للطائرات وأولئك الذين يظنون أن المدافع المضادة للطائرات ، بل وكل المدافع فى الواقع قد أصبحت شيئاً عتيقاً ، إنما يحسن بهم أن يعيدوا النظر فى أفكارهم .

لقد أصبحت الطائرات والدبابات أشياء رئيسية اليوم . فقد سيطرت الطائرات والدبابات على نظرية وممارسة الحرب لسنوات طويلة ، بحيث يصعب أن نتخيل حرباً لاتلعب فيها الدور الرئيسي وربما علينا أن نفعل نفس الشيء ويقول هرتزوج « كان أحد الأخطاء التى ارتكبناها يتمثل فى أننا افترضنا بعد حرب ١٩٦٧ أن كل ما تحتاجه هو دبابة وطائرة وسيكون بمقدورك أن تفعل بهما ما تشاء ـ ولكن لم يكن ذلك صحيحاً » وقال لى الفريق أول إسماعيل بصورة أكثر تواضعاً « لقد فقدت الطائرات والدبابات سيادتها على السماء وعلى ميدان القتال ، ولكنها لم تفقد قيمتها » ولكن ربما تنخفض قيمتها بأسرع مما يريد كثيرون أن يعترفوا به .

وبالنسبة للمركبات يقول العرب إنهم يفضلون الدبابات السوفييتية على الأمريكية أو البريطانية فرغم أنها تحدث ضجيجاً أكثر وتوفر راحة أقل لأفراد الطاقم ، فإنها أكثر « حماية للجندى » وتتمتع بدائرة عمل أوسع من الدبابات الغربية . ويقول العرب إنهم سعداء للغاية بالاحتفاظ بها . ومن الناحية الأخرى ، يفضل الإسرائيليون الدبابات الأمريكية والبريطانية ويقولون إنها متفوقة على الدبابات السوفيتية ويبدو الأمر مثل صانعى أحذية يتحدثان عن نوعية جلود كل منهما ، بما يجعل من الصعب عقد مقارنة تحليلية ومعظم الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى تقول إن تدريب طاقم دبابة يستغرق ١٨ شهراً ، ولكن المصريين يقولون إن تدريب أطقمهم لم يستغرق سوى تسعة أشهر فقط ، حيث أن الدبابات السوفيتية أبسط نسبياً فى تشغيلها وصيانتها . وكان هناك استثناء يتمثل فى أن الضباط الأردنيين الذى شاركوا فى القتال على هضبة الجولان قد قالوا إن المعدات السوفيتية التى كانت فى أيدى السوريين كانت متفوقة على معداتهم الغربية .

ولقد قيل الكثير عن الضباط الإسرائيليين - عن إخلاصهم ودرجة تدريبهم العالية وكفاءتهم وهو ما كان صحيحاً بالتأكيد عام ١٩٦٧ ؛ ومع ذلك فهناك شك فى أن مستوياتهم قد انخفضت قليلاً بعد ذلك وأدت الغمغمات والشائعات فى إسرائيل بعد حرب أكتوبر ، من أنها كانت « حرب الجنود » بالحكومة الإسرائيلية لأن تصدر بياناً فى ١٢ مارس ١٩٧٤ يفيد بأن ٢٣ فى المائة « أى حوالى ٦٠٠ » من القتلى البالغ عددهم ٢,٥٢٢ قتيلاً كانوا من الضباط وأن ١٢٣ قتيلاً فقط منهم كانوا جنوداً بدرجة نفر ، وعلى أى حال . بمجرد أن تغلب الضباط على الصدمة الأولية فإنهم سرعان ما استردوا تصميمهم .

أما أعظم تحسن حدث فى صفوف الضباط ، فقد كان فى الجانب المصرى فمنذ هزيمتهم وانكسارهم عام ١٩٦٧ راح الضباط يتحسنون بصورة مضطردة من حيث الإخلاص والكفاءة واللياقة . ولم يعد شارع الهرم (شارع الملاهى الليلية فى القاهرة الذى كان وصمة عار عام ١٩٦٧) بالمكان الذى يرى فيه ضابط من الضباط . وتحقق التخصص ، كما تشهد بذلك حقيقة أن الضباط المصريين كانوا يقومون ، دون معاونة من أحد بتشغيل حائط الدفاع الجوى شديد التعقيد ، بدرجة كبيرة من النجاح .

أما الضباط السوريون ، فلم يكونوا بنفس المستوى لأنه كان جيشاً سياسياً فى بلد صغير . فكثير من كبار الضباط كانوا يتطلعون إلى مستقبل سياسى أكثر مما يتطلعون إلى مستقبل عسكرى محض . وكان صغار الضباط الذين رأيتهم يبدون أشداء مخلصين يتمتعون باليقظة ؛ ولكن فى الرتب المتوسطة ، من رائد إلى عقيد ، كنت أشعر بأنهم يفتقرون إلى الاهتمام بعملهم . وكان الخيال والحماس للمعركة يبدوان غائبين . وكان الكبرياء يمنعهم من قبول نصائح السوفييت على الفور ، ومن الاعتراف بالأخطاء والسلبيات ، ومن تقبل الانتقادات . ورغم أن حائط الدفاع الجوى السورى كان أكثر كفاءة من حائط الدفاع الجوى المصرى ، فقد كان ذلك يرجع إلى وجود كثير من الفنيين السوفييت .

وبالنسبة للجنود ، ومن الزاوية العسكرية الأسبرطية ، فقد كان الإسرائيليون يميلون لأن يصبحوا أكثر رخاوة بعد ١٩٦٧ . فقد كانت هناك حالات كثيرة لتلافى أوامر الاستدعاء والتدريب السنوى ، وللبطء والتثاقل ، وعدم الانضباط واللامبالاة وهى ظواهر كانت تخفيها عقدة التفوق والاعتقاد بأن « العرب يفرون دائماً فى المعركة » . وبالنسبة للمجند الإسرائيلى كان العرب مجرد شىء مزعج ، ولكن ليس خطراً ويقول هرتزوج : « لقد صار واضحاً اليوم أن جزءاً من سلبياتنا عند بداية الحرب كان ينبع من الافتقار إلى الانضباط .. وفى مناخ من الإهمال وعدم الاهتمام ، شاع فى أرجاء الأمة ، وأصاب الجيش بعدواه » . إلا أنه بعد فترة سارت الأمور بشكل أفضل .

أما الجنود المصريون ، فكانوا مدربين جيداً ومنضبطين وأشداء . وكانت الصفوف تضم جنوداً أكثر من أبناء المدن ، بينهم أعداد من الحاصلين على تعليم ثانوى أو عالٍ ، وهو الأمر الذى لم يكن ممكناً فى أيام الرئيس عبد الناصر ؛ وقد كانوا بمثابة « خميرة » مكنت الجنود المصريين من التعامل مع الصواريخ المضادة للدبابات ، وأن يشكلوا أطقم دبابات ومدفعية تتسم بالكفاءة . وكان الجنود السوريون أيضاً مدربين جيداً ومنضبطين وأشداء ، ولكن لم يكن هناك مثل هذه « الخميرة » التعليمية .

وإذا كان لا يزال يتعين الاعتراف بوجه عام بأن الجندى الإسرائيلى أفضل تدريباً وتعليماً وأكثر مرونة من نظيره العربى ، فإن الفارق التكنولوچى الذى يتبجح به الإسرائيليون ، ويعتمدون عليه بشدة فى الاحتفاظ بتفوق « الكيف » على « الكم » فى المعركة على مدى جيلين آخرين ، أصبح يضيق بسرعة ، وربما يختفى سريعاً فى بعض الجوانب ، وإذا ما عقدنا بعض المقارنات ، فربما كانت القوات الخاصة المصرية أفضل من القوات الخاصة الإسرائيلية ، وربما كانت قوات الكوماندوز السورية على نفس مستوى الإسرائيليين أيضاً . وعلى حين أن جنود المشاة المصريين والسوريين ربما كانوا أشد وأقوى من الإسرائيليين فإن الإسرائيليين كانوا أكثر مرونة . ولا يزال الإسرائيليون يحتفظون بتفوقهم فى حرب المدرعات وفى الجو ، ولكن هذا التفوق قد يزول . وعندما سألت ضابطاً مصرياً برتبة العميد فى سلاح المدرعات عن رأيه فى أطقم الدبابات الإسرائيليين والعرب ، قال : إن المصريين تعلموا الاعتماد على النفس بدرجة أكبر ، بينما تعتمد أطقم الدبابات الإسرائيلية بدرجة كبيرة جداً على فرق الإصلاح ، دون أن تقوم بصورة آلية بالإصلاحات البسيطة لكى تظل الدبابات تعمل . وقال إنه رأى كثيراً من الدبابات التى تركها الإسرائيليون بسبب أعطال فنية بسيطة ينبغى أن يكون سائق الدبابة قادراً على إصلاحها بنفسه .

وقد تكبد الإسرائيليون خسائر فادحة فى أطقم الدبابات ؛ ويستغرق الأمر منهم ١٨ شهراً لتدريب بدلاء لهم . أما العرب فقد كان بمقدورهم استيعاب خسائرهم فى أفراد المدرعات بصورة أفضل كثيراً ؛ لأن مدة تدريبهم المستهدفة لا تتجاوز تسعة أشهر فقط .

وفى الجو ، تكبد الإسرائيليون خسائر فادحة فى الطيارين : فكل طيارى « أسراب الصيد » الإسرائيلية قد لقوا مصرعهم بشكل فعلى أثناء الحرب ، على حين أن المصريين ، وإلى حد ما السوريين ، قد احتفظوا بسلاح طيرانهم فى الخلف ، وقللوا بالتالى من خسائرهم فى الطيارين إلى أقل حد ممكن وذلك يعنى أن مصر ، بطياريها الذين أكملوا تدريباً لمدة سبع سنوات ، تنتج الآن ، وسيظل بمقدورها أن تنتج وتحتفظ بطيارين يعادلون فى مستواهم طيارى « أسراب الصيد » الإسرائيلية السابقة .

ولم يتم إسقاط أي قوات بالمظلات خلال هذه الحرب ؛ ولكن كان كل جانب يتوقع أن يقوم الجانب الآخر بعملية إنزال محمولة جواً فى مناطقه الخلفية . وقد استخدم الإسرائيليون بوجه عام طائراتهم الهليكوبتر كمركبات لنقل الذخائر والإمدادات العاجلة إلى الجبهات والعودة بالجرحى ولكن كانت هناك استثناءات ، مثلما حدث عندما استخدمت طائرات الهليكوبتر لنقل القوات إلى مواقعها فى الهجمات الأخيرة على جبل الشيخ ، وفى الهجوم على الطابور العراقى الذى كان يتحرك داخل سوريا (إذا كان قد حدث مثل هذا الهجوم حقاً) وفى الهجوم على جبل عتاقة ، واستخدم العرب أيضاً طائرات الهليكوبتر فى نفس الأغراض الأولية ، ولكنهم كانوا يميلون إلى اعتبارها مركبات قتالية بدرجة أكبر . فاستخدمها المصريون فى نقل القوات الخاصة للقيام بمهامها ، وفى إلقاء القنابل والنابالم على الجسور الإسرائيلية عبر قناة السويس ، وعلى مركباتهم وقواتهم فى الضفة الغربية . كذلك فقد استخدم السوريون طائرات الهليكوبتر فى بعض الحالات فى نقل القوات إلى ميدان القتال .

وكان الانضباط يبدو جيداً لدى المصريين والسوريين ، بين الضباط والجنود على حد سواء ، فى ميدان القتال ، رغم أنه كانت هناك استثناءات ومنح العرب المكافآت والترقيات والأوسمة والأنواط بصورة أحيطت بشىء من الدعاية ؛ ولكنهم أيضاً قرروا تخفيضات فى الرتب وعزل من الخدمة وعقوبات للمقصرين ، فى هدوء ودون تعليق . واتبع الإسرائيليون نفس النهج إلى حد كبير ، حيث كان الاستثناء أنهم كانوا يبدون شديدى الخجل فى منح أوسمة الشجاعة . فقد منحت أوسمة لعدد غير معروف ، ولكن دون إعلان – وهو نظام لا يروق لكثير من الإسرائيليين .

وكانت إحدى حالات المحاكمات العسكرية الإسرائيلية التى تسربت لتنتقل إلى عناوين الصحف هى حالة الرقيبين الفنيين ، اللذين تم إرسالهما لإصلاح بعض المركبات وحوصرا فى إحدى نقاط خط بارليف عندما اندلعت الحرب فجأة فقد رفضا تقديم المساعدة أو المشاركة فى الدفاع عن النقطة الحصينة لمدة يومين . ورغم أنهما شاركا فى القتال فى اليوم الثالث فقد سقطت النقطة ووقعا فى الأسر . واتهما بعدم إطاعة الأوامر ، وتم تخفيض رتبتيهما ، وحكم عليهما بالسجن سبع سنوات ، وهى عقوبة ربما كانت مناسبة ومفيدة فى تلك الظروف ، ولكنها كانت مصدراً لعدم ارتياح الإسرائيليين ، الذين كانوا ينظرون بصورة أكثر تشدداً وانتقاداً لمسلك وأخطاء قادتهم فى الحرب .

ومن المدهش أنه لم يتم عزل الجنرال شارون من قيادته على الفور بسبب مسلكه ، ولكن ليس واضحاً ما إذا كان من سلطة القائد العام أن يفعل ذلك منفرداً والأكثر إثارة للدهشة هى الطريقة التى كان موشى ديان وزير الدفاع يتعامل بها مع عدم انضباط شارون وعصيانه . فقد سمح ديان لشارون بأن يتصل به ، فيما يتعلق بأمور عسكرية ، من وراء ظهر القائد العام . وبأن يقنعه بإلغاء بعض أوامر القائد العام ، وبزعم أنه من أنصار الحرب المتحركة ، فقد قال شارون إنه ترك الجيش « من ناحية لأنه كان يعارض الدفاعات الثابتة » .. وخلال الحرب ، ورغم أنه كان عضواً فى حزب سياسى وهو الشيء الذى استفاد منه بالكامل ، فإنه لم يكن قد أصبح عضواً فى الكنيست حتى انتخب فى ديسمبر ١٩٧٣ . وقبل تركه للجيش مباشرة فى النهاية ليتولى مقعده فى الكنيست ، تجرأ شارون على الإدلاء بحديث صحفى انتقادى نشرته صحيفة « **نيويورك تايمز** » فى ١١ فبراير ١٩٧٤ . وفى حديثه عن استدعاء الجنرال بارليف للخدمة ، وصفه شارون بأنه « انتهازى سياسي وضعته الحكومة فى هذا المكان لتبرير التصرفات الضعيفة وحرمان أي ضابط آخر من الفضل الذى يستحقه ، قاصداً نفسه على الأرجح . وكان شارون لايزال غير منضبط ؛ وهكذا ، يصعب ألا يشك المرء فى وجود شيء من المحاباة السياسية ، حتى وإن كان هو وديان فى حزبين سياسيين متعارضين . أما على الجانب المصري ، فإن الرئيس السادات ، عندما اعتقد أن ذلك ضرورى ، لم يتردد فى عزل الفريق الشاذلى يوم ١٩ اكتوبر . كذلك ، فقد تم عزل بعض كبار الضباط السوريين الذين فشلوا فى المعركة بشكل فورى ؛ أما الأنباء التى تتحدث عن عمليات إعدام بالجملة ، فلابد أن يسقطها المرء من حسابه .

وتعرض كل من الدول الثلاث المتحاربة الرئيسية لخيبة أمل كبرى : السوريون لأنهم فشلوا بفارق ضئيل فى تقدمهم الأولى عبر هضبة الجولان . وتم ردهم إلى الخلف مرة أخرى ؛ والمصريون لأنهم لم يصلوا إلى الممرات ، ولأن الإسرائيليين اخترقوا الضفة الغربية ؛ والإسرائيليون بسبب فشلهم الأولى فى الاحتفاظ بخط بارليف صامداً ، ثم فشلهم بعد ذلك فى تحطيم كل الجسور المصرية ، وفى طرد المصريين من الضفة الغربية ، وفى إجبار الجيش الثالث المصرى على الاستسلام ، وفى اختراق خط ساسا السورى . وكانت خيبة أمل إسرائيلية أخرى (وأمريكية أيضاً) تتمثل فى فشلهم فى الاستيلاء على نظام التوجيه الرادارى لصواريخ سام ـ ٦ سليماً .

ولا يرغب أي من الجانبين فى مناقشة سلبياته أو أخطائه علناً . وفى هذا الصدد ، تبدو مصر أكثر صراحة ، حيث اعترف المصريون فى ندوتهم الدولية التى عقدت عام ١٩٧٥ فى القاهرة « بحدوث أخطاء تكتيكية ، وبقصور السوريين فى الاستخدام الجماعى للمدرعات ، وبعدم التنسيق بين الهجومين ، وبوجود ثغرة غير منسقة بين الجيش الثانى

والثالث » . وتحدث متحدث آخر فى نفس الندوة « عن قصور تكتيكى ، وأخطاء فى التنسيق ، وأحداث مؤسفة أخرى ، هبطت بفترة ذروة التفوق العربي من نسبة ٨ : ١٣ إلى نسبة ٨ : ١٠ فقط » . أما السوريون ، فيقولون فحسب إنهم « لم يكونوا مستعدين عسكرياً » . وعلى الجانب الآخر ، لا يعترف الإسرائيليون إلا بأنهم قد فوجئوا ، بينما يصرون على أنه بمجرد تغلبهم على الصدمة الأولية ، فقد سار كل شىء على ما يرام وتمكنوا من رد العرب على أعقابهم بصورة رائعة .

وعلى الجانب العربى ، يلقى المصريون باللوم على السوريين لأنهم خذلوهم . ويلقون على الشاذلى بمسئولية الاختراق الإسرائيلى للضفة الغربية . وفى سوريا ، ألقى بمسئولية الانتكاسات على كبار الضباط فى ميدان القتال ، ولكن النظام السورى لم يهتز . وعلى الجانب الإسرائيلى ، وباعتبار الحكومة والمجتمع بوجه عام أكثر انفتاحاً وقرباً من المجتمعات الغربية ، فقد كان من الملحوظ أن أياً من الزعماء السياسيين لم يكن مستعداً لقبول أى لوم أو الإحساس بأى ذنب إزاء السلبيات والنواقص ، كما لم تكن هناك أية استقالات على المستوى الوزارى ، مثلما كان يمكن أن يتوقع فى أية ديمقراطية غربية ، فرئيسة الوزراء جولدا مائير ظلت متمسكة بمنصبها ، حتى خاضت انتخابات ديسمبر . ومن الصحيح أن ديان عرض على رئيسة الوزراء استقالته فى ضعف مساء السابع من أكتوبر ، وكتبت عن هذه الحادثة تقول : « لقد قلت له - ولم أندم على ذلك مطلقاً - إنه لابد أن يظل وزيراً للدفاع » .

ولما كان القادة الإسرائيليون السياسيون والعسكريون على حد سواء يدركون أنهم قد أصبحوا من شخصيات التاريخ اليهودى فإن أياً منهم لم يكن ليعترف علناً بأنه مخطىء ، أو ارتكب أخطاء أو أساء التقدير ، أو أنه لم يكن تماماً الرجل الصحيح فى المكان الصحيح فى الوقت الصحيح - وكان ذلك يشمل رئيسة الوزراء جولدا مائير ووزير الدفاع ديان . والجنرالات من أمثال ألعازر وجونين ، وكان السياسيون يميلون إلى إلقاء اللوم على بعضهم البعض ، بينما راح الجنرالات يتعاركون ويتشاجرون علناً فيما بينهم . وفى هذه الظروف فإن قبول الفريق الشاذلى لعزله فى هدوء وإحساس بالكرامة كان أمراً محموداً بوجه خاص . وكان ياكوف شابيرو وزير العدل هو الوزير الوحيد الذى استقال من الحكومة الإسرائيلية فى ٣٠ أكتوبر ، بعد أن انتقد الطريقة التى أديرت بها الحرب .

ومثلما أصبح شائعاً هذه الأيام ، فإن كل المتحاربين يستخدمون الدعاية بشكل سافر ، ولكن مثلما يحدث أحياناً ، فإن الدعاية « السوداء » تزحف داخل الصورة أيضاً . فعلى سبيل المثال ، امتلأ الغرب خلال الأسبوع الأول من الحرب بقصص عن الفريق الشاذلى وذهابه إلى الخطوط الأمامية لكى يطلق النار بنفسه على الضباط والجنود الذين يهربون من المعركة . وليس هناك ذرة من الحقيقة فى هذه القصص ، ولكن مازال البعض يصدقها ،

ويشك البعض (أو يأملون) فى أنها حدثت . ومن بين أساليب الدعاية السوداء الأخرى ، تعمد تحريف كلمة بعينها من اقتباس من القرآن فى منشور كان يحمل عنوان « معتقداتنا الدينية ـ طريقنا إلى النصر » وجهه الفريق الشاذلى لكل الضباط والجنود عشية المعركة فالترجمة « السوداء » تقول : « اقتلوهم (الجنود الإسرائيليين) حيث وجدتموهم » بينما كانت الكلمة العربية التى استخدمها الشاذلى تقول « قاتلوهم حيث وجدتموهم » .

ولما كان الإسرائيليون أكثر تعوداً على ردود الفعل الغربية ، فقد كانوا أكثر حذراً وخبثاً وحرصاً على أن تكون الترجمات من العبرية مهذبة على نحو ملائم ، حيث من المعروف أن أجزاء من « العهد القديم » مكتوبة بلهجة شديدة الحدة . وبعد الحرب ، نشرت مجلة « **هاعولام هزه** » صورة لوثيقة ذكرت أنها تبين أن الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلى قد أصدر فتوى دينية تدعو الجنود الإسرائيليين لقتل المدنيين العرب ، وكتب أحد المصادر أن كتاباً صدر فى ذكرى قتلى الحرب الإسرائيليين تضمن جزءاً قال فيه الحاخام الأكبر للقيادة المركزية إنه يرى أن الشريعة اليهودية تسمح بقتل المدنيين خلال الأعمال الحربية ، وأنه « قبل نشر الوثيقة ، علم شخص ما فى القيادة المركزية بالمضمون الذى تدور حوله هذه الدعاية ، فألغيت الوثيقة وتم تدمير كل النسخ المطبوعة منها ـ باستثناء نسخة واحدة أفلتت » .

عند بدء الحرب كانت المعنويات تكاد أن تكون عكس ما كانت عليه عام ١٩٦٧ . فهذه المرة ، كان الانتشار والزهو من نصيب العرب ، بينما كان الإسرائيليون أكثر اكتئاباً من أى وقت مضى . وفى مصر ، على سبيل المثال ، ومع تقدم سير الحرب اتخذ الحماس الشعبى طابع الحماس الدينى ، إلى الحد الذى حدا بالرئيس السادات لأن يشير إلى أن اللواء فؤاد عزيز غالى ، قائد الفرقة ١٨ مشاة التى قامت بعبور رائع لقناة السويس ، هو مسيحى وليس مسلماً .

أما فى إسرائيل ، فقد كان هناك الانزعاج والاكتئاب وعدم الارتياح طوال الحرب . فكل الجنود الإسرائيليين كانوا يحملون أجهزة الراديو الترانزستور ، وكان بمقدورهم الاستماع إلى نشرات الأخبار الأجنبية ، إلى جانب نشرات أخبارهم الخاصة . التى كانت تميل مع الشائعات الداخلية عن الانتكاسات والخسائر الفادحة ، إلى إيجاد وتوسيع فجوة فى المصداقية وكما قيل كثيراً ، فإن الحقيقة تكون الضحية الأولى فى الحرب .

أما العرب فقد تكيفوا مع نشراتهم الإخبارية التليفزيونية والإذاعية ، التى كانت تتسم فى الأيام الأولى بضبط النفس ، ولا تعلن إلا مزاعم معتدلة نسبياً . فكان العرب الذين يستمعون إلى الإذاعات الأجنبية لا يصدقون أى شىء يتناقض مع ما تقوله إذاعاتهم . ومع تقدم سير الحرب ، أخذت الدقة تخبو فى النشرات الإخبارية العربية .

وحجبت حقائق كثيرة عن الشعب ، مثل مدى الانتكاسات على الجبهة السورية أو الاختراق الإسرائيلى للضفة الغربية ، أو أن الجيش الثالث محاصر ، أو حجم المساعدات السوفيتية .

ولم يعرف الإسرائيليون أيضاً كثيراً من الحقائق ، مثل سقوط مركز مراقبتهم فى جبل الشيخ بعد ظهر اليوم الأول من الحرب « فلم يذع ذلك إلا بعد عدة أيام » أو شجار الجنرالات أو الصاروخ « كيلت » الذى أطلقه المصريون ، أو أزمة الثقة فى القيادة العسكرية ، أو الحصار البترولى الذى فرضه العرب فى باب المندب ومدى فراغ أنابيب ومستودعات تخزين البترول الإسرائيلية . ولم يعرف الإسرائيليون أرقام خسائرهم الحقيقية ، ولكن كذلك أيضاً كان المصريون والسوريون ، ولم تنشر الحكومة الإسرائيلية سوى رقم أولى واحد يوم ١٤ أكتوبر ، وكان ٦٥٦ قتيلاً . ويفترض أن هذا الرقم كان يستبعد العدد الكبير من القتلى الذين سقطوا فى نفس ذلك اليوم فى معارك الدبابات على الجبهة المصرية وذلك فى محاولة لتهدئة الشائعات الهائجة والمزعجة المتداولة ، التى زاد من نشاطها اكتظاظ المستشفيات بالجرحى . وفيما بعد تحدث أفراد من الجنود الإسرائيليين عن الفوضى والارتباك الإدارى ، وعن نقص الأسلحة والمعدات والذخائر ، وعن الأوامر المتضاربة ، وعن الافتقار إلى الاتصال والانسجام بين زعمائهم السياسيين والجيش الإسرائيلى . وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣ أعلن مكتب الإحصاء المركزى فى إسرائيل أنه خلال الحرب ، عاد حوالى ١٦,٠٠٠ إسرائيلى من الخارج ، ولكن حوالى ٤,٠٠٠ غادروا إسرائيل فى نفس الفترة . وسبب هذا الرقم الأخير شيئاً من الدهشة فى إسرائيل وغيرها .

وفرضت الرقابة العسكرية فى البلدان المتحاربة ، كما فرضت قيود صارمة على المراسلين الأجانب . فكانت برقياتهم تمر على الرقابة ، كما كان يتم بوجه عام إبعادهم عن مناطق القتال ، بحيث كانوا يؤخذون فقط فى زيارات مخططة بدقة لأجزاء مختارة من الجبهة . وكان على الصحافة الأجنبية أن تعتمد بوجه عام على مثل هذه الزيارات ، مع إكمالها بالنشرات والتصريحات الرسمية التى كانت فى الغالب مبهمة ومتناقضة ومشوشة . وفى الحروب السابقة ، كانت البيانات العربية مضللة بصورة تتسم بالعبارات الطنانة التى غالباً ماكانت بعيدة عن الواقع ، على حين كانت البيانات الإسرائيلية تعكس أساليب أكثر براعة فى العلاقات العامة . فبينما كانت هذه البيانات أقرب إلى الواقع ، فإن صراحتها الانتقائية فى بعض الأمور كانت تغطى على ما تغفله من حقائق ، وعلى إبهامها فى أمور أخرى .

كذلك فإن الوضع الأمنى الداخلى كان يسبب بعض القلق للإسرائيليين ، لأن عدة آلاف من العرب ، الذين يعيشون فى الضفة الغربية لنهر الأردن وفى قطاع غزة ، وممن

كانوا يعملون عادة فى المشروعات الإسرائيلية ، كانوا يرفضون الاستمرار فى العمل ، وكانت هناك أيضا سلسلة من الهجمات الفدائية ضد الإسرائيليين فى القدس والخليل ونابلس وغيرها من المدن العربية .

وكانت رئيسة الوزراء جولدا مائير واحدة من أبرز الشخصيات التى مارست التأثير أو السيطرة على الأحداث خلال حرب أكتوبر ، إذ ربما كانت أقوى الشخصيات على الجانب الإسرائيلى ، حيث ظلت هادئة طوال الحرب ، وطغت على شخصية ديان وزير دفاعها . أما ديان ، بطل الحربين السابقتين ضد العرب ، ونظراً لخبرته العسكرية والسياسية الماضية ، وبحكم منصبه ، فقد كان متوقعاً أن يبرز باعتباره رجل إسرائيل القوى فى ساعة محنتها ، وأن يكون هو مخلصها ومنقذها . إلا أنه كان يبدو طوال الحرب متردداً وغير حاسم ومتشائماً . أما كبار الجنرالات الإسرائيليون ـ ألعازر وايتان وبيليد وماندلر وجونين وأدان ـ فقد شكلوا فريقاً متواضع القدرات فريق لم يكن متماسكاً على الدوام ، يفتقر فيما يبدو لشخصية مسيطرة توحدهم فوق صغائر احتمالات الترقى وعقد الهيبة والمكانة والدسائس الشخصية .

أما استدعاء كبار الجنرالات الذين كانوا قد دخلوا المجال السياسي ، والذى ربما كان إجراء اتخذ بلا تفكير فى لحظة ذعر بهدف إشاعة الثقة فى الإسرائيليين ، فإنه يبدو إجراء مشكوكاً فى حكمته . فبحكم أقدميتهم ورتبهم العسكرية فحسب ، كانوا يميلون لأن يطغوا على فريق الجنرالات العاملين ، الذين كانت مهمتهم خوض القتال الفعلى فى الحرب . ولم تكن لهم سلطات قيادية ، وكان وجودهم يثير الارتياب فى أن السياسة تتدخل فى عمل الآلة العسكرية بما يضر بكفاءتها . ولم يكن الجنرالات الذين تم استدعاؤهم يقتصرون على الوزراء فحسب ، مثل بارليف ؛ بل كان هناك أيضاً آخرون مثل الجنرال وايزمان وهو قائد سابق لسلاح الجو الإسرائيلى .

وعلى الجانب المصرى . ومثل جولدا مائير ، ظل الرئيس السادات بغليونه هادئاً ومتماسكاً طوال الحرب ، شأنه فى ذلك شأن الفريق أول إسماعيل ، أما الفريق الشاذلى فقد كان زئبقياً بدرجة أكبر . يتبدل ما بين التفاؤل المفرط عندما تكون الأمور على ما يرام ، وبين التشاؤم المفرط عندما لا تكون الأمور كذلك . وكان يوازنه إلى درجة كبيرة اللواء الجمسى مدير العمليات الذى ظل بارداً ومتزناً . وعلى الجانب السورى ، لم يكن يبدو أن الرئيس الأسد واللواء طلاس يتمتعان بنفس الأعصاب الحديدية والثقة والحسم . وكان فريق اللواءات السوريين أقل فاعلية من المصريين ، وكان يمكن أن تحل بهم كارثة ، لولا نصائح السوفييت ونفوذهم ومساعداتهم .

وماذا عن الاحتمالات المقبلة ؟ هل ستظل قلعة إسرائيل الحصينة متفوقة فى قوتها الاسبرطية ، أم سيختفى وجودها السياسي آخر الأمر من مسرح الشرق الأوسط ؟

لعدد من السنوات القادمة وبترسانتها المكدسة بالسلاح وبإجراءات تعزيز وتقوية قواتها المسلحة ، ستظل إسرائيل قادرة ، فى أى صدام مع العرب فى المستقبل ، على أن تصمد على الأقل ، إن لم تخرج منتصرة تماماً . إلا أن شرط ذلك إنما يتمثل فى أنه سيكون من الأصعب عليها بشكل متزايد فى كل مرة أن تؤكد تفوقها العسكرى ، الذى لا يمكن تحقيقه إلا بخسائر فادحة فى الأرواح - وهذه هى نقطة الضعف الأساسية القاتلة فى إسرائيل .

أما بالنسبة للمستقبل الأبعد ، فإن كثيراً من العوامل بعيدة الأجل تعمل لصالح العرب وضد الإسرائيليين - اتجاهات السكان ، وتحسن التكنولوجيا العربية وارتفاع مستوى التعليم العربى ، وتطوير التصنيع ، وتنويع إمدادات السلاح ربما بإقامة صناعات أسلحة عربية ، وتحسن العلاقات مع أوروبا الغربية وأمريكا . ففى يوم من الأيام ، قد تؤدى هذه العوامل ، وربما غيرها أيضاً إلى تعديل الميزان ضد إسرائيل صغيرة الحجم ، وفى الوقت الراهن ، لا تتمتع إسرائيل إلا بصديق حقيقى واحد - هو الولايات المتحدة - مستعد لأن تعتمد عليه إسرائيل ؛ على حين أنها تعانى من كثير من العيوب والسلبيات ، التى ليس أقلها شأناً ذلك الانخفاض الكبير فى معدلات الهجرة إلى إسرائيل والارتفاع فى معدلات النزوح منها ، وكما يقول هرتزوج إنه « فى عام ١٩٧٣ ، ثبت فشل مبدأ الردع الإسرائيلى » وهو استنتاج كئيب حقاً .

إن هناك فرصة للتفاوض بشأن تسوية طويلة الأجل ، يكون من شأنها أن تضمن بقاء إسرائيل دائماً كدولة مستقلة مقبولة من جانب جيرانها العرب ، وهو الشيء الذى يضمن استمرارها إلى الأبد . ولكن سيتعين على حكومة إسرائيل وزعمائها السياسيين أن يخففوا بعضاً من شروطهم غير المقبولة ، وأن يصبحوا أكثر تواضعاً ، وربما أن يخفضوا من أبصارهم قليلاً . وإذا لم تنتهز هذه الفرصة ، فربما تضيع بسرعة ، حيث قد تتحجر المواقف ، ولا سيما إذا ما تغيرت السياسة الخارجية الأمريكية وعادت إلى موقفها الانعزالى البعيد عن التورط فى الشئون الدولية . ويثير ذلك أمامنا شبح المملكة الصليبية المسيحية الأولى التى كانت تحكم فى وقت من الأوقات مساحة من فلسطين أكبر مما تضمه إسرائيل فى حدودها قبل عام ١٩٦٧ ، فقط لكى تزول بعد تسعة وتسعين عاماً بتأثير عمليات النحر والتآكل الأزلية فى الشرق الأوسط وإذا ما حدث ذلك ، ستظهر مرة أخرى مشكلة يهودية عالمية لتحل محل المشكلة الإسرائيلية الحالية ؛ وأى أمة تلك التى ستدافع عن القضية اليهودية ؟ فلكى يحصل المرء على الأمن غداً ، لابد أن يتغلب على مخاوف وتحيزات اليوم .

دليـــل الكتـــاب



رقم الايداع ١٩٨٧/٨٧٠٣
٥ - ٣٨٧ - ١٠٣ - ٩٧٧